بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض
سابقاً

الجزء الرابع

الطبعة التاسعة عشر
١٤١٠هـ



بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم واحكام وقواعد ومواعظ وآداب واخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه

عبد العزيز المحمد السلمان

المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

سابقاً

الجزء الرابع

الطبعة التاسعة عشر

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةِ من يَبْتَغِي بذلك وَجْهَ اللهِ والدار الآخرة فَجَزاه اللهُ عن الإسلام والمسلمينَ خيراً وغَفَر له ولوالديه ولمن يُعيدُ طِبَاعَتَه أو يُعيْنُ عليها أو يَتَسبَب لها أو يُشيرُ على مَنْ يُؤمِلُ فيه الخيرَ أن يَطبَعَه وقفاً لِلّهِ تعالى يُوزَّع على إخوانِهِ المسلمين

اللهم صلى على محمد وعلى آله وسلم

١٤١٠ هـ

(فَصْــــــلٌ)

« فِي نَماذجَ مِنْ الفِرَاسَةِ »

وكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ فِرَاسَةٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أُتِيَ يَوْماً بِفَتىً أَمْرَدٍ قَدْ وُجِدَ قَتِيْلاً مُلْقىً عَلَى الأَرْضِ فسَأَلَ عُمَرُ عَنْ امْرِهِ وَاجْتَهَدَ فَلَمْ يَقِفْ لَهُ عَلَى خَبَرٍ فشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْه .

فَقَالَ اللهُمَّ أَظْفِرْنِيْ بقَاتله حَتَّى إذَا كَانَ عَلَى رَأْسِ الحَوْلِ وُجِدَ صَبِيٌّ مَوْلُوْدٌ مُلْقىً بمَوْضِعِ القَتِيْلِ فَأُتِيَ بِهِ عُمَرُ فَقَالَ ظَفِرْتُ بِدَمِ القَتِيْلِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إلى امْرَأَةٍ تُرْضِعُهُ وَتَقُومُ بشَأْنِه وَقَالَ خُذِيْ مِنَّا نَفَقَتَهُ وَانْظُرِيْ مَنْ يَأْخُذُهُ مِنْكِ فإذا وَجَدْتِ امْرَأَةً تُقَبِّلُهُ وَتَضُمُّهُ إلى صَدْرِهَا فَأَعْلِمِينِيْ بِمَكَانِها .

فَلَمَّا شَبَّ الصَّبِيُّ جَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ لِلْمَرْأةِ إنَّ سَيِّدَتِي بَعَثَتْنِي إلَيْكَ لِتَبْعَثِي بالصَّبِيّ لِتَرَاهُ وَتَرُدُّهُ إلَيْكِ قَالَتْ نَعَمْ إذْهَبِي بِهِ إِلَيْهَا وَأَنَا مَعَكِ فَذَهَبتْ بِالصَّبِيِّ وَالمَرْأةُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى سَيِّدَتِهَا فَلَمَّا رَأَتْهُ أخَذَتْهُ فَقَبَّلَتْهُ وَضَمَّتْهُ إِلَيْهَا .

فَإذَا هِيَ ابْنَةُ شَيْخٍ مِنْ الأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ النبيّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأتَتْ عُمَرَ فَخَبَّرَتْهُ فَاشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى مَنْزِلِ المَرْأةِ فَوَجَدَ أبَاهَا مُتَّكِئاً عَلَى البَابِ فَقَالَ يَا فُلاَنُ مَا فَعَلَتْ ابْنَتُكَ فُلاَنَةُ قَالَ جَزاهَا اللهُ خَيْراً يَا أميرَ المُؤْمِنِيْنَ هِيَ مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِحَقِّ اللهِ وَحَقِّ أَبِيْهَا مَعَ حُسْنِ صَلاَتِهَا وَصِيَامِهَا وَالقِيَامِ بِدِيْنِها .

فَقَالَ عُمَرُ قَدْ أَحْبَبْتُ أَن أَدْخُلَ إِلَيْهَا فَأَزِيْدَهَا رَغْبَةً في الخَيْرِ وَأُحُثَّهَا عَلَيْهِ فَدَخَلَ أَبُوها وَدَخَلَ عُمَرُ مَعَهُ فَأَمَرَ مَنْ عِنْدَهَا فَخَرَجَ وَبَقِيَ هُوَ وَالمَرْأَةُ في البَيْتِ فَكَشَفَ عُمَرُ عَن السَّيْفِ وَقَالَ لَتَصْدُقِيْنِي وَ إِلاَّ ضَرَبْتُ عُنُقَكِ وَكَانَ لا يَكْذِبُ .

فَقَالَتْ عَلَى رِسْلِكَ فَوَاللّهِ لأَصْدُقَنَّ إِنَّ عَجُوْزاً كَانَتْ تَدْخُلُ عَلَيَّ فاتَّخذْتُهَا أَمّاً وَكَانَتْ تَقُومُ مِنْ أَمْرِيْ كَمَا تَقُومُ بِهِ الوَالِدَةُ وَكُنْتُ لَهَا بِمَنْزِلَةِ البِنْتِ فَمَضَى لِذَلِكَ حِيْنٌ ثمَّ إِنَّها قَالَتْ يَا بُنَيَّةُ إِنّهُ قَدْ عَرَضَ لِيْ سَفَرٌ وَلِيْ ابْنَةٌ فِي مَوْضِعٍ أَتَخَوَّفُ عَلَيْهَا فِيْهِ أَنْ تضِيْعَ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَضُمَّهَا إِلَيْكِ حَتَّى أَرْجِعَ مِنْ سَفِرِيْ .

فَعَمَدَتْ إِلَى ابْنٍ لَهَا شَابٍّ أَمْرَدٍ فَهَيَّئَتْهُ كَهَيْئَةِ الجَارِيَةِ وَأَتَتْنِيْ بِهِ وَلاَ أَشُكُّ أَنَّهُ جَارِيَةٌ فَكَانَ يَرَى مِنِّي مَا تَرَى الجَارِيَةُ مِن الجَارِيَةِ حَتَّى اغْتَفَلَنِي يَوْماً وَأَنَا نَائِمَةٌ فَمَا شَعَرْتُ حَتَّى عَلاَنِيْ وَخَالَطَنِيْ فَمَدَدْتُ يَدِيْ إِلى شَفْرَةٍ كَانَتْ إِلى جَنْبِيْ فَقَتَلْتُهُ .

ثُمَّ أَمَرْتُ بِهِ فَأُلْقِيَ حَيْثُ رَأَيْتَ فَاشْتَمَلْتُ مِنْهُ عَلَى هَذَا الصَّبِيِّ فَلَمَّا وَضَعْتُهُ أَلْقَيْتُهُ في مَوْضِعِ أَبِيْهِ فَهَذَا واللّهِ خَبَرُهُمَا عَلَى مَا أَعْلَمْتُكَ .

فَقَالَتْ صَدَقْتِ ثُمَّ أَوْصَاهَا وَدَعَا لَهَا وَخَرَجَ وَقَالَ لأَبِيْها نِعْمَ الابْنَةُ ابْنَتُكَ ثُمَّ انْصَرَفَ .

وَقَالَ نَافِعُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ رَأَى رَجُلاً فَقَالَ لَسْتُ ذَا دِرَايَةٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ كَانَ يَنْظُرُ في الكِهَانَةِ ادْعُوْهُ لِي فَدَعَوْهُ فَقَالَ هَلْ كُنْتَ تَنْظُرُ وَتَقُوْلُ في الكِهَانَةِ شَيْئاً قَالَ نَعَمْ .

وَقَالَ مَالِكُ عَنْ يَحْيَ بْنِ سَعِيْدٍ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ قَالَ لِرَجُلٍ ما اسْمُكَ قَالَ جَمْرَةُ قَالَ ابْنُ مَنْ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ قَالَ مِمَّنْ قَالَ مِنَ الحُرْقَةِ قَالَ أَيْنَ

مَسْكَنُكَ قَالَ بِحَرَّةِ النَّارِ قَالَ أَيُّهَا قَالَ بِذَاتِ لَظَى فَقَالَ عُمَرُ أَدْرِكْ أَهْلَكَ فَقَدْ احْتَرَقُوا فَكَانَ كَمَا قَالَ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ ابْرَاهِيْمَ مُصَلَّى فَنَزَلَتْ الآيَةُ ﴿ وَاتَّخِذُوْا مِنْ مَقَامِ ابْرَاهِيْمَ مُصَلَّى ﴾ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَمَرْتَ نِسَائَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ وَاجْتَمَعَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاؤُهُ فِي الغَيْرَةِ فَقَالَ لَهُنَّ عُمَرُ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ فَنَزَلَتْ كَذَلِكَ .

وَشَاوَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ فَأَشَارَ بِقَتْلِهِمْ وَنَزَلَ القُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ وَرَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيْهِ ، قَالَ قَدِمَتْ عَلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عنه حُلَلٌ مِنْ اليَمَنِ فَقَسَمَها بَيْنَ النَّاسِ فَرَأى فِيْهَا حُلَّةً رَدِيْئَةً فَقَالَ كَيْفَ أَصْنَعُ بِهَذِهِ إِنَّ أَحَداً لَمْ يَقْبَلْهَا فَطَوَاهَا وَجَعَلَهَا تَحْتَ مَجْلِسِهِ وَأَخْرَجَ طَرَفَهَا وَوَضَعَ الحُلَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَقْسِمُ بَيْنَ النَّاسِ .

فَدَخَلَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلى تِلْكَ الحُلَّةِ ، فَقَالَ مَا هَذِهِ الحُلةُ فَقَالَ عُمَرُ دَعْهَا عَنْكَ قَالَ مَا شَأْنُها قَالَ دَعْهَا قَالَ فأعْطِنِيْهَا قَالَ إِنَّكَ لاَ تَرْضَاهَا ، قَالَ بَلَى قَدْ رَضِيْتُهَا فَلَمَّا تَوَثَّقَ مِنْهُ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لا يَرُدَّهَا رَمَى بِهَا إِلَيْهِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا إذا هِيَ رَدِيْئَةٌ قَالَ لا أُرِيْدُهَا قَالَ عُمَرُ هَيْهَاتَ قَدْ فَرَغْتُ مِنْهَا فَأَجَازَهَا عَلَيْهِ وَلَمْ يَقْبَلْهَا .

اللهُمَّ وَفِّقْنَا لِلْهِدَايَةِ وَأَبْعِدْنَا عَنْ أَسْبَابِ الجَهَالَةِ وَالغَوَايَةِ اللهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى الإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ وَلاَ تُزِغْ قُلُوْبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَاوَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ الوَهَّابُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَاصَمَ غُلَامٌ مِنَ الأنْصَارِ أُمَّهُ إلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه فجَحَدَتْهُ فسَأَلَهُ البَيِّنَة فَلَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ وَجَاءتْ المَرْأَةُ بِنَفَرٍ فَشَهِدُوا أَنَّها لَمْ تَتَزَوَّجْ وَأنَّ الغُلَامَ كَاذِبٌ عَلَيْهَا وَقَدْ قَذَفَها فَأمَرَ عُمَرُ بِضَرْبِهِ .

فَلَقِيَهُ عَلِيّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ فَسَأَلَهُ عَنْ أَمْرِهِمْ فَأَخْبَرَهُ فَدَعَاهُمْ ثُمَّ قَعَدَ في مَسْجِدِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم وسَأَلَ المَرْأَةَ فَجَحَدَتْ فَقَالَ لِلغُلَامِ اجْحَدْهَا كَمَا جَحَدَتْكَ فَقَالَ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلَّم إنَّها أُمِّيْ قَالَ اجْحَدْهَا وَأنَا أَبُوْكَ وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ أخَوَاكَ .

قَالَ قَدْ جَحَدْتُهَا وَأَنْكَرْتُهَا فَقَالَ عَلِيٌّ لأوْلِيَاءِ المَرْأَةِ أَمْرِيْ فِي هَذِهِ المَرْأَةِ جَائِزٌ قَالُوا نَعَمْ وَفِيْنَا أَيْضاً فَقَالَ أُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُ هَذَا الغُلَامَ مِنْ هَذِهِ المَرْأَةِ الغَرِيْبَةِ مِنْهُ يَا قَنْبَرُ ائْتِنِيْ بِدَرَاهِمَ فَأتَاهُ فَعَدَّ أرْبَعْمَائَةٍ وَثَمَانِيْنَ دِرْهَماً فَقَذَفَهَا مَهْراً لَهَا .

وَقَالَ لِلْغُلَامِ خُذْ بَيَدِ امْرَأَتِكَ وَلَا تَأْتِنَا إلَّا وَعَلَيْكَ أَثَرُ العُرْسِ فَلَمَّا وَلَى قَالَتْ المَرْأَةُ يَا أَبَا الحَسَنِ اللهَ اللهَ هُوَ النَّارُ هُوَ واللهِ ابْنِيْ .

قَالَ وَكَيْفَ ذَلِكَ قَالَتْ إنَّ أَبَاهُ كَانَ هَجِيْناً ـ الهَجِيْنُ عَرَبِيّ وُلِدَ مِنْ أَمَةٍ أَوْ مَنْ أَبُوْهُ خَيْرٌ مِنْ أُمِّهِ ـ وَإنَّ إخْوَتِيْ زَوَّجُونِيْ مِنْهُ فَحَمَلْتُ بِهَذَا الغُلَامِ وَخَرَجَ الرَّجُلُ غَازِياً فَقُتِلَ وَبَعَثْتُ بِهَذَا إلى حَيّ بَنِيْ فُلَانٍ فَنَشَأَ فِيْهِمْ وَأَنِفْتُ أنْ يَكُوْنَ ابْنِيْ فَقَالَ عَلِيٌّ أنا أَبُو الحَسَنِ وَأَلْحَقَهُ بِهَا وَثَبَّتَ نَسَبَهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ سَأَلَ رَجُلًا كَيْفَ أَنْتَ فَقَالَ مِمَّنْ يُحِبُّ

الفِتْنَةَ وَيكْرَهُ الحَقَّ وَيشْهَدُ عَلَى مَا لَمْ يَرَهُ . فَأمَرَ بِهِ إلى السِّجْنِ فأَمَرَ عَليٌّ بِرَدِّهِ فَقَالَ صَدَقَ ، فَقَالَ كَيْفَ صَدَّقتَهُ قَالَ يُحِبُّ المالَ وَالوَلَدَ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿إنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾وَيَكْرَهُ المَوْتَ وَهُوَ الحَقُّ وَيَشْهَدُ أنّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَلَمْ يَرَهُ فَأَمَرَ عُمَرُ بِإطْلاَقِهِ وَقَالَ « اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وَشَكَا شَـابٌ إلى عَليّ نَفَراً فقَالَ إنَّ هؤلاء خَرَجُوا مَعَ أَبِيْ في سَفَرٍ فَعَادُوا وَلَمْ يَعُدْ أبِي فَسَألْتُهُمْ عَنْهُ فَقَالُوا مَاتَ فَسَأَلْتُهُم عَنْ مَالِهِ فَقَالُوا مَا تَرَكَ شَيْئاً وَكَانَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيْرٌ وَتَرَافَعْنَا إلى شُرَيْحٍ فَاسْتَحْلَفَهُم وَخَلَّى سَبِيْلَهُم .

فَدَعَا عَلِيٌّ بِالشُّرَطِ فَوَكَّلَ بِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُم رَجُلَيْنِ وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لا يُمْكِّنُوا بَعْضَهُمْ أنْ يَدْنُوَ مِنْ بَعْضٍ وَلاَ يُمَكِّنُوا أحَداً يُكَلِّمُهُمْ وَدعَا كَاتِبَهُ وَدَعا أحَدَهُمْ فَقَالَ أخْبِرْنِي عَنْ أَبِ هَذَا الفَتَى أيَّ يَوْمٍ خَرَجَ مَعَكُمْ وفي أيِّ مَنْزِلٍ نَزَلْتُمْ وَكَيْفَ كَانَ سَيْرُكُمْ وَبأيِّ عِلَّةٍ مَاتَ وَكَيْفَ أُصِيْبَ بِمَالِهِ وَسألَهُ عَمَّنْ غَسَّلَهُ وَدفَنَهُ وَمَنْ تَوَلَّى الصَّلاَةَ عَلَيْهِ وَأَيْنَ دُفِنَ وَنَحوِ ذَلِكَ وَالكاتِبُ يَكْتُبُ فَكَبَّرَ عَلِيٌّ وَكَبَّرَ الحَاضِرُوْنَ وَالمُتَّهَمُوْنَ لاَ عِلْمَ لَهُمْ إلاّ أنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَهُم قَدْ أَقَرَّ عَلَيْهِم .

ثُمَّ دَعَا آخَرَ بَعْدَ أنْ غَيَّبَ الأَوَّلَ عَنْ مَجْلِسِهِ فَسَألَهُ كَمَا سَأَلَ صَاحِبَهُ ثُمَّ الآخَرَ كَذَلِكَ حَتَّى عَرَفَ ما عِنْدَ الجَمِيْعِ فَوَجَدَ كُلَّ وَاحِدٍ يُخْبِرُ بِضِدِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ صَاحِبُهُ ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ الأَوَّلِ فقَالَ يَا عَدُوَّ اللهِ قَدْ عَرَفْتُ غَدْرَتَكَ وَكَذِبَكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ أَصْحَابِكَ ومَا يُنْجِيْكَ مِن العُقُوْبَةِ إلا الصِّدْقُ ثُمَّ أمَرَ بِهِ إلى السِّجْنِ ،وَكَبَّرَ وَكَبَّرَ مَعَهُ الحَاضِرُوْنَ .

فَلَمَّا أَبْصَرَ القَوْمُ الحَالَ لم يَشُكُّوا أَنَّ صَاحِبَهُمْ أَقَرَّ عَلَيْهِمْ فَدَعَا آخَرَ مِنْهُمْ فَهَدَّدَهُ فَقَالَ يَا أَمِيْرَ المؤْمِنِيْنَ وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ كَارِهاً لِمَا صَنَعُوا ثُمَّ دَعَا الجَمِيْعَ

فَأقَرُّوا بالقِصَّةِ وَاسْتَدْعَى الذِي في السِّجْنِ وَقَالَ لَهُ قَدْ أَقَرَّ أَصْحَابك وَلاَ يُنْجِيْكَ سِوَى الصِّدْق فَأقَرَّ بكُلِّ مَا أقَرَّ بِهِ القَوْمُ فَأغْرَمَهُمْ المالُ وَأقَادَ مِنْهُمْ بِالقَتِيْلِ .

اللَّهُمَّ أرْحَمْ غُرْبَتَنَا فِي القُبُورِ وَآمِنَّا يَوْمَ البَعْثِ والنُّشُوْرِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصل)

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ دَفعا إلَى امْرَأةٍ مِائَةَ دِيْنَارٍ وَدِيْعَة وَقَالاَ لاَ تَدْفَعِيْهَا إلى وَاحِدٍ مِنّا إلا وَمَعَهُ صَاحِبُه فَلَبَثَا حَوْلاً فَجَاءَ أحَدُهُمَا فقَال إنَّ صَاحِبِي قَدْ مَاتَ فَادْفَعِيْ إليَّ الدَّنَانِيْرَ فَأبَتْ وَقَالَتْ إنَّكُمَا قُلْتُمَا لا تَدفِعِيْهَا إلى وَاحِدٍ مِنّا دُوْنَ صَاحِبِه فَلَسْتُ بِدَافِعَتِهَا إلَيْكَ ، فَثَقَّلَ عَلَيْهَا بِأهْلِهَا وَجِيْرَانِهَا حَتَّى دَفَعْتَهَا إلَيْهِ .

ثُمَّ لَبِثَتْ حَوْلاً آخرَ فَجَاءَ الآخَرُ فقَالَ ادْفَعِيْ إلَيَّ الدَّنَانِيْرَ فَقَالَتْ إنَّ صَاحِبَكَ جَاءَنِيْ فَزَعَمَ أنكَ قَدْ مُتَّ فَدَفعْتُهَا إلَيْهِ فَاخْتَصَمَا إلَى عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ فَأرَادَ أنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا فقالَتْ ادْفَعْنَا إلَى عَلِيّ بْنِ أَبِيْ طَالِبٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ فعَرفَ عَلِيّ أنَّهُمَا قَدْ مَكَرا بِهَا .

فَقَالَ ألَيْسَ قُلْتُمَا لا تَدْفَعِيْهَا إلَى وَاحِدٍ مِنَّا دُوْنَ صَاحِبِه قَالَ بَلَى قَالَ مَالُكَ عِنْدَها فَاذْهَبْ فَجِيءْ بِصَاحِبَكَ حَتَّى تَدْفَعهُ إلَيْكما .

وَاخْتَصَمَ إلَى إيَاسٍ بْنِ مُعَاوِيَةَ رجُلانِ فقَالَ أَحَدُهُمَا إنَّهُ بَاعِنِيْ جَارِيَة رَعْنَا فَقَالَ إيَاسٌ وَما عَسَى أنْ تَكُوْنَ هَذِهِ الرُّعُوْنَةُ قَالَ شِبْهُ الجُنونُ فَقَالَ إيَاسٌ لِلْجَارِيَةِ أتَذْكُرِيْنَ مَتى وُلِدْتِيْ قَالَتْ نَعَمْ قَالَ فأيُّ رِجْلِيْكِ أطوَلُ قَالَتْ هَذِهِ فقال إيَاسٌ رُدَّهَا فَانَّهَا مَجْنُونَةٌ .

وَتَقَدَّمَ إلى إيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ فَقَالَ إيَاسٌ أَمَّا احْدَاهُنَّ فَحامِلٌ وَالأُخرى مُرْضِعٌ وَالآخرىٰ ثيِّبٌ وَالاخْرى بِكْرٌ فَنظَرُوا فَوَجَدوا الأَمْرَ كَما قَالَ قَالُوا كَيْفَ عَرَفْتَ ، فَقَالَ أَمَّا الحامِلُ فَتَرْفَع ثَوْبَها عَنْ بَطْنِها وَهِيَ تُكَلمُنِي فَعلِمْتَ أنَّها حَامِلٌ وأمَّا المُرضِعُ فكانَتْ تَضْرِبُ ثدْيَها فَعلِمْتُ أنها مُرْضِعٌ ، وأمَّا الثَّيِّبُ فكانتْ تُكَلِّمُنِي وَعينُها في عَيْنِيْ فعلِمْتُ أنَّها ثيِّبٌ .

وَأَمَّا البِكْرُ فَكَانَتْ تُكَلِّمُنِيْ وَعَيْنُهَا في الأَرْضِ فَعَلِمْتَ أَنَّهَا بِكْرٌ ، وقَالَ المدَائِنِيّ عَنْ رَوْحٍ اسْتَوْدَعَ رَجُلٌ رَجُلا مِنْ أبْنَاءِ النَّاسِ مَالاً ثُمَّ رَجَعَ فطلَبَهُ فَجحَدَ فأتَا إيَاساً فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لهُ إيَاسُ انْصرِفْ فَاكْتُمْ أمْرَكَ وَلا تُعْلِمْهُ أنَّكَ أَتَيْتَنِي ثم عُدْ إليَّ بَعْدَ يَوْمَيْنِ .

فَدَعَا إيَاسُ المُودَعَ فَقَالَ قَدْ حضَرَ مَالٌ كَثِيْرٌ وَأرِيْدُ أنْ أُسَلِّمَهُ إلَيْكَ أفَحَصِيْنٌ مَنْزِلُكَ قالَ نَعَمْ قَالَ فأعِدَّ لهُ مَوْضِعاً وَحَمَّالِيْنَ وَعادَ الرَّجُلُ صَاحِبُ الوَدِيْعَةِ إلى إيَاسٍ .

فَقَالَ انْطَلِقْ إلى صَاحِبَكَ فاطْلُبْ المَالَ فَإنْ أعْطَاكَ فَذَاكَ وَإنْ جَحَدَكَ فقُلْ لَهُ إنِّيْ أخبِرُ القاضِيْ فأتى الرَّجُلُ صَاحِبَهُ فَقالَ مَالِيْ وَإلا أتَيْتُ القَاضِيْ وَشَكْوتُ إليْهِ وَأخْبَرْتُه بِأمْري ، فَدَفَعَ إلَيْهِ مَالَهُ فَرَجَع الرَّجُلُ إلى إيَاسٍ فَقَالَ قَدْ أعْطَانِيْ المالَ .

وَجَاءَ الأَمِيْنُ إلَى إيَاسٍ لِوَعْدِهِ فَزَجَرَهَ وَانْتَهَرَهُ وَخَجَّلَهُ وَقَالَ لاَ تَقْرَبْنِيْ يَا خَائِنُ . وَتَقلَدَ القَضَاءَ بِوَاسَطَ رَجُلٌ ثِقَةٌ فَأوْدَعَ رَجُلٌ بَعْضَ شُهَودِهِ كِيْساً مَخْتُومَاً ذَكَر أنَّ فِيْهِ ألفَ دِيْنَارٍ .

فَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَةُ الرَّجُلِ فَتَقَ الشَّاهِدُ الكِيْسَ مِنْ أسْفَلِهِ وَأَخَذَ الدَّنانِيْرَ وَجَعَلَ مَكانَها دَرَاهِمَ وأعَادَ الخِيَاطَةَ كَمَا كَانَتْ .

وَجاءَ صَاحِبُ الكِيْسِ فَطَلَبَ وَدِيْعَتَهُ فَدَفَعَ إلَيْهِ الكِيْسَ بِخَتْمِهِ لَمْ يَتَغَيّر فلمَّا فتحهُ وَشَاهَدَ الحَالَ رَجَعَ إليْهِ وَقَالَ إنّيْ أوْدَعْتُكَ دَنَانِيْرَ وَالتِي دَفَعْتَ إليَّ دَراهِمَ فقَالَ هُوَ كِيْسُكَ بِخَاتَمِكَ فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ القَاضِيْ فأمَرَ بإحْضَارِ المُوْدَعِ فلمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ القَاضِيْ مُنْذُ كَمْ أوْدَعَكَ هَذَا الكِيْسُ فقالَ مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ سَنَةً .

فَأَخَذَ القَاضِيْ تِلْكَ الدَّرَاهِمَ وَقَرَأَ سِكَّتَها فاذا فِيْهَا مَا قَدْ ضُرِبَ مِنْ سَنَتَينِ وَثَلاثٍ فَأمَرهُ بِدَفْعِ الدَّنَانِيْرِ إلَيْهِ وَأَسْقَطَهُ وَنَادَى عَلَيْهِ ، وَاسْتَوْدَعَ رَجُلٌ لِغَيْرِهِ مَالاً فَجَحَدهُ فَرفَعَهُ إلى إيَاسٍ فَسَألهُ فأنكَرَ .

فَقَالَ لِلْمُدَّعِيْ أيْنَ دَفعْتَ إلَيْهِ فَقَالَ في مَكَانٍ كَذا في البَرِّيَّةِ فَقَالَ وَمَا كانَ هُنَاكَ قَالَ شَجَرةٌ قَالَ اذْهَبْ إلَيْهَا فَلَعَلَّكَ دَفَنْتَ المَالَ عِنْدَها وَنَسِيْتَ فَتَذْكُرَ إذَا رَأيْتَ الشَّجَرَةَ فمَضَى وقَالَ لِلْخَصْمِ اجْلِسْ حَتَّى يَرْجِعَ صَاحِبُكَ وَإيَاسٌ يَقْضِيْ وَيَنْظُرُ إلَيْهِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةً .

ثُمَّ قَالَ يَا هَذَا أتَرَى صَاحِبَكَ بَلَغَ مَكَانَ الشَّجَرَةِ قَالَ لا قَالَ يَا عَدُوَّ اللهِ إنَّكَ خائِنٌ قَالَ أقِلْنِيْ قَالَ أقَالَكَ اللهُ فأمَرَ مَنْ يَحْتَفِظُ بِهِ حَتَّى جَاءَ الرَّجُلُ فقالَ لهُ أيَاسٌ اذْهَبْ مَعَهُ فَخُذْ حَقَّكَ .

وَتَقَدَّمَ رَجُلٌ شَيْخٌ أيْ كَبِيْرُ السِّنِّ ومَعهُ غُلامٌ حَدَثٌ أيْ صَغِيْرٌ إلى القَاضِيْ أبِي حَازِمٍ فَادّعَى الشَّيْخُ عَلى الغُلامِ بألِفْ دِيْنَارٍ دَيْناً فَقَالَ مَا تَقُولَ قَالَ نَعْمَ فَقالَ القَاضِيْ لِلشَّيْخِ مَا تُرِيْدُ قالَ احِبْسُه قَالَ لا .

فَقَالَ الشَّيْخُ إنْ رَأى القَاضِيْ أنْ يَحْبِسَهُ فَهُوَ أرْجَى لِحُصُولِ مَالِي فَتَفَرَّسَ أبُو حَازِمٍ فِيْهَما سَاعَةً ثم قالَ تَلازَما حَتّى أنْظُرَ في أمْرِكُمَا في مَجْلِسٍ آخرَ فقَالَ لَهُ مُكْرِمُ بْنُ احْمَدٍ لِمَاذَا أخَرَّتَ حَبْسَهُ فَقَالَ وَيْحَكَ إنِّيْ أعْرِفُ في

أَكْثَرِ الأَحْوَالِ في وُجُوهِ الخُصُوْمِ وَجْهَ المُحِقِّ مِن المُبْطِلِ وَقدْ صَارَتْ لِيْ بذلِكَ دِرَاية لا تكادُ تُخْطِىء .

وَقَدْ وَقَعَ لِيْ أنَّ سَمَاحَهُ هَذا بالاقْرَارِ عَيْنُ كَذِبه وَلَعَلَّهُ يَنْكَشِفُ لِي من أمْرِهِمَا مَا أكُوْنُ مَعَهُ على بَصِيْرةٍ أمَا رَأَيْتَ قِلَّةَ تَعَاصِيْهِمَا في المُناكَرَةِ وقِلَّةِ اخْتِلافِهِمَا وَسُكُون طِبَاعِهِمَا مَعَ عِظَمِ المالِ ومَا جَرَتْ عَادَاتُ الأَحْدَاثِ بِفرْطِ التَّوَرُّعِ حَتَّى يُقِرَّ بِمِثْلِهِ طَوْعاً عَجِلاً مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ عَلى هَذَا المالِ .

قَالَ وَنَحْنُ عَلى ذَلِكَ نَتَحَدَّثُ إذْ أتَى الآذِن يَسْتَأْذِنُ عَلى القَاضِيْ لِبَعْضِ التُّجَّار فَأَذِنَ لَهُ فَلَمَّا دَخَل قَالَ أصْلَحَ القَاضِيْ إنِّيْ بُلِيْتُ بوَلَدٍ حَدَثٍ صغِيْرٍ يُتْلِفُ كُلَّ مَا يَظْفَرُ بِهِ مِنْ مَالِيْ في القِنَانِ عِنْدَ فُلاَنٍ فَإذَا مَنَعْتُهُ احْتَالَ بِحِيَلٍ تَضْطَرُّنِيْ إلَى الْتِزَام العُزْمِ عَنْهُ .

وَقَدْ نَصَبَ اليَوْمَ صَاحِبُ القِنَانِ يُطَالِبُ بِأَلْفَ دِيْنَارٍ حَالاً وَبَلَغَنِيْ أَنَّهُ تَقَدَّمَ إلى القَاضِيْ لِيُقِرَّ لَهُ فَيَسْجُنَهُ وَأَقَعُ مَعَ أُمِّهُ فِيْمَا يُنَكِّدَ عَيْشَنَا إلَى أنْ أَقْضِيَ عَنْهُ فَلَمَّا سَمِعْتُ بِذلِكَ بَادَرْتُ إلى القَاضِيْ لأشْرَحَ لَهُ أمْرَهُ .

فَتَبَسَّمَ القَاضِيْ وَقَالَ كَيْفَ رَأَيْتَ فَقُلْتُ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلى القَاضِيْ فَقَالَ عَلَيَّ بالغُلامِ والشَّيْخِ وَوَعَظَ الغُلامَ فَأَقَرَّ فَأَخَذَ الرَّجُلُ ابْنَهُ وانْصَرَفَا .

قال عَمْرو بن نُجَيْد كان شَاهُ الكَرْمَاني حَادُ الفِرَاسَةِ لا يُخْطِي ويَقُولُ مَن غَضَّ بَصَرَهُ عن المَحَارِم وَأَمْسَكَ نَفَسَهُ عَن الشهوات وَعَمَرَ بَاطِنَهُ بالمُرَاقَبَةِ وظَاهِرَهُ باتباع السُنة وتعَوَّدَ أَكْلَ الحَلال لم تُخْطِىء فِرَاسَتُه .

والهُ أعْلَمُ وَصَلى اللَّهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبهِ وَسَلَّمَ .

مَوعظة : عِبَادَ اللَّهِ تَيَقَّظُوا فَالعِبَرُ مِنْكُم بمَرْأى وَمَسْمَع ، وَطَالَمَا نَادَاكُم لِسَانُ الزَّوَاجر عَن الانْهِمَاكِ في الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا وَالتَّهالُكِ عَلَيْهَا فَاسْمَعَ .

عِبَادَ اَللَّهِ احْذَرُوا أنْ تَكُونُوا مِثْلَ مَنْ قَدْ مَحَّضُوْا لِلْدُّنْيَا كُلَّ مَا لَهُم مِنْ أعْمَالٍ وَأَصْبَحُوا لا يَقْصِدُونَ بِتَصرُّفَاتِهِمْ إلاَّ الدنْيَا وأمّا الآخِرَة فلا تَخْطُرُ لَهُمْ عَلى بَالٍ .

أَخَـذَتْ الـدُّنْيَا أسْـمَاعَهُمْ وأبْصَارَهُمْ وعُقُولَهُم بِمَا فِيْهَا مِن الزَّخَارِفِ الوَهْمِيَّةِ التِيْ هِيَ مَرَاقِد الفَنَاءِ وَمَرَابِضُ الزَّوَالِ وَقَواتِلُ الأَوْقَاتِ .

وَهَلَ هِيَ الاّ الأَلْعَابُ وَالمَلاهِيْ المُشَارُ إلَيْهَا بقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ اعْلَمُوا أنّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ في الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ﴾ الآيَةِ وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْو وَانَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَعِبٌ وَلَهُو ﴾ الآيَةِ ، عِبَادَ اللّهِ ، كُلُّ مَا تَرَوْنَ مِن البَلاَيَا وَالمِحَنِ مِنْ أجْلَ الدُّنْيَا وَمَالَهَا مِنْ مَتَاعٍ حَقِيرٍ .

عَجَبٌ أَنْ يَكُونَ كُلُّ هَذَا الاهْتِمَامِ مِنْ أجْلِ دارِ الغُرُوْرِ وأَيَّامِهَا المَعْدُودَةِ ، وَكُلُّ مَا فِيْهَا مِنْ لذائِذَ مَعْلُومٌ أَنَّهَا مُنَغَّصَاتٌ ثُمَّ مُنْتَهِيَاتٍ ذَلِكَ فَوْقَ أنَّ الأَرْزَاقَ فِيْهَا قَدْ ضَمِنَهَا اللَّطِيْفُ الخَبِيْرُ خَالِقُ كُلَّ شَيءٍ الذِي مَا مِنْ دَابَّةٍ في الأَرْضِ إلا عَلَيْهِ رِزْقُهَا .

وَهَلْ يَشُكُّ مُؤْمِنٌ عَاقِلٌ في مَا ضَمِنَهُ مَوْلاَهُ الغَنِيُّ الحَمِيْدُ لَقَدْ كَانَ الأجْدَرُ وَالأَوْلَى بِهَذا الاهْتِمَامَ حَيَاتَنَا الثَّانِيَة لإِنَّهَا دارُ القَرَارِ وَلأنَّهَا إذَا فَاتَتْكَ فِيْهَا دَارُ الكَرَامَةِ هَوَيْتَ في الْهَاوِيَةِ وَأنْتَ لا تَدْرِي هَلْ أَنْتَ مِنْ فرِيْقِ الجَنَّةِ أمْ مِنْ فَرِيْقِ السَّعِيْرِ .

فَتَيَقَّظَ يَا مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ في الغَفلاتِ ! انْتَبِهْ يَا مَنْ يَقْتُلُ أوْقَاتَهُ عِنْدَ الملاهِيْ وَالمنكرَاتِ .

يَا أسَفَى عَلَى أوْقَاتٍ لَا تُبَاعُ بملءَ الأَرْضِ ذَهَباً تُضَيَّعُ عِنْدَ التِّلفِزْيُونِ وَالفِدْيُو والسِّيْنَمَاتَ والبكمات ولَعِبِ الأَوْرَاقِ المحُرّمَات .

آهٍ على أوقاتٍ تُقْتَلُ عِنْدَ المِذْيَاعِ واسْتِمَاعِ أَغَانِيْهِ ومَلَاهِيْهِ المُهْلِكَاتْ .

آهٍ على سَاعَاتٍ تَمْضِيْ عِنْدَ الكُرَةِ وَالمُطْرِبْينَ وَالمُطْرِبَاتِ .

آهٍ عَلى أوْقَاتٍ وَتَفْكِيْرَاتٍ تَذْهَبُ في قِرَاءَةِ الكُتُبِ الخلِيْعَةِ وَالجَرَائِدِ وَالمَجَلَّاتِ .

آه على أوقاتٍ تَنْقَضِيْ في الإقَامَةِ بَيْنَ أعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِه .

آهٍ عَلى أوْقَاتٍ تُقْتَلُ في الغِيْبَةِ وَالبُهْتِ وَالتَّمَلّقِ وَالنِّفَاقِ وَالمُدَاهَنَاتِ .

آهٍ عَلى أوْقَات تُقْتَلُ في الجُلُوسِ في الأَسْوَاق لاَ لِمَصْلَحَةِ دُنْيَا ولا دِيْنٍ بَلْ لِأمُوْرٍ عِنْدَ أهلِ الضَّيَاعِ مَعْلُومات .

آهٍ على أوقاتٍ تُقضَى في بِلادِ الحُرِّيَةِ وَالفِسْقِ وَالفُجُوْرِ والأمور المهلكات .

آهٍ عَلى أوقاتٍ تُقْتَلُ بالحِكَايَاتِ المضحكَاتِ والتَّمْثِيْلِيَاتْ .

آهٍ على أوقاتٍ تَنْقَضِي بِلَغْوِ الكلامِ والمُغَازَلات لأهل المعاصي والمنكرات .

آه على أوقاتٍ تَنْقَضي في الاسْتِمَاعِ لِلأَغَانِيْ الخَلِيْعَاتِ .

آه عَلى أوْقَاتٍ تَمْضِيْ في السُّكْرِ وَشُرْبِ أبي الخَبَائِثِ الدُّخَانْ .

آهٍ على أُوْقَاتٍ تُقْتَلُ في ذِكْرِ الحَوَادِثِ وَالامُوْرِ المَاضِيَاتِ التِيْ لَا تَعُوْدُ عَليْهِم بِنَفْعٍ بَلْ رُبَّمَا عَادَتْ بِالضَّرَرِ والنَّكَبَاتِ .

آه عَلى أوقْاتٍ تذهَبُ سُدَى في النَّوْمِ وَالغَفَلاتِ .

آه عَلى أمْوال تُنفقُ فِيْمَا يُغْضِبُ فَاطِرَ الأرْض وَالسَّمَوَات وعلى أمْوَال تُبْذَلُ لِلْخَدَّامِيْنَ والخَدّمَات الكَافِرِينَ والكافِرات .

آه على أَلْسِنَةٍ لاَ تَفْتُر عَن الكَلامِ فِيْمَا يَضُرُّ وَلمْ تَسْتبدِلْهُ بِتَمْجِيْدِ وَتَسْبِيْحِ وَتَكْبِيْرِ وَتَهْلِيْلِ بَدِيْعِ الأَرْضِ وَالسَّمواتِ .

آهٍ عَلى أفْكَارٍ وأَذْهانٍ مَصْرُوفةٍ ومُشْتَغِلَةٍ طوْل لَيْلِهَا وَنَهارِهَا فِيْمَا في الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعٍ وعَقَارَاتٍ وَلَمْ تُفكِّرْ وَتَلْتَفِتْ وتَسْتَعِدّ إلَى مَا في أمامهَا مِنْ أهْوَالٍ وَشَدائِدَ وَعَقَباتٍ وَمَا في الآخِرَةِ لِمَنْ أطَاعَ اللَّهَ مِن أنْهَارٍ وثِمَارٍ وَحُوْرٍ حِسَانٍ طَاهِرَاتٍ .

تَاللَّهِ لقَدْ فَسَدَتْ أمْزِجَةُ أكْثَر النَّاسِ حَتَّى أَثَّرَ فَسَادُهَا عَلى الأَفْهَامِ لِذَلِكَ رَجَّحُوا فَانياً مُكَدَّراً مُنَغّصاً عَلى بَاقٍ ضَمِنَ صَفْوَهُ مُوْلِيْ الأَنْعَامِ وَهَا هُمْ أُوْلاَءِ كَمَا تَرَى لاَ هَمَّ لَهُمْ وَلاَ عَمَل إلاّ لِلدُّنْيَا وَمَالَهَا مِنْ حُطَامٍ قَالَ تَعَالَى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

عِبَادَ اللَّهِ أمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ نَبِيِّكُمْ ﷺ أبْشِروا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُم فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أخْشَى عَلَيْكُم وَلَكِنْ أخْشَى أن تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُم كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوْهَا كَمَا تَنافَسُوهَا فَتُهلِككم كَما أهلكتْهُم رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ وَخِتَاماً :

فَيْنَبَغِيْ لِلعَاقِل أنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ وَقَدْرَ وَقْتِهِ فَلا يُضِيْعُ مِنْهُ لَحْظَةً في غير قُرْبَةٍ وَيُقدِّمَ الأَفْضَلَ فالأَفْضَلَ مِنْ القَوْلِ وَالعَمَلِ .

فوائد : كُلُ ما يقومُ به غَيْرُكَ ويَحْصَلُ بذَلِكَ غَرضُكَ فإن تَشَاغلك به غَبْنٌ فاحِش لِأنَّ إحْتِيَاجُكَ إلى التشاغل بما لا يقوم به غَيْرُك مِن العلم والعمل والذِكر والفِكر آكدُ والْزَمَ وأنْفَع .

أعلم أن ما احْتَجْتَ إلى مُفَارقته وتركه للناس فَلَيْسَ لَكَ والشُغْلُ بما لَيس لَكَ عَبَث .

وما المرءُ إلَّا رَاكبٌ ظَهْرَ عُمْرِه   عَلى سَفَرٍ يُفْنِيْهِ في اليوم والشهرِ
يَبِيْتُ ويضحي كلَّ يوم وليلةٍ   بَعِيْدًا عن الدُّنْيَا قَرِيباً إلى القبرِ

آخر: إذَا كَانَ رأسُ المَالِ عُمْرُكَ فَاحْتَرِزْ   عَلَيْهِ مِنْ الانْفَاقِ في غَيْرِ وَاجِبِ

آخر: سَتَبْكِي رِجَالٌ في القِيَامَةِ حَسْرَةً   عَلى فَوْتِ أوْقَاتِ زَمَانِ حَيَاتِهَا

اللهمَ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بنُورِ الأَيمانِ وَأَعِنَّا على أَنْفسِنَا والشَّيْطَان وَأَيِّسْهُ مِنَّا كَمَا أَيَّسْتَهُ مِن رَحْمَتِكَ يا رَحْمَان وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

أَتَتْ عُمَرَ امْرَأَةٌ فَشَكَتْ عِنْدَهُ زَوْجَها وَقَالَتْ هُوَ مِنْ خَيْرِأَهْلِ الدُّنْيَا يَقُومُ اللَّيْلَ حَتَّى الصَّبَاحِ وَيَصُوْمُ النَّهَارَ حَتَّى يُمْسِيْ ثُمّ أَدْرَكَهَا الحَيَاءُ فقَالَ عُمَرُ جَزَاكِ اللّهُ خَيْراً فَقَدْ أَحْسَنْتِ الثَّنَاءَ .

فَلَمَّا وَلَّتْ قَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ سُوْرٍ : يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لَقَدْ أَبْلَغَتْ إِلَيْكَ في الشَّكْوَى ، فَقَالَ وَمَا اشْتَكَتْ قَالَ زَوْجَهَا ، قَالَ عَلَيَّ بِهَا فقَالَ لِكَعْب اقْضِ بَيْنَهُمَا ، قَالَ أَقْضِي وَأَنْتَ حَاضِرٌ ، قَالَ إِنَّكَ قَدْ فَطِنْتَ لِمَا لَمْ أَفْطَنْ لَهْ .

قَالَ كَعْبٌ إنَّ اللهَ يَقُولُ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِن النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ صُمْ ثلاثَةَ أيّامٍ وَافْطِرْ عِنْدَهَا يَوْماً وَقُمْ ثَلاثَ لَيَالٍ وَبِتْ عِنْدَها لَيْلَةً فَقَالَ عُمَرُ هَذَا أَعْجَبُ إِلَيَّ مِن الأَوَّلِ فَبَعَثَهُ قَاضِياً لأَهْلِ البَصْرَةِ فكَانَ يَقَعُ لَهُ مِنْ الفِرَاسَةِ أُمُوْرٌ عَجِيْبَةٌ .

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ وَمِنْ دَقِيْقِ الفِرَاسَةِ أَنَّ المَنْصُوْرَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ فَكَسِبَ مَالاً فَدفَعهُ إِلى امْرَأَتِهِ ثُمَّ طَلَبَهُ فَذَكَرَتْ أَنَّهُ سُرِقَ مِنْ البَيْتِ وَلَمْ يَرَ نَقْباً وَلاَ أَمَارَةً فقَالَ لَهُ المَنْصُوْرُ مُنْذُ كَمْ تَزَوَّجْتَهَا قَالَ مُنْذُ سَنَةٍ ، قَالَ بِكْراً أَوْ ثَيِّباً قَالَ ثَيِّباً قَالَ فَلَهَا وَلَدٌ مِنْ غَيْرِكَ قَالَ لا .

فَدَعَا لَهُ المَنْصُوْرُ بِقَارُوْرَةِ طِيْبٍ يَتَّخِذُهُ لَهُ حَادُّ الرَّائِحَةِ غَرِيْبُ النَّوْعِ

فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ تَطَيَّبْ مِنْ هذا الطِّيْبِ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ غَمَّكَ فَلمَّا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ عِنْدِهِ قالَ المنْصُوْرُ لأَرْبَعَةٍ مِنْ ثِقَاتِهِ لِيَقْعُدْ مِنْكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ عَلى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ المَدِيْنَةِ فَمَنْ شَمَّ مِنْكُمْ رَائِحَةَ هَذا الطِّيْبِ مِنْ أَحَدٍ فَلْيَأتِ بِهِ ، وَخَرَجَ الرَّجُلُ بالطِّيْبِ وَدَفَعَهُ إِلى امْرَأَتِهِ فَلمَّا شَمَّتْهُ بَعَثَتْ مِنْهُ إلى رَجُلٍ كَانَتْ تُحِبُّهُ وَقَدْ كَانَتْ دَفَعَتْ إِلَيْهِ المَالَ .

فَتَطَيَّبَ مِنْهُ وَمَرَّ مُجْتَازاً بِبَعْضِ أَبْوَابِ المَدِيْنَةِ فَشَمَّ المُوَكَّلُ بِالبَابِ رَائِحَةً طَيِّبَةً فَأَتَى بِهِ المَنْصُوْرَ فَسَأَلهُ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذا الطِّيْبُ فَلَجْلَجَ في كَلامِهِ فَبَعَثَ بِهِ إلى وَالِيْ الشُّرْطَةِ فقَالَ إِنْ أَحْضَرَ لكَ كَذا وكَذَا مِن المالِ فَخَلِّ عَنْهُ وَإلا اضْرِبْهُ أَلْفَ سَوْطٍ .

فَلَمَّا جُرِّدَ لِلضَّرْبِ أَحْضَرَ المالَ على هَيْئَتِهِ فدعَا المَنْصُوْرُ صَاحِبَ المالِ فقالَ إِنْ رَدَدْتُ إِلَيْكَ مالَكَ تُحَكِّمُنِيْ في امْرَأَتِكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ هَذا مَالُكَ وَقَدْ طَلَّقْتُ المَرْأَةَ مِنْكَ .

قَالَ وَمِنْ عَجِيْبِ الفِرَاسَةِ مَا ذُكِرَ عَنْ أَحْمَدِ بْنِ طُوْلُوْنَ أَنَّهُ بَيْنَما هُوَ جَالِسٌ في مَجْلِسٍ لَهُ يَتَنَزَّهُ فِيْهِ إِذْ رَأَى سَائِلاً في ثَوْبٍ خَلِقٍ فَوَضَعَ لَهُ دَجَاجَةً عَلى رَغِيْفٍ وَحَلْوَى وَأَمَرَ بَعْضَ الغِلْمَانِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَلَمَّا وَقَعَ في يَدِهِ وَأخذهُ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ وَلَمْ يَهُشَّ لَهُ وَلَمْ يَعْبَأْ بِهِ .

فَقَالَ لِلْغُلَامِ ائْتِنِيْ بالسَّائِلِ فَلَمَّا وَقَفَ قُدَّامَهُ اسْتَنْطَقَهُ فَأَحْسَنَ الجَوَابَ وَلَمْ يَخفْ وَلَمْ يَضْطَرِبْ مِنْ هَيْبَتِهِ فَقَالَ لَهُ هَاتِ الكُتُبَ التِيْ مَعَكَ وَاصْدُقْنِيْ مَنْ بَعثَكَ فَقَدْ صَحَّ عِنْدِيْ أَنَّكَ صَاحِبُ خَبَرٍ وَأَحْضَرَ السِّيَاطَ فاعْتَرَفَ .

فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَائِهِ هَذَا وَاللهِ السِّحْرُ قَالَ مَا هُوَ بِسِحْرٍ وَلكِنْ فِرَاسَةٌ

صَادِقَةٌ رأَيْتُ سُوْءَ حَالِهِ فوَجَّهْتُ إليْهِ بطعَامٍ يـرْغَبُ أكْلَهُ الشَّبْعَانُ فَمَا هَشَّ لهُ وَلا فَرِحَ وَلا مَدَّ يَدَهُ إلَيْهِ فَأَحْضَرْتُه فتَلَقَّاني بِقُوَّةِ جَأْشٍ فَلَمَّا رَأيْتُ رَثَاثَةَ حَالِهِ وَقُوَّةَ جَأْشِهِ علِمْتُ أنّه صَاحِبُ خَبَرٍ فَكَانَ كَمَا قَالَ .

وَرَأى يَوْماً حَمَّالاً يَحْمِلُ صَنّاً ـ أيْ صُنْدُوقاً مِنْ خَشَبٍ ـ وَالحَمَّالُ تَضْطَرِبُ رِجْلاَهُ تَحْتَهُ فَقَالَ لَوْ كَانَ هَذا الاضْطِرَابُ مِن الثِّقَلِ لَغَاصَتْ عُنُقُ الحَمَّالِ وَهَذِهِ عُنُقُهُ أُرَاهَا بَارِزَةً وَما أرَى الأَمْرَ إلاَّ مِنْ خَوْفٍ .

فَأَمَرَ بحَطِّ الصَّنِّ فَإذَا فِيْهِ أُنْثَى مَقْتُولَةٌ وَقَدْ قُطِّعَتْ فَقَالَ لِلْحَمَّالِ اصْدُقْنِيْ عَنْ حَالِهَا فقَالَ هُنَاكَ في الدَّارِ الفُلانِيَّةِ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ أعْطَونِيْ هَذهِ الدَّنَانِيْرَ وَأَمَرُونِيْ بحَمْلِ هَذِهِ المَقْتُولَةِ فَضَرَبَهُ لأنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُ رَأْساً وَأمَرَ بِقَتْلِ الأرْبَعَةِ .

وَكَانَ يَتَنَكَّرُ ـ أيْ يُغَيِّرُ لِبْسَتَهُ وَهَيْئَتَهُ ـ وَيَدُوْرُ وَيَسْمَعُ قِرَاءَةَ أَئِمَّةَ المسَاجِدِ فَدَعَا ثِقَةً وَقَالَ خُذْ هَذِه الدَّنَانِيْرَ وَأَعْطِهَا إمَامَ المَسْجِدِ الفُلَانِيِّ فَإنَّهُ فَقِيرٌ مَشْغُولُ القَلْبِ فَفَعلَ وَجَلَسَ مَعَ إمَامَ المَسْجِدِ وَبَاسَطهُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ زَوْجَتَهُ قَدْ أخَذَهَا الطَّلْقُ وَلَيْسَ مَعَهُ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ فأخْبَرَهُ فَقَالَ صَدَقَ عَرَفْتُ شُغْلَ قَلْبِهِ بِكَثْرَةِ غَلَطِهِ في القراءة.

وَكَانَ يَرْكَبُ وَحْدَهُ وَيَطُوْفُ لَيْلاً وَنَهَاراً يُفَتِّشُ وَيَتَفَقَّدُ الرَّعِيَّةَ الى أنْ مَرَّ يَوْماً في سُوْقٍ مَسْدُودٍ في بَعْضِ أطْرَافِ البَلَدِ فَدَخَلَهُ فَوَجَدَ مُنْكَراً وَوَجدَهُ لا يَنْفُذُ فَرَآى عَلى أحَدِ أبْوَابِهِ شَوْكَ سَمَكٍ كَثِيْرٍ وعِظَام الصُّلْبِ .

فَقَالَ لِشَخْصٍ كَمْ يُقَوَّمُ تَقْدِيْرُ ثَمَنِ هَذَا السَّمَكِ الذيْ هَذِهِ عِظَامُهُ قَالَ دِيْنَارٌ قالَ أهْلُ هَذا الزُّقَاقِ ـ أَيْ السُّوْقِ لا تَحْتَمِلُ أَحْوَالُهُمْ مُشْتَرَى مِثْلِ هَذَا لأَنَّهُ زُقَاقٌ بَيْنُ الاخْتِلالِ إلى جَانِبِ الصَّحْراءِ لا يَنْزِلُهُ مَنْ مَعَه شَيءٌ يَخَافُ عَلَيْهِ أوْ لَهُ مَالٌ يُنْفِقُ مِنْهُ هذِه النَّفَقة وَمَا هِيَ إلاّ بَلِيَّةٌ يَنْبَغِيْ أنْ يُكْشَفَ عَنْهَا فَاسْتَبْعَدَ الرَّجُلُ هَذا وَقَالَ هَذا فِكْرٌ بَعِيْدٌ .

فَقَالَ اطْلَبُوا لِيْ امْرَأَةً مِنْ الدَّرْبِ أُكَلِّمُهَا فَدَقَّ بَاباً غَيْرَ الذِيْ عَلَيْهِ الشَّوْكُ وَطَلَبَ مَاء فَخَرَجَتْ عَجُوزٌ ضَعِيْفَةٌ فمَا زَالَ يَطْلُبُ شَرْبَةً بَعْدَ شَرْبَةٍ وَهِيَ تَسْقِيْهِ وَهُوَ في خِلال ذَلِكَ يَسْأَلُ عَن الدَّرْبِ وَأَهْلِهِ وَهِيَ تُخبِرُهُ غَيْرَ عَارِفَةٍ بعَوَاقِبِ ذَلِكَ .

إلى أَنْ قَالَ لهَا وَهَذِهِ الدَّارُ مَنْ يَسْكُنُهَا وَأَشَارَ إِلَى التِي عِنْدَ بابِها عِظامُ السَّمَكِ فقالَتْ فِيْهَا خَمْسَةُ شَبَابٌ أعفَارٌ كأَنَّهُم تُجَّارٌ وَقَدْ نَزَلُوا مُنْذُ شَهْرٍ لَا نَراهُمْ نَهَاراً إلا فِيْ مُدّةٍ طَوِيْلَةٍ وَنَرى الوَاحِدَ مِنْهُم يَخْرُجُ لِلْحَاجَةِ وَيَعُوْدُ سَرِيْعاً .

وَهُمْ في طُوْلِ النَّهَارِ يَجْتَمِعُونَ فَيَأْكُلونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْعَبُونَ بِالشِّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ وَلَهُم صَبِيٌّ يَخْدِمُهُم فإِذَا كانَ اللَّيْلُ انْصَرَفُوا إلى دَارٍ لهُم بالكَرْخِ وَيَدَعُوْنَ الصَّبِيَّ في الدَّارِ يَحْفَظُهَا فَإذَا كَانَ سَحَراً جَاؤ وا وَنَحْنَ نِيَامٌ لا نَشْعُرُ بِهِمْ .

فَقَالَ لِلرَّجُلِ هَذِهِ صِفَةُ لُصُوصٍ أَمْ لاَ قَالَ بَلَى فَأَنْفَذَ في الحَالِ فَاسْتَدْعَىٰ عَشَرَةً مِنْ الشُّرَطِ وَأَدْخَلَهُم إلى سَطْحِ الجِيْرَانِ وَدَقَّ هُوَ البَابَ فَجَاءَ الصَّبِيّ فَفَتَحَ فَدَخَلَ الشُّرَطُ مَعَهُ فمَا فَاتَهُ مِن القَوْمِ أحَدٌ فكانُوا هُمْ أَصْحَابُ الخِيَانَةِ بِعَيْنِهِمْ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الوُلَاةِ سَمِعَ في بَعْضِ لَيَالِيْ الشِّتَاءِ صَوْتاً بِدَارٍ يَطْلُبُ مَاءً بَارِداً فَأمَرَ بِكَبْسِ الدَّارِ فأخرَجُوا رَجُلاً وَامْرَأَةً فَقِيْلَ لهُ مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ قَالَ الماءُ لا يُبَرَّدُ في الشِّتَاءِ إنَّمَا ذَلِكَ عَلامَةٌ بينَ هَذيْنِ .

وَأَحْضَرَ بَعْضُ الوُلاةِ شَخْصَيْن مُتَّهَمَيْنِ بسَرِقَةٍ فَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بكُوزٍ مِنْ مَاءٍ

فَأَخَذَهُ وَأَلقَاهُ في الأَرْض عَمْداً فانْكَسر فَارْتاعَ أحَدُهُمَا وَثَبتَ الآخِرُ فَلَمْ يَتَغَيّرْ فَقَالَ للذِيْ انْزَعَج اذْهَبْ وَقَالَ للآخَرِ أَحْضِرْ العُمْلَةَ .

فقَالَ لَهُ مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ ذَلِكَ فَقَالَ اللِّصُّ قَوِيُّ القَلْبِ لا يَنْزَعِجُ وَالبَرِيءُ يُرَىٰ أنّهُ لوْ نَزَلَتْ فِيْ البَيْتِ فأْرَةٌ لأزْعَجَتْه وَمَنَعَتْه مِنَ السَّرِقَةِ .

شِعْراً :

يَا نَفْسُ قَدْ طَابَ في امْهَالِكِ العَمَلُ
فاسْتَدْرِكِي قَبْلَ أنْ يَدْنُو لَكِ الأَجَلُ
إلى مَتَى أنْتِ في لَهْوٍ وفي لَعِبٍ
يَغُرُّكِ الخَادِعَانِ الحِرْصُ وَالأَمَلُ
وَأَنْتِ في سُكْرِ لَهْوٍ لَيْسَ يَدْفَعُهُ
عَنْ قَلْبِكِ النَّاصِحَانِ العُتْبُ وَالْعَذَلُ
فَزَوِّدِيْ لِطَرِيْقٍ أنْتِ سَالِكَة
فِيْهَا فَعَمَّا قلِيْلٌ يَأْتِكِ الْمَثَلُ
وَلا يَغُرُّكِ أَيَّامُ الشَّبَابِ فَفِيْ
أعْقَابِهَا المُوبِقَانِ الشَّيْبُ وَالأجَلُ
يَا نَفْسُ تُوبِيْ مِنَ العِصْيَانِ وَاجْتَهِدي
وَلا يَغُرَّنَّكِ الابْعَادُ وَالملَلُ
ثُمَّ احْذَرِيْ مَوْقِفاً صَعْباً لِشِدَّتِهِ
يَغْشَى الوَرَى الْمُتْلِفَانِ الحُزْنُ وَالوَجَلُ
وَيُخْتَمُ الفَمُ وَالأعْضَاءُ نَاطِقَةٌ
وَيَظْهَرُ المُفْصِحَانِ الخَطُّ وَالخَطَلُ

وَيَحْكُمُ اللّهُ بَيْنَ الـخَلْقِ مَـعْـدِلَـةً
فتُــذْكَـرُ الحَــالتَـانِ البِــرُّ وَالـزَّلَــلُ

اللَّهُمَّ قَوِّ، ايْمَانَنا بِكَ وَبِمَلائِكتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وَباليَوْمِ الآخِرِ وَبالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ رَبَّنا آتِنَا في ا لدنيا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ كُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لا يُخْطِيْ وَلا يَنْحَرِفُ عَنْ طَرِيْقِ الحَقِّ بَلْ إِنَّ فِيْنَا مِن الغَرَائِزِ وَالطِّبَاعِ مَا يَمِيْلُ بِنَا إِلى الرُّشْدِ وَالغَيِّ وَالخَيْرِ وَالشَّرِّ وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ خَطَأَهُ أو يَهْتَدِيْ إِلَيْهِ .

وَبِذَلِكَ كانَ مِنْ حَقِّ المُسْلِمِ عَلى أَخِيْهِ أَنْ يُبَصِّرَهُ بِعُيُوْبِهِ وَيَنْصَحَ لهُ في أَمْرِهِ وهَذا مِن التَّوَاصِيْ بالحَقِّ . وَكَما يَجِبُ عَلى مَنْ رَأى الظُّلمَ مِنْ حاكِمٍ ومسئولٍ أنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِ ظُلْمَهُ وبَغْيَهُ وَجبَ عَلى مَنْ رَأى مُؤْمِناً يَظْلِمُ غيرَهُ أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ أنْ يَحُوْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَظْلِمْ إِبْقَاءً عَلى حَقِّ الأُخُوَّةِ وَدَفْعاً لِلأَذى عَنْ المظْلُومِ وَعَن المُجْتَمعِ .

قال بَعْضُ العُلَمَاءِ

النَّصِيْحَةُ عَلى مَرَاتِبَ أَوّلاً أنْ لا يُبَادِرَ الانْسَانُ إِلَى تَصْدِيْقِ مَا يُقَالُ لَهُ عَنْ قَرِيْبٍ أوْ صَدِيْقٍ أَوْ جَارٍ أَوْ زَمِيْلٍ أَوْ أَحدٍ مِنَ النَّاسِ بَلْ يَتَثَبَّتُ في ذَلِكَ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ لأَنَّ أَكْثَرَ النَّاس في وَقْتِنا اعْتَادُوا إِشَاعَةَ السُّوْءِ وَأَكْثَرُ النَّاس إِلىَ الاسَاءَةِ يُسْرِعُونَ، وَيَنْدُرُ مِنْهُم مَنْ يُحْسِنُ الظَّنَّ ، فَلا تُصَدِّقْ فَوْراً بكلِّ مَا سَمِعْتَهُ حَتّى تَسْمَعَهُ مِمَّنْ حَضَرَهُ وَشَاهَدَهُ وَتتأكّدَ مِنْ ثُبُوتِهِ وَبَرَاءَتِهِ وَخُلُوِّهِ مِن الهَوَى وَالأَغْرَاضِ .

وَإذَا رَأَيْتَ أمْـرَاً أَو بَلَغَكَ عَنْ صَدِيْقِكَ كَلامٌ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ فاحْمِلْهُ مَحْمَلاً حَسَناً ، قَالَتْ بِنْتُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مُطِيْعٍ لِزَوْجِهَا طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وكَانَ أجْوَدَ النَاسِ في زَمَانِهِ مَا رَأَيْتُ قَوْماً ألأمَ مِنْ إخْوانِكَ قَالَ لَهَا وَلِمَ ذَلِكَ قَالَتْ أَرَاهُمْ إِذَ أيْسَرْتَ لَزِمُوْكَ وَإذا أعْسَرْتَ تَركُوْكَ فَقالَ لَها هَذَا وَاللَّهِ مِنْ كَرَمِ أخْـلاقِهِم يَأْتُونَنَا في حَالِ قُدْرَتِنَا عَلى إكْرامِهِمْ وَيَتْرُكُوْنَنَا في حَالِ عَجْزِنَا عَنْ القِيَامِ بِحَقِّهِمْ .

فَانْظُرْ كَيْفَ حَمَلَ فِعْلَهُم عَلى هَذِا المَحْمَلِ الحَسَنِ ، وَثَانِياً أَنْ يَكُونَ عَلى بَالِـكَ مُسْتَحْضَرَاً أَنَّ النـاسَ لَيْسُوا مَعْصُومِيْنَ بَلْ لَهُم هَفَواتٌ وَأَخْطَاءٌ وَتَصوَّرْ ذَلِكَ في نفْسِكَ لِتَعْذُرَهُم وَلَقَدْ أحْسَنَ القَائِلُ :

مَـنِ الـذِي مَـا سَـاءَ قَـطُّ ... وَمَـنْ لَـهُ الحُسْـنَى فَقَـطْ

آخـر : أَرَدْتَ لِكَيْمَـا لاَ تَـرى لِـيَ عَـثْرَةً ... ومَنْ ذَا الذِي يُعْطَى الكَمالَ فَيَكْمُلُ

آخـر : وَمَـنْ الـذِيْ تُرْضَـى سَـجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَـى المَرْءَ نُبْـلاً أَنْ تُعـدَّ مَعَـائِبُهُ

آخـر : إنْ كُنْتَ تَطْـلُبُ في الزمـانِ مُهَـذَّباً ... فَنِيَ الـزمـانُ وأنْـتَ فـي الطَّلَبَـاتِ

خُـذْ صَفْوَ أخْـلاقِ الصَّدِيقِ وأعْطِهِ ... صَفْـواً ودَعْ أخْـلاَقَـهُ الكَـدِرَاتِ

ثَالِثـاً : أَنْ تَنْظُرَ إلى الأَمْرِ مِنْ وجْهَةِ نَظَرِكَ وَمِنْ وجْهَةِ نَظَرِ صَاحِبِه أيْضَا ، فَقَدْ يَكُونُ مُجْتَهِداً فِيْمَا أعْتَقَدهُ مِنْ رَأيْ مُتَحَرِّياً لِلْخَيْرِ فِيْمَا سَلَكَهُ مِنْ سَبِيْلٍ ، فَلا تُسَارِعْ إلى الانْكَارِ عَلَيْهِ وَتَخْطِئَتِهِ مَا دَامَ مِن المُحْتَمَلِ أنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ مِن الحَقِّ فَإنْ تَأَكَّدْتَ مِنْ الخَطَأ وَالانْحِرَافِ فَتَقَدَّمْ بالنَّصِيْحَةِ سِرّاً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، لا عِنْدَ ملأٍ مِنْ الناسِ كَمَا يَفْعَلهُ بَعْضُ النَّاسِ ، فَإنَّهُ احْرَىٰ لِقَبُولِ النَّصِيْحَةِ ، رَابِعَاً : لاَ يَتَرَتَّبُ عَلى النَّصِيْحَةِ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا .

شعرا : تَعَمَّـدِني بِنُصْحِ في انْفِـرَادِ ... وجَنِّبْنِي النَّصِيْحَةَ فى الجَمَاعَةْ

فِإنْ النُّصْحَ بين الناسِ ضَرْبَ ... من التَّوْبِيخ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ

فِإنْ خَالَفْتنِـي لِتُرِيْـدَ نَقْصِيْ ... فلا تَغْضَبْ إذا لم تُعْطَ طَاعَةْ

وَعِنْدَمَا يُهْمِلُ الصَّدِيْقُ صَدِيْقَهُ وَيُهْمِلُ الأَخُ حَقَّ أَخِيْهِ عَلَيْهِ في النُّصْحِ وَالارْشَادِ تَسُوءُ عَلائِقُ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ وَتَنْقَلِب الصَّدَاقَةُ عَدَاوَةً وَيُصْبحُ أَمْرُ المجَتَمعِ فَوْضَى يَمُوْجُ بِالشَّرِّ وَالاثْمِ .

وَلَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ فِي القُرْآنِ الكَرِيْم أَنَّ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ اسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ وَالحِرْمَانَ وَالتَّشْرِيْدِ لأَنَّهُم كَانُوا لا يَتَنَاصَحُونَ ، قَالَ تَعَالى « لُعِنَ الذين كَفَرُوا مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلِ عَلى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَم ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعتَدُونَ ، كانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ » .

وَلَيْسَ أَدَلَّ على رُقِيِّ الأُمَّةِ وَاسْتِقَامَةِ ضَمَائِرِهَا مِنْ تَمَسُّكِهَا بِخُلُقِ التَّنَاصُحِ فِيْمَا بَيْنِهَا وَالتَّوَاصِيْ بالحق ، قَالَ تَعَالى ﴿ وَالعَصْرِ إِنَّ الأَنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ ، إلا الذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بالحَقّ وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ ﴾ رُوِيَ عَنْ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنّهُ قَالَ لَوْ لَمْ يَنْزِلْ غَيرَ هَذهِ السُّوْرَةِ لَكَفَتِ النَّاسِ .

وَكانَ الرَّجُلانِ مِنْ أَصْحَابِ النّبي ﷺ إِذَا الْتَقَيا لَمْ يَتَفَرَّقَا حَتّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلى الآخِرِ سُوْرَةَ العَصْرِ ثمَّ يُسَلِّمُ أَحَدُهُمَا عَلى الآخَرِ .

قُلْتُ وَذَلِكَ أَنَّ الأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيْ كُلُّهَا تَدُوْرُ عَلى التَّوَاصِيْ بالحَقِّ وَالتَّوَاصِيْ بالصَّبْرِ ، فَالتَّوَاصِيْ بالحَقِّ مِثْلُ الايْصَاءِ بِتَوْحِيْدِ اللّهِ وَالايْمَانِ بِهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ .

وَالايْصَاءِ بالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَام وَالحَجِّ وبِرِّ الوَالِدَيْنَ وَصِلَةِ الارْحَامِ وَالاحْسَانِ إلى اليَتِيْمِ وَالمِسْكِيْنِ وَالجَارِ وَابْنِ السَّبِيْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَالتَّوَاصِيْ بالابْتِعَادِ عَنْ مَا نَهى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ مِن المَعَاصِيْ كُلِّهَا الصَّغَائِرِ وَالكَبَائِرِ .

وَالتَّوَاصِيْ الصَّبْر عَلى الطَّاعَاتِ حَتّى المْمَاتِ ، وَالتّواصِيْ بِالصَّبْرِ عَلى المَصَائِبِ ، وَالتَّوَاصِيْ بِالصَّبْرِ عَن المَعاصِيْ .

وَلكِنْ يَا لَلأَسَفِ صَارَ التَّـوَاصِيْ عِنْـدَ هَذَ الجِيْلِ فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا وَحُطَامِهَا فَتَجِدُ الوَاحِدَ يَحُثُّ صَدِيْقَهُ على التَّعَلُّقِ بِهَا وَعِمَارَتِهَا وَكُلِّ مَا يَشْغَلُهُ ويُلهِيْهِ عَن الآخِرَةِ مِنْ مَشاركةٍ وسلفةٍ ونحو ذلك .

وإذا انتقص بشيء مما يتعلّق بها أَقَامَ النّاسَ وَأقْعَدَهُمْ حَتَّى المُنْتَسِبِيْنَ إِلَى طَلَبِ العِلْمِ .

فَتَجِدُ الوَاحِدَ مِنْهُمْ إِذَا خُصِمَ عَلَيْهِ بَعْضُ الدَّرَجَاتِ أو بَعْضُ الفُلُوس انْفَعَلَ وَتَغَيَّرَ مِزَاجُهُ وَصَارَ يَتَكَلَّمُ بِكَلام غَيْرِ مُتَّزِنٍ .

عَكْس أُمُـوْرِ الآخِـرَة فَانَّهُ لا يَهْتَمُّ لها ، فَتَفُوته تَكْبِيْرَةُ الأَحْرَام مَعَ الأَمَام بل تَفُوتُهُ الصلاةُ مَعَ الجَمَاعَةِ وَلا يُبَالِيْ بِنَقْص خَمْسٍ وَعِشْرِيْنَ دَرَجَةٍ .

وَتَجِدُ الوَاحِد مِنْهُمْ يُوْصِيْ زَمِيْلَهُ بالدِّرَاسَةِ لِأَجْلِ الحُصُوْلِ عَلى شَهَادَةٍ في زَعْمِهِ أَنَّهَا تَأمِيْنٌ لِلْحَيَاةِ مِن الفَقْرِ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلى ضَعْفِ التَّوَكُّلِ عَلى اللَّهِ .

وَأمَّـا الصَّلاةُ وَسَائِرُ الطَّعَاتِ وتَرْكُ المَعَاصِيْ التِيْ بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تأْمِيْنُ الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَالسَّلامَةُ مِنْ جَهَنّمَ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ فَلا تَجِدُهُ يُوْصِيْهِ بِهَا ، وَلا يَهْتَمُّ مِنْهَا .

حَتَّى الآبَاءُ دَخل عَلَيْهِمْ النَّقْصُ فَتَجِدُ الأَبَ وَالأُمَّ يَحْرِصُوْنَ عَلى إيْقَاظ أوْلادِهِمْ للاخْتِبَارِ يَتَرَدّوْنَ عَلِيْهِم وَلو شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

أمَّـا لِصَـلاةِ الفَجْـرِ وَسَائِرِ الصَّلَواتِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ وَالابْتِعادِ عَن المَلاَهِيْ وَالمُنْكَراتِ فلا .

نَسْـأَلُ اللَّهَ العَـظِيْمَ أنْ يُوْقَظَ قُلُوبَنـا ويَمْلأَهَا بالغَيْرةِ وَالنَّصِيْحَةِ وَأَنْ يُصْلِحَ قُلْوبَنَا وَأَوْلاَدَنا وَأَحْوَالَنَا وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ .

وَإِذَا خَلاَ الْمُجْتَمعُ مِن التَّواصِيْ بالحَقِّ وَالصَّبْرِ والتَّناصُح أَوْ ضَعُفَ مَظْهرُ العَمَل بهِ فَقَدْ انتهَت الأمّةُ أسْوءِ حَالاتٍ مِن الفَوْضَى وفَسَادِ الاخْلاق وَالتَّقاطُعِ وَالتَّدَابُرِ وَالعُدْوَانِ وفشُوِّ الشُّرُورِ مِن الْمُنَافِقِيْنَ والنَّمامِيْنَ وَالكَذَّابِيْنَ وأعوانهم .

وانْظُرَ كَيْفَ تَكُوْنُ الحَالُ فِيْما إذَا عُدِمَ الأَمْرُ بالمَعْروفِ وَالنَّهْي عَن المْنْكَرِ وَتَرْكِ التَّوَاصِيْ بالحَقِّ وَالتَّوَاصِيْ بِالصَّبْرِ وَأُهْمِلتْ النَّصِيْحَةُ .

وكَيفَ يَجْتَرِئُ الفُسَّـاقُ عَلى المَعَـاصِيْ وَيَصِلُوْنَ فِيْهَا إلَى مَا تَضِجُّ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَا فِيْهِمَا مِنْ أنَواعِ الشُّرُوْرِ .

لا شَيءَ أبْلَغ من ذُلّ يُجَرّعُهُ ... أهلُ الخسيسةِ أهْلَ الدينِ والحَسَبِ
القائِمينْ بما جَاء الرَّسُوْلُ به ... والمُبْغِضِينْ لأهْلِ الزَّيغِ والرِّيَبِ

وَإنْ شِئْتَ فَزُرْ أيَّ جَهَةٍ مِنْ جِهَاتِ العَالَمِ تَرَى مَا يَتَقطَّعُ لَهْ قَلْبُكَ حَسَرَاتٍ انْظُرْ آكَدَ أرْكَانِ الإسْلاَمِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ الصَّلاَةَ كَيفَ تَركَهَا الكَثِيْرُ مِن النَّاس .

وَانْظُرْ إلَى الزَّكَاةِ التِيْ لَوْ أُخرِجَتْ لَمْ يَبْقَ فَقِيْرٌ وانْظُرْ صِيَامَ رَمَضَانَ كَيْفَ لَمْ يُبَالِ بهِ كَثِيْرٌ مِن النّاس .

وَانظُرْ كَيْفَ تَهاوَنَ النَّاسُ بِالرِّبَا وَالغِشِّ وَسَائِرِ الْمُحَرَّماتِ كُلُّ هَذا نَتِيْجَةُ اهْمَالِ التَّوَاصِيْ بِالحَقِّ وَالتَّوَاصِيْ بِالصَّبْرِ وَإهْمَالِ النّصِيْحَةِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن المْنْكرِ .

وَقَعْنا في الخَطَايا والبَلاَيَا ... وفي زمن انْتِقَاضٍ واشْتِبَاهِ
تَفانَى الخَيْرُ والصُّلحَاءُ ذَلُّوْا ... وَعَزَّ بِذُلِّهِمْ أهْلُ السَّفَاهِ
وبَاءَ الآمِرُوْنَ بكُلِّ عُرْفٍ ... فَمَا عَنْ مُنكَرٍ في الناس نَاهِ

فَصَارَ الحُرُ لِلْمَمْلوكِ عَبْداً   فَما لِلْحُرِّ مِنْ قَدْرٍ وجَاهِ
فَهَذَا شُغْلُهُ طَمَعٌ وجَمْعٌ   وَهذا غَافِلٌ سَكْرانُ لَاهِ

لِأَنَّ التَّسَاهُلَ بهَذِهِ الأُمُورِ يَفْتَحُ لِلنُّفُوسِ الخَبِيْثَةِ أبْوَابَ المعَاصِيْ فَتَنفُذُ إلى مَا تَشْتَهِي مِنْ خَبَائِثَ وَتَرى مَوْقِعَ ذلِكَ سَهْلاً عَلى النَّاسِ فَتَنْدَفِعُ إلى كلِّ مَا يَحْلُو لَها مَهْمَا كَانَ عَرِيْقاً في بَابِ الرَّذِيْلةِ آمِنَةً مِنْ تَغَيُّرِ وَجْهٍ أوْ انْقِبَاضِ قَلْبٍ لِمَا تَفْعَلُ .

وإذاً تَنْتَعِشُ الرَّذِيْلَةُ وَتَشْتَدُّ وَتَزْدَادُ وَيَقْوَى أهْلُهَا وَهُمْ الفَسَقَةُ لأنَّ أهْلَ الجَهْرِ بالفَاحِشَةِ يَكُونُونَ قُدْوَةً سَيِّئَةً لِغَيْرِهِمْ . وَالنُّفُوسُ مِنْ طَبِيْعَتِهَا التَّقْلِيْدُ وَالمُحَاكَاةِ لِمَا تَرى وتَسْمَعُ خُصُوصاً إذا كَانَ مَا تَراهُ أو تَسْمَعُهُ لَذَّةً وَاطْلَاقَا .

وَإذَا كَثُرَ جَيْشُ الرَّذِيْلَةِ في قُوَّةٍ قَلَّ جَيْشُ الفَضِيْلَةِ فيٰ ضَعْفٍ ، وَلا تَسْتَبْعِدْ أنْ يَتَغَلَّبَ جَيْشُ الرَّذِيْلةِ فَيُبِيْدَ جَيْشَ الفَضِيْلَةِ أوْ يَجْعَلَه في حُكْمِ المُبَادِ وَإنْ كَانَ لا يَزَالُ بَاقٍ مِنْهُ أفْرَادٌ .

وَإذَا كانَ غَضِبَ اللهُ جَلَّ وَعَلا عَلى عِبَادِهِ فعَاقَبَهُم في الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَةِ وَلا يَنْجُوْ مِنْ بَطْشِ اللّهِ وَعَذابِهِ إلا مَنْ كَانَ في جانِبِ دِيْنِه يَتَألَّمُ لهُ وَيَغضبُ عَلى مَخالِفِيْهِ آمِراً لَهُمْ وَنَاهِياً مَهْمَا نَالَهُ في سَبِيْلِ ذَلِكَ مِنْ إيْذاءٍ .

عَلَّمَنَا ذَلِكَ رَبُّنَا بِقَوْلِهِ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أنْجَيْنَا الذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأخَذْنَا الذِيْنَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بئِيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (وَمَا ظَلَمَهُم اللهُ وَلَكِنْ كانَوا أنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيْرٍ﴾، وَقَالَ في الآيةِ الأُخْرَىٰ ﴿ ظَهَر الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ بمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْ النَّاسِ لِيُذِيْقَهُم بَعْضَ الذِي عَمِلُوا لعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ .

إذاً عَاقِبَةُ التَّساهُلِ في الأَمْرِ بالمعَرُوف وَالنَّهْي عَن المُنْكَرِ شَقَاءُ الدُّنْيَا بمَا يَنْزِلُ مِنْ آلامٍ لِمَعاصِيْهِمْ التِيْ يَقْتَرِفُوْنَها آمِنِيْنَ مِنْ زَجْرٍ عَليهَا وَمَلامٍ وَشَقاءِ الآخِرَةِ بِمَا أَعَدّ رَبُّنَا لِلّعُصَاةِ مِنْ عَذَابٍ .

قَالَ بَعْضُهُم :

مَضَى الزَّمَانُ وَعَيْشِيْ عَيْشُ تَنْكِيدْ
وَالعُمْرُ وَلّى وَلَمْ أظفرْ بِمَقْصُوْدِ
وَالِ اليَقِيْنَ وَعَادِ الشَّكَ أجْمَعَهُ
عَظِّمْ إلَهَكَ لا تَرْكَنْ لِمَنْقودِ
فَالخَطْبُ عَمَّ وَصَارَ النَّاسُ كُلُّهُم
مُعَظِّمِيْنَ لِبِدْعِيٍّ وَمَرْدُوْدِ
هَذَا الزَّمَانُ الذِي كُنَّا نُحَاذِرُهُ
في قَوْلِ كَعْبٍ وفي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ
فَصَاحِبُ الدِّيْنِ مَمْقُوتٌ وَمُنْكَتِمٌ
وَصَاحِبُ الفِسْقِ فِيْهِم غَيْرُ مَطْهُودِ
كُلٌّ يُقَلِّدُ في الأَهْوَاءِ صَاحِبَهُ
حَتّى البِلَادُ لَهَا شَأْنٌ بِتَقْلِيْدِ
وَالأَمْرُ بِالعُرْفِ ثمَّ النَّهْيُ عَنْ نُكُرٍ
صَارَا لَدَيْنَا بلا شَكٍ كَمَفْقُوْدِ
إذَا نَصَحْتَ لِشَخْصٍ قَالَ أَنْتَ كَذَا
فِيْكَ العُيُوْبُ لَدَيْنَا غَيرُ مَحْمُوْدِ

أَضْحَى تَفَـاخُرُهُمْ في حُسْنِ بِزَّتِهِمْ
وَمَنْـزِلٍ حَسَنٍ عَـالٍ بِتَشْيِيْـدِ
وَجَمْـعِ حُلْيٍ وَخُـدَّامٍ وأَمْتِعَـةٍ
أيَّـامُهم فَنِيْتَ في جَمْـعِ مَنْقُـوْدِ
تَلْقَى الأَمِيْرَ مَعَ المـأمُوْرِ في وَهَنٍ
عَنْ رَفْعِ مَظْلَمَةٍ أوْ نَفْعِ مَنْكُـوْدِ
لِنَيْـلِ دُنْيَاهُمُ كـالأُسْدِ ضَـارِيَـةٍ
وَكُلُّهُم في الهَـوَىٰ مُبْـدٍ لِمَجْهُـودِ
إذَا رَأَوْا صَـالَحاً يَـدْعُو لِنَيْـلِ هُدَى
تَـأَنَّـبُـوْهُ بِـإيْـذَاءٍ وَتَـبْـعِـيْـدِ
حُكْمُ القَـوَانِيْنِ قَـالُـوا فِيْـهِ مَصْلَحَـةُ
وَفي الـرِّبَا سَـاعَدَتْ شِيْبٌ لِمَـوْلُـوْدِ
أهْلَ الحِجَى وَالنُّهَى مَالُـوا لِمُحْدَثَـةٍ
قَـالُـوا الشَّـرِيْعَـةَ لا تَكْفِيْ لِمَقْصُـودِ
أبْـدَوْا لَنَـا بِـدَعـاً مَـا كُنّـا نَعْـرِفُهَـا
وَجَـانَبُـوا نَهْـجَ تَـوْفِيْقٍ وَتَسْـدِيْـدِ
تَلْقَى الهَـوَىٰ وَالرِّبَـا وَالجَوْرَ مُـرْتَكَباً
وَالعِلْم وَالنُّصْـحَ فِيْهِمْ غَيْرَ مَـوْجُـوْدِ
وَالهَـرْجَ وَالمَـرْجَ تَلْقَـاهَـا مَـرُوَّجَـةً
وَالدِّيْنَ وَالسَّمْتَ في جِلْبَابِ مَـرْدُوْدِ
وَقُـلِّدَ الأَمْـرَ لِكُـعِيٍّ أخُـوْ بِـدَعٍ
لِجَلِبِ أمْـرٍ وَفِكْـرٍ غَيْـرِ مَحْمُـوْدِ

مُخَالِفُ الشَّرِّ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ
لَوْ نَالَ خَيْراً قُصَارَاهُ لِتَبْدِيْدِ
اَلبُهْتُ وَالذَّمُّ وَالايْذاءُ قَدْ وُجِدَتْ
لِكُلِّ مُنْتَسِبٍ يَوْماً لِتَوْحِيْدِ
فَالدِّيْنُ في غُرْبَةٍ وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ
بِخُبْثِ طَبْعٍ يُوَالِيْ كُلَّ مَطْرُوْدِ
صَارَ الذِيْ كَانَ تَأتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ
وَتَقْتَفِيْهِ بِأَمْرٍ غَيْرِ مَعْهُوْدِ
مَنْ كَانَ يَهْجُرُ ذَا بِدْعٍ وَمَظْلَمَةٍ
أَمْسَى يُبَاشِرُهَا مِنْ غَيْرِ تَرْدِيْدِ
فَالكُلُّ يَسْرِيْ لِمَا يَهْوَاهُ خَاطِرُهُ
لَمْ يَلْتَفِتْ لِمَرَاضِيْ خَيْرِ مَعْبُودِ
حَقُّ القَرِيْبِ وَحَقُّ الجَارِ أَهْمَلَهُ
مَنْ كَانَ نَعْرِفُهُ بِالدِّيْنِ وَالجُوْدِ
تُجَّارُهُمْ لَمْ تُزَكِّ وَيْلُ أُمِّهِمُ
مِنْ شَرِّ عَاقِبَةٍ في يَوْمِ مَوْعُوْدِ
لَا يَرْبُ سُحْتٌ كَمَا قَالَ الإِلَهُ لَكُمْ
كَسْبُ الحَرامِ طَرِيْقٌ غَيْرُ مَحْمُوْدِ
أَيْنَ الفِرَارُ وكَمْ مِنْ بِدْعَةٍ حَدَثَتْ
وَسُنَّةٍ دَرَسَتْ مِنْ غَيْرِ تَعْدِيْدِ
كَمْ مِنْ طَرائِقِ سُوْءٍ بَانَ مُنْكَرُهَا
وَمَنْهَلُ الحَقِّ أَضْحَى غَيْرَ مَوْرُوْدِ

فَمَـا الطَّرِيْقَـةُ إلاَّ نَهْـجُ أحْمَـدَ مَـعْ
أصْحَـابِـهِ السَّــادَةِ الغُـرِّ الصَّنَــادِيْـدِ
فَـأَخْلِصْ لِرَبِّـكَ وَاتبعْ نَهْـجَ سَيِّدِنـا
قَــوْلاً وَفِعْـلاً تَنَـلْ فَـوْزاً بِتَسْـدِيْـدِ
ثَعَــالِبُ السُّـوْءِ نَــادَتْ في أرَانِبِهَـا
هَـذَا زَمَـانُـكِ عِيْشِيْ عَيْشَ مَحْمُـوْدِ
مَا فِيْ الأَنَامِ حُمَـاةٌ غَيْرَ مَنْ رَحَلُوا
وَمَنْ بَقِيْ عِنْـدَنَـا في زِيِّ مَلْحُــوْدِ
وَاغُـرْبَـةَ الـدِّيْنِ وَالايْمَـانِ في زَمنٍ
أهْـلُ الهُـدَى بَيْنَ مَقْهُـوْرٍ وَمَظْهُـوْدِ
إنْ دَامَ هَـذَا وَلَمْ يَحْصُـلْ لَـهُ غِيَرٌ
لِمْ يُبْـكَ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْـرَحْ بِمَــوْلُـوْدِ
وَفَــارِقِ الكُــلَّ لا تَلْوِ عَـلى أَحَــدٍ
أَرْضـاً بـأَرْضٍ وَخِـلاّنـاً بِمَــوْجُـوْدِ
مَنْ كَــانَ تَــأْمَلُهُ في كَشْفِ مُعْضِلةٍ
أبْــدَى بِعُـذرٍ وَلا أجْــدَى بِمَقْصُـوْدِ
فَأَيُّ أَرْضٍ بِهَا الاسْـلامُ في شرَفٍ
وَسُنَّـةُ المُصْـطَفَى تَـزْهُـوْ بِتَجْـدِيْـدِ
أيْنَ الفِــرَارُ وَأيُّ الـدَّارِ نَلْقَى بِهَــا
وُلاتَـهَــا كُــلَّ مَيْـمُــوْنٍ وَمَحْـمُــوْدِ
عُمْـرِيْ غَدَا بَيْنَ وَاشٍ ثُمَّ مُبْتَـدِعٍ
يَــا رَبِّ يَسِّــرْ بِــأنصَـارٍ لِتَـوْحِيْـدِ

يَا صَاحِ مَنْ رَامَ فَوْزاً يَمْشِيَنَّ عَلى
طَرِيْقَةِ المُصْطَفَى يُحْظَى بِتَسْعِيْدِ
وَآلِهِ ثُمَّ أَصْحَابٍ لَهُ تَبَعٌ
فَازُوا بِسَبْقٍ وَفَاقُوْنَا بِتَسْدِيدِ
وَقَادَةِ الخَيْرِ كَالنُّعْمَانِ أولِهِمْ
وَأَحْمَدَ وَابْنِ ادْرِيْسٍ أَخَا الجُوْدِ
وَمَالِكٍ كُلِّهِمْ كَانُوا أئِمَّتَنَا
أئِمَّةُ النَّاسِ قَدْ جَاؤُوا بِمَقْصُوْدِ
نَوَاقِضُ الدِّيْنِ عَشْرٌ تِلْكَ فَافْهَمَهَا
لِكَيْ تَنَالَ نَعِيْماً غَيْرَ مَحْدُوْدِ
وَحُبَّ في اللهِ لا تَرْكَنْ لِمُبتَدِعٍ
وَاهْجُرْ رِجَالَ الخنَا حُبّاً لِمَعْبُودِ
وَلاَزِمِ السُّنَّةَ الغَرَّاءَ تَنْجُ بِهَا
عِنْدَ اللِّقاءِ بِفَوْزٍ غَيْرِ مَحْدُوْدِ
وَلاَ تُوافِقْ لأَهْوَاءٍ تُلَفِّقُهَا
أَقْوَامُ سُوْءٍ بِلاَ شَكٍّ وَتَرْدِيْدِ
خَيْرُ الأُمورِ أخِيْ مَا كَانَ مَرْجِعُهُ
إلى الرَّسُولِ بِلاَ شَكٍّ وَتَرْدِيْدِ
فَامْسِكْ عَلَيْهِ وَجَانِبْ كُلَّ مُنْحَرِفٍ
لِكَيْ تَفُوزَ بِدَارِ الخُلْدِ وَالجُوْدِ

اللهُم افْتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ وَالاجَابَةِ وَارْزُقْنَا صِدْق التَّوْبَةِ وَحُسْنَ الانَابَةِ وَيَسِّرْنَا لِلْيُسْرَى وَجَنِّبْنَا العُسْرَى وَآتِنَا في الدُّنيا حَسَنَةً وفي

الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَأَمَّا عَلِيّ بْنُ أبي طَالِبٍ فَالَيْكَ نَمَاذِجُ مِنْ عَدْلِهِ وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ ، قَالَ رضي اللهُ عَنْهُ في خُطْبَتِهِ عَقِبَ البَيْعَةِ لَهُ : أَيُها النَّاسُ إنَّمَا أنَا رَجُلٌ مِنْكُم لِيْ مَا لَكُمْ وَعَليَّ مَا عَلَيْكُم ، وإنّي حَامِلُكُم عَلى مَنْهج نَبِيِّكُمْ وَمُنَفِّذٌ فِيْكُم مَا أُمِرْتُ بِهِ ، ألاَ إنَّ كُلَّ قَطِيْعَةٍ أقْطَعَهَا عُثْمَانُ .

وَكُلُّ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللّهِ فَهُوَ مَرْدُودٌ في بَيْتِ المَالِ ، فإنَّ الحَقَّ لا يُبْطِلُهِ شَيءٌ وَلَوْ وَجَدْتُه قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاء وَمُلِكَ الامَاء وَفُرِّقَ في البُلدَانِ لرَدَدْتُه فإنَّ العَدْلَ سَعَةٌ .

وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الحَقُّ فَالجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ ، أَيُّهَا النَّاسُ ألا لاَ يَقُولَنَّ رِجَالٌ مِنْكُم غَداً قَدْ غَمَرَتْهُم الدُّنْيَا فامْتَلَكُوا العَقَارَ وَفَجَّرُوا الأَنْهارَ وَرَكِبُوا الخَيْلَ وَاتَّخَذُوا الوَصَائِفَ الْمُرَفَّعَةَ إذَا مَا مَنَعْتُهم مَا كانُوا يَخُوضُون فِيْهِ وَأَصَرْتُهم إلى حُقُوْقِهِمْ التِيْ يَعْلَمُونَ « حَرَمَنَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ حُقُوقَنَا » .

ألاَ وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِن المهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَرى أنَّ الفَضْلَ لهُ على سِوَاهُ بِصُحْبَتِهِ فَإنَّ الفَضْلَ غَداً عِنْدَ اللّهِ وَثَوَابُه وَأَجْرُهُ عَلى اللّهِ ، ألاَ وَأَيُّمَا رَجُلٍ اسْتَجَابَ لِلّهِ وَلِرَسُوْلِهِ فَصَدَّقَ مِلَّتَنا وَدَخَلَ دِيْنَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا فَقَد اسْتَوْجَبَ حُقُوقَ الاسْلامِ وَحُدُوْدَهُ .

فَأَنْتُمْ عِبَادُ اللهِ ، وَالمَالُ مَالُ اللهِ ، يُقْسَمُ بَيْنَكُمْ بالسَّوِيَّةِ وَلا فَضْل فِيْهِ لأَحَدٍ عَلى أَحَدٍ وَلِلْمُتَّقِيْنَ عِنْدَ اللهِ أَحْسَنُ الجَزَاءِ .

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عَنْ عَلِيّ بْنِ رَبِيْعَةَ الوَالِبِيْ عَنْ عَلِيّ بْنِ أبي طَالِبٍ قَال جَاءَ ابْنُ النَّبَاجِ فقالَ يا أَمِيرَ المُؤْمنينَ امْتَلأ بَيْتُ مَالِ المُسْلِمِينَ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ فقَالَ اللهُ أكْبَرُ فقَامَ مُتَوَكِئاً على ابْنِ النَّباجِ حَتَّى قَامَ عَلى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِيْنَ فَقَالَ :

هَـذا جَـنَـايَ وَخِـيَـارُهُ فِـيْـهِ
وَكُـلُّ جَـانٍ يَـدُهُ إلـى فِـيْـهِ

يَا ابْنَ النَّباجِ عَلَيَّ بأَشْيَاعِ الكُوْفَةِ قَال فَنُودِيَ في النَّاسِ فَأَعْطى جَمِيْعَ مَا فِيْ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمين وَهُوَ يَقُوْلُ : يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرِيْ غَيْرِي هَا وَهَاحَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهُ دِيْنَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ثُمَّ أَمَرَ بِنَضْحِهِ وَصَلى فِيْهِ رَكْعَتَينِ وَعَنْ مَجْمع التَّيْمِيّ قَالَ كَانَ عَلِيّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ يَكْنِسُ بَيْتَ المَالِ وَيُصَلِّيْ فِيْهِ وَيَتَّخِذُهُ مَسْجِداً رَجَاءَ أَنْ يَشْهَدَ لهُ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ العَلا عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ سَمِعْتُ عَلِيّ بْنَ أَبِيْ طَالِبٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ مَا أَصَبْتُ مِنْ فَيْئِكُم غَيْرَ هَذِهِ القارُوْرَةِ أَهْدَاهَا إلَيَّ الدَّهْقَانُ ، ثُمَّ نَزَلَ إلى بَيْتِ المالِ ففَرَّقَ كُلَّ مَا فِيْهِ ، وَلَمَّا قَرَّرَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم الهِجْرَةَ مِنْ بَيْتِهِ الذِيْ أحَاطَ بِهِ المُشْرِكُوْنَ لِيَقْتُلُوهُ إثْرَ مَكْرِهِمْ بِهِ في دَارِ النَّدْوَةِ وَضَعَ مَكَانَهُ في فِرَاشِهِ ابْن عَمِّهِ أبَا الحَسَنِ عَلِيّاً رَضيَ اللهُ عَنْهُ .

وَآثَرَ عَلِيٌّ أَنْ يَكُوْنَ الفِدَا لِرَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأنْ

يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلسُّيُوْفِ سُيُوْفِ المُشْرِكِيْنَ تُقَطِّعُ لَحْمَهُ وَتُزْهِقُ رُوْحَهُ وَبذَلِكَ فَدَى بِنَفْسِهِ رَسُولَ اللّهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلِمَ وَفِيْهِ يَقُولُ النَاظِمُ لِلعَقِيْدَةِ :

وَلاَ تَنْسَ صِهْرَ المُصْطَفَى وَابْنَ عَمِّهِ
فَقَدْ كَانَ حَبْراً لِلْعُلُومِ وَسَيِّدَا
وَفَادَى رَسُولَ اللهِ طَوْعاً بِنَفْسِهِ
عَشِيَّةَ لَمَّا بالفِرَاشِ تَوَسَّدَا
وَمَنْ كَانَ مَوْلاَهُ النَّبِيّ فَقَدْ غَدَى
عَلِيٌّ لَهُ بالحَقِّ مَوْلَىً وَمُنْجِدَا

اللّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوْبَنَا بِطَاعَتِكَ وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَارْزُقْنَا الانَابَةَ إلِيْكَ وَحُسْنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَرُوِيَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْماً فَقالُوا لهُ لَوْ أعْطَيْتَ هَذِهِ الأمْوَالَ ، وَصَلْتَ بِهَا هَؤُلاءِ الاشْرَافَ ، وَمَنْ تَخَافُ فِرَاقَهُ ، حَتَّى إذَا اسْتَتَبَّ لَكَ مَا تُرْيدُ عُدْتَ إلى مَا عَوَّدَكَ اللهُ مِن العَدْلِ في الرَّعِيَّةِ وَالقِسْمَةِ بِالسَّوِيَّةِ .

فَقَالَ أَتَأْمُروْنِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالجَوْرِ فِيْمَنْ وُلِّيْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ

الاسْلَامِ وَاللّهِ لَا أَفْعَلُ ذَلكَ لَوْ كَانَ هَذَا المالُ لِيْ لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُم فِيْهِ كَيْفَ وَإنَّمَا هِيَ أمْوَالهُم .

وَرُوِيَ أنَّ أخَاهُ عَقِيْلاً سَأَلَهُ شَيْئاً مِنْ بَيْتِ المَالِ فَقَالَ إذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ فَأْتِنِيْ ، فَأَتَاهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إلى المَسْجِدِ ، وَقَدْ اجْتَمَع فِيْهِ النَّاسُ فقالَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ مَا تَقُوْلُ فِيمَنْ خَانَ هَؤُلاءِ ، فَقَالَ أَقُوْلُ إنَّهُ رَجُلُ سُوْءٍ ، فَقَالَ إنَّكَ سَأَلْتَنِيْ أنْ أخُونَهم أوْ كَما قَالَ .

وَرُوِيَ عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفْلَةَ قَالَ دَخَلْتُ عَلى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِيْ طَالِبٍ بَعْدَ مَا صَارَ إلَيْهِ الأمْرُ فَإذَا هُوَ جَالِسٌ عَلى مُصَلى لَيْسَ في دَارِهِ سِوَاهُ فَقُلْتُ يا أميرَ المؤمنينَ أنْتَ مَلِكُ الاسْلامِ ، وَلا أرَى في بَيْتِكَ أثاثاً وَلا مَتَاعاً ، سِوَى مُصَلًّى أنْتَ جَالِسٌ عليه فَقَالَ يا ابْنَ غَفْلَةَ إنَّ اللَّبِيْبَ لا يَتَأَثَّثُ في دَارِ النُّقْلَةِ، وَأمَامَنَا دارٌ هِيَ دَارُ المُقَامِ ، وقَدَ نَقْلْنَا إلَيْهَا خَيْرَ مَتَاعٍ وَنَحْنُ إلَيْهَا مُنْتَقِلُونَ .

وَعَنْ بعْضِهِمْ قَالَ رَأَيْتُ عَلِيّاً يَطْوْفُ وَبِيَدِهِ الدُّرَّةُ وَعَلَيْهِ إزَارٌ فِيْهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رُقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ جِلْدٍ

وَمِنْ كَلامِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ألاَ وَإن إمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفى مِن الدُّنْيا بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طَعَامِهِ بِقُرْصَيْهِ ، ألاَ وَإنَّكُمْ لا تَقْوَوْنَ عَلى ذَلِكَ وَلَكِنْ أعِيْنُونِيْ بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، فَوَاللّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً ، وَلا أحْرَزْتُ مِنْ غنَائِمِهَا وَفْرًا .

إلَى أنْ قَالَ وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيْقَ إلَى مُصَفَّى هَذَا العَسَلِ ، وَلُبَابِ هَذَا القَمْحِ ، وَنَسَائِجِ هذا القَزِّ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أنْ يَغْلِبَنِيْ هَوَايَ ،

وَيَقُوْدُنِيْ جَشَعِيْ إلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ .

وَلَعَلَّ بِالحِجَاز وَاليَمَامَةِ مَنْ لاَ يُدْرِكُ القُرْصَ ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بالشِّبَع ، أوَ أَبِيْتُ مِبْطَاناً وَحَوْلِيْ بُطُوْنٌ غَرْثَى مِن الجُوْعِ ، وَأَكْبُدٌ حَرَّاءُ ، فأكُونُ كَمَا قَالَ القائِلُ :

وَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ تَبِيْتَ بِبِطْنَةٍ
وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إلى القِدِّ

ومِنْ كَلامِ عَلِيّ رَضي اللهُ عَنْهُ في كِتَابِ العَهدِ لِلأَشْتَرِجِيْن وَلاَّهُ مِصْرَ وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الذَّخَائِرِ إلَيْكَ ذَخِيْرَةَ العَمَلِ الصَّالِحِ فَامْلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَنْ مَا لا يَحِلُّ لكَ ، فإنَّ الشُّحَّ بالنَّفسِ بالانْصَافِ مِنْهَا فِيما أَحَبَّتْ وَكَرِهَتْ ا.هـ.

وقال غيره الهَوى والنفسُ يُنتِجَانِ مِن الأخلاقِ قَبائِحَها ويُظْهِرانِ مِن الأفعالِ فضائِحهَا .

إذا ما رَأيْتَ المَرْءَ يقتاده الهوى — فَقَدْ تَكِلَتْه عند ذاك ثَواكِلُه
وما يَرْدَعُ النَفْسُ الحَرُوْنَ عن الهَوَى — مِن الناسِ إلّا حازِمُ الرأْيِ كَامِلُهْ
وقد أَشمَتَ الأعْدَاءَ جهلا بنَفْسِهِ — وقَدْ وَجَدَتْ فيه مَقَالاً عَوَاذِلُهْ

إذا اشْتَبَهَ الأَمـران فالخَيرُ فـي الـذي
تَـراهُ إذا كَـلَّفْتَـه الـنفـسَ يَثْقُـلُ
فَجَانِبْ هَـوَاهَـا واطـرح مـا تُـرِيْـدُهُ
مِـن اللهـوِ واللـذاتِ إن كنتَ تَعْقِـلُ

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ المَحَبَّةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالرَّحْمَةِ بِهِمْ وَالرِّفْقَ بِهِمْ وَلاَ تَكُوْنَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعَاً ضَارِيَاً يَغْتَنِمُ أكْلَهُمْ ، فَإنَّمَا هُمْ صِنْفَانِ إمَّا أخٌ لَكَ في

الدِّيْنِ ، أَوْ نَظِيْرٌ لَكَ فِي الخُلُقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُم الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُم العِلَلُ وَيَأْتِيْ عَلَى أَيْدِيْهِم العَمْدُ والخَطَأُ .

فأعْطِهُمْ مِنْ عَفْوِكَ ، وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيْكَ اللّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِيَ الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ ، وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ .

وَفِيْهِ لاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ وَلاَ تَبَجَّحَنَّ بِعُقُوْبَةٍ وَلاَ تُسْرِعَنَّ إلى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوْحَةً .

ولاَ تقُولَنَّ إني امْرُؤٌ آمُرُ فَأُطَاع ، فَإِنَّ ذَلِكَ إدْغَالٌ في القَلْبِ وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّيْنِ ، وَتَقَرُّبٌ مِن الغَيْرِ .

فَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا فِيْهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةٌ أو مَخْيَلَةٌ فانْظُرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ اللّهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ على مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ .

وَفِيْهِ إِيَّاكَ وَمُسَامَاتِ اللّهِ في عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ في جَبَرُوتِهِ، فإنَّ اللهَ يُذِلُّ كَلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهِيْنُ كُلَّ مُخْتَالٍ ؛ أَنْصِفِ اللهَ ، وَانْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لكَ فِيْهِ هَوَىً مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفعَلْ ذَلِكَ تَظْلِمْ وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ ، دُوْنَ عِبَادِهِ ،وَمَنْ خَاصَمَهُ اللّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ .

وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ عَنْكَ وَأَشْنَؤُهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبَهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ فَإِنَّ في النَّاسِ عُيُوبَاً الوَالِيْ أَحَقُّ بِسَتْرِهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَنْ مَا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيْرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ .

وَفِيْهِ وَلاَ تَعْجَلَنَّ بِتَصْدِيْقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيْ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِيْنَ وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُوْرَتِكَ بَخِيْلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الفَضْلِ وَيَعِدُكَ الفَقْرَ وَلاَ جَبَانَاً يُضْعِفُكَ عَنِ الأمُوْرِ وَلاَ حَرِيْصَاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالجَوْرِ وَلاَ يَكُوْنُ المُحْسِنُ وَالمُسِيءُ عِنْدَكَ سَوَاءً بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيْدَاً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ وَتَدْرِيْبَاً لأَهْلِ الاسَاءَةِ وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ .

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ النَّاسِ الذِيْنَ لا حِيْلَةَ لَهُمْ وَالمَسَاكِيْنَ وَالمُحْتَاجِيْنَ وَالبُؤْسَاءِ وَالزَّمْنَى فاحْفَظَ اللهَ فِيْهِما كَمَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيْهِمْ وَاجْعَلْ لَهُم قِسْمَاً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ وَسَهْمَاً مَنْ غَلاَّتِ صَوَافِيِ بَلَدِكَ .

وَتَفَقَّدْ أُمورَ مَنْ لا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهَمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ العُيُوْنُ وَتَحْتَقِرُهُ الرِّجَالُ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَحَقُّ بِالانْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَتَعَهَّدْ أَهْلَ اليَتِيْمِ وَأُوْلِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لا حِيْلَةَ لَهُ وَلاَ يَنْصِبُ نَفْسَهُ لِلْمَسْأَلَةِ وَذَلِكَ عَلَى الوُلاَةِ ثَقِيْلٌ وَالحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيْلٌ .

وَفِيْهِ وَلاَ يَطُوْلَنَّ احْتَجَابُكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّ احْتَجَابَ الوُلاَةِ عَنْ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيْقِ وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُوْنَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمْ الكَبِيْرُ وَيَعْظُمُ عِنْدَهُمْ الصَّغِيْرُ وَيَقْبُحُ الحَسَنُ وَيَحْسُنُ القَبِيْحُ وَيُشَابُ الحَقُّ بِالبَاطِلِ .

وَفِي كِتَابِهِ رَحِمَهُ اللهُ وَإِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّها ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيءٌ أَدْعَى لِنَقْمَةٍ وَلاَ أعْظَمَ تَبعَةٍ وَلاَ أَحْرَى لِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، فَإِنَّ

ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوْهِنُهُ ، بَلْ يُزِيْلُهُ وَيَنْقُلُهُ وَأخِّرْ السَّطْوَةَ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الخِيَارَ ، وَلَنْ تُحْكِمَ ذَلِكَ حَتَّى تَكْثُرَ هُمُوْمُكَ بِذِكْرِ المَعَادِ إلى رَبِّكَ وَالسَّلَامُ .

وَعَنْ الشَّعْبِيّ قَالَ : وَجَدَ عَليُّ بْنُ أَبي طَالِبٍ دِرْعَهُ عِنْدَ رَجُلٍ نَصْرَانِيّ فَأقْبَلَ بِهِ إلى شُرَيْحٍ يُخَاصِمُهُ قَالَ فَجاءَ عَلِيٌّ حَتَّى جَلَسَ إلى جَنْبِ شُرَيْحٍ قَالَ يَا شُرَيْحُ لَوْ كَانَ خَصْمِيْ مُسْلِماً مَا جَلَسْتُ إلا مَعَهُ وَلَكِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كُنْتُمْ وَإيَّاهُمْ في طَرِيْقٍ فَاضْطَرُّوْهُمْ إلى مَضَايِقِهِ وَصَغِّرُوْا بِهِمْ كَمَا صَغَّرَ اللهُ بِهِم مِنْ غَيْرِ أنْ تَطْغَوْا ثمَّ قَالَ : هَذَا الدِّرْعُ دِرْعِيْ وَلَمْ أَبِعْ وَلَمْ أهَبْ.

فَقَالَ شُرَيْحٌ لِلنَّصْرَانِيّ مَا تَقُولُ فِيْمَا يَقُولُ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ فَقَالَ النَّصْرَانِيّ مَا الدِّرْعُ إلاّ دِرْعِيْ ، وَمَا أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ عِنْدِيْ بِكاذِبٍ فَالْتَفَتَ شُرَيْحٌ إلى أميْرِ المؤمنينَ عَلِيّ بْنِ أَبِيْ طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ هَلْ مِنْ بَيِّنَةٍ فَضَحِكَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عنه ، وَقَالَ أصَابَ شُرَيْحٌ مَالِيْ فَقَضَى شُرَيْحٌ بِهَا لِلنَّصْرَانِيّ .

قَالَ فَأَخَذَهُ النَّصْرَانِيّ وَمَشَى خُطاً ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أنَّ هَذِهِ أَحْكَامُ الأنْبِيَاءِ، أمِيْرُ المؤمِنِيْنَ يُدْنِيْنِيْ إلى قَاضِيْهِ يَقْضِيْ عَلَيْهِ .

أَشْهَدُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه ، الدِّرْعُ وَاللهِ دِرْعُكَ يَا أَمِيْرَ المؤمنيْنَ اتَّبَعْتُ الجَيْشَ وأنْتَ مُنْطَلِقٌ إلى صِفِّينَ فَخَرَجَتْ مِنْ بَعِيْرِكَ الأَوْرَقِ فَقَالَ أمَّا إذَا أسلَمْتَ فهِيَ لَكَ وَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ .

شِعْراً :

لَعَمْرُكَ مَا تُغْنِي المَغَانِيْ وَلاَ الغِنَى
إذَا سَكَنَ المُثْرِيْ الثَّرَىٰ وَثَوَىٰ بِهِ
فَجُدْ فِي مَرَاضِيْ اللّهِ بالمالِ رَاضِياً
بِمَا تَقْتَنِيْ مِنْ أجْرِهِ وَثَوَابِهِ
وَعَاصِ هَوَى النَّفْسِ الذِي مَا أَطَاعَهُ
أخُوْ ظَلّةٍ إلاَّ هَوَى مِنْ عُقَابِهِ
وَحَافِظْ عَلَى تَقْوَى الآلَهِ وَخوْفِهِ
لِتَنْجُوَ مِمَّا يُتّقَى مِنْ عِقَابِهِ
وَلاَ تَلْهُ عَنْ تِذْكَارِ ذَنْبِكَ وَابْلُهُ
بِدَمْعٍ يُضَاهِيْ المُزْنَ حَالَ مُصَابِهِ
وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ الحِمَامَ وَوَقْعَهُ
وَرَوْعَةَ مُلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ
وَإنَّ قُصَارَى مَنْزِلِ الحَيِّ حُفْرَةٌ
سَيَنْزِلُهَا مُسْتَنْزَلاً عَنْ قِبَابِهِ
فَواهاً لِعَبْدٍ سَاءَهُ سُوْءُ فِعْلِهِ
وَأبْدَى التَّلاَفِيْ قَبْلَ إغلاَقِ بَابِهِ

قَالَ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِعَمَّارٍ عَلاَمَ تَتَأَوَّهُ ؟ إنْ كَانَ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ خَسِرَتْ صَفْقَتُكَ ، وإنْ كانَ عَلَى الآخِرَةِ فَقَدْ رَبِحَتْ تِجَارَتُكَ ، يَا عَمَّارُ إنِّيْ وَجَدْتُ لَذّاتِ الدُّنْيَا فِي أحْقَرِ الأشْيَاءِ الطَّعَامِ وَأفْضَلُهُ العَسَلُ وَهُوَ مِنْ حَشَرَةٍ ، المَشْرُوْبَاتِ ، وَأَفْضَلُهَا سَائِرَةٌ في الهَوَاءِ .

المَلْبُوْسَاتُ وَأَفْضلُهَا الحَرِيـرُ وَهُوَ مِنْ دُوْدِ القَزِّ ، المَشْمُوْمَـاتُ وَأَفْضَلُهَا المِسْكُ وَهُوَ مِنْ فَأرَةٍ ، المَسْمُوْعَاتُ وَهِيَ أعْرَاضٌ سَائِرَةٌ في الهَوَاءِ .

النِّكَاحُ وَهُوَ مَبَالٌ في مَبَالٍ وَحَسْبُكَ أَنَّ المَرْأةَ تَتَزَيَّا بِأَقْبَحِ شَيءٍ فِيْهَا : هَذِهِ العِظَةُ تَكْشِفُ لَنَا عَنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللّهِ حَيْثُ جَعَلَ لَذَّاتِهَا في أَحْقَرِ الأَشياء .

ومن الحكم المروية عنه ما يلي :

وقال رضي الله عنه « البخل عار والجبن منقصة والفقر يخرس الفطن عن حجته والمقل غريب في بلدته والعجز آفة والصبر شجاعة والزهد ثروة والورع جنة » .

وقال « نعم القرين الرضى والعلم وراثة كريمة والآداب حلل مجددة والفكر مرآة صافية » .

وقال « صدر العاقل صندوق سره والبشاشة حبل المودة والاحتمال قبر العيوب » وقال « إذا أقبلت الدنيا على أحد اعارته مَحَاسِنَ غيره وإذا ادبرت عنه سلبته محاسن نفسه » .

وقال « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه » وقال « إذا وصلت اليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر » .

وقال « من جري في عنان امله عثر بأجله » وقال « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ويروى هذا عن رسول الله ﷺ « من كفارات الذنوب العظام اغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب » .

وقال « يابن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره » وقال « الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر » .

وقال « فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه » وقال « كن سمحاً ولا تكن مبذراً وكن مقدراً ولا تكن مقتراً » .

وقال « من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه بما لا يعلمون » .

وقال طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عنه الله » .

وقال احذروا صولة الكريم إذا جاع وصولة اللئيم إذا شبع » وقال « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة » وقال « القناعة مال لا ينفذ » .

وقال « اللسان سبع ان خلى عنه عقر » وقال « فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها » وقال « لا تستح من اعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه » .

وقال « إذا تم العقل نقص الكلام » وقال « من نصب نفسه للناس اماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلم نفسه ومأدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » وقال « قيمة كل امرىء ما يحسنه » .

وقال « أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الابل لكانت لذلك أهلا لا يرجون أحد منكم الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستحين احد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ولا يستحين احد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه .

وعليكم بالصبر فان الصبر من الايمان كالرأس من الجسد ولا خير في جسد بغير رأس ولا في إيمان لا صبر معه » .

وقال « من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح أمر آخرته اصلح الله له امر دنياه ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ » .

وقال « اعقلوا الخبر عقل رعاية لا عقل رواية فان رواة العلم كثير ولكن رعاته قليل » وقال « لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم الا فتح الله عليهم ما هو أضر منه » وقال « اضاعة الفرصة غصة » .

وقال « عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب ويفوته الغني الذي إياه طلب فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الاغنياء .

وعجبت للمتكبر الذي كان بالامس نطفة ويكون غداً جيفة .

وعجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله .

وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموتى .

وعجبت لمن انكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى .

وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء » .

فيا عَجَبًا مِمَّنْ يُضَيِّعُ حَيَاتَهُ ... على حِفْظِ مالٍ وهو لِلْغَيْرِ يَدْخَرُ
ومَنْ تُتَوفى نفسُه كُلَّ ليلةٍ ... وترجعُ فيه كَيْفَ لِلْبعْثِ يُنْكِرُ
بَلَى قَادِرٌ أَنْشَاهُ أَوَّل مَرَّةٍ ... عَلَى رَدِّ رُوحٍ منه في الجِسْمِ أَقْدَرُ

وقال « لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث في نكبته وغيبته ووفاته » وقال « تنزل المعونة على قدر المؤنة » .

وقال « المرء مخبوء تحت لسانه » وقال « لا يعدم الصبور الظفر وان طال به الزمان » .

وقال « الراضي بفعل قوم كالداخل معهم وعلى كل داخل في باطل اثمان اثم العمل به واثم الرضى به » .

وقال « من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها » وقال « من كتم سره كانت الخيرة بيده » وقال « الاعجاب يمنع من الازدياد » .

وقال « الناس اعداء ما جهلوا » وقال « زاجر المسيء بثواب المحسن » وقال « الطمع رق مؤبد » وقال « لم يذهب من مالك ما وعظك » .

وقال « لا يزهدنك في المعروف من لا يشكر لك فقد يشكرك عليه من لا يستمتع به وقد تدرك من شكر الشاكر اكثر مما أضاع الكافر والله يحب المحسنين » .

وقال « بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد » وقال « من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه » .

وقال « الكرم أعطف من الرحم » وقال « من ظن بك خيراً فصدق ظنه » وقال « الحدة ضرب من الجنون فان صاحبها يندم فان لم يندم فجنونه مستحكم » . إنتهى .

اللهم إنَّك تَعْلَمُ سِرَّنَا وَعَلاَنِيَتَنَا وتَسْمَعُ كَلاَمَنَا وتَرَى مَكَانَنَا لاَ يَخْفَى عَليكَ شيْءٌ مِن أَمْرِنَا نَحْنُ البُؤَسَاءُ الفُقَراءُ إليكَ المستغيثون المستجيرونَ بكَ نَسْأَلُكَ أَنْ تُقَيِّظَ لِدِيْنِكَ مَنْ يَنْصُرُهُ ويُزِيلُ مَا حَدَثَ مِن البِدَعِ وَالمُنْكَراتِ ويُقِيْمُ عَلَمَ الجِهَادِ ويَقْمَعُ أَهْلَ الزَّيْغِ والكُفْرِ والعِنَادِ ونَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا وجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أَرْحَم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

مواعظ ونصائح

وعن رجل مِن بني شيبان أن عليَّ بنَ أبي طالب عليه السلام خطب فقال : « الحمد لله أَحمده وأستعِينه ، وأؤمِنُ بهِ وأتوكلُ عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودِين الحق لِيُزِيْحَ به

عِلَّتَكُمْ ، ولِيُوقِظَ به غَفْلَتَكُم ، واعلموا أنكم مَيِّتُون ومَبْعُوثُون مِن بعدِ الموت ومَوْقُفُون على أعمالكم ومجزّيُونَ بها .

فلا تَغُرنّكُم الحَيَاةُ الدنيا فانها دارٌ بالبلاء محفُوفةٌ ، وبالفناء معروفة ، وبالغَدر مَوْصُوفَةٌ ، كُلُ ما فيها زَوال وهي بينَ أهلِها دُوَلٌ وسِجَال ، لا تَدُومُ أهوالُها .

ولن يَسْلَمَ مِن شرِها نُزَّالُها ، بينا أهلِها منها في رَخَاءٍ وسُرُور ، إذاهم منها في بلاء وغُرُور ، أَحْوَالٌ مُخْتَلِفة ، وتاراتٌ مُتَصَرّفَةٌ .

العيشُ فيها مَذْمُوم ، والرخاءُ فيها لا يَدُوم ، وإنما أهلُهَا فيها أغراضٌ مُسْتَهْدَفَة تَرْمِيهم بسهامِها ، وتقصِمُهم بِحِمامِها ، حتفُه فيها مَقْدُور وحظُّه فيها مَوْفُور .

واعلموا عبادَ اللّهِ وما أنتم فيه مِن زهرةِ الدنيا على سبيل مَن قد مَضَى مِمَّنْ كان أطولَ منكم أعماراً ، وأَشَدَّ منكم بَطْشًا ، وأَعْمَرَ دِياراً ، وأبعدَ آثاراً .

فأصْبَحَتْ أموالهُم هامِدَةً مِن بعدِ نُقْلَتِهِم ، وأَجْسَادُهُم بالِية وَدِيارُهُم خَالِية ، وآثارُهُم عافِية .

فاستبدلُوا بالقُصورِ المُشَيَّدَةِ والنمارقِ المُمَهَدَةِ الصُّخُورَ والأحجارَ في القُبور التي قَدْ بُنِيَ على الخراب فِناؤُهَا ، وشُيِّدَ بالتراب بِنَاؤُهَا .

فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبْ ، وساكنها مُغْتَرِبْ ، بينَ أَهْلِ عِمَارَةٍ مُوْحِشِيْن ، وأَهْلِ مَحَلَّةٍ مُتَشَاغِلِين ، لا يَسْتَأْنِسُونَ بالعُمْران ، ولا يَتواصَلُون تَواصُلَ الجيران والإخوان ، على ما بينهُم مِن قُرْب الجوار ، ودُنُوّ الدار .

وكَيْفَ يكونُ بَيْنَهُم تَواصُلٌ وقد طَحَنَهُم بِكَلْكَلِه البَلَى وأَظَلَّتْهُمُ الجَنَادِلُ والثّرَى ، فأَصْبَحُوا بعد الحياة أَمْوَاتًا ، وبَعْدَ غَضَارَةِ العَيْشِ رُفَاتًا .

فُجِعَ بهم الأَحْبَاب ، وسَكَنُوا التُراب ، وظَعَنُوا فليسَ لهم إِياب ، هَيْهَاتَ هَيْهاتَ ، « كَلّا إِنّها كَلمةٌ هو قائلها ومنِ وَرَائِهِمْ برزَخٌ إلى يوم يُبْعَثُون » .

وكأَنْ قد صِرْتُم إلى مَا صَارُوا إليه مِن البلى ، والوَحْدَةِ في دَارِ المَثْوَى ، وارْتُهِنْتم في ذلك المَضْجَع ، وضَمَّكُم ذلك المُسْتَودَع .

فكيف بكم لو قَدْ تَنَاهَت الأُمُور ، وبُعثِرتِ القُبور ، وحُصّل ما في الصُدور ، وَوَقَفْتُم لِلّتحْصِيل ، بين يَدَي المِلكِ الجَليل .

فَطَارَتِ القُلوب ، لإِشْفَـاقِها مِن سَالفِ الذُنُوب ، وهُتكَتْ عَنكُم الحُجُب والأَسْتَار ، وظَهَرتْ مِنكم العُيوبُ والأَسْرَار .

هُنَـالِـكَ « تُجْزى كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ » إن الله عز وجـل يقـول : ﴿ لِيَجْزيَ الذينَ أساؤوا بما عَمِلوا وَيجْزيَ الذين أَحسنوا بالحسنى ﴾ .

وقال : ﴿ وَوُضِعَ الكتابُ فتري المُجْرمينَ مُشْفِقينَ ممّا فيه ويقولون : يا وَيْلَتنا ما لِهذا الكتاب لا يغُادِر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ؟ وَوجدوا ما عملوا حاضِراً ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحَداً ﴾ .

جعلنـا الله وإياكم عاملين بكتـابـه ، متّبعـين لأوليائه ، حتى يُحِلّنا وإياكم دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ، إنه حميد مجيد .

عن الحسن ، عن عليّ عليه السلام ، قال : طُوبى لِكُلِّ عبدٍ نُوَمَةٍ عَرَفَ الناسَ ولم يعرفه الناسُ ، عَرَفَه اللّهُ برضوان .

أولٰئـك مَصَـابيحُ الهُـدى ، يَكْشِفُ اللّهُ عنهم كُلَّ فِتنـةٍ مُظْلِمـة ، سيدخلهم الله في رحمة منه ، لَيْسُوا بالمَذَايِيْعِ البُذُرِ ولا الجُفَاةِ المُرائِين .

وعن عاصم بن ضَمْرة عن عليّ عليه السلام : « ألا إن الفقيه الذي لا يُقنِط مِن رحمةِ اللّهِ ولا يُؤمِنُهُم مِن عذابِ الله ، ولا يُرَخّصُ لهم في مَعَاصِي الله .

ولا يَدَعُ القُرآن رَغْبَةً عنه إلى غَيرِهِ ، ولا خَيْرَ في عِبَادَةٍ لا عِلْمَ فيها ولا خير في علم لا فَهْمَ فيه ، ولا خَيْرَ في قِراءةٍ لا تَدَّبُّرَ فيها » .

عن الشعبي ، أَنَّ عليًا عليه السلام قال : « يا أيها الناس ، خُذُوْا عني هؤلاء الكلمات ، فلو رَكِبْتُم المَطِيَّ حتى تُنْضُوْهَا ما أَصبتمُ مِثْلَها .

لا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إلا ربَّه ، ولا يَخَافَنَّ إلا ذَنْبَه ، ولا يَستحيي – إذا لم يعَلْمَ – أن يَتَعَلَّمَ ، ولا يَسْتَحِيي – إذا سُئل عما لا يعلم – أَنْ يَقُولَ : لا أَعْلَم .

واعْلَمُوا أن الصَّبْرَ مِن الايهان بمنزلة الرأسِ مِن الجسد ، ولا خَيْرَ في جَسَدٍ لا رأسَ له .

وعن أبي عبدالرحمن السُّلمَى ، عن علي بن أبي طالب ، قال : أوحى الله عز وجل إلى نبي من الأنبياء أنه ليس من أهل بيت ولا أهل دار ولا أهل قرية يكونون لي على ما أحب فيتحولون عن ذلك إلى ما أكره ، إلا تحوَّلت لهم مما يحبون إلى ما يكرهون .

وليس من أهل بيت ولا أهل دار ولا أهل قرية يكونون لي على ما أكره فيتحولون من ذلك إلى ما أحب إلا تحولت لهم مما يكرهون إلى ما يحبون .

وعن عبدالله بن عباس أنه قال : ما انتفعتُ بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكتابٍ كَتَبَ إِليَّ عليُ بنُ أبي طالب ، فانه كَتَبَ إِليَّ :

« أما بعد فان المرءَ يَسوءُهُ فَوْتُ ما لم يكن لِيُدْرِكَه ، ويسَرَّه دَرْكُ ما لم يكن لِيَفُوتَه ، فَلْيكُنْ سُرُوْرُكُ بما نِلتَ مِن أَمْرِ آخرَتكَ وليكُنْ أسَفُكَ على ما فاتَكَ منها وما نِلْتَ مِن دُنْيَاكَ فلا تُكثِرنَّ به فَرَحًا ، وما فاتَكَ منها فلا تأسَ عليه حَزَنًا ، وليكن هَمُّكَ فيما بَعدَ الموت » .

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، أن عليًا رضي الله عنه شيَّع جَنَازَةً ، فلما وُضِعَتْ في لَحْدِهَا عَجَّ أهلُها وبَكَوْها فقال : « ما تبكون ؟

أما واللَّهِ لو عَايَنُوا ما عَايَنَ مَيّتُهُم لأَذهَلَتْهُم مُعَايَنَتُهم عن مَيّتِهم ، وإن له فيهم لَعَوْدَة ، ثم عودة ، حتى لا يُبقي منهم أحداً » . ثم قام فقال :

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال ، ووقَّتَ لكم الآجال ، وجعل لكم أسماعًا تعي ما عنَاها ، وأبصاراً لتجلو عن غشاها ، وأفئدة تَفْهَمُ ما دهاها .

إن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يضرب عنكم الذكر صفحاً بل أكرمكم بالنعم السوابغ ، وأرصد لكم الجزاء ، فاتقوا الله عباد الله وجُدُّوا في الطلب ، وبادِروا بالعمل قَبْلَ هادم اللذات .

فان الدنيا لا يَدُوم نعِيمُها ، ولا تُؤمَنُ فَجَائِعُها ، غَرُورٌ حائل ، وسِنادٌ مائِل ، اتَّعظوا عبادَ الله بالعِبَر ، وازدَجِرُوا بالنُذُر ، وانتفعُوا بالمواعظ .

فَكَأَنْ قد عَلِقَتْكُم مَخَالبُ المنية ، وضُمّنْتُم بَيْتَ التُراب ، ودهمتكم مُفْظِعاتُ الأُمور بنفخةِ الصُوْر ، وبَعْثَرةِ القُبور ، وسِياقِ المحشرِ ، ومَوْقفِ الحساب ، باحاطةِ قُدْرَةِ الجبار .

كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ يَسُوقُها لِمَحْشَرِها ، وشاهِدٌ يَشْهَدُ عَليها : ﴿ وأشْرَقتِ الأَرْضُ بنُورِ ربِّها وَوُضِعَ الكتابُ وجيء بالنبيّينَ والشهداء وقُضِيَ بينهم بالحقّ وهم لا يُظْلَمون ﴾ .

ارْتَجَّتْ لِذلك اليومِ البلاد ، ونادَى المُنَادِي وحُشِرتِ الوحُوْشُ ، وبَدَتِ الأَسْرار ، وارتجَّتْ الأَفئِدةُ ، وبُرّزتِ الجحيم قد تأجَّجَ جَحِيْمُهَا وغلا حَمِيْمُهَا .

عباد الله ، اتقوا الله تُقْيَةَ مَنْ وَجِلَ وَحذرَ وأَبْصرَ وازْدَجرَ فاحْتَثَّ طَلَبًا ونَجا هَرَبًا ، وقَدَّمَ لِلْمَعَاد واسْتَظْهَرَ بالزاد .

وكفَى بالله مُنْتَقِمًا ونَصِيراً ، وكفى بالكتاب خَصْمًا وحَجِيْجًا ، وكفى بالجنة ثوابًا ، وكفَىَ بالنار وبالاً وعِقابًا ، وأسْتَغْفِرُ اللَّهَ لي ولكم .

وعن كُمَيْل بن زياد قال : أخذ عليٌّ بن أبي طالب بيَدِي فأخرجني إلى ناحية الجبّان ، فلما أصْحَرنا جلس ، ثم تنفس ، ثم قال : « يا كُمَيْل بنَ زِياد ، القلوبُ أَوْعِيةٌ فخَيْرُها أوعَاهَا لِلْعِلْم ، احْفَظْ ما أَقُولُ لَكَ .

الناس ثلاثةٌ : عَالِمٌ رباني ، ومُتَعِلِّمٌ على سبيل نَجَاة ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ اَتْبَاعَ كلِّ ناعِقٍ ، يَميلونَ مَعَ كُلِّ رِيح ، ولم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق .

العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه وصنيعة المال تزول بزواله .

ومحبة العالم دين يدان بها العلم يُكْسِبُه الطاعة في حَيَاته وجَمِيل الأُحدوثة بعد مماته ، مات خُزّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة .

إن ههنا وأومأ بيده إلى صدره علمًا لو أصبت له حَمَلَةً بلى أصبته لَقنًا غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بنعم الله على عباده ، وبحججه على كتابه .

أو معاندًا لِأهل الحق لا بصيرة له في إحيائه ، ينقدح الشك في قلبه ، عارض من شبهة . لا ذا ولا ذاك . أو منهومًا باللذات سلس القياد للشهوات ، أو مُغْرىً بجمع الأموال والادّخار ، ليسا من دعاة الدين في شيء ، أقرب شبهًا بهم الأنعام السائمة .

كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى ، لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة لكي لا تبطُل حُجَج الله وبيّناته أولئك هم الأقلون عددًا ، الأعظمون عند الله قدراً .

بهم يحفظ الله حججه حتى يُؤَدوْها إلى نظرائهم ويزرعونها في قلوب

أشبـاههم ، هَجم بهم العلم على حقيقـة الأمـر ، فاستـلانـوا ما استوعر المْترفَوُن ، وأنسِوا بما استوحش منه الجاهلون .

صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلَّقة في المحلّ الأعلى آه آه شوقًا إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لي ولك إذا شئت فَقُم » .

وعن أبي أراكة ، قال : صليت مع علي بن أبي طالب عليه السلام صلاة الفجر ، فلما سلّم انفتل عن يمينه ، ثم مكث كأن عليه كآبة ، حتى إذَا كانت الشمس على حائط المسجد قِيدَ رمح ، قال وقلب يده :

« لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شُعْثًا صُفْرًا غُبْرًا بين أعينهم أمثال رُكَب المِعْزى ، قد باتوا لله سُجّدًا وقيامًا ، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم .

فاذا أصبحوا فذكروا الله ما دَوْا كما تَميد الشجرة في يوم الريح ، وهَملت أعينهم حتى تبلّ ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين » .

ثم نهض فما رئي مفترّاً يضحك حتى ضربه ابن مُلْجَم ، والسلام .

ولا غُرْوَ بالأَشْرَافِ إنْ ظَفِرتْ بهِمْ كِلَاب الأَعادِيْ مِن فَصِيْحٍ وأَعْجَمِ
فَحَـرْبَةُ وَحْشِيٍ سَقَتْ حَمْـزةَ الرَّدَى وموْتُ عَلِيٍ مِن حُسَامِ ابْن مُلْجمِ

اللهُمَّ انْفَعْنَـا بمَا عَلَّمْتَنَـا ، وعَلِّمْنَـا مَا مَا يَنْفَعُنَا ، ووَفِّقْنَا للَعملَ بمَا فَهَّمْتَنَا ، اللهُمَّ إنْ كُنَّا مُقَصرِّيْنَ في حِفْظِ حَقِّكَ ، والوفاء بعَهْدِكَ ، فأنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَنَا في رَجَاءِ رِفْدِكَ ، وخالِص وُدِّكَ ، اَللهُمَّ أنْتَ أَعْلَمُ بِنَا مِنَّا ، فَبكَمَالِ جُوْدِكَ تَجَاوَزْ عَنَّاَ ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ ، الأَحْيَاءِ مِنْهُم والمَيِّتِيـنْ ، برَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصلى الله على مُحَمَّدٍ وعلى آله وصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْـــــــلٌ)

ضَرَبَ ابنُ رَجَب رحمه الله مثلاً جامعًا لأحوالِ الخَلْق كُلّهم بالنسبةِ إلى دَعوة الرسول ﷺ وانقسامِهم في إجابةِ دعْوتِهِ إلى سَابِقٍ ، ومُقْتَصِدٍ ، وظَالمٍ لِنَفْسِه ، وبه يَظْهَر فَضْلُ العُلماءِ الربانيين على غيرِهم مِن الناسِ أجمعين .

فنقولُ : مَثَلُ ذلك كمثل رَسُولٍ قَدِمَ مِن بَلَدِ المَلِكِ الأعظمِ فأدّى رِسَالةَ المَلِكِ إلى سَائِرِ البُلْدانِ ، وظَهَرَ لهم صِدْقُه في رِسَالتِهِ .

فكانَ مَضْمُونُ الرسالةِ التي أدَّاهَا مِن المَلِكِ إلى رَعِيتِهِ أنَّ هذا الملك لا إِحْسَانَ أتَمَّ مِن إحسانِهِ ، ولا عَدْلَ أكملَ مِن عَدْلِهِ ، ولا بَطْشَ أشدَّ مِن بَطْشِهِ .

وأنــه لابُــدَّ أنْ يَستدعِي الرعيةَ كُلَّهم إليه لِيُقِيمُوا عنده . فمَن قَدِمَ بإحسانٍ جَزَاهُ بإحسانه أتَمَّ الجزاءِ ، ومَن قَدِمَ عليه بإساءةٍ جَزَاهُ بإساءَتِهِ أشدَّ الجزَاءِ .

وأنه يُحِبُ كَذَا وكَذا ، ويكْرَهُ كَدا وكذا لم يَدَعْ شَيئاً مِمَّا تعْمَلُهُ الرَّعِيةُ إلاَّ أخْبَرَهَمُ بما يُحِبُهُ المَلِكِ منه وما يَكْرَهُ ، وأَمَرَهُم بالتَّجَهُزِ والسير إلى دَارِ المَلِكِ ، التي فيها الإِقامةُ .

وأَخْبَرَهَمُ بخَرابِ جَمِيْعِ البلادِ سِوىَ ذلك البلدِ .

وأنَّ مَن لم يَتَجهزْ لِلسَّيْرِ بَعَثَ إليه المَلِكُ مَن يُزْعِجُهُ عن وطنِهِ وَينقلُه مِنْهُ على أَسْوَأ حَال .

وجَعَــلَ يَصِفُ صِفــاتِ هذا الملك الحسْنى مِن الجَمَالِ والكَمَالِ والجَلالِ والإِفْضَالِ .

فانقسمَ الناسُ في إجابَةِ هذا الرسُولِ الدَّاعِي إلى الملِكِ أَقسامًا عَدِيْدَةً فمِنهُم مَن صَدَّقَهُ ولم يَكُنْ لَهُ هَمٌّ إلَّا السُّؤال عَمَّا يُحِبُّ هذا الملِكُ مِن الرعِيَّة استصحابَه إلى دارِه عندَ السيرِ إليه .

فاشتغـلَ بتَخْليصِـهِ لِنَفْسِـهِ وبِدُعَاءِ مَن يُمكِنُهُ دُعَاؤُهُ مِن الخَلقْ إلى ذلك ، وعَمَّا يَكْرَهُهُ هَذَا الملِكُ فاجْتَنَبَهُ .

وأَمَر الناسَ باجتنابهِ وجَعَلِ هَمَّهُ الأَعظَمُ السُّؤال عن صِفاتِ الملِكِ وعَظَمَتِهِ وإفْضَالِهِ ، فَزَادَ بذَلِكَ مَحبةً لِهذا الملِكِ وإجلالِهِ والشوقِ إلى لِقائِهِ .

فارتحــلَ إلى الملِكِ مُسْتَصْحِبـاً لأَنْفَسِ ما قَدِرَ عليهِ مِمَّا يُحِبـه الملِكُ ويَرْتَضِيْهِ ، واسْتَصْحَبَ مَعَهُ رَكْبًا عَظِيًما على مِثْلِ حَالِهِ سَـارَ بهم إلى دَارِ الملِكِ .

وقَـدْ عرفَ مِن جِهَـةِ ذلكَ الدليلُ الذي هو الرسولُ الصادِقُ أقربَ الطرقِ التي يتوصَّلُ بالسيرِ فيها إلى الملِكِ ، وما يَنْفَعُ مِن التزوُدِ لِلمَسِيرِ فيها .

وعَمِلَ بمقتضَى ذلك في السَيْرِ هو ومَن اتبعَهُ .

فهــذه صفــةُ العُلماءِ الربانيين الذين اهتدوا وهَدوا الخلقَ مَعَهُم إلى طريقِ اللَّهِ .

وهؤلآءِ يَقْدَمُونَ على الملِكِ قُدومَ الغائبِ على أهلِهِ المنتظرِينَ لِقُدومِهِ المشتاقينَ إليه أشدَّ الشوق .

وقِسْمُ آخَـرُونَ اشتَغلُوا بالتـأهّبِ بمسـيرِهِم بأنفُسِهِم إلى الملِكِ ولم يَتَفرَّغُوا لاستصحابِ غيرِهِم مَعَهُم .

وهذهِ صِفَةُ العُبّادِ الذين تَعَلَّمُوا ما يَنفعُهُم في خاصةِ أنفسِهِم واشتغلُوا بالعَمَلِ بمُقْتَضَاه .

وقِسْمٌ آخَرُونَ تَشَبهُّوا بأَحَدِ القِسْمَين وأَظْهَرُوا لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ مِنْهُم وأَنَّ

قَصدَهُم التَّزوُّدَ لِلرَّحِيل ، وإنما كان قَصدُهم استيطان دارِهِم التي هُمُ بها مُسْتَوطِنُون .

وحَالُ هؤلآءِ عند الملِكِ إذا قدمُوا عليه شَرّ حالٍ . ويقالُ لهم اطْلبُوا جزَاءَ أَعْمَالِكم مِمَّنْ عَمِلْتُم لهَم ، فليسَ لكَم عندنا مِن خَلاقٍ . وهُم أولُ مَن تُسعَّرُ بهمُ مِن أهل التوحيد .

وقِسْمُ آخَـرُونَ فَهِمُوا ما أَرَادَهُ الرسولُ مِن رسالةِ الملِكِ لَكِنَّهُم غَلَبَ عَليهم الكَسَـلُ والتقـاعـدُ عن التـزود للسفر واستصحاب ما يُحِبُ الملِكِ واجتنابِ ما يَكْرَه .

وهؤلآء العُلماء الـذين لا يَعْمَلُونَ بعِلْمِهم ، وهُمْ على شَفَا هَلكَةٍ ، وربما انتفعَ غيرُهُم بمعرفِتهم وَوَصْفِهم لِطَرِيقِ السَّيرِ ، فسارَ المتعلِمُونَ فنجَوا وانقطعَ مَن تَعلَّموا مِنهم فهلكوا .

وقِسْمُ آخرُونَ صَدَّقُوا الرسولَ فِيما دَعَا إليه مِن دعوة الملِكِ لَكِنَّهُم لم يَتَعَلَّمُـوا منه طَرِيْقَ السير ، ولا مَعْرفة تفاصِيل ما يُحِبُه الملِكِ وما يَكرَهُهُ ، فساروا بأنفسِهم وَرَمَوْا أنفسَهم في طَرِيْقٍ شَاقَّةٍ ، ومَخَاوُفَ ، وقِفَارٍ وعْرَةٍ فَهَلَكَ أَكْثرهُم ، وانقطعُوا في الطريقِ ، ولم يَصِلُوا إلى دَارِ الملِكِ . وهؤلآءِ الذين يَعْمَلُون بِغَيرِ عِلْمٍ .

وقِسْمٌ لم يَهْتَمُّوا بهذِه الرِسالةِ ، ولا رَفَعُوا بها رَأْساً ، واشتَغَلُوا بمصَالح إقامَتهِم في أوطانِهِم التي أخبرَ الرسولُ بخَرابها .

وهَؤلآءِ منهم مَن كَذَّبَ الـرسولَ بالكَلية ، ومنهم من صَدَّقَه بالقول ولكنَهُ لم يَشْتَغِلْ بمعرفةِ مَا دَلَّ عليه ولا بالعملِ بِه . وهَؤلآءِ عُمُومُ الخلق المعرِضُونَ عن العِلم والعَمَلِ .

ومنهم الكُفارُ والمنافقونَ ومنهم العُصَاةُ الظالمون لأَنفسِهم فلا يَشعُرون

إلا وقد طرقَهُم داعِي المِلِكِ فأجْلاَهُم عن أوطانِهِم واسْتَدعَاهُم إلى المِلِكِ فقَدِمُوا عَليه قُدُوْمَ الآبق على سيدِهِ الغضبانِ عليه .

فإذا تأملّتَ أقسامَ الناسِ المذكورةَ لم تجدْ أشرفَ ولا أقْربَ عندَ المِلِكِ من العُلماء الرَّبانيين . فَهُم أفضَلُ الخلقِ بعد المُرسَلِين صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين أ هـ .

خُزَّانُ وَحْيِ اللَّهِ لَمْ يُرَى غَيْرُهُم ... أَهْلاً لِحِفْظَ كَلامِهِ المُخْتارِ
لَكِنْ عَلَيْهم أَنْ يَقُومُوْا بالذِي ... فيهِ مِن المَشْرُوْعِ لِلأَبْرَارِ
صِدْقٌ وإِخْلاَصٌ وحُسْنُ عِبَادَةٍ ... وقِيَامُ لَيْلٍ مَعْ صِيَامِ نَهارِ
وتَوَرُّعٍ وتَزَهُّدٍ وتعفُفٍ ... وتَشَبُّهٍ بخَلائقِ الأَخْيَارِ
ودِيَانَةٍ وصِيَانَة وأَمَانَةٍ ... وتَجَنُّبٍ لِخَلائقِ الأَشْرارِ
وأَدَاءِ فَرْضٍ واجْتِنَابِ مَحَارِمٍ ... وإِدَامَةٍ لِلْحَمْدِ والأَذْكارِ
يا حَامِلَ القُرآنِ إنْ تَكُ هَكَذا ... فَلَكَ الهَنَاءُ بفَوْزِ عُقْبَى الدَّارِ
ومَتَى أَضَعْتَ حُدُوْدَهُ لم تَنْتَفِعْ ... بحُرُوْفِهِ وسَكَنْتَ دَارَ بَوَارِ

اللَّهُمَّ علمْنَا ما ينفعُنَا وأنفَعْنَا بما علَّمْتَنَا وبارِكْ لنا في علومِنَا وأعمالِنا وأعمارِنا وأَصْلِحْ نياتِنا وذُرِّياتِنا واغفِرْ لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحْمَتِك يا أرحَمَ الراحمينَ وصلى اللَّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

(فصــــل)

وقال ابن القيم رحمه الله في الكلام على مَرَاحِل العالَمِين وكيفيةِ قَطْعِهِم إياَّها فَلْنَرجِعْ إليه فنقول أمَّا الأَشْقَياءُ فقطعُوا تِلكَ المراحلَ سَائِرين إلى دارِ الشقاء مُتزودين غضَبَ الرب سُبْحَانِه .

ومُعَاداةَ كُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، وما بُعِثُوا به ومُعَادَاةَ أوليائِهِ والصَّدَّ عن سبيلِهِ

ومحاربةَ مَن يدعو إلى دينه ومقاتلةَ الذين يأمرون بالقسط من الناس وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بَعَثَ بها رُسَلَه لِتَكُونَ الدعوةُ لَهُ وَحْده .

فقطعَ هؤلآءِ الأشقياءُ مَرَاحِلَ أعمارِهم في ضِدِّ ما يُحبه اللَّهُ وُيَرضاه :
وأَمَّا السائِرونَ إليه فظالِمُهُم قَطَعَ مَراحِلَ عُمُرِهِ في غفلاتِهِ وايثار شهواته ولَذَّاتهِ على مَراضِ الرب سبحانه وأوامِرِهِ مع ايمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .

لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله فهذا حال المسلم .

واما من زين له سوء عمله فرآه حسناً وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلاً .

فهذا لا يكاد اسلامه أن يكون صحيحاً أبداً ولا يكون هذا الا منسلخ القلب من الايمان ونعوذ بالله من الخذلان .

وأما الأَبرار المقتصدون فَقَطَعوا مَرَاحِلَ سَفَرهم بالاهتمام باقامةِ أمْرِ اللَّهِ وعقدِ القلبِ على تَرْكِ مُخَالَفَتِهِ ومَعَاصِيه فَهمَمُهُم مصْرُوْفَةٌ إلى القيامِ بالأَعمالِ الصالحةِ واجتنابِ الأَعمالِ القبيحةِ .

فأَولُ مَا يَسْتَيقِظُ أَحَدُهُم مِن مَنامِهِ يَسْبقُ إلى لُبِهِ القِيامُ إلى الوُضُوءِ والصلاة كما أَمَرَهُ اللَّهُ فإِذا أَدّى فَرْضَ وقْتِهِ اشْتَغَلَ بالتلاوةِ والاَذكارِ إلى حِينِ تطلعُ الشمسُ فيركَعُ الضُحى .

ثم يَذْهَبُ إلى ما أقامَهُ اللَّهُ فيه مِن الاسبابِ فإِذا حَضرَ فرْضُ الظُهر بادَرَ إلى التَّطَهُّر والسعي إلى الصفِ الأول مِن المسجدِ فَادّى فَرِيْضَتَهُ كما أُمِرَ مُكَمّلاً لها بشَرَائِطِهَا وأركانِها وسُنَنِها وحَقَائِقِهَا الباطِنةِ مِن الخشوعِ والمُرَاقبةِ والحُضُورِ بين يَدَي الرب .

فَيَنْصَرِفُ مِن الصِلاةِ وقد أَثَّرَتْ في قَلْبِهِ وبَدَنِهِ وسائر أَحْوَالِهِ آثارًا تَبْدُو

على صَفَحَاتِهِ ولِسانِهِ وجَوارِحِهِ ويجَدُ ثَمرتهَا في قلبهِ مِن الانَابة إلى دارِ الخُلود والتجافي عن دار الغرور وقِلَّةِ التكَالب والحِرص على الدنيا وعَاجلها .

قد نَهَتْهُ صَلاتُه عِن الفحشاءِ والمنكر وَحَبَّبَتْ إليه لِقاءَ اللَّهِ ونَفَّرتْهُ عن كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُه عن اللَّهِ فَهُو مَغْمُومٌ مَهْمُومٌ كَأَنَّهُ في سِجْنٍ حتى تحْضُرَ الصلاةُ .

فإذا حَضَرَتْ قَام إلى نعَيْمِهِ وسُرُوْره وقُرةِ عينه وحَيَاةِ قلبهِ فهو لا تطيبُ له الحياة إلا بالصلاةِ هذا وهُم في ذلك كُلِّهِ مُرَاعُونَ لحِفْظِ السُنن لا يُخِلُّونَ منها بشَيءٍ ما أَمكَنَهُم .

فَيَقْصُدُوْنَ مِن الوُضوءِ اكمله ومِن الوقتِ أَوَّلَه ومِن الصفوف أَوَّلَهَا عن يمينِ الامام أو خلفَ ظهره .

ويأتونَ بعد الفريضةِ بالاذكارِ المشروعةِ كالاستغفارَ ثلاثاً وقولِ اللهم أنت السلامُ ومنكَ السلامُ تَباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرام .

وقول لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانعَ لما أَعْطَيْتَ ولا معطي لما مَنَعتَ ولا ينفعُ ذا الجدِ منكَ الجدُ لا إلهَ إلا اللَّهُ ولا نعبدُ الا اياهُ له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناءُ الحَسَنُ لا إلهَ إلا اللَّهُ مخلصينَ له الدينَ ولو كره الكافرون .

ثم يُسبحُونَ ويحَمدُونَ ويكَبرونَ تِسعاً وتِسعينَ ويخَتْمُونَ المائةَ بلا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَه لَهُ الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيءٍ قدير .

ومَن أَرَادَ المزيدَ قَرأَ آيةَ الكُرسيِ والمُعوذَتين عَقِبَ كل صلاةٍ فإن فيها أَحَادِيْث رواها النسائي وغيرهُ .

ثم يَركَعُونَ السنة على أحْسَنِ الوُجُوهِ هذا دَأبُهُم في كُلِّ فَريْضَةٍ .

فإذا كان قِبلَ غُروب الشمسِ تَوَفَّرُوْا على أذكارِ المَساءِ الوَارِادِةِ في السُنَةِ نَظِيْرُ أَذكارِ الصَّباحِ الوَارِدَةِ في أَوَّلِ النهارِ ولا يُخِلُّونَ بها أَبَداً .

فإذا جَاءَ الليلُ كَانُوا فِيه على مَنازِلِهِم مِن مَواهِبِ الربِ سُبْحَانَهُ التي قَسَّمَها بينَ عِبادِهِ .

فإذا أَخَذُوا مَضَاجِعَهُم أَتَوا بِأَذْكارِ النَّوْمِ الوَارِدَةِ في السُنةِ وهي كَثيرةٌ تبلغُ نَحْوًا من أَربَعِينْ .

فيأتـونَ مِنهـا ما عَلمُوهُ وما يَقْدِرُونَ عليه مِن قِراءَةِ سُوْرَةِ الاخلاص والُمعَوذَتَينِ ثلاثاً ثم يَمْسَحُوْنَ بها رُؤُوسَهُمْ وَوُجُوهَهُم وأجْسَادَهُم ثلاثاً ويَقْرَؤُوْنَ آيةَ الكُـرْسِي وخَواتِيم سَورةِ البَقَرةِ ويُسَبّحُونَ ثلاثاً وثلاثين ويَحْمدُونَ ثلاثاً وثلاثين ويُكَبرُونَ أَرْبعاً وثلاثين .

ثم يَقُولُ أَحَدُهم اللَّهُمَّ إني أَسْلَمْتُ نَفسِيْ إليكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إليكَ وفَوَّضْتُ أمْرِيْ إليكَ وأَلجأتُ ظَهْرِيْ إليكَ رَغْبَةً ورَهْبَةً إليك لا مَلْجَأً ولاَ مَنْجا مِنكَ إلاَّ إليَكَ .

آمنْتُ بكِتَابك الذِي أَنْزَلتَ ونَبّيكَ الذي أَرْسَلْتَ .

وإنْ شَاءِ قَال باسمـك ربي وَضَعْتُ جنْبي وبكَ أرفَعُهُ فإنْ أَمْسَكْتَ نفسِي فاغْفِرْ لَها وإنْ أَرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصالِحِين .

وإن شَاءَ قَال : اللَّهُمَّ رَبَّ السموات السبعِ وَرَبَّ العَرشِ العظيمِ رَبي وَرَبَّ كُلِ شيَءِ فـالِقَ الحب والنَّوى مُنَزّلَ التوراةِ والانجيلِ والقرآنَ أعوُذ بَكَ مِن شر كُلَ دابةِ أَنْتَ آخذٌ بناصِيَتِها .

أنْتَ الاَوَّلُ فليسَ قَبْلَكَ شيَءٌ وأَنْتَ الآخرُ فليْسَ بَعْدَكَ شيَءٌ وأَنْتَ الظاهِرُفَلَيْسَ فَوقَكَ شيَءٌ وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُوْنَكَ شيَءٌ إقضِ عني الدينَ وأغْنِني مِن الفقرِ .

وبالجُملَةِ فَلا يَزالُ يَذْكُر الله على فراشِهِ حتى يَغْلِبَهُ النومُ فهذا نَوْمُهُ عِبادَةٌ وزَيادَةٌ لَه مِن قُربِهِ مِن اللّهِ .

فإذا اسْتَيْقَظَ عاد إلى عَادتِهِ الأُوْلىَ وَمَعَ هذا فَهُوَ قائِمٌ بِحقُوُقِ العِبادِ مِن

عِيادَةِ المَـرْضَى وتَشْيِيْعِ الجنـائِـزِ وإِجَابةِ الدَّعْوَةِ والمُعَاوَنَة لهم بالجاه والبدن والنفس والمالِ وزيارَتِهم وتفَقُدِهم . وقائمٌ بحِقُوق أَهْلِهِ وعِيالِهِ .

فَهُوَ مُتَنَقِّلٌ في مَنَازِلِ العُبُودِيةِ كَيفَ نقلَهُ فِيها الأَمْرُ فإِذا وَقَعَ مِنه تَفرِيْطٌ في حَقٍ مِن حُقُوقِ اللَّهِ بادَرَ إِلى الاعتذارِ والتوبةِ والاستغفارِ ومَحْوِهِ ومُدَاواتِهِ بِعَمَلٍ صَالحٍ يُزيلُ أَثَرَهُ فهذا وَظِيفَتُهُ دَائِمًا . أ هـ .

وقال إنَ شُرورَ الدُنْيَا والآخِرَة إنما هُو الجهلُ بما جاء به الرسول ﷺ والخروجُ عنه .

وهذا بُرْهانٌ قاطع على أنْ لا نجاةَ لِلْعَبدِ ولا سعادةَ إلا بالاجتهاد في مَعْرِفةِ ما جَاءَ به الرسول ﷺ علْماً والقيامِ به عَمَلاً .

وكـمالُ هذه السَّعَادَةِ بأَمْرَيْن أَحَدُهما دعوة الخلق إليه ، والثاني صَبْرُهُ واجتهادُهُ على تلك الدعوة .

فانحصرَ الكمالُ لِلإِنسان على هذه المراتب الأربع .

أَحَدُهَا العلمُ بما جاء به النَّبي ﷺ .

والثانيةُ العملُ به .

والثالثةُ نَشْرُهُ في الناس والدعوة إليه .

والرابعةُ صَبْرُهُ وجهادُهُ في أَدَائِهِ وتنفِيْذهُ .

ومَن طَلَعَتْ هِمَّتُهُ إلى مَعْرفَةِ ما كان عليه الصحابةُ رضي اللَّهُ عنهم وأرَادَ اتِّبَاعَهمُ فهذِهِ طريقتُهُم حَقًا .

اللهم إنا نسألكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ ، وتَرْكَ المنكرات وحُبَّ المسَاكِيْنِ وإذا اردْتَ فِتْنَةً في قومٍ فَتَوفَّنا غَيْرَ مَفْتُوْنِيْنَ .

وقال رحمه الله الهجرةُ هِجْرتان : هِجرةٌ بالجسم مِن بلد إلى بلد وهذه أَحكامُها معلومةٌ وليس المرادُ الكلامُ فيها .

والهجرةُ الثانيةُ الهجرةُ بالقلب إلى اللّٰهِ ورسولِه وهذِه هِيَ المقصودُ هُنا وهذِه الهِجرةُ هِي الهِجرةُ الحِقيقيةُ وهي الأَصل .

وهجرةُ الجسدِ تابعةٌ لها لله وهي هِجرة تتضمنُ (مِن) و (إلىَ) فيها جسرٌ بِقَلْبِهِ مِن محبّةِ غيرِ اللّٰهِ إلى مَحَبَّتِهِ ومِن عُبودية غيرِهِ إلى عبودِيتِهِ ومِن خَوْفِ غَيرِهِ ورَجَائِهِ والتوكّلِ عليه إلى خوفِ اللّٰهِ ورَجائِهِ والتوكلِ عليه ومِن دعاءِ غيرِهِ وسؤالِهِ ، والخضوعِ له والذُلِ له والإستكانةِ له إلى دعاء الله وسؤال الله والخضوع له والذل له والاستكانة له .

وهذَا بعَيْنِهِ مَعْنَى الفِرار إليه قال تعالى ؛ ﴿ ففرّوا إلى الله ﴾ والتوحيدُ المطلوبُ مِن العبد هُو الفِرَارُ مِن الله إليه .

وتَحْتَ (مِن) و (إلى) في هذا سِرٌّ عظيمٍ مِن أسرار التوحيدِ فإنّ الفرارَ إليه سُبْحَانَهُ يَتَضَمَّنُ إفْرادَهُ بالطلب والعبوديةِ فهو مُتَضَمِّنٌ لِتَوحِيدِ الإلهيَّةِ الَّتِي اتّفَقَتْ عليها دَعوةُ الرسلِ صلواتُ اللّٰهِ وسلامُه عليهم أجمعين .

وأَما الفِرارُ منه إليه فَهُو مُتَضَمّنٌ لِتَوحِيدِ الرُبُوبيةِ وإثباتِ القَدَرِ وأنَّ كُلَّ ما في الكونِ مِن المكروهِ والمَحْذُورِ الذِي يَفِرُّ مِنْه العبدُ فإنما أَوْجَبَتْهُ مشِيْئةُ اللّٰهِ وحْدَهُ .

فإن ما شاءَ كانَ وَوَجَبَ وجُودُهُ بمشيئتِهِ وما لم يَشأْ لم يَكُن وامتنعَ وجُودُهُ لِعَدمِ مَشيئتِهِ .

فإذا فَرَّ العبدُ إلى اللّٰهِ فإنمَا يَفِرُّ مِن شيءٍ إلى شَيءٍ وُجدَ بمشيئة اللّٰهِ وقَدرِهِ فهو في الحقيقةِ فارٌ مِن اللّٰهِ إليه .

ومَنْ تصوَّرَ هذا حَقَّ تَصَوُّره فَهِمَ مَعْنَى قولِهِ ﷺ : « وأعُوذُ بكَ مِنكَ » وقوله : « لا مَلْجأً ولا مَنْجَى مِنكَ إلَّا إليكَ » فإنه ليسَ في الوُجُودِ شيءٌ يَفرُّ مِنه ويُسْتَعَاذُ مِنه ويُلْتجأُ مِنه إلَّا هُوَ مِن اللّٰهِ خَلْقاً وإِبْدَاعاً .

فالفارُ والُمسْتَعِيْذُ فَارٌ مِمَّا أَوجَدَ قَدَرُ اللَّهِ ومشيئُته وخلقُه إلى ما تقتضيه رحمتُه وبرُّه ولُطفهُ واحسانُه ، ففي الحقيقةِ هو هاربٌ مِن اللَّهِ إليه مُسْتَعْيذٌ باللَّهِ منه .

وتَصَـوُّرُ هَذَيْنِ الأَمْـرَيْنِ يُوجبُ لِلْعَبـدِ انقـطاعَ تَعَلقِ قَلْبِهِ عن غيرِه بالكُليةِ ، خَوفًا ورَجَاءً ، ومحَبَةً .

فإنه إذا عَلِمَ أن الذي يفِرُ منه ويَسْتِعْيذُ منه إنما هو بِمَشِيْئةِ اللَّهِ وقُدْرَتِهِ وخَلْقِهِ لم يَبْقَ في قلبه خَوفٌ مِن غيرِ خالِقِه ومُوْجِدِه .

فَتَضَمَّنَ ذلكَ إفراد اللَّهِ وَحْدَهُ بالخوفِ والحُبِ والرجاءِ . ولو كان فِرَارُهُ مِمَّا لم يَكُنْ بِمَشِيْئَتِهِ ولا قُدْرَتِهِ لكن ذلك موجباً لخوفه منه مثل ما يفر من مخلوق إلى مخلوق آخر أَقدر منه .

فانه في حالِ فِرارِه مِن الأولِ خائفٌ منه حَذرًا أن لا يكونَ الثاني يُفِيْدُهُ مِنه بخلاف مَا إذا كان الذي يَفِرُ إليه هُوَ الذي قَضَى وقَدَّرَ وشَاءَ ما يَفِرُ منه فإنهُ لا يَبْقَى في القلب التفاتُ إلى غيره .

فَتَفَطَنْ إلى هذا السِّر العَجيْب في قَولِهِ : « أعُوذُ بك مِنكَ » و « لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَى مِنكَ إلا إليكَ » فأَنَّ النَاس قد ذكروا في هذا أَقوالاً ، وقُلَّ مَن تَعَرَّضَ منهم لهِذِهِ النُكْتةِ التي هِي لُبُّ الكلامِ ومقصودُه . وبالله التوفيق .

فتأمل كيفَ عادَ الأَمرُ كُلُّهُ إلى الفِرارِ مِن الله إليه وهو مَعنى الهِجرة إلى الله تعالى ، ولهذا قال النبي ﷺ : « المهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نهى اللَّهُ عنه » .

ولهـذا يَقْرنُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى الايمانَ والهجرةَ في غيرِ موضعٍ لِتلازُمِهمَا واقتضاءِ أحدهِما للآخرَ .

والمقصودُ أن الهجرةَ إلى اللَّهِ تتضمنُ هِجْرانَ ما يَكْرَهُهُ واتيانَ ما يُحبه ويرضاه وأصلُهُما الحبُ والبُغضُ .

فإنّ المهاجرَ مِن شَيءٍ إلى شَيءٍ لا بُدَّ أن يكونَ ما يُهاجِرُ إليه أحَبَّ مما هاجَرَ مِنه فَيؤثِرُ أَحَبَّ الأمَرين إليه على الآخر .

وإذا كان نفَسُ العبدِ وهَوَاهُ ، وشيطانُه إنما يدعونَهُ إلى خِلاف ما يُحبه ويَرضَاهُ ، وقد بُلي بهَؤلآءِ الثلاث .

فلا يَزالُونَ يَدْعُونَه إلى غير مَرْضَاةِ رَبهِ ، وداعِي الإيمانِ يدعُوه إلى مَرضاةِ ربه ، فعليه في كُلِ وقْتٍ أنَ يُهاجِرَ إلى اللَّهِ ولا يَنْفَكَ في هِجْرَتِه إلى الممات .

وهِذهِ الهِجرةُ تَقْوىَ وتَضْعُفُ بحسَبَ دَاعِي المحبةِ في قلب العبدِ فإن كان الداعِي أَقْوى كَانتْ هذِهِ الهِجرة أَقْوَى وأَتَمُ واكملُ وإذا ضَعُفَ الدَاعِي ضعُفَتِ الهِجرةُ حتى لا يَكَادُ يَشْعُرَ بها عِلماً ، ولا يَتحَرَّكُ لَها إرادَةً .

والذي يَقْضِي مِنه العَجَبُ أَنَّ المرءَ يُوسِعُ الكلامَ وُيفَرِّعُ المسائلَ في الهِجرة مِن دار الكفر إلى دَارِ الإسلام ، وفي الهِجرة التي انْقَطَعت بالفَتْحِ ، وهَذِهِ هِجْرَةٌ عَارضَةٌ . رُبَّما لا تَتَعَلقُ به في العُمْر أَصْلاً .

وأما هَذِهِ الهِجْرَةُ التي هِي واجبَةٌ على مَدَى الأَنْفَاسِ لا يَحْصُلُ فِيها عِلْمًا ولا إرَادَةً ومَا ذاكَ إلَّا لِلأَعْرَاضِ عَمَّا خُلِقَ لَهُ ، والاشتغالُ بما لا يُنْجِيْهِ وحْدَهُ عَمَّا لا يُنْجيْه غَيْرُهُ .

وهَذا حَالُ مَن عَشيْتَ بَصِيْرَتُهُ وضَعُفَتْ مَعْرفتُه بمراتِبِ العُلُومِ والأَعْمَالِ والله المستعان . وبالله التوفيق لا إلهَ غَيْرُهُ ولا رَبَّ سِوَاهُ .

وأما الهِجْرَةُ إلى الرسُولِ ﷺ فَعِلْمٌ لم يَبْقَ منه سِوَى اسْمُهُ ومَنْهَجٌ لم تَتْرُكْ بُنَيَّاتُ الطريقِ سِوى رَسْمَهُ ، ومَحَجَّةٌ سفَتْ عليها السوافي فَطَمَسَتْ رُسُومَهَا وغَارَتْ عليهاَ الأَعَادِي فَغَوَّرَتْ مَنَاهِلَهَا وعُيونَها .

فسالِكُهَا غَرِيْبٌ بَينَ العِبَادِ فَرِيدٌ بَينَ كُلِّ حي وناد . بعيد على قرب المكان وحيد على كثرة الجيران .

مستوحش مما به يستأنسون ، مستأنس مما به يستوحِشُوْن مقيم إذا ظعنوا ، ظاعن إذا قطنوا ، منفرد في طريق طلبه لا يقر قراره ، حتى يظفر بإربه . فهو الكائن معهم بجسده البائن منهم بمقصده ، نامت في طلب الهدى أعينهم ، وما ليل مطيته بنائم ، وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو في طلبها مشمر قائم .

يعيبونه بمخالفة أرائهم ويزرون عليه إزارءً على جهالاتهم واهوائهم ، قد رجموا فيه الظنون وأحدقوا فيه العيون ، وتربصوا به ريب المنون ﴿ فتربصوا انا معكم متربصون ﴾ ﴿ قالَ رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ .

وقال رحمه الله الطلبُ لِقَاحُ الإيمان ، فإذا اجتمعَ الإيمانُ والطلبُ أَثْمَرَ العملَ الصالحَ .

وحسنُ الظنّ بالله لِقاحُ الافتقارِ والاضطرارِ إليهِ فإذا اجتمعا أثمَرا إجابةَ الدُعَاءِ .

والخشيةُ لقاحُ المحبةِ فإذا اجتمعا أَثْمَرا امتثالَ الأَوامرِ ، واجتنابَ النواهِي .

والصبرُ لِقاحُ اليقين ، فإذا اجتمعا أَوْرَثَا الإمامةَ في الدِيْنَ قال تعالى ﴿ وجعلناهم أئمةً يَهدونَ بأمرنا لما صَبَرُوا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ .

وصحةُ الاقتداء بالرسول لِقاحُ الإخلاصِ فإذا اجتمعا أثمرَا قبولَ العملِ والاعتدادَ بهِ .

والعملُ لِقاحُ العِلَم فإذا اجتمعا كان الفلاحُ والسعادةُ ، وإن انفردَ أَحَدَهُمَا عن الآخر لم يُفِد شيئاً .

والحلمُ لِقَاحُ العِلم ، وإنْ انفردَ أَحَدُهُمَا عن صاحبِهِ فِاتَ النفعُ والانتفاعُ .

والعـزيمـةُ لِقـاحُ البصِـيرةِ ، فإذا اجتمعـا نَالَ صَاحِبُهُمَا خَيْرَ الدنيا والآخِـرةِ ، وحصَل الانتفاعُ بِعلم العالِمِ ، وبَلَغَتْ بِهِ هِمتهُ مِن العلياء كُلَّ مكان وإنْ انفردَ أَحَدُهُمَا عن صاحبِهِ فِات النفعُ والانتفاعُ .

فَتَخَلُّفُ الكَمالاتِ إمَّا مِن عَدَمِ البَصِيرةِ ، وإمَّا مِن عَدَمِ العَزيمةِ ، وحُسْنُ القَصْدِ لِقَاحُ لِصِحَّةِ الذُّهْنِ ، فإذا فُقِدا فُقِدَ الخيرُ كُلُه ، وإذا اجْتَمَعَا أثمرَا أنواعَ الخيرات .

وصِحةُ الرَّأْيِ لِقَاحُ الشجاعَةِ ، فإذا اجْتَمَعَا ، كان النَّصْرُ والظَّفَرُ ، وإن فُقِـدَا فالخُـذْلانُ والخيبـة . وإن وُجِـدَ الـرأيُ بلا شَجَـاعَةٍ ، فالجُبنُ والعَجْزُ ، وإن حَصَلَتْ الشجاعةُ بلا رَأيٍ ، فالتَّهَوُرُ والعَطَبُ .

والصَّبْرُ لِقَـاحُ البصـيرةِ ، فإذا اجتمعـا فالخَـيرُ في اجْتِمَاعِهما . قال الحسنُ : إذا شئتَ أَنْ ترى بَصْيراً لا صَبْرَ لَه رَأيتَهَ ، وإذا شئتَ أن ترى صَابراً لا بَصْيرَةَ لَه رَأَيته ، فإذا رأيتَ صابراً بَصِيْراٍ فذاكَ .

والنصيحةُ لِقَاحُ العَقْل ، فكلما قَوِيَتِ النصيحةُ قَوِيَ العَقلُ واستنَارَ .

والتذكُرُ والتفكرُ كُلُ منهما لِقَاحُ الآخَرَ ، إذا اجتمعا أَنتجا الزُهْدَ في الدنيا . والرغبةَ في الآخِرةِ .

والتقوى لِقاحُ التوكلِ ، فإذا اجتمعا اسْتَقَامَ القلبُ .

ولِقاحُ أَخْذِ أُهْبَةِ الاستعدادِ لِلِقّاءِ قِصَرُ الأَمِلِّ ، فإذا اجتمعا فالخير كله في اجتماعهما ، والشر في فرقتهما .

ولِقَاحُ الهِمَّةِ العاليةِ ، النيةُ الصحيحةُ فإذا اجتمعا بَلَغَ العبدُ غَايةَ المراد .

وقال لا يزال العبدُ مُنْقَطِعاً عن الله حتى تَتَّصِلَ ارَادَتهُ ومحبتهُ بوجهه

الأَعْلَى ، والمرادُ بهذا الاتصالِ ، أَن تُفْضِى المحبةُ إليهِ ، وتَتَعَّلقُ بهِ وَحْدَهُ ، فَلا يَحْجُبهَا شيءٌ دُونَهُ .

وأَنْ تَتَّصِلَ المعرفةُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فلا يَطْمِسْ نُورَها ظلمةُ التعطيلِ ، كما لا يَطْمِسُ نُورَ المحبةِ ظُلْمَةُ الشركِ .

وأَنَّ يَتَصِلَ ذِكْرُهُ بِهِ سُبْحَانَهُ فَيَزُولُ بينَ الذاكرِ والمذكورِ حجَابُ الغَفْلَةِ والتفاتُهَ في حَالِ الذِكْرِ إلى غيرِ مَذكُورِه .

فحَيْنَئِذٍ يَتَّصِلُ الذكرُ بهِ ، ويَتصلَّ العَملُ بأوامِرِهِ ونواهِيهِ ، فيفعلُ الطاعةَ لأنه أَمَرَ بها وأَحَبَّهَا ، ويَتْرُكُ المَناهِيَ لِكَونِهِ نَهى عَنها ، وابْغَضَها .

فهذا مَعنىَ اتَّصَالِ العملِ بأمره ونَهْيِه . وحَقِيْقَةُ زَوَالِ العِلَلِ البَاعِثَةِ على الفِعْلِ والتركِ مِن الأَعْراضِ والحُظُوظِ العاجلةِ .

ويَتَّصِلُ التوكلُ والحبُ بهِ بحيْثُ يَصيْرُ وَاثِقاً به سُبْحَانَهُ ، مُطْمَئِناً إليهِ ، رَاضِياً بحُسْنِ تَدْبيرِه لَه غَيْرَ مُتَّهِمٍ لَهُ في حالٍ مِن الأحوالِ .

ويتصلُ فَقرُهُ وفاقَتُه به سُبْحَانَه دُونَ مَن سِواهُ .

ويتصلُ خَوفُه ورَجَاؤُهُ ، وفَرحُه وسُرورُهُ ، وابتهاجُه بِهِ وَحْدَهُ ، فلا يخافُ غَيْرَهُ ، ولا يَرجُوْهُ ، ولا يَفْرَحُ بِهِ كلَّ الفَرَحِ ولا يُسَرَّ بِهِ غايةَ السُرُوْرِ .

وإنْ نَالَهُ بالمخلوق بعضُ الفَرَحِ والسُرُورِ ، فَليسَ الفرحُ التامُ والسرورُ الكاملُ ، والابتهاجُ والنعيمُ وقُرَّةُ العينِ ، وسُكونُ القلبِ إلَّا بهِ سُبْحَانَه .

وما سِواهُ إن أَعَانَ عَلىَ هَذا المطلوبِ فَرح بِهِ وسُرَّ بهِ . وإنْ حُجبَ عنه فُهو بالحُزْنِ بهِ والوَحْشَةِ مِنهُ واضْطِرابِ القلبِ بحُصُولِهِ لَهُ أَحقُ مِنه بأَنْ يَفْرَحَ بهِ ، فلا فَرْحَةَ ولا سُرُوْرَ إلا بهِ ، أو بما أَوْصَلَ إليهِ وأعانَ على مَرْضَاتِهِ . وقد أخبرَ سُبْحَانَه أنه لا يُحبُ الفَرِحِين بالدنيا وزِينَتِها .

وأما الفرحُ بِفَضْلِهِ ورحَمتِهِ ، وهُو الإسلامُ والإيمانُ والقرآنُ كما فَسَّرَهُ الصحابةُ والتابعونَ . والمقصودُ أَنَّ مَن اتَّصَلَتْ لَه هذِهِ الأمورُ باللَّهِ سبحانه فقد وَصَل ، وإلاَّ فَهُو مَقْطُوعٌ عَنْ رَبِّه مُتَّصَلٌ بحَظِهِ وَنفْسِهِ ، فَلُبِّسَ عليه في مَعْرِفَتِهِ وإرَادَتَه وسُلُوْكِهِ .

(مـوعظـــة)

الاخـلاصُ مِسْـكٌ مَصُونٌ في القلبِ يُنبِّه رِيُحهُ عَلى حَامِله ، العَمَلُ صُوْرَةٌ والإخـلاصُ رُوح ، إذا لم تُخْلِصْ العَمـلَ للَّهِ وحْدَهُ فلا تَتْعَب ، لو قَطَعْتَ المنازِلَ لم تكن حَاجًا إلا بشُهُود الوقُوف بالموقف ، ولا تَغْتَرَّ بصُورة الطاعات .

كان أيوبُ السِختياني إذا تَحَدَّثَ فَرَقَّ قلبهُ وجَاءَ الدَّمْعُ قال ما أَشَدَّ الزُكام .

وكان إبْرهِيمُ بْنُ أدهم إذا مَرِضَ يَجْعَلُ عند رَأسِهِ ما يأكل الأَصِحَاء كَيْلَا يتَشَبَّهُ بالشاكِين .

وكان ابن أبي ليلى يصلي فإذا أَحَسَّ بداخل نام على فراشه .

وكان النخعي يَقْرَأُ في المُصْحَفِ فإذا دَخل عليه أَحَدُ غطاه .

وكان الواحدُ من السلف تأتيهِ العَبْرةُ والخشوعُ فيقوم خشيةَ أنْ يُفْطَنَ له .

وكان بعضُهم يُصَلِي ويبكي وإذا جاءه زائر غسَّل وَجْهَهُ عن الدموع لئلا يتنبه له .

كل هذا من الاخلاص بَلِّغْ يا أَخِي مَعْشَرَ المُرَائِينَ الذين إذا سَاهَمُوا في مَشْرُوْعٍ دِيْني نشروا أسْـمَاءَهُم في الجـرائـد والمجـلات والاذاعات والذين يُعَدِّدُوْنَ كَمْ حَجُّوْا من سَنَة وهم ما سُئِلُوْا ويَقُولون نَحنُ نعتمر كل سنة وأهلنا وأولادنا ويَجْلِس بالحرم .

ويُهْمِل عَائِلَتَهُ ولا يُحَافِظ عليهم ولا يدري أَيْنَ يَذْهَبُون في الليل والنهار ورُبَّمَا حَصَل له بسببهم إثمٌ عظيم لأِن سَيئَةَ الحرم عَظيمة لَيْسَتْ كَغَيرها .

وربـما كان مع ذلـك المأكل والملبس والمركب حرام نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

وهذه المسائل قَلَّ مَن يَنتَبَّهُ لها مِن طلبة العِلم فَضْلاً عن غيرهم .

فالرياءُ مِن أصْعَبِ الأَشياءِ وأَخْفَاهَا وضَرَرُهُ عَظِيم وقد يُحْبِطَ الأعمال .

فَيَنْبَغِي للانسان أن يَجْعَلَهُ دَائما نَصْبَ عَيْنَيْهِ في الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الأعمال .

اللَّهُمَّ قَوِّنَـا بالْيَقِـيْنِ وَامْنَحْنَـا التَّـوْفِيْقَ وَاغْفِـرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

شِعْراً :

تَبارَكَ مَنْ شُكْرُ الوَرَىٰ عَنْهُ يَقْصرُ ... لِكَوْنِ أَيَادِيْ جُـوْدِهِ لَيْسَ تُحْصَرُ
وَشَـاكِرُهَا يَحْتَـاجُ شُـكْراً لِشُكْرِهَا ... كَذَلِكَ شُـكْرُ الشُّكْرِ يَحْتَاجُ يُشْكَرُ
فَفِيْ كُلِّ شُكْرٍ نِعْمَـةٌ بَعْـدَ نِعْمَـةٍ ... بغَـيْرِ تَنَـاءٍ دُوْنَهَـا الشُّـكْرُ يَصْغُـرُ
فَمَنْ رَامَ يَقْضِي حَقَّ وَاجِب شُكْرِهَا ... تَحَمَّـلَ ضِمْـنَ الشُّـكْرِ مَا هُو أَكْبَرُ
تُسَـبِّحُهُ الحِيْتَـانُ في المَا وفي الْفَـلَا ... وُحُـوْشٌ وَطَـيْرٌ فـي الهَوَاءِ مُسَخَّرُ
وَفِي الفُلْكِ وَالأَمْـلَاكِ كُلٌ مُسَـبِّحٌ ... نَهَـاراً وَلَيْـلاً دَائِمَـاً لَيـسَ يَفْـتُرُ
تُسَبِّحُ كُـلُّ الكَـائِنَـات بِحَمْـدِهِ ... سَـمَاءٌ وَأَرْضٌ وَالجِبَـالُ وَأَبْحُـرُ
جَمِيْعَاً وَمَنْ فِيْهِنَّ وَالكُلُّ خَـاشِعٌ ... لِهَيْبَتِهِ العُظْمَـىٰ وَلَا يَتَكَـبَّرُ
لَـهُ كُـلُّ ذَرَّاتِ الوُجُـوْدِ شَـوَاهِـدٌ ... عَـلَى أنـهُ البَـارِيْ الإِلَـهُ المُصَـوِّرُ
دَحَا الأَرْضَ وَالسَّبْعَ السَّمَاوَاتِ شَادَهَا ... وَأَتْقَنَهَـا لِلْعـالَمِـيْنَ لِيَنْظُـرُوا

وَأَبْـدَعَ حُسْـنَ الصُّنْعِ فِي مَلَكُـوْتِهَا وَفِي مَلَكُوْتِ الأَرْضِ كَيْ يَتفَكَّرُوا
وَأَوْتَـدَهَـا بِـالـرَّاسِـيَاتِ فَـلَمْ تَمِـدْ وَشَــقَّقَ أَنْهَــاراً بِهَــا تَتَفَجَّــرُ
وَأَخْـرَجَ مَـرْعَـاهَـا وَبَـثَّ دَوَابَهَـا وَلِلْكُـلِّ يَـأْتِـي مِنْـهُ رِزْقٌ مُقَـدَّرُ
مِنْ الحَبِّ ثُمَّ الأَبِّ والقَضْبِ وَالكَلاَ وَنَخْـلٍ وَأَعْنَـابٍ فَـوَاكِـهُ تُثْمِـرُ
فَأَضْحَتْ بِحُسْنِ الزَّهْرِ تَزْهُوْ رِيَاضُهَا وَفِـي حُـلَلٍ نَسْجُ الرَّبِيـعِ تَبَخْـتَرُ
وَزَانَ سَـمَاءً بِالمَصَـابِيْحِ أَصْبَحَتْ وأَمْسَتْ بِبَاهِيْ الحُسْنِ تَزْهُوْ وَتَزْهَرُ
تَرَاهَـا إِذَا جَنَّ الدُّجَـىٰ قَدْ تَقَلَّدَتْ قَـلاَئِـدَ دُرِّيٍّ لِـدُرٍّ تُحَقِّـرُ
فَيَـا نَـاظِـرَاً زَهْـرَ البَسَـاتِينْ دُوْنَهَـا أَظُنُّكَ أَعْمَـى لَيْسَ لِلْحُسْنِ تُبْصِرُ
وَيَـا مَـنْ لَهَـا إِنَّ المَحَـاسِـنَ كلَّهَـا بِـدَارٍ بِهَـا مـالا عَلَى القَلْبِ يَخْطُـرُ
وَلاَ سمِعَتْ أُذْنٌ وَلاَ الْعَيْنُ أَبْصَـرَتْ وَمَا تشْتَهِيْهِ النَّفْسُ فِي الحَالِ يَحْضُرُ
تَـزِيْـدُ بَهَـاءً كُـلَّ حِيْـنٍ وَعَيْشُـهَا يَـزِيْـدُ صَفَـاءً قَـطُّ لاَ يَتَكَـدَّرُ
مِنَ الـدُّرِّ وَاليَـاقُوْتِ تُبْنَى قُصُـوْرُهَا وَمِـنْ ذَهَـبٍ مَعْ فِضَّـةٍ لاَ تَغَـيَّرُ
وَمَـا يُشْتَهَىٰ مِـنْ لَحْـمِ طَيْرٍ طَعَامُهَا وَفَـاكِهَـةٍ مِمَّـا لَـهُ يُتَخَـيَّرُ
وَمَشْـرُوْبُهَا كَـافُـوْرُهَـا وَرَحِيقُهَـا وَتَسْنِيْمُهَا والسَّـلْسَبِيْلُ وَكَـوْثَـرُ
وَمِنْ عَسَلٍ وَالخَمْرِ نَهْرَانِ جَـوْفُهَا وَنَهْـرَانِ أَلبَـانٌ وَمَـاءٌ يُفَجَّـرُ
وَغَـالِيْ حَـرِيْـرٍ فُـرْشُهَا وَلِبَاسُـهَا وَحَصْبَاؤُهَا والتُّرْبُ مِسْكٌ وَجَوْهَرُ
وَمِـنْ زَعْفَــرَانٍ نَبْتُـهَا وَحَشِيْشُـهَا وَمِنْ جَـوْهَرٍ أَشْجَـارُهَا تِلْكَ تُثْمِرُ
فَـوَاكِـهُ تَكْفِـيْ حَبَّـةٌ لِقَبِيْـلَةٍ أُدِيْمَـتْ أُبِيْحَـتْ لا تُبَـاعُ وَتُحْجَـرُ
وَأَكْـوَابُهَـا مِـنْ فِضَّـةٍ لاَ كَـبِيْرَةٍ عَـلَى شَـارِبٍ مِنْهَـا وَلا هِيَ تَصْغُرُ
وَمِنْ ذَهَـبٍ زَاهِيْ الجَمَالِ صِحَافُهَا يَـلِذُّ بِهَا عَيْشٌ بِـهِ العَيْنُ تَقْـرُرُ
وَأَزْوَاجُهَـا حُـوْرٌ حِسَـانٌ كَـوَاعِـبٌ رَعَـابِيْبُ أَبْكَـارٌ بِهَـا النُّـوْرُ يَزْهَـرُ
هَـرَاكِيْـلُ خُـوْدَاتٌ وَغِيْـدٌ وَخُـرَّدٌ مَـدَى الـدَّهْـرِ لاَ تَبْلَىَ وَلا تَتَغَـيَّرُ
نَشَـتْ عُـرُباً أَتْـرَاب سِنٍّ قَوَاصِـرٍ لِطَـرْفٍ كَحِيْـلٍ لِلْمَـلاحَـةِ يَفْـتَرُ

عَـوَالِي الحُـلَى وَالحَـلْيُ عَينٌ فَـوَاخِـرٌ زَكَـتْ طَهُـرَتْ مِـنْ كُـلِّ مَـا يُتَقَـذَّرُ
ثَوَتْ في خِيَامِ الـدُّرِّ في رَوْضَـةِ البَهَا عَلى سُـرُرِ اليَاقُوْتِ تَغْـدُو وَتَحْضُـرُ
مِـلاحٌ زَهَتْ في رَوْنَقِ الحُسْنِ وَالبَهَا وَكُـلُّ جَمَـالٍ دُوْنَـهُ اْلَمدْحُ يَقْصُـرُ
وَمَـا اْلَمدَحُ فِيمَنْ نَشْرُهَا وَابْتِسَامُهَا يُضِيءُ الـدَّيَـاجِـيْ وَالـوُجُـوْدَ يُعَـطِرُ
وَمَنْ يَعْـذُبُ البَحْرُ الأُجَاجُ بِرِيقِهَا وَمَـنْ حُسْنِهَا لِلْعَـالَمِينَ يُحَـيِّرُ
وَمَنْ لَوْ بَدَتْ مِنْ مَشْرِقٍ ضَاءَ مَغْرِبٌ وَحَـارَ الوَرى مِنْ حُسْنِهَا حِينَ تَظْهَرُ
وَمَنْ مُخُّهَا مِنْ تَحْتِ سَبْعِينَ حُـلَّةً يُـرَى كَيْفَ مُوْفِي المَدْحِ عَنْهَا يُعَبِّرُ
فَخَيْرٌ مِـن الـدُّنْيَـا جَمِيْعاً خِمَـارُهَا فَأَحْسِـنْ بِمَنْ تَحْـتَ الخِمَـارِ مُخَمَّـرُ
وَأَحْقِـرْ بِـرَبَّـاتِ الْمَحَـاسِـنِ وَالَّتِي بِتَشْـبِيْهِ أَوْصَـافِ الجِنَـانِ تُصَـدَّرُ
فَمَا الفِضَّةُ البَيْضَاءُ شِيْبَتْ بِعَسْجِدٍ وَمَـا البَيْضُ مَكْنُـونُ النَّعَـامِ الْمُسَـتَّرُ
بَهَـاءً وَحُسْناً مَا الْيَوَاقِيْتُ فِي الصَّفَا وفي رَوْنَـقٍ مَـا اللُّـؤْلُؤُ الرَّطْـبُ يُنْثَرُ
وَمَـا شَبَّهَ الرَّحْمَنُ مِنْ بَعْضِ وَصْفِهَا بِبَيْـضٍ وَيَـاقُـوتٍ فَـذَلِكَ يُـذْكَـرُ
عَلى جِهَـةِ التَّقْـرِيْبِ لِلذُّهْنِ إِذْ لَنَا عُقُـوْلٌ عَلَيْهَـا فَهْـمُ مَـا يَتَعَسَّـرُ
تَبَارَكَ مُنْشِيْ الخَلْقِ عَنْ سِرِّ حِكْمَةٍ هُـوَ اللَّهُ مَـوْلانَا الحَـكِيْمُ الْمُـدَبِّـرُ
إِذَا مَـا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْخَـلْقِ جَهْـرَةً تَعَـالَـى لِكُـلِّ الْمُـؤْمِنِـيْنَ لِيَنْظُـرُوا
وَقَدْ زُيِّنَتْ جَنَّـاتُ عَـدْنٍ وَزُخْـرِفَتْ نَسُـوَا كُلَّ مَا فِيْهَا لِمَا مِنْـهُ أَبْصَـرُوا
جَمَـالاً وَوَصْفـاً جَـلَّ لَيْسَ كَمِثْـلِهِ وَفَضْـلاً وَإِنْعَـامَـاً يَجِـلُّ وَيَكْـبُرُ
نَعِـيْمٌ وَلَـذَّاتٌ وَعِـزٌّ وَرِفْعَـةٌ وَقُـرْبٌ وَرِضْـوَانٌ وَمُـلْكٌ وَمَتْجَـرُ
بِمَقْعَـدِ صِـدْقٍ فِي جِـوَارِ مَلِيْكِهِمْ هَنِيْئـاً لِمَسْعُـوْدٍ بِـذَلِكَ يَظْفَـرُ
أَيَا سَـاعَـةً فِيهَا السَّعَادَاتُ تُجْتَلَى عَـلى وَجْهِهَـا دُرُّ العِنَـايَـاتِ يُنْثَرُ
وَيَـا سَـاعَـةً فِيْهَـا المَفَـاخِـرُ تُرْتَقَى عُـلاهَا وَخَلْعَـاتُ الكِـرَامِ تُنَشَّـرُ
أَلَا مُشْـتَرٍ جَنَّـاتِ خُـلْدٍ وَخَيْرَهَـا وَحُـوْراً حِسَـاناً فـي المَلاحَـةِ تَفْخَـرُ

أَلَا بَائِعُ الفَانِيْ الحَقِيْرِ بِبَاقِي خَطِيْرٍ وَمُلْكٍ لَيْسَ يَبْلَى وَيَدمُرُ
أَلَا مُفْتَدٍ مِنْ نَارِ حَرٍّ عَظِيْمَةٍ أُلُوفُ سِنِيْنَ تِلْكَ تُحْمَى وَتُسْعَرُ
لَهَا شَرَرٌ كَالقَصْرِ فِيْهَا سَلَاسِلٌ عِظَامٌ وَأَغْلَالٌ فَغُلُّوْا وَجُرْجِرُوا
عُصَاةٌ وَفُجَّارٌ وَسَبْعٌ طِبَاقُهَا وَسَبْعِيْنَ عَاماً عُمْقُهَا قَدْ تَهَوَّرُوا
وَحَيَّاتُهَا كَالبُخْتِ فِيْهَا عَقَارِبٌ بِغَالٌ وضَرْبٌ وَالزَّبَانِيُ يَنْهَرُ
غَلِيْظٌ شَدِيْدٌ فِي يَدَيْهِ مَقَامِعٌ إِذَا ضَرَبَ الصُّمَّ الجِبَالَ تَكَسَّرُ
وَمَطْعُومُهُمْ زَقُّومُهَا وَشَرَابُهُمْ حَمِيْمٌ بِهَا أَمْعَاؤُهُمْ مِنْهُ تَنْدُرُ
وَيُسْقَوْنَ أَيْضاً مِنْ صَدِيْدٍ وَجِيْفَةٍ تَفَجَّرُ مِنْ فَرْجِ الذِيْ كَانَ يَفْجُرُ
وَقَدْ شَابَ مِنْ يَوْمٍ عَبُوسٍ شَبَابُهُم لِهَوْلٍ عَظِيْمٍ لِلْخَلائِقِ يُسْكِرُ
فَيَا عَجَباً نَدْرِيْ بِنَارٍ وَجَنَّةٍ وَلَيْسَ لِذَيْ نَشْتَاقُ أَوْ تِلْكَ نَحْذَرُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ خَوْفٌ وشَوْقٌ وَلا حَيَا فَمَاذَا بَقِيْ فِيْنَا مِنَ الخَيْرِ يُذْكَرُ
وَلَيْسَ لِحَرٍّ صَابِرِيْنَ وَلا بَلاَ فَكَيْفَ عَلَى النِّيْرَانِ يَا قَوْمُ نَصْبِرُ
وَفَوْتُ جِنَانِ الخُلْدِ أَعْظَمُ حَسْرَةً عَلَى تِلْكَ فَلْيَسْتَحْسِرِ المُتَحَسِّرُ
فَأُفٌّ لَنَا أُفٍّ كِلَابُ مَزَابِلٍ إِلَى نَتْنِهَا نَغْدُوْا وَلَا نَتَدَبَّرُ
نَبِيْعُ خَطِيْراً بِالحَقِيْرِ عِمَايَةً وَلَيْسَ لَنَا عَقْلٌ وَلُبٌّ مُنَوَّرُ
فَطُوْبَى لِمَنْ يُؤْتَى القَنَاعَةَ وَالتُّقَى وَأَوْقَاتُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ يَعْمُرُ
فَيَا أَيُّهَا الأَخْوَانُ مِنْ كُلِّ سَامِعٍ لَهُ فَهْمُ قَلْبٍ حَاضِرٍ يَتَذَكَّرُ
أَلَا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ بِضَاعَةٍ لِصَاحِبِهَا رِبْحٌ بِهَا لَيْسَ يَخْسَرُ
وَطَاعَتُهُ لِلْمُتَّقِي خَيْرُ حِرْفَةٍ بِهَا يَكْسِبُ الخَيْرَاتِ وَالسَّعْيُ يُشْكَرُ
إِذَا أَصْبَحَ البَطَّالُ فِي الحَشْرِ نَادِماً يَعُضُّ عَلَى كَفٍّ أَسىً يَتَحَسَّرُ
فَطُوبَى لِمَنْ يُمْسِيْ وَيُصْبِحُ عَامِلاً عَلَى كُلِّ شَيءٍ طَاعَةَ اللَّهِ يُؤْثِرُ
بِهَا يَعْمُرُ الأَوْقَاتَ أَيَّامَ عُمْرِهِ يُصَلِّيْ وَيَتْلُو لِلكِتَابِ وَيَذْكُرُ

وَيَأْنَسُ بالمَوْلَى وَيَسْتَوْحِشُ الوَرَى وَيَشْكُرُ فِي السَّرَّا وَفِي الضَّرَّا يَصْبِرُ
وَيَسْلُوْ عنَّ اللَّذَّاتِ بِالدُّوْنِ قَانِعُ عَفِيْفُ لَهُ قَلْبٌ نَقِيٌّ مُنَوَّرُ
حَزِيْنٌ نَحِيْلٌ جِسْمُهُ ضَامِرُ الحَشَا يَصُومُ عَنَّ الدُّنْيَا عَلى المَوْتِ يُفْطِرُ
إِذَا ذُكِرَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَأَهْلُهَا يَذُوْبُ اشْتِيَاقاً نَحْوَاهَا وَيُشَمِّرُ
وَيَعْلُو جَوَادَ العَزْمِ أَدْهَمَ سَابِقاً وَأَبْيَضَ مَجْنُوباً عَنِ النُّوْرِ يُسْفِرُ
فَأَدْهَمُ يَسْقِيْ مَاءَ عَيْنٍ وَأَبْيَضٌ لِصَبْرٍ عَلى صَوْمِ الهَجِيْرِ يُضَمَّرُ
وَيَرْكُضُ فِي مَيْدَانِ سَبْقٍ إِلى العُلا وَيَسْرِيْ إِلى نَيْلِ المَعَالِيْ وَيَسْهَرُ
فَمَجْدُ العُلاَ مَا نَالَهُ غَيْرُ مَاجِدٍ يُخَاطِرُ بِالرُّوْحِ الخَطِيْرِ فَيَظْفُرُ
سَأَلْتُ الذِيْ عَمَّ الوُجُوْدَ بِجُوْدِهِ وَمَنْ مِنْهُ فَيْضُ الفَضْلِ لِلْخَلْقِ يَغْمُرُ
يَمُنُّ عَلَيْنَا فِي قَبُولِ دُعَائِنَا وَيُلْحِقُنَا بِالصَّالِحِيْنَ وَيَغْفِرُ
وَأَزْكَى صَلاةِ اللَّهِ ثُمَّ سَلامِهِ عَلى المُصْطَفَى مَا لاَحَ فِيْ الأُفْقِ نَيِّرُ

في ذِكْرِ بَعْضِ سِيْرَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ عَبْدِ العَزِيْزِ وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ وَعَدْلِهِ

انْصَافُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَأَقَارِبِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالى فَعِنْدَمَا تَوَلَّى أَخَذَ جَوْهَرَ زَوْجَتِهِ وَحُلِيَّهَا فِيْمَا أَخَذَ فَأَوْدَعَهُ بَيْتَ المَالِ حَتَّى إِذَا احْتَاجَ إِلَيْهِ المُسْلِمُونَ أَنْفَقَهُ عَلَيْهِمْ .

وَعِنْدَمَا أَحسَّ أَنَهَا لَمْ ترض أَوَّلَ الأَمْرِ كُلَّ الرِّضَا بِمَا فَعَلَ خَيَّرَهَا بَيْنَ أَنْ تُقِيْمَ عِنْدَهُ وَبَيْنَ أَنْ تَلْحَقَ بِأَهْلِهَا فَرَضِيَتْ أَنْ تُقِيْمَ عِنْدَهُ وَأَنْ تَدْفَعَ بِحُلِيِّهَا وَجَوَاهِرِهَا إِلى بَيْتِ المَالِ ثُمَّ لا تَرُدُّهُ إِلَيْهَا أَبداً .

وَمَا زَالَ عُمَرُ فِي زَوْجَتِهِ حَتَّى أَثَّرَ عَلَيْهَا وَاقْتَدَتْ بِهِ فِي الوَرَعِ وَالزُّهْدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وَكَمَا فَعَلَ عُمَرُ مَعَ زَوْجَتِهِ فَاطِمَةَ فَعَلَ بِأَوْلَادِهِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ .

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ بلؤلؤةٍ وَقَالَتْ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَبْعَثَ لِيْ بِأُخْتِهَا حَتَّى أَجْعَلَهَا في أُذُنِيَّ فأرْسَلَ لَهَا بِجَمْرَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ لهَا إن اسْتَطعْتِ أَنْ تَجْعَلِيْ هَاتَينِ الجَمْرَتَيْنِ في أُذُنَيكِ بَعثتُ إِلَيْكِ بِأُخْتِهَا .

وَبَلَغَ عُمَرَ أَنَّ ابْنَهُ اشْتَرَى فَصَّ خَاتَمٍ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَكَتَبَ عَزِيْمَةٌ مِنِّيْ عَلَيْكَ إِلاّ بِعْتَ هَذا الخَاتَمَ الذِي اشْتَرَيْتَهُ بِأَلْفِ درْهَمٍ وَتَصَدَّقْتَ بِثَمَنِهِ اشْتَرَيْتَ آخَرَ بِدْرهمٍ نَقَشْتَ عَلَيْهِ : رَحِمَ اللهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ وَالسَّلامُ .

وَجَمَعَ يَوْماً رُؤَسَاءِ النَّاسِ فَخَطَبَهُم فقَالَ : إنَّ فَدَكَ كَانَتْ بيَدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَضَعُهَا حَيْثُ أرَاهُ اللهُ ثم وَلِيهَا أبو بَكرٍ وَعُمَرُ كذَلِكَ قَالَ الأصْمَعِيُّ وَمَا أَدْرِيْ مَا قَال في عُثْمَانَ ثمْ قَال انَّ مَرْوَانَ أَقْطَعَهَا فَحَصَلَ لَيْ مِنْهَا نَصِيْبٌ وَوَهَبَنِي الوَلِيْدِ وَسُلْيمَانُ نَصِيْبَهُما وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَالِيْ شَيءٌ أَرُدُّهُ أغْلَى مِنْهَا وَقد رَدَدْتُهَا في بَيْتِ المالِ عَلى ما كَانَتْ عليْهِ في زَمانِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم .

قال فَيئِسَ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ المَظَالِمَ ثُمَّ أمَرَ بِأمْوَالِ جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِيْ أُمَيَّة فَرَدُّوْهَا إلى بَيْتِ المالِ وَسَمَّاهَا أمْوَالُ المظالِم فاسْتَشْفَعَ إليْهِ النَّاسُ وتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ بعَمتِّهِ فَاطِمَةِ بِنْتِ مَرْوانَ فَلمْ يَنْجَعْ فِيْهِ شَيْءٌ .

وَقَالَ لَهُم لَتَدَعُنِّيْ وَإلاَّ ذَهَبْتُ إلى مَكَّةَ فَنَزَلْتُ عَنْ هَذَا الأَمْرِ لِأَحَقِّ النَّاسِ بِهِ .

وَقَدْ اَجْتَهَدَ رَحِمَهُ اللهُ في مُدَّةِ وِلايَتِهِ مَعَ قِصَرِهَا حَتَّى رَدَّ المظَالِمَ وَصَرَفَ إِلَى كُلِّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ .

وَكَانَ مُنَادِيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ يُنَادِيْ أَيْنَ الغَارِمُوْنَ أَيْنَ النَّاكِحُوْنَ أَيْنَ المَسَاكِيْنُ أَيْنَ اليَتَامَى حَتَّى أغنَى كلاًّ مِنْ هَؤُلاءِ فَرَحْمَةُ اللهِ عَلى تِلْكَ الرُّوْحِ المَطْبُوعِ عَلى العَدْلِ والصدق والوَرَعِ والزُّهْدِ .

وَقَالَتْ زَوْجَتُهُ فَاطِمَةُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً وَهُوَ جَالِسٌ فِي مُصَلاَّهُ وَاضِعاً خَدَّهُ على يَدِهِ وَدُمُوْعُه تَسِيْلُ على خَدَّيْهِ فقُلتُ مَالَكَ فَقَالَ وَيْحَكِ يَا فَاطِمَة قد وُلِّيْتُ مِنْ أَمْرِ هذه الأُمَّةِ مَا وُلِّيْتُ فَتَفَكَّرْتُ في الفَقِيْرِ الجَائِعِ وَالمظْلُوْمِ المَقْهُوْرِ وَالغَرِيْبِ وَالأَسِيْرِ وَالشَّيْخِ الكَبِيْرِ وذِي العِيَالِ الكَثِيْرِ وَالمرِيْضِ الضَّائِعِ وَالعَارِيْ المَجْهُودِ واليَتِيْمِ المكْسُوْرِ وَالأَرْمَلةِ الوَحِيْدَةِ وَالمَالُ قَلِيْلٌ وَأَشْبَاهُهُم في أقطارِ الأَرْضِ وَأَطْرَافِ البِلاَدِ .

فَعَلِمْتُ أَنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ سَيَسْأَلُنِي عَنْهُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَنَّ خَصْمِي دُوْنَهُم محمد صلى الله عليه وسلم فَخَشِيْتُ أنْ لا يَثْبُتَ لِيْ حُجَّةٌ عِنْدَ خُصُوْمَتِهِ فَرَحِمْتُ نَفْسِيْ فَبكَيْتُ ، قَالُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَكَانَ إذا غَسَلُوهُ جَلَسَ فِي المَنْزِلِ حَتَّى يَيْبَسَ. قَالُوا وَدَخَلَ مَرَّةً عَلَى امْرَأَتِهِ فسَأَلَها أَنْ تُقْرِضَهُ دِرْهَماً أو فُلُوساً يَشْتَرِيْ لهُ بِهَا عِنَباً فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهَا شَيْئاً فَقَالَتْ لهُ أنْتَ أمِيْرُ المؤمنينَ وَلَيْسَ في خِزَانَتِكَ ما تَشْتَرِيْ بِهِ عِنَباً .

فَقَالَ هَذَا أيسَرُ مِنْ مُعَالَجَةِ الأَغْلاَلِ وَالانْكَالِ غداً في جَهنَّمَ . قَالَ وَكَانَ سِرَاجُه عَلى ثلاثِ قَصَبَاتٍ في رَأْسِهِنَّ طِينٌ وَبَعَثَ يَوْماً غُلاَمَهُ لِيشْوِيْ لهُ لَحْماً فَجَاءَ بِهَا سَرِيْعاً مَشْوِيَّةً فَقَالَ أيْنَ شَوَيْتَهَا قَالَ في المَطْبخِ فَقَالَ في مَطْبَخِ المُسْلِمِيْنَ قالَ نَعَمْ فَقَالَ كُلْهَا فَانِّيْ لَمْ أُرْزَقْهَا هِيَ رِزْقُكَ وَسَخَّنُوا لهُ المَاءَ في المـطْبَخِ العَامِّ فَرَدَّ بدَلَ ذلك بدِرْهَمٍ حَطَباً .

وَكَانَ لهُ سِرَاجٌ يَكْتُبُ عَلَيْهِ حَوَائِجَهُ وَسِرَاجٌ لِبَيْتِ المَالِ يَكْتُبُ عَلَيْهِ

مَصَالِحُ المُسْلِمِيْنَ لا يَكْتُبُ عَلى ضَوْئِهِ لِنَفْسِهِ حَرْفاً وَبَلَغ عُمَرُ أنَّ رَجُلا مِنْ أصْحَابِهِ تُوُفِّيَ فَجَاءَ إلَى أهْلِهِ يُعَزِّيْهِمْ فَصَرَخُوا في وَجْهِهِ بالبُكَاءِ عَلَيْهِ فَقَالَ مَهْ إنَّ صَاحِبَكُمْ لَمْ يَكُنْ يَرْزُقكُم إنّ الذِي يَرْزُقُكُمْ حَيٌّ لا يَمُوْتُ وَانَّ صَاحِبَكُمْ هَذا لَمْ يَسُدَّ شَيْئاً مِنْ حُفَرِكُمْ وَإنَّما سَدَّ حُفْرَةَ نَفْسِهِ ألا وَإنَّ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْكُم حُفْرَةً لا بُدَّ وَاللَّهِ أنْ يَسُدَّهَا .

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لمَّا خَلَقَ الدُّنْيَا حَكَمَ عَلَيْهَا بالخَرَابِ وَعَلى أهْلِهَا بِالفَنَاءِ وَمَا امْتَلأتْ دَارٌ حُبْرَةً إلاّ امْتَلأتْ عِبْرَةً وَلاَ اجْتَمَعُوا إلا تَفَرّقُوا حَتَّى يَكُوْنَ اللهُ هُوَ الذِي يَرِثُ الارْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ بَاكِياً فَلْيَبْكِ عَلى نَفْسِهِ فإنَّ الذِي صَارَ إلَيْهِ صَاحِبُكُمْ كُلُّ النَّاسِ يَصِيْرُونَ إلَيْهِ غَداً .

شِعْراً :

أبْقَيْتَ مَالَكَ مِيْرَاثاً لِوَارِثِهِ
فَلَيْتَ شِعْرِيَ مَا أبْقَى لَكَ المَالُ
القَوْمُ بَعْدَكَ في حَالٍ تَسُرُّهُمُ
فكيْفَ بَعْدهُمُو صَارَتْ بِكَ الحَالُ
مَلُّوا البُكَاءَ فَمَا يَبْكِيْكَ مِنْ أحَدٍ
وَاسْتَحْكَمَ القِيْلُ في المِيْرَاثِ وَالقَالُ
مَالَتْ بِهِمْ عَنْكَ دُنْيَا أقْبَلَتْ لَهُمُوا
وَأدْبَرَتْ عَنْكَ وَالأيَّامُ أحْوَالُ

وَكَان رَحِمَهُ اللهُ قَدْ رَزَقَهُ اللهُ العِلْمَ وَالحِكْمَةَ وَالأدَبَ وَالعَدْلَ فَمَا تَزَحْزَحَ قَيْدَ شِبْرٍ عَن طَرِيْقَةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ وَقَدْ كَانَ مِنْ أمْرِهِ مَا ذُكِرَ عَنْهُ أنّهُ شَيَّعَ جَنَازَةً فَلمَّا انْصَرَفَ النّاسُ تَأخّرَ عُمَرُ وَتَأخَّرَ مَعَهُ أُنَاسٌ وَجَلَسُوا نَاحِيَةً .

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصحَابِهِ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لِمَ تَأَخَّرْتَ وَتَركت الجَنَازَةَ وَأَنْتَ وَلِيُّهَا فَقَالَ نعَمْ نَادَانِيْ القَبْرُ مِنْ خَلْفِيْ يَا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ ألا تَسْأَلُنِيْ مَا صَنَعْتُ بالأَحِبَّةِ قلتُ بَلىٰ .

قَالَ أَحْرَقْتُ الأَكْفَانَ وَمَزَّقْتُ الأبْدَانَ وَمَصَصْتُ الدَّمَ وَأَكَلْتُ اللَّحْمَ قَالَ أَلاَّ تَسْأَلُنِيْ مَا صَنَعْتُ بِالأَوْصَالِ قُلْتُ بَلى قَالَ نَزَعْتُ الكَفَّينِ من الذِّرَاعَيْنِ وَالذِّرَاعَيْنِ مِنَ العَضُدَيْنِ وَالوَرْكَيْنِ مِن الفَخِذَيْنِ وَالفَخِذَيْنِ مِن الرُّكْبَتينِ وَالرُّكْبَتَينِ مِن السَّاقَينِ وَالسَّاقَينِ مِن القَدَمَيْنِ .

ثُمَّ بَكَى عُمَرُ وَقَالَ أَلاَ إنَّ الدُّنْيَا بَقَاؤُهَا قَلِيْلٌ وَعَزِيْزُهَا ذَلِيْلٌ وَغَنِيُّهَا فقِيرٌ وَشَابُّها يَهْرَمُ وَحيُّهَا يَمُوْتُ فَلا يَغُرَّنكُم إقبَالُهَا مَعَ سُرْعَةِ ادْبَارِهَا فَالمغْرُورُ مَنْ اغْتَرَّ بِمَا لا يَدُومُ وَالمفْتُونُ مَنْ أجْهَدَ نَفْسَهُ في طَلَبِ مَا لَيْسَ بِمَقْسُوْمٍ .

ثُمَّ قَالَ أَيْنَ سُكّانُهَا الذِيْنَ تَبَوَّؤُا مَدَائِنَها وَشَقُّوا أَنْهَارَهَا وَغَرَسُوا أَشْجَارَهَا لَقَدْ أقَامُوا أَيّاماً يَسِيْرَةً فَتَنَتْهُم العَافِيَةُ وَغَرَّهُم النَّشَاطُ وَأَلْهَتْهُم الزَّخَارِفُ فرَكِبُوا المَعَاصِيْ حَتَّى أَنَاخَتْ بِهِم مَطَايَاهَا عَلى حَافَاتِ الحُفَرِ .

وَالقَبْرُ إمَّا رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ

فَوَاخَيْبَةَ آمَالِهِم ويَا حَسْرَةَ قلُوبِهِم لَقَدْ كَانُوا مَغْبُوطِيْنَ بِمَا صَنَعُوا ومَحْسُودِيْنَ عَلى مَا جَمَعُوا وَلَقَدْ عَلِمْتُم مَا صَنَعَ التُّرَابُ بأبْدَانِهِم وَالديْدَانُ بِلُحُوْمِهِمْ .

وَأَطَالَ الكَلامُ في هَذَا الموْضُوعِ وَهُوَ يَبْكِيْ إلى أَنْ قَالَ يَا ساكِنَ

القَبْرِ بَعْدَ أيّامٍ قلائِلَ مَا غرَّكَ من الدنيا هَلْ ظَنَنتْ أنّكَ تَبْقى لهَا أَمَا رَأيْتَ مِنْ آبَائِكَ مَنْ قدْ نَزَلَ بِهِ الأمْرُ وَجَاءَ الأجَلُ فأصْبَحَ لا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ مَا نَزَلَ بِهِ وَهُوَ يَرْشَحُ عَرَقاً وَيَتَلظَّىٰ عَطَشاً وَيَتَقَلَّب في غمَرَاتِ المَـوْتِ وَسَكَرَاتِهِ .

ثُمَّ قَرَأَ « حَتَّى إذَا بَلَغَت الحُلْقُوْمُ وَأَنْتُمْ حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُوْنَ وَنَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُم وَلكِنْ لا تُبْصِرُوْنَ فَلَوْلا أنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِيْنِينَ تَرْجعُونَها إنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ » وَبَكَى طَوِيْلاً ثُمَّ قَالَ لَيْتَ شِعْرِيْ مَا الذِيْ يَلقَانِيْ بِهِ مَلَكُ المَوْتِ عِنْدَ خُرُوْجِيْ مِن الدُّنْيَا وَما يَأْتِيْنِيْ بهِ مِنْ رِسَالَةِ رَبِّيْ

رَثى بَعضُهم عُمَرَ بن عَبدالعزيز فقال :

كَمْ مِنْ شَرِيعَة حَقٍ قَدْ بَعَثْتَ لَهَا ... كادَتْ تَمُوتُ وأخْرىَ منْكَ تُنْتَظرُ
يالَهْفَ نَفْسي ولَهْفُ الواجِدِيْن مَعَي ... على الحبيب الذى يُسْقَى بِهِ المَطَرُ
ثلاثة مارَ أتْ عَينى لهَا شَبَهاً ... تَظمُ أعْظُمُهُمْ في المسجدِ الحُفَرُ
وأنْتَ رَابعُهم إذ كُنْتَ مُجتِهداً ... لِلحق والأمْرِ بالَمعْرُوفِ تبْتَدِرُ
لو كُنْتُ أمْلِكُ والأقْدَارُ غَالبةٌ ... تأْتِي رَوَاحاً وتِبْيَانـاً وَتبْتَكـرُ
صَرَفْتُ عن عُمَرَ المَرْضِي مَصْرَعَهُ ... بِدَيْر سِمْعَانِ لَكِنْ يَغْلِبُ القَدَرُ
وفي مُصَابِ رَسول الله تسْلِيَةَ ... فِيْمَنْ يمُوت وفى أنْبَائه عِبَرُ
هو الرسولُ الذِي مَنّ الإلَهُ به ... على البَرِيّةِ وازْدَادَتْ به السِّيَرُ
وخير مَن وَلَدَتْ عَدْنَانُ قاطِبةً ... وخير مَن شَرُفَتْ مِن أجْلِهِ مُضرُ
صلى عليه إلهُ العَرش ما طَلَعَتْ ... شَمْسَ وما خَلَفَتْهَا الأنْجمُ الزّهرُ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

فَصْــــلٌ

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ المُرْوَزِيّ قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزيز رضيَ اللهُ عَنْهُ لما دُفِنَ سُليمانُ بن عبدِ الملكِ وَخَرجَ مِنْ قَبْرِهِ سُمِعَ للأَرْضِ هَدَّةٌ أو رَجَّةٌ فقَالَ مَا هَذِهِ فَقِيْلَ هَذِهِ مَرَاكِبُ الخِلافةِ قُرِّبَتْ إلَيْكَ لِتَرْكَبَهَا فَقَالَ مَا لِيْ وَلَهَا أبْعِدُوْهَا عَنِّيْ وَقَرِّبُوا لِيْ دَابَّتِيْ فَقُرِّبَتْ إلَيْهِ فَرَكِبَها فَجَاءَ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ يَسِيْرُ بَيْنَ يَدَيْهِ بالحَرْبَةِ جَرْياً عَلى عَادَةِ الخُلَفَاءِ قَبْلَهُ .

فَقَالَ تَنَحَّ عَنِّيْ مَا لِيْ وَلَكَ إنَّمَا أنَا رَجُلٌ مِن المُسلِمِيْنَ ثُمَّ سَارَ مُخْتَلطاً بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى دَخَلَ المَسْجِدَ وَصَعَدَ المِنْبَرَ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ إلَيْهِ فَحَمِدَ اللهَ وَأثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ النَّبيَّ صَلى الله عليه وسلم ثمّ قالَ أيُها النَّاسُ إنَّمَا بُلِيْتُ بهَذَا الأمْرِ مِنْ غَيْرِ رَأْيٍ مِنِّيْ وَلا طِلْبَةٍ وَلا مَشُوْرَةٍ وَإنِّيْ قَدْ خَلَعْتُ مَا في أعْنَاقِكُمْ مِنْ بَيْعَةٍ فَاخْتَارُوا لأنْفُسِكُم غَيْرِيْ فَصَاحَ المُسلِمُونَ صَيْحَةً وَاحِدَةً قَد اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنينَ وَرَضِيْنَاكَ فَلِيْ أمْرَنَا بِاليُمْنِ وَالبرَكَةِ .

فَلَمَّا سَكَتُوا حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى على النَّبيّ ﷺ ثُمَّ قَالَ أُوْصِيْكُم بتَقْوَى اللَّهِ فإنّ تَقْوَى اللَّهِ خَلَفٌ مِنْ كُلِّ شَيءٍ وَلَيْسَ مِنْ تَقوى اللَّهِ خَلَفٌ وَأَصْلِحُوا سَرَائِرَكُمْ يُصْلِح اللَّهُ عَلانِيَتَكُم وَأَكْثِرُوْا ذِكْرَهَا ذِم اللذّاتِ المَوْتَ وَأَحْسِنُوا لَهُ الاسْتِعْدَادَ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ بِكُمْ .

وَإنَّ مَنْ لا يَذْكُرُ مِنْ آبَائِهِ الذِيْنَ لَيْسَ بَيْنَهم وبَيْنَ آدَمَ أباً حَيّاً لمُعرقٌ في المَوْتِ وَانّ هَذِه الأُمّةِ لَمْ تَخْتَلِفْ في رَبِّهَا وَلاَ في نَبيِّهَا وَلا في كِتَابهَا إنَّمَا اخْتَلفُوا

فِي الدِّيْنَارِ والدِّرْهَمْ وَإِنِّيْ وَاللَّهِ لاَ أعْطِيْ أحَداً بَاطِلاً وَلا أَمْنَعُ أَحَداً حَقّاً .

أَيُّها النَّاسُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالى وَجَبَتْ طَاعَتُه وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فلا طَاعَة لَهُ أَطِيْعُونِيْ مَا أَطَعْتُ اللَّهَ فاذَا عَصَيْتُه فلا طَاعَةَ لِيْ عَلَيْكُم ثُمَّ نزلَ وَدَخَلَ دَارَ الخِلاَفَةِ وَأَمَرَ بالسُّتُورِ فَهُتِكَتْ وبالبُسُطِ فَرُفِعتْ وَأَمَرَ بِبَيْعِ ذَلِكَ وَادْخَالِ أَثْمَانِهَا بَيْتَ مَالِ المُسْلِمِيْنَ .

ثُمَّ ذَهَبَ يَتَبَوَّءُ مَقِيْلاً فَأَتَاهُ ابْنُهُ عَبْدُالمَلِكَ فقَالَ مَا تُرِيْدُ أَنْ تَصنع يَا أَبَتِيْ قَالَ أيْ بُنَيَّ أَقِيْلُ فقَالَ تَقِيْلُ وَلا تَرُدُّ المظَالِمَ قَالَ أَيْ بُنَيَّ قدْ سَهِرْتُ البَارِحَة فِي أَمْرِ عَمِّكَ سُلَيْمَان فَاذا صَلَّيْتُ الظّهْرَ رَدَدْتُ المظالِمَ فَقَالَ يا أَمِيْرَ المؤمِنينَ مِنْ أَيْنَ لكَ أَنْ تَعِيْشَ إلى الظّهْر فقالَ ادْنُ مِنِّيْ فَدَنَا مِنْهُ فقَبّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ .

وَقَالَ الحَمْدُ لِلَّهِ الذِيْ أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِيْ مَنْ يُعِيْنُنِيْ عَلى دِيْنِيْ فَخَرَجَ وَلَمْ يقِلْ وَأَمَرَ مُنَادِياً يُنَادِيْ أَلاَ مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ فليرَفعْهَا إِلَيَّ فَتقَدَّمَ إِلَيْهِ ذِمِّيّ مِنْ أَهْلِ حِمْصَ فقَالَ يَا أَمِيْرَ المؤمِنِيْنَ أَسْأَلُكَ كِتَابَ الله قَالَ وَمَا ذَاكَ قَالَ إنَّ العَبَّاسَ بْنَ الوَلِيْدِ اغْتَصَبَنِيْ أَرْضِيْ وَالعَبَّاسُ حَاضِرٌ فقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا تَقُولُ يا عَبَّاسُ قَالَ إنَّ أَمِيْرَ المؤمِنينَ الوَلِيْدُ أَقْطَعَنِيْ إيَّاهَا وَهَذا كِتَابُهُ .

فَقَالَ عُمَرُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ مَا تَقُوْلُ يَا ذِمِّيْ قَالَ أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ أَسْأَلُكَ كِتَابَ اللّهِ تَعالَى فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كِتَابَ اللهِ أَحُقُّ أَنْ يُتَّبَعَ مِنْ كِتَابِ الوَلِيْدِ فَارْدُدْ عَلَيْهِ أَرْضَهُ يِا عَبَّاسُ فَرَدَّهَا عَلَيْهِ ثمَّ جَعَلَ لاَ يُدَّعَى عَلَى شَيْءٍ مِمَّا فِي أَيْدِيْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِن المَظَالِمِ إلاَّ رَدَّهُ مَظْلَمَةً مَظْلَمَةً ولَما بَلَغَ الخَوَارِجَ سِيْرَةُ عُمَرَ وَمَا رَدَّ مِنْ المَظَالِمِ اجْتَمَعُوا وَقَالُوا مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُقَاتِلَ هَذَا الرَّجُلَ وَقَالَ فِيْهِ كُثَيِّرُ عَزَّةَ :

وَلَيْتَ وَلَمْ تَسْبُبْ عَلِيّاً وَلَمْ تُخِفْ
بَرِيّاً وَلَمْ تَقْبَلْ مَقَالَةَ مُجْرِمِ
وَصَدَّقْتَ بِالقَوْلِ الفِعَالَ مَعَ الذِيْ
أَتَيْتَ فَأمْسَى رَاضِيَاً كُلَّ مُسْلِمِ
فَمَا بَيْنَ شَرْقِ الأَرْضِ وَالغَرْبِ كُلِّهَا
مُنَادٍ يُنَادِيْ مِنْ فَصِيْحٍ وَأَعْجَمِ
يَقُوْلُ أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ ظَلَمْتَنِي
بِأَخْذِكَ دِيْنَارِيْ وَلاَ أَخْذِ دِرْهَمِ
فَأَرْبِحْ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِمُبَايِعٍ
وَأَكْرِمْ بِهَا مِنْ بَيْعَةٍ ثُمَّ أَكْرِمِ

وَلَمَّا بَلَغَ الجَبَّارَ العَنِيْدَ عُمَرَ بْنِ الوَلِيْدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ رَحِمَهُ اللّهُ رَدَّ الضَّيْعَةَ عَلَى الذِمِيّ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ يَعْتَرِضُ عَلَى عَدْلِهِ وَيَزْعُمُ أنه جورٌ ، فقال في كتابه إنك قد ازدريت على من كان قبلك مِن الخُلَفَاءِ ، وَعِبْتَ عليهم وسرت بغير سرتهم بغضاً لهم وشيناً لمن بعدهم مِنْ أَوْلَادِهِمْ . قَطَعْتَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ إِذْ عَمَدْتَ إِلَى أَمْوَالِ قُرَيْشٍ وَمَوَارِيْثِهم فَأدْخَلْتَهَا بَيْتَ المَالِ جَوْرَاً وَعُدْوَانَاً ، وَلَنْ تُتْرَكَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ ، والسَّلَامُ .

فَلَمَّا قَرَأَ عُمُرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ كِتَابَهُ كَتَبَ إِلَيْهِ (بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ) مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ إلى عُمَرَ بْنِ الوَلِيْدِ السَّلَامُ عَلَى المُرْسَلِيْنَ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ ، أَمَّا أَوَّلَ شَأْنِكَ يَا ابْنَ الوَلِيْدِ فَأُمُّكَ بَنَانَةُ السُّكُوْنِ كانَتْ تَطُوْفُ في سُوْقِ حِمْصَ وَتَدْخُلُ في حَوَانِيْتِهَا ثُمَّ اللّهُ أَعْلَمُ بِهَا .

ثُمَّ اشْتَرَاهَا ذُبْيَانُ مِنْ مَالِ المُسْلِمِيْنَ فَأَهْدَاهَا لأبِيْكَ فَحَمَلَتْ بِكَ فَبِئْسَ المَوْلُوْدُ ، ثُمَّ نَشَأْتَ وَكنْتَ جَبَّارَاً عَنِيْدَاً تَزْعُمُ أَنِّي مِنْ الظَّالِمِيْنَ إِذْ حَرَمْتُكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ مَالَ اللهِ تَعَالَى الذِي هُوَ فِي حَقِّ القَرَابَاتِ والمَسَاكِيْنِ وَالأَرَامِلْ .

وَإِنَّ أَظْلَمَ مِنِّيْ وَأَتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنْ اسْتَعْمَلَكَ صَبِيَّاً سَفِيْهَاً عَلَى جُنْدِ المُسْلِمِيْنَ تَحْكُمْ فِيْهِمْ بِرَأْيِكَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي ذَلِكَ نِيَّةٌ إلا حُبُّ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ فَوَيْلٌ لِأَبِيْكَ مَا أَكْثَر خُصَمَاؤُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَكَيْفَ يَنْجُو أَبُوكَ مِنْ خُصَمَائِهِ .

وَإِنّ أَظْلَمَ مِنِّيْ وَأَتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنَ اسْتَعْمَلَ الحَجَّاجَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَأْخُذ المالَ الحَرَامَ .

وَإِنَّ أظْلَمَ مِنّيْ وَأتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنْ اسْتَعْمَلَ قُرَّةَ أَعْرَابِيَّاً جَافِيَاً عَلَى مِصْرَ وَأذِنَ لَهُ في المَعَازِفِ وَاللهْوِ وَشُرْبِ الخَمْرِ .

وَإِنَّ أظْلَمَ مِنّيْ وَأتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنْ جَعَلَ لِعَالَيَةِ البَرِيْقِيَّةَ في خُمسِ العَرَبِ نَصِيْبَاً فَرُوَيْدَاً يَا ابْنَ بَنَانَةَ لَوْ الْتَقَتَا حِلَقُ البِطَانِ وَرُدَّ الفَيْءُ إلى أهْلِهِ لَتفَرَّغتُ لَكَ وَلأهْلِ بَيْتِكَ فَوَضَعْتُهُم عَلَى المحجّة البَيْضَاءِ فَطَالَمَا تَرَكْتُمْ المَحَجَّةِ البِيْضَاءِ فَطَالَمَا تَرَكْتُمْ الحَقَّ وَأَخَذْتُم البَاطِلَ وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مَا أرْجُو أنْ أكُونَ رَأَيْتُهُ مِنْ بَيْعِ رَقَبَتِكَ وقَسْمِ ثَمَنِكَ عَلى الأرامِلِ والمساكين واليَتَامَى فإنَّ لِكُلٍّ فِيْكَ حَقَّاً وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى وَلَا يَنال سَلَامُ اللهِ القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ

وَكَتَبَ إلَيْهِ أحَدُ عُمَّالِهِ فَقَالَ أَمَّا بَعْدُ أَصْلَحَ اللهُ الأمِيْرَ فَإنَّ قَبْلِي أنَاساً مِن العُمَّالِ قَد اقْتَطَعُوا مالاً عَظِيْمَاً لَسْتُ أقْدِرُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ أيْدِيْهِم إلاّ أنْ أمَسَّهُم بِشَيْءٍ مِن العَذَابِ فَإنْ رَأَى أَمِيْرُ المؤمنين أنْ يَأذَنَ لِيْ فِي ذَلِكَ أفْعَلُ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَمَّا بَعْدُ فَالعَجَبُ كُلَّ العَجَبِ مِنْ اسْتِئْذَانِكَ إِيَّايَ فِي عَذَابِ بَشَرٍ كَأَنِّيْ لَكَ وِقَايَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَكَأَنَّ رِضَائِيْ عَنْكَ يُنْجِيْكَ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَانْظُرْ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ عُدولٌ فخذه بِمَا قَامَتْ بِهِ البَيِّنَةُ .

وَمَنْ أَقَرَّ لَكَ بِشَيْءٍ فَخُذْهُ بِمَا أَقَرَّ بِهِ وَمَنْ أَنْكَرَ فَاسْتَحْلِفْهُ باللهِ العَظِيْمِ وَخَلِّ سَبِيْلَهُ وَأَيْمُ اللهُ لأنْ يَلْقُوْا اللّهَ بِخِيَانَاتهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ أَنْ أَلقَىٰ اللهَ بِدِمَائِهِمْ والسَّلاَمُ .

وَكَانَ لِلْوَلِيْد بْنِ عَبْدِ المَلِكِ ابْنٌ يُقَالُ لَهُ رَوْحٌ وَكَانَ نَشَأَ بِالبَادِيَةِ فَكَأَنهُ أَعْرَابِيٌّ فَأتَى نَاسٌ مِن المُسلِمِيْنَ إلى عُمَرَ يُخَاصِمُوْنَ روْحاً في حَوانِيْت بِحِمْص وَكَانَتْ لَهُمْ أَقْطَعَهَا إِيَّاهُمْ أَبُوهُ بِسِجِلِّ الوَلِيْدِ .

قَالَ مَا يُغْنِيْ عَنْكَ سِجِلُّ الوَلِيْدِ ، الحَوَانِيْتُ حَوَانِيْتُهُمْ قَدْ قَامَتْ لَهُمْ البَيِّنَةُ عَلَيْهَا خَلِّ لَهُمْ حَوَانِيْتَهُم فَقَامَ رَوْحٌ وَخَصْمُهُ الحَمْصِيُّ مُنْصَرِفِيْنَ فَتَوَعَّدَ رَوْحٌ الحِمْصِيَّ فَرَجعَ الحِمْصِيُّ إِلَى عُمَرَ فَقَالَ هُوَ واللهِ يَتَوَعَّدُنِيْ يَا أَمِيْرَ المؤمِنِيْنَ .

فَقَالَ عُمَرُ لِكَعْبِ بْنِ حَامِدٍ وَهُوَ مِنْ حَرَسِ عُمَرَ إِذْهَبْ إِلَى روْحٍ يَا كَعْبُ فَإِنْ سَلَّمَ الحَوَانِيْتَ إلى الحِمْصِيِّ فَذَاكَ وَإلاّ أتِنِيْ بِرَأسِهِ فَسَمِعَ بَعْضُ المُوَالِيْنَ لِرَوْحٍ كَلامَ عُمَرَ فَأسْرَعَ في إِخْبَارِهِ بِمَا قَالَ عُمَرُ فَخَلَعَ قَلْبَهُ وَخَرَجَ إِلَيْهِ كَعْبٌ وَقَدْ سَلَّ بَعْضَ السَّيْفِ فَقَالَ لَهُ قُمْ فَخَلِّ لَهُ حَوَانِيْتَهُ قَالَ نَعَمْ وَخَلَّى لَهُ الحَوَانِيْتَ وَتَابَعَ النَّاسُ في رَفْعِ المَظَالِمِ فَمَا رُفِعَتْ إِلَيْهِ مَظْلَمَةٌ إِلاَّ رَدَّهَا .

اللَّهُمَّ أَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الأَبْرَارِ وَأَسْكِنَّا الجَنَّةَ دَارَ القَرَارِ وَاغْفِرْ لَنَا

وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللَّهِ قَدْ كَثُرَ فِي زَمَنِنَا اليَوْمَ أُنَاسٌ يَرَى أَحَدُهُمْ قَدْرَ نَفْسِهِ فَوْقَ مَا تَتَصَوَّرُهُ الأَفْهَام وَيَجْزِمُ كُلَّ الجَزْمِ أَنَّهُ رَفِيْعُ المَقَامِ ، رِفْعَةً كُلُّ رَفِيْعٍ مَعَهَا تَحْتَ الأَقْدَامِ ، لَا تَذْكُرُ أَمَامَهُ فَاضِلًا إِلَّا ضَحِكَ وَهَزَّ رَأْسَهُ مُتَهَكِّمَاً سَاخِرَاً بِمَا لَهُ مِنْ مَقَامٍ وقَدِيْمَاً قِيْلَ :

وَمَــنْ جَــهِـلَتْ نَـفْـسُـهُ قَـدْرَهُ
رَأَى غَـيْـرُهُ مِـنْـهُ مَـالا يَـرَى

وَتَجِدُ هَذَا المُتَكَبِّرُ المُعْجَبُ بِنَفْسِهِ شَرِسَاً أَحْمَقَاً ذَا إِبَاءٍ وَاسْتِعْصَاءٍ حَتَّى على خالِقَهَ القَدِيْرالكَبِيْر المُتَعَالِي وَتَرَاهُ نَارِيَّ المِزَاجِ يَلْتَهِبُ التِهَابَاً وَيَنْفَجِرُ لِأَدْنَىٰ كَلِمَةٍ لا تُرْضِيْهِ وَلَوْ لَمْ يَقْصِدَ قَائِلُهَا إِلَّا الحُسْنَى .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِ أَنَّكَ تَجِدُهُ حَرِيْصَاً عَلَى أَنْ يَكُوْنَ أَمَامَ النَّاسِ وَأَنْ يُصْغُوا إِلَى كَلَامِهِ وَيُؤْلِمهُ كَلَامُ غَيْرِهِ وَلَوْ كانَ حَقّاً وَتَجِدُ ثِيَابَهُ مُسْبَلَةً وفِي مَشْيِهِ يَتَبَخْتَر مُصَعِّراً خَدَّهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ عِقَالٌ تَجِدُهُ مُمِيْلاً لَهُ وَتَجِدُ بَعْضَهُمْ قَدْ وَفَّرَ شَارِبَهُ وَفَتَلَهُ وَسَوَّى شَنَبَاتِهِ كالقُرُوْنِ قَالَ بَعْضُهُمْ :

إِنَّ الكَمَـالَ الذِيْ سَـادَ الرِّجَـالُ بِـهِ
هُـوَ الـوَقَـارُ وَقَـرْنُ العِلْمِ بِـالعَمَـلِ
فَقُـلْ لِمَنْ يَـزْدَهِيْ عُجْبَاً بِمَنْـطِقِـهِ
وَقَلْبُـهُ فِي قُيُـوْدِ الحِـرْصِ والأَمَلِ

مَهْلَا فَمَا اللهُ سَاهٍ عَنْ تَلاعُبِكُمْ لَكِنَّ مَوْعِدُكُمْ في مُنْتهى الأَجَلِ
وَقُلْ لمَنْ فَخْرُه في فَتْلِ شارِبِه أَضَعْتَ عُمْرَكَ بَيْنَ الكِبْرِ وَالكَسَلِ
حَتَّامَ تُبْرِمُ يَا وَافِيْ القَفَا شَنَباً مَا فِي طَوَايَاهُ إِلَّا خَيْبَةُ الأَمَلِ
أَصْبَحْتَ بُعْبُعَ مَنْ في البَيْتِ تُزْعِجُهُمْ هَلَّا أَخَفْتَ العِدَا يَامَعْرَضَ الخَجَلِ

آخر :

قل للّئيمِ الذى أَحْفَى لِلِحَيته وَتَاهَ في شَنَباتٍ حَشْوُهَا قَذَرُ
أَرْفُقْ فَلَيْسَ كَمَالاً ما تَتِيْهُ به لكِنَّـهُ نَتَـنُ يَشُوْبُـــهُ مَذَرُ

وَمِنْ عَلاَمِاتِهِ أَنَّكَ تَجِدُ صَاحِبَ الكِبْرِ لا يَرْغَبُ قُرْبَ الفُقَرَاءِ مِنْهُ ولاَ يَأْلَفُ إلاَّ الأَغْنِيَاءَ فَالمُتَكَبِّرُ لا يُحِبُّ لِلْمُؤْمِنِيْنَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ لِأَنَّهُ لا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بِسَبَبِ كِبْرِهِ وَعُجْبِهِ وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَهُوَ رَأسُ أَخْلاَقِ الأَصْفِيَاءِ .

وَلاَ يَقْدِرُ المُتَكَبِّرُ عَلَى تَرْكِ الحِقْدِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدُوْمَ عَلَى الصِّدْقِ وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الغَضَبِ وَلاَ عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ ولاَ يَسْلَمُ مِنَ احْتِقَارِهِ لِلنَّاسِ وَلاَ يَسْلَمُ مِن الغِيْبَةِ وَالبُهْتِ لِأَنَّهُ فِيْهِ مِن العَظَمَةِ وَالعِزَّةِ وَالكِبْرِيَاءِ مَا يَحُوْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ .

فَمَا مِنْ خُلُقٍ ذَمِيْمٍ وَقَبِيْحٍ إلاّ وَصَاحِبُ الكِبْرِ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ لِيَحْفَظَ بِهِ عِزَّهُ وَعَظَمَتَهُ وَلِذَلِكَ وَرَدَ في الحَدِيْثِ أَنّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ وفي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لابْنِهِ يَقُولُ « وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إنَّ اللهلا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ » .

وَمِنْ تَعَالِيْمِ رَبِّنَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ وَنَبِيِّهَا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ يَقُولُ اللهُ

تَعَالَى ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُوْلا﴾ .

وَبِالحَقِيْقَةِ إِنَّ المتَكَبِّرَ مِسْكِيْنٌ ثم مِسْكِيْنٌ إِلَى حَدٍّ يَسْتَحِقُّ مَعَهُ الرِّثَاءُ فإِنَّكَ بَيْنَمَا تَرَاهُ بِهَذِهِ الكِبْرِيَاءُ وَالعَظَمَةِ تَرَاهُ غَارِقَاً فِي بَحْرِ المَعَاصِيْ وَذُلِّهَا يُلْقِيْ نَفْسَهُ فِي جَهَنَّمَ .

أَيَظُنُّ هَذَا المِسْكِيْنُ أَنَّهُ عَزِيْزٌ واللّهُ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ أَوْ يَظُنُّ أَنَّهُ رَفِيْعٌ وَهُوَ فِي قاذُوْرَاتِ المَعَاصِيْ إِنَّ العِزَّةَ والرِّفْعَةَ لَا يَحْصُلَانِ بِالدَّعْوَى وَلَيْسَ حُصُوْلُهُمَا بِيَدِ مَخْلُوقٍ وَلَكِنَّهُمَا بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ يَمْنَحُهُمَا إِلَى مَنْ يُسَارِعُونَ إلى طَاعَةِ مَوْلَاهُم جلَّ وَعَلَا وَتَقَدَّسَ .

فَيَا عِبَادَ اللهِ انْصَحُوا مَنْ وَقَعَ فِي وَرْطَةِ الكِبْرِ وَقُولُوا لَهُ تَدَبَّرْ كَلَامَ رَبِّ العَالَمِيْنَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِيْنَ ﴾وَقَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذِيْنَ يَتَكَبَّرُوْنَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوْهُ سَبِيْلَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيْلَا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِيْنَ » .

وَعَنْ عَمْرِوِ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْشَرُ المتَكَبِّرُوْنَ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يُسَاقُوْنَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُوْلُس تَعْلُوْهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِيْنَةِ الخَبالِ رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَالترْمِذِي واللّفْظُ لَهُ وَقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ .

شِعْراً :

اعْلَمْ هُـديْتَ وَخَيْرُ العِلْمِ أَنْفَعُـهُ
أنَّ اتبَاعَ الهَوىٰ ضَـرْبٌ مِنْ الخَبَلِ
وَالحَمْـدُ لِلّهِ رَبِّ العَـالَـمِيْـنَ عَلى
إنْعَـامِـهِ وَتَعـالَى اللّهُ خَـيْـرُ وَلِيّ
فَكَمْ وَكَمْ ظَـلَّ بـالأَهْـوَاءِ وَطَـاعَتِهَـا
مِنْ عَـاقِلٍ جَـامِعٍ لِلْعِلْمِ وَالعَمَـلِ
هُـوَ الهَـوَانُ كَمَـا قَـالُوا وَقَـد سُرِقَـت
الـنُّـوْنُ مِنْـهُ فَجَـانِـبْـهُ وَخُـذْ وَمِـلِ
وَأَقْبِـلْ عَـلى طَـاعَـةِ الـرَّحْمَنِ وَالْـزَمَهَـا
فـي كُـلِّ حِينٍ وَلا تَخْـلُدْ إلى الكَسَـلِ
وَلا تُخَـالِـفْ لَـهُ أَمْـراً تَبَـارَكَ مِـنْ
رَبٍّ عَظِيْمٍ وَسِـرْ في أَقْـوَمِ السُّـبُـلِ
وَخُـذْ بِمَـا فـي كِتَـابِ الـلَّهِ مُجْتَهِـداً
مُشَـمِّـراً وَاحْـتَرِزْ مِنْ سَـوْفَ وَالأَمَـلِ
وَلا تُعَـرِّجْ عَـلى دَارِ الـغُـرُوْرِ وَدَا
الخُـلْفِ وَالـزُّوْرِ وَالـنِّـسْـيَانِ لِلأَجَـلِ
وَاحْـذَرْ مُصَـاحَبَـةَ المَـرْءِ المُضِيْعِ فَقَدْ
صَـارُوا إلى الشَّـرِّ وَالعِصْيَانِ وَالـزَّلَـلِ
وَأَصْـبَـحُـوا فـي زَمَـانٍ كُـلُّهُ فِـتَـنٌ
وَبَـاطِـلٌ وَفَـسَـادُ بَـيِّـنٌ وَجَـلِي

هُـوَ الـزَّمَـانُ الـذِي قَـد كـانَ يَحْـذَرُهُ
أَئِـمَّــة الحَــقِّ مِـنْ حَـبْرٍ ومِـنْ بَـدَلِيْ
هُـوَ الــزَّمَـانُ الـذِيْ لاَ خَـيْرَ فِيـهِ وَلاَ
عُـرْفٌ نَرَاهُ عَلَى الـتَّفْصِيْلِ وَالجُمَــلِ
هُـوَ الــزَّمَـانُ الــذِيْ عَـمَّ الحَـرَامُ بِهِ
وَالـظُّـلْمُ مِـنْ غَـيْرِ مَا شَكٍّ وَلا جَدَلِ
أَيْـنَ الــقُـرْآنُ كِتَـابُ الـلَّـهِ حُجَّـتُــهُ
وَأَيْـنَ سُـنَّــةُ طَـهَ خَـاتَـمِ الـرُّسُـلِ
وَأَيْنَ هَـدْيُ رِجَـالِ الــلَّـهِ مِنْ سَلَفٍ
كانَ الهُـدَى شَأْنُهم في القَوْلِ وَالعَمَلِ
أَكُــلُّ أَهْـلِ الهُـدَىٰ وَالحَقِّ قَدْ ذَهَبُـوا
بالمَــوْتِ أَمْ سُتِرُوا يَا صَاحِبِيْ فَقُــلِ
وَالأَرْضُ لا تَخْـلُو مِنْ قَـوْمٍ يَقُـوْمُ بِهِمْ
أَمْـرُ الإِلــهِ كَمَـا قـد جَـاءَ فَاحْتَفِـلِ
فَـارْجُ الالَــهَ وَلا تَيْـأَسْ وَانْ بَعُـدَتْ
مَطَـالِـبٌ إِنَّ رَبَّ الـعَـالَمِـيْنَ مَـلِيْ
وَفـي الالَـهِ مَلِيْكِ الـعَـالَمِـيْنَ غِنَــىً
عَـنْ كُـلِّ شَيءٍ فَلازِمْ بَـابَــهُ وَسَـلِيْ
هُـوَ القَــرِيْبُ المُجِيْبُ المُسْتَغَــاثُ بِـهِ
قُـلْ حَسْـبِـيَ اللَّهُ مَعْبُـودِيْ وَمُتَّكَــلِيْ
وَأَسْــأَلُــهُ مَغْـفِـرَةً وَاسْــأَلُــهُ خَـاتِمَـةً
حُسْـنَــى وَعَـافِـيَـةً وَالجَـبْرَ لِلْخَـلَلِ

وَأَنْ يُـوَفِّـقَـنَـا لِلصَّـالِحَـاتِ وَمَـا
يُـرْضِيْـهِ عَنّـا وَيَحْفَـظْنَـا مِن الخَـطَـلِ
وَأَنْ يُصَـلِّي عَلى الُمـخْـتَـارِ سَـيِّدِنَـا
مُحَمَّـدٍ مَـا بَكَـتْ سُحْـبٌ بِمُـنْهَـمِـلِ
وَالآل وَالـصَّحْـب مَـا غَنَّتْ مُطَـوَّقَـةٌ
عَلى الغُصُـوْنِ فأشْجَتْ وَاجِـداً وَخَـلِيْ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ إِيْمَانَنَا ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ فِي البَاقِيَاتِ الصَّـالِحَاتِ وَجَنِّبْنَا جَمِيْعَ الطُّرقِ المُردِيَاتِ وَزَحْزِحنَا عَنْ النَّارِ وَأَدْخِلْنَا فَسِيْحَ الجَنَّاتِ يَا رَفِيْعَ الدَّرَجاتِ بِرَحْمَتِكَ التِيْ وَسِعَتْ الأَحْيَاءَ وَالأَمْوَاتِ وَصَلّى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَكَتَبَ عُمَرُ بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهَ إِلَى عُمَّالِهِ أَنْ لا يُقَيَّدَ مَسْجُوْنٌ فَإِنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنْ الصَّلاةِ وَكَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ إِذَا دَعَتْكُمْ قُدْرَتُكُمْ عَلى النَّاسِ إِلَى ظُلْمِهِمْ فَاذْكُرُوا قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَنَفَاذَ مَا تَأْتُونَ إِلَيْهِم وَبَقَاءَ مَا يَأْتِيْ إِلَيْكُمْ مِنْ العَذَابِ بِسَبَبِهِمْ وكَانَتْ حُجْزَةُ إِزَارِهِ قَبْلَ الخِلافَةِ غَائِبَةً فِي عُكَنِهِ مِنْ الحَالِ فَلَمّا تَوَلَّى الخِلافَةَ ذَهَبَتْ تِلْكَ الحَالُ فلو شِئْتَ أَنْ تَعُدَّ أَضْلاَعَهُ مِنْ غَيْرِ مَسٍ لَعَدَدْتَهَا .

وَكانَتْ لهُ غَلَّةٌ خَمسِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ فلَمَّا وَلِيَ الخِلاَفَةَ صَارَ يُنْفِقُهَا كُلَّ حِيْنٍ حَتَّى ما بقي لَهُ غَيْرُ قَمِيْصٍ وَاحِدٍ لاَ يَخْلَعُهُ حَتَّى يَتّسِخَ فَإِذَا اتَّسَخَ غَسَلَهُ وَمَكَثَ بِالبَيْتِ حَتَّى يَجِفَّ ثُمَّ يَلْبَسُهُ .

وَلَمَّا وَلِيَ خَيَّرَ جَوارِيْهِ وَقَالَ قَدْ نَزَلَ بِيْ أَمْرٌ قد شَغَلَنِيْ عَنْكُنَّ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ وَحَتَّى يَفْرُغَ النَّاسُ مِنَ الحِسَابِ فَمَنْ أَحَبَّتْ مِنْكُنّ عِتْقَها أَعْتَقْتُهَا وَمَنْ أَحَبَّتْ أَنْ أُمْسِكَهَا عَلى أَنْ لا يَكُوْنَ مِنِّيْ إلَيْهَا شَيْءٌ فَبَكَيْنَ وَارْتَفَعَ بُكَاؤُهُنَّ إِيَاساً مِنْهُ .

وَكَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ بِقَمِيْصٍ مَرْقُوْعِ الجَيْبِ مِنْ قُدَّامْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إنَّ اللّهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ فَلَوْ لَبِسْتَ فَنَكَّسَ رَأسَهُ سَاعَةً ثمّ قالَ أفضَلُ القَصْدِ عَن الجِدَةِ وَأَفْضَلُ العَفْوِ عَنْ المَقْدِرَةِ .

وَذَكَرَتْ زَوْجَتُه فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ المَلِكِ أَنَّ عُمَرَ مَا اغْتَسَلَ عَنْ حُلُمٍ وَلا جَنَابَةٍ مُنْذُ وَلِى الخِلاَفَةَ نَهَارُهُ في أَشْغَالِ النَّاسِ وَرَدِّ المَظالِم إلىَ أَهْلِهَا وَلَيْلُه في عِبَادَةِ رَبِّهِ .

وَقَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ دَخَلْتُ عَلى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أَعُودُهُ في مَرَضِهِ الذِي مَاتَ فِيْهِ فَإذَا عَلَيْهِ قَمِيْصٌ وَسِخٌ فَقُلْتُ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ المَلِكِ اغْسِلِيْ قَمِيْصَ أَمِيْرِ المؤمِنِيْنَ فَقَالَتْ نَفْعَلُ إنْ شَاءَ اللّهُ قَالَ مَسْلَمَةُ ثُمَّ عُدْتُه فَاذَا القَمِيْصُ عَلى حَالِهِ فَقُلْتُ يَا فَاطِمَةَ أَلَمْ آمُرُكِ أَنْ تَغْسِلِيْ قَمِيْصَ أَمِير المؤمِنينَ فَإنَّ النَّاسَ يَعُوْدُوْنَهُ فقالَتْ وَاللهِ مَا لَهُ قَمِيْصٌ غَيْرُهُ وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ كَثِيْراً مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ :

نَهَـارُكَ يَـا مَغْـرُوْرُ سَهْـوٌ وَغَفْـلَةٌ
وَلَـيْـلُكَ نَـوْمٌ وَالـرَّدَى لَـكَ لاَزِمُ

يَسُـرُّكَ مَـا يَفْنَى وَتَفْـرَحُ بِـالمُنَى
كَمَـا غُرَّ بِـاللَّذَاتِ في النَّوْمِ حَـالِمُ
وَشُغْلُكَ فِيْمَـا سَـوْفَ تَـكْرَهُ غِبَّـهُ
كـذَلِـكَ فِي الـدُّنْيَا تَعِيْشُ البَهَـائِمُ
وَفِعْلُكَ فِعْـلُ الجَـاهِـلِيْنَ بِـرَبِّـهِمْ
وَعُمْرُكَ في النُّقْصَانِ بَـلْ أَنْتَ ظَالِمُ
فَـلا أَنْتَ فِي اليَقْـظَـانَ يَقْظَـانَ حَـازِمُ
ولا أَنْـتَ فـي الـنُّـوَّامِ نَـاجٍ وَسَـالِـمُ
فَـلَا تَحْمَـدِ الـدُّنْـيَـا وَلَكِـنْ فَـذُمَّهَـا
وَلا تَكْـثِرِ العِصْيَـانَ إِنَّـكَ ظَـالِـمُ

وَكَانَ يَقُوْلُ أدْرَكْنَا العُلَمَاءَ ، والامُرَاءُ وَالسَّلاطِيْنُ يَأْتُوْنَهُمْ فَيَقِفُوْنَ عَلى أَبْوَابِ العُلَمَاءِ كَالعَبِيْدِ حَتَّى إذَا كَانَ اليَوْمُ رَأَيْنَا العُلَمَاءَ وَالفُقَهَاءَ وَالعُبَّادَ هُمَ الذِيْنَ يَأْتُونَ الأُمَراءَ وَالأغنِيَاءَ فلمَّا رَأَوْا ذَلِكَ مِنْهُمْ ازْدَرَوْهُمْ وَاحْتَقَرُوْهُمْ .

وَقَالُوا لَوْلَا أَنَّ الذِيْ بِأَيْدِيْنَا خَيْرٌ مِمَّا بِأَيْدِيْهِم مَا فَعَلُوا ذَلِكَ مَعَنَا وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ إنَّ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ لما كَانُوا عَلى الصَّوَابِ كانَتْ الأمَرَاءُ تَحْتَاجُ إلى العُلَمَاءِ وَكَانَتْ العُلَمَاءُ تَفِرُّ بِدِيْنِهَا مِن الأُمَراءِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَوْمٌ مِنْ رُذَالَةِ النَّاسِ تَعَلَّمُوا ذَلِكَ العِلْمَ وَأَتَوْا بِهِ الأُمَراءَ فَاسْتَغْنَتْ بِهِ عَن العُلَماءِ وَاجْتَمَعَ القَوْمُ عَلى المَعْصِيَةِ فَسَقَطُوا وَانْتَكَسُوا ، وَلَوْ كَانَ عُلَمَاؤُنَا يَصوْنُوْنَ عِلْمَهُمْ لَمْ تَزلَ الأُمَراءُ تَهابُهُمْ قُلْتُ وَلِلّهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوْهُ صَانَهُمْ
وَلَـوْ عَـظَّمُـوْهُ في النُّفُـوسِ لَعُـظِّمَـا
وَلَكِنْ أَهَــانُــوْهُ فَـهَــانُــوا وَدَنَّسُــوا
مُحَيَّــاهُ بِــالأطمَــاعِ حَتَّى تَجَهَّمَــا
فَـإنْ قُلْتَ زَنْدُ العِلْمِ كَـابٍ فَـإنَّمَـا
كَبَى حَيْثُ لَمْ تُحْمَى حِمَـاهُ وَأَظْلَمَا

آخر :

فَهُبُّوا أُهَيْلَ العِلْمِ مِنْ رَقْـدَةِ الهَوَى
وَمِيْلُوا إلَى نَهْـجِ الرَّشَـادِ وَخَـالِفُـوْا
هَوَى النَّفْسِ إنَّ النَّفْسَ مِنْ أَكْبَرِ العِدَا
وَلِلْعَبْـدِ فِيْهَـا إنْ أَطَـاعَ المَتَـالِفُ
وَحُثُّوا مَطَايَا العَزْمِ في طَلب العُـلاَ
فَقَـدْ مَـاتَ أهْلُوهُ الكِـرَامُ السَّـوَالِفُ
وَنَحْنُ إذَا مَـاتُـوْا نَمُـوْتُ بِمَـوْتِهِمْ
إذَا لَمْ يَكُنْ مِنّا عَلى النَّهْجِ عَارِفُ
فَـأَحْيُوا مَـوَاتَ العِلْمِ مِنْكُمْ بِعَطْفَـةٍ
إلىَ العِلْمِ كَيْ تَحْيَا بِتِلْكَ الوَضَائِفُ
فَلَا خَيْرَ يُرْجَى في الحَيَاةِ عَلى الهَوَىٰ
إذَا لَمْ يَكُنْ فِيْنَا إلَى العِلْمِ صَارِفُ
بِضَـاعَتُنَـا المُـزْجَـاةُ فِيْـهِ قَلِيْـلَةٌ
وَقَـدْ كانَ فِيْنَـا جِسْمُهُ وَهْـوَ نَـاحِفُ
وَعَمَّـا قَلِيْـلٍ سَـوْفَ يُـطْوَى سِجِّلُهُ
وَتَــذْهَــبُ أرْبَــابٌ لَــهُ وَطَـوَائِفُ

وَدَخَلَ عَلى عُمَرَ مَسْلَمَةُ في مَرَضِهِ فَقَالَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إنَّكَ أَفْقَرْتَ أَفْوَاهَ وَلَدِكَ مِنْ هَذَا المالِ وَتَرَكْتَهُمْ عَيْلَةً لا شَيْءَ لَهُمْ فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إلَى وَالٍ نَظَرَ إلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فَقَالَ عُمَرُ أَسْنِدُوْنِي .

ثُمَّ قَالَ أَمَّا قَوْلُكَ إنِّيْ أفقَرْتُ أَفْوَاهَ وَلَدِيْ مِنْ هَذَا المَالِ فَوَاللّهِ مَا مَنَعْتُهُمْ حَقّاً هُوَ لَهُمْ وَلَمْ أُعْطِهِمْ مَا لَيْسَ لهُمْ وَأَمَّا قَوْلُكَ لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ فإنَّ وَصِيِّيْ وَوَلِيِّ فِيْهِمْ ﴿اللّهُ الذي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِيْنَ﴾ بَنِيّ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إمَّا رَجُلٌ يَتَّقِيْ اللّهَ فَيَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجَا وَإمّا رَجُلٌ مُكِبٌّ عَلى المَعَاصِيْ فَانِّي لَمْ أَكُنْ أُقَوِّيْهِ عَلى الْمَعاصِيْ .

ثُمَّ بَعَثَ إلَيْهِمْ وَهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ ذَكَراً فَنظَرَ إلَيْهِمْ فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ثَمّ قالَ بِنَفْسِيْ الفَتِيَةُ الذِيْنَ تَرَكْتُهُمْ عَيْلَةً لا شَيْءَ لَهُمْ فَإنِّيْ بِحَمْدِ اللهِ قَدْ تَرَكْتُهُمْ بِخَيْرٍ أيْ بَنِيّ إنّ أَبَاكُمْ قَدْ مَيَّزَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ بَيْنَ أنْ تَسْتَغْنُوْا وَيَدْخَلُ النَّارَ أبُوكُمْ أَوْ تَفْتَقِرُوْا وَيَدْخُلَ أَبُوْكُمْ الجَنَّةَ فكَانَ أنْ تَفْتَقِرُوا وَيَدْخُلَ الجَنّةَ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ أنْ تَسْتَغْنُوا وَيَدْخَلَ النَّارَ قُوْمُوا عَصَمَكُمْ اللّهُ .

وَذكَرَ ابْنُ أَبِيْ الدُّنْيَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العزيْزِ لَمَّا كَانَ في اليَوْمِ الذِي مَاتَ فِيْهِ قَالَ أَجْلِسُوْنِي فأجْلَسُوهُ فَقالَ أنَا الذِيْ أمَرْتَنِيْ فَقَصَّرْتُ وَنَهَيْتَنِيْ فعَصَيْتُ ثلاثَ مَرَّاتٍ وَلَكِنْ لَا إلَهَ إلا اللهُ ثمّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأحَدّ النَّظَرَ فَقالُوا إنَّكَ لتَنْظُرُ نَظراً شَدِيْداً يَا أَمِيْرَ المؤمِنِيْنَ فَقَالَ إنِّيْ لأرَى حَضَرَةً مَا هُمْ بِإنْسٍ وَلاَ جِنٍّ ثُمَّ قُبِضَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ .

آخر : إذا شِئْتَ أَنْ تَرْثِي فَقِيْدًا مِن الوَرَى ... وَتَـدْعُـو لَـهُ بَعْـد النبي الْمُكَـرَّمِ
فَـلا تَبكِـيَنْ إلاَّ عَـلىَ فَقْـدِ عَـالِـم ... يُبَـادِرُ بالتَّفْـهِيْمِ لِلْمُتَعَـلِّمَ
وفَقْـدِ إمَـامٍ عَـالِـمٍ قَـامَ مُلْكُـهُ ... بأنْـوارِ حُـكْمِ الشَّرعِ لا بالتَّحكُّمِ

وفقْـدِ شُـجَاعٍ صَـادِقٍ في جِهـادِهِ ... وقـد كُسِـرَتْ رَايَتُـهُ فـي التَّقَـدُمِ
وفَقْـدِ كَـرِيْـمٍ لا يَمَـلُّ مِنَ العَطَا ... لِيُطْفِىءَ بُؤسَ الفَقْرِ عن كُلِّ مُعْدِمِ
وفَقْـدِ تَقِـيٍّ زاهِـدٍ مُتَـوَرِّعٍ ... مُطِيْـعٍ لِـرَبِّ العَـالَمِيْنَ مُعَظِّـمِ
فَهُم خَمْسَـةٌ يُبْكَى عَلَيْهِم وغَيْرُهُمْ ... إِلىَ حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أمُ قَشْعَمِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(فَصْلٌ)

وَرَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيّ قَالَ قَالَ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ لاِبْنِهِ عَبْدِ الملكِ وَهُوَ مَرِيْضٌ كَيْفَ تَجِدُكَ قَالَ في المَوْتِ قالَ لأنْ تكُونَ في مِيْزَانِي أَحَبُّ إليَّ أنْ أكوُنَ في مِيْزَانِكَ فقَالَ لهُ واللهِ يَا أبتِ لأَنْ يكونَ مَا تُحِبُّ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ يَكُونَ مَا أُحِبُّ .

قِيْلَ فَلَمَّا مَاتَ ابْنُه عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ عُمَرُ يَا بُنَيَّ لَقَدْ كُنْتَ في الدُّنْيَا كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿ المالُ وَالبَنُونَ زِيْنَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وَلَقَدْ كُنْتَ أَفْضَلَ زِيْنَتِهَا وَإِنِّيْ لأرجو أنْ تَكُوْنَ اليَوْمَ مِنْ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ التِيْ هِيَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ أملاَ وَاللّهِ مَا سَرَّنِيْ أنْ دَعَوْتُكَ مِنْ جَانِبٍ فاجَبْتَنِيْ .

وَلما دَفَنَهُ قَامَ عَلى قَبْرِهِ فقَال مَا زِلْتُ مَسْرُوراً بِكَ مُنْذُ بُشِّرْتُ بِكَ وَمَا كُنْتُ قَطُّ أَسَرَّ إليَّ مِنْكَ اليَوْمَ ثُمَّ قَالَ اللّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ الملكِ بْنِ عُمَرَ وَلِمَنْ اسْتَغْفرَ لَهُ .

وَلَمَّا قَامَ النَّاسُ لَهُ قَالَ يَا مَعْشَرَ النَّاسِ إنْ تَقُومُوا نَقُمْ وَإنْ تَقْعُدُوْا نَقْعُدْ فَإنَّمَا يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ العالَمِيْنَ إنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ وسَنَّ سُنَنَاً مَنْ أخَذَ بِهَا لَحَق وَمَنْ تَرَكَهَا مُحِقَ .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْحَبْنَا فَلْيَصْحَبْنَا بِخَمْسٍ يُوْصِلُ إِلَيْنَا حَاجَةَ مَنْ لا تَصِلُ إِلَيْنَا حَاجَتُه وَيَدُلُّنَا مِنَ العَدْلِ إلى مَالا نَهْتَدِيْ إِلَيْهِ وَيَكُونُ عَوْناً لَنا على الحَقِّ وَيُؤَدِّيْ الأَمَانَة إِلَيْنَا وَإِلَى النَّاسِ وَلا يَغْتَبْ عَنْدَنَا أَحداً وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ فِي حَرَجٍ مِنْ صُحْبَتِنَا وَالدُّخُولِ عَلَيْنا .

وَسُئِلَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ المَلِكِ زَوْجَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزيْزِ عَنْ عِبَادَةِ عُمَرَ فقالَتْ وَاللهِ مَا كَانَ بأَكْثَرَ النَّاسِ صَلَاةً ولا أكثرَ صِيَاماً وَلكِنْ وَاللهِ مَا رأيْتُ أخْوَفَ لِلّهِ مِنْهُ لَقدْ كَان يَذْكُرُ اللهَ في فِرَاشِهِ فَيَنْتَفِضُ انْتِفَاضَ العُصْفُورِ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ حَتَّى نقوُل لَيُصْبِحَنَّ النَّاسُ وَلا خَلِيْفَةَ لهُمْ .

قَالَ وَمَرَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيز ذاتَ يَومٍ بفَاطِمَةَ زَوْجَتِهِ فَضَرَبَ عَلى كَتِفِهَا وَقَالَ يَا فَاطِمَةُ لنَحْنُ ليَالِيْ دَابِقَ أَنْعَمُ مِنَّا اليَوْمَ فَقالَتْ وَاللهِ مَا كُنْتَ عَلى ذَلِكَ أقْدَرَ مِنْكَ اليَوْمَ فأدْبَرَ عنْهَا وَلَهُ حَنِيْنٌ وَهُوَ يَقُولُ يَا فَاطِمَةُ إِنِّيْ أخَافُ النَّارَ يَا فَاطِمَةُ ﴿ إِنِّيْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴾ .

قَال وَكانَ عُمَرُ يُصَلِّي العَتَمَةَ ثمَّ يَدْخُلُ عَلَى بَنَاتِهِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ فَدَخَلَ عَلَيْهِنَّ ذاتَ لَيْلَةٍ فَلمَّا أَحَسسْنَهُ وَضَعْنَ أيْدِيَهُنَّ على أفْوَاهِهِنَّ ثمَّ تَبَادَرْنَ البَابَ فقَالَ لِلْحاضِنَةِ مَا شَأْنُهُنَّ قَالَتْ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ شَيْءٌ يَتَعَشَّيْنَهُ إلاّ عَدَسٌ وَبَصَلٌ فَكَرِهْنَ أَنْ تَشُمَّ ذَلِكَ مِنْ أفْوَاهِهِنَّ فَبَكَى عُمَرُ ثُمَّ قَالَ لَهُنَّ يَا بَنَاتِيْ مَا يَنْفَعُكُنَّ أَنْ تعشَيْنَ الألَوانَ وَيُؤْمَرُ بِأَبِيْكُنَّ إِلَى النَّارِ قَالَ فَبَكَيْنَ حَتَّى عَلَتْ أَصْوَاتُهُنَّ ثُمَّ انْصَرَفَ .

وَجَاءَتْ عَمَّةٌ له إِلَى فَاطِمَةَ امْرَأته فَقَالَتْ إِنِّيْ أُرِيْدُ كَلَامَ أَمِيْرِ المُؤْمِنِينَ قَالَتْ لهَا اجْلِسِيْ حَتَّى يَفْرُغَ فجَلَسَتْ فاذا بِغُلامٍ قَدْ أتَى فَأَخَذَ

سِرَاجاً . فقَالَت لهَا فاطِمَةُ إنْ كُنْتِ تُريدينَهَ فالآنَ فَانَّهُ إذَا كَانَ في حَوَائِجِ العَامَّةِ كَتَبَ عَلى الشَّمْعِ وَاذا صَارَ إلَى حَاجَةِ نَفْسِهِ دَعَا بِسِرَاجِهِ .

فَقَامَتْ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَإذَا بَيْنَ يَدَيْهِ أقْرَاصٌ وَشَيْءٌ مِنْ مِلْحٍ وَزَيْتٍ وَهُوَ يَتَعَشَّى فَقَالَتْ يَا أَمِيْرَ المؤمنينَ اتَيْتُ لِحَاجَةٍ لِيْ ثُمَّ رَأَيْتُ أنْ أبْدَأَ بِكَ قَبْلَ حَاجَتِي قالَ ، وَمَا ذَاكَ يَا عَمَّةُ قَالَتْ لَوْ اتَّخَذْتَ لَكَ طَعَاماً أَلْيَنَ مِنْ هَذا قَالَ لَيْسَ عِنْدِيْ يَا عَمَّةُ وَلَوْ كَانَ عِنْدِيْ لَفَعَلْتُ .

قَالَتْ : يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ كَانَ عَمُّكَ عَبْدُ المَلِكِ يُجْرِيْ عَلَيَّ كَذَا وَكَذا ثُمَّ كَانَ أخَوْكَ الوَلِيْدُ فَزَادَنِيْ ثُمَّ كانَ أخْوكَ سُلَيْمَانُ فَزَادَنِي ثُمَّ وَلِيْتَ أنْتَ فقَطَعْتَهُ عَنِّيْ قَالَ يَا عَمَّةُ إنَّ عَمِّيْ عَبد المَلِكِ وَأخِيْ الوَلِيْدِ وَأخِي سُلَيْمَانُ كَانُوا يُعْطُوْنَك مِنْ مَالِ المُسْلِمِيْنَ .

وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ قَدْ أَمَرَ لِعَنْبَسَةَ بْنِ سَعدٍ بنِ العَاصِ مِنَ البَيْتِ الأمَويّ بِعِشْرينَ أَلْفِ دِيْنَارٍ فَدَارَتْ المُعَامَلَةُ في الدّوَاوِيْنِ حَتَّى انْتَهتْ إلى دِيْوَانِ الخَتْمِ فلمْ يَبْقَ إلاّ قَبْضُهَا فتوُفِيَ سُليْمَانُ قبْلَ أنْ يَقبِضَهَا .

وَكانَ عَنْبَسَةُ صَدِيْقاً لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ فَغَدَا يَطْلُبُ مِنْ عُمَرَ مَا أمَرَ لَهُ بِهِ سُليْمَانُ فوَجَدَ بنِيْ أُميَّةَ حُضُوْراً بِبَابِ عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ يُرِيْدُوْنَ الإِذْنَ عَليْهِ لِيُكَلِّمُوهُ في أُمُوْرِهِمْ فلَمَّا رأوا صَدِيْقَ عُمَر عَنْبَسَةَ قَالُوا نَنْتَظِرُ مَاذَا يَعْمَلُ مَعَهُ قبْلَ أنْ نُكَلِّمَهُ .

فَدَخَلَ عَنْبَسَةُ عَلَيْهِ فَقَالَ لهُ يَا أَميرَ المُؤْمِنِيْنَ إنَّ أَمِيرَ المُؤمِنينَ سُلَيْمَانُ كانَ قدْ أمَر لِيْ بعِشْرِيْنَ أَلْفِ دِيْنَارٍ حَتَّى وصَلَتْ إلَى دِيْوَانِ الخَتْمِ وَلَمْ يَبْقَ إلا أنْ أقْبِضَهَا فَتُوفيَ قبْلَ أنْ أقْبِضَهَا وأميرُ المُؤْمِنينَ أوْلَى

باسْتِتْمَامِ الصَّنِيْعَةِ عِنْدِيْ وَمَا بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ أعْظَمُ مِمَّا كانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أمِير المؤمِنينَ سُلَيْمَانُ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ كَمْ ذَلِكَ قَالَ عِشْرُونَ أَلْفِ دِيْنَارٍ قَالَ عُمَرُ عِشْرُونَ أَلْفِ دِيْنَارٍ تُغْنِيْ ارْبَعَة آلافِ بَيْتٍ مِنْ المُسلِمِيْنَ وَأدْفَعُهَا إلى رَجُلٍ وَاحِدٍ وَالله مَا لِيْ إلىَ ذَلكَ مِنْ سَبِيْلٍ .

قَالَ عَنْبَسَةُ فَرَمَيْتُ بِالكِتَابِ الذي فيه الصَّكُّ فقَال عُمَرُ لا عَلَيْكَ أنْ يَكُون مَعَكَ فلعَلَّهُ أنْ يأتِيْ مَنْ هُوَ أجْرَأُ على هَذا المالِ مِنِّي فَيأْمَرَ لكَ بِهِ فأخَذْتُهُ وَخرجْتُ إلى بَنِيْ أمَيَّةَ وَأعْلَمْتُهم مَا كَان مِنْ ذَلِكَ فقَالُوا لَيْسَ بَعْدَ هَذا شَيْءٌ ارْجِعْ إلَيْهِ فاسألْهُ أنْ يأذنَ لنَا في البُلْدَانِ .

فَرَجَعْتُ إلَيْهِ فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إنَّ قَوْمَكَ بِالبَابِ يَسْأَلُونَكَ أنْ تُجْرِيْ عَلَيْهِمَ مَا كَانَ يَجْرِيْ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِكِ . فَقَالَ عُمَرُ وَاللّهِ مَا هَذا المالُ لِيْ وَمَا لِيْ إلىَ ذلِكَ مِنْ سَبِيْلٍ .

قُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنيْنَ فَيسْأَلُونَكَ أنْ تَأْذَنَ لَهُمْ يَضْرِبُوا في البُلْدَانِ قَالَ مَا شَاؤا ذلِكَ لَهُمْ وَقَدْ أذِنْتُ لهُمْ قُلْتُ وَأنَا أيْضاً قَالَ وَأنْتَ أيْضاً قَدْ أذِنْتُ لَكَ وَلكِنِّيْ أرَى لَكَ أنْ تُقِيْمَ فإنَّكَ رَجُلٌ كَثِيْرُ النَّقْدِ وَأنَا أبِيْعُ تَرِكَةِ سُلَيْمَانَ فَلَعَلَّكَ تَشْتَرِيْ مِنْهَا مَا يَكُونُ لَكَ في رِبْحِهِ عِوَضٌ مِمَّا فَاتَكَ .

قَالَ فَأَقَمْتُ فَاشْتَرَيْتُ مِنْ تَرِكَةِ سُلَيْمَانَ بِمَائَةِ ألْفٍ فَخَرَجْتُ بِهَا إلىَ العِرَاقِ فَبِعْتُهَا بِمِائَتَيْ ألفِ دِيْنَارٍ وَحَبَسْت الصَّكَّ فَلمَّا تُوفِّيَ عُمَرُ وَوَلِيَ يَزِيْدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ أتَيْتُه بِكِتَابِ سُلَيْمَانَ فَأنْفَذَ لِيْ مَا كَانَ فِيْهِ .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ يَنْظُرُ لَيْلاً في أحْوَالِ الرَّعِيَّةِ في ضَوْءِ السِّرَاجِ فَجَاءَ غُلامٌ لَه فَحَدَّثَهُ في شَأْنٍ خَاصٍّ بِعُمَرَ فقَالَ عُمَرُ لِلْغُلامِ

أطْفِىءْ سِرَاجَ بَيْتِ المَالِ ثُمَّ حَدِّثْنِي لِأَنَّ الدُّهْنَ مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسلِمينَ وَلَا يَجُوْزُ اسْتِعْمَالُه إلاَّ في أشْغَالِ المُسْلِمِيْنَ.

وَعَنْ الفِهْرِيّ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيز يَقْسِمُ تُفَّاحَ الفَيء فَتَنَاوَلَ ابْنُهُ تُفَاحَةً فَانْتَزَعَها مِنْهُ عُمَر وَأَوْجَعَ فَمَهُ فَسَعَى إلَى أُمِّهِ فَأَرْسَلَتْ إلى السُّوْقِ وَاشْتَرَتْ لهُ تُفَّاحاً .

فَلَمَّا رَجَعَ عُمَرُ وَجَدَ رِيْحَ التُّفَاحِ فَقَالَ لِزَوْجَتِهِ فَاطِمَةُ هَلْ في البَيْتِ شَيءٌ مِنْ هَذا الفَيْءِ قَالتْ لاَ وَقَصَّتْ عَلَيْهِ القِصَّةَ فَقَالَ وَاللَّهِ لقَدْ انْتَزَعْتُهاَ مِنْ ابْنِي وَكَأَنَّمَا انْتَزَعْتُهَا مِنْ قَلْبِي وَلَكِنْ كَرِهتُ أن أُضِيْعَ نَفْسِي بتفاحَةٍ مِنْ فَيْءِ المُسْلِمينَ .

وذُكِرَ أنَّهُ كَان في زَمَنِ عُمَر بن عبدِالعزيز قَحْطٌ عَظِيمٌ فَوَفَدَ علَيهِ قَومٌ مِن العَربِ فاختاروا مِنهم رَجُلاً لِخِطَابِه .

فقال ذلكَ الرجُلُ يا أميرَ المؤمنين إنا أتيناكَ مِن ضَرورَةٍ عَظِيْمَةٍ وقَد يَبِسَتْ جُلُودُنَا على أَجْسَادِنَا لِفقْدِ الطَّعَامِ وَرَاحَتُنَا في بيتِ المالِ .

وهَذَا المالُ لا يَخْلُو من ثَلاثةِ أقسام . إما أن يكُونَ لِلَّهِ . أو لِعِبَادِ الله . أو لَكَ فإن كان لله فإن الله غنيٌ عنه . وإن كان لِعبادِ الله فآتِهم إيَّاهُ .

وإن كان لكَ فَتَصَدَّقَ بِهِ عَلينا : إن الله يَجزي المُتَصَدِقِين .

فَتَغَرْغَرَتْ عَينَا عُمَرَ بنِ عبدِالعزيز بالدُموعِ وقال هُوَ كما ذَكَرْتَ وأمَرَ بحَوائِجِهم فَقُضِيَتْ من بيتِ المالِ .

فَهَمَّ الأَعـرابيُ بالخُـروجِ . فقـال لَهُ عُمُـرَ : أَيُّها الإنسانُ الحُر كما أَوصَلْتَ إلَيَّ حَوائجَ عِبَادِ الله وأسْمَعْتَنِي كَلاَمَهُم فأوصِلْ كَلاَمِي وارْفَع حَاجَتي إلى الله تعالى .

فَحَـولَ الأَعْـرابيُّ وَجْهَهُ قِبَـلَ السمـاءِ . وقال إلهي اصْنَـعْ مَعَ عُمَرَ بنِ

عبدِالعزيز كَصَنِيْعِهِ فِي عِبادِكَ فما أَسْتَتَمُّ الأَعرابيُ كَلاَمَهُ حتَّى ارتَفَعَ غَيمٌ فأمْطَرَ مَطَراً غزيراً .

وكان لِعُمَرَ بن عبدِ العزيز غلامٌ وكانَ خازناً لِبَيتِ المالِ وكان لِعُمَرَ بَنَاتٌ فَجِئْنَهُ يَومَ عَرَفَةَ وقُلْنَ لَه غداً العِيدُ ونسَاءُ الرَّعِيَّةِ وبَنَاتُهم يَلُمْنَنا ويَقُلْنَ أنتُنَّ بَنات أَميرِ المؤمنين .

ونَراكُنَّ عَريَانَاتٍ لاَ أقلَّ مِن ثِيَاب تَلْبَسْنَها وبكَينَ عندَه فضَاقَ صَدْرُ عُمَرَ فَدَعَا غُلاَمَهُ الخازنَ وقال لَهُ أعْطِني مُشَاهَرتي لِشَهْرٍ وَاحِدٍ .

وقال الخَازنُ يا أميرَ المؤمنينَ تَأْخُذُ المُشَاهَرَةِ مِن بَيْتِ المال سَلَفاً أَتَظُنَّ أنَّ لَكَ عُمْرَ شَهْرٍ فتأخُذُ مُشاهَرَةَ شَهْرٍ فتَحَيَّرَ عُمَرُ .

وقَالَ نِعْمَ مَا قُلْتَ أَيُّها الغلامُ بَارَكَ الله فيكَ ثم التَفَتَ إلى بَنَاتِهِ وقالَ اَكْظَمْنَ شَهَواتِكُنَّ فإن الجنةَ لا يَدْخُلُهَا أحَدُ إلا بِمَشَقَّةٍ .

سُئِلَ عمرُ بنُ عبدِالعزيز ما كان سَبَبَ تَوبَتِكَ قال كنتُ أضْرِبُ يوماً غلاماً فقال لِي اذكُرْ الليلةَ التي تكونُ صَبيحَتُها القِيَامةَ فَعَمِلَ ذلكَ الكلامُ في قَلْبِي .

رأى بعضُ الأكابَر هارونَ الرشيدَ في عرفات وهو حافٍ حاسرٌ قائمٌ على الرمضاءِ الحَارةِ .

وقد رَفَعَ يَدَيه وهو يقولُ إلٰهي أنتَ أنتَ وأنا أنا الذي دَأْبِي كُلَّ يوم أَعُوْدُ إلى عِصيانِكَ ودأْبُكَ أن تعودَ إليَّ برَحْمَتِكَ .

فقال بعضُ الكُبراءِ : انْظُرُوا إلى تَضَرُّعِ جَبَّارِ الأَرضِ بَينَ يدي جَبَّارِ السماء .

سأل عمرُ بنُ عبدِالعزيز يوماً أبا حازمٍ الموعظةَ فقال له أبُو حازمٍ إذا نمتَ فَضَعِ الموتَ تَحتَ رأْسِكَ .

وكُلُّ ما أحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَكَ الموتُ وأنتَ عليهِ مُصِرُ فالْزَمْهُ وكُلُّ ما لاَ تُريدُ

أنْ يَأْتِيَكَ الموتُ وأنتَ عليه فاجْتَنِبْهُ فَرُبما كان ا لموتُ مِنْكَ قَريباً .

فَيَنْبَغِي لِصَاحِبِ الوِلايةِ أن يَجْعَلَ هَذه الحِكَايَةَ نَصْبَ عَيْنَيْهِ وأنْ يَقْبَلَ المواعِظَ التي وُعِظَ بها غَيْرُهُ .

فَكُلَّمَا رَأى عالماً عاملاً بعلمه لَيْسَ مِن علماءِ الدنيا زاهِدًا فيها على طريقة السلف الصالح سَأَلَهُ أن يَعِظَهُ .

ويَنْبَغِي لِلْعُلَماءِ أن يَعِظُوا الملوكَ بِمِثْلِ هَذهِ المَواعِظِ ، ولا يَغُرُوْهُم ولا يَدَّخروُا عَنهم كَلَمَةَ الحقِ وَكُلُ مَن غَرَّهُم فَهو مُشَارِكٌ لَهُم .

وعن الفضل بن الربيع حاجب هارون الرشيد قال أرسل إليَّ الرشيد ذاتَ ليلة فحضرتُ إليه فلما دخلتُ عليه وجَدْتُ بين يديه ضبارة سيوف وأنوع من آلات العذاب .

فقال يا فضل فَقُلْتُ لَبَيْكَ يا أمير المؤمنين فقال عَليَّ بهذا الحِجَازِي يعني الشافعي رضي الله عنه وهو مُغْضَبٌ الساعةَ الساعةَ .

فخرجتُ وبي مِن الغم والحزن ما لا يُوصَف لِمَحَبَّتِي للشافعي لفصاحته وبراعته وبلاغته وعقله فجئْتُ إلى بابه .

فأمَرْتُ مَن دَقَّ عليه البابَ فتَنَحْنَحَ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُصَلِي فوقَفْتُ حتى فرغَ مِن صلاتِهِ وفَتَح البابَ فَسَلَّمْتُ عليه .

وقلْتُ له أَجِبْ أمِيْرَ المؤمنين فقال سَمْعًا وطَاعَةً وجَدَّدَ الوُضُوءَ وارْتَدَى وركَعَ ركْعَتَين وخرَجَ يَمْشِي فمِنْ شَفَقَتِي عليه قُلْتُ يا أبا عبدِالله قِفْ لِتَسْتَرِيْحَ بَيْنَما أَسْتَأْذِنُ .

فدخلتُ على أمير المؤمنين فإذا هُوَ على حَالِهِ في غَضَبِهِ فلما رَآني قال أَيْنَ الحِجَازي .

قُلْتُ عندَ السِتْرِ فقال مُرْهُ بالدخُول فجئتُ إليه وأَمَرْتُهُ بالدُخُول .

فَدَخَل يَمْشِي مُطْمَئنًا غيرَ فَزِعٍ ولا خائِفٍ ولا قَلِقٍ ولا مُنْزَعِجٍ ثم بَـدَأَ يُحَرِّكُ شَفَتيهِ وَوَجْهُهُ مُسْتَنِير .

فَلَمَّا دَخَلَ وبَصُرَ به أميرُ المؤمنين قَامَ إليه قائمًا واسْتَقْبَلَهُ واعْتَنَقَهُ وجَعَلَ يُقَبِّلُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وهَشَّ به وبَشَّ .

وقـال مَرْحَبًا بابي عبدالله لِمَ لاَ تَزُوْرَنا وتكونَ عندنا فإني إليكَ مُشْتاق وأجْلَسَه مَكانَه وقَعَدَ إلى جانبه وتَحَدَّثَ مَعَهُ سَاعَة .

ثم أمَرَ لَهُ بَبْدْرَةٍ مِن الذهب فقال الشافعي لا أَرَبَ لي فيه فسأله أَنْ يَقْبَلَهُ فَقَبلَه غيرَ مُكْتَرِثٍ به « يَعْنِي ما هَمَّهُ » .

ثم أمَرَني أنْ أرُدَّهُ إلى دَارِهُ وأنْ تُحْمَلَ البَدْرَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ فلما خَرَجْنا جَعَل يُعْطي كُلَّ مَن رَآه وكلَّ مَنْ سَأَلَه يِمَيْنًا وشِمالاَ حَتَّى وصل إلى مَنْزِلِهِ وما مَعَه منها شيء .

فلما دَخـل مَنزلَه واطْمَأَنَّ به الجلُوسُ قَعَدْتُ بَينَ يَدَيْه وقُلْتُ له يا أبا عَبْدِالله قد عَرَفْتَ محبَّتي لكَ وشفقتِي عليكَ وإني شاهَدْتُ غَضَبَ أميرِ المؤمنين في ابْتِداءِ طَلبَه إيَّاكَ .

ثم لَمَّا دَخَلْتَ عليهِ رَأَيْتُ منه مِن التواضِع والتَّودُدِ والاجلالِ والاكرامِ لك مَا سَرَّني وكُنْتُ رأيتُكَ حَرَّكْتَ شَفَتَيْكَ عند دُخُولكَ عليه .

فَبالذي سَكَّنَ غَضَبَهُ عَليكَ وسَخَّرَهُ إلا ما عَلَّمْتني ما كُنْتَ تَقُولُ في دُخُولِكَ مَعِي عليه .

فقال حَدَّثِنِي نافُع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأه يَوْمَ الأحزابِ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ ونصرهم على عدوهم .

وهـو هذا « شِهَـد اللَّهُ أنـه لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام » ثم قال وأنا

أَشْهَدُ بما شَهِدَ به اللَّهُ وأَسْتَوْدِعُ اللَّهَ هَذِه ا لشَّهادة وهذه الشهادة وديْعَةٌ لي عندِ الله إلى يوم القيامة .

اللهم إني أَعُوذُ بنُور قدْسِكَ وعَظِيمِ بَركَتِكَ وعَظَمَةِ طَهَارَتِك وبَرَكَةِ جَلاَلَتِكَ مِن كُلِّ آفةٍ وعَاهَةٍ .

ومِن طَوَارِقِ الليلِ والنهارِ مِن الجن والإِنس إلَّا طارقًا يَطْرُقُ بخير يا رحمنْ .

اللهم أنْتَ غِيَاثِي فَبكَ اسْتَغِيْث وأنْتَ مَلاذي فَبكَ أَلُوذ وأنْتَ عِيَاذِي فِبكَ أعُوذُ يا مَن ذَلَّتْ له رِقابُ الجَبَابرَةِ وخَضَعَتْ لَهُ أَعْنَاقُ الفَراعِنَة .

أَعُوذُ بِكَ مِن خِزْيِكَ ومِن كَشَفْ سِتْرِكَ ومِن نِسْيانِ ذِكْرِكَ والانْصِرَافِ عن شُكْرِكَ .

أنــا في حِرْزِكَ وتَحْتَ كَنَفِــكَ لَيْلِي ونهَارِي ونَــوْمِي وقَـرَارِي وظَعْنِي وأَسْفَارِي وحَرَكَاتِي وسَكَنَاتِي وحَيَاتِي ومَمَاتِي وجميعِ ساعاتي وأوقاتي .

ذِكْرُكَ شِعَارِي وثَنَاؤكَ دِثارِي أشهَد أن لا إله إلا أنْتَ ولا إلهَ غَيرُكَ ولا مَعْبُودَ سِوَاكَ .

سُبْحَانَكَ وبِحَمْدِكَ تشريفًا لِعَظمتك وتكريما لِسُبُحَاتِ وجْهِكَ وإقرارًا بصَمْدَانِيَّتِكَ .

واعْـترافًـا بوَحْـدَانِيَّتِـكَ وتَنْـزِيهًـا لَكَ عَمَّا يَقُـولُ الكافِرون والظَالمون والجاحِدون تَعَالَيْتَ عن ذلك عُلوًا كبيراً .

اللهم أجـرني مِن خِزْيِكَ ومن شَرِّ عِبـادِكَ واضْرِبْ عَليَّ سَرادِقـاتِ حِفْظِك وأَدْخِلْنِي في حِفْظِك وعِنايتكَ وجُدْ عليَّ مِنك بخير يا أرحم الراحمين .

إلْهي كَيْفَ أخافُ وأنْتَ أمَلي أَمْ كَيْفَ أضامُ وعَلَيْكَ تَوكُلي أم كَيفَ أُقْهَرُ وأنْتَ عِمادِي أَمْ كيفَ أغلبُ وعَلَيْكَ في كلِ الأمورِ اعتِمادي ضَرَبْتُ وَجْهَ كُلِ

حَاسِدٍ حَسَدَ ورَاصِدٍ رَصَدَ وظالمٍ كَنَد ، بـ ﴿ قل هُوَ اللَّهُ أَحَد اللَّهُ الصمد لم يَلد ولم يُولد ولم يَكُن له كُفْوًا أحد ﴾ .

وفي مسند الأمام أحمد وصحيح ابن حبان عن عبدالله بن مسعود مرفوعا : ما أصاب عبد هم ولا غم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصِيَتي بيدك ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فيَّ قضاؤك .

أسألك بكل اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ أو أنزلته في كتابك أو علمته أحَدًا من خلقك أو اسْتَأْثَرْتَ به في علم الغيب عندك .

أن تجعل القرآن رَبِيْع قلبي ونُورَ صَدْري وجَلاءَ حُزْني وذَهَابَ هَمِّيْ .

إلا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وهَمَّهُ وابْدَله مَكَانَهُ فَرَحَا .

ومِن أَدْعِيَةِ المُضْطَرين يا وَدُوْد يا ذا العرش المجيد يا مُبْدِىءُ يا مُعِيْدُ يا فعالٌ لما تُرِيْد أَسْأَلُكَ بنوُرِ وجْهكَ الذي مَلاءِ أركان عَرْشِكَ وبقُدْرَتِكَ التي قدرتَ بها على جميع خَلقِكَ وبرَحْمَتِكَ التي وسِعَتْ كُلَّ شيء لا إله إلا أنت يا مُغِيْث اغِثْني . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فَصْـــــلٌ)

دعا المنصور أَبَا حَنِيْفَةَ والثوري ومِسْعرًا وشريكا لِيُولِيَهُم القَضَاء .

فقال أبُو حَنِيْفَةَ أنا أَتَحَامَقُ فأُقال وأَتَخَلَّص .

وأما مِسْعَرُ فَيَتَجَان (أيْ يُظْهِرُ كأَنَّهُ مَجْنُون) ويَتَخَلَّص .

وأما سُفْيَان فَيَهْرَب .

وأما شَرِيْكُ فَيَقَعُ فلما دَخَلُوا على المنصور قال أبُو حَنِيْفَةَ أنا رجُلٌ مَوْلِي ولَسْتُ مِن العَرَب .

ولا تكادُ العَربُ تَرضَى بأنْ يكونَ عليهم مَوْلَى وَمَعَ ذَلكَ فإني لا أُصْلَحُ لِهذا الأمر فإن كُنْتُ صَادِقًا في قَوْلي فلا أَصْلَحُ لِلْقَضَاءِ .

وإن كُنْتَ كاذباً فلا يَجُوزُ لَكَ أن تولّي كاذِبًا دِمَاءَ المُسلمين وأموالَهم وفُرُوضَهم .

وأمــا سفيانُ فأدركـه المُشْخِصُ في طَرِيْق فَذَهَبَ لِحَاجَتِهِ فانْصَرفَ المُشخِصُ يَنْتَظِر فَرَاغَهُ .

فَرَآى سُفيانُ سَفِيْنَةً فقال لِلْملاح قَائِد السفينة إنْ مَكَّنْتَنِي مِن سَفِيْنتكَ وإلا ذُبِحْتُ بِغَيْرِ سِكِّين .

تَأَوَّلَ قول النبي ﷺ مَن وُلِّيَ القَضَاءَ فقد ذُبِحَ بغَيْرِ سِكِّيْنْ فأخْفَاهُ الملاحُ تَحْتَ السَّاريَة .

وأما مِسْعَرُ ابْنُ كُدَام فدخل على المنصور فقال له هَاتِ يَدَكَ كَيْفَ أنْتَ والدَّوَاب والأولاد فقال أخرجُوه فإنه مجنون .

وأما شريك فقال له المنصور تَقَلَّدْ فقال له أنا رجلٌ خَفِيْفُ الدِّمَاغ فقال تَقَلَّد وعليك بالنَّبِيْذ الشديد حتى يرجع إليكَ عَقْلُكَ فَتَقَلَّدَ .

فَهَجَرَهُ الثوري وقال له أمْكَنَكَ الهَرَبُ فلم تَهْرِبْ .

وكتب الخليفة إلى عبدالله بن وهب في قَضَاءِ مِصْرَ فَتَجَنَّنَ نفْسَهُ ولِزَمَ بَيْتَهُ فاطَّلعَ عليه راشد بن سَعْدٍ وهُوَ يتوَضأُ في صَحْنَ دَارِهِ .

فقال أبا محمد أَلَا تَخْرُجُ إلى الناس فَتَقْضِيْ بَيْنَهُم بكتاب الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ فقد جَنَنْتَ نَفْسَكَ ولَزِمْتَ بَيْتَكَ .

فَرَفَعُ إليه رَأْسَهُ وقالَ إلى هَاهُنَا عَقْلُكَ « إنَّ العُلَماءَ يُحْشَرُوْنَ مَعَ الأَنْبيَاءِ وإن القُضَاةَ يُحْشَرُون مَعَ السَّلاطِين أ هـ .

بَلِّغْ يا أَخِي الَّـذِيْنَ يُرَشحُـونَ أَنْفُسَهُم للقَضَـاء ويُعْمِلُون الـوَسَائِط لِلْحُصُول عليه وهـم غير أهلٍ له لم تَجْتَمِعْ فيهم الشروط ولا يُحسِنُونَ .

ودَعَا الخليفةُ أيامَ المِحْنَةِ محمد بنَ مُقَاتِل الرازي وأبا الصَّلْتِ عبدالسلام فقال لمحمد بن مُقاتل ما تقول في القرآن .

قال أَقُول التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان ، فإنَّ هذه الأربعة وأشار إلى أصابعِه الأربعة مَخْلُوقَة .

فظنوا أنه يُرِيْدُ الكتبَ المنزلة وهُو يُرِيْدُ أَصَابِعَ يَدِهِ الأربعة فَنَجَا .

فقال للآخر وهو أبو الصَّلْتِ ما تقول فقال تَعَزَّ يا أمير المؤمنين .

قال عن مَنْ وَيْلَكَ قال عن القُرآن فإِنَّهُ ماتَ . قال فَكَيْفَ قال إنْ كان مَخْلُوْقًا فإنَّهُ يَمُوت .

وأُدْخِلَ عُبَادَةُ على الواثق والناس يُضْرَبُون ويُقْتَلُون في الامتحان بالقُرآن قال عُبَادة فَقُلْتُ في نَفْسِي والله لَئِنْ امْتَحَنَنِي قَتَلِنِي فَبَدَأْتُ بِهِ فَقُلْتُ عَظم اللّهُ أجْرَكَ أيُّهَا الخليفة قال فِيمَنْ فَقُلْتُ في القرآن قال ويْحَكَ والقُرآنُ يَمُوْت قُلْتُ كل مخلوق يَمُوت فإذا مات القرآن في شعبان فبأي شيء يصلى الناس في رمضان فقال الواثق أَخْرِجُوه فإنه مجنون .

فائدة نفيسة قال أحد العلماء رحمه الله تعالى إعلم أَنّ الدّنيا رأْسُ كُلِ خَطِيئَةٍ كما قال ﷺ وقد صارت عدوّةً لله وعدوّةً لأَوليائِهِ وعدوّةً لأَعْدَائِهِ ، أما عَدَاوتُها لله تعالى فلأَنّها قَطَعَتِ الطريقَ بينهَ وبينَ أَوليائِهِ .

ولهذا فإنّه لم يَنْظُر إليها مُنْذُ خَلَقَهَا ، وأَمّا عداوتُها لأَوليائِهِ فلأَنّها تَزَيَّنَتْ لهم بزينَتِها وغَمَرتْهُم بزَهْرتها وتَزَهَّتْ لهم بنَضَارَتِهَا حتى تَجَرَّعُو مَرَارَاتِ الصّبرِ في مُقَاطَعَتِهَا وتَحَمَّلُوا المَشَاقَ في البُعْدِ منها .

وأَمَّا عَداواتُها لأَعْدَائِهِ فلأَنها اسْتَدْرَجَتْهُم بمكْرِهَا ومَكَايِدِهَا واقْتَنَصَتْهم بِحَبَائِلِهَا وأَقْصَدَتْهُم بِسِهامِهَا حتى وَثِقُوا بها وعَوَّلُوا عليها .

فَخَذَلَتْهُم أَحْوجَ ما كانوا إليها وغَدَرَتْ بهم أَسْكَنَ ما كانُوا إِليها فاجْتَنَوْا منها حَسْرَةً تَنْقَطِعُ دُوْنَهَا الأَكْبَادُ . وحَرَمَتْهُم السّعادَةَ الأُخْرَوِيَّةَ على طُوْلِ الآمَاد فانْتَبِه يا مَن اغتر بها قبل أن يُصِيْبَكَ مثل مَا أصاب المغترين بها .

وقال بعض العارفين إذا كان أبونا آدم بعد ما قيل له أَسْكُنْ أنتَ وزوجك الجنة صَدَرَ منه ذَنْبٌ وَاحِدٌ فأمِرَ بالخُروج مِن الجَنةِ فكَيْفَ نَرْجُوْا دُخُولَهَا مَعَ ما نحنُ مُقِيْمُونَ عليه من الذُنُوبِ المُتَتَابعَةِ والخَطَايَا المُتواتِرَةِ .

كان أبو الفتح المنهى قد برع في الفقه وتقدم عند العوام وحَصَل له مال كثير ودَخَلَ بَغدَاد وفوِّضَ إليه التَّدريس بالنِظامية وأدْرَكَهُ الموتُ بهَمَدان .

فلما دَنَتْ وَفَاتُهُ قال لأصْحَابِهِ أُخْرُجُوْا فَلَمَّا خَرَجُوا عنه جَعَلَ يَلْطُمُ وَجْهَهُ ويَقُولُ « يا حَسْرَتَا على مَا فَرَّطْتُ في جنب الله » ويقول لِنَفْسِهِ مُوَبّخًا لَهَا يَا أبا الفَتْحَ ضَيَّعْتَ العُمُرَ في طَلب الدنيا وتحصِيل المال والجاه والتَّرَدُدِ إلى السَّلاطِين ويُنْشِدُ هٰذَيْن البَيْتَين :

عَجِبْتُ لأَهلِ العِلم كَيْفَ تَغافُلُوا ... يَجُرُّوْنَ ثوبَ الحِرْصِ حَول المهالكِ
يَدُوْرُوْنَ حَوْلَ الظالِمينَ كأَنَّهم ... يَطُوْفُوْنَ حَوْلَ البَيْتِ وقْتَ المناسِكِ

أرْسَلَ عثمانُ بنُ عَفان رضي الله عنه مَعَ عَبدٍ لَه كِيْسًا مِن الدراهم إلى أبي ذر رضي الله عنه وقال لِعَبْدِهِ إنْ قَبلَ هَذا أبو ذَر فأَنْتَ حُرٌ أي عَتيق فأَتى بالكيس إلى أبي ذَرٍ وَأَلَحَّ عليه في قَبُولِهِ فلم يَقْبَلْ فقال الغُلامُ لأبي ذر إنه عَلَّقَ عِتْقِي على قَبُولِكَ هذا الكِيْسَ فقالوا أبُو ذَرِ لكِنَّ في قَبُولِهِ رِقِّي .

هذه القصيدة الشيبانية عدَّلنا فيها بعض أبيات وكان بعضها في شيء لا يصلح .

سَأَحْمَدُ رَبِّي طَاعَةً وَتَعَبُّدَا ... وَانْظِمُ عِقْداً في الْعقِيدةِ أَوْحَدَا
وَأَشْهَدُ أَنَّ الله لا رَبَّ غَيْرُهُ ... تَعَزَّزَ قِدْماً بِالْبَقَاءِ وَتَفَرَّدَا

هُـوَ الأَوَّلُ الْمُبْـدِي بِغَيْرِ بِـدَايَـةٍ (ولا بعده شَيْءٌ علا وتوحَدَا)
سميعٌ بَصِـيرٌ عـالِـمٌ مُتَكَلِّـمٌ قَـدِيـر يُعِيـدُ الْعـالَمِين كَمَا بَـدَا
مُـرِيـدٌ أَرَادَ الْكَـائِنَـاتِ لِـوَقْتِـهَا قَـديـر فَـأَنْشَـا مـا أَرَادَ وَأَوْجَـدَا
إِلَه عَلَى عَرْشِ السَّمَـاءِ قَدِ اسْتَوَى وَبَـايَـنَ مَخْـلُوقَـاتِـهِ وَتَـوَحَّـدَا
إِذِ الْكَـوْنُ مَخْـلُوقٌ وَرَبـي خَـالِـقٌ لَقَـدْ كـانَ قَبْـلَ الْكَـوْنِ رَبـاً وَسَـيِّداَ
وَلَيْسَ كَمِثْـلِ اللهِ شَـيْءٌ وَلاَ لَـهُ شَـبيهٌ تَعَـالـى رَبُّنَـا وتَـوحَّـدَا
وَمَـنْ قـالَ فـي الـدُّنْيـا يَـرَاهُ بِعَيْنِـهِ فَـذَلِكَ زِنْـديـقٌ طَغـىٰ وَتَمَــرَّدَا
وَخَـالَفَ كُتْبَ اللهِ وَالـرُّسْـلَ كُلَّهُـمْ وَزَاغَ عَنِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَأَبْعَدَا
وَذَلِـكَ مِمَّـنْ قَـالَ فِيـهِ إِلٰهُنَـا يُـرَى وَجْهُـهُ يَـوْمَ الْقِيَـامَـةِ أَسْوَداَ
ولَكِـنْ يَـرَاهُ فـي الجِنَـانِ عِبـادُهُ كما صَـحَّ فِي الأَخْبَـارِ نَرْوِيهِ مُسْنَدا
وَنَعْتَقِـدُ الْقُـرْآنَ تَـنْزِيـلَ رَبِّنَـا بِـهِ جـاءَ جِـبْرِيـلُ النَّبِيَّ (مُحَمَّداً)
وَأَنْـزَلَـهُ وَحْيـاً إِلَيْـهِ وَأَنَّـهُ هُـدَى اللهِ يَا طُوبَى بِهِ لِمَن اهْتَـدَى
كَـلام كَـريـم مُنْزَلٌ مِن إلهِنـا بِـأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَالـدَّلِيـلُ تَـأَكَّـدَا
كَـلاَمُ إِلَـهِ الْعَـالَمِينَ حَقِيقَـةً فَمَنْ شَكَّ فِي هَذا فَقَدْ ضَلَّ وَاعْتَدَى
وَمِنْـهُ بَـدَا قَـوْلاً ولا شَـكَّ أنـهُ يَعُـودُ إِلَى الـرَّحْمٰنِ حَقـاً كما بَـدَا
فَمَـنْ شَـكَّ فِي تَنْزِيلِـهِ فَهْوَ كـافِرٌ وَمَـنْ زَادَ فِيـهِ قَـدْ طَغَـى وَتَمَـرَّدا
وَمَـنْ قـالَ مَخْـلُوقٌ كَـلاَمُ إِلٰهِنـا فَقَدْ خـالَفَ الإِجْمَـاعَ جَهْلاً وَأَلْحَـدَا
وَنُـؤْمِـنُ بِالْكُـتْبِ الَّـتي هِـيَ قَبْـلَهُ وَبِالرُّسْـلِ حَقـاً لاَ نُفَـرِّقُ كَالْعِـداَ
وَإِيمَـانُنَـا قَـوْلٌ وَفِعْـلٌ وَنِيَّـةٌ وَيَـزْدَادُ بِالتَّقْـوَى وَيَنْقُصُ بِالـرَّدَى
فَلاَ مَذْهَـبَ التَّشْبِيهِ نَرْضَـاهُ مَذْهَبـاً وَلاَ مَقْصَدَ التَّعْطِيلِ نَرْضَـاهُ مَقْصَداَ
وَلَكِـنَّ بِالْقُـرْآنِ نَهْـدِي وَنَهْتَـدِي وَقَـدْ فـازَ بِالْقُـرْآنِ عَبْـدٌ قَـدِ اهْتَدَى
وَنُـؤْمِـنُ أَنْ الخَـيرَ وَالشَّـرَّ كُلَّـهُ مِـنَ اللهِ تَقْـدِيـراً عَلَى الْعَبْـدِ عُـدِّدَا
فَمَا شَـاءَ رَبُّ الْعَرْشِ كانَ كما يَشَا وَما لَمْ يَشَا لا كَانَ فِي الْخَلْقِ مُوجَدَا

وَنُؤْمِنُ أَنَّ المَوْتَ حَقٌّ وَأَنَّنا سَنُبْعَثُ حَقاً بَعْدَ مَوْتَتِنَا غَدَا
وَأَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ وَأَنَّهُ عَلَى الْجِسْمِ والرُّوحِ الَّذي فِيهِ أُلْحِدَا
وَمُنْكَرُهُ ثُمَّ النَّكِيرُ بِصُحْبَةٍ هُما يَسْأَلَانِ الْعَبْدَ في الْقَبْرِ مُقْعَدَا
وَمِيزَانُ رَبِّي وَالصِّرَاطُ حَقِيقَةٌ وَجَنَّتُهُ وَالنَّارُ لَمْ يُخْلَقا سُدَى
وَأَنَّ حِسَابَ الخَلْقِ حَقٌّ أَعَدَّهُ كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ عَنْهُ وَشَدَّدَا
وَحَوْضُ رَسُولِ اللهِ حَقاً أَعَدَّهُ لَهُ اللهُ دُونَ الرُّسْلِ مَاءً مُبَرَّدَا
وَيَشْرَبُ مِنْهُ الْمُؤْمِنونَ وَكُلُّ مَنْ سُقِي مِنْهُ كَأْساً لَمْ يَجِدْ بَعْدَهُ صَدَا
أَبَارِيقُهُ عَدُّ النُّجُومِ وَعَرْضُهُ كَبُصْرَى وَصَنْعاً في المَسَافَةِ حُدِّدَا
وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ أَفْضَلُ مَنْ مَشَى عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَوْلادِ آدَمَ أَوْ غَدَا
وَأَرْسَلَهُ رَبُّ السَّمٰوَاتِ رَحْمَةً إلى الثَّقَلَيْنِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ مُرْشِدَا
وَأَسْرَى بِهِ لَيْلاً إلَى الْعَرْشِ رِفْعَةً وَأَدْنَاهُ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ مُصْعِدَا
وَخَصَّصَ مُوسَى رَبُّنَا بِكَلَامِهِ عَلَى الطُورِ نَادَاهُ وَأَسْمَعَهُ النِّدَا
وَكُلُّ نَبِيٍّ خَصَّهُ بِفَضِيلَةٍ وَخَصَّصَ بالقرآنِ رَبِي مُحَمَّدَاً
وَأَعْطاهُ في الْحَشْرِ الشَّفَاعَةَ مِثْلَ ما رُوي في الصَّحِيحَيْنِ الحَدِيثُ وَأُسْنِدَا
فَمَنْ شَكَّ فيْهَا لَمْ يَنَلْهَا وَمَنْ يَكُنْ شَفِيْعاً لَهُ قَدْ فازَ فَوْزاً وَأُسْعِدَا
وَيَشْفَعُ بَعْدَ الْمُصْطَفى كُلُّ مُرْسَلٍ لِمَنْ عاشَ في الدُّنْيا وَمَاتَ مُوَحِدَا
وَكُلُّ نَبِيٍّ شَافِعٌ وَمُشَفَّعٌ وَكُلُّ وَلِيٍّ في جَمَاعَتِهِ غَدَا
وَيَغْفِرُ دُونَ الشِّرْكِ رَبِّي لِمَن يَشَا وَلا مُؤْمِنٌ إلاَّ لَهُ كافِرٌ فِدَا
وَلَمْ يَبْقَ في نَارِ الجَحِيمِ مُوَحِّدٌ وَلَوْ قَتَلَ النَّفْسَ الحَرَامَ تَعَمُّدَا
وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ خَصَّ رَسُولَهُ بِأَصْحَابِهِ الأَبْرَارِ فَضْلاً وَأَيَّدَا
فَهُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِ بِهِمْ يَقْتَدِي في الدِّينِ كُلُّ مَن اقْتَدَى
وَأَفْضَلُهُم بَعْدَ النَّبِيِّ (مُحَمَّدٍ) أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ذُو الفَضْلِ والنَّدَى
لَقَدْ صَدَّقَ الْمُخْتَارَ في كُلِّ قَوْلِهِ وَآمَنَ قَبْلَ النَّاسِ حَقاً وَوَحَّدَا

وَفـادَاهُ يَـوْمَ الْغـارِ طَـوْعـاً بنَفْسِـهِ وَوَاسـاهُ بالأَمْـوَالِ حَـتَّى تَجَـرَّدَا
ومِنْ بَعْدِهِ الْفَـارُوقُ لا تَنْسَ فَضْـلَهُ لَقَـدْ كـانَ لِلإسْـلامِ حِصْنَاً مُشَيَّدَا
لَقَـدْ فَتَـحَ الْفَـارُوقُ بالسَّيْفِ عَنْوَةً كـثير بِـلادِ الْمُسْـلِمِينَ وَمَهَّـدَا
وأَظْهَـرَ دِيـنَ اللهِ بَعْـدَ خَفَـائِـهِ وَأَطْفَـأَ نَـارَ الْمُشْـرِكِينَ وَأَخْمَـدَا
وَعُثْمـانُ ذُو النُّورَيْنِ قَدْ مـاتَ صَائِماً وَقَـدْ قَـامَ بِالْقُرْآنِ دَهْـراً تَهَجُّـداَ
وَجَهَّـزَ جَيْشَ الْعُسْـرِ يَـوْمـاً بِمَـالِـهِ وَوَسَّـعَ لِلْمُخْتارِ والصَّحْبِ مَسْـجِداَ
وَبَـايَـعَ عَنْـهُ الْمُصْطَفـىٰ بِشِـمَالِـهِ مُبـايَعَـةَ الرِّضْـوَانِ حَقـاً وَأَشْهَـداَ
وَلاَ تَنْسَ صِهْرَ الْمُصْطَفىٰ وَابْنَ عَمِّهِ فَقَـدْ كـانَ حَـبْراً لِلْعُـلُومِ وَسَـيِّدَا
وَفَـادَى رَسُـولَ اللهِ طَـوْعـاً بِنَفْسِهِ عَشِـيَّةَ لَمَّـا بِالْفِـرَاشِ تَـوَسَّـدَا
وَمَـنْ كـانَ مَـوْلاَهُ النَّبِيُّ فَقَـدْ غَـدَا عَـلِيٌّ لَـهُ بالْحَـقِّ مَـوْلـىً وَمُنْجِـداَ
وَطَلْحَتُهُمْ ثُـمَّ الـزُّبَـيْرُ وَسَـعْدُهُـمْ كَـذَا وَسَعِـيدٌ بِالسَّـعَادَةِ أُسْعِـدَا
وكَـانَ ابْنُ عَـوْفٍ باذِلَ المَـالِ مُنْفِقاً وكَـانَ ابْـنُ جَـرَّاحٍ أَميـنـاً مـؤَيَّـداً
وَلاَ تَنْسَ بَـاقِيَ صَحْبِـهِ وَاهْـلَ بَيْتِهِ وَأَنْصَـارَهُ وَالتَّـابِعِـينَ عَـلَى الْهُـدَى
فَكُلُّهُـمُ أَثْـنَى الإِلَـٰهُ عَـلَيْهِمُ وَأَثْـنَى رَسُـولُ اللهِ أَيْضَـاً وَأَكَّـدَا
فَـلاَ تَـكُ عَبْـداً رَافِضِيـاً فَتَعْتَـدِي فَوَيْـلٌ وَوَيْـلٌ في الْـوَرَىٰ لِمَن اعْتَـدَى
وَنَسْكُتَ عَنْ حَرْبِ الصَّحَابَةِ فالَّذِي جَـرَى بَيْنَهُمْ كَـانَ اجْتِهاداً مُجَـرَّداً
وَقَـدْ صَـحَّ فـي الأَخْبارِ أَنَّ قَتِيلَهُمْ وَقَـاتِلَهُمْ فـِي جَنَّـةِ الْخُـلْدِ خُـلِّدَا
فَهٰـذَا اعْتِقَـادُ الشَّـافِعِـيِّ إمـامِنَـا وَمَـالِك والنُّعْمـانِ أَيْضَـاً وَأَحْمَـدَا
فَمَـنْ يَعْتَقِـدْهُ كُـلَّهُ فَهْـوَ مُـؤْمِـنٌ وَمَـنْ زَاغَ عَنْـهُ قَـدْ طَغَـى وَتَمَـرَّداَ

وَصَلى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

قصـــــــة

تَوَجَّهَ عَافِيَةُ بنُ يَزِيْدُ الأَودِي القاضي إلى المهدي يوماً في وقتِ الظَّهيرة لِمُقابَلَتِهِ عَلى عَجَل .

فلمّا أذِنَ لَهُ إذَا بِهِ يحمل أوراقَه بينْ يَدِيه ويَسْأل المهدي أن يُعْفِيهِ مِن القضـاء ويَسْتـأذنـه في تسليم الأوراق التي في حَوْزَتِـهِ إلى مَن يَأمُر الخليفةُ بتَسليمها له .

وظَنَّ الخليفـةُ أن القـاضيِ عَافية قَد أَقْدَمَ عَلى طَلَبَ الاسْتِعْفَاء مِن القَضَاء لأن أحد رجالِ حَاشِيَته ومَنْ هُم محْسُوبُونَ على الخَلِيفةِ قد تَطاوَلَ عَليهِ أو نالَ منه أو أَسَاءَ مُعَامَلَته أو أَبْدَى عَدَمَ إحْترامٍ له أو تَدَخل في شأنٍ مِن شؤون قَضائِهِ فأضْعَفَ سُلْطَانَه في تنْفِيذِ أحكامِهِ ولشَدَّ مَا كانَتْ دَهْشَةُ الخَليفةِ حِيْنَمَا عَرَفَ أنه لم يَقَعْ شَيءٌ مِن ذلك .

فأحَبَّ الخَليفةُ أن يَتعرَّفَ مِن ذَلكَ السَّبَبَ الحَقِيْقِي الذي دَفَعَ القَاضِي إلى الاسْتَعْفَاءِ على عَجَلٍ في ذلك الوَقْت الذي يَلْجَأُ الناسُ فيه إلى الرَاحَةِ وهوَ وَقْتِ الظَهِيْرةِ .

ولما أصَرَّ الخليفةُ عَلى طلب مَعْرفَةِ السَبب لم يَجِدَ القاضِي بُداً من أن يَرْوِي لَهُ ما جرىَ له مما كان سَبَبَاً في طلب الإعْفَاءِ حِرْصَاً على دِيْنِهِ وطَهَارةً لِنَفْسِهِ .

فقال القاضي عافِيةُ مُنْذُ شَهْرَيْنِ وأنا أتَابِعُ البَحْثَ في إحدى القَضَايَا المُعْضِلَةِ مُحَاوِلاً أَنْ أصِلَ فيها إلى وَجْهِ الحَقِّ فقد تَقَدَم إليّ خصْمَان مُوْسِرَانِ وَجِيْهَانِ في قضِيَّةٍ مُعْضِلَةٍ مُشْكِلَةٍ .

وكُلٌ منهما يَدَّعِي بَيِّنَةً وشُهُوداً ويُدْلي بحُجَجٍ تحتاجُ إلى تأملٍ وتَثبُتٍ .

ولما لم يَتَبَيَّنْ لي وَجْهُ الحقِ رَددْتُ الخُصُومَ رَجَاءً أن يَصْلَحُوا أو يَتَبَيَّنَ لي وجْهُ فَصْلٍ بَيْنَهُمَا .

وأثْنَاءَ ذَلِكَ وَقفَ أحَدُ الخَصْمَيْنِ مِن خَبَرِي على أني أحِبُّ الرُّطَبَ السُّكَريْ .

فَعَمَدَ في وقْتِنَا هذا وهُوَ أوَّلُ وقْتِ الرُطَبِ وجَمَعَ رُطَباً سُكَّرِياً لا يَتهيَّأ في

هذا الوقتِ لأحدٍ جَمْعُ مثلِه إلاّ لأَمير المؤمنين وحَقاً ما رَأيْتُ أَحْسَنَ منه .

ثم عَمَدَ إلى بَوَّابي فَرَشَاهُ جُمْلَةَ دَرَاهِم لِيُدْخِلَ الطَّبَقَ إليَّ على أنه لا يُبَالي بَعْدَ ذَلكَ أَنْ أَقْبَلَ الطَّبَقَ أو أَرُدَّهُ .

فلما أَدْخَلَ الطبقَ إليَّ أَنْكَرْتُ أَمْرَهُ وطَرَدْتُ بَوَّابي وأَمَرْتُ بِرَدِّ الطَّبَقِ فَرَدَّهُ لِسَاعَتِه .

فلما كان اليومُ تَقَدَّمَ إليَّ هَذَا الرجلُ مع خَصْمِه فَهَالَنِي أَنَّهُمَا لَمْ يَتَسَاوَيَا في قَلْبِي ولا في عَيني .

وهذا يا أمير المؤمنين وأنا لَم أَقْبَلْ فكيف يكون حَالي لو قَبلْتُ ولا آمَنُ أن يَقَعَ على حِيْلَةٍ في دِيْني فأَهْلِكُ وقد فَسد الناسَ فأَقِلْني أَقَالَكَ الله وأَعْفِني .

ولم يَسَع الخليفةُ وهو يَستَمِعُ إلى ذلك الكلامَ المنبي عن شِدَّةِ الوَرَع والحرص الخالص على نزاهةِ الحكم وبُعْدِ القاضي عن المؤثرات أيّاً كان نوعُها إلاَّ أن يَسْتَجِيْبَ لِطَلَب القَاضِي النَّقِي النَّبِيْل فأَعْفَاهُ مِن القَضَاء .

فَتَأَمَّلْ هَذِه القِصَّةِ بدقة . وقارِنْ بَيْنَهُ وبَيْنَ كَثِيرٍ من قُضَاةِ هذا الزمن يَتَبَيَّنْ لَكَ الفرق العظيمُ والبُوْنُ الشاسع نسأل الله العافية .

اللَّهُمَّ أَحْيِ قُلُوبَنَا وَنَوِّرْهَا بنُورِ الايْمَانِ وَزَيِّنْهَا بمَحَبَّتِكَ وَجَمِّلْ أَلْسِنَتَنا بذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحَسِّنْ أَعْمَالَنَا وَوَفِّقْنَا لِحِفْظِ أَوْقَاتنا وَأَحْيِينَا حَيَاةً طَيِّبَةً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ وَصَلَّى الله عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــــلٌ)

وَمِنْ إعْلانِ عمر بن عبدالعزيز الجَوَائِز لِمَنْ يَدُلُّهُ عَلى الخَيْرِ أَنَّهُ كَتَبَ إلى أَهْلِ المَوْسِمِ أَمَّا بَعْدُ فَأَيُّمَا رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْنَا في رَدِّ مَظْلَمَةٍ أَوْ امْرٍ يُصْلِحُ اللَّهُ به خاصّاً

أَوْ عَامّاً مِنْ أَمْرِ الدِّيْنِ فَلَهُ مَا بَيْنَ مِائَةِ دِيْنَارٍ إِلَى ثَلاثِمائَةِ دِيْنَارٍ بِقَدْرِ مَا يَرِي مِنْ الحُسْبَةِ وَبُعْدِ السَّفَرِ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْيِيْ بِهِ حَقّاً أَوْ يُمِيْتُ بِهِ بَاطِلاً أَو يَفْتَحُ بِهِ مِنْ وَرائِهِ خَيراً وَلَوْلا أَنِّي أُطِيْلُ عَلَيْكُم وَأُطْنِبُ فَيَشْغَلُكُم ذلكَ عنْ مَناسِكِكم لَسَمَّيْتُ أُمُوراً مِنَ الحَقِّ أَظْهَرَهَا اللَّهُ وَأُموراً مِن البَاطِلِ أَمَاتَها اللَّهُ وَكانَ اللَّهُ هُوَ المُتَوحِّدُ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لا تَجِدُونَ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ لَوْ وَكَلَنِيْ إِلَى نَفْسِيْ لَكُنْتُ كَغَيْرِيْ وَالسَّلامُ .

وَكَتَبَ مَرَّةً إِلى الحَسَنِ البَصْرِيِّ وَمُطَرِّفَ بْنِ الشِّخِّيْرِ : مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ إِلى الحَسَنِ البَصْرِيِّ ومُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ ابْنِ الشِّخِّيرِ سَلامٌ عَلَيْكُمَا فَإِنِّيْ أَحْمَدُ إِلَيْكُمَا اللَّهَ الذِيْ لا إِلهَ إِلا هُوَ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلى مُحَمدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّيْ أُوْصِيْكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ فإِنَّ مَنْ يَقُولُها كَثِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهَا قَلِيْلٌ فَإِذا أَتاكُمَا كِتَابِيْ فَعِظَانِيْ وَلا تُزَكِّيَانِ وَالسَّلامُ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الحَسَنُ إِلَى عُمَرَ سَلامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّيْ أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الذي لا إلهَ إِلَّا هُوَ أَمّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَخُوْفَةٍ أُهْبِطَ إِلَيْهَا آدَمُ عَلَيْهِ السّلامُ عُقُوبَةً تُهِيْنُ مَنْ أَكْرَمَهَا وَتُكْرِمُ مَنْ أهانَهَا وَتُفْقِرُ مَنْ جَمَعَ لَهَا لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ قَتِيْلٌ فكُنْ يَا أَمِيرَ المؤمِنينَ كالمُدَاوِيْ لِجرْحِهِ واصْبِرْ عَلى شِدَّةِ الدَّوَاءِ لِمَا تَخَافُ مِنْ طُوْلِ البَلاءِ .

وَكَتَب إِلَيْهِ مُطَرِّفُ سَلامٌ عَلَيْكَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَركاتِه فإِنِّيْ أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أَمَّا بَعْدُ فَلْيَكُنْ اسْتِئْنَاسُكَ بِاللَّهِ وَانْقِطاعُكَ إِلَيْهِ فَانَّ قَوْماً أَنِسُوا بِاللَّهِ وَانْقَطَعُوا إِلَيْهِ فِي وَحْدَتِهِم أَشَدُّ اسْتِئْنَاساً مِنْهُمْ بِالنَّاسِ فِي كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ ، أَمَاتُوا مِن الدُّنْيَا مَا خَافُوا أَنْ يُمِيتَ قُلُوبَهُم وَتَركُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكَهُمْ فَأَصْبَحُوا لِمَا سَالَمَ النَّاسُ مِنْهَا أَعْدَاءً جَعَلَنا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنْهُم ، فإِنَّهُم قَدْ أَصْبَحُوا بِهَا قَلِيْلا وَالسَّلامُ .

وَقَدِمَتْ امْرَأَةٌ مِن العِرَاقِ عَلى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ . فَلَمَّا صَارَتْ إِلَى بَابِهِ قَالَتْ هَلْ عَلى أَميرِ المؤمِنينَ حَاجِبٌ فَقَالُوا لَا فَادْخُلِيْ إِنْ شِئْت ،

فَدَخَلَتْ المَرْأَةُ عَلى زَوْجَةِ عُمَرَ فاطِمَةَ وَهِيَ جَالِسَةٍ في بَيْتِهَا وَفي يَدِهَا قُطْنٌ تُعالِجُهُ فَسَلَّمَتْ المَرْأَةُ فردَّتْ عَليْهَا فَاطِمَةُ السَّلامَ وَقَالَتْ لَهَا ادْخُلِيْ .

فَلَمَّا جَلَسَت المَـرْأَةُ رَفَعَتْ بَصَرَهَا فَلَمْ تَرَ في البَيْتِ شَيْئاً لَهُ بَالٍ وَذُو أَهَمِيَّةٍ ، فَقَالَتْ إِنَّمَا جِئْتُ لأَعْمُرَ بَيْتِيْ مِنْ هَذا البَيْتِ الْخَرَاب قَالَتْ فَاطِمَةُ : إِنَّمَا خَرَّبَ هَذا البَيْتَ عِمَارَةُ بُيُوتِ أَمْثَالِكِ فَأَقْبَلَ عُمَرُ حَتَّى دَخَلَ الدّارَ فَسَلَّمَ وَدَخَلَ بَيْتَهُ فَمَالَ إِلَى مُصَلّى كَانَ لَه في البَيْتِ يُصَلِّيْ فِيْهِ .

فَسَأَلَ فَاطِمَةَ عَن المَرْأَةِ فَقَالَتْ هِيَ هَذِهِ فَأَخَذَ مِكْتَلاً لَهُ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ عِنَبٍ فَجعَلَ يَتَخَيَّرُ لَهَا أَحْسَنَهُ يُنَاوِلُهَا إِيَّاهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ مَا حَاجَتُكِ .

فَقَـالَتْ امْـرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ لِيْ خَمْسُ بَنَاتٍ كُسُلٍ كُسُدٍ فَجِئْتُكَ ابْتَغِيْ حُسْنَ نَظَرِكَ لَهُنَّ ، فَجَعَـلَ يَقُولُ كُسُلٌ ، كُسُدَ وَيَبْكِيْ فَأَخَذَ الدَّوَاةَ وَالقِـرْطَـاسَ وكَتَبَ إِلَى وَالِيْ العِرَاقِ فَقَالَ سَمِّيْ أَكْبَرَهُنَّ فَسَمَّتْهَا فَفَرَضَ لَهَا فَقَالَتْ المَرْأَةُ الحَمْدُ لِلَّهِ .

ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ اسْمِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَالمَرْأَةُ تَحْمَدُ اللَّهَ فَفَرَضَ لَهَا فَلَمَّا فَرَضَ لِلأَرْبَـعِ اسْتَفَزَّهَا الفَرَحُ فدَعت لَهُ فَجَزَتْهُ فَرَفَعَ يَدَهُ وَقَالَ قَدْ كُنّا نَفْرِضُ لَهُنَّ حِيْنَ كُنْتِ تُوْلِيْنَ الحَمْدَ أَهْلَهُ فَمُرِيْ هَؤُلاَءِ الأَرْبَعَ يُفِضْنَ عَلى هَذِهِ الخَامِسَةِ .

فَخَرَجَتْ بالكِتَابِ حَتَّى أَتَتْ بِهِ العِرَاقَ فَدَفَعتْهُ إلى وَالِيْ العِرَاقِ فَلَمَّا دَفَعَتْ إِلَيْهِ الكِتَابَ بَكَى وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ وَقَالَ رَحِمَ اللَّهُ صَاحِبَ هَذَا الكِتَاب فَقَالَتْ أَمَاتَ قَالَ نَعَمْ فَصَاحَتْ وَوَلْوَلَتْ فَقَالَ لا بَأْسَ عَلَيْكِ مَا كُنْتُ لأَرُدَّ كِتَابَهُ في شَيْءٍ فَقَضَى حَاجَتَهَا وَفَرضَ لِبَنَاتِهَا .

وَأَرْسَـلَ عَطَاءُ إلى فَاطِمَـةَ بَنْتِ عَبْـدِ المَلِكِ أَخْبِرِيْنِيْ عَنْ عُمَرَ قَالَتْ أَفْعَلُ . إِنَّ عُمَرَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ كانَ قَدْ فَرَّغَ لِلْمُسْلِمِيْنَ نَفْسَهُ وَلأُمُوْرِهِمْ فَكَانَ

إِذَا أَمْسَى وَلَمْ يَفْرُغْ فِيْهِ مِنْ حَوَائِج يَوْمِهِ وَصَلَ يَوْمَهُ بِلَيْلَتِهِ إِلَى أَنْ أَمْسَى مَسَاءً وَقَدْ فَرِغَ حَوَائِجَ يَوْمِهِ فَدَعَا بِسِرَاجِهِ الذِيْ كَانَ مِنْ مَالِهِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَقْعَى وَاضِعَاً رَأْسَهُ عَلَى يَدَيْهِ تَسِيْلُ دُمُوْعُهُ عَلَى خَدَّيْهِ يَشْهَقُ الشَّهْقَةَ يَكَادُ يَنْصَدِعُ قَلْبُهُ لَهَا وَتَخْرُجُ لَهَا نَفْسُهُ حَتَّى إِذَا بَرَقَ الصُّبْحُ أَصْبَحَ صَائِمَاً فَدَنَوْتُ مِنْهُ .

فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ أَلَيْسَ مِنْكَ مَا كَانَ قَالَ أَجَلْ فَعَلَيْكَ بِشَأْنِكَ وَخَلِّيْنِيْ وَشَأْنِيْ قَالَتْ فَقُلْتُ إِنِّيْ أَرْجُو أَنْ أَتَّعِظَ قَالَ إِذَنْ أُخْبِرُكَ إِنِّيْ نَظَرْتُ فَوَجَدْتُنِيْ قَدْ وُلِّيتُ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَسْوَدَهَا وَأَحْمَرَهَا .

ثُمَّ ذَكَرْتُ الفَقِيْرَ الجَائِعَ وَالغَرِيْبَ الضَّائِعَ وَالأَسِيْرَ المَقْهُورِ وَذَا المَالِ القَلِيْلِ وَالعِيَالِ الكَثِيْرِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ فِي أَقَاصِيْ البِلَادِ وَأَطْرَافِ الأَرْضِ فَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ سَائِلِيْ عَنْهُمْ وَأَنْ رَسُوْلَ اللَّهِ ﷺ حَجِيْجِيْ فِيْهِم فَخِفْتُ أَنْ لا يَقْبَلَ اللَّهُ مِنِّيْ مَعْذِرَتِيْ فِيْهِم وَلاَ تَقُوْمُ لِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُجَّةٌ فَرَحِمْتُ وَاللَّهِ يَا فَاطِمَةُ نَفْسِيْ رَحْمَةً دَمَعَتْ لَهَا عَيْنِيْ وَوَجِعَ لَهَا قَلْبِيْ فَأَنَا كُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا ذِكْرَاً ازْدَدْتُ مِنْهَا خَوْفَاً فَاتَّعِظِيْ إِنْ شِئْتِ أَوْ ذَرِي .

وَكَانَ النَّاسُ فِي زَمَنِهِ كَلاَمُهُمْ وَبَحْثُهُمْ فِي الأَعْتِنَاءِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَسِيْرَةِ الرَّسُولِ وَالصَّحَابَةِ وَالزُّهْدِ وَالوَرَعِ وَالبَحْثِ عَنِ الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ وَالأَرَامِلِ وَالأَيْتَامِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوْفِ وَالنَّهِي عَنِ المُنْكَرِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَهَكَذَا النَّاسُ فِي كُلِّ عَصْرٍ تَبَعُ مُلُوكِهِمْ وَقَادَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ غَالِبَاً .

وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُبُّ العَدَالَةِ وَالأَنْصَافِ رَكِيْزَةٌ فِي نَفْسِهِ وَمِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِ أَنْ وَهَبَ لَهُ ابْنَهُ عَبْدَالمَلِكِ وَكَانَ أُعْجُوْبَةَ التاريخ ، كانَ نَاشِئَاً لَمْ يُجَاوِزْ عِشْرِيْنَ عَامَاً ، وَلكِنَهُ مِنْ تَوْفِيْقِ اللَّهِ لَهُ أَنَّهُ مُنْذُ صِغَرِهِ قَوِيُّ الأَيْمَانِ وَرِعَاً زَاهِدَاً ، يَقْتَحِمُ عَلَى أَبِيْهِ فِي مَجْلِسِهِ وَنَادِيْهِ وَمَخْدَعِ نَوْمِهِ وَقَيْلُوْلَتِهِ يَحُثُّهُ وَيَعِظُهُ وَيَذْكُرُهُ بالله ويوقظه وينهيه الا يؤخر مظلمةً للناس مَخافة أن يَحُمَّ الأَجَلُ فَتَسُوءُ المَغَبَّةُ وَتَلْتَهِبُ عَلَى أَبِيْهِ النَّارُ .

وكَـانَ كُلَّمَا دَخَـلَ عُمَـرُ في الأُمُـوْرِ على بيِّنَةٍ اقْتَحَمَهَا عَبْدُالمَلِكِ قَوِيّاً مُسْتَعْجِلاً وَقَدْ أثَّرَ عَلَى أبيْهِ وزَادَ في وَرَعِهِ وَتَنْجِيْزِهِ لِلأُمُوْرِ وَدَخَلَ عَبْدُ المَلِكِ يَوْماً عَلَى أَبيْهِ وكَانَ عِنْدَهُ عَمُّهُ مَسْلَمَةُ فَطَلَبَ إلَى أَبيْهِ أَنْ يُخْلِيْه بِه فَقَالَ أسِرٌّ دُوْنَ عَمِّكَ قَالَ نَعَمْ فَقَامَ مَسْلَمَةُ وَجَلَسَ عَبْدُالمَلِكِ بَيْنَ يَدَيْ أَبيْهِ فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيْرَ المُؤمِنِيْنَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ لِرَبِّكَ غَداً إذَا سَأَلَكَ فَقَالَ رَأيْتَ بِدْعَةً لَمْ تُمِتْهَا أَوْ سُنَّةً لَمْ تُحْيِهَا فَقَالَ عُمَرُ يَا بُنَيَّ أشيءٌ حَمَلَكَ أمْ رَأْيٌ رَأَيْتَهُ قَالَ لاَ واللَّهِ وَلَكِنْ رَأْيٌ رَأَيْتُهُ مِنْ نَفْسِيْ عَرَفْتُ أنَّكَ مسْؤلٌ فَمَا أَنْتَ قَائِلٌ .

قَالَ أَبُوهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا بُنَيّ وَيجْزِيْكَ مِنْ وَلَدٍ خَيْراً فَوَاللَّهِ إنِّيْ لأَرْجُوْ أنْ تكونَ مِن الأعْوَانِ عَلَى الخَيْرِ يَا بُنَيَّ إنَّ قَوْمَكَ شَدُّوا هَذَا الأَمْرَ عُقْدَةً وَعُرْوَةً وَمَتى مَا أُرِيْدَ مُكَابَرَتَهُم عَلَى انْتِزَاعِ مَا في أَيْدِيْهِمْ لَمْ آمَنْ أَنْ يَفْتِقُوا عَلَيَّ فَتْقاً تَكْثُر فِيْهِ الدِّمَاءُ وَاللَّه لزَوَالُ الدنيا أهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أنْ يُهْرَاق فِيْ سَبَبِيْ مِحْجَمَةٌ مِنْ دَمْ أَوْ مَا تَرْضَىٰ أَلَّا يَأْتي عَلَى أَبيْكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا إلاّ وَهُوَ يُمِيْتُ فِيهِ بِدْعَةً وَيُحْيِي فِيْهِ سُنَّةً حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوْ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ .

وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ المَلِكِ بِأَبِيْهِ حتى صَارَ لاَ يُبْرِمُ أَمْراً في الْمَظَالِمِ دُوْنَ رَأْيِهْ قَالَ مَيْمُوْنُ بْنُ مَهْرَانْ بَعَثَ إليَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيْز وإلى مَكْحُوْل وَإلَى أَبي قِلاَبَةَ فَقَال مَا تَرَوْنَ فِي هَذِهِ الأمْوَالِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنَ النَّاسِ ظُلْماً فَقَالَ مَكْحُوْل يَوْمِئِذٍ قَوْلاً ضَعِيْفاً كَرِهَهُ عُمَر قَالَ أَرَى أَنْ تُسْتَأْنَف فَنَظَرَ عُمَرُ إلَيَّ كَالْمُسْتَغِيْثِ بِي فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤمِنِيْنَ إبْعَثْ إلى إبْنِكَ عَبْدِالمَلِكِ فَأَحْضِرْهُ فإنَّهُ لَيْسَ بِدُوْنِ مَنْ رَأَيْت .

وَكَـانَ عَبْدُ المَلِكِ قَدْ تَفَقَّهَ وَدَرَسَ حَتَّى صَـارَ في الصَّفِ الأوَّلِ مِنْ فُقَهَاءِ الشَّامِ ثُمَّ زَهِدَ قَالَ مَيْمُوْن فَقَالَ عُمَرُ يَا حَارِثُ ادْعُ لِيْ عَبْدَالْمَلِكِ فَلَمَّا دَخَـلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ يَا عَبْـدَالْمَلِكِ مَا تَرَى فِي هَذِهِ الإمْوَالِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنَ النَّاسِ ظُلْماً وَقَدْ حَضَرُوا يَطْلُبُوْنَهَا وَقَدْ عَرَفْنَا مَوَاضِعَهَا قَالَ أرَى أَنْ تَرُدَّهَا فَإنْ لَمْ تَفْعَلْ كُنْتَ شَرِيْكاً لِمَنْ أَخَذَهَا .

تَسْمَعُ حِكَايَاتٍ يَطِيْبُ سَمَاعُهَا وَيَحْلُو كَطَعْمِ الشَّهْدِ في ثَغْرِ ذَائِقِ
فَكَمْ مِنْ شَوَاجٍ لِلْقُلُوْبِ رَقَائِقِ وَكَمْ مِنْ مَعَانٍ لِلْعُلُومِ حَقَائِقِ

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِالْعَزِيْزِ لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِهِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ قَالَ أَجْلِسُوْنِي فَأَجْلَسُوْهُ فَقَال أَنَا الَّذِي أَمَرْتَنِي فَقصَّرْتُ وَنَهَيْتَنِي فَعَصَيْتُ وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَأَحَدَّ النَّظَر فَقَالُوا إِنَّكَ لَتَنْظُرُ نَظَراً شَدِيْدَاً يَا أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ فَقَال إِنِّي لأَرَى حَضَرَةً مَا هُمْ بِإِنْسٍ وَلَا جِنٍ ثُمَّ قُبِضَ .

وَقَالَ مَسْلَمَة بْنُ عَبْد الْمَلِكِ لَمَّا احْتُضِرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيْزِ كُنَّا عِنْدَهُ فِي قُبَّةٍ فَأَوْمَأَ إِلَيْنَا إِنْ أَخْرُجُوْا فَخَرَجْنَا حَوْلَ القُبَّة وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَصِيْفٌ فَسَمِعْنَاهُ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَة ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيْنَ لَا يُرِيْدُوْنَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾ ما أَنتُمْ بِإِنْسٍ وَلَا جِنٍ ثُمَّ خَرَجَ الْوَصِيْفُ فأَومَأَ إِلَيْنَا أن ادْخُلُوا فَإِذَا هُوَ قَدْ قُبِضَ .

شَمِّرْ عَسَى أَنْ يَنْفَعَ التَّشْمِيرُ وانْظُرْ بفكْرِكَ ما إليْهِ تَصِيْرُ
طَوَّلْتَ آمالاً تَكَنَّفَهَا الهَوَى ونسيْتَ أَنَّ العُمْرَ منكَ قَصِيْرُ
قَدْ أَفْصَحَتْ دُنْيَاكَ عن غَدَرَاتِها وأَتَى مَشِيْبُكَ وَالمَشِيْبُ نَذِيْرُ
دَارٌ لَهَوْتَ بِزَهْوِهَا مُتَمَتِّعاً تَرْجُوْ المقامَ بِهَا وأَنْتَ تَسِيْرُ
واعْلَمْ بِأَنكَ رَاحِلٌ عَنْهَا ولَوْ عُمِّرْتَ فيها مَا أقامَ ثَبِيْرُ
لَيْسَ الغِنَى في العَيْشِ إلَّا بُلْغَةً وَيَسِيْرِ ما يَكْفِيْكَ منه كَثِيْرُ
لا يَشْغَلَنَّكَ عَاجِلٌ عن آجِلٍ أَبَدًا فَمُلْتَمِسُ الحَقِيْرِ حَقِيْرُ
ولَقَدْ تَسَاوَى بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى في الأَرْضِ مأمُوْرٌ بِهَا وأَمِيْرُ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(مَـوْعِظَـــة)

عِبَـادَ اللَّهِ ، إقْـتَرَبَتِ السَّاعَة وَقَرُبَ التَّحَوُّلُ والمَسِيْر ، وَأَزِفَتِ الآزِفَةُ وَلَيْسَ هُنَاكَ حَمِيْمٌ وَلاَ نَصِيْرٌ وَكُتِبَتِ الصَّحِيْفَةُ فَلاَ نِسْيَانَ لِقَلِيْلٍ وَلاَ كَثِيْرٍ ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِيْنٍ ﴾ .

تَاللَّهِ لَقَدْ غَرَّتِ الآمَانِي أَكْثَرَ خَلْقِ اللَّهِ فَتَرَكُوا سَبِيْلَ الْهُدَى وأَعْرَضُوا عَنْ دَارِ التَّهَـانِي والْقَرَارِ فَوَقَعُوا فِي شَرَكِ الرَّدَىٰ وَتَمَادَوْا على التَّوَانِي وَظَنُّوْا أَنْ يُتْرَكُـوا سُدَىٰ وَنَسُـوا قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إنَّ كَيْدِي مَتِيْنٌ ﴾ وَقَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ ذَرْهُمْ يأكلوا ويَتَمتعوا ويُلهِهم الأمل فسوف يعلمون ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُون أَنَّما نُمِدَهم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَّا يَشْعُرُوْنَ ﴾ .

عِبَادَ اللَّهِ كَيْفَ حَالُكُمْ إِذَا قُمْتُمْ مِنَ الْقُبُورِ حَيَارَىٰ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، وَقَـدْ عَظُمَتِ الأَهْوَالُ ﴿ وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ﴾ وَلَزِمَتِ الصُّحُفُ الأَعْنَاقَ ثُمَّ رُدُّوا إلى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِيْنَ .

كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْجَبَّـارَ ﴿ لاَ تَخْتَصِمُـوْا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْـوَعِيْد ﴾ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُوْلُ هَلْ مِن مَزِيْد ﴾ وَقَوْلِهْ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ أَعْهَد إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلا تَعْبُدُوا الشَّيْطَان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُبِيْنٌ ﴾ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ يُؤْخَذُ الْمُجْرِمُونَ بِالنَّوَاصِي والاقْدَام ، وَيُطْرَحُ فِي الجَحِيْمِ مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى المَعَاصِي جَرَاءَةٌ وَإِقْدَام .

وَيَمْرَحُ بِالنَّعِيْمِ مَنْ قَدَّمَ الخَـيْرَاتِ لِدَارِ السَّـلاَمِ وَعَمِـلَ بِالْبَـاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَيَحْظَىٰ بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فاتَّقُوا الله عِبَادَ الله

واسْلُكُوا طَرِيْقَ الشَّرْعِ القَوِيْمِ الذي لاَ اعْوجَاجَ فِيه وَقُوْمُوا بأوَامِرِ المنَّانِ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .

وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِمَّنْ غَرَّتْهُم الحَيَاة الدُّنْيَا بِزَخَارِفِهَا الزَّائِلة وَزِيْنَتِهَا العَاطِلَة وَأُوْلَئِكَ هُمْ الّذِيْنَ تَنْقص الأَيَّامُ واللَّيَالِي آجَالَهُمْ وَهُمْ لاَهُونَ وَتَجْرِي بِهِم الأَعْوَامُ إلى مَرَاقِدِ قُبُورِهِمْ وَهُمْ نَائِمُون وَتَتَخَطَّفهُم المَنَايَا وَهُمْ لاَعِبُون وَتُنَادِيْهُم العِبرُ وَالمَوَاعِظُ وَهُمْ لاَ يَسْمَعُون وَلاَ يُبْصِرُون وَيَرَوْنَ مَا وَقَعَ بالأمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا نَزَلَ بِآبَائِهِمْ ولكن لاَ يَفْقَهُوْنَ واللَّهُ سُبْحَانهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَآلِهِمْ وَمَا إِلَيْهِ صَائِرُون ، إذا هُمْ وَصَلُوا إلى الغَايَة المَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيْهِ ﴾ .

شِعْرَاً :

يَـا غَـافِـلاً عَمَّـا خُلِقْتَ لَهُ انْتَبِـهْ ... جَـدَّ الـرَّحِيْـلُ وَلَسْـتَ بِالْيَقْظَـانِ

سَـارَ الرِّفَـاقُ وَخَلَّفُـوكَ مَـعَ الأُوْلَى ... قَنِعُـوا بِـذَا الحَـظِّ الخَسِيْسِ الفَـانِ

وَرَأَيْـتَ أَكْثَرَ مَـنْ تَـرَى مُتَخَلِّفَـاً ... فَتَبِعْتَهُـمْ وَرَضِـيْتَ بِالحِـرْمَـانِ

لَكِـنْ أَتَيْتَ بِخُطَّـتَيْ عَجْـزٍ وَجَهْـ ... ـلٍ بَعْدَ ذَا وَصَحِـبْتَ كُـلَّ أَمَـانِ

مَنَّتْكَ نَفْسُـكَ بِاللَّحَـاقِ مَـعَ القُعُـو ... دِ عَـنِ المَسِـيْرِ وَرَاحَـةِ الأَبْـدَانِ

وَلَسَـوْفَ تَعْلَمُ حِينَ يَنْكَشِفُ الغِطَا ... مَـاذَا صَنَعْـتَ وَكُـنْتَ ذَا امْكَـانِ

اللَّهُم نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الإِيْمَانْ وَثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابت ، في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَة ، وَيَسِّرْنا لِلْيُسْرَى وَجَنِّبْنَا العُسْرَى ، واجْعَلْنَا هُداةً مُهْتَدِيْن واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْع المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــــلٌ)

وَوَقَفَ مُعَاوِيَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْماً عَلَى مَنْبَرِهِ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ العَطَايَا المالية عَنْ أَفْرَادِ المُسْلِمِيْنَ فَقَالَ اسْمَعُوْا وَأَطِيْعُوْا فَقَامَ إليه أبو مُسْلِمُ الخَوْلاَني فَقَالَ لاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ يَا مُعَاوِيَةُ قَالَ مُعَاوِيَة وَلِمَ يَا أَبَا مُسْلِم فَقَالَ يَا مُعَاوِيَةُ كَيْفَ تَمْنَعُ العَطَا وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ وَلاَ كَدِّ أَبِيْكَ وَلاَ مِنْ كَدِّ أُمِّك .

فَغَضِبَ مُعَاوِيَةُ وَنَزَلَ عَنِ المِنْبَرِ وَقَالَ لِلْحَاضِرِيْنَ مَكَانَكُمْ وَغَابَ سَاعَةً عَنْ أَعْيُنِهِمْ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ اغْتَسَلَ فَقَال إِنَّ أَبَا مُسْلِمْ كَلَّمَني بِكَلامٍ أَغْضَبَني وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول « الغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَان وَالشَّيْطَانُ خُلِقَ مِنَ النَّـار وَإِنَّـما تُطْفَأُ النَّارُ بالمَاء فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ » وَإِنِّي دَخَلْتُ فَاغْتَسَلْتُ وَصَدَقَ أَبُو مُسْلِم إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّي وَلا مِنْ كَدِ أَبِي فَهَلمُّوا إلى عَطَائِكُم .

وبالتّالي فَإِلَيْكَ صِفَةُ الإمام العَادِل : كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَلِيَ الخِلاَفَةَ إلى الحَسَن البَصْري لِيُخْبِرَهُ عَنْ صِفَةِ الإِمَامَ العَادِل فَكَتَبَ إِلَيْهِ الحَسَن إِعْلَمْ يَا أَمِيْرَ المؤمنِيْنَ أَنَّ اللَّه جَعَلَ الإِمَامَ العَادِلَ قِوّامَ كُلِّ مَائِل وَقَصْدَ كلِّ جَائِرٍ وَصَلاَحَ كُلِّ فَاسِد وَقُوَّةَ كُلِّ ضَعِيْف وَنَصَفَةَ كُلِّ مَظْلُوم ومَفْزَعَ كُلِّ مَلْهُوف وَالإِمَامُ العَادِل يَا أَمِيْرَ المُؤْمنِيْنَ كَالرَّاعِي الشَّفِيق عَلى إِبِلِهِ الرَّفِيْق بِهَا الَّذيْ يَرْتَادُ لَهَا أَطْيَبَ المَرْعَىٰ وَيَذُودُهَا عَنْ مَرَاتِعِ الهَلَكَةِ وَيَحْمِيْهَا عَنِ السِّبَاع وَيُكِنها عَنْ أَذَى الحَرِّ والقَر .

والإِمَامُ العَادِل كَالأَب الحاني عَلَى وَلَدِهِ يَسْعَى لَهُمْ صِغَاراً وَيُعَلِّمُهُمْ كِبَاراً يَكْتَسِبُ لَهُمْ في حَيَاته وَيَدّخِرُ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاته .

والإِمَامُ العَادِلُ كَالأُمِّ الشَّفِيْقَةُ البَرَّةِ الرَّقِيْقَة بوَلَدِهَا حَمَلَتْهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ

كُرْهاً وَرَبَّتْهُ طِفْلاً تَسْهَرُ بِسَهَرِهِ وَتَسْكُنُ بِسُكُونِهِ تُرْضِعُهُ تَارَةً وَتَفْطِمُهُ أُخْرَى وَتَفْرَحُ بِعَافِيَتِهِ وَتَغْتَمُّ بِشِكَايَتِهِ .

وَالإِمَامُ العَادِلُ وَصِيُّ اليَتَامَىٰ وَخَازِنُ المَسَاكِيْنِ يُرَبِّي صَغِيْرَهُمْ وَيَمُونُ كَبِيْرَهُمْ والإِمَامُ العَادِلُ كَالْقَلْبِ بَيْنَ الجَوارِحِ تَصْلُحُ الجَوَارِحُ بِصَلاَحِهِ وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ والإِمَامُ العَادِلُ هُوَ القَائِمُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يَسْمَعُ كَلاَمَ اللَّهِ وَيُسْمِعُهُمْ وَيَنْظُر إلى اللَّهِ وَيُرِيهِمْ وَيَنْقَادُ إلى اللَّهِ وَيَقُودُهُمْ فَلاَ تَكُنْ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فِيْمَا مَلَّكَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَل كَعَبْدٍ إِئْتَمَنَهُ سَيِّدُهُ وَاسْتَحْفَظَهُ مَالَهُ وَعِيَالَه فَبَدَّدَ المَالَ وَشَرَّدَ العِيَال فَأَفْقَرَ أَهْلَهُ وَفَرَّقَ مَاله .

وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الحُدُوْدَ لِيَزْجُرَ بِهَا عَنِ الخَبَائِث وَالفَوَاحِش فَكَيْفَ إِذَا أَتَاهَا مَنْ يَلِيْهَا وَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ القِصَاصَ حَيَاةً لِعِبَادِهِ فَكَيْفَ إِذَا قَتَلَهُمْ مَنْ يَقْتَصُّ لَهُمْ وَاذْكُر المَوْتَ وَمَا بَعْدَه وَقِلَّةَ أَشْيَاعِك عِنْدَه وَأَنْصَارِكَ عَلَيْهِ فَتَزَوَّدْ لَهُ وَلِمَا بَعْدَهُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَنْزِلاً غَيْرَ مَنْزِلِكَ الَّذي أَنْتَ فِيْهِ يَطُولُ فِيْهِ ثَوَاؤُكَ وَيُفَارِقُكَ أَحِبَّاؤُكَ يُسْلِمُوْنَكَ فِي قَعْرِهِ وَحِيْداً فَرِيْدَاً فَتَزَوَّدْ لَهُ مَا يَصْحَبُكَ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْهِ وَاذْكُرْ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُور وَحُصِّلَ مَا الصُّدُور فالأَسْرَارُ ظَاهِرَة والكِتابُ لاَ يُغَادِرُ صَغِيْرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا .

فالآنَ وَأَنْتَ فِي مَهلٍ قَبْلَ حُلُولِ الأَجَل وانْقِطَاعِ الأَمَل لاَ تَحْكُمُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الجَاهِلِيْنَ وَلاَ تَسْلُكْ بِهِمْ سَبِيْلَ الظَّالِمِيْنَ وَلاَ تُسَلّطْ المُسْتَكْبِرِيْنَ عَلى المُسْتَضْعِفِيْنَ فَإِنَّهُمْ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً فَتَبُوءَ بِأَوْزَارِكَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكَ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالك .

وَلاَ يَغُرَّنَّكَ الَّذِيْنَ يَتَنَعَّمُونَ فِي بُؤسِك وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ فِي دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَاب طَيِّبَاتِكَ فِي آخِرَتِك ولاَتَنْظُرْ إلى قُدْرَتِكَ اليَوْمَ وَلَكِنْ انْظُرْ إلى قُدْرَتِكَ

غَداً وَأَنْتَ مَأْسُورٌ في حَبَائِلِ المَوْتِ وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدي اللّه في مَجْمَعٍ مِنَ المَلائِكَةِ وَالنَّبيين والمُرسَلِيْنَ وَقَدْ عَنَتِ الوُجوهُ للْحيِّ القَيُّوم الذي لا تأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَانَوم .

شِعْرَاً : زِدْنَا عليه ما بين الأقواس .

سَلِ المَنَايَا عَلى عِلْمٍ وَتَجْرُبَةٍ في أي شَيءٍ بَغَى الإنْسَانُ أَوْحَسَدَا
تَنَافس النَّاسُ في الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمُوْا أَنْ سَوْفَ تَقْتُلَهُم لَذَّاتُهَا بُدَدَا
تَبَادَرُوهَا وَقَدْ آذَتْهُم فَشَلاً وَكَاثَرُوهَا وَقَدْ أَفْنَتْهُمُ عَدَدَا
قُلْ لِلْمُحَدِّثِ عَنْ لُقْمَانَ أَوْ لِبَدٍ لَمْ يَتْرُكِ الدّهْرُ لُقْمَاناً وَلَا لِبَدَا
« وَلَمْ يُغَادِرْ عَمَارَاتٍ وَلَا قُلَلاً وَلَا قُصوراً بِهَا المَغْرُورُ مُسْتَنِدَا »
« وَلَا بَسَاتِيْنَ فِي الأَشْجَارِ زَاهِيَةً وَسَاهِرُ المَاءِ في الأَنْهَارِ مُطَّرِدَا »
« وَلَا جَبَاناً يَخَافُ المَوْتَ ذَا قَلَقٍ وَلَا شُجَاعاً يَهْزِمُ الْجَمْعَ مُنْفَرِدَا »
« وَلَا كَرِيْماً تُبِيْدُ المَالَ رَاحَتُهُ وَلَا بَخِيْلاً إِذَا اسْتَمْنَحْتَهُ شَرَدَا »

اللَّهُمَّ احْفَظْنَا مِن المُخَالَفَةِ وَالعِصْيَانِ وَلا تُؤخِذْنَا بِجَرائِمَنَا وَمَا وَقَعَ مِنَّا مِن الخَطأ وَالنِّسْيَانِ وَاغفِر لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــــــلٌ)

كتب سفيانَ الثوريّ إلى أخٍ له في الله يقول له : « أما بعدُ : عافانا الله وإيّاكَ مِن النّار برحمتِه ، أوصِيْكَ وإيّايَ بتَقْوى الله .

وأحَذِّرُكَ أن تَجْهَلَ بعد إذْ عَلِمْتَ ، فتهلكَ بعدَ إذْ أبصرتَ ، وتَدَعَ الطريقَ بعد إذْ وَضَحَ لَكَ ، وتَغتَرَّ بأهلِ الدنيا بِطَلَبِهم لَهَا ، وحِرْصِهِم عليها وإكثارِهِم منها .

فإنَّ الهَولَ شديدُ ، والطّريقَ بَعِيْدٌ ، والمَناقِشَ عَتيدٌ ، والخطرَ عَظِيمٌ ، والوَقتَ قَريبٌ ، وكأنْ قَدْ كانَ .

فَتفَرَّغْ وفَرِّغْ قلبَك ، ثم الجِدَّ الجِدَّ ، والوَحَاةَ الوَحَاءَ ، والهَربَ الهربَ ، وارْتَحِلْ إلى الآخرةِ مِن قَبلِ أَنْ يُرْتَحَلَ بكَ ، .

واسْتَقْبِلْ رُسُلَ ربِّكَ ، واشْدُدْ مِئْزَرَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَى قَضاؤُكَ ، ويُحَالَ بينَكَ وبَيْنَ ما تُريد ، فقد وَعَظْتُكَ بما وَعَظْتُ بِهِ نَفْسِي ، والتوفيقُ مِن الله .

ومِفْتَاحُ التوفيقِ التَّضرُّعُ والاستكانةُ والندامةُ على ما فَرَّطتَ ، ولا تُضَيِّعْ حَظَّكَ مِن هذِه الأيامِ والليالي التي هي مَتْجَرُ الزُهّاد ، ومَكْسَبُ العُبّاد .

ثم إيّاكَ وما يُفسِدُ عليكَ عَمَلَكَ وهو الرِياءُ ، فإنْ لم يَكُنْ رياءٌ فإعجابُك بنفسك .

وإيَّاكَ أن تُحِبَّ مَحامِدَ النّاسِ أو تُحِبَّ أن يُكْرِمُوكَ بعَمَلِكَ .

ويَرونَ لَكَ فَضِيْلَةً وشَرَفاً ومَنْزِلَةً في صُدُوْرِهِم ، أوْ حَاجَةً تَطْلُبُها إليهم في أمرٍ مِن الأُمُورِ .

فإنَّكَ زَعَمْتَ أنَّكَ تُرِيْدُ بِعَمَلِكَ وَجْهَ الله والدارِ الآخِرَةَ ولا تُريدُ به غيرَه .

وَعَلَيكَ بِكَثْرةِ ذِكرِ المَوتِ ، فَكَفَى بِطُولِ الأمَلِ قِلَّةُ الخَوف ، وجُرأةٌ على المَعاصِي ، وكَفَى بالحَسْرَةِ والنَّدامَةِ يَومَ القِيامَةِ أنَّكَ لم تعلم ولم تَعْمَلْ بعِلْمِكَ .

واطلب العِلْمَ لِتَعمَلَ بِهِ ، ولا تَطْلُبْه لِتُباهِيَ به العُلَماء ، أو لِتُماريْ به السُفَهَاءَ ، أَوْ تأكُلَ به الأَغْنِيَاءَ .

أَوْ تَسْتَخْدِمَ بِهِ الفُقَرَاءَ ، أَوْ تَصْرِفَ به وُجُوهَ النّاسِ إليكَ ، فإنَّ لَكَ مِن عِلمِكَ ما عَمِلْتَ بِهِ ، وعَلَيكَ ما ضَيَّعْتَ منه .

فكلُّ مَن طَلَبَ الخيرَ صارَ غَرِيباً في زَمانِهِ ، فلا تَسْتَوحِشْ واسْتَقِمْ على سَبِيْلِ رَبِّكَ .

واشْتَغِلْ بِذِكْرِ عُيوبِ نَفْسِك عن ذِكرِ عُيوُبِ غَيرِكَ ، واحْزَنْ على مَا مَضَى من عُمرِكَ في غيرِ طَلَبِ آخرتِكَ .

وأكْثِر مِن البُكَاءِ على مَا أَوقَرْتَ ظَهْرَكَ ، لَعلَّك تَخلُصُ منها ولاَ تُمْسِكْ عن الخيرِ وأهلِهِ ، ولا تَتَبَاعَدْ عنهم .

وتَبَاعَدْ مِن الجُهّالِ وباطِلِهِم مهما استطعت ، فإنَّه لا يَنْجو من جاوَرهم إلا مَنْ عصمَ الله .

وقال رحمه الله وإنْ أَرَدْتَ اللِّحَاقَ بالصالِحين فاعملْ عَملَهُم ، واحْذُ سِيرَتَهُم ، واكْتَفِ بِما رُزِقْتَ مِن الدُّنْيَا .

ولا تَنْسَ مَن لا يَنْسَاكَ ، ولا تَغْفَلْ عمّن وُكّلَ بِكَ ، يُحصِي أَثَرَكَ ، ويَكْتُبُ عَمَلَكَ .

وَرَاقِبِ الله في سِرِّكَ وعَلانيتِكَ ، فهو رَقيب عَلَيكَ ، واسْتَحي مِمَّنْ هُوَ مَعَكَ ، وأَقْرَبُ إليكَ مِن حَبْلِ الوريد .

واعْتَرِفْ بفَاقَةِ نَفْسِكَ وارْحمهَا وأَكْثِرْ مِن البُكَاءِ عَلَيهَا . ولا تَغْبطْ أهلَ الشَّهواتِ بشَهواتِهِم ولا أَهْلَ النِّعمِ بنِعَمهم .

فإنَّ وَراءَهُم يوماً تُزَلْزَلُ فِيهِ الأَقْدَامُ ، وتُرعدُ فيه الأَجْسَامُ ، وتَتَضَاعَفُ فيه الآلَامُ ، وتَتَزايَدُ فيه الأسقامُ .

ويَطُولُ فيه القِيامُ ، ويَشْتَدُّ فيه الحسابُ ، ويُشْفَقُ فيه مِن العذاب ،

وتَطِيرُ فيه القُلُوبُ حتى تَبلُغَ الحَنَاجِرَ ، فيا لَهَا مِن نَدامَةٍ على مَا أَصَابُوا مِن هَذَه الشهوات .

واجْعَلْ كَسْبَكَ فيما يكونُ لَكَ ولا تَجْعَلْه فِيمَا يَكُونُ عَلَيك ، واجْتَنِبْ الحرامَ ولا تَجلِسْ مَعَ مَنْ يَكْسِبُه .

وإيَّاكَ والظّلمَ ، أَوَ تكُونَ عَوْناً لِلْظَالِمِ أو تَصْحَبَهُ أو تُؤاكِلُه ، أو تَبَسَّمَ في وَجْهِهِ ، أو تَنَالَ منه شَيئاً فتكونَ عَوْناً لَهُ ، والعَوْنُ شَرِيْكٌ ، ولا تُخَالِفْ أَهْلَ التَّقوى ، ولا تُطِعْ أَهلَ الخَطَايا .

ولا تُجَالِسْ أهلَ المَعَاصِي ، واجتنب المحارِمَ . وعَليكَ بالتَّوْبَةِ ، وجَدِّدْهَا في كُلِّ يَومٍ ، بَلْ في كُلِّ سَاعةٍ ، فإنَّ لِكُلِّ ذنبٍ توبةٌ ، وتَرْكُ الذنبِ أيْسَرُ مِن طَلَبِ التوبة .

ولا تَتَهاوَنْ بالذنبِ الصغيرِ ، ولكنْ انظرْ مَن عَصيْتَ ، عَصِيْتَ رَبّاً عَظِيْماً ، يُعَاقِبُ على الصَّغِيرِ ، ويَعفُو عن الكبيرِ إنْ شاءَ .

فإنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام حَذَّرَ نَفسه مَعَ قُربِهِ وخُلَّتِهِ ، وعُلوِّ مَنزِلَتِهِ ، فَسَأَلَ ربَّهُ فقال : ﴿ واجْنُبْني وبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ .

وقالَ يُوسفُ الصديقُ عليه السَلام مَعَ عِصْمَتِهِ ونُبوتِه : ﴿ توفَّني مُسْلِماً وأَلْحِقْنِي بالصَّالحين ﴾ .

وقال موسى عليه السَّلام : ﴿ ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلنْ أكونَ ظَهِيراً للمُجْرمين ﴾ .

وقالَ شُعَيْبٌ عليه السلام : ﴿ وما يكونُ لنا أن نعودِ فيها إلا أنْ يَشَاءَ رَبُّنَا ﴾ .

فهؤلآء الأنبياءُ المقرَّبُون المُجْتَبَوْن المخصُوصُونَ بالنُبوّة والرِسالةِ وعُلوِّ المنزلةِ خافوا على أنفسِهم ، وتَضَرَّعُوا إلى مَالِكِهِمْ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فَصْـــلُ)

وقـال رحمـه الله واعلم يا أخي أنَّ الله لا يقبـلُ نافلةً حتى تُؤدّي الفريضةُ ، وأنَّ لِلَّهِ حقاً بالليل لا يَقبلُه بالنهار .

وحقّـاً بالنهـارِ لا يَقبلُه باللّيل ، وأنـه يُحاسِبُ العبـدَ يومَ القيامـةِ بالفرائض ، فإنْ جاءَ بها تامةً قُبلَتْ فرائضهُ ونوافلُه .

وإنْ لم يُؤدِّها تامةً وأضاعَها أُلحقتِ النوافُل بالفرائض ؛ فإنْ شاءَ غَفَر لَهُ وإنْ شاءَ عذَّبَهُ .

وعَلَيكَ بتقوى الله عَزَّ وجَلَّ ، ولِسَانٍ صَادِقٍ ونِيّةٍ خَالِصةٍ ، وأعمال صَالِحةٍ ، ليس فيها غِشٌ ولا خُدْعَةً .

فإنَّ الله يَراكَ وإنْ لم تكنْ تَراهُ ، فلا تُخادع الله يَخْدَعُكَ ، وأصلحْ سَرِيْرَتكَ وَعَلانِيَتَك ، وأحْسِنْ فيما بَينَكَ وبينَ الله يُحْسِن ما بَينَكَ وبَيْنَ الناس .

واعمـلْ لآخِـرَتَكَ يَكْفِيْكَ أَمْرَ دُنْيَاكَ ، وبعْ دُنْيَاكَ بآخِرَتِكَ تَرْبَحْهُما جَمِيْعاً ، ولا تَبعْ آخِرَتَكَ بدُنْيَاكَ فَتَخسَرْهُمَا جَمِيْعاً .

وإيّاكَ ومُجَـالَسـةَ أهـلِ الجَفَاء ، ولاَ تَصْحَبْ إلا مُؤْمِناً ، ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاّ تَقِيٌّ ، ولا تُصَاحِبْ الفَاجِرَ ولا تُجالسْهُ .

وإيَّاكَ وأبـوابَ الملوكِ وأبـوابَ مَنْ يَأتي أَبْـوَابَهُم وأبـوابَ مَنْ يَهْوَى هَوَاهُم ، فإنَّ مَعَهُمْ مِثْلَ فِتَنِ الدَّجّال .

وكُنْ مَبْذُولاً بمالِكَ ونَفْسِكَ لإِخوانِكَ ، وعليكَ بالكسبِ الطَّيبِ ، وما تَكْسِبُ بيَدَيْكَ ، وإيَّاكَ وأوساخَ النَّاس أنْ تأكلَه أو تلبسَه .

فإنَّ الـذي يأكُـلُ أوسـاخَ النّـاسِ فهو يَتَكَلّمُ مَعَهُم بِذلّةٍ وتَواضُعٍ

وهَوَى ، ويَتَواضَعُ لهم مخافةَ أنْ يَمنعُوه .

ويا أخي ! مَتى تَنـاوَلْتَ مِن النَّاس شيئاً قَطَعْتَ لِسَانَكَ ، وأكْرَمْتَ بعضَ النـاس وأهنتَ بعضَهم مَعَ ما يَنْـزِلُ بِكَ يومَ القيامـةِ ، فإنَّ الذي يُعطِيكَ مِن مَالِهِ فإنما هُوَ وَسَخُه .

وتَفْسِـيرُ وَسَخِـهِ : تَطْهيرُ عَمَلِهِ مِن الذُّنُوب ، فإنْ أنتَ تَنَاولتَ مِن النَّاسِ شيئاً فلا تأمنْ إنْ دَعَوكَ إلى مُنْكرٍ أجبْتَهم .

وإنَّ الذي يأكُلُ أوسـاخَ الناسِ كالرجلِ لَهُ شُـركاءُ في شيءٍ يَنبَغِي لَهُ أنْ يُقَاسِمَهم ، يا أَخِي جُوْعٌ وقَليلٌ مِن العِبادة خَيرٌ مِن أن تَشْبَعَ مِن أوساخِ النَّاسِ وكثيرٌ مِن العِبادةِ .

فَقَـدْ بَلَغْنَـا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « لَو أنَّ أحدَكم أخذَ حَبْلاً ثـمَّ احْتَطَبَ حتَّى يُدْبِرَ ظَهْرُه ، كانَ خيراً له مِن أن يَقُومَ على ظَهْرِ أخيهِ فَيسأَلُه أو يَرجُوه » .

وبَلَغَنَـا أن عمـرَ بنَ الخـطابِ رضي الله عنه قال : مَنْ عَمِلَ مِنكم حَمِدنَاهُ ، ومَن لَم يَعْمَلْ اتَّهَمنَاهُ .

وقال : يا مَعْشَرَ القُرَّا ! أرْفَعُوا رُؤُسَكم ، لا تَزيدُوا الخشوعَ على ما في القَلْبِ ، اسْتَبِقُوا في الخيراتِ ، ولا تكونُوا عِيَالاً على النَّاسِ فقد وَضَحَ الطريقُ .

وقال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه : إنَّ الذي يَعيشُ مِن أيدِي النَّاس كالذي يَغْرِسُ شَجَرَةً في أرضِ غيرِهِ .

فاتق الله يا أخِي ، فإنّه مَانَالَ أحدٌ مِن النَّاسِ شيئاً إلا صَارَ حَقيراً ذليلاً عندَ النَّاس ، والمؤمنون شُهودُ الله في الأَرضِ .

وإيَّاكَ أن تَكْسِبَ خَبيْثاً فَتُنْفِقَهُ في طاعةِ الله ، فإنَّ تَرْكَهُ والله فَريضةٌ واجبة ، وإنَّ الله عزَّ وجَلَّ لا يَقْبلُ إلا الطَّيِّبَ .

أَرَأيْتَ رَجُلاً أَصابَ ثوبَه بَوْلٌ ثم أرادَ أنْ يطهِّرَهُ فغسَله ببَولٍ آخَرَ ، أَتُرى كانَ ذلك يُطَهِّرُه ؟

إنَّ البولَ لا يُطَهِّرُ إلا بطاهرٍ طيّبٍ ، فكذلك لا تُمْحَى سيئة بسيئةٍ ، ولاتُمْحَى إلا بحَسَنةٍ .

وعليكَ بالصِّدقِ في المواطِن كُلِّهَا ، وإيَّاكَ والكذبَ والخيانة ، وإيَّاكَ والرِيَاءَ في القَولِ والعَملِ فإنَّه الشركُ بعَينِه .

وإيَّاكَ والعُجْبَ فإنَّ العملَ لا يُرفَعُ وفيه عُجْبٌ ، ولا تأخذْ إلاّ مِمَّنْ هُو مُشْفِقٌ على دِينِهِ .

فإن مَثَلَ الذي هُوَ غيرُ مُشْفِقٍ على دِينِهِ كَمَثَلِ طَبِيْبٍ بِهِ دَاءٌ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يُعَالِجَ دَاءَ نَفسِه ، ولا يَنْصَحُ لِنفسِهِ ، ولا يَتَجَنَّبُ ما يَضُرُّ مَرَضَه ويَحْمِيْها مِنه .

فَكَيْفَ يَصْلَحُ أن يُعالِجَ دَاءَ النَّاسِ وَيَنْصَحُ لَهم ؟! فهذا الذي لا يُشْفِقُ على دِيْنِهِ ، كيفَ يُشْفِقُ على دِيْنِكَ ؟!

ويا أخِي ! إنما دينُكَ لحمُكَ ودَمُكَ ، فابكِ على نفسِكَ وَارْحَمْهَا ، فإن أنتَ لم تَرْحَمْهَا لم تُرحَمْ . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فَصْـــــلٌ)

وقـال رحمـه الله ولْيَكُنْ جَليسُكَ مَنْ يُزهِـدُكَ في الدنيا ويُرَغِّبُكَ في الآخرةِ ، وإيَّاكَ ومجالسة أهل الدنيا الذينَ يَخوضُونَ في حديثِ الدنيا ، فإنَّهم يُفْسِدُونَ عَليكَ دِيْنَكَ وقَلْبَكَ . وأكْثِرْ ذِكْرَ الموتِ .

وأكثِر الاستغفـارَ ممَّا قَدْ سَلَفَ مِن ذُنُـوبِـكَ ، وَسَـلِ الله السَّلامةَ والعصمةَ لِمَا قَدْ بَقِيَ مِن عُمُرِكَ . ثم أخِي عَليكَ بأدبٍ حَسَنٍ ، وخُلُقٍ حَسَنٍ .

ولا تُخَالِفَنَّ الجماعة إذا كانوا على السُّنَةِ ، فإنَّ الخيرَ فيها . وانصحْ لِكُلِّ مُؤمنٍ إذا سَألَكَ في أمْرِ دِينِه .

ولاَ تَكْتُمنَّ أَحَـدَاً مِن النصيحةِ شيئاً إذا شَاوَرَكَ فيما كان لله رِضاً ، وإيَّاك أن تَخُونَ مُؤْمِناً ؛ فَمنْ خَانَ مُؤمِناً فَقَدْ خَانَ الله ورَسولهَ .

وإذَا أحْبَبْتَ أخـاكَ في الله فابْـذِلْ لَهُ نَفسَـكَ ومَـالَـكَ . وإيَّاكَ والخصوماتِ والجدالِ والمِرَاءَ ، فإنَّك تصيرُ ظلوماً خَوَّاناً أثيماً .

وعليك بالصبرِ في المواطن كلِّها ، فإنَّ الصبرَ يَجُرُّ إلى البرِّ ، والبرُّ يَجر إلى الجنّةِ .

وإيَّاكَ والحِدَّةَ والغضب ؛ فانهما يَجُرَّانِ إلى الفُجُورِ ، والفُجُورُ يَجُرُّ إلى النَّارِ .

ولا تُمارِيَنَّ عَالِمـاً فَيَمْقُتَـكَ ، وإن الاخْتـلِافَ إلى العُلَماءِ رَحْمَـةٌ ، والانقطاعَ عنهم سَخَطُ الرحمن .

فإنهم خُزَّانُ الأنبياء وأَصحَـابُ مَوَارِيثهم ، وأُمَنَاءُ الله وهُداةُ الدِين « يُريد العلماء المتبعون للكتاب والسنة والمطبقون لهما في الأقوال والأفعال » .

لا مَن يُسَموْنَ عُلماء ولَيْسَ بعُلَمَاء لا يُرَى عليهم آثَارَ العِلم فهؤلآء يجب الابتعاد عنهم والتحذير منهم نسأل الله السلامة والعِصْمَة .

وعليكَ بالزهد يُبَصِّرْكَ عَوْرَاتِ الدُنْيَا ، وعَلَيكَ بالوَرَعِ يُخَفِّفُ الله حِسَابَكَ .

ودَعْ كَثيراً مِمَّا يريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ تكُنْ سَالماً ، وادْفَعْ الشَّكَ باليَقِين يَسْلَمْ لكَ دِيْنُكَ .

وأْمـرْ بالَمعـروفِ ، وانـهَ عن الُمنكـرِ تَكُنْ حَبِيْبَ الله ، وأَقِلَّ الفَرَحَ والضَحِكَ تَزْدَدْ قُوَّةً عندَ الله ، واعْمَلْ لآخِرَتِكَ يَكْفِكَ الله أمْرَ دُنْيَاكَ .

وإذا أردتَ أَمْراً مِن أُمُورِ الدنيا فَعَليكَ بالتَّوأُدَةِ ؛ فإنْ رأيتَه مُوافِقاً لآخِرتكَ فَخذْهُ ، وإلا فَقِفْ عنه ، وسلَ الله العافية وحُسْنَ العَاقِبَةِ .

وإذا هَمَمْتَ بأمرٍ من أمور الآخرة فشمِّرْ إليها مُسْرِعاً مِن قَبْلِ أن يَحُولَ بينَكَ وبينَهَا الشيطان .

ولا تَكـونَنَّ أَكُولاً ، ولا تأكلنَّ بغيرِ شَهْوةٍ ، ولا بغَيرِ نِيَّةٍ ، ولا عَلَى شِبَعٍ ؛ فَيَقْسُو قَلْبُكَ . وإيَّاكَ والطمعَ فيما في أيدِي النَّاسِ ، فإنَّ الطَمَعَ هَلاكُ الدِين .

وإيَّاكَ والحِرصَ على الدنيا ، فإن الحِرصَ يَفْضَحُ يومَ القِيامةِ . وكُنْ طَاهِرَ القلب نَقِيَّ الجسدِ من الذُنُوبِ والخَطَايَا .

نَقِيّ اليَدينِ مِن المـظالِمِ ، سَلِيمَ القلبِ مِن الغِشِّ والمكرِ والخِيَانَةِ ، خَالِيَ البَطْنِ مِن الحرامِ ، فأنَّه لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لحمٌ نَبتَ مِن سُحْتٍ .

وكُفَّ بَصرَكَ عن عَوْراتِ النَّاسِ ، ولا تَمشِينَ إلى غَيرِ حَاجَةٍ ، ولا تَكَلَّمنَّ بغَيرِ حِكْمَةٍ .

وإيَّاكَ ثُم إيَّاكَ أن تَلِيَ نَفْسَكَ مِن الأمَانةِ شيئاً ، وقد سمَّاكَ الله ظَلوماً جهولاً ، وأقِلِ العَثْرةَ ، وأَقِلَّ الاعتذارَ ، واغفرْ ذنبَ مَن يُرجَى خَيْرُهُ ويُؤْمَنُ شرُّه .

ولا تُبْغِضْ أحَداً يُطِيعُ الله ورسولَهُ ، ولا تَقْطَعْ رَحِمَك ، وصِلْ مَن قَطَعَك ، وصِلْ رَحِمَكَ وإنْ قَطَعَتْكَ .

وتَجـاوَزْ عَمَّنْ ظَلَمَـكَ تَكُنْ رَفيقَ الأَنبياءِ والشهـداءِ ، وأَقِـلَّ دُخُولَ السوقِ ، فإنَّ أهلَهُ ذِئابٍ عليهم ثِيَابٌ ، وفي السُوقِ مَرَدَةُ الشياطينِ مِن الجنِّ والإنسِ .

وإذا دَخَلتَها فقلْ : أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمدُ يُحيي ويُميتُ ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كلِّ

شيءٍ قدير ، اللهم صلّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ وأصحابه أجمعين .

فقد بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال : يُكتبُ لقَائِلَها بعدَدَ مَنْ في السُوق مِن أَعْجَمِي أو فَصِيْحٍ عَشْرُ حَسَناتٍ . وإيَّاكَ أنْ تُفارِقَ الدَّسَمَ ؛ فإنَّه أتمُّ لِعَقْلِكَ ، ولا تَمنَعنَّ نفسَك مِن الحَلاوَةِ إنْ قَدِرْتَ ؛ فإنَّه يَزِيْدُ في الحِلْمِ ، وعَلَيْكَ باللّحم إنْ وَجَدْتَهُ ، ولا تَدُمْ عَلَيه ولا تَدَعهُ أربعين يَوْماً فَيَسوء خُلُقُكَ ، ولا تَردَّ الطِّيبَ ؛ فإنَّه يَزِيْدُ الدِّمَاغَ قُوةً .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فَصْــــلٌ)

وقال رحمه الله وعليكَ باللِّباسَ الخشنِ تَجِدْ حلاوةَ الإيمان ، وعليكَ بالصَّوْم يَسُدُّ بابَ الفُجور ، ويَفْتَحْ عليكَ بابَ العِبادة ، وعليك بقلَّةِ الكلامِ يَلِنْ قَلْبُكَ . قُلْتُ إلاَّ بذكر الله وما ولاه .

وعليكَ بطُولِ الصمتِ تملكْ الوَرَعَ ، « أي إلاَّ ما فيه نفع أخْرَوِي أو ما هو وسيلة إليه » ولا تكنْ طعَّاناً ولا مُغتاباً تسلمْ من أَلْسُنِ النَّاس .

وكنْ رحيماً تكنْ محبَّباً إلى النَّاس ، وارضَ بما قسمَ الله لك تكنْ غنيّاً ، وتوكّل على الله تكنْ قويّاً ، وكنْ مُتواضِعاً تستكملْ أعمالَ البِّر .

وكنْ عفوّاً تظفَر بحاجتِك ، وكنْ رحيماً يُتَرَحَّم عليكَ ، وعليك بالسَّخاء فإنه يَسْتُر العوارتِ .

وعليكَ بكثرةِ المعروف يُؤنِسْكَ الله في قَبرِكَ واجتنبْ المحارِمَ كلَّها تَجِدْ حَلَاوةَ الإِيْمان .

وأحِبَّ أهلَ الجنّةِ تكنْ معهم يومَ القيامة وابغضْ أهلَ المعاصي يُحِبُّكَ اللَّهُ والمؤمنون .

واحْرصْ يا أخِي ! أن يَكُونَ أوَّلُ أمرِك وآخرُه على تقوى الله في السرِّ والعلانيةِ .

واخشَ الله خشية مَن عَلِمَ أنه مَيِّتٌ ومَبْعُوثٌ ومَحْشُورٌ ومَوْقوفٌ بينَ يَديْ الجَبّارِ .

ثم المصيرُ إلى أحدِ الدارينْ ؛ إمَّا إلى جنَّةٍ ناعمةٍ خالدةٍ ، أو إلى نارٍ حاميةٍ مؤبّدَةٍ دائمةٍ .

وجالس الفقراء ، واصحبِ المساكينَ ، وأرضَ بعيشتهم ، وتأسَّ بفقيرهم ، واصْبر على مُضطَرِّهم .

وكنْ راضياً عن الله بما قسم ، وداخلاً تحتَ ما حكَم ، ساهِراً في جُنحِ الظُّلَمِ . إنْتَهَى .

قال يحيى بن أكثم كنتُ أرى شيخاً يَدخُل على المأمون وكان يَخْلُو به خلوةً طويلةً ثم ينصرفُ فلا نسمع له خَبَرًا فلما تُوفي .

قال لنا المأمونُ وَاأسَفَا على فقد صَديقٍ مَسْكُونٍ إليه مَوْثوقٌ به وتُقْتَبَسُ منه الفَوائدُ وَالغُرَر قُلْنَا .

ومَن ذاكَ يا أميرِ المؤمنين قال أما كُنتَ تَرى شيخا يأتِينَا ونَخْلُوا به مِن دونَ الناس قُلْتُ بَلَى قالَ قد تأخر عن إبانِهِ وأظن أنه قَدْ ماتَ .

قُلْتُ وما في ذلكَ قال كان صَديقي بخرسان وكُنْتُ أسْتَرِيحُ إليه اسْتِرَاحَةَ المكْرُوب وأجد به ما يوجد بالولد السارَ المحبوب ولقد استمد منه رَأياً أقوم به أوَدَ المملكة وأصل به إلى رضا الله في سِيَاسَة الرعية .

وآخر ما قال لي عِنْدَ وداعِهِ إذا اسْتَشَنَّ ما بينك وبَيْنَ الله فابْلُلْهُ قُلْتُ بماذا يَا صَاحِبَ الخَيْرِ قال بالاقتداء به في الاحسان إلى عباده فإنه يحب الاحسان مِن عباده إلى عباده كما تحب الاحسان إلى ولدك من حَاشِيَتِكَ .

والله ما أعطاك القُدْرَةَ عليهم إلا لتصير على إحسانك إليهم بالشكر على حَسَنَاتِهِم والتَّغَمُّدَ لسيآتهم وأي شيء أوجه لَكَ عند ربك من أن يكونَ

أمامك عدل وإنصاف وإحسان واسْعَافٌ ورأفة ورحمة مَن لي بمثل هذا القائِل وُاني لي بمن يذكرني ما أنا إليه صائر .

أَلَا إنمـا الـدُّنيـا مَتَـاعُ غُـرورِ ... ودارُ بَـلاءٍ مُـؤذنٍ بثُبُـور
ودَارُ مُلِمَّـاتٍ ودارُ فَجَـائِـعٍ ... ودارُ فَنـاً فـي ظُلْمَـةٍ وبُحُـورِ
ودارُ خَيَالٍ مِن شُكُوكٍ وحَيْرةٍ ... ودَارُ صُعُـودٍ في الهوى وحُدُورِ
وإنَّ إمـرأ لم يَنْـجُ فيها بنفْسِـهِ ... على مَا يَـرى فيها لَغَـيرُ صَبُـورِ
ولا بُدَّ مـن يَـومَـين يَوم بَليَّةٍ ... إرادةُ جَبَّـارٍ ويَـوم نُشُـورِ
كأَنِّي بيَـوم مـا أخَـذْتُ تَأَهُّبـاً ... لِـرَبِّي رَوَاحِـي مَـرةً وبُكُـوري
كَفَى حَسْرةً أن الحوادث لم تزَلْ ... تُصَـيِّرُ أهْلَ المُلْكِ أهْـلَ قُبُـور
ألا رُبَّ أبناءِ اتِّسَـاعٍ وفَرْحَـةٍ ... وزَهْـرَةِ عَيْشٍ مُونـقٍ وحُبُـورِ
وأَبْنَاءِ لَذَّاتٍ وظِـلٍّ مَصَـانِعٍ ... وظِـلِّ مَقَـاصِير وظِـلِّ قُصُـور
نَظَرتُ إليهم في بُيوتٍ من الثَّرَى ... مُسَـتَّرَةٍ مِن رَضْرَضٍ بسُتورِ
وكَم صُوَرٍ تَحتَ التُراب مُقيْمَةٍ ... عَـلَى غير أبْشَـارٍ وغَيرِ شُـعُورِ
ثَوَتْ في سَرَابِيْلٍ عليها مِن الحَصى ... ومِنْ لَخَفٍ مِن جَنْدَلٍ وصُخُورِ
إذا مـا مَـرَرْنَـا بالقُبـورِ لِحَـاجَـةٍ ... مَـرَرْنَـا بـدُوْرٍ هُـنَّ أَجْمَـلُ دُوْرِ
ألا رب جبَّـارٍ بِهَـا مُتَكَـبرِ ... ويَـا رُبَّ مُخْتَـالٍ بها وفَخُـورِ
خليْليَّ كَمْ مِن مَيِّتٍ قد حَضَرْتُهُ ... ولكِنَّني لـم أَنْتَفِـعْ بحُضُـوري
وكَمْ مِن خُطُوبٍ قد طَوتْني كَثيَرَةٍ ... وكَمْ مِن أمُـورٍ قَدْ جَرَتْ وأُمُـورِ
وكَمْ مِن لَيالٍ قد أرَتْني عَجَائِباً ... لهُـنّ وأيَّـامٍ خَـلَتْ وشُهُـورِ
ومَن لَم تَزِدْهُ السِّنُ ما عَاشَ عِبْرةً ... فَذَاكَ الذِي لا يَسْتَضِيء بنُـورِ
مَتَى دَامَ في الدُّنيا سُرُوْرٌ لأهلِها ... فأَصْبَحَ فِيهـا واثِقـاً بسُـرُوْرِ ؟

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا بَدِيْعَ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ نَسْأَلُكَ أَنْ تُوفِّقَنَا لِمَا

فِيهِ صَلاَحُ دِيْنِنَـا وَدُنْيَانَـا وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَـا وَأَكْـرِمْ مَثْوَانَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــــلٌ)

فِي مَـآلِ الإِنْسَانِ وَمَصِيْرِهِ

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : بَيْنَمَا الإِنْسَانُ فِي صِحَّتِهِ مُتَمَتِّعاً فَرِحاً بِقُوَّتِهِ وَشَبَابِهِ لاَ يَخْطُرُ لَهُ الضَّعْفُ عَلَى قَلْبٍ وَلاَ الْمَوْتُ عَلَى بَالٍ إِذْ هَجَمَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ وَجَاءَ الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ وَحَلَّ الْهَمُّ مِنْ نَفْسِهِ مَحَلَّ الْفَرَحِ وَالْكَدَرُ مَكَانَ الصَّفَاءِ وَلَمْ يَعُدْ يُؤَنِّسُه جَلِيْسٌ وَلاَ يُرِيحُهُ حَدِيْثٌ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِي الْعَظِيْمِ قَدْ سَئِمَ وَمَلَّ مِمَّا كَانَ يَرْغَبُهُ فِي أَيَّامِ صِحَّتِهِ وَصَارَ لاَ يَشْتَهِي الْغِذَاءَ وَيَكْرَهُ تَنَاوُلَ الدَّوَاءِ عَلَى بَقَاءٍ فِي لُبِّهِ وَصِحَّتُهُ فِي عَقْلِهِ يُفَكِّرُ فِي عُمُرٍ أَفْنَاهُ وَشَبَابٍ أَضَاعَهُ فِي الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَعِنْدَ الْمَلاَهِي وَالْمُنْكَرَاتِ .

وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا وَدُوْراً بَنَاهَا وَقُصُوراً شَيَّدَهَا وَضِيَاعاً جَدَّ وَكَدَّ فِي حِيَازَتِهَا وَيَتَأَلَّمُ لِدُنْيَا فَارَقَهَا وَيَتْرُكُ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً يَخَافُ عَلَيْهِمْ الضَّيَاعَ مِنْ بَعْدِهِ مَعَ اشْتِغَالِ نَفْسِهِ بِمَرَضِهِ وَآلاَمِهِ وَتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِمَا يُعَجِّلُ شِفَاءَهُ وَلَكِنْ مَا الْحِيْلَةُ إِذَا اسْتَفْحَلَ الدَّاءُ وَلَمْ يُفِدِ الدَّوَاءُ وَحَارَ الطَّبِيْبُ وَيَئِسَ الْحَبِيْبُ ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيْد ﴾ .

عِنْدَ هَذَا يَسْتَشْعِرُ النَّدَمَ عَلَى مَا مَضَى وَيُحِسُّ بِعَوَاقِبِ التَّفْرِيْطِ وَالإِهْمَالِ وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنَهُ وَغَارَتْ عَيْنَاهُ وَمَالَ عُنُقُهُ . وَأَنْفُهُ وَذَهَبَ حُسْنُهُ وَجَمَالُه وَخَرِسَ لِسَانُهُ وَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ يَنْظُرُ وَلاَ يَفْعَلَ وَيَسْمَعُ وَلاَ يَنْطُقُ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ

فِيمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَقَارِبِهِ وَأَحْبَابِهِ وَجِيْرَانِهِ يَنْظُرُوْنَ مَا يُقَاسِيْهِ مِنْ كَرْبٍ وَشِدَّةٍ وَلَكِنَّهُمْ عَنْ انْقَاذِهِ أَوْ تَخْفِيْفِ كَرْبِهِ عَاجِزُون .

شِعْرَاً :

أَحَاطَتْ بِهِ أَحْزَانُهُ وَهُمُومُهُ ... وَأَبْلَسَ لَمَّا أَعْجَزَتْهُ المَقَادِرُ
فَلَيْسَ لَهُ مِنْ كُرْبَةِ المَوْتِ فَارِجٌ ... وَلَيْسَ لَهُ مِمَّا يُحَاذِرُ نَاصِرُ
وَقَدْ جَشَّأَتْ خَوْفَ المنِيَّةِ نَفْسُهُ ... تُرَدِّدُهَا مِنْهُ اللَّهَا وَالحَنَاجِرُ
فَكَمْ مُوْجَعٌ يَبْكِي عَلَيْهِ مُفْجَعٌ ... وَمُسْتَنْجِدٌ صَبْراً وَمَا هُوَ صَابِرُ
وَمُسْتَرْجِعٍ دَاعٍ لَهُ اللَّهَ مُخْلِصاً ... يُعَدِّدُ مِنْهُ كُلَّ مَا هُوَ ذَاكِرُ
وَكَمْ شَامِتٍ مُسْتَبْشِرٍ بِوَفَاتِهِ ... وَعَمَّا قَلِيْلٍ لِلَّذِي صَارَ صَائِرُ
وَحَلَّ أَحَبُّ القَوْمِ كَانَ بِقُرْبِهِ ... يُحِثُّ عَلَى تَجْهِيْزِهِ وَيُبَادِرُ
وشَمَّرَ مَنْ قَدْ أَحْضَرُوهُ لِغَسْلِهِ ... وَوُجِّهَ لَمَّا فَاضَ لِلْقَبْرِ حَافِرُ
وَكُفِّنَ فِي ثَوْبَيْنِ وَاجْتَمَعُوا لَهُ ... مُشَيِّعُهُ إِخْوَانُهُ وَالعَشَائِرُ
فَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ أَوْلَادَهُ الّذِي ... عَلَى فقْدِهِ مِنْهُمْ قُلُوبٌ تَفَطَّرُ
لَعَايَنْتَ مِنْ قبحِ المنِيَّةِ مَنْظَراً ... يُهَالُ لِمَرْآهُ وَيَرْتَاعُ نَاظِرُ
أَكَابِرُ أَوْلَادٍ يَهِيْجُ اكْتِئَابُهُمْ ... إِذَا مَا تَنَاسَوْهُ البَنُوْنَ الأَصَاغِرُ
وَرَنَّةُ نِسْوَانٍ عَلَيْهِ جَوَازِعٌ ... مَدَامِعُهُمْ فَوْقَ الخُدُودِ غَوازِرُ
ثَوَى مُفْرَدَاً فِي لَحْدِهِ وَتَوَزَّعَتْ ... مَوَارِيْثَهُ أَوْلادُه وَالأَصَاهِرُ
وَأَحْنَوا إِلَى أَمْوَالِهِ يَقْسِمُوْنَهَا ... فَلاَ حَامِدٌ مِنْهُمْ عَلَيْهَا وَشَاكِرُ
فَيَا عَامِرَ الدُّنْيَا وَيَا سَاعِيَاً لَهَا ... وَيَا آمِنَاً مِمَّا تَدُوْرُ الدَّوَائِرُ
سَتَلْقَى الَّذِي لَاقَى عَلَى الرّغْمِ آنِفاً ... فَخُذْ أُهْبَةً وَاحْرِصْ فَمَا لَكَ عَاذِر

وَبَعْدَ أَنْ كَانُوا يُحِبُّونَ حَيَاتَهُ وَبَقَاءَهُ صَارُوا يَتَمَنّوْنَ مَوْتَهُ وَرَاحَتَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنّهُ عَمَّا قَلِيْلٍ مَأْخُوذٌ مِنْ بَيْنِهِمْ حَيْثُ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَنْعِه وَلَا يَسْتَطِيْعُونَ رَدَّ

رُوْحِـهِ إلى بَدَنِه قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَت الْحُلْقومَ وَأَنْتُمْ حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُوْن وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُون * فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُم غير مدِيْنِـين تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ثُمَّ لاَ يَزَالُ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَشَدَائِدَه وَيَشْتَدُّ بِهِ النَّزْع وَجَعَلَ يُتَابعُ نَفَسَه وَاخْتَلَّ نَبْضُه وَتَعَطَّلَ سَمْعُه وَبَصَرُه كَمَا تَعَطَّلَ قَبْلَ ذَلِكَ لِسَانُهَ حَتَّى إِذَا جَاءَ الأَجَلُ وَنَفَذَ الْقَضَاءُ وَفَاضَتْ رُوْحُهُ إِلَى السَّمَاء صَارَ جُثَّةً هَامِدَةً وَجِيْفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ وَعَشِيْرَتِه قَدْ اسْتَوْحَشُوْا مِنْ جَانِبِهْ وَتَبَاعَدُوْا وَمَاتَ اسْمُهُ الَّذِي كَانُوا يَعْرَفُونَهُ كَمَا مَاتَ شَخْصُهُ الَّذِي كَانُوا يَأْنَسُون بِه وَأَصْبَحُوا يَقُولُونَ الْمَيِّت بَعْدَ أَنْ كَانُوا يُنَادُونَهُ بِاسْمِهِ حَيًّا .

فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون ثُمَّ أَخَذَ الْغَاسِلُ فَجَرَّدَهُ مِنْ ثِيَابِه وَصَارَ يُقَلِّبُهُ عُرْيَانـاً وَيَضَـعُ يَدَهُ عَلَى سَوْأَتِـهِ وَعَـوْرَتِهِ وَقَدْ كَانَ يَسْتَحِي وَيَخْجَلُ مِنْهُ حَالَ حَيَاتِـه . ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِـهِ كَمَا يُدْرَجُ الْمَتَاعُ فِي لِفَافَتِه وَبَعْدَ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ يَحْمِلُونَهُ إِلَى حُفْرَةٍ عَمِيْقَةٍ ضَيِّقَةٍ مُوْحِشَةٍ وَيَتْرُكُونَهُ وَحِيْداً لاَ أَنِيْسَ وَلا رَفِيْقَ إِلا عَمَلُه إِنْتَهَىٰ وَوُجِدَ مَكْتُوباً عَلى قَبْرِه :

شِعْرَاً :

فَأَمْسَـوْا رَمِيْمـاً فِي الـتُّرَابِ وَعُطِّلَتْ ... مَجَـالِسُهُمْ مِنْهُمْ وأخـلِيْ الْمَقَـاصِـرُ
وَحَـلُّوا بِـدَارٍ لاَ تَـزَاوُرَ بَيْنَهُـمْ ... وَأَنَّـي لِسُـكَّانِ الْقُبُـورِ الـتَّزَاوُرُ
فَمَـا أَنْ تَـرَىٰ إِلاَّ قُبُـوْراً ثَـوَوْا بِهَـا ... مُسَـطَّحَةً تَسْفِيْ عَلَيْهَـا الأَعَـاصِـرُ
فَمَـا صَـرَفَـتْ كَـفَّ الْمَنِيَّـةِ إِذْ أَتَـتْ ... مُبَـادَرَةً تَهْـوِي إِلَيْهَـا الـذَّخَـائِـرُ
وَلاَ دَفَعَتْ عَنْهُ الْحُصُـونُ الَّتِى بَنَى ... وَحَفَّـتْ بِهَـا أَنْهَـارُهُ والـدَّسَـاكِـرُ
وَلاَ قَـارَعَـتْ عَنْـهُ الْمَنِيَّـةَ حِيْـلَـةٌ ... وَلاَ طَمِعَتْ فِي الذَّبِّ عَنْهَا الْعَسَـاكِرُ
أَتَـاهُ مِـنَ الجَبَّـارِ مَـالاَ يَـرُدُّهُ ... وأَمْـرُ قَضَـاهُ اللَّـهُ لاَ بُـدَّ صَـائِـرُ
مَلِيكٌ عَـزِيْـزٌ لاَ يُـرَدُّ قَضَـاؤُهُ ... حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ نَـافِـذُ الأَمـرِ قَـاهِـرُ

عَنَى كُلُّ ذِي عِزٍّ لِعِزَّةِ وَجْهِهِ فَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ لِلْمُهَيْمِنِ صَاغِرُ
لَقَدْ خَضَعَتْ واسْتَسْلَمَتْ وَتَضاءَلَتْ لِعِزَّةِ ذِي الْعَرْشِ الْمُلُوكُ الْجَبابِرُ

وَقَفَ بَعْضُ السَّلَفِ عَلَى إِنْسَانٍ شَدِيْدِ الْحُزْنِ فَقَالَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ مَحْزُون قَال لأَنِّي أُصِبْتُ فِي نَفْسِي وَذَلِكَ أَنِّي قَتَلْتُها بالذُّنُوب فَأَنَا حَزِيْنٌ عَلَيْهَا ثُمَّ أَسْبَلَ دَمْعَهُ فَقَالَ لَهُ مَا يُبْكِيْكَ الآن قال ذَكَرْتُ يَوْماً مَضى مِنْ أَجَلي لَمْ يَحْسُنْ فِيْهِ عَمَلي فَبُكَائي لِقِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ الْمَفَازَةِ وَعَقَبَةٌ لا بُدّ لِيْ مِنْ صُعُودِها ثم لا أدْرِي أيْنَ يُهْبَطُ بِي إلى الْجَنَّةِ أمْ إلى النَّار ثمَّ أنْشَد :

يَا رَاكِباً يَطْوِي مَسَافَةَ عُمْرِهِ بِاللَّهِ هَلْ تَدْرِي مَكَانَ نُزُوْلِكَا
شَمِّرْ وَقُمْ مِنْ قَبْلِ حَطِّكَ فِي الثَّرَى فِي حُفْرَةٍ تَبْلَى بِطُولِ حُلُولِكَا

- وَوُجِدَ مَكْتُوباً على قَبْرٍ -

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بَعْدَ طُولِ تَزَاوُرِ وَنَأَى الْمَزارُ وأَسْلَمُوكَ وَأَقْشَعُوا
تَرَكُوكَ أَوْحَشَ مَا تَكونَ بِقَفْرَةٍ لَمْ يُؤْنِسُوكَ وَكُرْبَةٍ مَا نَفَّسُوا
وَقَضَى الْقَضَاءُ وَصِرْتَ صَاحِبَ حُفْرَةٍ عَنْكَ الأَحِبَّةُ أَعْرَضُوا وَتَصَدَّعُوا

آخر : إنَّ الْمَسَاءَةَ لِلْمَسَرَّةِ مَوْعِدٌ أُخْتَانَ رَهْنٌ لِلْعَشِيَّةِ أَوْ غَدِ
فإذَا سَمِعْتَ بِهَالِكٍ فَتَيَقَّنَنْ أَنَّ السَّبِيْلَ سَبِيْلُه فَتَزَوَّدِ

آخر : قِفْ بِالْقُبُورِ وَقُلْ عَلَى سَاحَتِها مَنْ مِنْكُمْ الْمَغْمُورُ فِي ظُلُمَاتِهَا
وَمَنِ الْمُكَرَّمُ مِنْكُمْ فِي قَعْرِهَا قَدْ ذَاقَ بَرْدَ الأَمْنِ مِنْ رَوْعَاتِهَا
لَوْ جَاوَبُوكَ لأَخْبَرُوكَ بِأَلْسُنٍ تَصِفُ الْحَقَائِقَ بَعْدُ مِنْ حَالاَتِها
أَمَّا الْمُطِيْعُ فَنَازِلٌ فِي رَوْضَةٍ يُفْضِي إِلَى مَا شَاءَ مِنْ دَوْحَاتِهَا
وَالْمُجْرِمُ الطَّاغِي بِها مُتَقَلِّبٌ فِي حُفْرَةٍ يَأْوِي إِلَى حَيَّاتِهَا
وَعَقَارِبٌ تَسْعَى إِلَيْهِ فَرُوْحُهُ فِي شِدَّةِ التَّعْذِيْبِ مِنْ لَدَغَاتِهَا

آخر : إِنَّ الْحَبِيْبَ مِنَ الأَحْبَابِ مُخْتَلَسُ لاَ يَمْنَعُ الْمَوْتَ بَوَّابٌ وَلاَ حَرَسُ

فَكَيْفَ تَفْرَحُ بالدُّنْيَا وَلَذّتها ... يَا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ اللّفْظُ والنَّفسُ
أَصْبَحْتَ يَا غَافِلاً في النّقْصِ مُنْغمِساً ... وَأَنْتَ دَهْرَكَ فِي اللَّذَّاتِ مُنْغَمِسُ
لَا يَرْحَمُ الْمَوْتُ ذَا جَهْلٍ لِغِرّتِهِ ... وَلا الّذِي كَانَ مِنْهُ الْعِلْمُ يُقْتَبَسُ

آخـر :

بَيْنَا الشَّفِيْقُ عَلَى إلفٍ يُسَرُّ بِهِ ... إذْ صَارَ أَغْمضَهُ يَوْماً وسَجَّاهُ
يَبْكِي عليه قَلِيْلًا ثم يُخْرِجُهُ ... فَيُمْكِنُ الأَرْضَ مِنْهُ ثُمّ يَنسَاهُ
وَكُلُ ذيْ أجَلٍ يَوْماً سَيَبْلُغُهُ ... وكُلُ ذِيْ عَمَلٍ يَوْماً سَيَلْقاهُ

آخـر : كَمْ أَخْرَسَ الْمَوْتُ فِي قَبْرٍ وَقَفْتَ بِهِ ... عَنِ الْجَوَابِ لِسَاناً مَا بِهِ خَرَسُ
قَدْ كَانَ قَصْرُكَ مَعْمُوراً لَهُ شَرَفٌ ... فَقَبْرُكَ الْيَومَ فِي الأَجْدَاثِ مُنْدَرِسُ

هَذِهِ الأَبْيَاتُ كُتِبَتْ عَلى قُبُورٍ لِلاعْتِبَار فالبَصِيْرُ هُوَ الَّذِيْ يَنْظُرُ إلى قَبْرِ غَيْرِهِ فَيَرَى مَكَانَه بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَيَسْتَعِدّ لِلحُوقِ بهم وَيَعْلَمُ أَنّهُمْ لا يَبْرَحُونَ مِنْ مَكَانِهِمْ حَتّى يَلْحَقَ بِهِمْ وَلْيَتَحَقّقْ أنّهُ لَوْ عُرِضَ عَلَيْهِمْ يَوْمٌ مِنْ أَيّامِ عُمُرِهِ الّذي هُوَ مَضَيّعٌ لَهُ لَكَانَ ذَلِكَ الْيَومُ أحَبّ إِلَيْهِمْ مِنَ الدّنْيَا بِحَذَافِيْرِهَا لأَنّهُمْ عَرَفُوا قَدْرَ الأَعْمَارِ وَالأَعْمَال وانْكَشَفَتْ لَهُمْ حَقَائِقَ الأُمُور وَإِنّمَا حَسْرَتُهُمْ عَلى يَوْمٍ مِن الْعُمُرِ لِيَتَدارَكَ الْمُقصِّرُ بِهِ تَقْصِيْرَهُ فَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعِقَابِ وَلْيَسْتَزِيْدَ الْمُوفَّقُ بِهِ رُتْبَةً فَيضَاعَفُ لَهُ الثّواب .

لا يَحْقِر الرجُلُ اللَّبِيْبُ دَقِيْقَةً ... في السَّهْوِ فيْهَا لِلْوَضِيعِ مَعَاذِرُ
فَكَبَائِرُ الرجُلِ الصَّغِيْرِ صَغِيْرَةٌ ... وصَغَائِرُ الرجُلِ الكبيرِ كَبَائِرُ

اخر : يا رَبِّ مَا لِي غَيْرَ لُطْفِكَ ملجأ ... ولَعَلّنِيْ عن بابِهِ لا أُطْرَدُ
يا رَبِّ هَبْ لِيْ تَوْبَةً أَقْضِي بِهَا ... دَيْناً عَلَيَّ بِهِ جَلالُكَ يَشْهَدُ
أنْتَ الخَبِيْرُ بِحَالِ عَبْدِكَ إِنَّهُ ... بِسَلاسِلِ الوِزْرِ الثَّقِيْلِ مُقَيَّدُ
أَسَفًا على عُمْرِي الذي ضَيَّعْتُهُ ... تَحْتَ الذُّنُوبِ وأَنْتَ فوقي تَرْصُدُ

يا رَبِّ قد ثَقُلَتْ عَليَّ كَبائِرٌ بإزاءِ عَيْنِي لَمْ تَزَلْ تَتَرَدَّدُ
يا رَبِّ إنْ أبْعَدتُ عَنْكَ فإنَّ لِي طَمَعًا برَحْمَتِكَ الَّتِي لا تُبْعِدُ
أَنْتَ الْمُجِيْبُ لِكُلِّ دَاعٍ يَلْتَجِيْ أَنْتَ الْمُجَيرُ لِكُلِّ مَنْ يَسْتَنْجِدُ
مِنْ أيِّ بَحْرٍ غَيْرَ بَحْرِكَ نَسْتَقِي ولأيِّ بَابٍ غَيْرَ بَابِكَ نَقْصُدُ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وَفِي الْحَدِيْث مَا مِنْ أَحد يَمُوْتُ إلاّ نَدِم : إنْ كَانَ مُحْسِناً نَدِمَ أنْ لاَّ يَكُوْنَ إزْدَادَ ، وَإنْ كَانَ مُسْيْئاً نَدِمَ أنْ لاَّ يَكُونَ نَزَعَ ، فَإِنَّهُمْ إنّما عَرَفُوا قَدْرَ الْعُمْرِ بَعْدَ إنْقِطَاعِهِ فَحَسْرَتُهُمْ عَلَى سَاعَةٍ مِنَ الحَيَاةِ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْحَيُّ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ السَّاعَةِ وَرُبَّمَا أَقْدَرَكَ اللَّهُ عَلَى أَمْثَالِهَا .

ثُمَّ أَنْتَ مُضَيِّع لِلْوَقْتِ وَقَاتِلٌ لَهُ فِيْمَا لاَ فَائِدَةَ فِيْهِ أوْ فِيْمَا فِيْهِ مَضَرَّةٌ عَلَيْكَ فَوَطِّنْ نفْسكَ عَلَى النَّدَم والتّحَسُّر والتَّلَهُّفِ عَلى تضييْعِ الْوَقْتِ عِنْدَ خُرُوجِ الأَمْرِ مِن اخْتِيَارِكَ وَعَدَمِ تَمَكُّنِك مِن الْعَمَلِ الصَّالِح .

وَاذْكُرْ قَوْل اللهِ جَلَّ وَعَلا ﴿ أَنْ تَقوْلَ نَفْسٌ يَا حَسْرتَا عَلَى مَا فَرّطتُ فِي جَنْبِ اللّهِ وَانْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِيْن ﴾ الآيات وَقَوْلَهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ وأنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِي أحَدكُم الْمَوْت فَيَقُولَ رَبّي لَوْلاَ أخْرَتَنِي إلَى أَجَلٍ قَرِيْبٍ فأصَّدّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحْينَ ﴾ وقولَهُ تَعَالى ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمنُونَ ﴾ وَقَوْله تَعَالَى ﴿ يَوْم تَبْلُو كُلّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفت ﴾ الآيَة وَقَوْلَهُ ﴿ واتّقوا يَوْماً تُرجَعُونَ فِيْهِ إلى اللّه ثُمّ تُوَفّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون ﴾ .

وَنَحْو هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي هِيَ بالْحَقِيْقَةِ لمَنْ تَدَبَّرَهَا أَبْلَغُ مِنَ السِّيَاطِ ،

في الْحَثِّ عَلَى التّزَوّدِ لِلْمَعادِ وَصِيَانَةِ الوَقْتِ وصَرْفِهِ فِيْما يُقَرِّبُ إلى اللّه جَلَّ وَعَلا .

وقال الشيخ سعدُ بنُ عتيق رحمه الله تعالى ناظماً المفاتيحَ التي ذكرها ابنُ القيم رحمه اللهُ تعالى في كتابِهِ حادِي الأرواح .

حَمِدتُ الذي يـوْلِي الجَمْيِلَ وَيُنْعِمُ
لَـهُ الفَضْلُ يُؤْتِيْ مَنْ يَشَـاءُ وَيُكْـرِمُ
وأزْكـى صَـلاةِ الـلهِ ثـم سَـلاَمُـهُ
عَـلى خَيْـرِ مَـخْلُوقٍ عـليـهِ يُسَـلِّمُ
مُحَمَّـدٍ الهـادِي وأصْحَـابِـهِ الأُولَى
بِحُسْنِ اجْتِهَـادٍ عُلِّمُـوْا وتَـعَلَّمُـوْا
وَبعْـدُ فَقَـدْ عَنَّ الـوَفَـاءُ لِسَـائِلٍ
بـوَعْـدِيَ إيَّـاهُ بـأنّـي أنْـظِمُ
مَفَـاتِيْـحَ كَـانَتْ لِلشُّرُورِ وضِـدِّهَـا
فَقَـدْ فَـازَ مَن بـالْخَيْـرِ وَالشَّـرِ يَعْلَمُ
وَأَضْحَى بِمَا يَدْرِيْ مِن الحَقّ عَامِلاً
فَكُنْ عَـامِلاً بـالعِلْمِ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ
وَقَـدْ جَعَـلَ الْمَـولى لَهُنَّ مَفَـاتِحَـاً
تُـنَـالُ بَهـا والـلهُ بـالـحق أعْـلَمُ
فَمِفْتَـاحُ شَـرْعِيّ الصَّلاةِ طُهُـوْرُنَـا
وَيَفْتَـحُ حَجاً مُحْـرِمٌ حِيْنَ يُحْـرِمُ
وبـالصّـدْقِ فَتْحُ البِرّ وَالعِلْمُ فَتْحُـهُ
بِـحُسْنِ سُؤآلٍ عَـنْ فَتَـى يَـتَـعَـلَّمُ

وَمُسْتَحْسنِ الاصْغَاءِ والنّصْرُ فَتْحُهُ
مَعَ الظَّفَرِ الْمَحْمُودِ بالصَّبْرِ فاعْلَمُوا
وَتَوْحِيْدُنَا لِلِه مِفْتَاحُ جَنَّةِ النَّـ
نَعِيْمِ فبالتَّوْحِيدِ دِيْنُوا تَنَعَّمُوا

وبالشُّكْرِ لِلنَّعْمَاءِ فَتْحُ زِيَادَةٍ
وَيَحْصُلُ حُبٌّ والوِلَايَةُ تُغْنَمُ
بِمفْتَاحِهِ الذِّكْرُ الشَّرِيْفُ وَذُو التُّقى
يَنَالُ بِتَقْوَاهُ الفَلَاحَ وَيُكْرَمُ
وَمِفْتَاحُ تَوْفِيقِ الفَتَى صِدقُ رَغْبَةٍ
وَرَهْبَتِهِ ثُمَّ الدُّعَاءُ المُكَرَّمُ
لَدَى الله مِفْتَاحُ الاجابَةِ واعْلَمَنْ
بِأَنَّ جَمِيْلَ الزُّهْدِ لِلْعَبْدِ مَغْنَمُ
وَيُفْتَحُ لِلْعَبْدِ التَّجَلِي بِرَغْبَةٍ
بِدَارِ البَقَاء فازْهَدْ لَعَلَّكَ تَغْنَمُ
وَمِفْتَاحُ إِيْمَانِ العِبَادِ تَفَكُّرُ
بِمَا كَانَ رَبُّ العَالَمِيْنَ دَعَاهُم
إِلَى نَظَرٍ فِيْهِ وَأَنْ يَتَفَكَّرُوْا
بِهِ وَدُخُوْلُ العَبْدِ ذَاكَ المُفَخَّمُ
عَلَى رَبِّهِ مِفْتَاحُ ذَاكَ سَلَامَةٌ
وَإِسْلَامُ قَلْبٍ لِلإِلَهِ فَأَسْلِمُوْا
وَمَعَ ذَاكَ إِخلاصٌ بِحُبٍّ وَبُغْضِهِ
وفِعْلٍ وَتَرْكٍ كُلُ ذَلِكَ يَلْزَمُ

وَيُحْيِيْ قُلُوْبَ الـعَـارِفِيْنَ تَضَـرُّعٌ
بِـأَوْقَـاتِ أَسْحَـارٍ فَكُنْ أَنْتَ مِنْهُمُ
كـذا الـوَحْيُ إذْ يُتْلَى بِحُسْنِ تَـدَبُّـرٍ
وَتَـرْكُ الـذُّنُـوبِ فَهِيَ لِلْقَلْبِ تُؤْلِمُ

وإحسـانُ عَبْـدٍ في عِبَـادَةِ رَبِّـهِ
وَنَـفْـعُ العِبَـادِ والقِيَـامُ عَـلَيْـهِمُ
لإِصْلاَحِهِمْ مِفْتاحُ تَحْصِيْلِ رَحْمَةِ الْـ
إلـهِ فَـلازِمْ ذَا لَـعَـلَّكَ تُـرْحَـمُ
وَمِفْتَـاحُ رِزْقِ العَبْدِ سَعْيٌ مَعَ التُّقَى
وَكَثْـرَةُ الاسْتِغْفَـارِ إذْ هُـوَ مُجْـرِمُ
وَمِفْتَـاحُ عِـزِّ العَبْـدِ طَـاعَـةُ رَبِّـهِ
وَطَـاعَـةُ خَيْـرِ المُرْسَلِيْنَ فَعَـظِّمُـوْا
وَمِفْتَـاحُ الاسْتِعْـدَادِ مِنْـكَ لِمَـا لَـهُ
تَصِيْـرُ مِن الـدَّارِ الَّتِيْ هِيَ أَعْـظَمُ
هُـوَ القَصْـرُ لِـلآمَـالِ والْخَيْـرُ كُلُّهُ
فَمِفْتَـاحُـهُ رَغْبٌ مِن العَبْـدِ يُعْـلَمُ
بِمَـوْلاَهُ والـدَّارِ الَّتِـيْ بَعْـدَ هَـذِهِ
وَمِفْتَـاحُ كُـلِّ الشَّـرِّ إنْ كُنْتَ تَفْهَمُ
إطَـالَتُـكَ الآمـالَ فـاحْـذَرْ غُـرُوْرَهَـا
وَحُبُّـكَ لِلدُّنْيَـا الـتِـي تَـتَـصَـرَّمُ
وَمِفْتَـاحُ نَـارِ الخُلْدِ شِـرْكٌ بِـرَبِّنَـا
وَكِبْـرُ الفَتَى فـالكِبْـرُ حُـوْبٌ مُـعَظَّمُ

وإِعْـرَاضُـه عَمَّــا عَنِ اللهِ قـد أَتَى
بِهِ المُصْطَفَى الهَـادِي النبيُ المُكَرَّمُ
وَغَـفْـلَتُـهُ عَــنْ ذِكْـرِهِ وَقِـيَـامِـهِ
بِحقِ لِـذِي العَـرْشِ المَلِيْـكِ يُحَتَّمُ
وَمِفْتَــاحُ إثْمٍ يُـوْبِقُ العَبْــدَ مُسْكِـرٌ
مِن الْخَمْـرِ فـاحْـذَرْهَـا لَعَلَّكَ تَسْلَمُ
وَمِفْتَاحُ ذِيْ المَقْتِ الزِنَا سَيِّءُ الغِنَا
وَذَلِـكَ قُـرْآنُ الـلَّعِيْــنِ وَمَــأْثَــمُ
وإطلاقُ طَرْفِ الشَّخْصِ مفْتَاحُ عِشْقِهِ
لِمُسْتَحْسَنِ الأَشْبَــاحِ فَهُــوَ مُحَــرَّمُ
وبالكَسَل الْمَذْمُوْمِ مَعَ رَاحَـةِ الفَتَى
يخِيْبُ وَكُـلُّ الخَيْرِ لَا شَـكَّ يُحْـرَمُ
وَمِفْتَــاحُ كُـفْــرَانِ الْفَـتَى وَبَــرِيْــدُهُ
مَعَـاصِيْهِ والعَـاصِيْ قَـرِيْبــاً سَيَنْدَمُ
وَبَــابُ نِفَــاقِ العَبْــدِ يَفْتَحُــهُ إِذَا
يَكُــونُ كَذُوْبَــاً والكَــذُوْبُ مُــذَمَّمُ
وشُـحُّ الْفَتَى والحِرْصُ مِفْتَـاحُ بُخْلِهِ
وَمِفْتَاحُ أَخْذِ المَـالِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُ
بَــأَنْ لَيْسَ حِـلاً مَــعْ قَـطِيْعَـةِ رَحْمِـهِ
وَكُــلُّ ابْتِـدَاعٍ فـي الْـخَلِيْقَــةِ يُـعْلَمُ
فَمِفْتَـاحُـهُ الإِعْـرَاضُ عَمَّـا أَتَى بِــهِ
نَبيُ الْـهُــدَى مِـنْ سُنَّــةٍ نَـتَـعَلَّمُ

واخْتِمْ قَوْلِي في القَرِيْضِ بِأَنَّنِيْ
أُصَلِيْ عَلَى خَيْرِ الْوَرَى وَأُسَلِّمُ

وآلٍ مَعَ الصَّحْبِ الْكِرَامِ الذين هم
لِمُقْتَبِسٍ عِلْمَ الشَّرِيْعَةِ أَنْجُمُ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ اتَّقُوا الله تعالى واحْمَدُوْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وارْغَبُوْا إِلَيْهِ في حِرَاسَةِ النِّعَم عن الزَّوَالِ فإنَّ نِعَمَ اللهِ قَدْ عَمَّتِ الْبَوَادِيَ وَالأَمْصَارَ وإنَّ نِعَمَ اللهِ لَا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ولا تُحَدُّ بِمِقْدَارٍ .

قال تعالى ﴿ وإنْ تَعُدُّوْا نِعمَةَ اللهِ لا تُحْصُوْهَا إنَّ الإنسانَ لَظُلُومٌ كَفَّار ﴾ فكَمْ أَسْدَى مَعْرُوْفاً وكَمْ أَغاثَ مَلْهُوْفاً فاشْكُرُوْا آلاءَ اللهِ وَاذْكُرُوْهُ كَثِيْراً قال تعالى ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوب ﴾ .

وهُبُّوْا مِنْ هَذِهِ الرَّقْدَةِ وَالمَقَامِ واحْذَرُوْا الأَهْوَاءَ فإنَّهَا تُوْرِثُ المَهَالِكَ وَالمَذَامَّ ، وأَلْزِمُوْا طَاعَةَ الْمَلِكِ العَلَّام ، واغْتَنِمُوْا بَقِيَّةَ العُمُرِ وَالأَيَّامِ ، وَبَادِرُوْا بالتَّوْبَةِ مِنَ الْمَعَاصِي والإجْرَامِ ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يومٌ تَشَقَّقُ فِيْهِ السَّمَاءُ بالغَمَام وَتَظْهَرُ فِيه الخَفَايَا والدَّوَاهِي والأَهْوالُ الطَّوَام ، وتُنَكَّسُ فِيْهِ الظَّلَمَةُ رُؤُوْسَهَا وَيعْلُوهَا الذُّلُ مِن الرُّؤُوْسِ إلى الأَقْدَمِ وَيَتجلَّى لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ حَاكِمُ الحُكَّام .

قال تعالى ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيْءَ بالنَّبِيِّيْنَ والشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُون ﴾ ونُودِيَ أَيْنَ الظَّلَمةُ وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ وَمَنْ كَانَ لَهُمْ على الْمَعَاصِي وُثُوبٌ وَإِقْدَامٌ فَيَالَهُ مِنْ يَوْمٍ مَا أَطْوَلَهُ وَمِن بَلَاءٍ مَا أَهْوَلَهُ وَمِنْ حِسَابٍ مَا أَثْقَلَهُ وَمِنْ عَذَابٍ مَا أَعْضَلَهُ وَمِنْ جَزَاءٍ مَا أَجْزَلَهُ وَمِنْ حَاكِم مَا أَعْدَلَهْ .

هُنَالِكَ شَابَ الْوَلِيْدُ وَحَقَّ الْوَعِيْدُ وَعَظُمَ الْهَوْلُ الشَّدِيْدُ قَالَ تَعَالَى ﴿ وجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيْدٌ ، لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِن هَذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيْدٌ ﴾ وَخَضَعَتِ الرِّقَابُ وَذَلَّ كُلُّ فَاجِرٍ كَذَّابٍ وَرَجَعَ الأَشْقِيَاءُ بالخُسْرَانِ والتَّبَابِ فالسعيدُ مَن اسْتَعْمَلَ نَفْسَهُ في طَاعةِ الْمَلِكِ الْمَعْبُوْدِ وَخَافَ أَنْ لاَ يَنْجُو مِن النَّارِ بَعْدَ الْوُرُوْدِ .

فانْتَبِهْ أَيُّهَا العَبْدُ لأَيَّامِ شَبَابِكَ قَبْلَ فِرَاقِ أَحْبَابِكَ وَاحْفَظْ أَيَّامَ عُمُرِكَ قَبْلَ حُلُولِ قَبْرِكَ واغْتَنِمْ حَيَاتَكَ قَبْلَ أَوَانِ وَفَاتِكَ فإنَّ العُمُرَ بالسِّنِيْنَ يُنْهَب والأَجَلَ بِمُرُوْرِ الليالِي والأيّامِ يَذْهَب .

شِعْرا :

لِمَن وَرْقَاءُ بالوَادِي المَرِيْعِ — تَشُبُّ بِهِ تَبَارِيْحُ الضُلُوعِ
على فَيْنَانَةٍ خَضْرَاءَ يَصْفُـوْ — على أَعْطَافِهَا وَشْيُ الرَّبِيْـعِ
تُرَدِدُ صَوْتَ بَاكِيَةٍ عليهـا — رَمَاهَا الموتُ بالأَهْلِ الجَمِيْعِ
فَشَتَّتَ شَمْلَهَا وأَدَالَ مِنـهِ — غَرَاماً عَاث في قَلْبٍ صَرِيْعِ
عَجِبْتُ لَهَا تَكَلَّمُ وهْيَ خَرْسَا — وتَبْكِي وهْيَ جَامِدَةُ الدُّمُوعِ
فَهِمْتُ حَدِيْثَهَا وفَهِمْتُ أَنِّي — مِن الخُسْرَان في أَمْرٍ شَنِيْعِ
أَتَبْكِي تِلْكَ أَنْ فَقَدَتْ أَنِيْساً — وتَشْرَبُ منه بالكَأْسِ الفَظِيْعِ
وَها أَنَا لَسْتُ أَبْكِي فَقْدَ نَفْسِيْ — وتَضْيِيْعِي الحَيَاة مَعَ المُضِيْعِ
ولَوْ أَنّي عَقَلْتُ اليَوْمَ أَمْرِيْ — لأَرْسَلْتُ المَدامِعَ بالنَّجِيْـعِ

أَلاَ يَا صَاحِ والشَّكْوَى ضُرُوْبٌ وذِكْرُ المَوتِ يَذْهَبُ بالهُجُوْعِ
لَعَلَّكَ أَنْ تُعِيْرَ أَخَاكَ دَمْعاً فما في مُقْلَتَيْهِ مِن الدُمُوْعِ

آخـــر :

ما زُخْرُفُ الدُنيا وَزُبْرُجُ أَهْلِهَا إِلّا غُرُوْرٌ .كُلُّهُ وَحُطَــامُ
وَلَرُبَّ أَقْوَامٍ مَضَوْا لِسَبِيْلِهِمْ وَلَتَمْضِيَنَّ كَمَا مَضَى الأَقْوَامُ
وَلَرُبَّ ذِيْ فُرُشٍ مُمَهَّدَةٍ لَهُ أَمْسَى عَلَيْهِ مِن التُّرَابِ رُكَامُ
والموتُ يَعْمَلُ والعُيُونُ قَرِيْرَةٌ تَلْهُوْ وَتَلْعَبُ بالمُنَى وَتَنَامُ
كُلٌ يَدُوْرُ عَلَى الْبَقَاءِ مُؤَمِّلًا وَعَلى الفَنَاءِ تُدِيْرُهُ الأَيَّامُ
والدَائِمُ الْمُلَكُوتِ رَبٌّ لَمْ يَزَلْ مَلِكاً تَقَطَّعُ دُوْنَهُ الأَوْهَامُ
فَـالـحَمْـدُ لِـلّهِ الـذِيْ هُـوَ دَائـمٌ
أَبَـداً وَلَـيْسَ لِـمَـا سِـوَاهُ دَوَامُ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَنَوِّرْهَا بِنُورِ الإِيْمَان واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتَوفَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَأَلْحِقْنَا بِعَبَادِكَ الصَّالِحِيْن واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللَّهْ قَدْ حَثَّنَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أَنْ نَكُونَ اخْوَانَاً مُتَرَاحِمِيْنَ مُتَعَاوِنِيْنَ مُتَحَابِيْن مُتَعَاطِفِيْن يُحِبُ كُلُّ مِنَّا لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه وَيَسْعَى في ذَلِك أَخْرَجَ الْبُخَارِي وَمُسْلِمُ في صَحِيْحِهِمَا عَنْ أَبِي مُوْسَى الأَشْعَرِيْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللّه صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدّ بَعْضُه بَعْضَا وَشَبكَ بَيْنَ أَصَابِعِه .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيُّ أَيْضَا في صَحِيْحِهِ عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَال الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم لاَ يَظْلِمُه وَلاَ يُسْلِمُه وَمَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيْهِ كَانَ اللّهُ في حَاجَتِهْ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمَاً سَتَرَهُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

في الحديث الأَوّلِ ما يُفِيْدُ أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ مِن شَأْنِهِم التَّنَاصُرُ والتَّنَاصُحُ والتَّكَاتُفُ والتعاون على مَصَالِحِهِمْ العَامَةِ والخَاصَةِ وَأَنْ يَكُونُوا مُتَرَاحِمِيْنَ كُلُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَاعِدُ أَخَاهُ وَيُعَاوِنُهُ على ما يُصْلِحُ حَالَهُ وَيُصْلِحُ حَالَ الجَمِيْعِ كَمَا في الحَدِيْثِ الآخَرِ مَثَلُ المُؤْمِنِيْنَ في تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّىٰ والسَّهَرِ .

وَكَمَا وَصَفَهُم اللّهُ جَلَّ وَعَلاَ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللّهِ والَّذِيْنَ مَعَهُ أَشدَآءُ على الكفارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وفي الحديث الآخرِ « المُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوْطُهُ مِن وَرَائِهِ » .

وَمِنْ مُقْتَضَى الأُخُوَّةِ في الدِيْنِ أَوِ النَّسَبِ أَنَّهُ لاَ يَظْلِمُ أَخَاهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ وَيَسْعَىٰ لِتَفْرِيْجِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ كَرْبٍ وَمَا حَلَّ بِهِ مِنْ ضَيْمٍ وَمَا انْتَابَهُ مِنْ هَمٍ وَغَمٍّ وَعُسْرٍ وَضِيْقٍ وَلاَ يَسْعَىٰ لِهَتْكِ عِرْضِهِ وَنَشْرِ سِرِّهِ وَالتَّشْهِيْرِ بِهِ .

وَمَحَلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ ذَوِيْ الهَيْئَآتِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ مَعْرُوْفاً بالفُجُوْرِ والفِسْقِ والمُجَاهَرَةِ بِالمَعَاصِيْ وَهَذَا في سَتْرِ مَعْصِيَةٍ وَقَعَتْ وَانْقَضَتْ .

أَمَّا إذَا عَلِمَ مَعْصِيَتَهُ وَهُوَ مُتَلَبِسٌ بِهَا فَتَجِبُ المُبَادَرَةُ بالإِنْكَارِ عَلَيْهِ وَمَنْعُهُ مِنْهَا والحَيْلُولَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا بِحَسَبِ الإسْتِطَاعَةِ فإِنْ عَجَزَ لَزِمَهُ رَفْعُهَا إلى وَلِيِ الأَمْرِ إنْ لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى ذَلِكَ مَفَاسِدُ أَعْظَمُ مِنْهَا لأَنَّ السَّتْرَ عَلَيْهِ يُطْمِعُهُ في الفَسَادِ وَيُجَرِئُهُ عَلى انْتِهَاكِ الحُرُمَاتِ واسْتِرْسَالِهِ في طُرُقِ الغَيِ والفَسَادِ والضَّلالاتِ .

وَهَذَا مِن بَابِ النَّصِيْحَةِ والأَمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عن المُنْكَرِ ثُمَّ بَيَّنَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في حَدِيْثِ ابنِ عُمَرَ وَصْفَ المُسْلِمِ لأَخِيْهِ المُسْلِمِ بأَنَّهُ لَا يَظْلِمُهُ في نَفْسِهِ وَلَا فِي عِرْضِهِ وَلَا فِي مَالِهِ والظُّلْمُ مُحَرَّمٌ بِسَائِرِ أَنْوَاعِهِ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُ عَنْ أَوْسِ بنِ شُرَحْبِيْلٍ أَنَّ النبيَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ مَن مَشَى مَعَ ظَالِمٍ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الإِسلامِ فَهَذَا وَعِيْدٌ شَدِيْدٌ لأَعْوَانِ الظَّلَمَةِ وَمُسَهِّلِيْ مُصَالِحِهم وَمُوَطِّدِي طُرقهمْ الدَّالِينَ لَهُمْ على عَوْرَاتِ المُسْلِمِيْنَ .

فَمَا الظَّنُ بِحَالِ الظَّلَمِةِ إِذَا جَاءَ الحَكَمُ العَدْلُ لِلْفَصْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَشُوْفِهَ الظَالِمُ بِمَا جَنَى وَأَيْقَنَ بالعَذَابِ وَتَمَنَّى أَنَّهُ تَخلَّصَ مِنْ مَظَالِمِه في الدُنْيا .

وَلِهَذَا أَمَرَنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَصْرَةِ المَظْلُومِ والأَخْذِ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَكَفِّهِ عن ظُلْمِهِ وَمَنْعِهِ مِن جَوْرِهِ وفي الحَدِيْثِ الآخرِ يَقُولُ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّم « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالماً أَوْ مَظْلُوماً قالوْا يا رسولَ اللهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُوماً فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِماً قال تَأْخُذُوْا على يَدِهِ » .

وَهُوَ كِنَايَةٌ عن مَنْعِهِ مِن الظُلْمِ بالفِعْلِ كالاسْتِعَانَةِ عَلَيْهِ بِرَفْعِهِ لِوُلَاةِ

الأُمورِ وَرَفْعِهِ لِلْحُكَّامِ حَيْثُ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيْهِ النُّصْحُ بـاللِّسَانِ وَضُـرُوْبِ الكلام .

وَمِنَ النُّصْرَةِ لِلْمَظْلُومِ إِعَانَتُهُ والسَّعْيُ لِرَفْعِ ظَلاَمَتِهِ والضَّرْب على يَدِ الظَّالِمِ وَكَفِهِ عن ظُلْمِهِ فَهَذَا نُصْرَةٌ لَهُ عَلى شَيْطَانِهِ الذِي يُغْوِيْهِ وَيُوْرِدُهُ المَهَالِكَ وَيُوْقِعُهُ في المَآزِقِ والوَرْطَاتِ التِي يَصْعُبُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا وَنُصْرَةٌ لَهُ على نَفْسِهِ الشَرِيْرَةِ التِي تَأْمُرُهُ بالفَحْشَاءِ .

والعاقِلُ اللَّبِيْبُ مَنْ يَتَحَلَّل مِن أَهْلِ المَظَالِمِ في دُنْيَاهُ قَبْلَ الآخِرَةِ ولا يَدَعُ حَقاً لِأَحَدٍ عَلَيْهِ بَلْ يُسَارِعُ لِأَدَاءِ مَا في ذِمَّتِهِ وَيَطْلُبُ المُسَامَحَةَ مِمَّنْ حَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُنَافَسَةٌ أَوْ مُنَازَعَةٌ أَوْ مُعَامَلَةٌ مِنْ جَارٍ أَوْ زَوْجَةٍ أَوْ قَرِيْبٍ أَوْ بَعِيْدٍ .

قَبْلَ أَنْ يَقِفَ ذَلِكَ المَوْقِفَ الرَّهِيْب في يَومٍ يَجْعلُ الوِلْدَانَ شِيْبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كان وَعدُهُ مَفْعُولا ﴿ يومَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَفْسِهَا وتُوَفى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُوْن ﴾ .

وفي حديث أبي هريرةَ عندَ مُسْلمٍ لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوْقَ إِلَى أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّـاةِ الجَلْحَآءِ مِن الشَّاةِ القَرْنَاءِ وَقَدْ عَقَدْنَا فَصْلاً كامِلاً لِبَيَانِ الظُلْمِ وَأَنْوَاعِهِ وَأَدِلَّةِ تَحْرِيْمِهِ والتَّحْذِيْرِ مِنْه في الجزء الثالث من الكتاب ص ١٠٥ .

وقال أبو هُريرةَ مَكْتُوبٌ في التَّوْرَاةِ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ وَرَاءِ الجسْرِ يَعْنِي الصِرَاطَ يَا مَعْشَرَ الجَبَابِرَةِ الطُّغَاةِ وَيَا مَعْشَرَ المُتْرَفِيْنَ الأَشْقِيَآءِ إِنَّ اللهَ يَحْلِفُ بِعِزَّتِهِ وَجَلاَلِهِ أَنْ لاَ يُجَاوِز هَذَا الجَسْرَ ظَالِمٌ .

وَعَنْ جَابرٍ قال لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الحَبَشَةِ عَامَ الفَتْحِ إلى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ قال أَلاَ تُخْبِرُوْنِيْ بأعْجَبَ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الحَبْشَةِ فقَالَ فِتْيَةٌ كَانُوْا مِنْهُمْ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ إِذْ مَرَّتْ بِنَا عَجُوْزٌ مِن عَجَائِزِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ فَمَرَّتْ بِفَتىً مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كتفيها ثم دَفَعَهَا فَخَرَّتْ الْمَرْأَةُ على رُكْبَتَيْهَا وانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا .

فَلَمَّا قَامَتْ التَفَتَتْ إليهِ ثُمَّ قَالَتْ سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَادِرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الكُرْسِيَّ وَجَمَعَ اللهُ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ وَتَكَلَّمَتْ الأَيْدِي والأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ، سَوْفَ تَعْلَمُ مَنْ أَمْرِيْ وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَداً .

قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ قَوْماً لا يُؤْخَذُ مِنْ شَدِيْدِهِم لِضَعِيْفِهِم .

ورُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « خَمْسَةٌ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ أَمْضَى غَضَبَهُ عَلَيْهِمْ في الدُنْيَا وإلا أَمَرَ بِهِمْ في الآخِرَةِ إلى النارِ .

أَمِيْرُ قَوْمٍ يَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْ رَعِيَّتِهِ وَلاَ يُنْصِفُهُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَلاَ يَدْفَعُ الظُلْمَ عَنْهُمْ .

وَزَعِيْمُ قَوْمٍ يُطِيْعُونَهُ ولا يُسَاوِيْ بَيْنَ القَوِيِّ والضَّعِيْفِ وَيَتَكَلَّمُ بالهَوَى وَرَجُلٌ لا يَأْمُرُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ بطَاعَةِ اللهِ ولا يُعَلِمُهُمْ أَمْرَ دِيْنِهِمْ .

وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أجِيْراً فَاسْتَوْفَى مِنْهُ العَمَلَ وَلَم يُوَفِّهِ .

وَرَجُلٌ ظَلَمَ امْرَأَتَهُ صَدَاقَهَا وعن عَبْدِ اللهِ بنِ سَلاَمٍ قال إن اللهَ

تَعالَى لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ واسْتَمَرُّوا عَلَى أَقْدَامِهِم رَفَعُوْا رُؤُسَهُم إلى السَّماء وقالُوا يَا رَبُّ مَعَ مَنْ أَنْتَ قَالَ مَعَ المَظْلُومِ حَتَّى يُؤَدى إليه حَقَّهُ .

وَقِيْلَ لَمَّا حُبِسَ خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ وَوَلَدُهُ قَالَ يَا أَبَتِيْ بَعْدَ العِزِّ صِرْنَا في القَيْدِ وَالحَبْسِ فقالَ يَا بُنَيَّ دَعْوَةُ مَظْلُومٍ سَرَتْ بِلَيْلٍ غَفَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ يَغْفُل اللهُ عَنْهَا وكانَ يَزِيْدُ بنُ حَكِيْمٍ يَقُولُ مَا هِبْتُ أَحَداً قَطُّ هَيْبَتِي رَجُلاً ظَلَمْتُهُ وأنَا أَعْلَمُ لَا نَاصِرَ لَهُ إلا اللهُ يقولُ : حَسْبِيَ اللهُ ، واللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ .

وَعَن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ يَجِيءُ الظَّالِمُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى إذَا كَانَ على جَسْرِ جَهَنَّمَ لَقِيَهُ المَظْلُوَمُ وَعَرَّفَهُ مَا ظَلَمَهُ بِهِ فَمَا يَبْرَحُ الذِيْنَ ظُلِمُوْا بالذِيْنَ ظَلَمُوْا حَتَّى يَنْزِعُوْا مَا بِأَيْدِيْهِمْ مِن الحَسَنَاتِ فَإنْ لَمْ يَجِدُوْا لَهُمْ حَسَنَاتٍ حَمَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ سَيِئَآتِهِمْ مِثْلَ مَا ظَلَمُوْهُمْ حَتَّى يُرَدُّوْا إلى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِن النارِ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أُنَيْسٍ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ يُحْشَرُ العِبَادُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً فَيُنَادِيْهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا المَلِكُ الدَّيَان لا يَنْبَغِيْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النارِ أَنْ يَدْخُلَ النارَ وَعِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ إلى أنْ أُقِصَّهُ حَتَّى اللَّطْمَةَ فَمَا فَوْقَهَا ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَا .

قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ وإنَّمَا نَأْتِي حُفَاةً عُرَاةً فَقَالَ بالحسناتِ والسيئاتِ جَزَاءً ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَا وجَاءَ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال مَنْ ضَرَبَ سَوْطاً ظُلْماً اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وعن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسول اللهُ صلى الله عليه وسلم مَنْ أَعَانَ ظَالِماً سُلِّطَ عَلَيهِ وقال سعيدُ بنُ المُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللهُ لا

تَمْلَؤُا أَعْيُنَكُمْ مِن أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ إلا بالإنكارِ مِنْ قُلُوبِكُم لئلاّ تَحْبُطَ أَعْمَالُكُمْ .

وقال مَكْحُولُ الدِّمَشْقِي يُنَادِيْ مُنَادٍ يومَ القِيَامَةِ أَيْنَ الظَّلَمَةُ وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ فَمَا يَبْقَى أَحَدٌ مَدَّ لَهُمْ حِبْراً أَوْ حَبَّرَ لَهُمْ دَوَاةً أَوْ بَرَى لَهُم قَلَماً فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إلا حَضَرَ مَعَهُمْ فَيُجْمَعُوْنَ في تَابُوْتٍ مِن نارٍ فَيُلْقَوْنَ في النارِ .

وَجَاءَ رَجُلٌ خَيَّاطٌ إلى سُفْيَانِ الثَّوْرِي فَقَالَ إِنِّي رَجُلٌ اخِيْطُ ثِيَابَ السُّلْطانِ هَلْ أَنَا مِن أَعْوَانِ الظَّلَمةِ فَقَالَ سُفْيَانُ أَنْتَ مِنَ الظَّلَمَةِ أَنْفُسِهِمْ ولَكِن أَعْوَان الظَّلَمَةِ مَنْ يَبِيْعُ مِنْكَ الإِبْرَةَ والخُيُوْط .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فَصْـــلٌ)
فـي التَّــواضـــع

التَّواضُع يُقَابِلُ الكِبْرَ وَهُوَ انْكِسَارُ القَلْبِ لِلّهِ وَخَفْضُ جَنَاحِ الذُلِّ وَالرَّحْمَةِ لِلْخَلْقِ وَقِيْلَ هُوَ رِضَا الإنسانِ بِمَنْزِلَةٍ دُوْنَ ما يَسْتَحِقُّهُ فَضْلُهُ وَمَنْزِلَتُهُ وَفَضِيْلَتُه لاَ تَكَادُ تَظْهَرُ في أَكْثَرِ الناسِ وَإِنَّما يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ في أَجِلاّءِ الناسِ وَعُلَمَائِهِم العَامِلِيْنَ بِعِلْمِهِم وهَذَا كَانَ في عُلَمَاءِ السَلَفِ كَثِيْرٌ أَمَّا اليَومَ فَهُوَ نَادِرٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّفَضُلِ لِأَنَّ المُتَوَاضِعَ يَتْرُكُ بَعْضَ حَقِّهِ والتَّوَاضُعُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الكِبْرِ والضَّعَـةِ والكِبْرُ تَقَـدَّمَ تَعْرِيْفُـهُ في أَوَّلِ الكتاب .

والضَّعَةُ وَضْعُ الإنسان نَفْسَهُ في مَنْزِلَةٍ تُزْرِي بِهِ مِن الدَّنَاءَةِ والخِسَّةِ وابْتِذَالِ النَّفْسِ في سَبِيْلِ شَهَوَاتِهَا الفَاسِدَةِ فَتَجِدُ الوَضِيْعَ يَقِفُ في

المَوَاقِفِ التِي تُزْرِي بِهِ مِن أَجْلِ الحُصُولِ على وَظِيْفَةٍ أَوْ مَالٍ أو جَاهٍ أَوْ امرَأَةٍ أَوْ نَحْو ذَلِكَ فَلاَ يُبَالِيْ أَنْ يَذِلَّ لِمَنْ دُوْنَهُ أَوْ يَتَمَلَّقَ لِمَنْ يُهِيْنُهُ أَوْ يَقِفَ عَلَى بَابِ مَنْ يَسْتَثْقِلُهُ وَيُظْهِرُ الاشْمِئْزَازَ مِنْهُ وَهُوَ لاَ يُبَالِي بالألحاحِ عَلَيْهِ وَالوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ذَلِيْلاً خَاضِعاً ولا شَكَّ أَنَّ هَذَا صِفَةٌ ذَمِيْمَةٌ .

وَمَنْشَأُ التَّوَاضُعِ مِنْ مَعْرِفَةِ الإنسانِ قَدْرَ عَظَمَةِ رَبِّهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَدْرَ نَفْسِهِ لِأَنَّ مَنْ يُدْرِكُ أَنَّهُ شَخْصٌ ضَعِيْفٌ فانٍ وَأنَّ كُلَّ صِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ المُوْجِبَةِ لِلرِّفْعَةِ والكِبْرِ في هَذِهِ الحَيَاةِ لا ثَبَاتَ لَهَا بَلْ هِيَ أَعْرَاضٌ زَائِلَةٌ وَيُدْرِكُ أَنَّ رَبَّهُ هُوَ الخَالِقُ العَظِيْمُ المُتَفَرِّدُ بالبَقَاءِ والكِبْرِيَاءِ ، فَهَذَا لاَ يَتَمَرَّدُ عَلَى خَالِقِهِ باقْتِرَافِ الجَرَائِمِ والآثامِ وعندَ ذَلِكَ يُعَامِلُ الناسَ مُعَامَلَةً حَسْنَةً بِلُطْفٍ وَرَحْمَةٍ وَرِفْقٍ وَلِيْن جَانِبٍ ولا يَتَكَبَّرُ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَزْهُوْ عَلَى مَخْلُوقٍ وَلاَ يُبَالِي بِمَظاهِرِ العَظَمَةِ الكاذِبَةِ وَلاَ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُجَالَسَةِ الفُقَراءِ والمَشْيِ مَعَهُمْ واجَابَةِ دَعْوَتِهِم وَمُخَاطَبَتِهِم بالكلامِ اللَّينِ ولا يَأْنَفُ مِن اسْتِمَاعِ نَصِيْحَةِ مَنْ هُوَ دُوْنَهُ .

وَقال الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ التَّوَاضُعُ أَنْ تَخْضَعَ لِلْحَقِّ وَتَنْقَادَ لَهُ وَلَوْ سَمِعْتَهُ مِن صَبِي قَبِلْتَهُ مِنْهُ وَلَوْ سَمِعْتَهُ مِن أَجْهَلِ الناسِ قَبِلْتَهُ وَلِلتَّوَاضُعِ فَوَائِدُ وَمَنَافِعُ تَعُودُ عَلَى الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ بِالخَيْرِ الكثيرِ فإنَّ المُتَواضِعَ قَرِيْبٌ إلى الناسِ مُحَبَّبٌ إِلى نُفُوسِهِمْ ضِدُّ المُتَكَبِّرِ فَإِنَّهُ بَغِيْضٌ إِلَيْهِمْ ثَقِيْلٌ عِنْدَهُمْ وَكُلَّمَا دَنا المُتَوَاضِعُ مِنَ الناسِ ارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُم وَعَظُمَ في عُيُوْنِهِم وَثَقُلَ مِيْزَانُهُ عِندَهُم واسْتَفَادَ مِنْهُمْ وَأَفَادَهُمْ .

وَكُلَّمَا كَانَ المُتَواضِعُ عَظِيْماً ذَا مَكَانَةٍ رَفِيْعَةٍ كَانَ التَّواضُعُ مِنْهُ أَكْبَرَ أَثَراً وَأَكْثَرُ فَائِدَةً لأَنَّ الأَشْيَاءَ تَعْظُمُ بِنِسْبَةِ مَنْ تَسْتَنِدُ إليه كَمَا قِيل :

عَلَى قَـدْرِ أَهْلِ العَـزْمِ تَـأْتي العَـزَائِمُ
وتـأتـي على قـدْرِ الكِـرَامِ المَكَـارِمُ
وتعْـظُمُ في عَيْنِ الصَّغِيْـرِ صغـارهـا
وَتَـصْغـرُ فـي عَيْـنِ العَـظِيـم العَـظَائِـمُ

وَإِذَا كَانَ الْمُتَواضِعُ عَالِمَاً فإِنَّهُ بالتَّوَاضُعِ يَزْدَادُ عِلْمَاً لإِنَّهُ لا يَسْتَنكِفُ عَنْ أَخْـذِ الفائِدَةِ ممَّنْ هُوَ دُوْنَهُ ولهذا قِيْلَ تَعَلَّمُوْا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوْا ولا يَأْبَى العَالِمُ الْمُتَواضِعُ أَنْ يَنْقُلَ الحَقَّ عن أَيِّ مَخْلُوقٍ .

وَقَدْ تتلمذ الشَّيْخُ تَقِيُ الدِّينِ عَلى ابن عَبْدِ القَوِّي نَاظِمِ عِقْدَ الفَرَائِدِ وَنَظَم ابنُ عَبْدِ القَوي بَعْضَ اخْتِيَارَاتِ الشَيخِ تَقِيّ الدِّيْنِ فَعِنْدَمَا ذَكَرَ مَسَافَةَ القَصْرِ قال :

وَعِنْدَ إِمَـامِ العَصْـرِ لاَ حُجَّـةً لَهُـم   عَـلَى ذَا وَلَكِـنْ بِاسْـمِهِ فَلْيُحَـدَّدِ

وَعِنْدَمَا ذَكَرَ قِتَالَ أَهلِ البَغْي قال :

وَيكْرَهُ شَيْخُ العَصْرِ أَنْ يَقْصُد الفَتَى   بُغَـاةَ ذوِيْ الأَرْحَـامِ لاَ ذُوْ الْمُجَـرَّدِ

عِنْدَمَا ذَكَرَ مِنْ لَهَا عَادَةٌ مِن النِساء وَتَغَيَّرَتْ قال :

وَعِنْدَ إِمـامِ الوَقْتِ تَجْلِسُ مُطْلَقـا   لِظَـاهِـرِ مَـا يُـرْوَى بِغَيْرِ تَقَيُّـدِ

فَلِلَّهِ دَرُّهُ مِن مُتَـوَاضِعٍ . عكس ما عليه كثير من حاملي الشهادات الحالية دكتوراه وماجستير وبكالوريوس ودبلوم ونحوها نسأل الله الكريم أن يعافيهم ولا يبلانا فيما بُلوا به من الكبر والعُجْب والجَهْل .

قِيْلَ لِبزْرِ جَمْهَر مَا النِّعْمَةُ التي لا يُحْسَدُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا ، قال التَّواضُعُ قِيْلَ لَهُ فَمَا البَلاَءُ الذي لا يُرْحَمُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ قال العُجْبُ وقال التَّواضُعُ مَعَ السَّخَافَةِ والبُخْلُ أَحْمَدُ مِن الكِبْرِ مَع السَّخَاءِ والآدَابِ فَأَعْظِمْ بِحَسَنَةٍ عَفَتْ عَن سَيِّئَتَيْنِ وَأَقْبِحْ بعَيْبٍ أَفْسَدَ مِن صَاحِبِهِ حَسَنَتَيْنِ ولقد أَحْسَنَ القَائِلُ :

وَأَحْسَنُ مَقْرُونَيْنِ فِي عَيْنِ نَاظِرٍ جَلاَلَةُ قَدْرٍ فِي خُمُوْلِ تَوَاضُعِ

آخــر :

إنَّ التَّوَاضُعَ مِنْ خِصَالِ المُتقِي وبه التّقيُّ إلى المَعَالِي يَرتَقِي
ومِن العَجَائِبِ عُجْبُ مَن هو جَاهِلٌ في حَالِه أَهُوَ السَّعِيْدُ أَم الشَّقِي
أم كَيفَ يُختَمُ عُمْرُه أَوْ رُوْحُهُ يَوْمَ النَّوَى مُتسفل أَوْ مُرْتَقِي
والكِبْرِيَاءُ لِربِّنَا صِفَةٌ لَهُ مَخْصُوصَةٌ فَتَجَنَّبَنْهَا وَاتَّقِي

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاء مِنْ بَرِىء مِنْ ثَلاث نَالَ ثَلاثَاً مَنْ بَرِىء مِنَ السَّرَفْ نَالَ العِز وَمَنْ بَرِىءَ مِنَ البُخْل نَالَ الشَّرَف وَمَنْ بَرِىءَ مِنَ الْكِبرِ نَالَ كَرَامَةَ التَّواضُع وَقَالَ مِصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْر التَّوَاضُعُ مَصَائِدُ الشّرَف وَقِيْلَ فِي مَنْثُورِ الحِكَمَ مَنْ دَامَ تَوَاضُعُهُ كَثُرَ صَدِيْقُه .

أَمَّا المُتكبر فَهُوَ كَالمَغْرُور فَإِنَّهُ كَثِيْراً مَا تَفُوتَهُ الحَقَائِقُ العِلْمِيَّةْ لأَنَّهُ تأْبى عَلَيْهِ نَفْسُه أنْ يَأْخُذَ الحَقَّ حَيْثُ وَجدَه وَلِهَذَا قِيْلَ ضَاعَ الْعَلْمُ بَيْنَ الحَيَاءِ وَالكِبْرِ ثُمَّ إِنْ كَانَ المُتَواضِعُ تِلْمِيْذاً يَجِدُ لُطْفَاً وَعَطْفَاً مِنَ الاسْتَاذ فَلاَ يَبْخَلُ عَلَيْهِ بمَجْهُودِهِ وَلاَ يَشُحُّ عَلَيْهِ بِفَائِدَةٍ لأَنَّ التّواضُعَ يَسْتَلْزِمُ الأَدَب .

وَأَمَّا أَحْسَنُ الأَدَب والتَّواضُعِ واللُّطْف مَعَ المُعَلِم الَّذيْ يَبْذِلُ جُهْدَهُ فيسَبيْل تَثْقِيْفِهِ وَتَهْذِيْبهْ وَتَرْبِيَتِهِ تَرْبِيَةً صَالِحَةً وَأَنَّهُ بِتَوَاضُعِهِ وَحُسْن سَيْرَتِهِ مَعَ مُعَلِّمِه يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّهُ مِمَّنْ يَعْرفُ قَدْرَ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاء وَأَنَّهُ يُدْرِكُ قِيْمَة الْمَعْرُوف وَأَنَّهُ مِمَّنْ يُجَازِي عَلَى الإِحْسَانِ بالإِحْسَان .

أَمَّا الْمُتَكَبِّرُ الّذِيْ يَتَكَبَّرُ وَيَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِه وَيَحْمِلُهُ الْكِبْرُ عَلَى سُوءِ الأَدَب واحْتِقَارِ المُعَلِم فَهُوَ بِالحَقِيْقَة غَبِيٌ جَاهِلٌ جلفٌ فَدِم لاَ يَعْرِفُ لِلْعِلْم قِيْمَته وَلاَ يُرِيْدُ أَنْ يَخْرجَ مِنْ جَهْلِهِ وَهَذَا شَيءٌ مُشَاهَدٌ مَعْرُوف فَإِنَّكَ تَرَى الْمُتَكَبِّرِيْنَ عَلَى الْمُعَلِمِيْنَ يَعْمَهُونَ فِي حُمْقِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَلاَ يَخْرُجُونَ عَنِ السَّخَفِ فَضْلاً عَمَّا

ارْتَكَبُوهُ مِنْ نُكْرَانِ الجَمِيْلِ وَجَحْدِ المَعْروفِ الَّذِيْ يُسْدَىٰ إِلَيْهِمْ وَقَدِيْمًا قِيْل :

فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ جَفَوْتَ طَبِيْبَهُ   واصْبِرْ لِجَهْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمَا

آخــر : وَمَنْ لَـمْ يَـذُقْ مُـرَّ التَّعَـلُّمِ سَـاعَةً   تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْـلِ طُـوْلَ حَيَـاتِـهِ

فَصَبْراً عَلَى مُـرِّ الْجَفَـا مِـن مُعَـلِّمٍ   فَإِنَّ رُسُوبَ العِـلْمِ فـي نَفَـرَاتِـهِ

وَمَـنْ فَـاتَـهُ التَّعْـلِيمُ وَقْتَ شَبَابِـهِ   فَكَـبِّرْ عَلَيْـهِ أَرْبَعـاً لِـوَفَـاتِـهِ

وَذَاتُ الْفَتَى وَاللَّهِ بالعِـلْمِ والتُّقَـى   إِذَا لَـمْ يَكُـونَـا لَا اعْتِبَـارَ لِـذَاتِـهِ

آخــر :

أَيْنَ المراتِبُ في الدنيا ورِفْعَتُهَا   مِن الذِيْ حَازَ عِلْماً ليسَ عندهُمُ

لا شَكَّ أَنَّ لنا قدراً رَأَوْهُ وَمَا   لِمِثْلِهِم عِنْدَنَا قَدْرٌ ولا لَهُمُوْا

هُمُ الوُحُوش ونَحْنُ الإِنْسُ حِكمتُنَا   تَقُوْدُهُم حَيْثُمَا شِئنَا وهُمْ نَعَمُ

آخــر : إِحْـرَصْ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ تَبْلُغَ الأملا   ولا تُواصِـلْ لِعِـلْمٍ وَاحِـدٍ كَسَـلَا

فالنَّحْـلُ لَمَّـا رَعَـتْ مِـنْ كُـلِّ فاكِهَةٍ   أَبْدَتْ لَنَا الجَوْهَرَيْنِ الشَّمْعَ والعسَلَا

الشَّمْعُ باللَّيْلِ نُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بِـهِ   والشَّـهْدُ يُبْرِيْ بِـإِذْنِ الْبَارِيءِ العِلَلَا

تَنْبِيْـه : وَنَعْنِي بالْعَـالِمِ المُعَلَّم الّـذِي يُتَـأَدَّبُ مَعَهُ وَيُتَوَاضَعُ لَهُ وَيُقَدَّرُ وَيُحْرَصُ عَلَى أَخْذِ العِلْم مِنْه وَمُجَالَسَتِهِ العَامِلُ بعَمَلِهِ المُتَأَدِّب بآدَابِ الشَّرِيْعَةِ المُتَمَسِّـكُ بِهَا الَّـذِي يَصْدَعُ بالحَق وَلَا تَأْخُذُه فِي الله لَوْمَةَ لَائِم البَعِيْدُ عَنِ المُجَامَلَة إِذَا رَأَى مَا يُغْضِبُ الله البَعِيْد عن الظَّلَمَةِ وَأَعْوانِهِمْ .

أَمَّا مَنْ يُسَمُّونَ مَشَايِخَ وَأَسَاتِذَة وَيُرَى عَلَيْهِمْ آثَارَ مُخَالَفَةِ النَّبِي ﷺ مِنْ حَلْق لِحْيَةٍ أَوْ تَشَبُّهٍ بِالْكَفَرةِ أَوْ تَرْكِ حُضُور جُمعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ اسْتِعْمَالِ آلاتِ لَهْو أَوْ شَرْبِ دُخَان أَوْ نَحوِ ذَلِكَ فَهؤلاءِ يَتَعيَّنُ الإِبْتِعَادُ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُجَاوَرَتِهِم وَمُعَـامَلَتِهِمْ وَمُشَـارَكَتِهِمْ إِلَّا لِضَرُوْرَةٍ أَوْ حَاجَـةٍ شَدِيْدَةٍ تَدْعُوْ إِلى ذَلِك لِأَنَّ

الطِّبَاع كَسَّابَةٌ وَيُخْشَى عَلَى مَنْ قَارَفَهُمْ أَوْ قَارَبَهُمْ أَنْ يَتَّصِلَ مَا بِهِمْ مِنْ مَرَضٍ مَعْنَوي إلى ذَلِكَ الشَّخْص البَرِيْ .

شعراً :

خَلَتِ القُلوبُ مِن المَعَادِ وذِكْرِهُ وَتَشَاغَلُوا بالحِرْصِ والأَطْمَاعِ
صارَتْ مَجَالِسُ مَن ترى وحَدِيثُهم في الصُّحُفِ والتِلْفَازِ والمِذْيَاعِ

آخر :

(أَلَا أَيُّهَا المَغْرُورُ في جَرِّثَوْبِهِ وجَزِّ لِبَعْضِ الراس فعْلَ الأَرَاذِلِ)
(فما العِزّ في حَلْقَ اللِّحا أَوْ خَنَافِسٍ ولا شُرْبِ دَخّانٍ كَفِعْلِ الأَسَافِلِ)
(ولكِنَّهُ بالعِلْم والزُّهْدِ والتُّقى وصِدْقٍ وحِلْمٍ واقْتِنَاءِ الفَضَائِلِ)

قَالَ ابْنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ غَائِباً عَن المُنْكَر في بُيوتِ الوُلَاةِ وَيكُونُ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْر مَنْ حَضَرَ وَذَلِكَ لأَنَّهُ يَبْلُغه فَيَرْضَىٰ بهِ وَيَسْكُتُ عَلَيْهِ ، قُلْتُ وفي وَقْتِنَا مَا أَكْثَرَ السَّاكِتِيْنَ وَالمدلِّسين والمُدَاهِنِيْنَ الَّذِيْنَ هَمُّهُمْ وَهَدَفهمُ الْوَحِيْدُ مَا يَحْشُونَ بهِ بُطُونَهُمْ مِنْ مَطْعُومٍ وَمَشْرُوب أَوْ مَا يُجَمِّلونَ بِهِ ظَوَاهِرَهُمْ مِنْ مَلْبُوسٍ وَمَرْكُوبٍ أَوْ يَتَذَوَّقُونَ به مِنْ زَوْجَةٍ إلى زَوْجَة دَائِماً يُطَلِّقُ وَيَتزَوّج لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى الدَّوَام .

قال ﷺ لا تُطَلَّقُ النِسَّآءُ إلا مِن رِيبَةٍ إنَّ الله تعالى لَا يُحِبُّ الذَّوَاقِيْنَ والذَّوَاقُ الكثيرُ النكاح والطَّلاقِ مِن غَيْرِ عُذْرٍ شَرْعِي والذَّوَاقَةُ التي كلُّ مَنْ أَخَذَهَا تَتَسَبَّبُ لِفراقِهِ لأَجْلِ أَنْ تَتَزَوَّجَ بغَيْرِه .

وإنْ كَانَ المُتواضِعُ تَاجِراً ذَا مَالٍ فَإِنَّهُ بِمُخَالَطَتِهِ الناسَ وَعَدم التَّرَفُّعِ والكِبْرِ عَلَيْهِم يَنَالُ بِهِ الإِنسانُ الألفة والإِئْتِنَاسَ والمَحَبَّةَ والاقبالَ عليه في المُعَامَلَةِ وَيَعْرِفُ الفُقَرَآءَ والمُحْتَاجِيْنَ وَيَرَى مَا يُصِيبُهُمْ مِن الشَّقَاءِ وَيَمَسُّهُمْ مِن الجُوْعِ والعُرِيّ وَمَا يُؤْذِيْهِم مِن أَلَمِ الحَرّ والبَرْد فَتَأَلَّمُ نَفْسُهُ لِمَا يُصِيبُهُمْ فَيَرْحَمُهُمْ وَيَعْطِف عَلَيْهِم فَيَسْهُلُ عَلَيهِ فِعْلُ الخَيْرِ والمُشَارَكَةُ فِيْهِ وَيَسْهُلُ عَلَيهِ أَدَاءُ ما

فَرَضَهُ الله عليهِ مِن نَفَقَاتٍ وَزَكَاةٍ وَيهُوْنُ عَلَيْهِ انْقَاذُ المَكْرُوْبِ وإغَاثَةُ المَلْهُوْفِ .

وفي عَمَلِهِ ذَلِكَ مَعَ النِّيَةِ الصَّالِحَةِ فَائِدَةٌ لَهُ وَلِلنَّاسِ لأَنَّهُ بِعَمَلِهِ هَذَا يُرْضِي اللهَ أَوَلاً وَرِضَى الرَّبِ خَيْرُ ذَخِيْرَةٍ يَدْخَرُهَا المَرْءُ تَنْفَعُهُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ لأَنَّ مَن يَرْضَى عَنْهُ مَوْلاَهُ القَوِيُّ العَزِيْزُ فَقَدْ فازَ بالدُّنْيَا والآخِرَةِ أَمَّا بالدُّنْيَا فَلِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِن رَاحَةِ الخَاطِرِ الَّتِيْ يَتَأَلَّمُ لَهَا المُتَكَبِرُوْنَ وَتَغْلِي مِن أَجْلِهَا دِمَاؤُهُمْ وَيَطْغَى غَضَبُهُم فَيَحْمِلُهُمْ عَلى التَّعَدِيْ عَلى عِبَادِ اللهِ قَوْلاً وَفِعْلاً وَلِمَا يَكْسِبُهُ مِن قُلُوبِ النَاسِ وَمَحَبَّتِهِم لَهُ واحْتِرَامِهِم لَهُ وإخْلاَصِهِم في خِدْمَتِهِ والمُبَادَرَةِ لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِ وتَضَافِرُهم عَلى الدِّفَاعِ عَنْهُ والانْتِصَارِ لَهُ .

وَعَلَى عَكْسِهِ المُتَكَبِّرُ لاحْتِقَارِهِ لَهُمْ واحْتِقَارِهِمْ لَهُ وانْ كَانَ التَّوَاضُعُ مِن صَاحِبِ جَاهٍ فَإِنَّ التَّوَاضُعَ يَجْعَلُ لِجَاهِهِ قِيْمَةً لأَنَّ الجَاهَ إِنْ لَمْ يُسْتَعْمَلْ في فَائِدَةِ الأُمَّةِ والأَفْرَادِ لاَ يَكُونُ لَهُ مَعْنَى وَمَنْ تَرَفَّعَ عن النَاسِ وَلَمْ يَتَوَاضَعْ لَهُمْ فَإِنَّهُ لاَ يَدْنُوْ مِنْهُ أَحَدٌ وَلاَ يَنْتَفِعُ بِجَاهِهِ مُحْتَاجٌ فَيَظَلُّ جَاهَهُ قَاصِرٌ عليهِ وَيُصْبِحُ اسْماً بِدُوْنِ مُسَمَّى .

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَتَى حَصَلَ لَهُ مَا يَسُدُّ شَهْوَتَهُ وَحْدَهُ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أو سُلْطَان فَقَدْ ظَفَرَ بِلَذَّاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيْمِهَا فَلاَ يُبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ بِغَيْرِهِ شَقِيَ أَمْ سَعِد فَهُوَ ضَائِعٌ أَحْمَق لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَسْتَقِلُّ في هَذِهِ الحَيَاةِ بَلْ لاَ بُدَّ مِنَ التَّعاوُنِ مَعَ غَيْرِهِ ، قَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً سُخْرِيَّاً ﴾ قالَ الشَّاعِرْ :

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ
بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

وَكُــلُّ عُــضْــوٍ لأَمْــرٍ مَّــا يُــمَــارِسُــه
لاَ مَشْيَ لِلْكَفِّ بَــلْ تَمْشِي بِــهِ الْقَــدَمُ

آخــر :

إذَا مَــا تَــأَمَّــلْنَــا الأُمُــورَ تَــبَــيَّــنَــتْ
لَــنَــا وَأَمِيْــرُ الــقَــوْمِ لِلْقَوْمِ خَــادِمُ

مَــوْعِظَــةُ

عِبَادَ اللّهْ مَنْ كَانَ المَوْتُ يَطْلُبُهُ كَيْفَ يَقِرُّ لَهُ قَرار وَمَنْ كَانَ الدَّهْرُ يُجَارِيْهِ فَكَيْفَ يُطِيْقُ الانْتصَار ، وَمَنْ كَانَ رَاحلاً عَنِ الدّنْيَا إلى الآخِرَةِ كَيْفَ يَلَذُّ لَهُ قَرَارُ ، عَجَباً لِمَنْ يَمْلأُ عينهُ بِالنَّومِ وهُوَ لاَ يَدْرِي أيُسَاقُ إلى الجَنَّةِ أَوْ إلى النَّار .

وَلَقَدْ أحْسَن مَنْ قَال :

(وَكَــيْفَ تَــنَــامُ الْــعَــيْــنُ وَهِــيَ قَــرِيْــرَةٌ
وَلَــمْ تَــدْرِ فِي أيْ الــمَكَــانِــيْنِ تَــنْــزِلُ)

إنْ هِيَ إلاّ غَفْلَةٌ وَأُمْنِيَّةٌ عَاجِلَةٌ وَسَجِيَّةٌ عَادِلَةٌ جَرَى بِهَا القَلَمُ وَمَضَى عَلَيْهَا سَالِفُ الأُمَمِ ، فَيَا فَرَائِسَ الاحْدَاث وَيَا غَرَائِسَ الاجْدَاث ، لَقَدْ صَعَقَ المَوْتُ فِي دِيَارِكُمْ فَنَعَب ، وَصَدَقَكُمْ صَرْفُ الزّمَانِ وَمَا كَذب ، فَكَأَنَّهُ قَدْ أَعَادَ عَلَيْكُمْ الكَرَّةَ وَسَلَب ، وَنَغَّصَ عَلَيْكُمُ الْمَسّرةَ ، وَانْتَهَزَ فِيْكُم الغِرَّة ، فَمَا أَقَالَكُمْ عَثْرَة .

عَنْ كَعْبٍ أَوْ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِيْن قَال : يَقُوْمُونَ مِقْدَارَ ثَلاَثمائةِ عَامْ قَالَ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُوْلُ : مَا ظَنّكَ بِأَقْوَامٍ قَامُوا لِلّهِ عَزّ وَجَل على أَقْدَامِهِمْ مِقْدَارُ خَمْسِيْنَ أَلْف سَنَة لَمْ يَأْكُلُوا فِيْهَا أَكْلَة وَلَمْ يَشْرَبُوا فِيْهَا شَرْبَــةْ حَتّى إذَا انْقَطَعَتْ أَعْنَــاقُهمْ مِنَ الْعَطَشْ

وَاحْتَرَقَتْ أَجْوَافُهُمْ مِنَ الجُوْعِ انْصُرِفَ بِهِمْ إلى النّارْ فَسُقُوا مِنْ عَيْنٍ قَدْ آنَ حَرُّهَا واشْتَدَّ نَفْحُهَا .

فَلَمَّا بَلَغَ المَجْهُودُ مِنْهُمْ مَالاَ طَاقَةَ لَهُمْ بِهْ كَلَّمَ بَعْضُهُمْ بَعْضَا في طَلَبِ مَنْ يَكْرُمُ عَلى مَوْلاَهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ في الرَّاحَةِ مِنْ مَقَامِهِمْ وَمَوْقِفِهِمْ لِيَنْصَرِفُوا إلى الجَنّةِ أَوْ إلى النَّارْ مِنْ وُقُوفِهِمْ فَفَزِعُوا إلى آدَمَ وَنُوحٍ وَمِنْ بَعْدِهِ ابْرَاهِيْمَ وَمُوْسَىٰ وَعِيْسَى كُلُّهُمْ يَقُولُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ مِثْلَهُ قَبْلَهْ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهْ مِثْلَهْ فَكُلُّهم يَذْكُرُ شِدَّةَ غَضَبِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَل وَيُنَادِي بالشُّغُل بِنَفسِهْ فَيَقُولَ نَفسِي نَفْسِي نَفْسِي فَيَشْتَغِلُ بِنَفْسِهِ عَنَ الشَّفَاعَةِ لَهُمْ إلى رَبّهِمْ لإهْتِمَامِهِ بِنَفسِهِ وَخلاَصِهَا .

وَكَذلِكَ يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَل ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلّ نَفسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِها فَبَادِرُوا رَحِمَكُمُ اللّهْ وَأَنْتُم في مَكَانِ الإمْكَانْ ، قَبْلَ ضِيْقِ الأَوْطَان ، وَتَقَلُّصِ اللّسَانَ واصْفِرَارِ البَنَان ، والتَّقَلُّبِ مِن جِهَةٍ إلى جِهَة مِنْ شِدَّةِ الآلام.

وَرَفْعُ يَدٍ وَوَضْعُ الأخرَى مِنْ شِدَّةِ السَّكَرَات ، لِجَذْبِ الرُّوحِ مِن العُرُوقِ والعَصَب والعِظَامَ ، قَبْل شُخُوصِ البَصَر ، وَبُرُودَةِ البَدَن ، وَنَقْلِهِ لِبَيْتِ الدَّوْدِ والظُّلْمَةِ وَالوَحْشَةِ والإِنْفِرَادِ وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنكِيْرٍ ، وَمَا يَعْقبُه مِنْ كُلِّ أمْرٍ خَطِيْرٍ في يَوْمٍ يَشِيْبُ مِنْ أَهْوَالِهِ الوِلْدَان .

فَمَا ظَنّكُمْ عِبَادَ اللّهِ بِيَوْمٍ بَضَائِعُـهُ الأَعْمَالُ ، وَشُهُـوْدُهُ الجُلُودُ والأَلْسِنَةُ وَالأَوْصَال ، وَسِجْنُهُ النَّارُ ، وَحَاكِمُهُ الجَبَّارُ ، إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيْمٌ لاَ يَعْمَلُ لِحَسَابِهِ إلاَّ مَنْ وَفّقَهُ الْحيُ الْقَيّوم لَيس فِيهِ لِلْمُجْرِمِ رَاحَةٌ ولا نَوْمٌ ، فانْتَبِهُوا رَحِمَكُمُ اللهُ وَتَيَقَّظُوا وَتَزَوَّدُوْا فَكَأَنَّكُم بِهِ وَقَدْ أتى قَالَ تَعَالى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهم وهُم في غَفْلَةٍ مُعْرِضِوْنَ ﴾ ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه ﴾ .

شِـعْراً :

خَبَتْ مَصَابِيْحُ كُنَّا نَسْتَضِيْءُ بِهَا
وَطَـوَّحَتْ لِلْمَغِيْبِ الأَنْجُمُ الـزُّهَـرُ
واسْتَحْكَمَتْ غُرْبَةُ الاسْلَامِ وانكَسَفَتْ
شَمْسُ العُلُومِ التي يُهْدَى بِهَا البَشَرُ
تُخُـرِّمَ الصَّالِحُـونَ المُقْتَـدَى بِهِم
وقـامَ مِنهُم مَقَامَ المُبْتَـدَا الخَبَـرُ
فَلَسْتَ تَسْمَـعُ إلا كَـانَ ثُمَّ مَضَى
وَيَلْحَقُ الفَـارِطُ البَـاقِيْ بِمَنْ غَبَـرُوا
والناسُ في سَكْرَةٍ مِن خَمْرِ جَهْلِهِمُ
والصَّحْوُ في عَسْكَرِ الأَمْوَاتِ لَوْ شَعِرُوا
نَلْهُو بزُخْرُفِ هَذَا العَيْشِ مِن سَفَـهٍ
لَهْـوَ المُنَبِّتِ عُـوْداً مَـا لَـهُ ثَمَـرُ
وَتَـسْتَـحِـثُّ مَـنَـايَـانَـا رَوَاحِلَنَـا
لِمَـوقِفٍ مَالَنَـا عَنْ دُوْنِـهِ صَـدَرُ
إلَّا إلى مَـوْقِفٍ تَبْـدُوْا سَـرَائِـرُنَـا
فِيْـهِ وَيَـظْهَـرُ لِلْعَـاصِيْنَ مَـا سَتَـرُوْا
فَيَـالَـهُ مَصْـدَراً مَـا كَـانَ أَعْـظَمَـهُ
النَاسُ مِن هَوْلِهِ سَكْرَى وَمَا سَكِرُوْا
فَكُنْ أَخِيْ عَـابِـراً لا عَـامِـراً فَلَقَـدْ
رَأَيْتَ مَصْرَعَ مَنْ شَادُوْا وَمَنْ عَمَرُوْا
اسْتُنْـزِلُـوا بَعْـدَ عِـزٍ عَن مَعَـاقِلِهِم
كَـأَنَّهُم مَـا نَهَـوْا فيهَـا ولا أَمَـرُوْا

تُغَـلُّ أَيْـدِيْهِمُـوْ يَـوْمَ القِيَـامَـةِ إِنْ
بَرُّوْا تُفَكُّ وفي الأَغْـلَالِ إِنْ فَجَرُوْا
وَنُحْ عَلى العِلْمِ نَوْحَ الثَّاكِلَاتِ وَقُلْ
والهْفَ نَفْسِيْ عَلى أَهْـلٍ لَهُ قُبِـرُوْا
الثَّـابِتِيْنَ عَـلَى الإِيْمَـانِ جُـهْـدَهُم
والصَّـادِقِيْنَ فَمَـا مَـانُـوْا ولا خَتَـرُوْا
الصَّـادِعِيْنَ بِـأَمْـرِ اللهِ لَـو سَخِـطُوْا
أَهْـلُ البَسِيْطَةِ مَـا بَالَـوْا ولَـوْ كَثُـرُوْا
السَّالِكِيْنَ عَلَى نَهْجِ الـرسُولِ عَلَى
مـا قَـرَّرَتْ مُحْكَمُ الآيَـاتِ والسُّـوَرُ
العَـادِلِيْنَ عَن الـدُّنْيَـا وَزَهْـرَتِهَـا
والآمِـرِيْنَ بِخَيْـرٍ بَعْـدَ مَـا ائْتَمَـرُوْا
لَمْ يَجْعَلُوا سُلَّماً لِلْمَـالِ عِلْمَهُمُـوْا
بَـلْ نَـزَّهُـوْهُ فَلَمْ يَعْلُقْ بِـهِ وَضَـرُ

فَحَيَّ أَهْـلاً بِهِمْ أَهْـلاً بِـذِكْـرِهِمُـوْا
الـطَّـيِـبِـيْـنَ ثَـنَـاءً أَيْـنَـمَـا ذُكِـرُوْا
أَشْخَاصُهُم تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى وَهُمُوْا
كَـأَنَّهُم بَيْنَ أَهْلِ العِلْم قَـدْ نُشِـرُوْا
هَـذِيْ المَكَـارِمُ لَا تَـزْوِيْقُ أَبْنِيَـةٍ
وَلَا الشُفُوفُ الَّتِيْ يُكْسَى بِهَا الجُدُرُ
والعِلْمُ إِنْ كَـانَ أَقْـوَالاً بِـلَا عَمَـلٍ
فَلَيْتَ صَـاحِبَهُ بِـالجَهْـلِ مُنْغَمِـرُ

يَـا حَـامِـلَ العِلْمِ والقُـرْآنِ إِنَّ لَنَـا
يَـوْمـاً تُضَمُّ بِـهِ المَـاضُـوْنَ والأخَـرُ
فَـيَسْـأَلُ الـلَّهُ كُـلاً عَنْ وَظِـيْفَـتِـهِ
فَلَيْتَ شِعْـرِي بِمَـاذَا مِنْـه تَعْتَـذِرُ
وَمَـا الجَـوابُ إِذَا قَـالَ العَلِيْم أَذَا
قَـالَ الرسـولُ أَوِ الصِّـدِّيْقُ أَوْ عُمَـرُ
والكُـلُ يَـأْتِيْـهِ مَغْلَولَ اليَـدَيْنِ فَمِنْ
نَـاجٍ وَمِنْ هَالِـكٍ قَدْ لَـوَّحَتْ سَقَـرُ
فَـجَـدِّدُوْا نِـيَّـةً لِـلَّـهِ خَـالِـصَـةً
قُـومُوْا فُرَادَى وَمَثْنَى واصْبِرُوْا وَمُـرُوْا
وَنَاصِحُوا وَانْصَحُـوا مَنْ وَلِيَ أَمْرَكُمُ
فـالصَّفْـوُ لَا بُـدَّ يَـأْتِي بَعْـدَه كَـدَرُ
واللهُ يَلْطُفُ في الـدُّنْيـا بِنَـا وَبِكُمْ
وَيَـوْمَ يَشْخَصُ مِن أَهْـوَالِـهِ البَصَـرُ
وَصَـلِّ رَبِّ عَلَى المُخْتَـارِ سَيِّـدِنَـا
شَفِيْعِنَـا يَـوْمَ نَـارِ الكَـرْبِ تَسْتَعِـرُ
مُحَمَّـد خَيْـرِ مَبْعُـوْثٍ وَشِيْعَتِـهِ
وَصَحْبِـهِ مَـا بَـدَا من أُفْقِـهِ قَمَـرُ

اللهم كَمَا صُنْتَ وُجُوْهَنَا عن السُّجُودِ لِغَيْرِكَ فَصُنْ وُجُوْهَنَا عن المَسْأَلَةِ لِغَيرِكَ ، اللهم مَن كَانَ عَلى هَوَى وهو يَظُنُّ أَنَّهُ على الحَقِ فَرُدَّهُ إلى الحَقِ حَتَّى لَا يَظَلُّ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدُ اللَّهُمَّ لا تَشْغَلْ قُلُوبَنَا بِمَا تَكَفَلْتَ لَنَا بِهِ وَلَا تَجْعَلْنَا في رِزْقِكَ خَولاً لِغَيْرِكَ وَلَا تَمْنَعْنَا خَيْرَ مَا عِنْدَكَ

بِشَرِ مَا عِنْدَنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ منهم والمَيِّتِيْنَ بِـرَحْمَتِكَ يَـا أَرْحَمَ الرَّاحمين وصلى الله على محمـد وآله وصحبـه أجمعين .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ إِنَّ عَلَيْكُم مَسْؤُلِيَّةً كُبْرَى وفي أَعْنَاقِكُم أَمَانَةً عُـظْمَى سَتُسْأَلُونَ عنها يَوْمَ يَبْعَثُ اللهُ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ ، فإِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ في أَعْنَاقِكُم أَوْلَادَكُم وهُم أَفْلَاذُ أَكْبَادِكُم فاتَّقُوا اللهَ فِيْهِم ووَجِّهُوْهُمْ إلى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ والأَخْلَاقِ الفَاضِلةِ ، فإِنَّ هَؤلَاءِ الأَوْلَادِ سَيَكُونونَ في المُسْتَقْبَلِ رِجَالاً ، فَإِذَا تَرَبُّوْا على طاعةِ اللهِ وَتَعَوَّدُوْا الأَخْلَاقَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تَرْفَعُ مَقَامَهُمْ وَتُعْلِيْ شَأْنَهُمْ وَحَصَّلُوا مِنَ العُلُومِ النَّافِعَةِ مَا يَنْفَعُوْنَ به أَنْفُسَهُمْ وَيَنْفَعُونَ بِهِ عِبَادَ اللهِ ، كَانُوْا أَسَاساً مَكِيْناً لِنَهْضَةِ الأُمَّةِ وَهَذا أَمْرٌ لا يَخْتَلِف فِيه إِثْنَانِ .

وإن اسْتَعَادُوْا سَافِلَ الأَخْلَاقِ وَهَجَرُوْا العُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ وما يُعِيْنُ عَلَيْهَا ، كَانُوا ضَرَراً عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلى الأُمَّةِ .

عِبَادَ اللهِ التَّرْبِيَةُ أَمْرٌ عَظِيْمُ الخطَرِ كَبِيْرُ القِيْمَةِ ، والطِّفْلُ أَمَانَةٌ عِنْدَ وَالِدَيْهِ ، وَقَلْبُهُ الطَّاهِرُ جَوْهَرَةٌ نَفِيْسَةٌ خَالِيَةٌ مِنْ كُلِّ نَقْشٍ وَصُوْرَةٍ فإِنْ عُوِّدَ الخَيْرَ وَعُلِّمَهُ نَشَأَ عَلَيْهِ وَسَعِدَ في الدنيا والآخِرَةِ وَشَارَكَهُ في ثَوَابِهِ أَبَوَاهُ ، وَكَلُّ مُؤَدِّبٍ وَمُعَلِّمٍ لَهُ في الخَيْرِ ، وإِنْ عُوِّدَ الشَّرَّ وأُهْمِلَ وَتُرِكَ بِلَا عِنَايَةٍ ، شَقِيَ وَهَلَكَ وَكَانَ عَلَى وَلِيِّه وَرَاعِيْهِ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الإِثْمِ .

فالتَّربِيَةُ هِيَ غَرْسُ الدِيْنِ الإِسْلامِي ومَحَبَّتِهِ وآدَابِهِ قَولاً وَعَمَلاً واعتقاداً ، وغَرْسُ الأَخلاقِ الفاضِلَةِ في نُفُوسِ النَّاشِئِيْنَ وَسَقْيُهَا بِمَاءِ الإِرْشَادِ والنَّصِيْحَةِ ، والتَّوْجِيْهِ إِلى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ واتِّبَاعِ سَبِيْلِ السابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ مِن المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ .

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في الحَدِيْثِ الذي أَخرجَهُ البُخَارِي عن أبي هريرة رضي اللهُ عنه ، قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَا مِن مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إِلا عَلَى الفِطْرَةِ فأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيْمَةُ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّوْنَ فِيها مِن جَدْعَاءَ .

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عنه فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدينُ القَيِمُ . والله وَأَعلم وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ

(فَصْلٌ)

قَالَ في الدُرُوْسِ الوَعْظِيَّةِ عَلَى هَذَا الحَدِيْثِ : أَجْمَعَ العُقَلاَءُ عَلى أَنَّ الإِنْسَانَ بِحَاجَةٍ إِلى التَّرْبِيَةِ فَإِنَّمَا يُوْلَدُ صَغِيْراً مُجَرَّداً عَنْ كلِّ المُمَيِّزَاتِ قَابِلاً لِكُلِّ نَقْشٍ مُسْتَعِدّاً لِكُلِّ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ تَعْلِيْمٍ وَيُحَاطُ بِهِ مِنْ تَثْقِيْفٍ .

وَالوَالِدَانِ هُمَا الرَّاعِيَانِ لِوَلَدِهِمَا المَسْؤُلانِ عَنْهُ لَدَى اللّهِ والنَّاسِ ، فانْ أَحْسَنَا تَأْدِيْبَهُ وَعَوَّدَاهُ الخَيْرَ وَانْشَآهُ عَلَيْهِ سَعدَ في دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ وَنَالَ أُمْنِيَتَهُ وَمُبْتَغَاهُ ، وَكَانَ لِوَالِدَيْهِ وَكُلِّ مَن اشْتَرَكَ في تَعْلِيْمِهِ وَسَاهَمَ في تَهْذِيْبِهِ أَجْرُهُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنْ أَهْمَلَهُ وَالِدَاهُ إِهْمَالَ البَهَائِم وَلَمْ يَرْعَيَا حَقّ اللهِ بِهِ كَانَ اثْمُهُمَا عِنْدَ اللهِ كَبِيْراً وَسُؤَالُهُمَا خَطِيْرا .

وَإِنَّ مِن الأُمورِ المُحَقَّقَةِ وَالحَقَائِق المُشَاهَدَةِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا أَنَّ عَقْلِيَّةَ الوَلَدِ تَتَأَثَّرُ بِتَأَثُّرِ البِيْئَةِ وَالمُجْتَمعِ صِحَّةً وَفَساداً ، لِسَذَاجَةِ نَفْسِهِ وَسَلاَمَةِ فِطْرَتِهِ إِذَنْ ، فَوَاجِبُ الوَالِدِ كَبِيْرٌ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحُوطَهُ بِعِنَايَةٍ دَقِيْقَةٍ وَرَقَابَةٍ شَدِيْدَةٍ وَتَوْجِيْهٍ صَحِيْحٍ وَتَرْبِيَةٍ حَسَنَةٍ .

وَذَلِكَ بِأَنْ يُؤَدِّبَهُ ، وَيُهَذِّبَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ ، وَمَحَاسِنَ العَادَاتِ ، وَيَحْفَظَهُ مِنْ قُرَناءِ السُّوْءِ ، وَذَوِي الأَخْلاَقِ المُنْحَطَّةِ ، وَلْيَعْلَم الوَالِدُ أَنَّ وَلَدَهُ أَمَانَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلْيُؤَدِّ وَاجِبَ الأَمَانَـةِ ، وَلْيَقُمْ بِحَقِّ الرِّعَايَةِ .

وَإِذَا أُهْمِلَ الوَلَدُ في ابْتِدَاءِ نَشْأَتِهِ وَأَوَّلِ رَعْرَعَتِهِ وَتَمْيِيْزِهِ خَرَجَ خَبِيْثَ الطَّبْعِ سَيِّءَ الأَخْلاَقِ ، مُحْتَالاً كَذَّاباً سَـرَّاقاً كَثِيْـرَ الهَذَيَـانِ وَفُضُوْلِ الكَلاَمِ ، يَتَدَخَّلُ فِيْمَا لاَ يَعْنِيْهِ ، بَذِيْءَ اللِّسَانِ مُغْتَاباً نَمَّاماً وَقِحاً بَعِيْداً عَنِ التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ ، قَرِيْباً مِن الفُسُوْقِ والفُجُورِ .

وَفي مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ يَكُونُ وَبَالاً عَلى المُجْتَمَعِ وَعُضْواً فَاسِداً يَجِبُ أَنْ يُبْتَرَ وَيُقْطَعَ إِلا مَنْ حَفِظَ رَبُّكَ .

وَيَجِبُ عَلى وَلِيِّ الطِّفْلِ وَالطِّفْلَةِ عِنْدَ إِرَادَةِ التَّعْلِيْم أَنْ يُسَلِّمَ الوَلَدَ لِمُرَبٍّ صَالِحٍ ، وَمُعَلِّمٍ نَاصِحٍ ، يَحْفَظُ عَلَيْهِ أَخْلاَقَهُ ، وَيُحَسِّنُ آدَابَهُ ، وَيُرَوِّضُه وَيُمَرِّنُه على الشَّعَائِرِ الدِّيْنِيَّةِ ، وَيُلَقِّنُهُ العَقَائِدَ الصَّحِيْحَة السَّلِيْمَةَ ، الإِسْلاَمِيَّةَ وَلاَ يَتَسَامَحْ مَعَهُ في إِهْمَالِ أَمْرِ الدِّيْنِ وَآدَابِهِ .

وَلاَ يَجُوزُ تَسْلِيْمُ الطِّفْلِ إِلَى مُعَلِّمٍ مُتَهَتِّكٍ يَسْتَهْتِرُ بِأَمْرِ الدِّيْنِ أَوْ زِنْدِيْقٍ مارِقٍ لاَ يُبَالِي بِعَقَائِدِ المُسْلِمِيْنَ، أَوْ جَاهِلٍ سَخِيْفٍ يَبْهَتُه بالخَرَافاتِ والغَرائِبِ ، وَهُوَ في نَفْسِهِ لاَ يُمَيِّز الحَقَّ مِنْ البَاطِلِ والغَث مِن السَّمِيْنِ ،

أَوْ مُلْحِدٍ خَارِجٍ عَنِ الأوَامِرِ الإلٰهِيَّةِ والنَّوَامِيْسِ السَّمَاوِيَّةِ غيرَ مُكْتَرِثٍ بالتَّعَالِيْمِ الدِّيْنِيَّةِ ، أَوْ يَقْذِفُ بِهِ في المَدَارِسِ التَّبْشِيْرِيّةِ الأجْنَبِيَّةِ ذَاتِ الاغْرَاضِ المَعْرُوْفَةِ وَالغَايَاتِ الدّنِيْئَةِ وَالتَّوْجِيْـهِ الفَاسِـدِ ضد الإسـلام والمسلمين .

وَلِمِثْلِ هَذِهِ الأغْرَاضِ الشَّرِيْفَةِ وَالغَايَاتِ النَّبِيْلَةِ ، يُرْشِدُنَا النّبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إلى رِعَايَةِ الوَلَدِ ، وَصِيَانَتِه ، وَشِدَّةِ مُرَاقَبَتِهِ ، وَحِمَايَتِهِ فَهُوَ يَقُوْلُ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إلاَّ عَلَى الفِطْرَةِ الصَّحِيْحَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ ، والعَقِيْدَةِ المرْضِيّة فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ » .

المَعْنَى إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَمَنْ تَغَيَّرَ عَنِ الفِطْرَةِ الصَّحِيْحَةِ وَمَالَ إلى العَقَائِدِ البَاطِلَةِ وَالآرَاءِ الفَاسِدَةِ ، وَالمَذَاهِبِ الزّايفَةِ كَانَ سَبَبُ تَغَيُّرِهِ أَنَّ أَبَواه يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ بِتَعْلِيْمِهِمَا إِيَّاهُ ، وَتَرْغِيْبِهِمَا فِيْهِ ، أَو

وَنَحْو هَذِه الآيَةِ وَأمرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا والآيَةُ الأُخْرَى وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فَصْـــلٌ)

وقال في توجِيْهَات دينية ومناصحات فيما يجب على الراعي والرعية .

يا أيهـا المؤمنـونَ المسؤولـونَ الكرام : إن المؤمن إذا أمعن الفكرة ، وتلمس الحقيقةَ ، وتجافَى عن التصنعِ والمغالطةِ .

عَلِمَ أن ما أصابَ المسلمينَ مِن تَدَهْوُرٍ وانْهِيارٍ ، ونَقْصٍ من أخلاق الدين الحنيف ، وتعاليمهِ القيمةِ وسببهُ الوحيدُ .

وعَـامِلُه المفـردُ تفـريطُ زعـماءِ الأمـة الاسلامية في تربيةِ الشبابِ ، والتراخي في جهادِ النفوسِ على ما يَجبُ مِن مُعَانَاةِ النَّشْءِ :

وَيَنْشَـأُ نـاشِـىءُ الفِتيـانِ مِنَّـا   علـى مَـا كَـان عَـوَّدَهُ أَبُـوهُ

ومَن هُم زعمـاءُ الأمةِ ؟ نَعْني كُلُ مَن يَلِي أمراً مِن أمور المسلمين بأمارةٍ أو إدارةٍ ، أو يَشْغَلُ مَنْصِبَ تعليمٍ ، أو تكونَ له كلمةٌ مَسْمُوعَةٌ .

إن أبناءَ المدارسِ في عمومِ البلادِ الإسلاميةِ . هُمُ رجالُ المستقبلِ بَل هُمْ المسلمونَ المرجونَ لحملِ الدينِ وحِمَايَتِهِ .

فإذا أنْهارَ كيانُ الـدِين في نُفُـوسِهم ، وتَـلاَشَى تَعظِيمُ الشريعَةِ في قُلُوبهم ، وجَهلُوا ما بَلَغَ هَذَا الـدِينُ العَظِيم بأهلِهِ دُنْيَاً وأُخْرَى في حـالِ طُفُولَتِهم ، وفَرَاغِ أذاهانِهم .

فكيفَ يكونُ الحالُ إذا شَبَّ أَبْنَاؤنَا ، وهُم لا يَرَوْنَ ولا يَسْمَعُونَ إلا دُعَاةَ الاستعمارِ ، وسَماسِرَةَ الغربِ قَولاً وعَمَلاً يَتَشَدَّقُونَ بتَضْخِيم الغَرْبِ ، وتَعظِيم رجالهِ ، وَيَنْخَرطُونَ في هُوَّةِ تَقْليدِهِم .

فَيَفْعَـلُ هؤلآءِ ، وَيَتَغَـافَـلُ أولئكَ عن مآثِرَ هِيَ المُثُلُ العُلْيَا في رُقِيِّ البَشَرَ ، قِدْماً في حَيَاتِهِ الهَنِيْئَةِ المُوصِلَة إلى حَيَاتِهِ إلى حَيَاتِهِ الأَبَدِيَّةِ في جِوَارِ خَالِقِهِ الكَريم .

إن تِلْكَ المَآثِرَ التي جَلَّتْ عن الخَفَاء ، وشَهَدَتْ بِهَا الأَعْدَاءُ ، وظَهَرتْ ظُهورَ الشمسِ في الملأ لَتُبَرْهِنُ على مجد أبنائِها .

أولئكَ السادةُ آباؤنا الكرام وسَلَفُنَا الصالحُ ، الذين خَالَطَتْ بَشَاشَةُ الايمانِ قُلوبَهم ، وامتزَجَتْ عَقَائِدُ الدِينِ بنُفُوسِهم ، وانْطَبَعَتْ آدابُه وتعاليمُه في أخلاقِهم .

فَمَثَّلُوه عمَلاً ، ودَعَوْا إليه فعْلاً قَبْلَ دُعَائِهم إليهِ قَوْلاً ، وطَبَّقُوا قَوانِيْنَهُ وأنْظِمَتهُ حُكُومَاتٍ وشُعُوباً وأفْراداً .

أولئكَ الذين اسْتَرْخَصُوا مُهَجَهُم في سبيلِ إعْزَازِهِ ، وضَحُّواْ بأمْوَالِهم وَأولاَدِهِم وأَوْطَانِهم في حِمَى حَوْزَتِهِ ، والذب عن كِيانِهِ :

هُمُ الذيـنَ رَعَـوا لِلّدِيـن حُـرْمَتَـهُ   لِلّديـن عِنـدَهُمُ جَـاهٌ ومِقْـدَارُ

عَظُمَ أَمْرُ الدِّيْنِ في قُلُوبِهم فلم يُشَارِكْهُ وَطَنٌ ولاَ عَشِيْرَة . بِهِ وَحْدهُ قَامُـوا وبِهِم قَامَ ولَه قَاتَلوا ، وفيه أحَبُوا وأَبْغَضُوا ولِشَعَائِرِهِ عَظَّمُوا ، وعِنْدَ حُدُودِهِ وقَفُوا ، وبأوَامِرِهِ امْتَثَلُوا .

فامْتَطَوا به هَامَ العَالَمِ حِينَ حَمَلُوهُ ، وأصْبَحُوا بِهِ مَضْرَبَ الأمثالِ في العِزِ إذ مَثَّلُوه .

لم تَسْتَعْبِدْهُم الدُنيا ، ولم تُسَيْطِرْ عَلَى نُفُوسِهِم شَهوةٌ ذَاتِيَّةٌ ، ولم تَمْلِكْهُم الأَعْرَاضُ الشَّخْصِيَة .

ولم يَحْمِلْهُم حُبُّ الانتصارِ على الظُلْمِ المُدَمِّرِ ، ولم يَثْنِهِمْ حُبُّ الوَطَنِ عن الهِجْرَةِ إليه :

سِـيْرُوا كَما سَـارُوا لِتَجْنُوا مَا جَنُـوا   لا يَحْصُـدُ الحَـبَّ سِـوَى الـزَّراع

إنَّ مَحْضَ النُصْحِ لَيُحَتِّمُ التَّصريح بأن مَا حَلَّ بالأمةِ الاسلاميةِ إنما يَتَحمل تبعته كاهلان ، ويَتَقَلَدُ مَسؤوليته عُنُقَان : أُمَـراءُ الأُمَةِ ، وعُلَماءُ الدِيْنِ .

أُولئكَ الذِين أَوْجَبَ الله لَهُم السمعَ والطاعةَ ، وأُخَذَ عَليهم العهدَ والميثاقَ .

فإذا قامَ العلماءُ بِنَشْرِ تَعَـالِيمِ الـدِين ، وتَجْلِيَتِهِ بالأعمال في مَظْهَرِهِ الحَقِيقْي ، وَرَوْنَقِهِ الباهِرِ .

وقَـامَ الأمَـراءُ بِتَـطبِيق أنْـظِمَتِـهِ الكـريمةِ ، وتَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ القَيِّمَةِ ، والاستفادَةِ بإرْشَادَاتِهِ الساطِعَةِ .

وتَحَقَقُـوا بِوصْفِ الله لِخُلَفَـائِـهِ في أَرْضِهِ : ﴿ الذين إن مكنّاهم في

الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ .

وأَسْنَدُوا الأُمُورَ إلى أَكْفَائِها عَمَلاً بقوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وتَصَوَّرُوا مَسْؤُليتَهُم المُحقَّقَة بأخبارِ الصادق المصدوقِ ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » .

فاجْتَهِدُوا حَسَبَ الإِمكانِ في اختيارِ المُعَلِّمين في مَعَاهِدِهِم ومَدَارِسِهِم الدِيْنِيَةِ ، وتَعَهُدِهِم بالمراقبةِ الحَقَّةِ المُكَافِحَةِ لإِتخاذِ التَّعْلِيمِ مَكْسباً مَحْضاً لا أمانةً ودِيْنَاً .

« إن هذا العِلمَ دِينٌ فانظُروا مَن تأخذونَ دِينكُم عنه » فَمَن خَالَفَ قَوْلُهُ عَمَلَهُ لا يَحِلُ أَن يُوَلَّى أَمَانَةَ التَّعْلِيم ، ولا يَصْلُحُ لِرَعَايَةِ أَوْلَادِ المسلمين . بل يَجِبُ عليه إِصْلاحُ حَالِهِ أولاً كما قِيل :

- فابْدأْ بنفسك فانْهَها عَن غَيِها -

ومِن المحالِ أن يَنْطَبعَ في قَلْبِ مُتَعَلِّمٍ ما لَيسَ مِن صِفَةِ مُعَلِّمِهِ .

إِن القولَ المجردَ عن العملِ لا أثرَ لَهُ بل ضَرَرُهُ أكثرُ مِن نفعِهِ ، لأنَّ المُتَعَلِّمَ إذا رَأى تَعَالِيمَ الإِسلامِ عندَ مُعَلِّمِهِ صُوْرَةً مُجَرَدَةً عن العملِ اعتقدَ بحُكْمِ طُفُولَتِهِ وبِجَهْلِهِ بادِىء الأمرِ أن العِلْمَ مَقْصُودٌ لِنَفْسِهِ ، لَا لِلْعَمَلِ به فلم يَرْضَ نَفْسَهُ على العَمَلِ بعِلْمِهِ .

وبهذا تَعْظُم مُصِيبَتُهُ في مُسْتَقبلِ أمره . فَيَجِبُ أَن يَتَجَافَى المسْؤُولُونَ في مَعَاهِدِهِم وَمَدَارِسِهم الدِينيةِ عن الذينَ يَقُولُونَ ما لا يَفعلون ، ويُظْهِرُونْ ما لا يُبْطِنُونَ . أولئِكَ الذين مَقَتَهُم الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

وفي الحديث : « أَخْوَفَ ما أخافَ على أُمَّتِي كُلَّ منافِقٍ عَلِيمِ اللسان » .

وفي شرحِ ابنِ رَجَبَ على حديث : « أربَعٌ مَن كُنَّ فِيه . . . الخ » روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر : إن أخوفَ ما أخافُ عليكم المُنَـافِقَ العليم ، قِيْلَ كَيفَ يَكونُ المنافقُ عَلِيماً ؟ قال : يَتَكَلَّمُ بالحكمةِ ، ويَعْمَلُ بالجورِ أو قال المنكر .

ولا نلْتَمِسْ مِن المسؤُولِينَ التَّفْتِيشَ عن الباطِنَ ، وتَتبعَ السرائِرَ ، فإننا لم نُؤمَرَ بذلك ، ويكْفِي المجاهرةُ بمخالفةِ الأعمالِ الظَّاهرةِ للتعاليم المرسومةِ .

فإن وَفَّقَنَـا الله للقيام بالـواجب ، وأرجـوا أن يكون آن لنا ذلك . وبذلكَ نكون قد تلافينا الخَلل ، وعالجنا الداء ووضعنا الهناء موضع النقب :

فَيَا مَعْشَـرَ الحُكَّامِ مِن كُـلِّ مسـلِمٍ ... بنَـا فانْهَضُـوا نَحْـوَ المَعَـالي وشَمِّرُوْا
لِنَعْمُـرَ مَجْـداً قَـدْ بَنَتْـهُ سَـرَاتُنـا ... فأعْـلَوْا وعن كُلِّ النقـائِصِ سَـوِّرُوْا
وسِـيْرُوا بنَـا نَقْفُـوا شَـرِيْعَـةَ أَحْمَـدٍ ... نَـبِيّ أَتَـى بالعَــدْلِ والـبرِ يَـأْمُـرُ
وَخَـافُوا إلَهَ العَرشِ في هَضْمِ أُمَّـةٍ ... لَهَـا نبـأٌ في الـذِكـرِ يُتْـلَى وَيُـذْكَـرُ
وما الْهَضْمُ إلا أن تُضَـامَ شُـعُوبُكُم ... ومـا العُـذْرُ عنـدَ اللهَ أن تَتَـأَخَّـرُوْا
فَسِـيْرُوا بِهَـا نَحـوَ الأَمَـامَ نَسُـرُكُمْ ... فَلَيْسَتْ جُنُوداً بَلْ هِيَ الإسْـدُ تَزْأَرُ
إذا أُوتِـىَ الرَّاعُـونَ حُسْـنَ قِيَـادَةٍ ... وصِـدْقاً فإنَّ الجُنْـدَ جُنْـدٌ مُظَفَّـرُ
فَمَـا نَهَـضَ الكَـابُونَ فَضْـلاً وإنَّمَا ... رَأَوْنَـا نِيَـامـاً ثـم قَـامُـوا وزَمَّـرُوا
وقَـدْ جَـاءَ في التَّنْزِيلِ وَعْـداً مُحَقَّقاً ... بِأَنكُـمُ إنْ تَنصُـرُوْا الله تُنْصَـرُوا
وهَـلْ نَصْـرُهُ إلاَ اتبَـاعُ كِتَـابِـهِ ... وتَحْـكِيمُ مَـا قَـالَ الرسـولُ المُطَهَّـرُ
فَيَـا قَـادَةَ الدِّيـنِ الحَنيفِ تَنَاصَـرُوا ... وخَـلُّوا أُمُـوراً عَـن عُـلاَكُـم تُقَهْقِـرُ

فما العِزُ إلاَّ في اجْتِماع سَرَاتِكُم وأَنْ تَتَواصَوْا بالضِّعَافِ وتُؤْثِروْا
ولا تُسْلِمُوا أَبْنَاءَ دِيْنٍ مُقَدَّسٍ لِكُلِّ غَبِيٍّ بالقَبَائِحِ يَجْهَرُ
ومَجْهُولِ حالٍ قد رَأى العِلْمَ صَنْعَةً ويكْفِيه منه أَنْ يُقَالَ مُحَرِّرُ
فَمَنْ يا أُباةَ الضَّيْمِ لِلدِّيْنِ بَعدَكُم ومَن لِلْشَّبَابِ النَّاشِئِيْنَ يُبَصِّرُ
تَجَافَوا عن الجافِينَ في كُلِّ مَعْهَدٍ وَمَدْرَسَةٍ فيها المعارِفُ تُنْشَرُ
كذاكَ عن الغالينَ وابْغُوا أَفاضِلاً فَضَائِلُهُمْ في الناشِئِيْنَ تُؤَثِّرُ
فَمِرْآةُ أَخْلاَقِ المُعَلِّم طِفْلُهُ ومَا فِيه في تِلْمِيْذِهِ لَكَ يَظْهَرُ
فَأَوْلُوهُم منكم رِقَابَةَ مُخْلِصٍ تُمَحِّصُ مِن أَخْلاَقِهِمْ وَتُطَهِّرُ
فَمَهْمَا اسْتَقَمْتُمْ تَسْتَقِيْمُ شُعُوْبُكُمْ وإِنْ تُبْصِرُوا أَنْتُم فَكُلٌ سَيَبْصِرُ

اللهُم يا عالِمَ الخَفيات وَيَا سَامِعَ الأَصْواتِ ويَا بَاعِثَ الأَمْواتِ وَيَا مُجِيْبَ الدَعَوَاتِ وَيَا قَاضِيَ الحَاجَاتِ يَا خَالَق الأَرْضِ والسَّمواتِ أَنْتَ اللَّهُ الاحدُ الصمدُ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحد الوَهَّابُ الذي لا يَبْخَلُ والحَليمُ الذي لا يَعْجَلُ لا رادَّ لامْرِكَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكَمِكَ نَسْأَلُكَ أنْ تغفرَ ذونوبَنَا وتُنورَ قلوبنَا وَتُثَبِّتَ مَحَبَّتَكَ في قُلوبنَا وَتُسْكِنَنَا دَارَ كَرَامَتِكَ إنك عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِير وَصَلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ يحتوي على آدابٍ ومواعظَ ونصَائحَ وأخلاقٍ فاضِلة)

وَاعْلَمْ أَنَّ وقَايَةَ الأَنْفُسِ بالزَامِهَا أَوَامِرَ اللَّهِ امْتِثَالاً وَنَواهِيْهِ اجْتِنَاباً وَالتَّوْبَةَ عَمَّا يُسْخِطُ اللَّهِ ، وَيُوجِبُ العَذَابَ .

وَوقَايَةِ الأَهْلِ وَالأَوْلاَدِ بتَأْدِيْبِهِم وَتَعْلِيمِهِمْ وَإِلْزَامِهِمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ فَلاَ يَسْلَمُ العَبْدُ إِلاَّ إذَا قَامَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بهِ في نَفْسِهِ وَفِيْمَنْ تَحْتَ ولاَيَتِهِ وَتَصَرفِهِ .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَر قَالَ حِينَ نَزَلَتْ الآية الآتية بعد سطرين يَا رَسُولَ اللَّهِ نَقِيْ أَنْفُسَنَا فَكَيْفَ لَنَا بِأَهْلِيْنَا فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ تَنْهَوْنَهُنَّ عَمَّا نَهاكُم اللَّهُ عنهُ وَتَأْمُرونَهُنَّ بِمَا أَمَرَكُم اللَّهُ بِهِ فَيَكُونَ ذَلِكَ وِقَايَةً بَيْنَهُم وَبَيْنَ النَّار .

وقَالَ بَعْضُهُمْ بَعْدَ سِيَاقِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيْكُمْ نَاراً وَقُوْدُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ ﴾ وَحَدِيْثُ كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلى الفِطْرَةِ فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ أَو يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ .

إِنَّ تَرْبِيَةَ الأَوْلاَدِ وَتَعْلِيْمَهُم لأَمْرٌ عَظِيْمٌ لَهُ شَأْنُهُ الأَكْبَر وَخَطَرُهُ الجَسِيْمُ في حَيَاتِنَا الدِّيْنِيّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ ، والخُلُقِيَّةِ ، فَهُمْ قُوَى المُجْتَمع المُنْتَظَر وَدَعَائِمِه التِيْ سَيَقُومُ عَلَيْهَا ، وعَلَيْهِمْ وَحْدَهُم يَتوقَّفُ رُقِيُّ الأُمَّةِ الحَقِيْقِيّ وَنُمُوُّهَا وَتَقَدُّمُهَا .

وَإِنَّ أَمَامَهُم لَخَطَرٌ عَظِيْمٌ وَغَزْوٌ هَائِلٌ مُتَسَتِّرٌ بِبَعْضِ الثَّقَافَاتِ لِهَدْمِ عَقَائِدِهِمْ وَفَسَادِ أَخْلاَقِهِمْ ، وَانْتِزَاعِ رُوْح الإِباءِ والغَيْرَةِ والعَفَافِ مِنْ نفوسِهِم ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ باللَّه .

وَإِنَّ مُشْكِلَتَهِمْ اليَوْمَ لَهِيَ أُمُّ المَشَاكِلِ فَلأَنْ نَخْسَرَ الأَمْوَالَ والأَنْفُسَ أَيْسَرُ وَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ نَخْسَرَ رُوْحَ نَشْئِنَا المَعْنَوِيَّةِ ، وَعَقَائِدَهُمْ السَّلفِيَّةِ ، فَيَجِبُ أَنْ نَسْعَى في حِيَاطَتِهِم بِسِيَاجِ الدِّيْنِ وَأَنْ نَغْرِسَ في نُفوسِهِم أَوَّلاً وَقَبْلَ كلِّ شَيءٍ احْتِرَامَ الإِسْلاَم ، وَحُبَّ تَعَالِيْمِهِ ، وَآدَابِهِ قَوْلاً وَعَمَلاً وَاعْتِقَاداً .

يَجِبُ أَنْ يَعْتَنِيْ بِذَلِكَ الآبَاءُ والمُصْلِحُونَ يَجِبُ أَنْ لاَ يُوْكَلَ تَرْبِيتُهم وَتَعْلِيْمُهُم وَتَهْذِيْبُهُمْ وَالإِشْرَاف عَلَيْهِم إِلاَّ لِمَنْ عُرِفَ بِصِحَّةِ العَقِيْدَةِ وَسَلاَمَةِ المَبْدَأِ وَنَزَاهَةِ العِرْضِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَى شَعَائِرِ الدِّيْنِ وَأَرْكَانِهِ فَمَا أَنْتُم إِلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بِنَشْئِكُم وَمَا النَّشىءُ إِلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بالدِّيْنِ والأَخْلاَق .

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاَقُ مَا بَقِيَتْ   فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاَقُهُم ذَهَبُوا

آخــر :

إذا اسْتَحالَتْ سجايا القوم فاسـدة   فَلَيْـسَ يَنْفَعُـهم عـلم ولا عَمَـلُ

وَيَقُولُ الآخَرُ :

صَـلاَحُ أَمْـرِكَ لِلأَخْـلاقِ مَـرْجِعُـهُ   فَقَـوِّمِ النَّفْسَ بالأَخْـلاَقِ تَسْـتَقِمِ

وَمَا الأَخْلاَقُ إِلاَّ بِالتَّرْبِيَةِ الأَسْلاَمِيَّةِ الصَّحِيْحَةِ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ في ثَمراتِ قُلُوبِكُم وَفَلَذَاتِ أَكْبَادِكُمْ لاَ تُهْمِلُوا تَربِيَتَهُمْ التَّرْبِيَةَ الإسلامية ، وَلاَ تَتَسَاهَلُوا بِهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ فَقَدْ أُلْقِيَتْ إِلَيْكُمْ مَقَالِيْدُهُمْ ، وَأَصْبَحْتُمْ رُعَاةَ أُمُورِهِمْ ، وَلاَ تَكِلُوا أَمْرَهُمْ إِلى حَاضِنَةٍ وَلاَ مُرَبِّيَةٍ وَلا إِلىَ مُعَلِّمٍ لَمْ تَتَأَكَّدُوا صِحَّةَ إِسْلاَمِهِ .

فإِنَّهُم وُلِدُوا أَصْفِيَاءَ النُّفُوسِ قَابِلِينَ لِكُلِّ مَا أُلْقِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ ، فَإِنْ وُفِّقَ أَحَدُهُمْ فِيْمَنْ يُحْسِنُ تَرْبِيَتَهُ وَتَعْلِيْمَهُ ويغذيه بلِبَانِ الدِّيْنِ ، وَيُحَبِّبُهُ لِسِيْرَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِيْنَ ، شَبَّ حَسَنَ الاخْلاَقِ طَيِّبَ النَّفْسِ ، مُتَمَسِّكاً بِدِيْنِهِ ، مُبْتَعِداً عَن الرَّذَائِلِ ، وَمُتَحَلِّياً بِالفَضَائِلِ ، نَافِعاً لِلأُمَّةِ .

وَإِلاَّ فَسَيَشِبُّ خَبِيْثَ النَّفْسِ فَاسِدَ الاعْتِقَادِ سَيِّءَ الأَخْلاَقِ خَالٍ مِن الرُّوْحِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَالتَّعَالِيْمِ النَّبَوِيَّةِ كلاً على نَفْسِهِ وَعَشِيْرَتِهِ وَشَقَاءَ وَشَرّاً عَلى مُجْتَمَعِهِ ، وَبَلاءً .

فَاتَّقُـوا اللَّهَ عِبَـادَ اللَّهِ في أَوْلاَدِكُمْ بَاعِـدُوا بَيْنَهُمْ وَبَـيْنَ قُرَنَـاءِ السُّوْءِ وَفَاسِدِيْ الأَخْلاَقِ وَفَاقِدِيْ المُرُوءَةِ وَالشَّرَفِ ، وَمُرُوهُمْ بِمَا أُمِرْتُم بِهِ ، قالَ الله تَعَـالَى ﴿ وَأْمُـرْ أَهْلَكَ بالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ وَأَخْبَرَ عَنْ اسْمَاعِيْلَ فَقالَ ﴿ وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ ﴾ الآيَةِ وَقَالَ حِكَايَةً عَنْ لُقْمَانَ وَهُوَ يُوْصِيْ ابْنَهُ ﴿ يا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ واصْبِرْ عَلى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

وانْهَوْهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ لُقْمَانَ بَعْدَ مَا أَمَرَ ابْنَهُ بِأَشْيَاءَ نَهَاهُ

عَنْ أَشْيَاءَ فَقَالَ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهِ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ ﴾ .

وذكر بَعْضُ العُلماء آدابًا نحو الصبي إذا بَلَغَ سِنَّ التَّمِييْز فقال رحمه الله ومهما بدت من الصّبي مخايل التمييز فينبغي أن يُحْسَنَ مُرَاقَبَتَهُ ومطالعةُ أحواله فإذَا ظهرت في وجهه أَنوار الحياء وكان يَحْتَشِم ويَستحي مِن بعضِ الأَفعالِ حتى يَراها قبيَحة .

فهـذه هدايَةٌ مِن اللهِ تعـالى إليه وبَشارة تَدُلُّ على اعتدالِ الأَخلاقِ وصفاءِ القلب .

ومَنْ هذه حالهُ فهو مُبَشر بكمال العقلِ عند البلوغ .

فَيَنْبَغِي أَنْ لا يُهْمَلَ عن رِعايةِ الاعتناءِ في حقّه بحُسنِ الأَدب .

وجُمْلَةُ ما نُشِيرُ إليه مِمّا يُعَامَلُ به مِن الآداب واحدٌ وثلاثون أَدَباً .

الأَدبُ الأَوّلُ : هو أَن الغالبَ على الأَطفال الشّرَهُ في الطعامِ فَيَنْبَغِي أَن يُؤَدَبَ فيه فلا يأكلُ الطّعامَ إِلَّا بيَمِيْنِه .

ويقولُ بسم اللّهِ عند أَكْلِه وليأْكُلْ مِمَّا يَلِيْه .

ولا يُبَادِرُ إلى الطّعامِ قبلَ غيرِه .

قال الشاعر :

وإن مُدَّتِ الأَيْدِي إلى الزَّادِ لم أَكُنْ بأَعْجَلِهِم إذا أَجْشَعُ القوم أَعْجَلُ

ولا يُحَدّق إلى الطعام وإلى مَن يأكُله فإنَّ هذه دَليلٌ على البُخل .

الأَدَبُ الثاني : يُؤمَرُ أَنْ لا يُسْرِعَ في الأَكلِ ، ويَمْضَغَ الطعامَ مَضْغاً جَيّداً ولا يُوالي بَيْنَ الأَكَلاتِ ويُلَطّفُ اللُّقْمَةَ ولا يُلَطِّخُ أَثْوَابَهُ .

الأَدَبُ الثالثُ : يُعوَّدَ أَكْلَ الخُبْزِ مِن غَيرِ الإدامِ في بَعْضِ الأَوقاتِ

حتى يَصِيْرَ بِحَيْثُ لا يَرى الإدامَ حَتْماً وَاجباً لأنه ربما فَقَدَه .

ويُقَبِّحُ عنده كَثْرَةُ الأَكْلِ بأَنْ يُشَبِّهُ مَن يُكْثِرُ الأَكلَ بالبهائم .

ويُذَمُّ الصّبيُّ الذي يُكْثِرُ الأَكل عِندَه ويُمْدَحُ الصّبيُ القَلِيلُ الأَكلِ حتى يَقْتَدي بِذَلِكَ لئلا يَصيْرَ شرِهًا لا يَهُمّه إلا بَطْنُه .

الأَدَبُ الرابعُ : يُحَبَّبُ إليه الإيثار بالطعامِ وقلّةِ المبالاةِ ، ويُمْدَحُ عندَه الطّعام الذي فيه خُشُونَةُ أَيَّ طعامٍ كانَ بِحَيْثُ لا يَكُونُ مُوْلَعاً بالطّعامِ اللَّيِّنِ فَيَصْعُبُ عليه مُفَارَقَتُهُ .

الأَدَبُ الخامسُ : يُسْتَحَبُ أَن يكونَ لِبَاسُهُ مِن الثِّياب البيضِ دُوْنَ الثّيابِ الملوّنةِ بالصِّبَاغَاتِ المُزَعْفَرَةِ والمعصفرة وأَنواعِ الدّيباجِ والأَبريسمِ .

ويُقَرَرُ عندهَ أن ذلكَ إنّما هو مِن لِباسِ النِّسوانَ والرِّجالِ الذين لا خيرَ فيهم ولا دِينَ لَهُم وأن الرجالَ يستنكفون عن ذلك .

الأَدَبُ السادسُ : أَنه مَهْمَا رَأى على صبى ثَوباً مِن دِيباجٍ أَوْ حَرِيْرٍ أَو أَبريسَم فينبغي أَن يُنْكِرَ عليه فَيُذَمَّ على لُبسْهِ ويُزَالَ عنه بكلِّ حالٍ ولا يُغْتَفَرُ لَهُ ذلك ويُذَمُّ عنده إسْبَال الثِياب لِيَعْتَاد عَدَمَ الإسبال .

الأَدَبُ السّابعُ : يَنْبَغِي أَنْ يُحْفَظَ الصبيّ عن الصّبيان الذين عِوّدُوا التنّعمَ والترفّهَ ولبسَ الثّياب الفاخرةِ وعن مُخَالَطةِ مِنَ يَرْغَبُ فيما ذكرناه .

فإنّ الصبىَ إذَا أُهْمِلَ في أَولِ النشأَة خَرَجَ في الأَغلب رَدِىّ الأَخلاق كذاباً حَسُوداً سَرُوقاً نَمّاماً لَجُوجاً ذَا فُضُول ومُجُون ، وإنّما يُحْفَظُ عن ذلكَ كُلّهِ بحُسْنِ الأَدب .

الإِدَبُ الثامنُ : ثم إِنّه يُسْتَحَبُ أَن يُشْغَل في المكتب يتعلّم القرآن وتَفِسْيْرَهُ وأَحاديثَ الرسول ﷺ والفقه ويحرص على حفظ القُرْآن عن ظهر قلب وكذلك الأَحاديث الصحيحة كالعمدة وكذلك مختصر المقنع أو دليل الطالب لأن الحفظ هو العلم فمن لم يحفظ لا يقدر على اسْتِخْراج المسائل غالباً والله أعلم .

ويَعْتَمِدُ في حفظ المواعظ الحسنة وأخبار الأبرار وحكاية أهل الصلاح في الزُهدِ في الدُنيَا وحُسْنِ الرِيّاضةِ لِلنفسِ فَيَنْغَرِسُ في قلبِهِ حُبُّ الصّالِحِين والاقتداء بهم . قُلتُ ويحذر عن كُتُبِ الأشاعرة والمعتزلة والرافضة وجميع أهل البدع .

الأَدَبُ التّاسِعُ : يَنْبَغِي أَن يُحْفَظَ عن الأَشعارِ التي فيها ذكر الهجاء والعشّاق ويُحْفَظ عن مُخَالَطةِ مَن هذه حَالُه في اتّباعِ الهوى فإِنَّ ذاكَ مَهْما انْغَرَسَ في قلوبِ الصّبيان فإِنّه يَبْذُرُ الفَسَادَ في النّفوس .

الأَدَبُ العَاشِرُ : أَن يُعَوَّدَ كتابةَ الخطِ وحفِظَ الأَمثال الشعريّة والاشعار الزهدية فإِنّ ذلك صفةُ كمالٍ وزينةٍ ، وقد قال أمير المؤمنين رضي الله عنه ، عليكم بحُسْنِ الخطِ فأَنّه مِن مفاتيح الرزق .

الأَدَبُ الحادِي عَشَرَ : إذا ظهرَ مِن جهةِ الصبى فِعْلٌ جَمِيْلٌ وخُلُقٌ حَسَنٌ فَيَنْبَغِي أَن يُكْرَمَ عليه ويُجَازَي بما يَفْرَحُ به ويُمْدَحَ بينَ أَظهر النّاسِ .

فإن خَالَفَ ذلك في بعضِ الأَحوالِ مَرة واحدةً فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَغَافَلَ عنه ولا يُهْتَكُ سِتْرُهُ في مَلإٍ مِن الخلقِ ولا يُكَاشَفُ في وجْهِهِ ويُظْهَرَ لَهُ أنَّ مِثْلَ هَذا لا يَتَجاسَرَ عليه أَحدٌ لا سِيَّما إِذا سَتَرَهُ الصَّبِيُ وأَخْفَاهُ .

الأَدَبُ الثاني عَشَرَ : أنّه إن عَادَ إلى ذلك فَيَنْبَغِي أَنَّ يُعَاتَبَ سراً وَيُعَظَّمَ عليه الأَمرُ ويُقَالُ لَهُ إِيَّاكَ أَن يُطَّلعَ عليكَ في مِثْلِ هَذا فَتَفْتَضِحَ بَينَ النّاسِ .

ولا يُكْثَرُ عليه العِتَابُ في كُلِ حِينٍ فإنّ ذلك يُهَوّنُ سَمَاعَ الملامَةِ في حَقّهِ ويَسْقُطُ وَقْعُ الكلام في قَلْبِهِ .

الأَدَبُ الثالثُ عَشَرَ : أن يكونَ الأَبُ حَافِظاً لِهَيْبَةِ الكَلامِ مَعَهُ ولا يُوبّخُهُ إِلا أَحْيَاناً ، والأُمُ تُخَوِّفُه بالأَبِ وتَزْجُرُهُ عن القَبَائحِ وتُظْهِرُ له الوَعِيْدَ بِشِدَّةِ الأَب وخَوْفِهِ مِنه .

الأَدَبُ الرابعُ عَشَرَ : ينْبَغِي أَن يُمْنَعَ مِن النّوم نَهاراً فإِن ذلك يُوْرِثُ الكَسَلَ في حَقِّهِ ولا يُمْنَعُ مِن النوم لَيْلاً لأَنَّ مَنْعَهُ مِن النّوم في الليل يُوْرِثُ المَلالَةَ والتَّسخُنَ ويُضْعِفُ عن مُكابَدَةِ النّوم وشدّةِ النُعَاس .

الأَدَبُ الخامسُ عَشَرَ : يَنْبَغِي أَنْ يمنعَ مِن استعمالِ الفرَشِ الوَطِيةِ حَتى تَتَصَلَّبَ أَعْضَاؤُهُ ويَسْتَخِّفُ بَدَنُه فلا يَصْبِرُ عن التنعّم .

بَلْ يُعَـوَّد الخُشُونَةَ في الملبس والمفرش والمطعم والمشرب . فقد قال رسولُ اللَّهِ ﷺ « إيَّاكُم وفُضُولَ المَطْعَم فإِنّه يَسِمُ القلبَ بالقَسْوَةِ » .

الأَدَبُ السادسُ عَشَرَ : يَنْبَغِي أَن يمنعَ مِن كُلَّ مَا يَفْعَلُه في خُفْيَةٍ فإِنَّه لا يُخْفِيْه إِلاّ وهُو يَعْتَقِدُ أَنَّه قَبِيْحٌ فَيَدْعُو ذلك إلى أَنّه يَتَعَوَّدُ فِعْلَ كُلّ قَبِيْحٍ .

الأَدَبُ السابعُ عَشرَ : يَنْبَغِي أَن يُعَوّد في بَعضِ النهارِ المشيَ في الحَرَكَةِ والرّياضةِ حتى لا يَغلِب عليه الكسلُ ويَتعود الميلَ إليه .

وإِنْ كان مِمَّنْ يَعْتَادُ الرَّمْيَ ويُحِبُّه فلا بَـأْسَ بشُغْلِهِ ، وهكذا الحالُ في رُكُوبِ الخَيلِ فقد قال ﷺ « ثلاثةٌ لا تُعَدُ مِن اللّهوِ ، لَهْوُ الإِنسانِ بفرسِهَ ولَهْوُهُ بقَوْسِهِ ولَهْوُهُ بأَهلِهِ » .

الأَدَبُ الثّامنُ عَشرَ : يَنْبَغِي أَن يُعَوَّدَ أَن لا يَكْشفَ أَطرافَهُ ولا يُسْرِعَ في المشي ولا يُرخِي يَدَيْهِ يُحَرّكُهُمَا وَرَاءَهُ فِعْلَ المتبَخْترِ .

فقد نهى رسولُ الله ﷺ عن هذه المِشْيَةِ ، وهكذا حَالُ التَّمَطُّطِ عند المشي مَكْرُوه أَيْضاً وقد نهى عنه .

الإِدَبُ التاسعُ عَشرَ : يَنْبَغِي أَن يُمْنَعَ مِن الافْتخارِ على أَقْرانِهِ وأَمثالِهِ بشيءٍ مِمّا يَمْلِكُه أَبَوَاهُ أَو بشيءٍ مِن مَطَاعِمِهِ ومَلابِسه ونحو ذلك ويُعَوُّدُ التواضُعَ والإِكْرَامَ لِكُلِّ مَن عَاشَرَهُ مِن الصّبيْانِ ويُلَطَفَ في الكلامِ مَعَهُم .

الأَدَبُ العُشْرُوْن : يُمْنَـعُ أَن يَأْخُذَ عَلَى الصِّبْيَانِ مِن أَمثالِهِ شيئاً إذا كانَ مِن أَهْلِ الشرفِ والرِّياسَةِ ويُقرِّرُ في نَفْسِهِ أَنَّ الأَخذَ لُوْمٌ وخِسَّةٌ ونُزُولُ قَدْرٍ وأَنَّ الإعطاءِ كَرَمٌ وشَرَفٌ .

وإن كانَ مِن أَولادِ الفُقَراءِ فَيُقررُ في نَفْسِهِ أَنّ الأَخْذَ طَمَعَ وفي الطَّمَعِ مَهَانَةٌ ومَذَلَّةٌ وأَنَّ ذلِكَ مِن دَأْبِ الكِلابِ فإنه يَتَذَلَّلُ في انْتِظارِ لُقْمَةٍ .

الأَدَبُ الحادِي والعُشْرون : يَنْبَغِي أَنْ يُقَبحَ إلى الأَولادِ حَبَّ الذهبِ والفِضّةِ والطّمعِ فيهما ويُحَذَّرَ مِنْهُمَا أَكْثَرَ مِمَّا يُحَذّرُ مِن الحَياتِ والعَقَارِبِ والسُّمُومِ .

فإنَّ آفةَ حُبِّ الذّهبِ والفِضّةِ والطّمعِ فِيهما أَكْثَرُ مِن آفةِ السُمُومِ على الصِبْيَانِ بَلْ على الأَكابرِ مِن العقلاء ، فإنَّ ضَرَرَ السُّمِ يَنْقَطِعُ بالموتِ وضَرَرُ حُبِّهِمَا يَتَجَدَّدَ بعدَ الموتِ .

الأَدَبُ الثاني والعِشرون : يَنْبَغِي أَنْ يُعَوّدَ أَنْ لا يَبْصُقَ في المجلسِ ولا يَتَمَخَّط بَحَضْرَةِ غيرِهِ ولا يَسْتَدبرِ غيرَهُ من المسلمين ولا يُكْثِرَ التّثاؤب .

الأَدَبُ الثالثُ والعِشرون : يَنْبَغِي أَن يُعَلَّمَ كيفيةَ الجُلوسِ على رُكْبَتَيْهِ على الأَرْضِ أَوْ نَاصِباً قَدَمَهُ اليَمِيْنَ وَاضِعَ الأُخرى على الأَرْضِ أَوْ يَقْعُدْ مُحْتَبِياً بيَدَيْهِ ، هكذا كانَ رَسولُ الله ﷺ يَفْعَلُ في أَكْثَرِ أَحْوالِهِ .

الأَدَبُ الرابعُ والعِشرون : يَنْبَغِي أَنْ يُمْنَعَ مِن كَثْرَةِ الكُلامِ إلا من ذكـر الله ويُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ ذَلِكَ مِن أَمارةِ الوَقَاحَةِ وأَنَّه عَادَةَ أَبناءِ اللئامِ وأَولادِ السَّفلةِ مِن الناس لِيَنْزَجِرَ عن ذلك ويَمْتَنِعَ منه والله أعلم .

الأَدَبُ الخامسُ والعِشرون : يَنْبَغِي أَن يُمنعَ عن الأَيْمَانِ صِدْقاً كانَتْ أَوْ كَذِباً حتى لا يَتعوَّدَ ذلك في حَالِ الصِّغرِ .

الأَدَبُ السـادسُ والعِشرون : يُمْنَـعَ مِن لَغْوِ الكَلامِ وفُحْشِهِ ومِن اللعنِ والسّب ، ومِن مُخالـطَةِ مَن يَجْرى على لِسَانِهِ مثلُ ذَلِكَ ، فإنّ ذلِكَ

يَسْرِي لا مَحَالَةَ مِن قُرَنَاءِ السوءِ ، وأَصلُ تأْديبِ الصّبيانِ الحِفْظُ مِن قُرناءِ السُوءِ . قُلْتُ ويحذر من التلفاز والفديو والمذياع والمجلات .

الأَدَبُ السابعُ والعِشرون : يَنْبَغِي أَن يَتَعَلَّمَ شَجَاعَةَ القَلْبِ والصَّبْرِ على الشدائـدِ وتَمْدحَ هذِهِ الأَوصافَ بَيْنَ يَدَيْهِ ولِسَماعِهِ لَهَا يَنْغرِسُ في قَلْبِهِ حُسْنُهَا ويَتَعوَّدُهَا .

الأَدَبُ الثـامنُ والعِشرون : يَنْبَغِي أَن يُعَلَّم طاعـة والـديه ومُعَلمه ومؤدّبه وكل من هو أَكبر منه سنّاً من قريب أَوْ بعيد أَوْ أَجنبي من المسلمين وأن يكون ناظراً إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أَيديهم فهذه الآداب كلها متعلقة بسن التمييز في حالة الصغر قبل البلوغ إنتهى باختصار .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصبحه وسلم .

فصل في كَلامٍ نافعٍ في بيان فوائد الجوع وآفات الشبع فقال رحمه الله

الفـائـدةُ الأُولى : صَفَاءُ القَلْبِ واتّقَادُ القَريحة ونَفَاذُ البَصِيرَةِ ، فإِنَّ الشّبـعَ يُورثُ البلادةَ وَيعْمِي القلبَ ويُكثِر البُخَارَ في الدِماغِ يشِبهِ السُّكْر حتى يَسْتَولِي على مَعَادِنِ الفِكْرَة فَيَثْقُلُ القلبُ بِسببِ ذلكَ الجَريانِ في الأَفكارَ .

الفائدةُ الثانيةُ : رِقَّةُ القلب التي يَتَهَيّأُ بها لإِدراكِ حَلاوةِ المناجاةِ لِلّهِ عَزّ وجل ، فكَمْ مِن ذِكْرٍ يَجْري على اللسانِ مَعَ حُضُورِ القلب .

ولكن القَلْبُ لا يَلتذَ بِهِ ولا يَتأَثّرُ عنه حتى كأَن بَيْنَهُ وبَيْنَهُ حِجَاباً مِن قَسَاوَةِ القلب .

وقـد يَرقّ في بعضِ الأَحوالِ فَيَعْظُم تأَثُّرهُ بالذكرِ وتَلّذُذُهُ بالمناجاة ، وخُلُو المعدةِ هو السَّبَبَ الأَظهر في ذلك .

الفائدةُ الثالثةُ : الانكسَارُ والذلُ وزوالُ البَطَرِ والفَرَح والأَشَرِ الذي هو مُبْدأُ الطُغيانِ والغفْلَةِ عن الله تعالى .

ولا تَنْكَسِرُ النّفسُ ولا تَذِلّ كما تَذِلُّ بالجُوع ، فعِندهُ يَسْتكِيْنَ العبدُ لِربّهِ ويَخْشَعُ له ويَقِفُ على عَجْزِه وذُلّهِ .

والبَـطْرُ والفَـرَحُ بَابـانِ مِن أَبـواب النّـارِ وأَصلُهُـمَا الشّبـعُ ، والذُل والانكِسارُ بَابَانِ مِن أَبواب الجنّةِ ، وأَصلُهُمَا الجَوع .

ومن أَغلق باباً مِن أَبوابِ النّارِ فقد فتح باباً مِن أَبوابِ الجنةِ بالضّرَورَةِ لأَنّهما مَتَقَابلان كالمغربِ والمشرِق ، فالبُعْدُ مِن أَحدِهما قربٌ مِن الآخرِ .

الفائدةُ الرابعة : لا يُنْسَى بلاءَ الله وعذابه ولا ينسى أَهل البلاءِ ، فإِنّ الشَّبْعَان يَنْسَى الجَائِعِيْنَ ويَنْسَى الجُوعَ ، والمؤمنُ الفَطِنُ لا يَشاهِدُ بَلاءً إِلا ويُذَكّره بَلاَءَ الآخرةِ ، ويَتَذكّرَ مِن عَطشِهِ الخلائقِ في عَرَصاتِ القِيامة ، ومِن جُوعِـهِ جُوعَ أَهـلِ النّارِ حِينَ يَجُوعُون فَيُطْعَمُون مِن الزَّقُومِ ، والضّرِيعِ ويُسْقَونَ الغَسَّاق والمَهْلَ .

الفائدةُ الخامسةُ : كسرُ شهوَاتِ المَعَاصِي كُلّها والاستيلاءُ على النّفسِ الأَمّارةِ بالسُّوءِ ، فإِنّ مَنْشأَ المعاصِي كُلِّها الشّهواتُ .

ونَيْلُ الشّهـواتِ مادةُ القُـوى ، ومـادّةُ الشّهـواتِ والقُـوى لا مَحالَـة الأَطعِمة ، فَبِقِلّتِها تضعفُ كُلّ شهوةٍ وقُوَّةٍ .

والسعَـادةُ كُلَهـا أَن يملِكَ الإِنسـانُ نَفْسَـهُ ، والشّقاوةُ في أَنْ تَمْلِكَ الإِنسانَ نفسُه وتكون هِي المستَولِيةُ عليه .

الفائدةُ السادسةُ : رَفْعُ النّومِ ودَاومُ السّهرِ ، فإِنَّ كُلَّ مَن شَبِعَ شَرِب كَثِيْراً ، ومَن كَثُرَ شُرْبُهُ كَثُرَ نَومُه .

وفي كثـرة النـوم ضياع العمـر وفوتُ التَّهجُّدِ وبلادَةُ الطبعِ وقساوةُ القلبِ ، والعُمُرُ أَنْفَسُ الجَواهِر وهُو مَالِ الإِنسانِ الذي به يَتَّجرُ .

الفائدةُ السّابعةُ : تَيْسِيْرُ المواظبةِ على العِبادةِ فإن كَثْرَةَ الأكلِ تمنعُ مِن كثرةِ العِبادةِ .

لأنَّ الأَكلَ يَحتاجُ إلى زمانٍ يَشْتَغلُ فيه بالأَكلِ ، وربَّما احتاجَ إلى زمانٍ في شِراءِ الطعام وطبخِهِ ثم يحتاجُ إلى غسلِ اليدِ والخِلالِ ثم يَكْثُرُ تردّدهُ للخُروجِ إلى بيتِ الماء .

وهذهِ أوقاتٌ يمكنُ صرْفُها إلى العِبادة عِوضاً عن الأكلِ المباحِ وليس لها سَبَبٌ إلّا كثرة الأكلِ والتوسّعُ في الشِبَعِ .

الفائدةُ الثامنةُ : صحة البدنِ ودفع الأمراضِ فإن سببها كثرةُ الأكلِ وحُصول فضلات الأخلاطِ في المِعدةِ والعروق .

ثم إن المرضَ يمنعُ مِن العباداتِ ويُشوش القلوب ويمنعُ مِن الذكرِ والفكرِ ويُنغص ويُحْوِجُ إلى الفصدِ والحِجامة والدواءِ والطبيب ، وكُلُّ ذلك يحتاجُ إلى أُمورٍ كثيرةٍ وتبعاتٍ وفي الجُوعِ ما يمنعُ من ذلكَ كُله .

الفائدةُ التاسعة : خفّةُ المؤنةِ فإنَّ كُلَ مَن تَعَوَّدَ قِلّةَ الأكلِ كَفَاهُ مِن المالِ قَدرٌ يَسِير .

والذي تَعوَّدَ الشّبعَ صَارَ بَطْنُه غَريماً مُلازماً يأْخذُ بِمخْنَقِه كُلَّ يومٍ فيقولُ مَاذا تأْكُلُ اليومَ .

فيحتاجُ إلى أن يَدْخلَ في المداخِلِ الخَبيْثَه مِن الحَرام فَيَعِصْى أو مِن الحَلالِ فيذِلَ وَيَتْعَبُ .

وربّما يَحتاجُ إلى أن يمدَّ عَيْنَيْه إلى الخلقِ بالطمعِ فيما في أيْديهم وهو غايةُ الذُلِ والمؤمنُ خَفِيْفُ المؤنة .

الفائدةُ العاشرةُ : التمكنُ مِن الأيثارِ والتصدّق بها فَضَلَ مِن الأطعمةِ على اليتامَى والمساكين ، ويكونُ يومَ القِيامة في ظِلِ صَدَقَتِهِ كما ورد في الخبر .

فَمَا يأْكلهُ فَخزَانَتُهُ الكَنيْـف وما يَتَصَدقُ به فخزانَتُهْ فَضْل الله ورحمتُه .

فهـذه جُمْلَةُ ما نريد ذِكْرَهُ مِن فَوائِد الجوع ، وأَما آفات الشّبع فهو نقائض هذه الخصال التي أوردناها فلا حاجة لنا إلى تكريرها إنتهى .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وَقَال الشَّيْخُ عَليّ بْنُ حُسَيْنِ بْنِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْن عَبْدِ الوَهَّاب رَحِمَهُم اللَّهُ حينَ جَلَوْ مِن الدّرْعِيّةِ بَعْدَ اسْتِيْلاَءِ الأَعْدَاءِ عَلَيْهَا سُقْنَاهَا لَعَلَّ الْمُسْلِمِيْنَ يَسْتَيْقِظو مِنْ رَقْدَتِهم وَيَرْجِعُوا إلى اللَّهِ وَيَأْمُروا بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوا عَنْ المنكَرِ قَوْلاً وَفِعْلاً وَيَخْشَوْا العُقوبَةَ الَّتي إِذَا جَاءت لا تخصُّ الظَّالِمِيْنَ .

اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بعبادك الصالحين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

شِـعْرَاً :

خَلِيْلَيَّ عُـوْجَـا عَنْ طَـرِيْقِ العَـوَاذِلِ
بِمَهْجُـورِ لَيْلَى فَـابْكِيَـا فِي الْمَنَـازِلِ
لَعَـلَّ انْحِـدَارَ الـدَّمْـعِ يُعْقِبُ رَاحَـةً
مِنْ الوَجْدِ أَو يَشْفِيْ غَلِيْلَ البَلاَبِـلِ
أَرَى عَبْـرَةً غَبْـرَاءَ تَـتْبَـعُ أُخْـتَهَـا
عَلى إِثْـرِ أُخْـرَى تَسْتَهِـلُّ بِـوَابِـلِ
تُهَيِّـجُ ذِكْـرَاً لِـلأُمُـوْرِ التِي جَـرَتْ
تُشِيْبُ النَّـوَاصِي وَاللِّحَـا لِـلأَمَـاثِـلِ
وَتُسْقِطُ مِنْ بَـطْنِ الحَوامِـلِ حَمْلَهَا
وَتُـذْهِـلُ أَخْيَـارَ النِّسَـاءِ المَـطَافِـلِ

فَبَيْنَا نَسُودُ النَّـاسَ والأَمْرُ أَمْـرُنَا
وَتَنْفُـذُ أحْكَامُ لَنَـا في القَبَـائِـلِ
وَتَخْفِقُ رَايَـاتُ الجِهَـادِ شَهِيْـرَةً
بِشَـرْقٍ وَغَـرْبٍ يَمْنَـةً وَشَمَـائِـلِ
تَبَـدَّلَتَ النَّعْمَـاءُ بُؤْسـاً وَأَصْبَحَتْ
طُـغَـاةٌ عُـتَـاةٌ مَـلْجَئـاً لِـلأَرَاذِلِ
وَبَثَّ عُتَاتُ الدِّيْنِ في الأرْضِ بَغْيَهُم
وَرِيْعَتْ قُلُوبُ المُؤْمِنِيْنَ الـغَـوَافِـلِ
وَأَقْبَـلَ قَـادَاتُ الضَّـلاَلَـةِ وَالـرَّدَى
وَسَـادَاتُهَـا في عَسْكَـرٍ وَجَحَـافِـلِ
وَشُتِّتَ شَمْـلُ الـدِّيْنِ وَانْبَتَّ أَصْلُهُ
فَـأَضْحَى مُضَاعـاً كَالبُـدُوْرِ الأَوَافِـلِ
وَفَـرَّعَنِ الأَوْطَـانِ مَنْ كَـانَ قَـاطِنـاً
تَـرَاهُمْ فُرَادَى نَحْـوَ قِـطْرٍ وَسَـاحِـلِ
وَفُـرِّقَ شَمْـلٌ كَـانَ لِلْخَيْـرِ شَـامِـلاً
وَزَالَـتْ وُلاَةُ المُـسْلِمِيْـنَ الأَعَـادِلِ
وَسَادَ شِرَارُ الخَلْقِ في الأَرْضِ بَعْدَهُمْ
وَدَارَتْ رَحىً لِـلأَرْذَلِيْنَ الأَسَـافِـلِ
فَـأَصْبَحَتِ الأَمْـوَالُ فِيْهِمْ نَهَـائِبـاً
وَأَضْحَتْ بِهَا الأَيْتَامُ خُمْصَ الحَوَاصِلِ
فَكَمْ دَمَّـرُوْا مِن مَسْكَنٍ كَـانَ آنِسـاً
وَكَمْ خَـرَّبُـوْا مِن مَـرْبَـعٍ وَمَعَـاقِـلِ

وَكَمْ خَـرَّبُـوْا مِن مَسْجِدٍ وَمَـدَارِسٍ
يُقَـامُ بِهَا ذِكْـرُ الضُّحَى والأَصَـائِـلِ
وَكَمْ قَـطَعُـوْا مِن بَـاسِقَـاتٍ نَـوَاعِمٍ
وَكَمْ أَغْلَقُوْا مِن مَـعْقَـلٍ وَمَنَـازِلِ
وَكَمْ أَهْلَكُـوا حَـرْثـاً وَنَسْـلاً بِبَغْيِهِمْ
وَكَمْ أَيْتَمُـوْا طِفْـلاً بِغَـدْرٍ وَبَـاطِـلِ
وَكَمْ هَتَكُـوا سِتْـراً حَيِّيـاً مُمَنَّـعـاً
وَكَمْ كَشَفُوا حُجْبَ العَذَارَى العَقَائِلِ
وَكَمْ حَرَّقُوا مِن كُتْبِ عِلْمٍ وحِكْمَـةٍ
وفِقْـهٍ وَتَـوْحِيـدٍ وَشَـرْحِ مَسَـائِـلِ
وَكَمْ هَـدَمُـوْا سُـوْراً وَقَصْـراً مُشَيَّـداً
وَحِصْنـاً حَصِيْنـاً أَوْهَنُـوْا بـالمَعَـاوِلِ
وَكَمْ أَسَـرُوْا مِن حَاكِمٍ بَعْـدَ عَـالِمٍ
وَكَمْ زَلْـزَلُوْا مِنْ مُحْصَنَـاتٍ غَوَافِـلِ
وَكَمْ قَتَـلُوا مِنْ عُصْبَـةِ الحَقِ فِتْيَـةً
تُقَـاةً هُدَاةً في الـدُّجَى كَالمَشَـاعِلِ
يَـذُوْدُوْنَ عَن وِرْدِ الدَّنَـايَـا نُفُـوسَهُمْ
وَيَسْعَـونَ جُهْـداً لإِقْتِنَـاءِ الفَضَـائِـلِ
فَمَا بَعْدَهُمْ وَاللّهِ في العَيْشِ رَغْبَـةٌ
« لَدَى مُخْلِصٍ حُرٍّ كَرِيْمِ الشَّمَائِلِ »
مَضَـوْا وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُمْ حِيْنَ أَوْرَثُـوا
ثَنَـاءً وَمَجْـداً كَـالهُـدَاةِ الأَوَائِـلِ

فَوَا أَسَفاً مِنْ فَقْدِهِمْ وَفِرَاقِهِمْ
وَوَاسَوْءَتَا مِنْ بَعْدِ أَهْلِ الفَضَائِلِ
فَجَازَاهُمُ الرَّبُّ الكَرِيْمُ بِرَحْمَةٍ
تَعُمُّ عِظَاماً أُوْدِعَتْ في الجَنَادِلِ
وَأَبْقَى لَهُمْ نَصْراً وَأَهْلاً مُؤَثَّلاً
يُعِزُّ هُدَاةَ الدِّيْنِ بَيْنَ الجَحَافِلِ
لَقَدْ بَخِلَتْ عَيْنٌ تَظُنُّ بِمَائِهَا
عَلى فَقْدِهِمْ أو دَمْعُ عَيْنٍ تُهَامِلِ
فَقَدْ كُسِفَتْ شَمْسُ المَعَارِفِ بَعْدَهُمْ
وَسَالَتْ جُفُونٌ بِالدُّمُوعِ الهَوَاطِلِ
فَكَمْ عَاتِقٍ غَرَّاءَ تَبْكِيْ بِشَجْوِهَا
وَأَرْمَلَةٍ ثَكْلَى وَحُبْلَى وَحَائِلِ
يَنُحْنَ بِأَكْبَادٍ حِرَارٍ وَعَبْرَةٍ
وَيَكْظِمْنَ غَيْظاً في الجَوانِبِ دَاخِلِ
يُرَجِّعْنَ أَلْحَانَ التَّعَزِّيْ بِحُرْقَةٍ
وَيُظْهِرْنَ صَبْراً عَنْ شُمَاةٍ وَعَاذِلِ
فَلَوْ شَهِدَتْ عَيْنَاكَ يَوْمَ رَحِيْلِهِمْ
عَنْ المَسْكَنِ الأعْلَى الرَّفِيْعِ المَنَازِلِ
وَفُرِّقَتْ الأَحْبَابُ في كُلِّ قَرْيَةٍ
وَسَارَ بِهِمْ حِزْبُ العَدُوِّ المُزَايِلِ
يَسُوقُوْنَهُمْ سَوْقاً عَنِيْفاً بِشِدَّةٍ
وَيُزْجُوْنَ أَشْيَاخاً بِتِلْكَ القَوَافِلِ

لَذَابَتْ جُفُون العَيْنِ وَاحْتَرَقَ الحَشَا
وَسَالَتْ خُدُوْدٌ بالدُّمُوعِ السَّوَائِلِ
فَقَدْ عَاثَت الأَحْزَابُ في الأَرْضِ بَعْدَهُمْ
بِكُلِّ مكانٍ نَاصِبِيْنَ الحَبَائِلِ
فَكَمْ غَارَةٍ غَبْرَاءَ يُكْرَهُ وِرْدُهَا
عَلى إِثْرِ أُخْرَى بَيْنَ تِلْكَ القَبَائِلِ
وَكَمْ فِتْنَةٍ كُبْرَى تُتَابِعُ أُخْتَهَا
عَلى إِثْرِ صُغْرَى مِنْ قَتِيْلٍ وَقَاتِلِ
تَرَى خَيْلَهُم في كُلِّ يَوْمٍ مُغِيْرَةً
عَلى دَاخِلٍ أو خَارِجٍ أَوْ مُسَابِلِ
عَسَى وَعَسَى أَنْ يَنْصُرَ اللهُ دِيْنَنَا
وَيَجْبُرَ كَسْراً مُثْقَلاً بالحَبَايِلِ
وَيَعْمُرَ لِلسَّمْحَاءِ رُبُوعاً تَهَدَّمَتْ
وَيُعْلِي مَنَاراً لِلْهُدَى غَيْرَ زَائِلِ
فَيَظْهَرُ نُوْرُ الحَقِّ يَعْلُو سَنَاؤُهُ
فَيُضْحِيْ ظَلامُ الشِّرْكِ وَالشَّكِّ زَائِل
وَيَكْسِرَ أَعْلَامَ الضَّلَالَةِ إِنَّهُ
قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ مُسْتَجِيْبٌ لِسَائِلِ
وَيَطْمِسَ آثَارَ الفَسَادِ بِدِيْمَةٍ
مِنْ النَّصْرِ هَتَّانِ الجَوانِبِ وَابِلِ
فَيَنْبُتُ زَرْعُ الحَقِّ أَخْرَجَ شطأَهُ
مُسِحّاً بِخَيْرٍ لِلثِّمَارِ الحَوَاصِلِ

إِلَـهِيْ فَـحَقِّقْ ذَا الـرَّجَـاءَ فَـإِنَّنَـا
عُبَيْـدُكَ تُبْنَـا لَسْتَ عَنَّـا بِغَافِلِ
أَغِثْنَـا أَغِثْنَـا وَارْفَـعِ الضُّـرَّ وَالبَـلاَ
بِعَفْـوِكَ عَنَّـا يَـا قَـرِيْبُ لآمِـلِ
فَـإِنْ لَمْ تُغِثْنَـا يَـا قَـرِيْبُ فَمَنْ لَنَـا
لِنَقصُـدَ فِي دَفْـعِ الأُمُـوْرِ الثَّقَـائِـلِ
إِلَيْـكَ أَنَبْنَا فَـاغْفِـرْ الـذنْبَ والخَـطَا
إِلَيْكَ رَجَعْنَا فَـارْجِعِ الخَيْـرَ كَامِـلِ
فَقَـدْ سَامَنَـا الأَعْدَاءُ سَـوْمـاً مُبَـرِّحـاً
بِقَتْـلٍ وَأَسْـرٍ مُـوْثَقـاً بِـالحَبَـائِـلِ
عَلى غَيْـرِ جُرْمٍ غَيْـرِ تَـوْحِيْـدِ رَبِّنـا
وَهَـدْمِ قِبَـابِ المُشْـرِكِيْنَ الأَبَـاطِـلِ
وَأَمْـرٍ بِـمَعْـرُوْفٍ وإِنْـكَـارِ مُنْكَـرٍ
وَفِعْـلِ صَلاَةٍ فِي الجَمَـاعَةِ حَـافِلِ
وَأَخْـذِ زَكَـاةِ المَـالِ فَـرْضَـاً مُؤَكَّـداً
يُـرَدُّ لِـذِي فَقْـرٍ وَغُـرْمٍ وَعَـامِـلِ
وَحَـجٍ وَتَـقْـوِيْـم الـجِـهَـادِ لأَنَّـهُ
أَمَـانٌ وَعِـزٌ عَـنْ مَـذَلَّـةِ خَـاذِلِ
إِذَا مَـا مَـلَكْنَـا قَـرْيَـةً أَوْ قَـبِيْـلَةً
أَقَمْنَـا بِهَـا شَـرْعَ الهُـدَاةِ الكَـوَامِـلِ
فَنَهْـدِمُ أَوْثَـانـاً وَنَبْنِـي مَسَـاجِـداً
وَنَكْسِـرُ مِـزْمَـاراً وَطَبْـلاً لِجَـاهِـلِ

وَنَقْطَعُ سُرَّاقاً وَنَرْجُمُ مُحصَناً
وَنَجْلِدُ سَكْرَاناً بِنَصّ الرَّسَائِلِ
نَكُفُّ ظُلُومَ البَدْوِ والحَضْرِ إنْ غَدَا
يُغِيْرُ عَلَى حَقِّ الضِّعَافِ الأَرَامِلِ
وَنَتْبَعُ آثَارَ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ
مَعَ السَّلَفِ البِرِّ التُّقَاةِ الأفَاضِلِ
كَأَحْمَدَ والنُّعْمَانِ قُلْ لِيْ وَمَالِكٍ
كَذَا الشافِعِي رُكْنِ الحديثِ وَنَاقِلِ
فَمَاذَا عَلَيْنَا إذْ سَلَكْنَا سَبِيْلَهُمْ
بِقَوْلٍ وَفِعْلٍ مُسْعِدٍ فَنُوَاصِلِ
ألاَ أَيُّهَا الإخْوَانُ صَبْراً فَإنَّنِيْ
أَرَى الصَّبْرَ لِلْمَقْدُوْرِ خَيْرَ الوَسَائِلِ
وَلاَ تَيْأَسُوْا مِنْ كَشْفِ ذَا الكَرْبِ وَالبَلاَ
فَذُوْ العَرْشِ فَرَّاجُ الأُمُوْرِ الجَلاَئِلِ
عُيُونُ القَضَا لَيْسَتْ نِيَاماً وَسَهْمُهُ
مُصِيْبٌ فَمَا يُخْطِيْ عُيُونَ المَقَاتِلِ
فَطُوبَى لِعَبْدٍ قَامَ لِلهِ مُخْلِصاً
تَرَنَّمَ في مِحْرَابِهِ مُتَمَايِلِ
يَمُدُّ يَدَيْهِ سَائِلاً مُتَضَرِّعاً
لِرَبٍّ قَرِيْبٍ بالإِجَابَةِ كَافِلِ
فَجَاءَتْ سِهَامُ اللَّيْلِ تَهْوِيْ بِسُرْعَةٍ
إلى ظَالِمٍ عَنْ ظُلْمِهِ مُتَغَافِلِ

أَصَابَتْ نِيَاطَ القَلْبِ في وَسْطِ نَحْرِهِ
فَـآبَ بِـخُسْـرَانٍ وَحَـرِّ بَـلاَبِـلِ
فَقُمْ قَـارِعـاً لِلْبَـابِ والنَّـابِ نَـادِمـاً
عَلى مَا جَرَى وَأَقْبِـل عَلَيهِ وَسَـائِلِ
وَأَمَّـا بَنُـو الـدُّنْيَـا فـلا تَـرْج نَفْعَهُمْ
فَـلاَ مُـرْتَقَى مِنْهُمْ يُـرَجَّى لِنَـازِلِ
فَـإِنِّـي تَتَـبعْـتُ الأَنَـامَ فَلَمْ أَجِـدْ
سِوَى حَاسِـدٍ أَوْ شَامِتٍ أَوْ مُعَـاذِلِ
فَلَمْ أَرَى أَنْكَى لِلْعَـدُوّ مِنَ الـدُّعَـا
كَـرَمْي بِنَبْـلٍ أُوْتِـرَتْ بـالمَنَـاصِـلِ
فَـلاَ تَدْعُ غَيْـرَ اللهِ في كُلِّ حَـالَـةٍ
وَخَـلِّ جَمِيْـعَ الخَلْقِ طُـراً وَعَـازِلِ
سَأَلْتُكَ يَـا ذَا الجُوْدِ وَالمَنِّ والعَـطَا
تَجُـودُ وَتَعْفُـوْ عن عُبَيْـدِكَ يَـاوَلِي
وَتُـرْسِـلَ طَـاعُـونـاً وَرِجْـزاً وَنِقْمَـةً
وَطَعْنـاً لِـطَعَّـانٍ وَقَتْـلاً لِقَـاتِـلِ
يَعُم لِأَحْـزَابِ الضَّـلاَلِ وَصَحْبِهِـمْ
بِسَـوْطِ عَذَابٍ عَـاجِـلٍ غَيْـرِ آجِـلِ
فَـإِنَّـكَ قَهَّـارٌ على كُـلِّ قَـاهِـرٍ
وَأَمْـرُكَ غَـلاَّبٌ لِـكُـلِّ مُـحَـاوِلِ
وَأَزْكَى صَـلاَةً لاَ تَنَاهَى عَلَى الـذِيْ
لَـهُ انْشَقَّ إِيـوانٌ لِكِسْـرَى بِبَـابِـلِ

مُحَمَّـدٍ والأَصْحَابِ مَـا هَبَّتِ الصَّبَـا
وَآلِ رَسُــولِ اللهِ زَيْنِ المَحَــافِـلِ

اللهم أَبْرِمْ لِهَذِهِ الأُمَّةَ أَمْرَ رُشْدٍ يُعَزُ فِيْهِ أَهْلُ طَاعَتِكَ وَيُذَلُّ فيه أَهْلُ مَعْصِيَتِكَ وَيُؤْمَرُ فِيْهِ بالمَعْرُوْفِ وَيُنْهَى فِيْهِ عن المنكر وَيُزَالُ بِهِ ما حَدَثَ مِن بدَعٍ وَمُنْكَرَاتٍ وَمَعَاصِي ويُحْيَا بِهِ بَدَلُهَا مَا أُمِيْتَ مِن سُنَّةٍ وَغيْرَةٍ وَشِيْمَةٍ كَرِيْمَةٍ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر وبالأَجابةِ جَدِيْر .

اللَّهُمَّ يَاحَيُّ يَا قَيُّوْمُ يا بَدِيْعَ السَّمَـواتِ وَالأَرْضِ نَسْأَلُكَ أَنْ تُوَفِّقَنا لِمَا فِيهِ صَلاحُ دِيْنِنَـا وَدُنْيَانَـا وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَـا وَأَكْـرِمْ مَثْـوَانَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

كانَ صَلى اللهُ عليه وسلم مُتَواضِعاً كَانَ يَرْكَبُ الحِمَارَ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ فَقَدْ أَرْدَفَ بَعْضَ نِسَائِهِ وَأَرْدَفَ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ وَأَردَفَ أُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ عليه الصلاةُ والسلامُ كانَ في سَفَرٍ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ باصْلاحِ شَاةٍ فقالَ رَجُلٌ ، يَا رَسُولَ اللهِ عَلَيَّ ذَبْحُهَا وقال آخَرُ عَلَيَّ سَلْخُهَا وقال آخَرُ عَلَيَّ طَبْخُهَا .

فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم وَعَليَّ جَمْعُ الحَطَبِ فقالُوا يَا رَسُول اللهِ نَكْفِيْكَ العَمَلَ فقال عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفُونَنِيْ وَلَكِنْ أَكْرَهُ أَنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُمْ ، وإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكْرَهُ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرَاهُ مُتَمَيِّزاً بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ جَاءَ وَفْدُ النَّجَاشِي فَقَام صَلَى اللهُ عليه وسلم يَخْدِمُهُم فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ نَكْفِيْكَ ، قال إِنَّهُم كَانُوا لِاَصْحَابِنَا مُكْرِمِيْنَ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُكَافِئَهُمْ .

وَعن ابْنِ عُمَرَ قال أَتَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم صَاحِبَ بز فاشْتَرى مِنْهُ قَمِيْصاً بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فَخَرجَ وَهُوَ عليهِ ، فإذَا رَجُلٌ مِن الأَنْصارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ اكْسِنِيْ قَمِيْصاً كَسَاكَ اللهُ مِن ثِيَابِ الجَنَّةِ فَنَزَعَ القَمِيْصَ فَكَسَاهُ إِيَّاهُ ثُم رَجَعَ إلى صَاحِبِ الحَانُوتِ فاشْتَرَى مِنْهُ قَمِيْصاً بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ وَبَقِيَ مَعَهُ دِرْهَمانِ ، فَإِذَا هُوَ بِجَارِيَةٍ تَمْشِيْ في الطَّرِيْقِ تَبْكِيْ فقَالَ مَا يُبْكِيْكِ قَالَتْ يَا رَسُوْلَ اللهِ دَفَعَ إليَّ أَهْلِي دِرْهَمَيْن اشْتَرِي بِهِمَا دَقِيْقاً فَهَلَكَا فَدَفَعَ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسلم إليْهَا الدِرْهَمَيْنِ البَاقِيَيْنِ .

ثُمَّ وَلَّتْ وَهِيَ تَبْكِيْ فَدَعَاهَا فَقَالَ مَا يُبْكِيْكِ وَقَدْ أَخَذْتِ الدِّرْهَمَيْنِ فَقَالَتْ أَخَافُ أَنْ يَضْرِبُوْنِيْ فَمَشَى مَعَهَا إلى أَهْلِهَا فَسَلَّمَ فَعَرَفُوا صَوْتَهُ ثُمَّ عَادَ فَسَلَّمَ ثُمَّ عَادَ فَثَلَّثَ فَرَدُّوْا .

فَقَالَ أَمَا سَمِعْتُمْ أَوَّلَ السَّلَامِ فقَالُوا نعمْ وَلَكِنْ أَحْبَبْنَا أَنْ تَزِيْدَنَا مِن السَّلامِ فمَا أَشْخَصَكَ بِأَبِيْنَا وَأُمِّنَا قَالَ أَشْفَقَت هَذهِ الجَارِيَةُ أَنْ تَضْرِبُوْهَا .

قَالَ صَاحِبَهَا هِيَ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ لِمَمْشَاكَ مَعَهَا فَبَشَرَهُمْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالخَيْرِ وبالجَنةِ .

وقال لَقَدْ بَارَكَ اللهُ في العَشَرةِ كَسَا اللهُ نَبِيَّهُ قَمِيْصاً وَرَجُلاً مِن الأَنصارِ قَمِيْصاً وَأَعْتَقَ مِنْهَا رَقَبَةً وَأَحْمَدُ اللهَ هُوَ الذي رَزَقَنَا هَذا بِقُدْرَتِهِ أَخْرَجَه الطبرانيُ كَمَا في مَجْمَعِ الزوائد في ٩ ص ١٣ .

فَهَذَا الحَدِيْثُ يَشْهَدُ لِتَواضُعِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم وَسَمَاحَتِهِ وَرَحْمَتِه وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِن إِمَاءِ المَدِيْنَةِ لتَأْخُذُ بِيَدِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ رواهُ البخاري .

وعن الأَسوْدِ بنِ يَزِيْدٍ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها ما كانَ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَصْنَعُ في بَيْتِهِ قالَتْ كَان يَكُونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، يَعْنِيْ خِدْمَةِ أَهْلِهِ فإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إلى الصلاةِ رواه البخاري .

وَدَخَلَ الحَسَنُ والنبيُ صلى اللهُ عليه وسلم يُصَلِّيْ فَرَكِبَ الحَسَنُ ظَهْرَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَبْطأَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم في سُجُودِهِ فَلَمَّا فَرَغَ قالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحابِه لَقَدْ أَطَلْتَ سُجُوْدَكَ قالَ إن ٱبْنِي ٱرْتَحَلَنِيْ فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ .

وَكَان صَلى اللهُ عليه وسلم يُبَاسِطُ أَصْحَابَهُ وقالَتْ عائشةُ رضي اللهُ عنها كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا خَلاَ في بَيْتِهِ أَلْيَنَ الناسِ بَسَّاماً ضَحَّاكاً .

وعن البَرَاءِ بنِ عازِبٍ رضي اللهُ عنه قال رأيت رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَوْمَ الأحزابِ يَنْقُلُ التُّرابَ وقَدْ وَارَى البَيَاضُ بَيَاضَ بَطْنِهِ .

وعن أنسٍ رضي اللهُ عنه قال كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَعودُ المريضَ وَيَشْهَدُ الجَنَائِزَ ويَأتي دَعْوَةَ المَمْلُوكِ وَيَرْكَبُ الحِمَارَ وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يوماً على حِمَارٍ خِطَامُهُ لِيْفٌ .

وعن أنس رضي اللهُ عنه ما كانَ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِن رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوْا لِمَا يَعْلَمُونَ مِن كرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ .

وَعن الحسنِ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّهُ ذَكَرَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالَ لا وَاللهِ مَا كَانَ يُغْلَقُ دُوْنَهُ الأَبْوَابُ ولا يَقُوْمُ دُوْنَهُ الحِجَابُ ، ولا يُغْدَى عَلَيْهِ بالجِفَانِ ولا يُرَاحُ عليه بِهَا ولَكِنَّهُ كان بَارِزاً مَنْ أَرَادَ أنْ

يَلْقَى نَبِيَّ اللهِ لَقِيَهُ كانَ يَجْلِسُ بالأَرْضِ وَيُوْضَعُ طَعَامُهُ بالأَرْضِ وَيَلْبَسُ الغَلِيْظَ وَيَرْكَبُ الحِمَارَ وَيُرْدِفُ بَعْدَهُ وَيَلْعَقُ واللهِ يَدَهُ صلى اللهُ عليه وسلم .

وعن قُبَيْس بنِ أبِي حَازِمٍ أنَّ رَجُلاً أَتَى النبيَّ صَلى اللهُ عليه وسلم فلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ اسْتَقْبَلَتْهُ رِعْدَةٌ فقالَ لَهُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّيْ لَسْتُ مَلِكاً إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأةٍ مِن قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيْدَ .

وَإِنَّمَا قالَ ذَلِكَ صَلَواتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ حَسْماً لِمَوادِّ الكِبْر وَقَطْعاً لِذَرَائِعِ الاعْجَابِ وكسْراً لِأَشَرِ النَّفْسِ وَبَطِرِهَا وتذليلاً لِسَطْوَةِ الاسْتِعْلاَءِ وهَذَا أَبُوْ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه كانَ قَبْلَ أَنْ يَتولَّى الخِلاَفَةَ يَحْلِبُ لِلضُّعَفَاءِ مِمَّنْ حَوْلَهُ أَغْنَامَهُمْ فَلَمَّا وَلِيَ الخِلاَفَةَ سَمِعَ جَارِيَةً تَقُولُ اليَوْمَ لاَ تُحْلَبُ لَنَا مَنَائِحُ دَارِنَا فَسَمِعَهَا فقالَ بَلَى لَعَمْرِي لَأَحْلُبَنَّهَا لَكُم فَكَانَ يَحْلِبُهَا وَرُبَّمَا سَأَلَ صَاحِبَتَها يَا جَارِيَةُ أَتُحِبِيْنَ أَنْ أُرْغِيَ لَكِ أَمْ أُصَرِّحْ فَرُبَّمَا قَالَتْ أَرْغِ وَرُبَّمَا قالَتْ صَرِّحْ فَأَيُّ ذَلِكَ قالَتْ فَعَلْ .

وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ نَادَى الصَّلاَةُ جَامِعَة فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ صَعِدَ المِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وأثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى على النبي صلى اللهُ عليه وسلم .

ثُمَّ قالَ أَيُّهَا الناسُ لَقَدْ رَأَيْتُنِيْ أَرْعَى عَلَى خَالاتٍ لِيْ مِن بَنِيْ مَخْزُوْمٍ فَيَقْبِضْنَ لِيْ القَبْضَةَ مِنَ التَّمْرِ والزَّبِيْبِ فَأَظَلُّ اليَوْمَ وَأَيُّ يومٍ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمنِ واللهِ يَا أَمِيرَ المؤمِنِينَ مَا زِدْتَ على أَنْ قَصَّرْتَ بِنَفْسِكَ فَقَالَ وَيْحَكَ يا ابْنَ عَوْفٍ إِنِّي خَلَوْتُ فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِيْ فَقَالَتْ أَنْتَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ فَمَنْ أَفْضَلُ مِنْكَ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعَرِّفَهَا نَفْسَهَا .

شِعْرَاً :

تَوَاضَعْ لِرَبِّ العَرْشِ عَلَّكَ تُرْفَعُ
فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَخْضَعُ
وَدَاوِ بِذِكْرِ اللَّهِ قَلْبَكَ إِنَّهُ
لأَشْفَى دَوَاءٍ لِلْقُلُوبِ وَأَنْفَعُ

آخرُ :

تَواضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاحَ لِنَاظِرٍ عَلى صَفَحَاتِ المَاءِ وَهُوَ رَفِيْعُ
ولا تَكُ كَالدُّخَانِ يَرْفَعُ نَفْسَهُ إلى طَبَقَاتِ الجَوِّ وَهُوَ وَضِيْعُ

وعَن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال لَوْ دُعِيْتُ إلى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ ولَو أُهْدِيَ إليَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ .

وعن بن أبي أَوْفَى قال كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لا يَأْنَفُ وَلاَ يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَمْشِي مَعَ الأَرْمَلَةِ والمِسْكِيْنِ فَيَقْضِي لَهُ حَاجَتَهُ وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ امرأةً كان في عَقْلِهَا شيءٌ فَقَالَتْ يا رسولَ اللَّهِ إنَّ لِيْ إلَيْكَ حاجَةً قَالَ يَا أُمَّ فُلاَنٍ خُذِيْ في أَيِّ طَرِيْقٍ شِئْتِ قُوْمِيْ حَتَّى أَقومَ مَعَكِ فَخَلاَ مَعَهَا رسولُ اللَّهِ ﷺ يُنَاجِيْاَ حَتَّى قَضَى حَاجَتَهَا .

وقالت عائشة رضي الله عنها كنتُ أَرَى إمرأةً تدخلُ على النبي ﷺ وكان يُقْبِلُ عليها بحَفَاوَةٍ فَشَقَّ ذلكَ عَليَّ فَعَلِمَ ذلك مِني فقال يا عائشةُ هَذِهِ كانَتْ تَغْشَانا أيامَ خَدِيْجَة وان حُسْنَ العَهدِ مِن الإِيمان .

قُلْتُ ولله در القائل :

وإنَّ أَوْلَى المَوالِيْ أَنْ تُوالِيَهُ عِندَ السُرُوْرِ الذي واسَاكَ في الحُزُنِ
إن الكِرَامَ إذا ما أَيْسَرُوْا ذَكَرُوا مَن كَانَ يَأْلفهُم في المَنْزِلِ الخَشِنِ

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَبِي ذَرٍّ قَالا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ

بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ فَيَجِيءُ الغَرِيْبُ فلا يَدْرِيْ أَيْهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ مَجْلِساً يَعْرِفُهُ الغَرِيْبُ إذا أَتَاهُ فَبَنَيْنَا لَهُ دُكّاناً مِنْ طِينٍ فكانَ يَجْلِسُ عَلَيْهِ وَنَجْلِسُ بِجَانِبَيْهِ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلْ جَعَلَنِيْ اللَّهُ فِدَاكَ مُتَّكِئاً فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ قال لاَ بَلْ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ وأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ .

وَعَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جاءَنِيْ مَلَكٌ فَقَالَ إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَيَقُولُ إنْ شِئْتَ نَبِيّاً عَبْداً وَإِنْ شِئْتَ نَبِيّاً مَلِكاً فَنَظَرْتُ إلى جبريْلَ فَأَشَارَ لِيْ ضَعْ نَفْسَكَ فَقُلْتُ نبيّاً عَبْداً . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيْ أَوْفَى قَالَ كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ الذِّكْرَ وَيُقِلُّ اللغْوَ وَيُطِيْلُ الصَّلاةَ وَيُقَصِّرُ الخُطْبَةَ وَلاَ يَأْنَفُ ولا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَمْشِيْ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِيْنِ يَقْضِيْ لَهُمَا حَاجَتَهُمَا .

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ فِي عِصَابَةٍ مِن المُهَاجِرِينَ جَالِساً وَإِنّ بَعْضَهُم يَسْتَتِرُ ببعْضٍ مِن العُرْيِ وَقَارِىءٌ لَنا يَقْرَأُ عَلَيْنا فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إِلى كِتَابِ اللَّهِ فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ الحَمْدُ لِلَّهِ الذِيْ جَعَلَ مِنْ أُمَّتِيْ مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ مَعَهُمْ نَفْسِيْ ثُمَّ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسْطَنَا لِيَعْدَلَ بَيْنَنا بِنَفْسِهِ فَقَالَ أَبْشِرُوا مَعَاشِرَ صَعَالِيْكِ المُهَاجِرِيْنَ بالنُّوْرِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ تَدْخُلُونَ الجَنّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَلِكَ خَمْسُمائِهِ عام .

ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ مُعْجزَاتِهِ ﷺ

شِعْراً :

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ منَّا تَحِيَّةً ... وَصَلَّى عَلَيْكَ العَابِدُ المُتَهجِّدُ
فَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ هَادٍ وَمُهْتَدٍ ... نَبِيُّ هُدَىً لِلأَنْبِيَاءِ مُؤَيَّدُ
وَقَدْ قَالَ حَسَّانٌ وفي الشِّعْرِ شَاهِدٌ ... تُجَدِّدُهُ الأَيَّامُ يُرْوَى وَيُنْشَدُ
«أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلْنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللَّهِ مَشْهُوْدٌ يَلُوْحُ وَيُشْهَدُ»

«وَضَمَّ الإِلهُ اسْمَ النَّبِيّ إِلَى اسْمِهِ   إِذَا قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ»
فَقُلْتُ شَبِيْهاً بِالذِيْ قَالَ إِنَّنِيْ   بِهِ مُؤْمِناً حَقّاً لِرَبِّيْ مُوَحِّدُ
فَلا يُقْبَلُ التَّوْحِيْدُ إِلَّا بِذِكْرِهِ   لِيَقْرِنَهُ عِنْدَ النِّدَاءِ المُوَحِّدُ
وَمَا جَاءَ يَدْعُونَا بِغَيْرِ دَلالَةٍ   وَلَكِنْ بِآيَاتٍ تَدُلُّ وَتَشْهَدُ
وَمِنْ ذَاكَ جِذْعٌ حَنَّ شَوْقًا إِلَى الرِضَا   ومَا زَالَ سَاعَاتٍ يَمِيلُ وَيُسْنَدُ
وَقَدْ سَمِعُوا صَوْتاً مِن الجِذْعِ بَيِّناً   فَيَا عَجَباً مِمَّنْ يَشُكُّ وَيُلْحِدُ
وَمِنْ ذَاكَ شَاةٌ خِلْوَةُ الضَّرْعِ مَسَّهَا   فَدَرَّتْ بِغَزْرٍ حَافِلٍ يَتَزَيَّدُ
فَقامَ إِلَيْهَا الحَالِبَانِ فَأَتْرَعَا   أَوَانِيْهِمَا وَالضَّرْعُ مَلآنَ أَبْرَدُ
وَسَارَ إلى البَيْتِ المقَدَّسِ لَيْلَةً   مَسِيْرَةَ شَهْرٍ وارداً لَيْسَ يُطْرَدُ
يُخَبِّرُ بالعِيرِ التِيْ فِي طَرِيْقِهِ   لِيُوقِنَ أَهْلُ الشِّرْكِ ذَاكَ فَيَسْعَدُوا
وَمِنْ ذَاكَ أَخْبَارٌ عَنِ الغَيْبِ قَالَهَا   يُعَايَنُ مِنْهَا الصِّدْقُ فِيْهَا وَيُوْجِدُ
فَسُؤْدَدُهُ بِاللَّهِ إِذْ كَانَ وَحْيُهُ   إِلَيْهِ وَهَلْ فَوْقَ النُّبُوَّةِ سُؤْدَدُ
فَأَظْهَرَ بِالإِسْلامِ دَعْوَةَ صَادِقٍ   فَضَلَّ بِهِ قَوْمٌ وَقَوْمٌ بِهِ هُدُوا
تُسَلِّمُ أَحْجَارٌ عَلَيْهِ فَصِيْحَةً   إِذَا مَا خَلا فِي حَاجَةٍ يَتَفَرَّدُ
وَيُسْمَعُ مِنْ أَصْوَاتِهَا فِي طَرِيْقِهِ   تُمَجِّدُه إِنَّ النَّبِيَّ مُمَجَّدُ
وَأَنْشَأَ رَبِّيْ مُزْنَةً فَوْقَ رَأْسِهِ   رَآهَا بُحَيْرُ الرَّاهِبُ المُتَعَبِّدُ
تُظَلِّلُهُ مِنْ كُلِّ حَرٍّ يُصِيبُهُ   تَقِيْمُ عليهِ مَا أَقَامَ فَيَرْكُدُ
وَإِنْ سَارَ سَارَتْ لا تُفَارِقُ رَأْسَهُ   فَقَالَ لَهُم هَذا النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
حَلِيْمٌ رَحِيْمٌ لَيِّنٌ مُتَواضِعٌ   سَخِيٌ حَيِيٌّ عَابِدٌ مُتَزَهِّدُ

وَقَالَ آخَر :

نَبِيٌ تَسَامَى فِي المَشَارِقِ نُورُهُ   فَلاحَتْ بَوَادِيهِ لأَهْلِ المَغَارِبِ
أَتَتْنَا بِهِ الأَنْبَاءُ قَبْلَ مَجِيْئِهِ   وَشَاعَتْ بِهِ الأَخْبَارُ فِي كُلِّ جَانِبِ

وَرَامَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ جِنٌّ فَزَيَّلَتْ ... مَقَاعِدَهُم مِنْهَا رُجُومُ الْكَوَاكِبِ
هَدَانَا إلى مَا لَمْ نَكُنْ نَهْتَدِي لَهُ ... لِطُول العَمَى مِن واضِحَاتِ المَذَاهِبِ
وَجَاءَ بِآيَاتٍ تبَيَّنَ أَنَّهَا ... دَلاَئِلُ جَبَّارٍ مُثِيبٍ مُعَاقِبِ
فَمِنْهَا نُبُوعُ المَاءِ بَيْنَ بَنَانِهِ ... وقَدْ عَدِمَ الوُرَّادُ قُرْبَ المَشَارِبِ
فَرَوَّى بِهِ جَمّاً غَفِيراً وَأَسْهَلَتْ ... بِأَعْنَاقِهِ طَوْعاً أَكُفُّ المَذَانِبِ
وبِئْرٍ طَغَتْ بالمَاءِ مِنْ مسِّ سَهْمِهِ ... وَمِنْ قَبْلُ لَمْ تَسْمَحْ بِمَذْقِهِ شَارِبِ
وَضَرْعٍ مَرَاهُ فَاسْتَدَرَّ وَلَمْ يَكُنْ ... بِهِ دِرَّةٌ تَصْغَى إلَى كَفِّ حَالِبِ
وَنُطْقٍ فَصِيحٍ مِنْ ذِرَاعٍ مُبِينَةً ... لِكَيْدِ عَدُوٍّ لِلْعَدَاوَةِ نَاصِبِ
وَمِنْ تِلْكُم الآيَاتِ وَحْيٌ أَتَى بِهِ ... قَرِيبُ المَآتِي مُسْتَجِمُّ العَجَائِبِ
تَقَاصَرَتِ الأَفْكَارُ عَنْهُ فَلَمْ يُطِعْ ... بَلِيغاً وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ خَاطِبِ
حَوَى كُلَّ عِلْمٍ وَاحْتوى كُلَّ حِكْمَةٍ ... وَفَاتَ مَرَامَ المُسْتَمِرِ المُوارِبِ
أَتَانَا بِهِ لاَ عَنْ رَوِيَّةِ مُرْتَئِي ... وَلاَ صُحْفِ مُسْتَمْلٍ وَلاَ وَصْفِ كَاتِبِ
يُواتِيهِ طَوْراً فِي إجَابَةِ سَائِلٍ ... وَإِفْتَاءِ مُسْتَفْتٍ وَوَعْظِ مُخَاطِبِ
وَإِيْتَانِ بُرْهَانٍ وَفَرْضِ شَرَائِعِ ... وَقَصِّ أَحَادِيثٍ وَنَصِّ مَآرِبِ
وَتَصْرِيفِ أَمْثَالٍ وَتَثْبِيتَ حُجَّةِ ... وَتَعْرِيفِ ذِي جَحْد وَتَوْقِيفِ كَاذِبِ
وَفِي مَجْمَعِ النَّادِي وَفِي حَوْمَةِ الوَغَى ... وَعِنْدَ حُدُوْثِ المُعْضِلاَتِ الغَرَائِبِ
فيَأْتِي عَلى مَا شِئْتَ مِنْ طُرُقَاتِهِ ... قَوِيمَ المَعَانِي مُسْتدِرَّ الضَّرَائِبِ
يُصَدِّق مِنْهُ البَعْضُ بَعْضاً كَأَنَّما ... يُلاَحِظُ مَعْنَاهُ بِعَيْنِ المُرَاقِبِ
وَعَجْزُ الوَرَى عَنْ أَنْ يَجِيئُوا بمِثْلِ مَا ... وَصَفْنَاهُ مَعْلُومٌ بِطُولِ التَّجَارُبِ
وَكَانَ رَسُولُ اللهِ أَكْرَمَ مُنْجَبٍ ... جَرَى فِي ظُهُورِ الطَّيبِينَ المَنَاجِبِ
عَلَيْهِ سَلاَمُ اللهِ فِي كُلِّ شَارِقٍ ... أَلاَحَ لَنَا ضَوْءاً وفِي كُلِّ غَارِبِ

اللّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إنَّا نَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى وَصِفَاتِكَ العُلَى أَنْ

تُعْتِقَ رِقَابَنَا وَرِقَابَ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا مِن النَّار وَالدَّيْن وَالمَظَالِمِ يَا عَزِيْز يَا غَفَّارُ يَا كَرِيْمُ يَا سَتَّارُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

موعظـــة

عبادَ الله إقْتضَتْ حِكمةُ الله العليم الخبير بأنَّ كُلَّ شيَءٍ لَهُ إبتداء لابُدَّ له مِن نِهايَةٍ ، وكُلَّ شيءٍ لهُ أول حَتْماً لا مَنَاصَ لَهُ آخِر ، والعِبرةُ بالخاتمةِ نسأل الله حُسْنَهَا .

وأنَّ الأَيامَ والليالي تَمرُ والعُمُرُ يَنْقَضِي والحياةُ تَزُولُ ، ولا يَبْقَى إلا ما قَدَّمْتَهُ مِن صالح الأَعمالِ ينْفَعُكَ ﴿ يومَ لا ينفعُ مال ولا بنون إلا مَن أتىَ الله بقلبٍ سليم ﴾ ﴿ يومَ لا تَمْلِكُ نَفْس لِنَفْسٍ شيئاً والأَمرُ يومئذٍ لله ﴾ .

فالأَمرُ أَيُّها المسلمُ خَطِير فإن مَوْقِفاً مِن مَوَاقِفِ القِيامةِ تَشِيْبُ مِن هَوْلِهِ الوِلدان يومَ تمورُ فيه السماءُ مُوْراً وتسيرُ الجبالُ سَيرًا .

يَوم تذهلُ فيهِ كُلُ مُرضِعَةٍ عَمَّا أَرضَعَتْ وتضعُ كُلُ ذاتِ حملٍ حَمْلَهَا ﴿ يومَ يَفِرُ المرءُ مِن أخيهِ وأمهِ وأبيهِ وصاحبته وبنيهِ لِكلِ إمرءٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ ﴿ يومَ ينادِي المنادي مِن مكانٍ قريب ﴾ .

يُنـادِ بالحشرِ : يَا أَيَّتهَـا العِـظامُ الْبالِيةُ والأَوصالُ المتَقَطّعَةُ واللحومُ المُتَمَـزِقَـةُ والشعـورُ المتفرقةُ ، إن الله يأمرُكن أن تجتمَعْنَ لِفَصلِ القضاء ، فَتَخْرُجَ الخلاَئقُ مِن قبورها .

إن يوماً هذا بعضُ أحوالِهِ جَدِير أن يُسْتَعَدَّ له بصالحِ الأعمال .

فيا عبـادَ الله كُونُـوا مِن الدنيا على حَذَرٍ وأكثِرُوا ذِكْرهَا ذِم اللذات وَتذَكَّرُوا ما ذَهَبَ مَن أعمارِكم كم وفاتَ فكأني بِكم وقد نَقَلكُم الأَجلُ إلى إنقضاءِ المدةِ .

فيا رَهـائِنَ الموتِ وأعراضَ المنغمسينَ في الآثام أعَلىَ الله تجْترؤُن ، وعلى الدنيا وحطامِها الفاني تَتنافَسُون ، وفي دار النُقْلَةِ تَتَحاسدُون .

أمرتُم بخَرابها فَعَمرتُموها ونُهيتُم عن تَزْيينِهَا فَزَخْرَفْتمُوُهَا ونُدْبتُم لطلب الآخرةِ فأَهْملتُمُوهَا ودَعَتْكُم الخداعةُ الغَرَّارَةُ بدَاوعيها فأجَبْتُموها فَشَغَلَتْكُمْ بلذاتِها وقَمَعَتْكُم بشَهواتِها ورَضِيتُم مِن الكثيرِ باليسيرِ وبِعْتُم الجزيلَ بالحقيرِ وتَكَاسَلْتُم عن الجدِ والتَّشمِيرْ وأقمتمُ على التَّسويفِ والتعذير .

عبـادَ الله أينَ الخوفُ والوَجَلُ والاستغفارُ ، وأينَ الخشوعُ والخضوعُ والبكاءُ وجريان الدموعِ على الذنوبِ التي تَذَكّرُها يَرُوع ، أينَ التفكرُ والأعتبار .

ألا فإحْذروا المعاصي فإنها جَالِبَةُ النقَمِ ومُغَيّرَةِ النِّعمِ ولأَحوال وقال الله جل وعلا ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من الله من وال ﴾ .

عبادَ الله لا تَغُرنَّكُم الدنيا كما غرَّتْ مَن قَبْلَكم فإن حَظُّها مَشْؤُم وإن نَعَيْمَهَا وَإِنْ طالَ لا يدُوم :

ولو كانَتِ الدُّنْيَا عَـرُوْساً وجَـدَّتَها بمـا قَتَلَـتْ أَوْلادَهـا لا تُـزَوَّجُ

ويقول الآخر :

ولو كانَتِ الدُنَيا مِن الإِنسِ لَمْ تَكُنْ سِوَى مُوْمِسٍ أَفْنَتْ بِما سَاءَ عُمْرَهَا

عبادَ الله لا يخدعنكُم الأملُ فإن الأَجلَ محتُوم ولا يَصدنَّكم الشيطانُ عما خلقتُم لَهُ مِن عِبادة الحي القيومِ ولا تغرنكُ الأَماني فإنها حلم المستيقض وسَلْوةُ المحزون ، قال الله جل وعلا ﴿ إقتربَ للناس حسابُهم وهم في غفلةٍ معرضون ﴾ وقال تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ .

شـــعْرًا

لِكُلِّ شيَءٍ إذا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فلا يُغَرُّ بطِيْبِ العيش إنسان
هي الأمورُ كما شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ مَن سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْه أزْمَان
وعَالَمِ الكَوْنِ لا تبقَى محاسِنُه ولا يَدُوْمُ على حالٍ لَهَا شانَ
يُمزِّقُ الدهُر حَتْماً كُلَّ سَابِغَةٍ إذا نَبتْ مشرفيات وخِرصَان
ويُنْتَضَى كُلَّ سَيْفٍ لِلفَنَاءِ ولو كان إبنَ ذِي يَزَنٍ والغُمْدُ غُمدان
أينَ الملوكُ ذَوُوا التِّيْجَانِ مِنَ يَمنٍ وأينَ منهم أكاليل وتِيْجَانُ
وأينَ ما شادَهُ شَدَّادُ مِن إرمٍ وأينَ ما سَاسَه في الفُرس ساسان
وأينَ ما حَازَهُ قَارونُ مِن ذَهَبٍ وأينَ عادٌ وشدادٌ وقَحْطَانُ
أتَى على الكُلِّ أَمْرٌ لا مَردَّ لَهُ حتى قضَوا فكَانَّ الكلَّ ما كَانوا
وصَارَ مَا كَانَ مِن مُلْكٍ ومِن مَلِكٍ كَما حَكَى عن خَيَالِ الطيف وَسَنَانُ
دَارَ الزمانُ على دَارَا وقَاتِلِه وأمَّ كِسْرَى فما آواهُ إِيْوَانُ
كأنما الصَّعْب لم يَسْهُلْ لَهُ سَبَبُ يوماً ولم يمْلِكِ الدُنْيَا سُلَيْمانُ
فَجَائعُ الدهرِ أنواعٌ مُنوَّعَةٌ ولِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وأَحْزَانُ
ولِلْمَصَائِب سُلْوانٌ يُهَوِّنُها ومَا لِمَا حَلَّ بالإِسلام سُلْوَانُ
دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزَاء لَهُ هَوىَ لَهُ أُحُدٌ وإنْهَدَّ ثَهْلَانُ
أَصَابَها العَينُ في الإسْلام فإرْتَزَأَتْ حتى خَلَتْ منه أقطارٌ وبَلْدَان
فإسأَلْ بَلنْسِيَةً ما شأنُ مُرْسِيةٍ وأينَ قُرطبةٌ أَمْ أَينَ جَيَّانُ
وأَيْنَ حِمصٌ وما تَحويهِ مِن نُزَهٍ ونَهْرُها العذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلآنُ
كَذا طُلَيْطلةٌ دَارُ العُلُوم فَكَمْ مِن عالِمٍ قَدْ سَمَا فيهَا لَه شَانُ
وأَيْنَ غُرْنَاطَةٌ دَارُ الجهادِ وكَمْ أُسْدٌ بها وهُمُ في الحَرْبِ عُقْبانُ
وأَيْنَ حَمْرَاؤها العَلْيَا وزُخْرُفُها كَأَنها مِن جِنانِ الخُلْدِ عَدْنَانُ

قَـوَاعِـدٌ كُـنَّ أَرْكَـانَ البــلادِ فَمـا ... عَسَـى البقـاءُ إذا لـم تَبْقَـى أركـانُ
وَالماءُ يَجْـرِي بسَاحَاتِ القُصُورَ بها ... قَـدْ حَـفَّ جَـدوَلَهَـا زَهْـرٌ وَرَيْحَانُ
وَنَهْرُها العَـذْبُ يَحْكِي في تَسَلْسُلِهِ ... سُيُوفَ هِنْـدٍ لَهَـا فـي الجـوِّ لَمعـانُ
وأينَ جَـامِعُها المَشْهُـوْرُ كَـمْ تُلِيَتْ ... فِـي كُـلِّ وَقْـتٍ بِـهِ آيٌ وَفُـرْقَـانُ
وعَـالِمٍ كـان فَيـه لِلْجَهُـولِ هُـدَى ... مُـدَرِّسٌ ولَـهُ فـي العِـلْـم تِبْيَـانُ
وعَـابِـدٌ خَـاضِـعٌ لِلَّـهِ مُبْتَهِـلٌ ... والـدَّمْـعُ مِنـه على الخَدَيْن طُـوْفَـان
وأَيْنَ مَالِقَـةٌ مُرْسَـى المراكـب كَـمْ ... أَرْسَـتْ بِسَـاحَتِهَا فُلْكٌ وغُـرْبـانُ
وكَـم بداخِـلِهَا مِـن شَـاعِـرٍ فَطِـنٍ ... وذِي فُنُـونٍ لَـهُ حِـذْقٌ وتِبْيـانُ
وكَـم بِخَـارِجهـا مِـن مَـنْزَهٍ فَـرِجٍ ... وَجَنَّـةٍ حَـوْلَهَـا نَهْـرٌ وبُسْـتانُ
وأيـنَ جَـــارَتُهـا الـزَّهْـرَا وقُبَّتُهَـا ... وأيـنَ يـا قَـومُ أَبْطَـالٌ وفُـرْسَـان
وأيْـنَ بَسْطـةُ دَارُ الزَّعْفَـرانِ فَهَـلْ ... رَآى شَبِيْهَاً لَهـا في الحُسْـنِ إنسَـانُ
وكَـمْ شُجَاع زَعِيْمٍ في الوَغَى بَطلٍ ... تَبْكِيْـه مِـن أَرْضِـهِ أَهْـلٌ وَولْـدَانُ
وَوَادِيَـاً مَـن غَـدَتْ بالكُفْر عَـامِـرةً ... وَرَدَّ تَـوْحِيْـدَهَـا شِـرْكٌ وطُغْيَـانُ
كَـذا المَـرِيَّةُ دَارُ الصَّـالِحِيْنَ فَكَـمْ ... قُطْـبٌ بِهَـا عَـلَـمٌ بَحْـرٌ لـه شَـانُ
تَبْكِيْ الحَنِيفيةُ البَيْضَاءُ مِن أَسَـفٍ ... كمـا بَكَـى لِفِـرَاقِ الإلـفِ هَيْمَـانُ
حتَّى المَحارِيْب تَبْكِي وهـي جَامِدَة ... حتَّـى المَنَــابـرَ تَبْكِيْ وهي عِيْـدَانُ
عـلى دِيـارٍ مِـن الإسـلام خَـالِيـةٍ ... قَـدْ أَقْفَـرَتْ ولهَـا بالكُفْـرِ عُمْـرانُ
حَيْثُ المساجدَ قَدْ أَمْسَتْ كَنَائِسَ ما ... فيْهِــنَّ إلاَّ نَـواقِيْــسٌ وَصُــلْبَانُ
يا غافـلاً ولَهُ فـي الدهـر مَـوْعِظَـةٌ ... إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فالدهْـر يَقْظَـانُ
ومـاشــيـاً مَـرِحـاً يُلْهِيْـهُ مَـوْطِنُـهُ ... أَبَعْـدَ حِمْصٍ تَغُـرُ المرءَ أَوْطَـانُ
تِلْكَ المُصِيْبَةُ أَنْسَـتْ مَـا تَقَـدَّمَهَـا ... ومَالَهَـا مَـعْ طَـوِيْـلِ الـدهـرِ نِسْيَانُ
يـا راكِبِيْنَ عِتَـاقَ الخَيْـلِ ضَـامِـرةً ... كَـأَنَّهَـا فـي مَجَـالِ السَّـبْقِ عُقْبَـانُ

وحَامِلَيْنَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً كَأَنَّهَا في ظَلام الليل نِيْرَانُ
ورَاتِعِينَ وَرَاءَ النَّهْرِ في دَعَةٍ لَهُمْ بأَوطَانِهِم عَزٌ وسُلْطَان
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِن أَمرِ أَنْدَلُس فَقَدْ سَرَى بحَدِيْثِ القَوْمَ رُكْبَانُ
كَم يَسْتَغِيْثُ صَنَادِيدُ الرِجَال وهُمْ أَسْرَى وقَتْلَى فَلا يَهْتَزُ إنسانُ
أَلَّا نُفُوسٌ أَبِيَّاتٌ لها هِمَمٌ أَمَا عَلَى الخَيْرِ أَنْصَارٌ وأعْوَانُ
يَا مَن لِنُصْرَةِ قَومٍ قُسِّمُوا سَطَا عَلَيْهِم بها كُفْرٌ وطُغْيَانُ
بالأَمْس كانُوا مُلُوكَاً في مَنَازِلِهِمْ واليومَ هُمْ في قُيُودِ الكُفرِ عُبْدَانُ
فَلَو تَرَاهُم حَيَارى لا دلِيْلَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ مِن ثِيَاب الذُل أَلْوَانُ
ولو رَأَيْتَ بُكَاهُم عِنْدَ بَيْعِهِمُ لَهَالَكَ الأَمْرُ واسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ
يَا رُبَّ طِفْلٍ وَأُمٍ حِيْلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تُفَرّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ
وَطَفلَةٍ مِثْلَ حُسْنُ الشَمس إذ طَلَعَتْ كأَنَمَا هِيَ يَاقُوتٌ ومَرْجَانُ
يَقُودُهَا العِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً والعَيْنُ بَاكِيَةٌ والقَلْبُ حَيْرَانُ
لِمثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِن كَمَدٍ إنْ كَانَ في القَلْب إسْلامٌ وإيمانُ
هَلْ لِلجِهَاد بها مِن طَالب فَلَقَدْ تَزَخْرَفَتْ جَنَّةُ الْمأْوَى لَها شَانُ
وأَشْرَفَ الحُوْرُ والوِلدَانُ مِن غُرَفٍ فَازَتْ ورَبّ بهذا الخَيْر شُجْعَانُ
ثم الصلاةُ على المختارِ مِن مُضَرٍ مَاهَبَّ رِيحُ الصَّبَا وإهْتَزَّ اغْصَانُ

هذه منظومة وعظية نقلناها من مقامات الحريري :

خَلِ ادِّكَارَ الأَرْبعِ والمَعْهَدِ المُرْتَبعِ
والظَّاعِنِ المُوَدَّعِ وعَدّ عَنهُ وَدَعِ
وانْدُبْ زَمَاناً سَلَفَا سَوَّدَتَ فِيهِ الصُّحُفَا
ولَمْ تَزَلْ مُعْتَكِفَا على القَبِيْحِ الشَّنِعِ
كَمْ لَيْلَةٍ أَوْدَعْتَهَا مَآثِماً أَبْدَعْتَهَا

لِشَــهْوةٍ أَطَعْتَهَــا في مَـرْقَـدٍ ومَضْـجَع
وكَـمْ خُـطًى حَثَثْتَهَـا في خِـزْنَـةٍ أَحْـدَثْتَهَـا
وتَــوْبَــةٍ نَكَثْتَهــا لِمَلْعَــبِ وَمَــرْتَــع
وكَــمْ تَجَــرَّأْتَ عَـلَى رَبّ السَّـماواتِ العُـلَى
ولَــم تُـرَاقِبْـهُ وَلاَ صَـدَقْـتَ فِيمَـا تَدَّعِـيْ
وكَــم غَمَصْــتِ بِرَّهُ وكَـمْ أَمِـنْتَ مَكْـرَهُ
وكَــم نَبَـذْتَ أَمْـرَهُ نَبْـذَ الحَـذَاء المُـرَقَّـعِ
وكَمْ رَكَضْتَ في اللَّعِبْ وفُهْتَ عَمْداً بالكَذِبْ
ولَــم تُـراعِ مَـا يَجِبْ مِـن عَهْــدِهِ المُتَبَّـعِ
فالْبَسْ شِعَـار النَّـدَمِ واسْكُبْ شآبيْبَ الـدَّمِ
قَبْــلَ زَوَالِ القَــدمِ وقَبْـلَ سُـوءِ المَصْــرَعِ
واخْضَعْ خُضُوعَ المُعْتَرِفْ ولُـذْ مَــلاَذَ المُقْـتَرِفْ
واعْصِ هَوَاكَ وانْحَرِفْ عَنـهُ انْحِـرَافَ المُقْـلِعِ
إلاَمَ تَسْــهُو وَتَـنِى ومُعْظَـمُ العُمْـرِ فَـنِى
فِيمَـا يَضُــرُّ المُقْتَنِى ولَسْــتَ بالمُرْتَــدِعِ
أَما تَرى الشَّيْبَ وَخَطْ وخَطَّ في الرأسِ خُطَطْ
ومَن يَلِحْ وخْطَ الشَّمَطْ بِفَــوْدِهِ فَقَـدْ نُعِــيْ
وَيْحَكِ يا نَفْسُ احْرَصِي عـلى ارْتِيَـادِ المَخْـلَصِ
وطَـاوِعـى واخْلِصِــى واسْتَمِعِى النُّصْحَ وَعِيْ
واعَتبِري بِمَنْ مَضَى مِـن القُـرونِ وانْقَضَى
واخْشَيْ مُفَاجَأَةَ القَضَا وحَـاذِري أَنْ تُخْـدَعِيْ
وانِتَهِجِي سُـبْلَ الهُدَى وادَّكِرِيْ وَشْـك الـرَّدَى

آهًـا لَـهُ بَيْـتُ البِـلَى والمَـنْزِلِ الفَقْـرِ الخَـلا
ومَـوْرِدِ السَّـفْرِ الأُولَـى واللاَّحِــقِ المُتَـبَّعِ
بَيْتٌ يُـرَى مَن أُوْدِعَـهْ قَـدْ ضَمَّـهُ واسْـتَوْدَعَـهْ
بَعْـدَ الفَضَـاءِ والسَّـعَةْ قِيـدَ ثَـلاثِ أَذْرُعِ
لا فَــرْقَ أَنْ يَحِـلَّهُ دَاهِيَــةٌ أَوْ أَبْــلَهُ
أَوْ مُعْسِـرٌ أَوْ مَـنْ لَـهُ مُـلْكٌ كَمُـلْكِ تُبَّــعِ
وبَعْـدَهُ العَـرْضُ الـذِي يَحْـوِي الحَيِّيَ وَالبَـذِي
والمُبْتَـدِي والمُحْتَــذِي ومَنْ رَعَـى ومَن رُعِـي
فيَــا مَفَــازَ المُتقَّــى ورِبْـحَ عَبْـدٍ قَدْ وُقِـيْ
سُـوءَ الحِسَـابِ المُوبِقِ وهَـوْلَ يَـومِ المَفْـزَعِ
ويا خَسَـارَ مَـنْ بَغَـى ومَـن تَعَــدَّى وطَغَـى
وشَـبَّ نِـيْرانَ الـوَغَـى لِمَطْعَــمٍ أَوْ مَطْمَــعِ
يـا مَـن عَليـهِ المُتَّـكَلْ قَد زَادُ مَا بي مِن وَجَلْ
لِمَـا اجْتَرمْتُ مِن زَلَلْ فِـى عُمْـرِي المُضَيَّـعِ
فاغْفِـرْ لِعَبْـدٍ مُجْـتَرِمْ وارْحَـمْ بُكَـاهُ المُنْسَجِمْ
فأنتَ أَوْلَى مَن رَحِـمْ وخَـيْرَ مَـدْعُـوٍّ دُعِـي

اللَّهُمَّ ثَبت مَحَبَّتَكَ في قَلوبنا وَقَوِّهَا ووفقنا لِشُكرِكَ وذكرك وارزقنا التأهُبَ والاسْتِعْـدَادِ لِلِقَـائِـكَ واجْعَـلْ خِتَـامَ صَحَائِفِنَا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)
في المُعَاشَرَةِ وَالْحِلْمِ وَآثَارِهِ
وَالأَسْبَابِ الباعِثَةِ على ضَبْطِ النَّفْسِ

الْحِلْمُ لُغَةً الأَنَاةُ وَالعَقْلُ لِكَوْنِهِ سَبَبُ الحِلْمِ وَاصْطِلاَحاً ضَبْطُ النَّفْسِ وَالطَّبْعِ عِنْدَ هَيَجَانِ الغَضَبِ أَوْ احْتِمَالِ الأذَى مِنْ الأَدْنَى وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الأَوَّلِ لأَنَّ مَنْ احْتَمَلَ الأَذَى مِمَّنْ دُوْنَهُ مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ فَقَدْ ضَبَطَ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ .

وَقَالَ القَاضِيْ عِيَاضُ الحِلْمُ حَالَةُ تَوَقُّرٍ وَثَبَاتٍ ، أَيْ صِفَةٌ تُوْرِثُ طَلَبَ وَقَارٍ وَثُبُوتٍ فِي الأَمْرِ واسْتِقْرَارٍ عِنْدَ الأَسْبَابِ المُحَرِّكَةِ لِلْغَضَبِ البَاعِثَةِ عَلَى العَجَلَةِ فِي العُقُوْبَةِ . وَلاَ يُسَمَّى المرْءُ حَلِيْماً إِلاّ إِذا كَانَ ذَلِكَ طَبْعاً لاَ تَكَلُّفاً وَقَدْ وَصَفَ اللّهُ بِهِ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيْمَ الخَلِيْلَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ لأَوَّاهٌ حَلِيْمٌ . وَكَمَا قَالَ فِي وَلَدِهِ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيْمٍ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

أَلا إِنَّ حِلْمَ المَـرْءِ أَكْـرَمُ نِسْبَـةٍ
تَسَـامَى بِهَـا عِنْـدَ الفِخَـارِ حَلِيْمُ

فَيَا رَبِّ هَبْ لِيْ مِنْكَ حِلْماً فَإِنَّنِيْ
أَرَى الحِلْمَ لَمْ يَنْـدَمْ عَلَيْـهِ كَـرِيْمُ

وَقَالَ الآخَرُ :

أُحِـبُّ مَكَـارِمَ الأَخْـلاَقِ جُـهْـدِيْ
وَأَكْـرَهُ أَنْ أَعِـيْـبَ وَأَنْ أُعَـابَـا

وَأَصْفَحُ عَنْ سِبَابِ النَّاسِ حِلْماً
وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَىٰ السِّبَابَا
وَمَنْ هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ
وَمَنْ حَقَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يُهَابَا

فَأَمَّا ضَبْطُ النَّفْسِ عِنْدَ الغَضَبِ مَعَ التَّكَلُّفِ فَهُوَ تَحَلُّمٌ لاَ حِلْمٌ فَإِذَا تَكَلَّفَ الإِنْسَانُ الحِلْمَ بِأَنْ مَرَّنَ نَفْسَهُ عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أَصْبَحَ الحِلْمُ لَهُ عَادَةً .

وَأَصْلُ الكَظْمِ شَدُّ رَأْسِ القِرْبَةِ عِنْدَ امْتِلاَئِهَا وَكَظْمُ البَابِ سَدُّهُ شُبِّهَ بِهِ مَنْ أَمْسَكَ نَفْسَهُ وَضَبَطَهَا عِنْدَ امْتِلاَئِهَا بِالغَضَبِ فَلَمْ يَنْتَقِمْ مِمَّنْ أَهَاجَهُ وَمِنْهُ فُلانٌ كَظِيْمٌ بِمَعْنَى مُمْتَلِىءٌ حُزْناً قَالَ تَعَالَى عَنْ يُوْنُسَ « إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ أَيْ غَيْظاً عَلَى قَوْمِهِ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الإِيْمَانِ » .

وَالغَيْظُ مُرَادِفٌ لِلْغَضَبِ وَلاَ يَتِمُّ حِلْمُ الإِنْسَانِ إلاّ بامْسَاكِ الجَوَارِحِ كُلِّهَا : اليَدِ عَنْ البَطْشِ وَاللِّسَانِ عَنْ الفُحْشِ وَالعَيْنِ عَنْ فُضُوْلاَتِ النَّظَرِ وَأَقْرَبُ لَفْظٍ يُسْتَعْمَلُ ضِدَّ الحِلْمِ التَّذَمُّرُ .

وَأَمَّا العَفْوُ وَالصَّفْحُ فَهُمَا صُوْرَتَا الحِلْمِ فَالعَفْوُ تَرْكُ المُؤَاخَذَةِ بالذَّنْبِ ، وَالصَّفْحُ تَرْكُ التَّثْرِيْبِ وَهُوَ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَ عَلَى الوَجْهِ الَّذِيْ يَجِبُ . بِأَنْ لاَ يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ إِخْلاَلٌ بِالدِّيْنِ ، قَالَ تَعَالَى (فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الجَمِيْلَ) تَنْبِيْهاً عَلَى مَا يَجْمُلُ مِنْهُ .

وَأَمَّا الصَّفْحُ في غَيْرِ مَحَلِّهِ فَلاَ يَصْفَحُ حَيْثُ اقْتَضَى المَقَامُ العُقُوْبَةَ ، كَعُقُوْبَةِ المُعْتَدِيْنَ الظَّالِمينَ الَّذِيْنَ لاَ يَنْفَعُ فِيهِمْ إلاّ العُقُوْبَةُ .

وَقَدْ حَثَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ « وَالكَاظِمِيْنَ الغَيْظَ وَالعَافِيْنَ عَنْ النَّاسِ » فَأَمَرَ جَلَّ وَعَلا بالحِلْمِ وَالعَفْوِ وَقَالَ تَعَالَى وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا وَقَالَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ وَقَالَ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَقَالَ تَعَالَى (إدْفَعْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِيْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ وَمَا يُلقهَا إلاّ الَّذِيْنَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيْمٍ) .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَاصْدُقْ صَدِيْقَكَ إنْ صَدَقْتَ صَدَاقَةً
وَادْفَعْ عَدُوَّكَ بِالَّتِي فَإِذَا الَّذِيْ

وَأَمَّا إنْ كَانَ الحِلْمُ عَلَى مَنْ يَعْتَدِيْ عَلَى الدِّيْنِ أَوْ العِرْضِ أَوْ المَالِ فَهَذا في غَايَةِ الجُبْنِ وَمُنْتَهَى الذَّمِّ نَعَمْ يَنْبَغِيْ لِمَنْ يُدَافِعُ عَنْ الفَضِيلَةِ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ عِنْدَ الدِّفَاعِ فَلاَ يُسْرِفْ فِي الانْتِقَامِ .

وَيُعْجِبُنِيْ جَوَابُ مَا ذُكِرَ في القِصَّةِ المَشْهُوْرَةِ مِنْ أَنَّ مُعَلِّماً كَانَ يُلقِي دَرْساً أَوْ هُوَ يَعِظُ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ إنْسَانٌ لَمْ يَسْتَعْمِلْ الرِّفْقَ وَتَسَرَّعَ فِي الانْتِقَادِ وَخَطَّأَ المُعَلِّمَ جَهْراً وَالنَّاسُ يَسْمَعُوْنَ وَمَضَى الشَّيْخُ في شَرْحِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَبَيَّنَ لِلنَّاقِدِ أَنَّهُ أَخْطَأَ وَأَنَّ الصَّوَابَ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فِي بَيْتِهِ مُعْتَذِراً مِمَّا فَرَطَ مِنْهُ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ نَظْماً جَوَابَاً لَهُ :

جَفَاءٌ جَرَىٰ جَهْراً لَدَىٰ النَّاسِ وَانْبَسَطْ
وعُذْرٌ أَتَى سِرّاً فَأَكَّدَ مَا فَرَطْ
وَمَنْ ظَنَّ أَنْ يَمْحُو جَلِيَّ جَفَائِهِ
خَفِيُّ اعْتِذَارٍ فَهْوَ في أَعْظَمِ الغَلَطْ

فَالنَّقْدُ يَجِبُ أَنْ يَكونَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِيَكُونَ مِنْ وَرَائِهِ نَجَاحُ القَصْدِ وَالسَّلاَمَةِ مِنْ الإِثْمِ وَالزَّلَلِ وَكَانَ الوَاجِبُ عَلَى المنْتَقِدِ أَنْ يُلَطِّفَ الكَلاَمَ وَيَأْتِيَ بِصِيْغَةِ سُؤَالٍ وَاسْتِفْهَامٍ وَيَسْأَلَ مَنْ حَوْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ هَذَا إِذَا كَانَ مُتَيَقِّناً لِلْخَطَإِ وَإِلاَّ فَبَعْدَ التَّثَبُّتِ يُبَيِّنُ لَهُ ذَلِكَ بِالكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالمَعْرُوْفِ مِنْ القَوْلِ وَلْيَحْذَرْ مِنْ خُشُوْنَةِ الكَلاَمِ فَإِنَّهَا مُنَفِّرَةٌ وَدَاعِيَةٌ إِلَى التَّمَادِيْ فِي البَاطِلِ .

وَعَلَى الحَلِيْمِ أَنْ لاَ يَتَجَاوَزَ الحَدَّ المَشْرُوْعَ لِرَدِّ المعتَدِيْنَ وَرَدْعِهِمْ وَإِلاَّ كَانَ مُتَهَوِّراً ظَالِماً فَالشَّجَاعَةُ تَسْتَلْزِمُ الحِلْمَ لأَنَّ الشَّجَاعَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدُ القُوَّةِ الَّتِيْ يَسْتَطِيْعُ بِهَا المَرْءُ مُوَاجَهَةَ الأَخْطَارِ بَلْ لاَ بُدَّ مَعَهَا مِنْ ضَبْطِ النَّفْسِ عِنْدَ الغَضَبِ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ اتِّبَاعِ سُنَنِ الدِّيْنِ .

وَالشَّجَاعَةُ هِيَ الحَدُّ الوَسَطَ بَيْنَ رَذِيْلَتَيْ الجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ فَفِيْ الجُبْنِ تَفْرِيْطٌ وَتَضْيِيْعٌ وَتَقْصِيْرٌ وفِي التَّهَوُّرِ إِفرَاطٌ وَتَعَدٍّ لِلْحُدُودِ وَفِي الشَّجَاعَةِ السَّلامَةُ بِأَنْ يُقْدِمَ حَيْثُ يَرَىٰ الإِقْدَامَ عَزْماً وَيُحْجِمَ حَيْثُ يَرَىٰ الإِحْجَامَ حَزْماً .

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الحِلْمِ آثَارٌ جَلِيْلَةٌ وَمَنَافِعُ عَظِيْمَةٌ يَعْرِفُ الإِنْسَانُ قَدْرَهَا إِذَا حَصَلَ الغَضَبُ وَآثَارَ العَوَاطِفَ وآثَارَ النُّفُوْسِ وَشَبَّ نَارَ الفِتْنَةِ فَاضْطَرَبَتْ الأُمُوْرُ وتَغَيَّرَتْ وَاسْتَحْكَمَتْ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ وَاسِتَوْلَى عَلَى النَّفْسِ حُبُّ النِّزَاعِ وَالصِّدَامُ وَحُبِّبَ إِلَى النُّفُوْسِ الفَتْكُ وَالدَّمَارُ وَنُسِيَتْ عَوَاقِبُ الأُمُورِ مِمَّا يَجُرُّهُ الطَّيْشُ وَالتَّهَوُّرُ مِنْ بَلاَءٍ وَدَمَارٍ وَشَقَاءٍ وَنَتَائِجَ وَخِيْمَةٍ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ وَيَظْهَرُ فَضْلُ الحِلْمِ .

فَإِنَّ الحِلْمَ إِذَا أَرَادَ اللّهُ يَدْفَعُ بِهِ هَذِهِ الشُّرُورِ لأَنَّ الحَلِيْمَ يَسْتَطِيْعُ إذا

وَفقَهُ اللّهُ أنْ يَنْظرَ إلى كُلِّ أمْرٍ مِنَ الأُمُورِ نَظَراً صادِقاً وَيُقَدِّرُهُ تَقْدِيْراً صَحِيْحاً وَيَزِنُهُ بِمِيْزانٍ عَادِلٍ فَلا يَسْتَخِفُّهُ الغَضَبُ وَالطَيْشُ فيَدْفَعُهُ إلى المُخاطَرَةِ وَيَسُوقُهُ إلى مَا لاَ قِبَلَ لَهُ بِهِ .

فَالحِلْمُ خَيْرُ وِقَايَةٍ تَقِيْ مَصارِعَ السُّوْءِ وَتَحْفَظُ مِنَ الوُقُوعِ في مَوَاطِنْ الهَلاكِ .

وَقَدْ مَثَّلَ العُلَماءُ لِذَلِكَ أَمْثِلَةً مِنْهَا إذَا كَانَ الحَاكِمُ حَلِيْماً لا يَسْتَفِزُّهُ الغَضَبُ إلى إبْرَامِ الأُمُوْرِ قَبْلَ التَّثَبُّتِ مِنْهَا فَإِنَّهُ يَكُوْنُ نِعْمَةً وَبَرَكَةً عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى رَعِيَّتِهِ لأنَّ التَّثَبُّتَ فِي الأُمُورِ قَبْلَ إبْرَامِهَا يَسْتَلْزِمُ العَدْلَ واعْطَاءَ كُلِّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ وَجَزَاءَ كُلِّ فَرْدٍ بِمَا هُوَ أهْلُهُ وبِذَلِكَ تَسْعَدُ وَتَدُوْمُ الدَّوْلَةُ بِإِذْنِ اللّهِ وَتَرْتَفِعُ مَكَانَتَهُ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ عِبَادِهِ .

المَثَالُ الثَّانِيْ : الزُّعَمَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ إذَا كَانُوا حُلَمَاءَ فَإِنَّهُمْ يَرْفَعُونَ عَنْ أتْبَاعِهِمْ إذَا أَرَادَ اللّهُ كَثِيْراً مِنَ الأذَىٰ وَيَدْفَعُوْنَ عَنْهُمْ شَرَّ التَّنَازُعِ وَالخُصُوْمَاتِ مَعَ بَعْضِهِمْ وَمَعَ غَيْرِهِمْ فَإِنَّ الحَلِيْمَ يُمْكِنُهُ أن يُعَالِجَ الأُمُوْرَ بِالهُدُوءِ وَالرِّفْقِ وَالتَّلَطُّفِ وَيُفَكِّرَ فِي الوَسَائِلِ وَالأسْبَابِ الَّتِيْ تُزِيْلُ الأحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَالخِصَامَ وَيَكُفُّهُمْ عَنْ الشَّرِّ وَيَأْخُذَ مِنْهُمْ بِحِلْمِهِ وَلِيْنِهِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أخْذُهُ بِقُوَّتِهِ وَجَاهِهِ فَتَنْحَسِمُ مَادّةُ الشَّرِّ ويَحِلُّ الوِئَامُ مَحَلَّ الخِصَامِ .

وَمِنْ الأمْثِلَةِ القُضَاةُ إذَا كَانُوا مُتَّصِفِيْنَ بِالحِلْمِ فَإِنَّهُمْ بِإِذْنِ اللّهِ يَهْتَدُوْنَ إِلَى الصَّوَابِ وَيَظْهَرُ لَهُمْ الحَقُّ لأَنَّ سَعَةَ صَدْرِ القَاضِيْ لاسْتِمَاعِ جَمِيْعِ مَا يَذْكُرُهُ الخُصُوْمُ وَحِلْمُهُ عَلَيْهِم حَتَّى يُدْلُوا إِلَيْهِ بِكُلِّ حُجَجِهِمْ وَيُبَيِّنُوا لَهُ كُلَّ مَا

يَسْتَطِيْعُوْنَهُ مِنْ طُرُقِ الإِثْبَاتِ مِنْ خَيْرِ الوَسَائِلِ الّتِيْ تُفِيْدُ فِي اسْتِنْبَاطِ الحَقِّ ومَعْرِفَةِ المُبْطِلِ مِنْ المُحِقِّ بِخِلافِ الأَحْمَقِ الغَضُوبِ فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ وَخَطَأَهُ أَكْثَرُ مِنْ صَوَابِهِ .

وَمِنْ الأَمْثِلَةِ لِذلِكَ أَنَّ المُرَبِّيْ إِذَا كَانَ حَلِيْماً فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ اللّهُ أَنْتجَ أَحْسَنَ النَّتَائِجِ وَيُؤَدِّيْ لأُمَّتِهِ أَجَلَّ الخِدَمِ وَأَفْضَلَهَا لأَنَّهُ يَسْتَطِيْعُ بِحِلْمِهِ أَنْ يَتَبَيَّنَ مَوْضِعَ الضَّعْفِ مِنْ نَفْسِ القَائِمِ عَلَى تَرْبِيَتِهِ فَيُعَالِجُهُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَهُ حَتَّى يَشِبَّ صَالِحاً نَافِعاً إِذَا كَانَ قَائِماً بِتَلْقِيْنِهِ العِلْمَ فَإِنَّ مُلَقِّنَ العِلْمِ إِذَا لَمْ يَكُنْ حَلِيْماً فَإِنَّهُ يُضِيْعُ عَلَى مَنْ يُعَلِّمُهُ أَحْسَنَ الفُرَصِ في حَيَاتِهِ لأَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنْ مُنَاقَشَةِ الحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ الّتِيْ يَتَمَكّنُ بِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ الخَطَأِ مِنْ الصَّوَابِ وَالحَقِّ مِنْ البَاطِلْ وَيَتَدَرَّبَ بِهَا عَلَى المُنَاظَرَةِ الْمُفِيْدَةِ لِلْفِكْرِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ المُرَبِّيْ الأَحْمَقَ يُضِيْفُ إِلَى ذَلِكَ أَثَراً سَيِّئاً في نَفْسِ المُرَبَّى لأَنَّ الطِّبَاعَ كَسَّابَةٌ فَيَتَأَثَّرُ مِنْهُ وَيَسْرِيْ إِلَيْهِ مِنْ أُسْتَاذِهِ مِنْ مَا بِهِ مِنْ أَمْرَاضٍ أَخْلاَقِيَّةٍ غَالِباً وَيَكُونُ شَرّاً مُتَعَدِّياً عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ .

وَمِنْ الأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ الزَّوْجُ مَعَ زَوْجَتِهِ فَإِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَلِيْماً فَإِنَّهُمَا يَعِيْشَانِ عِيْشَةً مَرْضِيَّةً إِذَا كانَ كُلٌّ مِنهُمَا يُغْضِيْ عَنْ هَفَوَاتِ الآخَرِ وَيَرْفُوْهَا فَلا يُثِيْرَانِ نِزَاعاً لأَيْسَرِ الأُمُورِ وَأَحْقَرِ الأَسْبَابِ وَأَتفَهِهَا وَإِنْ وَقَعَ نَادِراً عَالَجَاهُ بِلُطْفٍ وَحَرِصَا عَلَى كَتْمِهِ عَنْ الأَوْلاَدِ لِعِلْمِهِمَا بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِظْهَارِهِ مِنْ الضَّرَرِ العَظِيْمِ خُصُوصَاً إِذَا كَانَ الأَبْنَاءُ فِي حَدٍّ قَابِلٍ لانْطِبَاعِ الأَخْلاقِ فِيْهِمْ وَانْتِقَالِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الحِلْمَ فِي هذِهِ الحَالَةِ مَوْقِعُهُ عَظِيْمٌ وَضَرَرُ الحَمَاقَةِ شَدِيْدٌ جِدّاً لما يُصِيْبُ الأَبْنَاءَ مِنْ ضَرَرِ عَدَمِ الحِلْمِ فَالحِلْمُ فِي الحَقِيْقَةِ سَعَادَةٌ عَاجِلَةٌ وَخَيْرٌ للأَسْرَةِ بِتَمَامِهَا .

وَمِنْ الأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ التَّاجِرُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ حَلِيْماً تَرُوْجُ تِجَارَتُهُ وَيُقْبِلُ المُعَامِلُونَ عَلَيْهِ لأَنَّ حِلْمَهُ يُرَغِّبُ فِي مُعَامَلَتِهِ أَمَّا إذا كَانَ حَمِقِيّاً غَضُوْباً لأَهْوَنِ الأَشْيَاءِ وَأَيْسَرِ الأُمُورِ فَتَجِدُهُ مَعَ النَّاسِ فِي لِجَاجٍ وَخِصَامٍ لا يُمَكِّنُ غَضَبُهُ أَحداً مِنْ مُفَاهَمتِهِ فِيْمَا يُرِيْدُ أنْ يَبِيْعَهُ أو يَشْتَرِيْهِ وَرُبَّمَا أَدَّى بِهِ غَضَبُهُ وَعَدَمُ حِلْمِهِ إِلَى اتْلافِ السِّلْعَةِ الَّتِيْ يُرِيْدُ بَيْعَها أَوْ إِلَى الأَيْمَانِ أَنَّهُ لا يَبِيْعُهَا مِنْ المُسَاوِمِ لَهُ أو غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ الحَمْقَى الجَاهِلِيْنَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ لِكَسَادِ تِجَارَةِ هَؤلاءِ وَانْصِرَافِ النّاسِ عَنْهُمْ وَنُفْرَتِهِمْ مِنْ مُعَامَلَتِهِمْ . وَقَدْ يُفَضِّلُونَ مُعَامَلَةَ الحَلِيْمِ حَتّى وَلَوْ كَانَتْ سِلْعَتُهُ أَقَلَّ جَوْدَةً مِنْ سِلْعَةِ ذَلِكَ الأَحْمَقِ .

وَمِثْلُ ذَلِكَ أَهْلُ الصَّنَائِعَ إِذَا كَانُوا حُمَقَاءَ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يُعَامِلُونَهُمْ خَوْفاً مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ وَيَذْهَبُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَنْ كَانَ حَلِيْماً لأَنَّهُ يَكونُ مُحَبَّباً إِلَى النُّفُوسِ يَسْتَرِيْحُ مَعَهُ النَّاسُ .

« مَوْعِظَةٌ »

عِبَادَ اللَّهِ تَنَبَّهُوا رَحِمَكُمْ اللّهُ بِقَوَارِعِ العِبَرِ وَتَدَبَّرُوا مَوَاعِظَ كِتَابِ رَبِّكُمْ فَإِنَّهُنَّ صَوَادِقُ الخَبَرِ وَتَفَكَّرُوا في حَوَادِثِ الأَيَّامِ فَإِنَّ فِيْهَا المُزْدَجَرُ وَتَأَمَّلُوا دَوْرَ الزَّمَانِ عَصْراً فَعَصْراً أَيَامٌ تَتْلُو أَيَّاماً وَشَهْرٌ يَتْلُو شَهْراً وَسَنَةٌ تَتْلُوا سَنَةً وَأَوْقَاتٌ تُطْوَى فَتُخَرِّبُ عُمْرَاناً وَتَعْمُرُ قَفْرا وتُغِيْرُ مَرَّةً وَتَسْلُبُ أُخْرَىٰ .

مَوَاعِظُ تُنَادِيْ العَاقِلَ بِلِسَانِ الحَقِيْقَةِ جَهْراً فَاحْذَرُوا زَخَارِفَ الدُّنْيَا المُظَلِّلَة وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ تَكَثَّرَ مِنْهَا وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهُ فِي مَرَاضِيْ اللَّهِ وَيَجْعَلْهُ ذُخراً لِلدَّارِ الآخِرَةِ لَمْ يَزْدَدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا قِلّةً .

فَتَزَوَّدُوا مِنْهَا التَّقْوَى فَإِنَّهَا خَيْرُ زَادٍ وَخُذُوا أُهْبَةَ التَّحَوُّلِ وَانْتَبِهُوا مِنْ

سِنَـةِ الـرُّقَادِ قَبْلَ أَنْ تُقَرَّبَ لَكُمْ مَرَاكِبُ التَّحَوُّلِ إِلَى القُبُورِ وَيُنَادِي بِكُمْ الرَّحِيْلُ إِلَى الآخِرَةِ .

خُذُوا أُهْبَةً فِي الزَّادِ فالموتُ كائنٌ ... فمـا منه مَنْجَـا ولا عنـه عُنْـدَدِ
فمـا داركـم هَـذِي بـدَارِ إِقَـامَـةٍ ... ولَكِنَّهَـا دَارُ ابْتِـلاً وتَـزَوُّدِ
أمـا جَـاءكـم عـن رَبكم وتَـزَوَدُوْا ... فَمَا عُـذْرُ مَـن وافَـاهُ غَـيرُ مُـزَوَّدِ
فمـا هَـذِهِ الأَيَـامُ إِلَّا مَـرَاحِـلٌ ... تُقَـرِّبُ مِـن دَارِ اللِّقَـا كـل مُبْعَـدِ

آخر : نَهْوَى الحَيَاةَ وَلَوْ صَحَّتْ عَزَائِمُنَا ... لَمَـا صَـرَفْنَا إِلَـى الخَـدَّاعَـةِ الهِمَمَـا
لَـوْ عِلمُنَا عَلِمَتْ شُـمُّ الجِبَـالِ بِهِ ... أَزَالَ ذَلِكَ مِـنْ آنَـافِهَـا الشَّـمَمَـا
إِنَّ الشُّخُوصَ الَّتِيْ كانَتْ رَجَاجَتُهَا ... تُوَازِنُ الهَضْبَ صَارَتْ فِي الثَّرَىٰ رِمَمَا
عَمَّتْـهُمُ حَـادِثَـاتٌ غَـيْرُ مُبْقِيَـةٍ ... شَـيْئاً فَلَمْ تُبْقِ أَبْـدَانـاً وَلاَ قِمَمَـا

اللَّهُمَّ عَافِنَا مِنْ مَكْرِكَ وَزَيِّنَّا بِذِكْرِكَ وَاسْتَعْمِلْنَا بِأَمْرِكَ وَلاَ تَهْتِكْ عَلَيْنَا جَمِيْلَ سِتْرِكَ وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِلُطْفِكَ وَبِرِّكَ وَأَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا مِنْ عَذَابِكَ وَآمِنَّا مِنْ عِقَابِكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــــــلٌ)

قَالَ العُلَمَاءُ وَأَسْبَابُ الحِلْمِ البَاعِثَةِ عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ عَشَرَةٌ أَحَدُهَا الرَّحْمَةُ لِلْجُهَّالِ وَذَلِكَ مِنْ خَيْرٍ يُوَافِقُ رِقَّة وَقَدْ قِيْلَ فِي مَنْثُورِ الحِكَمِ مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَـابِ الحِلْمِ رَحْمَـةُ الجُهَّـالِ فَيَأْمَنُ وَيَأْمَنُـونَ مِنْ اسْتِحْـدَاثِ البُغْضِ وَالقَطِيْعَةِ المؤدِيَّيْنِ إِلَى تَرْكِ النّصْرَةِ وَالغيْبَةِ .

الثَّانِيْ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ القُدْرَةُ عَلَى الانْتِقَامِ وَالانْتِصَافِ وَذَلِكَ

الحِلْمُ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ وحُسْنِ الثِّقَةِ باللَّهِ وبِقُدْرَتِهِ وَقَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ أَحْسَنُ المَكَارِمِ عَفْوُ المُقْتَدِرِ وَجُوْدُ المُفْتَقِرْ .

شِعْراً :

خيرُ الخَلِيْلَيْنِ مَنْ أَغْضَى لِصَاحِبِهِ ... وَلَوْ أَرَادَ انْتِصَاراً مِنْهُ لاَ انْتَصَرَا

وَالثَّالِثُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ التَّرَفُّعُ عَنْ السِّبَابِ وَعذلِكَ مِنْ شَرَفِ النّفْسِ وَعُلُوِّ الهِمَّةِ وَقَالَتْ الحُكَمَاءُ شَرَفُ النّفْسِ أَنْ تَحَمَّلَ المَكَارِهَ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

لا يَبْلُغُ المَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا ... حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزُّوا لأَقْوَامِ

وَيُشْتَمُوْا فَتَرَى الأَلْوَانَ مُسْفِرَةً ... لا صَفْحَ ذُلٍّ وَلَكِنْ صَفْحُ أَحْلاَمِ

آخــر :

وإنْ هُوَ لَم يَحْمِلْ عَلى النفسِ ضَيْمَهَا ... فليس إلَى حُسْنِ الثناءِ سَبِيْلُ

وَالرَّابِعُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الاسْتِهَانَةُ بِالمُسِيءِ قَالَ الشَّاعِرُ :

قَوْمٌ إِذَا مَا جَنَا جَانِيْهُمُوا أَمِنُوا ... لِلُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَالَ آخَرُ :

فَدَعِ الوَعِيْدَ فَمَا وَعِيْدكَ ضَائِرِيْ ... أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَظِيرُ

آخــر :

وكَم مِن لَئِيْمٍ وَدَّ أني شَتَمْتُهُ ... وإن كان شمى فيه صاب وعَلْقَمُ

ولَلكَفُّ عن شتْمِ اللئِيْمِ تَكَرُمَا ... أَضَرُّ لَهُ مِن شَمِهِ حِيْنَ يشتَمُ

آخــر :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيْهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكوتُ

سَكَتُّ عَنْ السَّفِيْهِ فَظَنَّ أَنِّيْ عَيِيْتُ عَنْ الجَوَابِ وَمَا عَيِيْتُ

وَالخَامِسُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الاسْتِحْيَاءُ مِنْ جَزَاءِ الجَوَابِ وَهَذَا يَكُوْنُ مِنَ النَّفْسِ وَكَمَالِ المُروْءِهِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُم :

إِنِّيْ لأُعْرِضُ عَنْ أَشْيَاءَ أَسْمَعُهَا حَتَّى يَظُنُّ رِجَالٌ أَنَّ بِيْ حَمَقاً
أَخْشَى جَوَابَ سَفِيْهٍ لا حَيَاءَ لَهُ فَسْلٍ يَظُنُّ رِجَالٌ أَنَّهُ صَدَقَا

آخــر :

فَمَا الأَنْسُ بالأَنْسِ الّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ بِأُنْسٍ وَلَكِنْ فَقْدُ أُنْسِهِمُ أُنْسُ
إِذَا سَلِمَتْ نَفْسِيْ وَدِيْنِيْ مِنْهُمُوا فَحَسْبِيْ أَنْ العِرْضَ مِنِّيْ لَهُمْ تُرْسُ

السَّادِسُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ التّفَضُّلُ عَلى السَّابِّ وَهَذَا يَكُوْنُ مِنْ الكَرَمِ وَحُبِّ التّآلفِ قالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كَانَ دُوْنِيْ مَنْ بُلِيْتُ بِجَهْلِهِ أَبَيْتُ لِنَفْسِيْ أنْ أُقَابِلَ بالجَهْلِ
وَإِنْ كَانَ مِثْلِيْ فِي مَحَلٍّ مِنْ العُلاَ هَوِيْتُ إِذاً حِلْماً وَصَفْحاً عَنْ الجَهْلِ
وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مِنْهُ فِي الفَضْلِ وَالحِجَا رَأَيْتُ لَهُ حَقّ العلاوَة والفَضْلِ

السّابِعُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ اسْتِكْفَافُ السَّابِّ وَقَطْعِ السِّبَابِ وَهَذَا يَكُونُ مِنَ الحَزْمِ وَجَوْدَةِ العَقْلِ وَمِمَّا يُنْسَبُ لِلأَمَامِ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

قَالُوا سَكَتَ وَقَدْ خُوْصِمْتَ قُلْتُ لَهُمْ إِنّ الجَوَابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ
فَالصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ أَيْضاً وَفِيْهِ لِصَوْنِ العِرْضِ إِصْلاحُ
أَمَا تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وَهْيَ صَامِتَةٌ وَالكَلْبُ يُخْسَ لعَمْرِيْ وَهْوَ نَبَّاحُ

وَقَالَ الآخَرُ :

إِذَا فَاهَ السَّفِيْهُ بِسَبِّ عِرْضِيْ كَرِهْتُ بِأَنْ أَكُوْنَ لَهُ مُجِيْبَا
يَزِيْدُ سَفَاهَةً وَأَزِيْدُ حِلْماً كَعُوْدٍ زَادَهُ الإِحْرَاقُ طِيْبَا

وَتَعـرَّضَ رَجُلٌ أَحْمَقُ لأَحَدِ العُقَلاءِ الحُكَماءِ وأَسْمَعَهُ كَلاماً غَليْظاً وَأَفْحَشَ في القَوْلِ فَتحَلَّمَ عَنْهُ وَتركَهُ يُنوِّعُ سَبَّهُ وَلَمْ يُجِبْهُ بشَيءٍ فَقِيلَ لِمَاذَا لاَ تُجِبْهُ ؟

فَقَالَ أَرَأَيْتَ لَوْ عَضّكَ حِمَارٌ أَوْ رَمَحَكَ أَكُنْتَ تَعُضُّهُ أَوْ تَرْمَحُهُ قَالَ لا ، قَالَ أَرَأَيْتَ لَوْ نَبَحَ عَلَيْكَ كَلْبٌ أَوْ عَضَّكَ أَكُنْتَ تَعُضُّهُ أَوْ تَنْبَحُ عَلَيْهِ قَالَ لاَ قَالَ فَإِنَّ السَّفِيْهَ إِمَّا يَكُونُ كَالكَلْبِ أَوْ كَالحِمَارِ لأَنَّهُ مَايَخْلُ مِنْ جَهْلٍ وَأَذَى وَشَرٍّ وَكَثِيْراً مَايَجْتَمِعَانِ فِيْهِ فَالأَبْعَادُ عَنْهُ غَنِيْمَةٌ لِيُحْصُلَ عَلَىالسَّلاَمَةِ مِنْ شَرِّهِ وَأَذَاهُ .

والثّامِنُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الخَوْفُ مِنْ العُقُوْبَةِ عَلَى الجَوابِ وَهَذَا يَكُوْنُ مِنْ ضَعْفِ النَّفْسِ وَرُبَّمَا أَوْجَبَهُ الرَّأْيُ السَّدِيْدُ وَاقْتَضَاهُ الحَزْمُ .

وَالتَّاسِعُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الرِّعَايَةُ لِيَدٍ سَلَفَتْ وَحُرْمَةٍ لَزِمَتْ وَهَذَا يَكُونُ مِنْ الوَفاءِ وَحُسْنِ العَهْدِ وَقِيْلَ في مَنْثُورِ الحِكَمِ أَكْرَمُ الشّيَمِ أَرْعَاهَا لِلذّمَمِ والعَـاشِرُ مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الكَيْدُ والمَكْرُ وَتَوَقُّعِ الفُرَصِ الخَفِيَّةِ وَهَذَا يَكُوْنُ مِنْ الدَّهَاءِ .

يَقُولُ لَكَ العَقْلُ الذي زَيَّنَ الفَتَى	إِذَا أَنْـتَ لِـمْ تَقـوَى عَـدُوَّكَ دَارِهِ
وَلاَقِـهِ بالتَّرحِيْبِ والبِشْـرِ والرضَـا	وَبَارِكَ لَهُ مَا دُمْتَ تَحْتَ اقْتِدَارِهِ
وقَبِّلْ يَدَ الجَانِي الذي لَسْتَ قَادرًا	على قَطْعِهَا وارْقُبَ سُقُوطَ جِدارِهِ

آخـــر :

وإِذَا عَجزْتَ عن العَدُوّ فَدَارِهِ	وامْزَحْ لَهُ إِنَّ المِزَاحَ وفَاقُ
فالنارُ بالماءِ الذِي هُوَ ضِدُّهَا	تُعْطِي النّضَاجَ وطَبْعُها الإِحْرَاقُ

وَقَـدْ قِيْلَ في مَنْثُـورِ الحِكَمِ مَنْ ظَهَرَ غَضَبُهُ قَلَّ كَيْدُهُ وَقَالَ بَعْضُ

الأُدَبَاءِ غَضَبُ الجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ وَغَضَبُ العَاقِلِ فِي فِعْلِهِ وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ إِذَا سَكَتَّ عَنْ الجَاهِلِ فَقَدْ أَوْسَعْتَهُ جَوَاباً وَأَوْجَعْتَهُ عِقَاباً وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ قَتَادَةَ :

(تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْلَمُ رَأْيُنَا   وَنَشْتُمُ بِالأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ)

وقَالَ آخَرُ :

لَقَدْ أَسْمَعُ القَوْلَ الّذِيْ كَادَ كُلَّمَا   تُذَكِّرْ نِيهِ النَّفْس قَلْبِيْ يُصَدَّعُ
فَأُبْدِيْ لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّيْ بَشَاشَةً   كَأَنِّي مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
وَمَا ذَاكَ مِنْ عُجْبٍ بِهِ غَيْرِ أَنَّنِيّ   أَرَى أَنَّ تَرْكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَقْطَعُ

آخـر :

إذا خليْلِيَ لم يُكْثِرْ إِسَاءَتَهُ   فأَيْنَ مَوْضِعُ إِحْسَانِي وغُفْراني
يَجْنِي عَلَيَّ وأَحْنُو صَافِحاً أَبَدَا   لا شَيءَ أَحْسَنَ مِن حَانٍ عَلَى جَانِ

قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ ثلاثَةٌ لا يُعْرَفُونَ إِلَّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ لا يُعْرَفُ الجَوَادُ إِلَّا فِي العُسْرَةِ وَلَا يُعْرَفُ الشُّجَاعُ إِلَّا فِي الحَرْبِ وَلَا يُعْرَفُ الحَلِيْمُ إِلَّا فِي الغَضَبِ قَالَ الشَّاعِرُ :

« مَنْ يَدَّعِيْ الحِلْمَ أَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ   لا يُعْرَفُ الحِلْمُ إِلَّا سَاعَةَ الغَضَبِ »

وَمَنْ فَقَدَ الغَضَبَ فِي الأَشْيَاءِ المغضِبَةِ حَتَّى اسْتَوَتْ حَالَتَاهُ قَبْلَ الإِغْضَابِ وَبَعْدَهُ فَقَدْ عَدِمَ مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ الشَّجَاعَة وَالأَنفَةَ وَالحَمِيَّةَ وَالغَيْرَةَ وَالدِّفَاعَ وَالأَخْذَ بِالثَّارِ لأَنَّهَا خِصَالٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الغَضَبِ فإِذا عَدِمَهَا هَانَ بِهَا وَلَم يَكُنْ لِبَقَاءِ فَضَائِلِهِ فِي النُّفُوسِ قِيْمَةٌ وَلَا لِوُفُوْرِ حِلْمِهِ مَوْقِعٌ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا كَانَ الحِلْمُ يُؤَدِّيْ إِلَى فَسَادٍ بِأَنْ كَانَ المَحْلُومُ عَلَيْهِ لَئِيماً يَزْدَادُ شَرُّهُ مَعَ الحِلْمِ فَالجَهْلُ مَعَهُ أَحْسَنُ لأَنَّهُ يَرْدَعُهُ عَنْ الشَّرِّ وَالتَّمَادِيْ فِيْهِ

شعرا :

لَئِنْ كانَ حِلمُ المرءِ عَوْنُ عَدُوه ... عَلَيْه فإنّ الجَهْلَ أعْنَى وَأرْوَحُ
وَفي الحِلْم ضَعْفٌ والعُقُوبةُ قُوةٌ ... إذَا كُنْتَ تخْشَى كَيْدَ مَنْ عَنْهُ تَصْفَحُ

آخـــر :

أبَا حَسَنٍ ما أقْبَحَ الجَهْل بالفَتى ... ولَلْحُلْمُ أحْيَاناً مِن الجَهْلِ أقْبَحُ

آخـــر :

وَأنْـزَلَنِيْ طُـوْلُ النَّـوَى دَارَ غُـرْبَـةٍ ... إذَا شِـئْتُ لاقَيْتُ الّذِيْ لاَ أُشَـاكِلُهْ
فَحَـامَقْتُـهُ حَـتَّى يُقَـالَ سَـجِيَّـةٌ ... وَلَـوْ كَـانَ ذَا عَقْـلٍ لَكُنْتُ أُعَـاقِلُهُ

آخـــر :

وللدَّهْـر أثـوابٌ فَكـنَّ فـي ثِيـابِهِ ... كَلِبْسـتِهِ يَـومًـا أجَـدَّ وأخْـلَقَـا
فكن أكْيَسَ الْكَيْسَى إذا كُنْتَ فيهم ... وإن كنت في الحمقى فَكُنْ أنْتَ أحمقا

وَقَـالَ بَعْضُ الحُكَـمَاءِ العَفْـوُ يُفْسِدُ مِنْ اللَّئِيْمِ بِقَدْرِ إصْلاَحِهِ مِنْ الكَرِيْمِ وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

مِنْ الحِلْمِ أنْ تَسْتَعْمِلَ الجَهْلَ دُوْنَهُ ... إذَا اتَّسَعَتْ فِي الحِلْمِ طُرْقُ المَظَالِمِ

فَالحَكِيْمُ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي المَحَلِّ اللاَّئِق بِهِ فَلا يُعَامِلُ الكَرِيْمَ مُعَامَلَةَ اللئِيْم وَلاَ بِالعَكْس فَإنَّ هَذَا فِيْهِ ضَرَرٌ عَظِيْمٌ وَيُخِلُّ فِي مَنْصِبِ الشَّخْص وَيَحطُّ مِنْ قَدْرِهِ وَيَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ وَأَنَّهُ لا يُحْسِنُ أَنْ يُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَيَقُولُ أَبُو الطَّيِّبِ فِي ذَلِكَ :

إِذَا أَنْتَ أَكْـرَمْتَ الكَـرِيْمَ مَلَكْـتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللّئِـيْمَ تَمَـرّدَا
فَوَضْعُ النَّدا فِي مَوْضِـعِ السَّيْفِ بِالعُلاَ ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَا

وَيَقُوْل الآخَرُ :

وَالعَفْـوُ عِنْـدَ لَئِيْمِ الطَّبْعِ مَفْسَدَةٌ   تُطْغِـيْ وَلَكِنَّهُ عِنْدَ الكَـرِيْمِ يَـدَا

وَقَالَ آخَـرُ :

وَلِيْ فَـرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالحِلْمِ مُلْجَمٌ   وَلِيْ فَـرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَـنْ شَـاءَ تَقْـوِيْمِيْ فَإِنِّيْ مُقَـوَّمٌ   وَمَنْ شَـاءَ تَعْـوِيْجِيْ فَـإِنِّيْ مُعَـوَّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الجَهْلَ خِدْناً وَصَاحِباً   وَلَكِنَّنِيْ أَرْضَـى بِـهِ حِـيْنَ أُحْـرَجُ

وَيَقُولُ الآخَـرُ :

إِذَا كُنْتَ بَيْنَ الحِلْمِ وَالجَهْلِ نَاشِئاً   وَخُيِّرْتَ أَنَّى شِئْتَ فَالحِلْمُ أَفْضَلُ
وَلَكِنْ إِذَا أَنْصَفْتَ مَنْ لَيْسَ مُنْصِفاً   وَلَمْ يَرْضَ مِنْكَ الحِلْمَ فَالجَهْلُ أَمْثَلُ

وَلَمَّا ظَفِرَ النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ بِحَمْرَاءَ الأَسَدِ بِأَبِيْ عَزَّةَ الشَّاعِرُ الَّذِيْ مَنَّ عَلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَتَعَهَّدَ لِلنَّبِيّ ﷺ أَنْ لا يُنَاصِبَ المُسْلِمينَ العِدَا وَلاَ يُحَرِّضَ عَلَيْهِ الأَعْدَاءَ فَلَمْ يَفِ بِقَوْلِهِ وَلَمْ يَصْدُقْ بِوَعْدِهِ بَلْ نَقَضَ العَهْدَ وَخَانَ المِيْثَاقَ وما أَبْرَمَ مِنْ الاتِّفَاقِ فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِقَتْلِهِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقِلْنِيْ وَامْنُنْ عَلَيَّ وَدَعْنِيْ لِبَنَاتِيْ وَأُعْطِيْكَ عَهْداً أَلَّا أَعُوْدَ لِمِثْلِ مَا فَعَلْتُ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَاللَّهِ لاَ تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بِمَكَّة وتَقُولُ خَدَعْتُ مُحَمّداً مَرَّتَيْنِ لا يُلْدَغُ المُؤمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ يَا زَيْدُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ» اللّهُمَّ سَلِّمْنَا مِنْ عَذَابِكَ وَآمِنَّا مِنْ عِقَابِكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« مـوعظــة »

عِبَادَ اللّهِ إِنَّ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ الَّتِيْ هِيَ آدَابُ الإِسْلامِ جَمَالٌ لا يُوَازِنُهُ

جَمَالٌ وَحَظُّ الإِنْسَانِ مِنْهَا يَكُوْنُ بِقَدْرِ مَا تَخَلَّقَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الأَخْلاَقِ وَلمّا كَانَ النَّبِيّ ﷺ مُتَخَلِّقاً بِجَمِيْعِهَا كَانَ أَجْمَلَ خَلْقِ اللّهِ أَجْمَعِيْنَ .

وَجَاءَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ وَجَاءَ فِي حَدِيْثٍ مُرْسَلٍ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلى النَّبِيّ ﷺ فقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا الدِّيْنُ فَقَالَ النّبيّ ﷺ حُسْنُ الخُلُقِ .

وَهَذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ رُكْنُ الإِسْلامِ العَظِيْمِ الّذي لا قِيَامَ لِلدِّيْنِ بِدُونِهِ كَالوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْحَجِّ فَقَدْ جَاءَ عَنْهُ ﷺ أَنّهُ قَالَ الحَجُّ عَرَفَة أيْ إِنّهُ رُكْنُ الحَجِّ العَظِيْمِ الّذِي لا يَكُونُ الحَجُّ إلاّ بِهِ الوُقُوفُ بِعَرَفَاتٍ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلأَخْلاَقِ مَكَانَةً عَظِيْمَةً أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَتَفَاضَلُونَ في الإِيْمَانِ وَأَنَّ أَفْضَلَهُمْ فِيْهِ أَحْسَنُهم خُلُقاً جَاءَ عَنْ النَّبِيّ ﷺ في الحَدِيْثِ أَنَّهُ قَالَ لمَّا قِيْلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَيُّ المُؤْمِنِيْنَ أَفْضَلُ إِيْمَاناً قَالَ « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ يَتَفَاوَتُونَ في الظَّفَرِ بِحُبِّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَالقُرْبِ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَكْثَرهمْ ظَفَراً بِحُبِّهِ وَالقُرْبِ مِنْهُ الّذِيْنَ حَسُنَتْ أَخْلاقُهُمْ جَاءَ في الحَدِيْثِ عَنْ النّبِيّ ﷺ أنّهُ قَالَ « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِليّ وَأقْرَبكُمْ مِنِّيْ مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً » .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ أَمْرٌ لازِمٌ وَشَرْطٌ لا بُدَّ مِنْهُ لِلنَّجَاةِ مِنْ النّارِ وَالفَوْزِ بِالجَنَّةِ وَأَنَّ إِهْمَالَ هَذا الشَّرْطِ لا يُغْنِيْ عَنْهُ الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ جَاءَ فِي الحَدِيْثِ أَنَّ أَحَدَ المُسْلِمِيْنَ قَالَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ إِنّ فُلاَنَةُ تَصُوْمُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَهِيَ سَيِّئَةُ الخُلُقِ تُؤْذِيْ جِيْرانِهَا بِلِسَانِهَا قَالَ لا خَيْرَ فِيْهَا هِيَ في النَّارِ .

وَكَانَ النَّبِيّ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ بأَنْ يُحَسِّنَ خُلُقَهُ وَهُوَ أَحْسَنُ النّاسِ خُلُقاً

وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ « اللّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِيْ » وَيَقُولُ « اللّهُمَّ أهْدِنِيْ لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ فَإِنَّهُ لا يَهْدِي لأحْسَنِهَا إلاّ أَنْتَ » وَمَعْلُومٌ أنّهُ لاَ يَدْعُو إلاّ بِمَا يُحِبُّهُ اللّهُ وَيُقَرّبُهُ مِنْهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَدْحُ اللّهِ تَعَالَى لِلنّبِيّ ﷺ بِحُسْنِ الخُلُقِ فَقَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ « وَإِنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ » وَاللّهُ لاَ يَمْدَحُ إلاّ عَلَى الشَّيْءِ العَظِيْمِ ، وَمِنْ ذَلِكَ كَثْرَةُ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ بِمَوْضُوعِ الأَخْلاقِ أمْراً بالجَيِّدِ مِنْهَا وَمَدْحاً لِلْمُتَّصِفِيْنَ بِهِ وَمَعَ المَدْحِ الثَّوَابُ ، وَنَهْياً عَنْ الرَّدِيْ مِنْهَا وَذَمٌّ لِلْمُتَّصِفِيْنَ بِهِ وَمَعَ الذّمِّ العِقَابُ وَلاَ شَكّ أَنَّ كَثْرَةَ الآيَاتِ في مَوْضُوْعِ الأخْلاَقِ دَلِيْلٌ عَلَى أهَمِّيَّتِهَا .

وَبالتّالِيْ فَالإِكْثَارُ مِنْ الأخْلاقِ الفَاضِلَةِ وَالاقلالُ مِنْهَا يَكُوْنُ جَمَالُ الإِنْسَانِ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ الاكْثَارِ أَوْ الاقْلالِ وَكَذَلِكَ تَرْكُ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ شَيْن لِتَارِكِهَا كَبِيْر وَعَلَى قَدْرِ مَا تَرَكَهُ يَكُوْنُ شَيْنُهُ عِنْدَ الكَبِيْرِ مِنّا وَالصَّغِيْرِ فَمَهْمَا أَكْثَرتَ أو أقْلَلْتَ مِنْ تَرْكِهَا يَكُونُ شَيْنُكَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ التّقْدِيْرِ .

وَلِذَلِكَ أَنْظُرْ إِلَى الكُفَّارِ حَيْثُ أَنَّهُمْ تَرَكُوْهَا كُلَّهَا وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْ مَكَارِمِ الأخْلاقِ شَيْءٌ تَجِدُهُمْ فِي قُبْحٍ لاَ نِهَايَةَ لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ الحُسْنُ

وَالجَمَالُ فِيْمَنْ اتّصَفَ بِمَكَارِمِ الأخلاقِ عِنْدَنا فَقَطْ بَلْ عِنْدَ اللّهِ بِهِ يَمْدَحُ اللّهُ المُؤْمِنِيْنَ المُتَّصَفِيْنَ بِذَلِكَ ويُدْخِلُهُمْ الجَنّةَ فانْظُرْ أَيَّ نَصِيْبٍ نَصِيْبُكَ مِنْ تِلْكَ الخِلاَلِ الحِسَانِ لتَعْرِفُ قَدْرَكَ وَقِيْمَتَكَ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ إِنَّ الأَلَمَ لَيَمْلَؤُ الجَوَانِحَ عَلَى الأخْلاقِ الفَاضِلَةِ وَعَلى عُشَّاقِهَا الفُضَلاءِ النُّبَلاَء مَاتَتْ وَمَاتُوا ، أَيْنَ أهْلُ الأخْلاصِ الّذِيْنَ يَرَوْنَ المَوْتَ خَيْراً مِنْ حَيَاةِ الرِّيَاءِ .

أَيْنَ أَهْلُ الصِّدْقِ الَّذِيْنَ يَرَوْنَ قَطْعَ أَلْسِنَتِهِمْ أَخفَّ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنْ يَكْذِبُوا أَوْ يَتَمَلَّقُوا أَوْ يُدَاهِنُوا أَوْ يُنَافِقُوا أَوْ يَنِمُّوا أَوْ يَغْتَابُوا أو يَتَجَسَّسُوْا على المُؤْمِنينَ لِيَزُجُونَهمْ بالسُّجُون .

أَيْنَ الَّذِيْنَ إِذَا وَعَدُوا صَدَقُوا وَإِذَا عَاهَدُوا وَفَوْا أَيْنَ أَهْلُ العَفْوِ عِنْدَ المَقْدِرَةِ أيْنَ أَهْلُ العَدْلِ وَالإِنْصَافِ .

الَّذِيْنَ حِلْمُهُمْ مِثْلُ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ أَيْنَ الَّذِيْنَ يَلْتَمِسُوْنَ الكُرَبَ لِيُفَرِّجُوهَا ، أَيْنَ الَّذِيْنَ يَبْتَعِدُوْنَ عَنْ الرِّبَا وَمُعَامِلِيْهِ أَيْنَ الَّذِيْنَ يَعْرِفُونَ الوَلَاءَ وَالبَراءَ وَلَا يَأْلَفُونَ وَلا يُجَالِسُونَ إلاّ أهْلُ الصَّلاحِ وَيَبْتَعِدُوْنَ كُلَّ البُعْدِ عَنْ أهْلِ المَعَاصِي مِن اللوطيّة والزُنَاةِ الذين يُطَارِدُونَ النِساءَ في الأَسْوَاقِ وَالذين يُسَاكِنُونَ الكُفارَ وَالعِيَاذُ باالله .

أَيْنَ الَّذِيْنَ يَبْحَثُوْنَ عَنْ الفُقَرَاءِ الَّذِيْنَ لَا مَوْرِدَ لَهُمْ فَيُنْعِشُوْهُمْ بِمَا تَيَسَّرَ مِنْ زَكَاةٍ أَوْ صَدَقَةِ تَطَوُّعٍ دَرَاهِمَ أَوْ طَعَامٍ أَوْ كُسْوَةٍ . أوْ يَتَسَبَبُوْنَ لَهُمْ فِي وَظَائِفَ يَكُفُّونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ عن النَّظَرِ لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

أَيْنَ الَّذِيْنَ يُؤَدُّوْنَ الزَّكَاةَ مُكَمَّلَةً لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا لا يُحَابُونَ بِهَا وَيَبْحَثُونَ عَنْ أَهْلِ العَوَائِدِ فَإِذَا وَجَدُوْهُمْ غَيْرَ مُسْتَحِقِّينَ لَمْ يُبَالُوا بِهِمْ وَلَمْ يُعْطُوهُمْ لِعِلْمِهِمْ أنّهَا لا تَبْرَأُ ذِمَمُهُمْ بِذَلِكَ .

أَيْنَ الَّذِيْنَ يَبْحَثُوْنَ عَنْ الأرامِلْ وَالأَيْتَامِ لِيَجْبُرُوا قُلُوْبَهُمْ بِمَا مَنّ اللّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، أَيْنَ الَّذِيْنَ يَهْجُرُوْنَ الفَسَقَةَ وَالظَّلَمَةَ وَالمُجْرِمِيْنَ حَتَّى وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ .

أَيْنَ الرَّجُلُ المُهَذَّبُ الَّذِيْ لا يَتَلَبَّسُ فِي سِرِّهِ وَلَا فِي عَلانِيَتِهِ بِحَالٍ

يَسْتَحِيْ مِنْ اطِّلاعِ العُقَلاءِ عَلَيْهِ وَلاَ يَعْمَلُ عَمَلاً لاَ يَرْفَعُهُ عِنْدَ اللّهِ دَرَجَةً وَلاَ يَقُولُ قَوْلاً غَيْرَ مُفِيْدٍ لِسَامِعِهِ فَائِدَةً فِي دِيْنِهِ وَلاَ يُضْمِرُ لِعَدُوِّهِ سُوْءاً إِذَا سَالَمَهُ وَلاَ يَتَخَلَّقَ إلاّ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيْلٍ .

أَيْنَ الّذِيْنَ لا يَعْرِفُوْنَ إلاَّ النُّصْحَ لِلْمُسْلِمِيْنَ يُبْعِدُوْنَ عَنْ الغِشِّ كُلَّ البُعْدِ ، بَعَثَ أَبُو حَنِيْفَةَ بِمَتَاعٍ إِلَى شَرِيْكِهِ فِي التِّجَارَةِ حَفْصِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ وأَعْلَمَهُ أنْ فِي ثَوْبٍ مِنْهُ عَيْباً وَاسْتَوْفَى الثَّمَنَ كَامِلاً لِثَوْبٍ غَيْرِ كَامِلٍ وَقِيْلَ ثَمَنُ المَتَاعِ الّذِيْ بِيْعَ ثَلاَثُونَ أَلفاً أَوْ خَمْسَةٌ وَثَلاثُونَ أَلْفاً فَأَبىٰ أَبُو حَنِيْفَةَ إلاّ أَنْ يَبْعَثَ لِشَرِيْكِهِ فِي التِّجَارَةِ يُكَلِّفُهُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ المُشْتَرِي وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْهُ بَعْدَ البَحْثِ عَنْهُ .

فَأَبَى أَبُو حَنِيْفَةَ إلاّ انْفِصَالاً مِنْ شَرِيْكِهِ وَتَتَارَكَا بَلْ أَبَى أَبُو حَنِيْفَةَ أَنْ يُضِيفَ الثَّمَنَ إِلَى حُرِّ مَالِهِ وَتَصَدَّقَ بِهِ كَامِلاً مِنْ شِدَّةِ الوَرَعِ .

وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ يُوْنُسَ بْنِ عُبَيْدٍ حُلَلٌ مُخْتَلِفَةُ الأَثْمَانِ ضَرْبٌ قِيْمَةُ كُلِّ حُلَّةٍ مِنْهُ أَرْبَعُمَائِةٍ وَضَرْبٌ كُلُّ حُلّةٍ قِيْمَتُها مائِتَانِ فَمَرَّ إِلَى الصَّلاةِ وَخَلَّفَ ابْنَ أَخِيْهِ فِي الدُّكَّانِ فَجَاءَ أَعْرَابِيّ وَطَلَبَ حُلّةً بِأَرْبعمائِةٍ فَعَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ حُلَلِ المِائَتَيْنِ فَاسْتَحْسَنَهَا وَرَضِيَهَا وَاشْتَرَاهَا وَمَضَى بِهَا وَهِيَ عَلَى يَدَيْهِ .

فَاسْتَقْبَلَهُ يُوْنُسُ فَعَرَفَ حُلّتَهُ فَقَالَ لِلأَعْرَابِيّ بِكَمْ اشْتَرَيْتَ فَقَالَ بِأَرْبعمائِةٍ

فَقَالَ لاَ تُسَاوِيْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْنِ فَارْجِعْ حَتَّى تَرُدَّهَا فَقَالَ هَذِهِ تُسَاوِيْ فِي بَلدِنَا خَمْسُمَائةٍ وأنَا ارْتَضَيْتُهَا فَقَالَ يُوْنُسُ انْصَرِفْ فَإِنَّ النُّصْحَ فِي الدِّيْنِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا .

ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى الدُّكَّانِ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ وَخَاصَمَ ابْنَ أَخِيْهِ فِي ذَلِكَ وَقَالَ أَمَا اسْتَحَيْتَ أَمَا اتَّقَيْتَ اللّهَ تَرْبَحُ مِثْلَ ثَمَنِهَا وَتَتْرُكُ النُّصْحَ لِلْمُسْلِمِيْنَ فَقَالَ وَاللّهِ مَا أَخَذَهَا إلاّ وَهُوَ رَاضٍ بِهَا قَالَ فَهَلْ رَضِيْتَ لَهُ بِمَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ .

وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ أَنَّ غُلاَمَهُ بَاعَ لأَعْرَابِيّ فِي غَيْبَتِهِ مِنْ الخَمْسِيَّاتِ بعَشَرَةٍ فَلَمْ يَزَلْ يَطْلُبُ ذَلِكَ الأَعْرَابِيّ طُوْلَ النَّهَارِ لِيَرُدَّ عَلَيْهِ خَمْسَةً حَتَّى وَجَدَهُ فَقَالَ لَهُ إِنَّ الغُلامَ قدْ غَلِطَ فَبَاعَكَ مَا يُسَاوِيْ خَمْسَةً بِعَشَرَةٍ .

فَقَالَ يَا هَذَا قَدْ رَضِيْتُ فَقَالَ وَإِنْ رَضِيْتَ فَإِنَّا لاَ نَرْضَى لَكَ إلا مَا نَرْضَاهُ لأنْفُسِنَا وَرَدَّ عَلَيْهِ خَمْسَةً ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ يُوْجَدُ مِنْ الوَرِعِيْنَ النَّاصِحِيْنَ الّذِيْنَ يُحِبُّونَ لأخْوَانِهِمْ المُؤْمِنِينَ مَا يُحِبُّونَ لأَنْفُسِهِمْ نَسْأَلَ الله أنْ يُكْثِرَ أمْثَالَهُمْ وأنْ يُقَلِّلَ الغَشَّاشِينَ السَّرَّاقِيْنَ المُنَافِقِينَ الكَذَّابِيْنَ ، أَيْنَ الّذِيْنَ لا تَأْخُذُهُم في اللّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ .

أَيْنَ الّذِيْنَ يَحِنُّونَ إِلَى بُيُوتِ اللّهِ حَنِيْنَ الأَلفِ فَارَقَهُ الأَلْفُ .

أَيْنَ الّذِيْنَ لاَ يَطِيْبُ لَهُمْ مَجْلِسٌ إلا عِنْدَ كِتَابِ اللّهِ وَالبُخَارِيّ ومُسْلِمٌ وَسَائِرَ السُّنَنِ أو مَا أُخِذ مِنْهَا أو مَا هُوَ وَسِيْلَةٌ إِلَيْهَا .

أَيْنَ الّذِيْنَ إذَا فَاتَهُمْ قِيَامُ اللّيْلِ جَلَسُوا يَبْكُوْنَ عَلَى مَا فَاتَ .

أَيْنَ الّذِيْنَ دَرَسُوا سِيْرَةَ المُصْطَفَى وَأَصْحَابِهِ فكأَنَّهُمْ بَيْنَهُمْ يَتَرَدَّدُوْنَ .

أَيْنَ الّـذِيْنَ يَتَقَدَّمُونَ إِلى بُيُوتِ اللّهِ قَبْلَ الوَقْتِ وَيُسَبِّحُونَ وَيُهَلِّلُونَ مَاتَ هَؤُلاَءِ وَبَلِيَّةٌ مِنْ أَكْبرِ البَلا أنْ نَفْقِدَ هَذا الطِّرَازَ فَهَلْ لَكَ يَا أَخِيْ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيْلَ هَؤُلاَءِ لِتَكُوْنَ قُدْوَةً وَمَثَلاً لِلْعَامِلِيْنَ .

وَتَفُوْزَ برضَا رَبِّ العَالَمِيْنَ فَتَحْظَى بالفَوْزِ بسُكْنَى جَنَّاتِ النَّعِيْمِ الَّتِيْ فِيْهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِنَ الحُوْرِ العَيْنِ وَالفَوَاكِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنْ رَغِبْتَ فِي ذَلِكَ فَاجْتَهِدْ فِي تَحْسِيْنِ عَمَلِكَ الَّذِي هُوَ المَهْرُ لِذَلِكَ .

قَالَ بَعْضُهُمْ :

فَإِنْ كُنْتَ لِلْمَهْرِ الَّذِيْ عَزَّ قَادِراً … فَنَافِسْ وَسَابِقْ نَحْوَهَا كُلَّ سَابِقِ
وَإِنْ كُنْتَ مِثْلِيْ عَاجِزاً فَارْضَ بِالدُّنَا … فَبِالدُّوْنِ يَرْضَى الدُّوْنُ عِنْدَ العَلاَئِقِ
رَعَى اللَّهُ مَنْ أَضْحَى وَأَمْسَى مُشَمِّراً … لِنَيْلِ المَعَالِيْ قَاطِعاً كُلَّ عَائِقِ
إِلَى أَنْ عَلاَ فَوْقَ المَقَامَاتِ فِي العُلاَ … وَنَالَ المنى مِنْ قُرْبِ مَوْلَى الخَلاَئِقِ

آخر :

اعْلَمْ بأَن طَرِيقَ الحق مُنْفَرِدٌ … والسَالِكُونَ طَرِيقَ الحق أَفْرادُ
لا يُطْلَبُونَ ولا تُطْلَبَ مَسَاعِيَهُم … فَهُم على مَهلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ
والناسُ في غَفْلَةٍ عَمَّا لَهُ قصَدوا … فَجُلُّهُم عن طَرِيقِ الحقِ رُقَّادُ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بنَا سَبِيْلَ عِبَادِكَ الأَبْرَارِ ، وَنَجِّنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَأَسْكِنَّا الجَنَّةَ دَارَ القَرَارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّ الزَّوَاجَ هُوَ أَهَمُّ مُقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ وَالمُتَمِّمُ لِلوَضائِفِ الحَيَوِيَّةِ وَالحَافِظُ لِلْجَامِعَةِ البَشَرِيَّةِ مِنْ الانقِرَاضِ وَالزَّوَالِ بإِذْنِ اللّهِ وَأَسَاسٌ لِتَقْدِيْرِ المَرْءِ فِي الهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَقُوَامُهُ وُجُودُ الإِلْفَةِ وَالتَّحَابُبِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَبِهِ يَحْصُلُ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاضُدُ وَالتَآلُفُ وَالتآزرُ بَيْنَ الأُسَرِ المُتَنَاسِبَةِ بِسَبَبِ مَا تَمَّ بَيْنَهَا مِنْ المُصَاهَرَةِ المُقَرِّبَةِ لِلْبَعِيْدِ وَالمُحَبَّبَةِ لِلْقَرِيْبِ وَالمُدْنِيَةِ لِلأَجْنَبِيِّ .

وَقَدْ نَدَبَ اللّهُ إِلَى الزَّوَاجِ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ « وَأَنْكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءَ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ » وَقَالَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجَاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » وَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

وَلِهَذَا خَاطَبَ النَّبِيّ ﷺ الشَّبَابَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الزَّوَاجِ وَالمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ مَتَى كَانَ قَادِراً عَلَى مُؤَنِ الزَّوَاجِ وَنَفَقَاتِهِ وَكَانَ بِهِ تَوَقَانٌ إِلَى النِّسَاءِ حَتَّى لاَ تَزِلَّ بِهِ القَدَمُ فِي مَهَوَاتِ المَعَاصِيْ فَتَقُودُهُ نَفْسُهُ وَيُغْرِيْهِ شَيْطَانُهُ فَيَقَعُ فِيْمَا لاَ يَحِلُّ مِنْ المُوبِقَاتِ وَالذُّنُوبِ المُهْلِكَاتِ فَإِنَّ لِلشَّبَابِ فُتُوَّةً وَنَزْوَةً تَدْفَعُ الشَّابَّ إِلَى إِطَاعَةِ شَهْوَتِهِ وَتَقْهَرُهُ عَلَى إِرْضَائِهَا بِدُوْنِ أَنْ يُبَالِيْ بِسُوْءِ مَغَبَّةٍ أَوْ حُسْنِهَا .

وَكَمْ مِنْ شَابٍّ أَغْرَتْهُ شَهْوَتُهُ وَاسْتَعْبَدَتْهُ لَذَّتُهُ فَآتَى نَفْسَهَا مِنْ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِيْ حَظَّهَا وَأَرْوَىٰ مِنْ المُوْبِقَاتِ غلّتها .

فَكَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ ضَيَاعَ الثَّرْوَةِ والافْتِقَارِ بَعْدَ اليُسْرِ وَالمَالِ العَرِيْضِ وَالذِّلَّةِ بَعْدَ الجَاهِ وَالعِزَّةِ ، وَالضَّعْفَ بَعْدَ القُوَّةِ وَالصِّحَّةِ الشَّامِلَةِ وَانْتَابَتْهُ بَعْدَ نَضَارَةِ شَبَابِهِ العِلَلَ وَالأَسْقَامُ وَصَارَ حَلِيْفَ الهَمِّ والغَمِّ والسُّهَادِ يَنَامُ عَلَى مِثْلِ شَوْكِ القَتَادِ قَدْ أَقَضَّ مَضْجَعَهُ وَذَبَلَتْ نَضْرَتُهُ وَتَنَكَّرَتْ لَهُ الحَيَاةُ بَعْدَ إِقْبَالِهَا وَكَشَّرَتْ لَهُ الأَيّامُ بَعْدَ ابْتِسَامِهَا أَنْيَابَهَا وَذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَدَاه .

وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَنْفُرُوْنَ عَنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ قُرَّةَ أَعْيُنِهِمْ وَمَوْضِعَ الغِبْطَةِ والسُّرُوْرِ وَلَقَدْ بَيّنَ الرَّسُوْلُ ﷺ حِكْمَةَ المُبَادَرَةِ إِلَى الزّوَاجِ بَعْدَ القُدْرَةِ وَالاسْتِطَاعَةِ بِأَنَّهَا تُحَصّنُ الفَرْجَ عَنْ الوُقُوعِ فِي المُحَرَّمَاتِ ومَلابَسَةِ مَا يُغْضِبُ فَاطِرَ الأَرْضِ وَالسَّمواتِ وَيُزْرِيْ بِالشّرَفِ وَالكَرَامَاتِ .

وَإِنَّ المُبَادَرَةَ تَدْعُو إِلَى العِفَّةِ وَغَضّ البَصرِ عَنْ المُحَرَّمَاتِ أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ المُبَادَرَةَ فِي الزَّوَاجِ تُمَكِّنُ المَرْءُ بِإِذْنِ اللّهِ إذا رَزَقَهُ اللّهُ أَوْلاداً مِنْ تَرْبِيَتِهِمْ وَالقِيَامِ بِشُؤُونِهِمْ وَإِعْدَادِهِمْ لمُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ وَجَعْلِهِمْ رِجَالاً صَالِحِيْنَ مُصْلِحِيْنَ يَنْفَعُوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأُمَّتَهُمْ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ عِمَاداً لَهَا وَقُوَّةً يُرْهَبُ بِهِمْ جَنَابُهَا وَتَقْوَى شَوْكَتُهَا وَتُحْفَظُ هَيْبَتُهَا وَكَرَامَتُهَا وَيَدْفَعُ مَنْ يُرِيْدُ إِذْلاَلَها وَاسْتِعْبَادَهَا .

تَأَمَّلْ فِي حَيَاةِ المُتَزَوِّجِ عِنْدَمَا يُفَاجِئُهُ مَرَضٌ أَوْ تَنْتَابُهُ نَائِبَةٌ وَعِنْدَهُ زَوْجَةٌ صَالِحَةٌ كَيْفَ يَكُوْنُ مُحَاطاً بِعَطْفِهَا وَقِيَامِهَا بِخِدْمَتِهِ نَائِماً عَلَى فِرَاشِ الرَّاحَةِ وَتُسَلّيْهِ وَتُؤْنِسُهُ وَتَقُومُ بِخِدْمَتِهِ وَتُضْمِرُ الخَيْرَ لَهُ .

وَارْجِعْ بِنَظَرِكَ إِلَى العَزَبِ فِي حَالَةِ مَرَضٍ فِي حَالَةِ يَأْسٍ وَقُنُوطٍ وَنَدمٍ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ لِعَدَمِ اقْتِرَانِهِ بِزَوْجةٍ صَالِحَةٍ وَقَرِيْنَةٍ نَاصِحةٍ تكُونُ لَهُ خَيْرَ مُعِيْنَةٍ وَأَفْضَلَ مُسَاعِدَةٍ عَلَى نوَائِبِ الدَّهْرِ وَأَنْكادِهِ فَقَدْ فَقَدَ العَزَبُ العَطْفَ وَالرَّأْفَةَ بِهِ وَالرَّاحَةَ وَالقِيَامَ بِتَمْرِيْضِهِ وَحَوائِجِهِ الكَثِيْرَةِ في أَشَدِّ الأَوْقَاتِ وأَحْرَجِهَا وَأَضْيَقِ السَّاعَاتِ وَكَانَ في حَالَتِهِ المُحْزِنَةِ كَالغَرِيْبِ النَّائِيْ عَنْ وَطَنِهِ وأَقْرَبَائِهِ وَأَصْدِقَائِهِ يَتَمَنَّى وَيَتَلَهَّفُ عَلَى أَحَدٍ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِشَرْبَةِ مَاءٍ أَوْ نَحْوِهَا .

وَأَمَّا الإِبْطَاءُ عَنْ الزَّوَاجِ حَتَّى يَتَقَدَّمَ في العُمْرِ فَصَاحِبُهُ عَلَى خَطَرٍ فَقَدْ لاَ يَسْتَطِيْعُ تَرْبِيَةَ أَوْلَادِهِ لِضُعْفِ قُوَّتِهِ وَعَجْزِهِ عَنْ تَحْصِيْلِ مَا بِهِ حَيَاتُهُمْ وَتَوْفِيْرِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ لَهُمْ .

وَرُبَّمَا اخْتَرَمَتْهُ المَنِيَّةُ فَيَتْرُكُهُمْ كَزُغْبِ القَطا مَهِيْضِيْ الجَنَاحِ أَيْتَامٌ لَا يَقْدِرُوْنَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ الأَكْدَارِ وَالأَنْكَادِ زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الإِبْطَاءَ فِي الزَّوَاجِ يَزِيْدُ كَثْرَةِ الفَتَيَاتِ العَانِسَاتِ وَيُفَوِّتَ عَلَيْهِنَّ زَمَنَ نَضْرَتِهِنَّ وَجَنْيِ ثِمَارِهِنَّ وَلَيْسَ لَهُنَّ قُوَّةٌ عَلَى دَفْعِ الشَّهْوَةِ كَالرِّجَالِ فَرُبَّمَا تَطْغَى عَلَيْهِنَّ وَيَسْلُكْنَ طُرُقَ الغِوَايَةِ وَالفَسَادِ .

وَهُنَاكَ الطَّامَّةُ الكُبْرَى وَالمُصِيْبَةُ العُظْمَى مِنْ اخْتِلَاطِ الأَنْسَابِ وَانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الأَعْرَاضِ وَتَمْزِيْقِ ثَوْبِ الحَيَاءِ وَالاسْتِهْتَارِ بِمَا يُزِيْلُ الكَرَامَةَ وَيُذِلُّ الشَّرَفَ والعِزَّةَ وَيَقْضِيْ عَلَى الاباءِ وَالمُرُوءةِ وَالنَّخْوَةِ .

وَإِنَّ مِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَشَدَّ الأَسَفِ مِنْ إِنْصِرَافِ الشَّبَابِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ الزَّوَاجِ إِعْرَاضاً تَامّاً ظَنّاً مِنْهُمْ أَنَّ حَيَاةَ العُزُوْبَةِ أَلذُّ وأَهْنَأُ وَأَهْوَنُ حِمْلاً وأَخَفُّ كُلْفَةً مِنْ الزَّوَاجِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي عَمَلِهِمْ شَاذُّوْنَ في رَأْيِهِمْ ضَالُّوْنَ عَنْ طَرِيْقِ الحَقِّ تَائِهُونَ عَنْ جَادَّةِ الصَّوَابِ .

لأَنَّ التَّزَوُّجَ سُنَّةُ المُرْسَلِيْنَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّي وَكَانَ ﷺ يَأْمُرُ بالبَاءَةِ وَيَنْهَى عَنْ التَّبَتُّلِ نَهْياً شَدِيْداً وَرُوِيَ لا صَرُوْرَةَ فِي الإِسْلَامِ وَالصَّرُوْرَةُ الذي لَمْ يَتَزَوَّجْ .

وَقَالَ أَحْمَدُ لَيْسَ العُزُوْبَةُ مِنْ أَمْرِ الإِسْلام في شَيْءٍ وَقَالَ مَنْ دَعَاكَ إِلَى غَيْرِ التَّزَوّجِ فَقَدْ دَعَاكَ إِلَى غَيْرِ الإِسْلَامِ

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِرَجُلٍ تَزَوَّجْ فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الحَثِّ عَلَى الزَّوَاجِ وَالنَّهْيِ عَنْ العُزْبَةِ إلاّ قَوْلُهُ تَعَالَى « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً لَكَفَى وَشَفَى .

وإنْ صَافَيْتَ أَوْ خَالَلْت خِلًّا ... فَفِي الرحمنِ فاجْعَلْ مَنْ تُؤاخِيْ
وَلا تَعْدِلْ بتقْوَى الله شَيْئاً ... وَدَعْ عَنْكَ الضَّلاَلَةَ والتَّراخيْ
فَكَيفَ تَنَالُ في الدُّنيا سُرُوْراً ... وأيّامُ الحَياةِ إلَى انْسِلاخ
وإنَّ سُرُورَها فِيمَا عَهِدْنَا ... مَشُوبٌ بالبُكَاءِ وبالصُّرَاخِ
فَقَدْ عَمِيَ ابنُ آدَمَ لا يَرَاهَا ... عَمَىَ أفْضَى إلَى صَمَمِ الصّماخِ

اللهم وَفِقْنَا لِصَالِحِ الأعمالِ وأكفنا بحلالك عن حَرامِكَ وبفَضْلِكَ عَمَّنْ سِواك إنكَ على كلِ شيء قدير وصلى اللّهُ على محمدِ وآلِهِ أجمعين .

(فصـــل)

وَقَالَ ﷺ مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ دِيْنِهِ فَلْيَتَّقِ اللّهَ في النِّصْفِ البَاقِيْ رَوَاهُ الطَّبَرانِيّ في الأَوْسَطِ وَقَالَ ﷺ مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِيْ فلَيَسْتَنَّ بسُنَّتِيْ وَمِنْ سُنَّتِيْ النِّكَاحُ رَوَاهُ البَيْهَقِيّ في السُّنَنِ الكُبْرَى وَقَالَ ﷺ أَيّما رَجُلٍ تَزَوَّجَ في حَدَاثَةِ سِنِّه عَجَّ شَيْطَانُهُ يَا وَيْلَهُ عُصِمَ دِيْنُهُ رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى في مُسْنَدِهِ .

وَقَالَ ﷺ ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللّهِ عَوْنُهُمْ المُجَاهِدُ فِي سَبِيْلِ اللّهِ والمَكَاتِبُ الّذِيْ يُرِيْدُ الأدَاءَ والنَّاكِحُ الّذِيْ يُرِيْدُ العَفافَ رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَالنّسَائِيّ وَغَيْرُهُمَا باسْنَادٍ صَحِيْحٍ .

وَقَالَ ﷺ لِعَكَّاف بْنِ وَدَاعَةَ الهِلاَلِيّ أَلَكَ زَوْجَةٌ يَا عَكَّافُ قَالَ لاَ قَالَ وَلاَ جَارِيَةٌ قَالَ وَلاَ جَارِيَةٌ قَالَ وَأَنْتَ مُوْسِرٌ قَالَ وَأَنَا مُوْسِرٌ بِخَيْرٍ قَالَ أَنْتَ إذاً مِنْ إخْوَانِ الشَّيَاطِيْنِ لَوْ كُنْتَ مِنْ النَّصَارَىٰ كُنْتَ مِنْ رُهْبَانِهِمْ إنَّ سُنَّتَنَا شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ وَأَرَاذِلُ مَوْتَاكُمْ عُزَّابُكُمْ أَبَا الشَّيْطَانُ تَمَرسُونَ مَا لِلشَّيْطَانِ سِلاحٌ أَبْلَغُ فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ النِّسَاءِ إلاّ الْمُتَزَوِّجُونَ أُوْلَئِكَ المُطَهَّرُوْنَ المُبَرَّؤُوْنَ مِنْ الخَنَا وَيْحَكَ يَا عَكّافُ إنّهُنَّ صَوَاحِبُ أَيُّوبَ وَدَاوُدَ وَيُوْسُفَ وَكُرْفُسَ .

قَالَ لَهُ بِشْرُ بْنُ عَطِيَّةَ مَنْ كُرْفُسُ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ رَجُلٌ كَانَ يَعْبُدُ اللّهَ بِسَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِ البَحْرِ ثَلاثَمِائَةِ عَامٍ يَصُوْمُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ ثُمَّ إنَّهُ كَفَرَ بِاللّهِ بِسَبَبِ امْرَأَةٍ عَشِقَهَا وَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةٍ ثُمَّ اسْتَدْرَكَهُ اللّهُ بِبَعْضِ مَا كَانَ مِنْهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ تَزَوَّجْ وإلاّ فَأَنْتَ مِنَ المُذْبِرِيْنَ قَالَ زَوِّجْنِيْ يَا رَسُوْلَ اللّهِ قَالَ زَوَّجْتُكَ كَرِيْمَةَ بِنْت كُلْثُومَ الحِمْيَرِيِّ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ .

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَقُولُ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِيْ إلاَّ عَشَرَةُ أيَّامٍ أَحْبَبْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ حَتَّى لاَ أَلْقَى اللّهَ عَزَباً وَتَزَوَّجَ الإمَامُ أحْمَدُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فِي اليَوْمِ الثَّانِيْ مِنْ وَفاةِ امْرَأتِهِ وَقَالَ أَكْرَهُ أنْ أَبِيْتَ عَزَباً وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ مَا اسْتَفَادَ المُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْراً لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ إنْ أمَرَهَا أطاعَتْهُ وَإنْ نَظَرَ إلَيْهَا سَرَّتْهُ وَإنْ أقْسَمَ عَلَيْهَا بَرَّتْهُ وَإنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ في نَفْسِهَا وَمَالِهِ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ .

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إنِّي لأُكْرِهُ نَفْسِيْ عَلَى الجِمَاعِ رَجَاءَ أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ نَسْمَةً تُسَبِّحُهُ وَتَذْكُرُهُ وَقَالَ ﷺ دَعُوْا الحَسْنَاءَ العَاقِرَ وَتَزَوَّجُوا السَّوْدَاءَ الوَلُوْدَ فَإنِّيْ أُكَاثِرُ بِكُمْ الأمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ ، وَالأمْرُ لِلنَّدْبِ .

وَقَالَ عُمَرُ تَكَثَّرُوا مِنْ العِيَالِ فَإنَّكُمْ لاَ تَدْرُوْنَ بِمَنْ تُرْزَقُوْنَ وَقَالَ ﷺ تَزَوَّجُوا الوَدُوْدَ الوَلُودَ فَإنِّيْ مُكاثِرٌ بِكُمْ الأُمَمَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالنَّسَائِيّ وَقَالَ ﷺ لا تُطَلَّقُ النِّسَاءُ إلاّ مِنْ رِيْبَةٍ إنَّ اللّهَ تَعَالَى لاَ يُحِبُّ الذَّوَّاقِيْنَ وَلاَ الذَّوَّاقَاتْ » وَالذَّوَّاقُ الكَثِيْرُ النِّكَاحِ وَالطَّلاقِ مِنْ دُوْنِ عُذْرٍ شَرْعِيٍّ وَالذَّوَّاقَةُ الَّتِيْ كُلَّ مَنْ أخذَهَا تَتَسَبَّبُ لِفِرَاقِهِ لأجْلِ التَّزَوّجِ بِغَيْرِهِ هَذا وَاللّهُ أعْلَمُ مَعْنَاهُمَا .

وَمِنْ الأسْبَابِ الرَّئِيْسِيَّةِ لِتَوَقُّفِ كَثِيْرٍ مِنْ الشَّبَابِ عَنْ الزَّوَاجِ ثِقَلُ المُهُوْرِ

وَالتَّبْذِيْرِ السَّخِيْفِ في الطُّرُقِ الَّتِيْ غَيْرَ شَرْعِيّة وسَبَبُ ذلِكَ مُوافقَةُ سُخَفاءِ العقول في تَصَرّفاتِهِمْ .

فَالعَاقِلُ إذَا جَاءَهُ مَنْ يَرْضَى دِينَهُ وَعَقْلَهُ مَا يَغْتَرُّ بالزَّخَارِفِ وَيَنْخَدِعُ بِالبَهَارِجِ الكَاذِبَةِ وَيَحْذُو حِذَاءَ المُسْرِفِيْنَ بَلْ يَنْقَادُ لِعَقْلِهِ الرَّاجح وَدِيْنِهِ الحَقِّ وَتعَالِيْمِهِ السَّامِيَةِ وَيَرْضَى بِالْمَيْسُورِ إذَا كَانَ لَهُ السُّلْطَةُ التَّامَّةُ عَلَى أَهْلِهِ ، وَإنْ كَانَ مِنْ المُسْتَضْعِفِيْنَ فَيُحَاوِلُ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ فَإنْ عَجزَ فَلَيْسَ لَهُ وَاللّهِ إلاَّ الصَّبْرُ وَالرِّضَا بِمَا قَدَّرَهُ اللّهُ وَقَضَاهُ في هَذَا الزَّمَنِ الّذِيْ انْحطَّ أَهْلَهُ وَسَيْطَرَتْ فِيْهِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ وَصَارَ الأكْثَرُ مِنْ الرِّجَالِ عِنْدَ أهْلِيْهِمْ وَأوْلادِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الخادِمِ الحَقِيْرِ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ حَارِسٌ وَخَادِمٌ مَحْقُورٌ وَمُحَامِي لِلأَمْوَالِ الّتِيْ سَتؤُولُ إلَيْهِمْ وَلاَ شُكْرَ مِنْهُمْ وَلاَ ثَناءَ واللّهُ المُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلانِ ·

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يأخُذُ الكِتابَ باليمين ، وأجْعَلْنَا يومَ الفَزَعِ الأكْبَرِ آمِنِين ، وأَوصِلْنَا بِرَحْمَتِكَ وَكَرَمِكَ إلَى جَناتِ النَّعِيم ، واغْفِر لَنَا وَلِوَالدَيْنَا وجميع المسلمين ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَم الرَّاحِمين ، وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجْمعين

(فَصْــــلٌ)

وَإلَيْكَ قِصَّةَ سَعِيْدِ بْنِ المُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللّهُ

قَالَ أَبُو وَدَاعَةَ كُنْتُ أُجَالِسُ سَعِيْدَ بْنَ المُسَيِّبِ فَفَقَدَنِيْ أَيَّاماً فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ أَيْنَ كُنْتَ قُلْتُ تُوفِّيَتْ زَوْجَتِيْ فَاشْتَغَلْتُ بِهَا فَقَالَ هَلاَّ أَخْبَرْتَنَا فَشَهِدْنَاهَا فَلَمَّا أَرَدْتُ أنْ أقُوْمَ قَالَ هَلْ أَحْدَثْتَ امْرَأةً غَيْرَهَا فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللّهُ وَمَنْ

يُزَوِّجُنِيْ وَمَا أَمْلِكُ إلاّ دِرْهَمَيْنِ أَوْثَلاثَةً قَالَ إنْ فَعَلْتُ تَفْعَلُ قُلْتُ نَعَمْ ثُمَّ حَمِدَ اللّهَ وَصَلّى عَلَى النّبِيّ ﷺ وَزَوَّجَنِيْ ابْنَتَهُ عَلَى دِرْهَمَيْنِ .

وَفِيْ مَسَاءِ ذَلِكَ اليَوْمِ إذَا بِالبَابِ يُقْرَعُ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالَ سَعِيد فَفَكَّرْتُ فِي كُلِّ إنْسَانٍ أَعْرِفُهُ اسْمُهُ سَعِيْدٌ إلاّ سَعِيْدَ بْنَ المُسَيِّبِ فَإنَّهُ لَمْ يُرَ مُنْذُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً إلاّ مَا بَيْنَ بَيْتِهِ وَالمَسْجِدِ فَقُمْتُ وَفَتَحْتُ البَابَ وَإذَا سَعِيْدُ بْنُ المُسَيَّبِ فَظَنَنْتُ أنّهُ بَدَا لَهُ فَقُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ رَأَيْتُكَ رَجُلاً عَزِباً فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِيْتَ اللَّيْلَةَ وَحْدَكَ وَهَذِهِ زَوْجَتُكَ فَإذَا هِيَ قَائِمَةٌ خَلْفَهُ فِي طُوْلِهِ ثُمّ دَفَعَهَا وَرَدَّ البَابَ .

وَثِقَلُ المُهُورِ يَنْشَأُ عَنْهُ التَزَوُّجُ بِالاجْنَبِيَّاتِ وَهَذَا مِنْ أَكْبَرَ الأضْرَارِ عَلَى الأمّةِ وَمِنْ أَعْظَمِ الأسْبَابِ لِكَسَادِ بَناتِ الوَطَنِ لأنّهُ يُكْسِدُ وَاحِدةً وَيَأْتي بِأُخْرَى تُحَمِّلُهُ في كُلِّ زِيَارَةٍ مَهْراً جَدِيْداً وَيَبْعُدُ أَنْ تَتَّفِقَ الطِّبَاعُ بَيْنَهُمَا وَإنْ حَصَلَ أَوْلادٌ ثُمَّ فِرَاقٌ فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ ضَرَرٍ .

وَأَكْثَرُ مَنْ يَتَزَوَّجُ بالأَجْنَبِيَّاتِ الأغْبِيَاءُ قُصَّارُ النَّظَرِ الّذِيْنَ لاَ يَحْسِبُونَ لِلْمُسْتَقْبَلِ حِسَاباً وَلاَ يُفكِّرُونَ وَلاَ يَفْرضُوْنَ ويُقَدِّرُون أهْلُ ظَوَاهِرْ فقطْ عُقُولِهِمْ ضَعِيْفَةٌ وَنَظرُهُمْ قَاصِرٌ .

وَالنَّـاسُ أكْثَـرُهُمْ فَـأَهْـلُ ظَـوَاهِـرٍ
تَبْـدُو لَهُمْ لَيْسُـوا بـأَهْـلِ مَعَـانِيْ
فَهُمْ القُشُـوْرُ وبِـالقُشُـوْرِ قِـوَامُهُمْ
وَالـلُّبُّ مِنْـهُ خُـلاصَـةُ الإنْسَـانِ

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الغَالِبَ في الأَجْنَبِيَّاتِ السُّفُورُ وَالاسْتِهَانَةُ بِالأَزْوَاجِ وَكَثْرَةُ

الخُرُوْجُ وَاسْتِطَالَةُ اللّسَانِ عَلَى الزَّوْجِ وَضَعْفُ الدِّيْنِ أو عَدَمُهُ وَالغِلْظَةُ عَلَى الأوْلَادِ وَتَكْلِيْفُ الزّوْجِ بالمَصَارِيْفِ البَاهِضَةِ حَتّى تُجْلِسَهُ عَلَى بِسَاطِ الفَقْرِ هَذَا في الغَالِبِ وَلِهَذَا نَسْمَعُ أَنَّ بَعْضَ الّذِيْنَ اغْتَرُّوا وَتَزَوَّجُوا بِهِنَّ يَئِنُّوْنَ وَيَتَمَنَّوْنَ الخَلاصَ وَهَيْهَاتَ الخَلاصُ بَعْدَ مَا امْتَلأ البَيْتَ مِنْ الأوْلادِ وَالبَنَاتِ . ولِذَلِكَ تَجِدهم يتضجَّرُوْن ويَتشكونَ بَعْدَمَا تَوَرّطُوا .

وَكَمْ مِنْ إنْسَانٍ اضْطُرَّ إلَى مُصَادَقَةِ زَوْجَتِهِ لأجْلِ الأوْلَادِ وَبِالعَكْسِ فَكَمْ مِنْ زَوْجَةٍ اضْطُرَّتْ إلَى مُجَامَلَةِ زَوْجِهَا وَالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِ لأجْلِ أوْلَادِهَا قَالَ بَعْضُهُمْ وأظُنُّهُ مِمَّنْ ابْتُلِيَ بِزَوْجَةٍ يُبْغِضُهَا وَلَكِنّهُ مُضْطَرٌّ إلَى المُجَامَلَةِ وَالصَّدَاقَةِ .

وَإنِّيْ لَمُشْتَـاقٌ إلَى مَـوْتِ زَوْجَتِـيْ
وَلَكِنْ قَـرِيْنُ السُّـوْءِ بَـاقٍ مُعَمَّـرُ
فَيَـا لَيْتَهَا في القَبْـرِ أمْسَتْ ضَجِيْعَـةً
يُـعَـذِّبُهَـا فِـيْـهِ نَـكِـيْـرٌ وَمُـنْـكَـرُ

وَكَمْ مِنْ زَعِيْمٍ اضْطُرَّ إلى مُصَادَقَةِ زَعِيْمٍ وَكَمْ مِنْ مَرْؤُسٍ اضْطُرَّ إلَى مُصَادَقَةِ رَئِيْسٍ وَصَبَرَ عَلَى النَّكَدِ وَالضَّرَرِ وَهَذَا مِنْ أثْقَلِ مَا يَكُونُ عَلَى النُّفُوسِ قَالَ المُتَنَبِّيْ :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرَىٰ
عَـدُوّاً لَـهُ مَـا مِنْ صَدَاقَتِـهِ بُـدُّ

آخَرُ : مُحَذِّراً عَمَّنْ لَا تَصْلُحُ وَحَاثّاً عَلَى الّتِي تَصْلُحُ :

وَإِيَّــاكَ يَــا هَــذَا وَرَوْضَــةَ دِمْنَــةٍ
سَتَرْجِعُ عَنْ قُرْبٍ إِلَى أَصْلِهَا الرَّدِيْ
وَخَيْرُ النِّسَاء مَنْ سَرَّتِ الزَّوْجَ مَنْظِراً
وَمَنْ حَفِــظَتْــهُ فِي مَغِيْبٍ وَمَشْهَــدِ
قَصِيْــرَةُ أَلْـفَــاظٍ قَصِيْــرَةُ بَيْتِهَــا
قَصِيْـرَةُ طَرْفِ العَيْنِ عَنْ كُـلِّ أَبْعَـدِ
حَسِيْبَـةُ أَصْـلٍ مِنْ كِـرَامٍ تَفُـزْ إِذَا
بِـوُلْـدٍ كِـرَام وَالبَكَــارَةَ فَـاقْصُـدِ
وَوَاحِـدَةٌ أَدْنَى إِلَى العَـدْلِ فَـأَقْتَنِـعْ
وَإِنْ شِئْتَ فَـابْلغْ أَرْبَعـاً لَا تَـزَيَّـدِ

اللهُم اجْعَلْناَ مِن أَهْلِ الصّلاحِ والنّجَاحِ والفَلاحِ ، ومِن المُؤَيَّدِينَ بِنَصْرِكَ وتَأْيِيْدِكَ ورِضَاكَ يارَبّ العالمين .

« اللهم مالَكَ الملك تُوتي الملكَ مَن تَشاء وَتُنزِعُ الملكَ مِّمنْ تَشَاءُ وتُعِز مَن تشاء وتُذِلُ مَن تشاء بِيَدِك الخيرُ إنكَ على كل شيءٍ قدير » .

يا وَدُوْدُ يَا ذَا العَرشِ المجيد يا مُبْدِىءُ يا مُعِيْدُ يا فَعَالٌ لما تُريد نَسأَلُكَ بِنُورِ وجْهِكَ الذي مَلأَ أركانَ عَرشِكَ وبقُدرَتِكَ التي قَدرْتَ بِهَا على جميع خَلْقِكَ وبرَحْمتكَ التي وسِعَتْ كُلّ شَيءٍ لا إلهَ إلا أَنْتَ أن تَغْفِرَ ذُنُوبَنا وسَيئاتِنا وأنْ تُبَدّلْهاَ لَناَ بحسَنَات إنكَ جوادٌ كريم رَؤُوفٌ رَحِيم .

اللهم افْتَحْ لِدُعَائِنا بابَ القَبُولِ والإِجَابَةِ واغفرْ لَناَ ولِوَالدِينا وجميعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

ثُمَّ اعْلَمْ وَفَّقَنِيْ اللّهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ أَنَّهُ يُسَنُّ لِمَنْ أَرَادَ النِّكَاحَ

أنْ يَتَخَيَّر ذَاتَ الدِّيْنِ لِحَدِيْثِ أبي هُريرةَ مَرْفُوعاً تُنْكَحُ المَرأةُ لأرْبَعٍ لِمالِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِدِيْنِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدّيْنِ تَرِبْتِ يَداكَ متفقٌ عَلَيْهِ وأنْ تكونُ ذاتَ عَقْلٍ لاَ حَمْقَى جَاهِلَةً لأنَّ النّكَاحَ يُرَادُ لِلعِشْرَةِ الحَسَنَةِ وَلاَ تَصْلُحُ العِشْرَةُ مَعَ الحَمْقَاءِ وَلاَ يَطِيْبُ مَعَها عَيْشٌ وَرُبَّمَا تَعدَّى ذَلِكَ إلَى وَلَدِهَا وَقَدْ قِيْلَ اجْتَنِبُوا الحَمْقَاءَ فَإنَّ وَلَدَهَا ضَيَاعٌ وَصُحْبَتَها بَلاءٌ وَلاَ يَنْفَعُ فِيْهَا العِلاجُ وَقَدِيْماً قِيْلَ :

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ
إلاّ الحَمَاقَةَ أعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيْهَا

وَأنْ تَكُوْنَ الزَّوْجَةُ مِنْ بَيْتٍ مَعْرُوفٍ بِالقَنَاعَةِ لأنَّهُ مَظِنَّةُ دِيْنِهَا وَقَنَاعَتِهَا وَيُسْتَحَبُّ أنْ تَكُونَ جَمِيْلةً لأنَّهُ أسْكَنُ لِنَفْسِهِ وَأَغَضُّ لِبَصَرِهِ وَأَكْمَلُ لِمَوَدَّتِهِ وَلِذَلِكَ جَازَ النَّظَرُ إلَيْهَا قَبْلَ النِّكَاحُ .

وَعَنْ المُغِيْرَةِ بْنِ شُعْبَةٍ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ انْظُرْ إلَيْهَا فَإنَّهُ أحْرَى أنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُما رَوَاهُ الخَمْسَةُ إلاّ أبُو دَاوُدَ وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ إذَا خَطِبَ أحَدُكُمْ المَرْأَةَ فَقَدِرَ أنْ يَرَى مِنْهَا بَعْضَ مَا يَدْعُو إلى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ رَوَاهُ أحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ .

وَعَنْ مُوْسَى بْنِ عَبْدِ اللّهِ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ حُمَيْدَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ إذا خَطَبَ أَحَدَكُمْ امْرَأَةً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَنْظُرَ مِنْهَا إذَا كانَ إنَّمَا يَنْظُرُ إلَيْهَا لِخِطْبَةٍ وَإنْ كَانَتْ لاَ تَعْلَمُ رَوَاهُ أحْمَدُ .

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ إذَا أَلْقَى اللّهُ عَزَّ

وَجَلّ فِي قَلْبِ امْرِىءٍ خُطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ .

وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُوْنَ نَظَرُهُ إِلَيْهَا بِلا خَلْوَةٍ لِحَدِيْثِ لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُوْ مَحْرَم فَإِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ النَّظَرُ إِلَيْهَا بَعَثَ إِمْرَأَةً ثِقَةً تَتَأَمَّلُها لَهُ وَتَصِفُهَا لأَنَّهُ ﷺ بَعَثَ أُمَّ سُلَيْمٍ إِلى امْرَأَةٍ وَقَالَ انْظُرِيْ عُرْقُوبَهَا وَشُمِّيْ عَوَارِضَهَا رَوَاهُ الحَاكِمُ وصَحَّحَهُ وَالعُرْقُوبُ إِذا لَمْ يَكُنْ طَوِيْلاً فَهُوَ أَحْسَنُ بِأَنْ يَكُوْنَ مُسَاوِي لِلسَّاقِ ، وَكَانُوا يَذُمُّوْنَ الَّتِيْ عُرْقُوْبُهَا طَوِيْلٌ قَالَ بَعْضُهُمْ وَهُوَ مِنْ الْمُتَثَاقِلِيْنَ لِلصِّيَامِ .

أُنْبِئْتُ أَنَّ فَتَـاةً كُنْتُ أَخْـطُبُـهَـا
عُرْقُوْبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ بِـالطُّوْلِ

وَالعَوَارِضُ الأَسْنَانُ الَّتِيْ فِي عَرْضِ الفَمِ وَهِيَ مَا بَيْنَ الثَّنَـايَا وَالأَضْرَاسِ وذَلِكَ لاخْتِبَارِ النَّكْهَةِ فَإِنْ لَمْ تُعْجِبْهُ سَكَتَ وَلَا يَقُوْلُ إِلاّ خَيْراً لَا يَقُوْلُ لا أُرِيْدُهَا لأَنَّ فِي ذَلِكَ إِيْذاءً .

وَلِحَدِيْثِ أَبِيْ هُرَيْرَةَ قَالَ قِيْلَ يَا رَسُوْلَ اللّهِ أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ قَالَ الّتِيْ تَسُرُّهُ إِذا نَظَرَ إِلَيْهَا وَتُطِيْعُهُ إِذَا أَمَرَهَا وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَلَا فِي مَالِهِ بِمَا يَكْرَهُ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيّ وَعَنْ يَحْيى بْنِ جَعْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ خَيْرُ فَائِدَةٍ أَفَادَهَا المَرْءُ المُسْلِمُ بَعْدَ إِسْلامِهِ امْرَأَةٌ جَمِيْلَةٌ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا تَسُرُّهُ وَتُطِيْعُهُ إِذَا أَمَرَهَا وَتَحْفَظُه في غَيْبَتِهِ في مَالِهِ وَنَفْسِهَا رَوَاهُ سَعِيْدٌ .

وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَأَحَبَّهَا وَتَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِهَا وَهِيَ ذَاتُ دِيْنٍ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ جَمِيْلَةً فَقَدْ لَا يُحِبُّ الجَمِيْلَةَ فَالأَحْسَنُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَنْ يُحِبُّ فَإِنَّهُ أَحرى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا وَقَدْ قِيْلَ :

وَرُبَّ مَـلِيْـحٍ لَا يُـحَـبُّ وَضِـدُّهُ
يُقَبِّـلُ مِنْـهُ العَيْنُ وَالأَنْـفُ وَالفَـمُ
هُـوَ الجَـدُّ خُـذْهُ إنْ أرَدْتَ مُسَلَّمـاً
وَلَا تَـطْلُبِ التَّعْلِيْـلَ فَـالأَمْـرُ مُبْهَمُ

وَيَقُولُ الآخَرُ :

وَمَا الحُبُّ مِنْ حُسْنٍ وَلَا مِنْ مَلَاحَةٍ
وَلَكِنَّـهُ شَـيْءٌ بِـهِ الـرُّوْحُ تُكْـلَفُ
آخَرُ : كَلِفْتُ بِهَا شَمْطَاءَ شَابَ وَلِيْدُهَا
وَلِلنَّـاسِ فِيْمَـا يَعْشَقُـوْنَ مَـذَاهِبُ

وَيُسَنُّ أَنْ تَكُوْنَ وَلُوْداً لِحَدِيْثِ أَنَسٍ كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَقُولُ تَزَوَّجُوا الوَدُوْدَ الولود فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ رَوَاهُ سَعِيْدٌ .

وَيُعْرَفُ كَوْنُ البِكْرِ وَلُوْداً بِكَوْنِهَا مِنْ نِسَاءٍ يُعْرَفْنَ بِكَثْرَةِ الأَوْلَادُ فَإِذَا كانَتْ أُمُّهَا وَأُخْتُهَا وَخَالَتُهَا وَعَمَّتُهَا وَالقَرِيْبَاتِ لَهَا مِنْ النِّسَاءِ وَلُوداتٍ فَالغَالِبُ وَالعِلْمُ لِلّهِ أَنَّهَا تَكُونُ مِثْلُهُنَّ وَيَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ بِخِلافِ ذَلِكَ .

وَلْيَحْذِرْ الإِنْسَانُ مِنْ خَضْرَاءِ الدِّمِنْ فَفِيْ الحَدِيْثِ الّذِيْ رَوَاهُ الدَّارُ قِطْنِيُّ في الأَفْرَادِ وَالعَسْكَرِيُّ في الأَمْثَالِ إِيَّاكُم وَخَضْرَاءَ الدِّمَنْ قَالُوا وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنْ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ المَرْأَةُ الجَمِيْلَةِ مِنْ المنْبَتِ السُّوْءِ ، قَالَ ابْنُ الجَوْزِيّ يَنْبَغِيْ لِلْعَاقِلِ أنْ يَنْظُرَ فِي الأُصُوْلِ فِيْمَنْ يُخَالِطُهُ وَيُعَاشِرُهُ وَيُشَارِكُهُ وَيُصَادِقُهُ وَيُزَوِّجُهُ أَوْ يَتَزَوَّجُ إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْظُرَ بَعْدَ ذَلِكَ في الصُّوَرِ .

قَالَ أَمَّا الأُصُوْلُ فَإِنَّ الشَّيْءَ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ وَبَعِيْدٌ مِمَّنْ لا أَصْلَ لَهُ أَنْ

يَكُوْنَ فِيْهِ مَعْنى حَسَن فَإِنَّ المَرْأَةَ الحَسْنَاءُ إِذَا كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ رَدِيءٍ فَقَلَّ أنْ تَكُوْنَ أَمِيْنَةً وَكَذَا أيْضاً الْمُخَالِطُ وَالصَّدِيْقُ وَالمَبَاضِعُ وَالمُعَاشِرُ وَإِيَّاكَ أَنْ تُخَالِطَ إلّاَ مَنْ لَهُ أَصْلٌ يَخَافُ عَلَيْهِ الدَّنَسُ فَالغَالِبُ السَّلامَةُ وَإِنْ وَقَعَ خِلافُ ذَلِكَ كَانَ نَادِراً أ . هـ .

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمْ :

يَـا مُطْلِقَ الـطَّرْفِ المُعَذَّبِ بـالأُولَى
جُـرِّدْنَ عَـنْ حُسْـنٍ وَعَنْ احْـسَـانِ
لاَ تَسْبِيَنَّـكَ صُـوْرَةٌ مَنْ تَحْتَهـا الـد
دَّاءُ الـدَّفِيْنُ تَبُـوْءُ بِـالخُسْـرَانِ
قَبُحَتْ خَـلاَئِقُـهَـا وَقُبِّـحَ فِـعْلُهَـا
شَـيْـطَانَـةٌ فِـي صُـوْرَةِ الإِنْـسَـانِ
تَـنْـقَـادُ لـلأَنْـذَالِ وَالأذالِ هُـمْ
أَكْفَـاؤُهَـا مِنْ دُوْنِ ذِيْ الأَحْسَـانِ
مَـا ثَـمَّ مِنْ دِيْـنٍ وَلاَ عَـقْـلٍ وَلاَ
خُـلُقٍ وَلاَ خَـوْفٍ مِـنْ الـرَّحْـمَـنِ
وَجَـمَـالُهَـا زُوْرٌ وَمَـصْـنُـوعٌ فَـإِنْ
تَـرَكْتَـهُ لَمْ تَـطْمَـحْ لَهَـا العَيْنَـانِ
طُبِعَتْ عَلَى تَـرْكِ الحِفَاظِ فَمَـا لَها
بِـوَفَـاءِ حَـقِّ الـزَّوْجِ قَطُّ يَـدَانِ
إِنْ قَصَّـرَ السَّـاعِيْ عَلَيْهَـا سَـاعَـةً
قَـالَتْ وَهَـلْ أوْلَيْتَ مِنْ إِحْسَـانِ

أَوْرَامَ تَقْـوِيْمـاً لَهَـا اسْتَعْصَتْ وَلَمْ
تَقْبَـلْ سِـوَى التَّعْـوِيْـجِ وَالنُّقْصَـانِ
أَفْكَـارُهَـا فِي المَكْـرِ وَالكَيْـدِ الّـذي
قَـدْ حَـارَ فِيْـهِ فِكْـرَةُ الانْـسَـانِ
فَـجَمَـالُـهَـا قِشْـرٌ رَقِيْقٌ تَـحْتَـهُ
مَـا شِئْتَ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْـصَـانِ
نَـقْـدٌ رَدِيءٌ فَـوْقَـهُ مِـنْ فِـضَّـةٍ
شَـيْءٌ يُـظَنُّ بِـهِ مِـنَ الأَثْـمَـانِ
فَـالنَّـاقِـدُوْنَ يَـرَوْنَ مَـاذَا تَحْتَـهُ
وَالـنَّـاسُ أَكْثَـرُهُـمْ مِنَ الـعِمْـيَـانِ
أَمَّـا جَمِيْـلاتُ الـوُجُـوهِ فَخَـائِنَـا
تٌ بُـعُـولَـهُـنَّ وَهُـنَّ لِـلأَخْـدَانِ
وَالحَـافِـظَاتُ الغَيْبِ مِنْهُـنَّ الّتِي
قَـدْ أَصْبَحَتْ فَـرْداً مِنَ النِّسْـوَانِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا توفيقاً يَقِيْنَا عَنْ مَعَاصِيْكَ وَأَرْشِدْنَا إلى السَّعْي فِيْمَا يُرْضِيْكَ وأجِرْنَا يَا مَوْلاَنَا مِنْ خِزْيكَ وَعَذَابِكَ وَهَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لأَوْلِيَائِكَ وأَحْبَابِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« مَوْعِظَـةٌ »

عِبَادَ اللّهِ كَانَ تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ عَادَةٌ شَائِعَةٌ فِي العَرَبِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَقَيَّدُونَ فِيْهِ بِعَدَدٍ وَلاَ يُرَاعُوْنَ عَدْلاً بَيْنَ الزَّوْجَاتِ فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَصْلَحَهُ

الإِسْلَامُ فَلَمْ يَمْنَعْهُ مَنْعاً بَاتّاً لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الحَرَجِ وَلَمْ يَتْرُكْهُ فَوْضَى كَمَا كَانَ بَلْ أَبَاحَهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَشَرَطَ لِلْحِلِّ شَرْطاً وَثِيْقاً وَهُوَ العَدْلُ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ فِي المُعَامَلَةِ .

قَالَ اللّه تعالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُم الا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » فَتَرَاهُ قَدْ شَرَطَ إباحَةَ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ بالعَدْلِ كَمَا جَعَلَ مُجَرَّدَ خَوْف الجَوْرِ والظُّلْم سَبَباً كَافِياً في تَحْرِيْمِ التَّعَدُدِ فَمَنْ لَمْ يَأنَسْ مِنْ نَفْسِهِ أنْ يَقُوم بالقِسْطِ بَيْنَ الزوجاتِ لا يُتَاحُ لَهُ التَّعَدُّدُ وَيَجِبُ عَلَيْهِ الاقْتِصارُ عَلَى وَاحِدَةٍ .

نَعَمْ الأَصْلُ فِي التَّزَوّجِ التَوحُدُ فِيهِ يَتِمُّ السُّكُونُ لِكُلٍّ مِن الزَّوْجَيْنِ إلى الآخَرِ وَيَسْتَقِيْمُ أَمْرُهما وَيَهْنَأُ عَيْشُهُمَا وَتَسْعَدُ أَوْلَادُهُمَا بإِذْنِ اللّهِ وَلَكِنْ قَدْ تَدْعُو الحَاجَةُ أَوْ الضَّرُوْرَةُ إلى التَّعَدُّدِ وَتَقْتَضِيْهِ المَصْلَحَةُ لِمَسَائِلَ كَثِيْرَةٍ كَمَا إذا لَمْ تَرْغَبْ أُمُّ أَوْلادِهِ في مُضَاجَعَتِهِ والاتِّصَالِ بِهِ وَكَما لَوْ كَانَ بِهَا مَرَضٌ لا يُرْجَى بُرْؤُهُ أوْ مَاتَ أوْلَادُهَا وَوَقَفَتْ عن الحَمْلِ أَوْ يَكُونُ بِهِ شَبَقٌ وَلَا يَكْتَفِي بِوَاحِدَةٍ لِماَ يَتَعَرَّضُهَا مِنْ حَيْضٍ أَوْ اسْتِحَاضَةٍ أَوْ نِفاسٍ أو نحوِ ذلِكَ .

فَإِذَا تَزَوَج أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِ العَدْلُ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ فَيَبِيتُ عِنْدَ احْدَاهُنَّ كَمَا يَبِيْتُ عِنْدَ الأُخْرَى وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ في المَطْعَمِ وَالمَسْكَنِ والمَلْبَسِ وسائِرِ أَنْوَاعِ النَّفَقَةِ إنْ كُنَّ فِي الغِنَى مُتَساوِيَاتٍ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ

وَجُرْتَ مَعَ إحْدَاهُمَا فَأَنْتَ في عِدَادِ الظالِمِين .

وَلَا تَظُنّ الأَمْرَ في هَذَا بَسِيطاً هَيّناً لَا بَلْ إعْلَمْ أنَّهُ عَظِيْمٌ مَنْ أَخَلَّ بِهِ جَاءَ

يَوْمَ القِيَامَةِ وَشقُّهُ سَاقِطٌ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الرَّسُوْلُ الكَرِيمُ وَهُوجَزاءٌ يُنَاسِبُ جُرْمَهُ لأَنَّهُ أَسْقَطَ نَاحِيَةَ المَظْلُوْمَةِ بِإِخْلاَلِهِ الذَّمِيْمِ .

وَيَا لَيْتَ الأَمْرَ يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ بَلْ وَرَاءَهُ النَّارُ دَارُ المُذْنِبِيْنَ وَلِذَلِكَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ الَّذِي أَثْنَى عَلَيْهِ رسُولُ اللّهِ ﷺ وَقَالَ أَعْلَمُ أمَّتِي بالحَلالِ وَالحَرَامِ ، كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأتانِ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ إِحْدَاهُمَا لم يَشْرَبْ مِنْ بَيْتِ الأُخْرَى الماءَ ، مَعْنَاهُ أنّه مِنْ وَرَعِهِ وَخَوْفِهِ مِنَ المَيْلِ إِلَى إِحْدَاهُمَا إذا كَانَت النَّوْبَةُ لِوَاحِدَةٍ وَفَّرَ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا عَلَيْهَا فَلَوْ مَرَّ في يَوْمِهَا فِي بَيْتِ ضَرَّتِهَا وَهُوَ عَطْشَانُ لَمْ يَشْرَبْ مِنْ عِنْدِهَا حَتَّى يَأتِي بَيْتَ الَّتِي اليَوْمُ يَوْمُهَا .

هَذَا العَدْلُ أَصْبَحَ عِنْدَ النّاسِ الَّذِيْنَ اخْتَارُوْا التَّعَدُّدَ نَادِرَ الوُجُودِ يَتْرُكُ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ الّتِي لا يُحِبُّهَا مُدةً طَوِيْلَةً تُقَاسِي مِن آلامِ الجَوْرِ والغَيْرَةِ مَا تُقَاسِيْ وَهُوَ مَعَ المَحْبُوْبَةِ أَوْ صَاحِبَةِ المَالِ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ كأَنَّهُ لاَعَنَ تِلْكَ المَبْغُوْضَة فَحَرُمَتْ عليهِ أبَدَ الآبِدِيْنَ .

وَتَجِدُهُ إِذَا دَعَاهُ إِنْسَانٌ جَعَلَهُ فِي لَيْلَةِ المَبْغُوْضَةِ وَيَوْمِهَا وَالمَفْرُوضُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ القُرْعَةَ وإِذَا قَدِمَ أَتَى إلى المَحْبُوْبَةِ وَيَخْتَارُ لَهَا المَسْكَنَ الطَّيبَ وكَذَلِكَ الصُّوْغ وَالثِيَابُ وَالطَّعَامُ وَالأَطْيَابُ وَالفَواكِهُ وَبِودِّهِ لَوْ اسْتَرَاحَ وَطَلَّقَ المَبْغُوضَة ولكِنَّهُ يَخْشَى أنْ تَتْرُكَ الأَوْلاَدَ وَتَذْهَبَ أوْ تَسْحَبَ مَا لَها عِنْدَهُ مِنْ أمْوالٍ فَلِهذا يُجَامِلُهَا مَعَ العَدَاوَةِ والبُغْضِ وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِ قولُ المتنبي :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَـدُوّاً لَـهُ مَـا مِـن صَـدَاقَتِهِ بُـدُّ

وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ هَذَا الجَائِرُ أَنَّ اللّهَ جَلَّ وَعَلاَ لَهُ وَلأَمْثَالِهِ بالمِرْصَادِ ولِيَعْلَمَ

أنَّ حَنِينَ الزَّوْجَةِ إلى زَوْجَها يَزِيدُ بَعْدَ زوَاجِه عَلَيْهَا أضْعَافاً مُضَاعَفَاتٍ وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ زوَاجِه لاَ تَصْبِرُ عَنْهُ سَاعةً فَكَيْفَ تَصْبِرُ بَعْدَ الزّواجِ شُهُوْراً أَوْ سَنَواتٍ فأطِلِ التَّفَكُّر في هَذَا لِتَعْلَمَ كَيْفَ تَكُونُ العَاقِبَةُ لَعَلَّكَ تَسْلُكُ طَرِيْقَ العَدْلِ وتُبْعِدُ عَنِ الجَوْرِ والجَائِرِيْنَ .

فَفِي الحَدِيْثَ إِذَا كَانَتْ عِنْدَ الرَّجُلِ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِط رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما .

اللّهُمَّ وفّقْنَا لِلاسْتِقامَةِ والعدْلِ فِيْمَا وَلَّيْتَنَا عَلَيْهِ اللّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بكَ مِن دُنْيَا تَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَة ونَعُوذُ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ المَماتِ وَنَعُوذُ بكَ مِنْ أَمْلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ العَمَلِ ونسْأَلُكَ أنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْــــــلٌ)

ويَنْبَغِي أَنْ يَتَخَيَّرَ الدَّيِنَةَ حَسْنَةَ السِيْرَةِ رَاجِحَةَ العَقْلِ المُحْسِنَةَ للتّدْبِيْرِ وليَحْـذَرْ كُلَّ الحَـذَرِ مِن الخَـرْقَـاءِ والبَخِيْلَة فكِـلاَهُمَا مَا يُفْسِدَانِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحَانِهِ إنْ حَصَلَ صَلاَحٌ وفيما قِيْلَ قَدِيْماً :

ومَـن لـم يَكُـنْ فـي بَيْتِهِ قَهْـرَمانَةٌ   فَذَالِكَ بَيْـتٌ لا أَبَا لكَ ضَـائِـعُ

آخـــر :

« وُدَوْنَكَ بَيْتاً قَـدْ تَحَـلَّى بِهِ النُّهَى   كَمَـا يَتَحَـلَّى مِعْصَـمٌ بِسِـوَارِهِ »
« إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَنْزِلِ المَرْءِ حُرَّةٌ   تُدَبِّرُهُ ضَـاعَـتْ مَصَـالِحُ دَارِهِ »

آخـــر :

فإنْ شِئْتَ أَن تَخْـتَرْ لِنَفْسِكَ حُـرَّةً ... عَلَيْكَ ببَيْتِ الجُـود خُذْ مِنْ خِيارِهِ
وإِيَّـاكَ والبَيْـتَ الـدَّنِيَّ فـرُبَّمَـا ... تُعَـارُ بِطُـوْلٍ في الزمـانِ بعَـارِهِ
وفِيْهِنَّ مَن تأْتي الفَتَى وَهو مُعْسِـرٌ ... فَيُصْبِحُ كُلُ الخَـيْرِ في وسْـطِ دَارِهِ
وفِيْهِـنَّ مَـن تأْتيـهِ وهـو مُيَسِـرٌ ... فَيُصْبحُ لا يَمْـلِكْ عَـلِيْقَ حِمَـارِهِ
وفِيْهِـنَّ مَـنْ لا بَيَّضَ اللَّهُ وجْهَهَا ... إِذَا غَـابَ عنها الزَّوْجُ طَـلَّتْ لِجَـارِهِ

وَوَرَدَ أَنَّ المَرأَةَ الصَالِحَة كَالغُرَابِ الأَعْصَمِ وَهُوَ أَبْيَضُ الجَنَاحِين فلا يَكَادُ يُوْجَدُ إلا القَلِيْلِ وِمن الصَالِحاتِ ما في حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « أَلَا أُخْبِرُكُم بِرِجَالِكُمْ في الجَنَّةِ قُلْنَا بَلَىَ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ قال النبيُ في الجَنةِ أَلَا أُخبِرُكَم بِنِسَائِكُم في الجَنَّةِ قُلْنَا بَلَىَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قال وَدُوْدٌ وَلُودٌ إِذَا غَضِبَتْ أَوْ أُسِيْءَ إِلَيْهَا أَوْ غَضِبَ زَوْجُهَا قَالَتْ هَذِه يَدِيْ في يَدِكَ لا أَكْتَحِلُ بِغَمْضٍ حتَّى تَرْضَى » المعنى أنها تُرْضِيْهِ رواه الطبراني .

وقَدْ وَرَدَ مَا فِيْه بَشَارةٌ بعَظِيْمِ أَجْرِ المَرْأَةِ الصَّالِحَةِ القَانِتَةِ ونَجَاتِهَا فَمِنْهَا مَا رَواه الامام أحمدُ والطبراني عن عبدالرحمن ابن عوفٍ رضِيَ اللَّهُ عنه قال قال رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا وصَامَتْ شَهْرَهَا وحَفِظَتْ فَرْجَهَا وأطاعَتْ زَوْجَهَا قِيْلَ لَهَا ادْخُلِي الجَنَّةَ مِن أيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شِئْتِ .

ونَحْوُ هَذَا في رواية ابن حبان عن أبي هريرة وروى الحاكم وصححه أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنها راضٍ دَخَلَتِ الجَنَّةَ وقال ﷺ مُحَذِّراً لَهُنَّ عَمَّا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَيْهِنَّ أَيُّمَا امْرَأَةٍ خَرَجَتْ مِن بَيْتِهَا بِغَيْرِ إِذْنِ زَوْجِها كَانَتْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى تَرْجِعَ إِلى بَيْتِهَا أَوْ يَرْضَى عَنْهَا زَوْجُهَا رواه الخطيب عن أنس ابن مالك .

وقال ﷺ « إِنِّي لَأُبْغِضُ المَرْأَةَ تَخْرُجُ مِن بَيْتِهَا تَجُرُّ ذَيْلَهَا تَشْكُوْ زَوْجَهَا

رواه الطبراني وقال ﷺ أَيُّمَا امْرَأَةٍ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا في غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رواه أحمد والحاكم .

وقَالَ ﷺ أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَزَعَتْ ثِيَابَهَا في غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا خَرَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا سِتْرَهُ رواه أحمد والطبراني والبيهقي والحاكم في مستدركه .

وأن تَكُونَ طَيِّبَةَ الأَصْلِ حَسِيْبَةً لِيَكُونَ الوَلَدُ بإِذْنِ اللَّهِ نَجِيْبًا فانهُ أَشْبَهَ أَهْلَهَا فَجَذَبُوهُ بالخَلْقِ والخُلُقِ وفي الخَبَرِ انْظُرْ في أَيِّ شَيْءٍ تَضَعُ وَلَدَكَ فإِنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ وقال عليهِ أفْضَلُ الصلاةِ والسلامِ تَخَيَّرُوْا لِطُفَكُمْ فإِنَّ النِّسَاءَ يَلِدْنَ أَشْبَاهَ إِخْوَانِهِنَّ وأَخَوَاتِهِنَّ رواه ابن عدي وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها .

وأَنْ تَكُونَ بِكْراً لِمَا في الصَّحِيْحَين عن جابر رضي الله عنه فَهَلَّا بِكْراً تُلَاعِبُهَا وتُلَاعِبُكَ ولِقَوْلِهِ فَهَلَّا بكراً تَعُضُّهَا وتَعُضُّكَ رواه الطبراني واسناده صحيح ولِقَولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ عليكم بالأَبْكَارِ فإِنَّهُنَّ أَعْذَبُ أَفْوَاهاً وأَنْتَقُ أَرْحَاماً وأَرْضَى باليَسِيْرِ رواه ابن ماجه وغيره وفي رواية عليكم بالأَبْكَارِ فإِنَّهُنَّ أَطْيَبُ أَفْوَاهاً وأَنْتَقُ أَرْحَاماً وأَرْضَى باليَسِيْرِ مِن الجِمَاعِ .

ومِن فَوائِدِ نِكَاحِ البِكْرِ أَنَّهَا تُحِبُّ الزَّوْجَ الأَوَّلَ وتَأْلَفُهُ فإِنَّ الطِّبَاعَ مَجْبُوْلَةٌ على حُبِّ الأُنْسِ بأَوَّلِ مَأْلُوفٍ وفي هذا المَعْنى قِيْلَ :

نَقِّلْ فُؤَادَكَ ما اسْتَطَعْتَ مِن الهَوَى ... مَا الحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيْبِ الأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ في الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتَى ... وحَنِيْنُهُ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

آخر :

كَذَبَ الذينَ تَحَدَّثُوا في قَولِهِم ... ما الحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيْبِ الأَوَّلِ
الْحُبُّ لِلْمَحْبُوبِ سَاعَةَ وَصْلِهِ ... ما الْحُبُّ فيه لآخرٍ ولا أَوَّلِ
مَا أَنْ أَحُنُّ إلى خَرَابٍ مُقْفِرٍ ... دَرَسَتْ مَعَالِمُهُ كَأَنْ لم يُوْهَلِ

مقتي لِمَنْزلي الذي اسْتَحْدَثْتُهُ   أَمَّا الذي وَلَّى فَلَيْسَ بِمَنْزِلِ
لا شَكَ في أنَّ النَّبيَّ مُحَمَّدًا   فاقَ البَرِيَّةَ وهوآخِر مُرْسَلِ

آخر : أتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أَعْرِفَ الهَوَا   فَصَادَفَ قَلْباً خَالِياً فَتَمَكَّنَا

ومِنْ أَمْثِلَةِ العَرَبِ « لَا تَنْسَى الشَّيْبَاءُ أَبَا عُذْرِهَا ولا قَاتِلَ بِكْرِهَا » .

المَعْنَى أنها لا تَنْسَى الذِي افْتَضَّ بَكَارتَها ولاَ الذِي يَقْتُلُ أَوَّلَ أَوْلاَدِهَا ولِهَذا قالَ بَعْضُهُمْ النِّسَاءُ ثَلاثٌ وَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ عَلَيْكَ وَوَاحِدَةٌ لَا لَكَ وَلاَ عَلَيْكَ .

فأمَّا التي لَكَ فالبِكْرُ التي لَم تَرَ غَيْرَكَ إنْ رَأَتْ خَيْراً حَمِدَتِ اللَّه وإنْ رَأَتْ غَيْرَ ذَلِكَ قَالَتْ هكذا الرِّجَالُ أَجْمَعُ .

وأما التي لا لَكَ ولا عَليْكَ غَالباً فالثَّيِّبُ إنْ رَأَتْ خَيْراً قَالَتْ هَكَذَا يَجْمُلُ بِي وَإنْ رَأَتْ شَراً حَنَّتْ إلى الأَوَّلِ ولَوْ أنه مُسِيْءٌ فِيها وهذا إذَا كُنْتَ أَنْتَ وَزَوْجُهَا الأَولُ مُتَقَارِبِيْنَ في السِنِّ والكَرَمِ والغِنَا والعَفَافِ وإنْ كُنْتَ دُوْنَهُ سَمِعْتَ مَا يَسُؤكَ ويُؤْلِمُكَ ورَأَيْتَ مَا يُحْزِنُكَ ويُقْلِقُكَ مِن ذِكْرِ زَوْجِهَا الأَوَّلِ وأَفْعَالِهِ لَمْزاً وَهَزْباً ولِهَذَا قال بعُضهم مُحَذِّراً عنها :

ولا تَنْكِحَنَّ الدَّهْرَ مَا عِشْتَ أَيِّمَاً   مُجَرَّبَةً قَدْ مُلَّ مِنْهَا وَمَلَّتِ

وقيل لبعضهم قد كرهت امرأتُكَ شَيْبَتَكَ فقال إنما مَالَت إلى الأَبْدال لِقلة المال واللَّه لو كُنْتُ في سِنِّ نُوحٍ وشَيْبَةِ إبليس وخِلْقةِ مُنكر ونكير ومَعِي مالٌ لكنتُ أَحَبَّ إليها من مُقَتِّرٍ في جمال يُوسف وخُلُقِ دَاوُد وسِنِّ عِيْسَى وجُودِ حاتَم وحِلم أَحْنَف .

يُرِدْنَ ثَراءَ المالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ   وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيْبُ

آخر : فَجَعَلْتُ أَطْلُبُ وَصْلَهَا بتمللُّقٍ   والشَّيْبُ يَغْمِزُها بأن لا تَفْعِلِي

ويقول القحطاني :

عَانِقْ مِنَ النِسْوانِ كُلَّ فُتَيَّةٍ أَنْفَاسُهَا كَرَاوَائِحِ الرَّيْحَانِ
أَحْذِرْكَ عَن نَفسِ العَجُوزِ وبُضْعِهَا فَهُمَا لِجِسْمِ ضَجِيْعِهَا سَقَمَانِ

وقَال بَعْضُ العُلَمَاءُ يُكْرَهُ نِكَاحُ الحَنَّانَةِ والمَنَّانَةِ والأَنَّانَةِ والحَدَّاقَةِ والبَرَّاقَةِ والمِمْرَاضِ .

فالحَنَّانَةُ التي لَهَا وَلَدٌ تَحُنُّ إليه أَوْ زَوْجٌ تُحِبُّهُ مِنْ قَبْلِكَ .

والمَنانَةُ التي تَمُنُّ على زَوْجِهَا بما تَفْعَلُه أَوْ تَبْذِلْهُ .

والأنانةُ كثيرةُ الأَنِيْنِ الكَسْلاَنَةُ .

والحَدَّاقَةُ التي تَسْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَدَقَتِهَا التي تُحِبُّ أَنْ تَطَّلِعَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وتُكَلِّفُ زَوْجَهَا .

والبَرَّاقَةُ التي تَشْتَغِلُ بتَبْرِيْقِ وَجْهِهَا وَيَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا مِن تَحْمِيْرٍ وَتَبْيِيضٍ وَتَنْمِيْقٍ وتَحْسِينٍ وَقِيْلَ أنهَا التي تَغْضَبُ عندَ الطعامِ ولا تَأكلُ أَلاَّ وَحْدَهَا .

والشَّرَاقَةُ كَثيرةُ الكَلامِ قَلِيْلَةُ الصَّمْتِ .

والمِمْراضُ التي تَتَمارَضُ غالبَ أَوْقَاتِهَا ولَيْسَ فِيْهَا مَرَضٌ إِنَّمَا تَهْرَبُ مِن العَمَلِ أَوْ الاسْتِمْتَاعِ بها فَهِيَ دَائماً تُعَبِّسُ بِوَجْهِهَا مُقَطِّبَةً دَائِماً كَسْلانه تُحبُّ النومَ وَالرَّاحَة .

عَصَمَنَا اللَّهُ وإِيَّاكُم مِنْ الزَّلَلِ وَوَفَّقَنَا لِصَالحِ العَمَلِ وَهَدَانَا بفَضْلِهِ سَبِيْلَ الرَّشَادِ وَطَرِيْقَ السَّدَادِ إِنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيْرِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

مَوْعظَة: عِبَادَ اللَّه يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ قَائِلٍ ﴿ وَلاَ تُلْقُوْا بأَيْدِيْكُمْ إِلَى التَّهْلُكَة ﴾ وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلاَ ﴿ ولا تَقْتلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيْماً ﴾ ويقُولُ جَلَّ وَعَلاَ ﴿ اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيْتُ لَكُمْ الإِسْـلام دِينَا ﴾ ، ويَقُولُ ﷺ تَركْتُمْ عَلَى المَحَجَّةِ البيْضَاءِ لَيْلُهَـا كَنهَارِهَا لاَ يريْغُ عَنْهَا بَعْدِيْ هالكٌ ويقُولُ جَلَّ وَعَلاَ ﴿ ما فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ويقولُ ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

وبِذَلِكَ قَدْ وَضَحَ الأَمْرُ وَتَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَي والهُدَى مِنْ الضَّلاَل وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ ذَلِكَ حُجَّةٌ لِطَالِبِ الرُّشْدِ وَلا عُذْرَ لِمَنْ وَقَعَ فِي الغِوَايَةِ ولكِنَّ فَرِيقاً مِنَ النَّاسِ وَضَعُوا عُقُوْلَهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَلَمْ يُبَالُوا بمُخَالَفَةِ الكِتَابِ والسّنةِ واتَّبَعُوْا شَهَواتِ أَنْفُسِهِمْ فَعَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ واسْقَطُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ دَرَجَةِ الكَمَالِ الّذي أعَدَّهُمُ اللّهُ لَهُ .

وذَلِكَ بأَنّهُم سَعَوا بِمَا يَضُرُّ نُفُوْسَهُمْ وَدِيْنَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَهُوَ شُرْبُهُمْ لأَبِي الخَبَائِثِ الدُّخَانِ الّذِي لاَ يَتَوَقَّفُ عَالِمٌ بِتَحْرِيْمِهِ وَلاَ يَتَوَقَّفُ طَبِيْبٌ بِمَضَرَّتِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الأَدِلَّةِ الدَّالَةِ عَلَى تَحْرِيْمِهِ إلاّ الآياتُ المُتقدّمةُ لكانَتْ كافِيَةً لأَنَّ شَارِبَهُ يَسْعَى في اضْعَافِ جِسْمِهِ وَالقَضَاءِ عَلَى حَيَاتِهِ وَتَبْذِيرِ مَالِهِ والمُبَذِّرِيْنَ إِخْوَانُ الشّياطِيْنِ وَهُوَ إِسْرَافٌ ﴿والله لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾ .

ومِنْ أَوْضَحِ الأَدِلَّةِ عَلَى تَحْرِيْمِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَقِّ نَبِيّهِ ﷺ ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطّيّباتِ وَيُحَرّمُ عَلَيْهِم الخَبَائِثَ﴾ وَلاَ يَمْتَرِي عَاقِلٌ فَضْلاً عَنْ العَالِمِ أنّهُ مِنْ قِسْمِ الخَبَائِثِ وَلَهُ مِنْ المَفاسِدِ والأَضْرَار مَا لاَ يَخْفَى عَلى ذِي بَصِيْرَةٍ وَإِلَيْكَ تعْدَادُ بَعْضِ مَضارّه وهِيَ قليلٌ مِن كثير .

١ ـ فَمِنْ مَضَارّهِ الدِّيْنِيَّةِ أَنَّهُ إِسْرَافٌ واللَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِين .

٢ ـ ومِنْها أنّهُ تَبْذِيْرٌ والمُبَذِّرِيْنَ إخْوانُ الشَّياطِين .

٣ ـ ومِنْها أنّهُ يُعْدِيْ أوْلَادَهُ فيقلدُونَهُ بِشُرْبِهِ .

٤ ـ أنّهُ يُثَقِّلُ عَلَى العَبْدِ العِبَادَاتِ ويُبَغِّضُهَا عِنْده .

٥ ـ ومِنْها أنَّهُ يُبَغِّضُ إلَيْهِ المُكْثَ في بَيْتِ اللّهِ المَسْجِدِ .

٦ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُكَرّهُ الصِّيَامَ لِشَارِبِهِ .

٧ ـ ومِنْهَا أنّهُ يَدْعُو إلى مُخَالَطَةِ الأنْذَالِ والسُّفَلِ .

٨ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُزَهّدُ في مُجَالَسَةِ الأخيارِ .

٩ ـ ومِنْهَا اقْتِطَاعُ جُزْءٍ مِنَ العُمْرِ كَبِيرٍ في هذِهِ المَعْصِيَةِ وذلِكَ وَقْتُ شُرْبِهِ وشِرَائِهِ .

١٠ ـ ومِنْهَا إيْذَاءُ الكِرامِ الكاتِبِين في رَائِحَتِهِ الكَرِيْهَةِ .

١١ ـ ومِنْهَا إيْذَاءُ المُعَقّبَاتِ كذَلِكَ .

١٢ ـ ومِنْهَا تَوسِيْخُ مَوْضِعِ قِرَاءَةِ كَلَامِ اللّهِ وَسُنَّةِ رَسُوْلِهِ لأَنَّ مَحَلَّ التِّلَاوَةِ اللّسَانُ والحَلْقُ والصَّدْرُ والدُّخَانُ يُلوِّثُهُ .

١٣ ـ ومِنْهَا إيذاءُ المُسْلِمينَ المُجَالِسِيْنَ والماشِينَ مَعَهُ .

١٤ ـ ومِنْ مَضَارِّهِ البَدَنِيّةِ احْتِوَاؤُهُ عَلَى مَادةِ النّيْكُوتِيْن السَّامَةِ وأنّهُ سَبَبٌ لارتِفَاعِ ضَغْطِ الدَّم .

١٥ ـ ومِنْ مِضَارّهِ أنّ شَارِبَهُ يَتَعَرَّضُ لأمْرَاضٍ خَطِرَةٍ كَثِيْرَةٍ فِي بَدَنِهِ مِنْ ذَلِكَ تَعْسِيْرُ هَضْمِ الطَّعَامِ وإفسادُ مَجَاري البَوْل .

١٦ ـ ومِنْهَا إحْدَاثُ التِهَابٍ فِي الرِّئَتَيْنِ .

١٧ ـ ومِنْهَا إحْدَاثُ السُّعَالِ وكَثْرَةِ المُخَاطِ .

١٨ ـ ومِنْهَا تَعْطِيْلُ الشَّرَايِيْنِ الصَّدْرِيَّةِ وأوّلُهُ تَضْيِيْقُهَا .

١٩ ـ ومِنْهَا ما يَحْدُثُ مِن عُسْرِ التَّنَفُسِ .

٢٠ ـ ومِنْهَا التأثِيْرُ عَلَى القَلْبِ بِتَشْوِيْشِ انْتِظَامِ دَقَّاتِهِ .

٢١ ـ ومِنْهَا أنَّ شَارِبَهُ يُعِيْنُ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ .
٢٢ ـ ومِنْهَا إضْعَافُ البَصَرِ وأوّله إثارة إفْرازِ الدُّمُوع .
٢٣ ـ ومِنْهَا إضعَافُ شَهِيَّةِ الطَّعَامِ شَيْئاً فَشَيْئاً .
٢٤ ـ ومِنْهَا إضعَافُ شَهْوَةِ الجِمَاعِ أو قَطْعَهَا مُفاجأة .
٢٥ ـ ومِنْهَا إضْعَافُ السَّمْعِ .
٢٦ ـ ومِنْهَا إضعَافُ العَقْلِ إذ العَقْل يَضْعف تبع الجسْم .
٢٧ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُحْدِثُ الخَفقَانَ في القَلْبِ .
٢٨ ـ ومِنْهَا إضْعَافُ الفِكْرِ والحِفْظِ فَتضْعُفُ الذَّاكِرَةُ .
٢٩ ـ ومِنْها أنَّهُ يُوْرِثُ الحُمُقَ وسُرْعَةَ الغَضَبِ .

٣٠ ـ ومِنْهَا إحداثُهُ للجُنُـون التُّوْتُوني كَمَا ذَكَرَهُ العُلَمَاءُ والجُنُونُ فُنُونٌ وَلَوْ أَنَّ إنْسَاناً أَتَى بِأَلْفٍ مِنَ الرِّيَالاَتِ وَحَرَّقَهَا أَمَامَ النَّاسِ لَقَالُوا مَجْنُوْنٌ وَلَمْ يَشُكُوْا وَشَارِبُ الدُّخَانِ يُحَرِّقُ آلافاً فِي جَوْفِهِ لاَ فِي الفَضَاءِ نَسْأَلُ اللّهَ العَافِيَةَ فَانْظُرْ وَفَكِّرْ واحْكُمْ أَيُّهُمَا أَحَقُّ باطْلاقِ الجُنُوْنِ عَلَيْهِ الّذِيْ يُحَرِّقُ مَالَهُ فِي الفَضَاءِ أمْ الّذِيْ يُحَرِّقُ بِهِ بَدَنَهُ وَيُعَذِّبُ بِهِ نَفْسَهُ نَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ عَمَى البَصِيْرَةِ واتّبَاعِ الهَوَى والنَّفْس الامَّارَةِ بالسُّوء .

٣١ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُخَرِّبُ كُرَيَّاتِ الدَّمِ التي تَدْفع المكْرُوْباتِ عن الجسم .

٣٢ ـ ومِنْهَا إنْحِطَاطُ القُوَّةِ العَصَبِيَّةِ .
٣٣ ـ ومِنْهَا أنَّهُ يُؤَدّي إلى مَرَضِ السِّل الرِّئوي .
٣٤ ـ ومِنْهَا المَوْتُ بالسَّكْتَةِ القَلْبِيَّةِ .
٣٥ ـ ومِنْهَا تَقَلُّصُ الأوْعِيَةِ الدَّمَوِيَّةِ بالأَطْرَافِ .

٣٦ ـ ومِنْهَا أثرَهُ المَحْسُوسُ في مَرَضِ السَّرَطَانِ .
٣٧ ـ ومِنْهَا تَسْوِيْدُهُ الفَمَ والشَّفَتَيْنِ والحَلْق .
٣٨ ـ ومِنْهَا تَسْوِيْدُ الأسْنَانِ وَسُرْعَةُ بَلاَئِها وتحَطُّمِهَا وتَأكُلِهَا بالسُّوْسِ وذهابُ نظرَتِها وتَكرِيْهِهَا لِنَاظِرِهَا .

٣٩ ـ ومِنْهَا انْهِيَارُ الفمِ والبُلْعُوْمِ وَرُبَّمَا حَدَثَ سَرَطَانٌ في الحَلْقِ بِسَبَبِهِ أو شَلَلٌ فِي الأعْضَاءِ .

٤٠ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُكَرِّهُ شَارِبَهُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ وَأَهْلِهِ لِمَا يُحْدثُهُ مِنَ البَخرِ لأَنَّهُ يُخَيِّسُ الفمَ والأنفَ .

٤١ ـ ومِنْهَا أنَّ ضَرَرَهُ يَتَعَدَّى إلى المُجْتَمَع دِيْنِياً واقْتِصَادِيّاً .
٤٢ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُحْدِثُ الأرَقَ وَهُوَ السَّهَرُ وَعَدَمِ النَّوْم فَيَتضرّرُ بِهِ .
٤٣ ـ ومِنْهَا إضعَافُهُ حَاسَةَ الشَّم وربما تَعَطَّلت كلّياً بسَبَبِهِ .
٤٤ ـ ومِنْهَا أنَّ كَثِيْراً مِنَ الحَرَائِقِ تَحْدُثُ بِسَبَبِهِ .
٤٥ ـ ومِنْهَا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ مِنْ أنَّهُ يُوَلِدُ البَاسُوْرَ وَيَزْدَادُ مَعَهُ إنْ كانَ مَوْجُوْداً مِنْ قَبْلِ شُرْبِهِ .

٤٦ ـ ومِنْهَا أنَّ بَعْضَ العُلَمَاءِ لاَ يَقْبَلُ شَهَادَتَهُ لأنَّهُ يَعْتَبِرُهُ فاسِقاً بِهَذِهِ المَعْصِيَةِ والعِيَاذِ بالله .

٤٧ ـ ومِنْهَا أنَّها لا تَصِحُ إمَامَتُهُ عِنْدَ بَعْضِ العُلَمَاءِ .
٤٨ ـ ومِنها مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الأطِبّاءِ مِنْ أنَّهُ يُحْدِثُ تَيَبُّسٌ في الكَبِدِ وأنّهُ مِنْ أهمِّ المُسَبِّباتِ للقرحة المِعَويّة .

٤٩ ـ ومِنْهَا ما ذَكَرَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ مِنْ أنَّهُ يُحْدِثُ الفَالِجَ .

٥٠ - ومِنْهَا أَنَّ شَارِبَهُ يُجْلَدُ أَرْبَعِينَ جلْدَةً عِنْدَ بَعْضِ العُلَمَاءِ لأَنَّهُ مُحَرَّمٌ كالخَمْرِ وفِيْهِ مَضَارُ أُخْرَى ذَكَرَهَا الأَطِّبَاءُ تَرَكْنَاهَا خَوْفَ الإِطَالَةَ .

فَالوَاجِبُ عَلَى العَاقِلِ النَّاصِحِ لِنَفْسِهِ التَّوْبَةُ إلى اللّهِ عن شُرْبِهِ قَبْلَ أنْ يَمُوْتَ بِسَبَبِه فيكُونُ قَدْ أعَانَ عَلى قَتْلِ نَفْسِهِ

اللَّهُمَّ يا مَن خلق الانسانَ وَبَنَاه واللّسَانَ وأَجْرَاهُ ، يا مَنْ لا يُخَيبُ مَن دَعَاهُ ، هَبْ لِكُلٍّ مِنَّا مَا رَجَاهُ ، وَبَلِّغْهُ مِن الدَّارَيْنِ مُنَاهُ ، اللَّهُمَّ اغفر لنا جميعَ الزلات ، واستر علينا كلَّ الخطيئات وسامِحْنا يَوْمَ السُؤآلِ والمُنَاقَشَات ، وانفعْنَا وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ بما أَنْزَلْتَهُ مِن الكلمات يا أرْحَمَ الراحمين

(فَصْــــلٌ)

ومِمَّا لاَ يُسْتَهَانُ بِهِ وَيحْرَصُ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ الزَّوْجَةُ ذَاتُ دِينٍ شَرِيْفَةٍ فإنَّ الشَّرِيفَةَ غَالِباً تُحَافِظُ عَلَى شَرَفِها وسُمْعَتِهَا وتُبْعِدُ عَمَّا يُدَنِّسُ الشَّرَفَ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ لِرَجُلٍ أشِرْ عَلَيَّ فِيْمَنْ أَسْتَعْمِلُ فَقَالَ أمَّا أرْبَابُ الدّيْنِ فَلا يُرِيْدُوْنِكَ وأَمَّا أرْبَابُ الدُّنْيا فَلاَ تُرِيْدُهُمْ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالأشْرَافِ فَإِنَّهُمْ يَصُوْنُوْنَ شَرَفَهُمْ عَمَّا لاَ يَصْلَحُ .

وَرُوِيَ عن أبِي إسْحَاقَ قَالَ دَعَانِي المُعْتَصِمُ يَوْماً فَأَدْخَلَنِي مَعَهُ الحَمامَ ثُمَّ خَرَجَ فَخَلاَ بِيْ وَقَالَ يَا أَبَا إسْحَاقَ فِي نَفْسِيْ شَيْءٌ أُرِيْدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ إنّ أخِيْ المَأْمُوْنُ اصْطَنَعَ فَأَنْجَبُوْا وَاصْطَنَعْتُ أنا مِثْلَهُمْ فَلَمْ يُنْجِبُوْا قُلْتُ ومنْهُمْ قال اصْطَنَعَ طَاهِرَ وابْنَهُ وَإِسْحَاقَ وآلَ سَهْلٍ فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ هُمْ وَاصْطَنَعْتُ أَنَا الأفْشِيْنَ فَقَدْ رَأَيْتَ إِلَى مَا آلَ أمْرُهُ وأَسَاسَ فَلَمْ أجِدْهُ شَيْئاً وكَذَلِكَ انْبَاح وَوَصِيْفَ .

قُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ هَهُنَا جوَابٌ عَلَى أَمَانٍ مِنَ الغَضَب قَالَ لَكَ ذَلِكَ

قُلْتُ نَظَرَ أَخُوكَ إلى الأُصُولِ فاسْتَعْمَلَهَا فَانْجَبَتْ فُرُوعُهَا وَاسْتَعْمَلْتَ فُرُوعاً لَا أُصُوْلَ لَهَا فَلَمْ تُنْجِبْ فقَالَ يَا أَبَا اسْحَاقَ مُقَاسَاةُ مَا مَرَّ بِي هَذِهِ المُدَّةُ أهونُ عليَّ مِنْ هَذَا الجَوَابِ أ هـ .

وَقِيْلَ إنَّ جَعْفَرَ بْنَ سُلَيمانَ بْنَ علي عَابَ يَوْماً عَلَى أَوْلَادِهِ وأَنَّهُمْ لَيْسُوا كَمَا يُحِبُّ فَقَالَ لَهُ ولَدهُ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرَ إنَّكَ عَمَدْتَ إلى فَاسِقَيْ مَكَّةَ والمَدِيْنَة فأَوْعَيْتَ فِيْهِنَّ بضُعْكَ ثُمَّ تُرِيْدُ أنْ يُنْجِبُوْا وَإِنَّمَا نَحْنُ لِضَاجِبَاتِ الحِجَازِ هَلَّا فَعَلْتَ في وَلَدِكَ مَا فَعَلَ أَبُوكَ فِيْكَ حِيْنَ اخْتَارَ لَكَ عَقِيْلَةَ قَوْمِهَا .

وَيَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلى زَوْجَةٍ واحِدةٍ خَوْفاً مِن عَدَمِ العَدْلِ قال اللّه تَعَالى ﴿وإن خفْتُمْ أنْ لَا تَعْدِلُوا فَواحِدة﴾ وقالَ تَعَالى ﴿وَلَنْ تَسْتَطيعوا أنْ تَعْدِلُوا بيْنَ ولو حرصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذرُوها كالمعلقة﴾ .

وَلَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أربَعَ نِسْوَةٍ ولا يَزِيدُ على ذَلِكَ إلَّا بِمُلْكِ اليَمِيْنِ فَلَهُ أنْ يَتَسَرَّى بِمَا شَاءَ مِن الإمَاءِ وإنْ أَرَادَ اصطحاب وَاحِدَةٍ مِنْ نِسَائِهِ في سَفَرِهِ أَقْرَعَ بَيْنَهُنَّ وَمَدَحَ أَحَدُ العُلَمَاءِ زَوْجَتَهُ وبَالَغَ فِي مَدْحِهَا فَقَال :

مُكَمَّلَةُ الأَوْصَافِ خُلْقاً وخِلْقَةً
فَأَهْلاً بِهَا أَهْلاً وَسَهْلاً بِهَا سَهْلَا
وَدُوْدٌ وَلُوْدٌ حُرَّةٌ قُرَشِيَّةٌ
مُخَدَّرَةٌ مَعْ حُسْنِهَا تُكْرِمُ البَعْلَا
وَبَاذِلَةٌ نَظِيْفَةٌ وَلَطِيْفَةٌ
مِنْ أظْرَفِ إنْسَانٍ وأَحْسَنِهِمْ شَكْلَا
شَكُورٌ صَبُورٌ حُلْوَةٌ وَفَصِيْحَةٌ
ومُتْقِنَةٌ تُتْقِنُ القَوْلَ والفِعْلَا

تَغَــارُ مِنْ أَسْبَـابِ النَّقَــائِصِ كُلِّهَــا
وتَحْفَظُ مَالَ الزَّوْجِ والنَّفْسَ والأَهْلَا

حَـصَــانٌ رَزَانٌ لَيْسَ فِـيْهَــا تَـكَبُّــرٌ
قَنُـوْعٌ فَـلَا شِـرْبٌ يَـدُوْمُ وَلَا أَكْـلَا

مُــطَاوِعَــةٌ لِلْبَعْــلِ يَـقْضِـي أدِيْبَــةٌ
مُــوَافِقَـةٌ قَـوْلًا وفِعْـلًا فَمَــا أَعْــلَا

صَغِيْــرةُ سِنٍّ فِي الكَــلَامِ كَبِيْــرَةٌ
نُهَـاهَا يُـرَى مُمْتَـازَ أكْـرِمْ بِـهِ عَقْـلَا

يُشِيــرُ عَـلَيْهَــا بِــالتَّـفَــرُّجِ مَــرَّةً
فَتَـأْبَى وَقَعْرُ البَيْتِ فِي عَيْنِهَـا أَحْـلَا

مُــدَارِيَــةٌ لِــلأَهْـلِ إنْ عَتِبَـتْ وإِنْ
أَحَبَّتُ فَـلَا حِقْـدُ لَـدَيْهَـا وَلَا غِـلَّا

رَقِيْقَــةُ قَلْبٍ مَــعْ سَـلَامَــة دِيْنِهَــا
فَلَسْتَ تَرَى شِبْهاً لَهَا في النِسَا أَصْلَا

خَـدُوْمٌ بقَلْبٍ في جَمِيْـعِ أُمُــورِهـا
مُبَــاشِـرَةٌ لِلْكُــلِ مَـا دَقَّ أَوْ جَــلَّا

مُـلَازِمَـةٌ لِلشُّغْــلِ في البَيْتِ دَائِمـاً
عَلَى صِغَـرٍ مِنْ سِنِّهَا لَا تَنِيْ فِعْـلَا

مُــطَرِّزَةٌ خَــيَّــاطَــةٌ ذَهَــبِــيَّــةٌ
مُفَصَّـلَةٌ خَــطَّاطَــةٌ تُحْـكِمُ الـغَــزْلَا

تَنَقَـلُ في الأَشْغَالِ مِنْ ذَا لِـذَا وذَا
وَتَفْعَلُ حَتَّى الكَنْسَ وَالطَّبْخَ والغَسْلَا

وَمَـا ذَاكَ مِنْ عُدْمٍ فَلَمْ يَخْـلُ بَيْتُهَا
مِن امْـرَأَةٍ تَكْفِيْ إذا شَـاءَتِ الفِعْـلا
وَلَكِنَّهَــا اعْتَـادَتْ نَـظَافَـةَ شُغْلِهَــا
فَعَـافَتْ فِعَالَ الكُـلِّ واحْتَمَلَتْ فِعْلاَ
خَـفِيْـفَــةُ رُوْحٍ مَـعْ وَقَـارٍ ذَكِـيَّــةٌ
فَتَفْهَمُ مَـا يُلْقَى لَـدَيْهَــا وَمَـا يُتْلَى
لَهَـا هِمَّـةٌ عُلْيَـا تَـطُوْلُ شُــرُوحُهَـا
عَلَى صَعَبِ الأشْغَـالِ تَتْرُكُـهُ سَهْـلاَ
مُـرَبّـيَــةٌ حَنَّــانَــةٌ ذَاتُ رَحْـمَـةٍ
وكُـلُّ يَتِيْمٍ وَاحِـدٍ عِنْـدَهَـا فَضْــلاَ
نَفُــوْرٌ إِذَا ارْتَـابَتْ أُلُــوْفٌ لأَهْلِهَــا
فَمَهْـلاً إِذَا قِيْسَ النِّسَـاءُ بِهَــا مَهْـلاَ
عَــدِيْمَــةُ لَفْظٍ وَالْتِفَــاتٍ إِذَا مَشَتْ
صَمُـوْتٌ فَلا قَـطْعاً تَـرُدُّ وَلاَ وَصْـلاَ
وَلَمْ يَنْكَشِفْ مِنْهَـا بَنَـانٌ يَحَــارُ مَنْ
مَشَى مَعَهَـا فِي حِفْظِهَـا يَدَهَـا قَبْلاَ
يَعِـزُّ عَلَى مَنْ يَطْرُقُ البَـابَ لَفْظُهَـا
جَـوَابـاً فَــلا عَقْـداً تَـرَاهُ وَلاَ حَـلاَّ
يُــطِيْـلُ وُقُــوْفـاً لاَ يُجَـابُ مُحَـرَّمٌ
عَلَيْهَــا كَـلاَمُ الأجْـنَبِـيِّ وَإِنْ قَـلاَّ
وَحَــافِـظَةٌ لِلْغَيْـبِ صَـالِحَــةٌ أَتَـتْ
لَحَقٌ إِذَا كَــانَتْ مَنَـاقِبُهَــا تُـتْـلاَ

وَقَـانِـتَـةٌ صَـوَّامَـةٌ وَمُـدِلَّـةٌ
بِعَقْـلٍ وَتَـدْبِيْـرٍ تَـرَاهُ العِـدَا بُخْـلَا
تَـجَـمَّـعَ فِـيْـهَـا عِـفَّـةٌ وَنَـزَاهَـةٌ ·
وَعِـزَّةُ نَفْسٍ فَهِيَ تَكْـلَا وَلَا تُقْـلَا

قُلْتُ مَا أَظُنُّ مِثْلَ هَذِهِ وُجِدَتْ وَلا فِي القَرْنِ الرَّابِعِ أَوْ الخَامِسِ فَضْلاً عَمَّا بَعْدَهُمَا وَخُصُوصاً في زَمَنِنَا الّذِي اسْتَطَالَتْ فِيهِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ بَعْدَ مُخَالَطَةِ الأجَانِبِ الخَاضِعِيْنَ لَهُنَّ واسْتَعْمَرَ النساءُ الرِّجَالَ اسْتِعْمَاراً مَا بَعْدَهُ اسْتِعْمَارٌ وَصَارَ الزَّوْجُ بِالنّسْبَةِ لِشُئُونِ الأوْلَادِ والبَيْتِ والذَّهَابِ والمَجِيءِ مُسَيَّراً لا مُخَيَّراً كالسَّيَّارةِ بِيَدِ السَّائِقِ والمِلْعَقَةِ بِيَدِ الآكِلِ والقَلمِ بِيَدِ الكاتِبِ هِيَ الّتِي تَدبِرُهُ وتُصَرِّفُهُ كالصَّبِيِّ الخَادِمِ .

وإن وُجِدَ أَحَدُ خِلافَ ما ذَكَرْنَا فَهُوَ مِن النَّادِرِ والشَّاذِ والسَّبَبُ الوَحِيْدُ فِي ذَلِكَ هُوَ تَقْلِيْدُنَا لِلأجَانِبِ الّذِيْنَ هُمْ فِي أَيْدِي نِسَائِهِمْ كالخَاتَمِ تُصَرِّفُهُ كَيْفَ شَاءَتْ يَتْبَعُهَا أَيْنَما تَوجَّهَتْ سَارَ خَلْفَها حَامِلاً لِوَلَدِهَا قَدْ نَبَذَ الحَيَاءَ كَما نَبَذَتْهُ هِيَ بدُوْنِ مُبَالَاتٍ وَلَا خَجَلٍ فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلّا بِاللّهِ العلي العظيم .

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وَوَفِقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ لَهُ الصَّالحين من خَلْقِكَ واغْفَرْ لَنَا ولِوالِدِاينا وجميع المسلمين بِرَحْمتك يا أرْحَم الرَّاحمين وصلى الله على

« مَوْعِظَـةٌ »

عِبَادَ اللّهِ لَقَدْ طَغَتْ شَهوةُ الفَرْجِ اليَوْمَ عَلَى كَثِيْرٍ مِن النَّاسِ طُغْيَاناً لَيْسَ فَوْقَهُ طُغْيَانٌ وأَصْبَحَ سُلْطَانُهَا عَلَى أَفْرَادِهِ شَيْباً وَشُبَّانَا لَا يُدَانِيْهِ سُلْطَانٌ حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إلى بَعْضِهِمْ أَنَّ فَاحِشَةَ الزِنا بَسِيْطَةٌ وَالعِيَاذُ بِاللّهِ وأَنَّ مُغَازَلَةَ النِّسَاءِ والخَلْوةَ بِهِنَّ مُبَاحَةٌ نَسْأَلُ اللّهَ العافِيَة .

يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ مَا تُشَاهِدُهُ مِن الرِّجَالِ والنِّسَاءِ فَتَرَى الرِّجَالَ فِي تَأنُّقٍ بَدِيْعٍ فِي لِبَاسِهِمْ قَدْ حَلَقُوا لِحَاهُمْ وأَلْهَبُوْا الأَصْبَاغُ فِي وَجَنَاتِهِمْ وذَكَّتْ رَوَائِحهُمْ وَرَجَّلُوا شَعَرَ رُؤُوسِهِمْ وَتَعَرَّضُوْا لِلنِّسَاءِ في الطُّرُقِ قَدْ خَلَعُوْا سِرْبَالَ الحَيَاء .

وَتَرى النِّسَاءَ تَسْتَعِدُّ اسْتِعْدَاداً تَامّاً إِذَا أَرَادَتِ الخُرُوْجِ مِنْ بَيْتِهَا فَتَتَزَيَّنُ بِأَنْوَاعِ الزِّيْنَةِ مِنْ لِبَاسٍ بَرَّاقٍ وَشَفَّافٍ ومِن حُلِي يَلْمَعُ لَمَعَاناً يَأْخُذُ بالأَبْصَارِ وَمِنْ تَعَطُّرٍ بِمَا تَهْزَأُ رَائِحَتُهُ بِرَائِحَةِ المِسْكِ وَمِن أَدِّهَانٍ تَدْهُنُ بِهِ وَجْهَهَا وَأَطْرَافهَا وَحَاجِبَهَا وَشَفَتَيْهَا وَمِنْ آلَةٍ تَفْرقُ بِهَا رَأْسَهَا وَجُفُوْنَهَا لِيَصِيْرَ نَاعِماً لَامِعَاً كَثِيْراً وبِذَلِكَ تَنْقَلِبُ فِتْنَةً لِلنَّاظِرِيْنَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تَشُقُّ عَلَى العُيُونِ رؤْيَتُهَا وَعَلَى الآذانِ سَمَاعُ صَوْتِهَا ويُنفَرُّ مِنْ شَهَابَتِهَا وقُبْحِها وهَيْئتِها الّتِي كانَتْ تَتَقَدَّمُ بِهَا لِزَوْجِهَا فِي البيتْ كُلُّ ذلِكَ سَبَبُهُ مُخَالَطَةَ الأَجْنَبِيّاتِ أَبْعَدهُنَّ اللّه .

فَمَا ظَنُّكَ إِذَا الْتَقَا هَؤُلاءِ إِنَّهَا لَمَصَائِبُ تَجْرَحُ قَلْبَ كُلِّ مُؤْمِنٍ غَيُوْرٍ لِدِيْنِهِ يَمُوْتُ كَمَداً مِنْ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ وَأَشْبَاهِهَا قَالَ ﷺ مُحَذِّراً عَنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ « اتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ إِبْلِيْسَ طَلاَّعٌ رَصَادٌ وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ مِن فُخُوْخِهِ بأَوْثَقَ لِصَيْدِهِ في الأَتْقِيَاءِ مِنْ النِّسَاءِ » .

وَخَصَّ الأَتْقِيَاءَ لِمَا لَهُمْ مِنَ الشُّهْرَةِ عَلَى قَهْرِ الشَّيْطَانِ وَرَدِّ كَيْدِهِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِ الأَتْقِيَاءِ فَهُوَ مَا يَثِقُ بصَيْدِهِ الأَتْقِيَاء بِشَيْءٍ مِنْ آلاتِ الصَّيْدِ وُثُوْقَهُ بِالنِّسَاءِ وَكَوْنِهِنَّ مِنْ فُخُوْخِهِ فَلأَنَّهُ جَعَلَهُنَّ مَصْيَدَةً لَا تُفْلِتُ يُزَيِّنُهُنَّ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ ويُغْرِيْهِم بِهِنَّ فَيُوَرِّطُهُم فِي الزِّنَا كَصَائِدٍ يَنْصِبُ شَبَكَةً لِيَصْطَادَ بِهَا ويُغْرِيْ الصَّيْدَ عَلَيْهَا لِيَقَعَ فِي حَبَائِلِهَا .

قَالَ ﷺ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّيْنَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي المَسْجِدِ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَ نِسَاؤُهُمْ الزِّيْنَةَ وَتَبَخْتَرْنَ فِي المَسَاجِدِ » رواه ابْنُ ماجَةَ وفي الحَدِيثِ الآخَرِ مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَّا وَيُنَادِيْ مَلَكَانِ وَيْلٌ لِلرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَوَيْلٌ لِلنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ رواهُ ابنُ ماجه والحاكم .

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « إِنَّ المَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُوْرَةِ شَيْطَانٍ وتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُم مِنْ امْرَأَةٍ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَأتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ » .

وعَنْ ابن مَسْعودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ المَرأةَ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيطانُ رواه الترمذي قال أبُو حَمْزَةَ الخُرَاسَاني النَّظَرُ رسُولُ البَلايَا وسِهَامُ المَنَايا .

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ عَقْلَهُ افْتَضَحَ وَمَن غَضَّ طَرْفَهُ اسْتَرَاحَ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لا شَيْء أَشَدُّ مِنْ تَرْكِ الشَّهْوَةِ لأنَّ تَحْرِيْكَ السَّاكِنِ أَيْسَرُ مِنْ تَسْكِيْنِ المُتَحَرِّكِ .

وَقَالَ ابْنُ الحَاجِ قَالَ صَاحِبُ الأَنْوَارِ احْذَرُوا الاغْتِرَارَ بِالنِّسَاءِ وإِنْ كُنَّ نُسَّاكاً عُبَّاداً فَإِنَّهُنَّ يَرْكَنَّ إلى كُلِّ بَلِيَّةٍ ولا يَسْتَوْحِشْنَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ .

وَقَالَ بَعْضُ العَارِفِيْنَ مَا أَيِسَ الشَّيْطَانُ مِنْ إِنْسَانٍ قَطُّ إِلاّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ لأَنَّ حَبْسَ النَّفْسِ مُمْكِنٌ لأهْلِ الكَمَالِ إِلاَّ عن النِّسَاءِ لأَنَّهُنَّ مِنْ ذَوَاتِ الرِّجَالِ وَشَقَائِقِهِمْ ولَسْنَ غَيْراً حَتَّى يُمْكِنُ التَّبَاعُدُ عَنْهُ والتَّحَرُّزُ عَنْهُ .

قَالَ اللّهُ تَعَالى « هُوَ الّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَهَا » وَمَا عَدَاهُنَّ فَاتّبَاعُ هَوَى النَّفْس فِيْهِ آيَةُ تَكْذِيْبِ الرّحمن وَعَلاَمَةُ الاسْتِرْسَالِ مَعَ الشَّيْطَانِ وَتَصْدِيْقُهُ فِيْمَا يُزَيِّنُهُ مِن البُهْتَان .

وَلِذَا نَرَى الحَازِمَ اللَّبِيْبَ الكَامِلَ مُنْقَاداً مُسْتَرْسِلَ الزِّمَامِ لِتِلْكَ النَّاقِصَاتِ دِيْناً وَعَقْلاً مَقْهُوْراً تَحْتَ حُكْمِهِنَّ قَال جَرير :

إنَّ العُيُونَ الَّتِي في طَرْفِهَا حَوَرُ
قَتَلْنَنَا ثُمَّ لاَ يُحْيِيْنَ قَتْلاَنَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاَ حَرَاكَ بِهِ
وَهُنَّ أضْعَفُ خَلْقِ اللّهِ إنْسَانَا

فَالنِّسَاءُ فِتْنَةٌ عَظِيْمَةٌ لِلرِّجَالِ فَالّذي يَقْوَى على قَهْرِ نَفْسِهِ عَن هَوَاهَا أمَامَ هَذِهِ الشَّهْوَةِ خَوْفاً مِنَ اللّهِ تَعَالى وَيُلْزِمُهَا الصَّبْرَ وَعَدَمَ التَّسَخُّطِ عِنْدَ فَادِحَاتِ المَصَائِبِ رِضىً بِمَا قَدَّرَهُ اللّهُ وَأَجْرَاهُ دَلِيْلٌ عَلَى كَمَالِ إيْمَانِهِ بِخِلاَفِ المتَّبعِ لِهَوَاهُ عادِمَ الصَّبْرِ والاحْتِسَابِ وهَذا هُوَ المِيْزَانُ عِنْدَ الاخْتِبَارِ .

قالَ بعضهم :

وَعَبْدُ الهَوَى يَمْتَازُ مِن عَبْدِ رَبِّهِ
لَدَى شَهْوةٍ أَوْ عِنْدَ صَدْمِ بَلِيَّةِ
بِكِيْرِ البَلاَ يَبْدُوْ مِن التِّبْرِ حُسْنُهُ
وَيَبْدُو نُحَاسُ النَّحْسِ فِي كُلِّ مِحْنَةِ
خَلاَ مِنْ حُلَى قَوْمٍ كِرَامٍ تَدَرَّعُوا
دُرُوْعَ الرِّضَا والصَّبْرِ في كُلِّ شِدَّةِ

وَلاَقَوْا طِعَانَ النَّفْسِ فِي مَعْرَكِ الهَوَى
وَرَاحُوْا وَقَدْ أَرْوَوْا مَوَاضِيْ الأَسِنَّةِ
وَسَاقُوْا جِيَادَ الجِدِّ عِنْدَ اشْتِيَاقِهِمْ
وَأَرْخَوْ لَهَا نَحْوَ العُلاَ لِلأَعِنَّةِ
سَمَوْا فاعْتَلَوْا بِيْضَ المَعَالِيْ عَوَالِياً
بِبِيْضِ العَوَالِيْ في القُصُوْرِ العَلِيَّةِ
مَقَامَاتِ قَوْمٍ أَتْعَبُوْا النَّفْسَ فِي السُّرَى
وفَازُوْا بِمَا نَالُوْهُ فَوْقَ الأَسِرَّةِ
بِذُلٍّ أُنِيْلُوْا العِزَّ وَالجُهْدِ رَاحَةً
وَفَقْرِ غِنَىً والحُزْنِ كُلَّ مَسَرَّةِ
وَطَيِّبَ عَيْشٍ بالطَّوى ثُمَّ بالظَّمَا
شَرَابَ كُؤُوسٍ حَالِيَاتٍ هَنِيَّةِ
بِجَنَّاتِ عَدْنٍ فِي رِيَاضٍ أَنِيْقَةٍ
لَهُمْ ذُلِّلَتْ مِنْهَا قُطُوْفٌ تَدَلَّتِ
جَنَوْا مِنْ جَنَاهَا زَاكِياً لاَ يَذُوْقُهُ
مِنَ الْخَلْقِ إلاَّ كُلُّ نَفْسٍ زَكِيَّةِ
تَسَلَّتْ عَن الدُّنْيَا وَماتَتْ عَنِ الهَوَى
وَغَسَّلَهَا فِي مَوْتِهَا مَاءُ دَمْعَةِ
وَصَلَّتْ عَلَيْهَا صَالِحَاتُ فِعَالِهَا
وَقَدْ كُفِّنَتْ في بِيْضِ أَثْوَابِ تَوْبَةِ
وَنَالَتْ مُنَاهَا والسَّعَاداتِ كُلَّهَا
فَيَا سُعْدَ نَفْسٍ أدْرَكَتْ مَا تَمَنَّتِ

إذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاحْرَصْ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى صِيَانَةِ أهْلِكَ فِي هَذَا الزَّمَنِ وَأَمَّا فِي البُيُوتِ فَمُتَمَرِّدَاتٌ على الرِّجَالِ لا يَهْدَأْنَ لَيْلاً ولا نَهاراً مِنْ المُشَاغَبَاتِ والتَّدَخُّلِ فِيمَا لا يَعْنِي حَتَّى أنَّ الرَّجُلَ لَيَكْرَهُ دُخُولَ بَيْتِهِ لأنَّهَا مِنْ المُؤْذِيَاتِ لا يَنْتَهِي ذَلِكَ الشَّغَبُ في يومٍ ولا أسبوعٍ وَلَا شهرٍ ولا سَنَةٍ .

كُلَّ يَوْمٍ تَجَدَّدُ مُحَاضَرَاتُ المُشَاغَبَةِ فَقَاتَلَهُنَّ اللّهُ مَا لِلُؤْمِهِنَّ مَعَ الرِّجَالِ حَدٌّ تَقِفُ عِنْدَهُ أُولَئِكَ اللّئِيمَاتِ وَصَارَ الرَّجُلُ لا يَقْدِرُ على مَنْعِهَا مِن الخُرُوجِ إلى الأسْوَاقِ وَلَا مِن الجُلُوسِ عِنْدَ التِّلْفِزْيُون وَالنَّظَرِ إلَيْهِ الّذِي حَطَّمَ الأخْلاقَ والعَقَائِدَ والأدْيَانَ وَقَتَلَ الغَيْرَةَ الدِّيْنِيَّةَ وَالمُرُوْءَةَ وسَبَّبَ الإنْحِلالَ والتَّمَيُّعَ فِي العائِلَاتِ وخَدَّرَ أعْصَابَ الأبَوَيْنِ وانْتَزَعَ السُّلْطَةَ مِنْهُمَا وَسَبَّبَ نُشُوْزَ الزَّوْجَةِ عَنْ زَوْجِهَا وَالزَّوْجَ عَنْ زَوْجَتِهِ وَدَلَّ النَّاسَ عَلَى طُرُقِ المَكْرِ والحِيَلِ وَالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ والعُدْوَانِ على النَّاسِ مَعَ ما فِيْهِ مِنْ احْتِقَارِ المُسْلِمِيْنَ وخُصُوصاً عُلَماؤَهُمْ وأبْطَالَهُمْ وَتَعْظِيْمَ الكَفَرَةِ والمُنَافِقِيْنَ وَالنَّظَرِ إلَى الأجْنَبِيَّاتِ ونَزْعِ الحَيَاءِ وَالعِفَّةِ وَالتَّشَبُّهِ بِأعْدَاءِ اللّهِ والسَّيْرِ في رِكَابِهِمْ وَضَيَاعِ الأوْقَاتِ فِيْمَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ المَضَارِّ الّتِي فِيْمَا أظُنُّ تَزِيْدُ عَلَى المائَتَيْنِ نَسْألُ اللّهَ العافيةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ إنَّهُ القَادِرُ على ذَلِكَ .

شعـراً :

أَلَا قِـفْ بِـدَارِ المُتْوفِين وَقُـلْ لَهُـمْ ... أَلَا أيْنَ أَرْبَـابُ المَـدَائِنِ والقُـرَى
وأيـنَ المُـلُوكُ النَّـاعِمُـونَ بِغْبطَـةٍ ... وَمَنْ عَانَقَ البِيْضَ الرَّعَابِيْبَ كالدُّمَى
فَلَوْ نَطَـقَتْ دَارٌ لقَالَتْ دِيَـارُهُـم ... لَكَ الخَـيْرُ صَـارُوْا لِلتُّرَابِ ولِلْبلَى
وأفْنَـاهُـم كَـرُّ النَّهَـارِ ولَيْـلُهُ ... فَلم يَبْقَ لِلأَيَّـامِ كَهْـلٌ ولا فَتَـى

آخــر :

بِضَـاعَةُ العُمُـرِ المَاضِي يَفُـوزُ بِهَا   مَنْ يَقْطَعُ الدَّهْرَ فِي عَزْمٍ وَتَشْمِيْرِ
يَا نَفْسُ ضَيَّعْتِ رأْسَ المالِ فِي غَلَطٍ   فَمَـرَّ عُمْـرُكِ فـي سَهْـوٍ وَتَبْذِيْرِ
يا ضَيْعَتَ العُمْرِ مَاضٍ مَاانْتَفَعْتُ بِهِ   ولا حَصَـلْتُ عَلَى البَـاقِيْ بِتَدْبِيْرِ

آخــر :

ولا تُرْجِ فِعْـلَ الصـالحاتٍ إلى غَدَ   لعـل غـداً يـأتـي وأنـت فَقِيْـدُ

آخــر :

ولـو أَنَّ عَيْنـاً سَـاعَدتْ لَتوكَّفَـتْ   سَـحَائِبُهَا بالدَّمْـعِ دِيْمـاً وَهُطَّـلا
وَلَكِنَّهَا مِن قَسْـوَةِ القَلْـبِ أَقْحَطَتْ   فَيَا ضَيْعَتَ الأَعْمَـارِ تَمْشِيْ سَبَهْلَلا

آخــر :

فَيَا أَسَـفَا يَا حَسْـرَتَا يَـا مُصَـيْبَتَا   وَيَـا ضَيْعَـةِ الأَعْمَـارِ عِنْـدَ المَنَـاكِـرِ

اللّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوْبَنَا بِنُوْرِ الإِيمانِ واحْمِاْ مِنَ الفِتَنِ والطُّغْيَانِ وآتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَـةً وفِي الآخِـرة حَسَنَـةً وَقِنا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

(فَصْــــلٌ)

اعْلَمْ وفّقْنا الله وإِيَّاكَ وَجَمِيعَ المُسْلِمِينَ لِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيُرْضَاهُ أَنَّهُ يَلْزَمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِن الزَّوْجَينِ مُعَاشَرَةَ الآخَرِ بالمَعْرُوْفِ مِن الصُّحْبَةِ الجَمِيْلَةِ ، وكَفِّ

الأذى ، وأنْ لاَ يَمْطُلُهُ بِحَقِّهِ ، مَعَ قُدْرَتِهِ ، وَلاَ يُظْهِرُ الكَرَاهَةَ لِبَذْلِهِ ، بَلْ بِبِشْرٍ وطَلاَقةٍ ، وَطِيْبِ نَفْسٍ ، ولا يُتْبِعُهُ مِنَّةً ، ولا أذى ، لأَنَّ هَذَا مِنَ المَعْرُوْفِ المأمُوْرِ بِهِ .

لِقَوْلِهِ تَعَالى « وَعَاشِرُوْهُنَّ بِالمَعْرُوْفِ » وقولُهُ « وَلَهُنَّ مِثلُ الّذِي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوْف » قَالَ ابن عَبّاس إِنّي لأُحِبُّ انْ أتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أن تَتَزَيَّنَ لِي ، لأنَّ اللّهَ تَعَالى يَقُولُ « ولَهُنَّ مثلُ الّذِي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوْفِ » .

وَحَقُّ الزَّوْجِ عَلَى المَرْأةِ أَعْظَمُ مِنْ حَقِّهَا عَلَيْهِ ، لِقَوْلِـهِ تَعَالى « ولِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

ولِقَوْلِهِ ﷺ لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ ، لِمَا جَعَلَ اللّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الحَقِّ رواه أبُو داود .

وَقَالَ إِذَا بَاتَت المَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا . لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ ، متفق عليه .

وفِي الصَّحيحين أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ .

وفِي لَفْظٍ فَبَاتَ وَهُوَ عَلَيْهَا غَضْبَانُ ، لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حتّى تُصْبِحَ ، وَلَفْظُ الصَّحِيْحَيْنِ أيْضاً إذا بَاتَتْ المَرْأةُ هاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ إلاّ كَانَ الّذِي فِي السَّماءِ سَاخِطاً عَلَيْهَا ، حَتّى يَرْضَى عَنْهَا زَوْجَهَا .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ ثَلاَثَةٌ لا يَقْبَلُ اللّهُ لَهُمْ صَلاَةً ولا تُرْفَعُ لَهُمْ إلى السَّمَاءِ حَسَنَةٌ العَبْدُ الآبِقُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَوَالِيْهِ فَيَضَعَ يَدَهُ فِي أَيْدِيْهِمْ وَالمَرْأةُ السَّاخِطُ عَلَيْهَا زَوْجُهَا حَتّى يَرْضَى عَنْهَا ، والسَّكْرَانُ حَتَّى

يَصْحُوْا .

وَقالَ ﷺ لا تُؤْذِيْ إمْرَأَةٌ زَوْجَهَا إلاّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الحُوْرِ العَيْن لا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكَ اللّهُ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَك دَخِيْلٌ يُوْشِكُ أَنْ يُفَارِقكَ رواهُ ابْنُ ماجة والتّرمذي وقال حديثٌ حَسَن .

وَعنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أيُّ النَّاسِ أَعْظَمُ حَقّاً عَلَى المَرْأَةِ قَالَ زَوْجُهَا قُلْتُ فَأَيُّ النّاسِ أعْظَمُ حَقّاً عَلَى الرَّجُلِ قَالَ أُمُّهُ رَواهُ البزّار والحَاكم .

وعن الحَسَن قال حَدَّثَنِيْ من سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ ، أَوَّلُ ما تُسْأَلُ عنهُ المَرْأَةُ يَوْمَ القِيَامةِ ، عَنْ صَلاتِهَا وعن بَعْلِهَا .

وعن ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَمَ أَتَت رَسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ يَا رَسولَ اللهِ أَخْبِرْنِيْ مَا حَقُّ الزَّوْجِ على الزوجة ، فإِنّيْ امْرَأَةٌ أَيِّمٌ فإنْ اسْتَطَعْتُ والا جَلَسْتُ أيِّماً قَالَ إنَّ حَقَّ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ إنْ سَأَلَها نَفْسَهَا وهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ أنْ لا تَمْنَعَهُ نَفْسَها .

ومِنْ حُقُوقِ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ أَنْ لَا تَصُوْمَ تَطَوُّعاً إلا بإذْنِهِ ، فإن فَعَلَتْ جَاعَتْ وعَطِشَتْ ولا يُقْبَل مِنها ، ولا تَخْرُجْ مِن بَيْتِهَا إلَّا بإِذْنِهِ ، فان فَعَلَتْ لَعَنَتْهَا مَلاَئِكَةُ السَماءِ ومَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، ومَلائكَةُ العَذَابِ ، حَتَّى تَرْجِعَ ، قالَتْ لا جَرَمَ ولاَ أَتَزَوَّجُ أَبَداً رواه الطبراني .

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ حَقِّ الزَّوْجِ ، مَا رَواه البزّار عنْ ابن عبّاس رضِيَ اللّهُ عَنْهُما قَال وَجَاءَتْ امْرَأَةٌ إلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فقالَتْ يَا رَسُوْلَ اللّهِ أنَا وَافِدَةُ

النِّسَاءِ إِلَيْكَ ، هَذَا الجِهَادُ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى الرِّجَالِ ، فَإِنْ أُصِيبُوا أُجِرُوا ، وإِنْ قُتِلُوا كَانُوا أَحْيَاءً عِنْدَ اللَّهِ يُرْزَقُونَ .

ونَحْنُ مَعْشَرَ النِّسَاءِ ، نقُوْمُ عَلَيْهِم فَمَا لَنَا مِن ذَلِكَ ، قال فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَلِّغِيْ مَن لَقِيْتِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ طَاعَةَ الزَّوْجِ واعْتِرَافاً بِحَقِّهِ يَعْدِلُ ذلِكَ وقَلِيْلٌ مِنْكُنَّ مَن يَفْعَلُه .

ومِمَّا يَدُلُ على عِظَمِ حَقِّ الزَّوْجِ ، حَديثُ أَبِي سَعِيْدٍ رَضِيَ الله عَنه قالَ أَتَى رَجُلٌ بِابْنَتِهِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ إِنَّ ابْنَتِيْ هَذِه أَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ فقال لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَطِيْعِيْ أَبَاكِ فَقَالَتْ والذِي بَعَثَكَ لَا أَتَزَوَّجُ حَتَّى تُخْبِرَنِي مَا حَقُّ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ قالَ حَقُ الزَّوْجِ على زَوْجَتِه لَوْ كانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ فَلَحَسَتْهَا ، أَوْ تَنَثَّرَ مَنْخِرَاهُ صَدِيْداً ودَماً ثُمَّ ابْتَلَعَتْهُ ، ما أَدَتْ حَقَّهُ ، قالَتْ والذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أَتَزَوَّجُ أَبَداً ، فقال النبيُ ﷺ لا تُنْكِحُوْهُنَّ إلاَّ بإِذْنِهِنَّ رواه البزار وابن حبان في صحيحه .

وقالَتْ عَمَّةُ حُصَيْن بنِ مِحْصَنٍ وَذَكَرَتْ زَوْجَهَا لِلنَّبِي ﷺ فقالَ انْظُرِيْ مِن أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ ، فإِنَّهُ جَنَّتُكِ ونَارُكِ أخرجه النِسائي .

وقَالَتْ عَائِشَةُ رَضيَ الله عَنْهَا يَا مَعْشَرَ النِسَاءِ لَوْ تَعْلَمْنَ بِحَقِ أَزْوَاجِكِنَّ عَلَيْكُنَّ لَجَعَلْتِ المَرْأة مِنْكُنَّ تَمْسَحُ الغُبَارَ عن قَدَمَيْ زَوْجِهَا بِخَدِ وَجْهِهَا .

وقالﷺ نِسَاؤُكُمْ مِن أَهْلِ الجَنَّةِ الوَدُوْدُ التي إذَا أُوْذِيَتْ أَوْ آذَتْ أَتَتْ زَوْجَهَا حتى تَضَعَ يَدَهَا في كَفِّهِ فَتَقُولُ لا أَذُوْقُ غَمْضاً حَتَّى تَرْضَى .

وعن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما قالَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يَنْظُرُ الله إلى امْرَأةٍ لا تَشْكُرُ زَوْجَهَا وهِيَ لا تَسْتَغْنِيْ عَنْهُ .

وجاءَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ إذَا خَرَجَتِ المَرْأَةُ مِن بَيْتِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ أَوْ تَتُوبَ .

وعن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ المَرْأَةُ لا تُؤْدي حَقَّ زَوْجِهَا كُلَّهُ ولَوْ سَألَهَا وهِيَ على ظَهْرِ قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ نَفْسَهَا رواه الطِبراني باسناد جيد .

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اثْنَانِ لا تُجَاوِزُ صَلاَتُهُمَا رُؤُسَهُمَا عَبْدٌ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ حَتَّى يَرْجِعَ وَامْرَأَةٌ عَصَتْ زَوْجَها حَتَّى تَرْجِعَ .

وعنه رضي الله عنه قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إنَّ المَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِن بَيْتِهَا وَزَوْجُهَا كارِهٌ لَعَنَهَا كُلُّ مَلَكٍ في السَّمَاءِ وكُلُّ شَيْءٍ مَرَّتْ عَلَيْهِ ، غَيْرَ الجِنِ والإِنسِ ، حَتَّى تَرْجِعَ رواه الطبراني في الأوسط .

وعن طَلْقِ بنِ عَليٍّ رضي اللهُ عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وإنْ كانَتْ على التَّنُّوْرِ رواه الترمذيُ وقال حديث حسن والنسائيُ وابنُ حبان في صحيحه .

وعن ابنِ أَبِي أَوْفَى رضي اللهُ عنه قَالَ لَمَّا قَدِمَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ مِن الشامِ سَجَدَ لِلنَّبِي ﷺ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ما هَذَا قال يا رسولَ اللهِ قَدِمْتُ الشَّامِ فَوَجَدْتُهُم يَسْجُدُوْنَ لِبَطَارِقَتِهِمْ وأَسَاقِفَتِهِمْ فأرَدْتُ أنْ أَفْعَلَ ذلكَ بِكَ .

قَالَ فَلاَ تَفْعَلَ فإِنِّيَ لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أنْ يَسْجُدَ لِإحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا والذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لاَ تُؤَدِيْ المَرْأَةُ حَقَّ رَبِهَا حَتَّى تُؤَدِيْ حَقَّ زَوْجِهَا رواه ابن ماجه وابنِ حبان في صحيحه .

وقال صَلى اللهُ عليه وسلم لَوْ أَمَرْتُ أحَداً أنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ

المَرْأَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزُوْجِهَا مِن عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا ولا تَجِدُ حَلَاوَةِ الإيمانِ حَتَّى تُؤَدِيْ حَقَّ زَوْجِهَا ولو سَألها نَفْسَهَا وهيَ على ظَهْرِ قَتَبٍ .

وقال ﷺ لا يَحِلُ لِامْرَأةٍ تُؤْمِنُ باللهِ أنْ تأْذَنَ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهُوَ كَارِهٌ ولَا تَخْرُجْ وَهُوَ كارِهٌ ولا تُطِيْعُ فِيهِ أَحَداً ولا تَعْزِلْ فِراشَهُ ولا تَضْرِبْهُ فإن كَانَ هُوَ أظْلَم فَلْتَأتِهِ حَتَّى تُرْضِيْهِ فإن قَبِلَ مِنْهَا فَبِهَا ونِعْمَتْ وقَبِلَ اللهُ عُذْرَهَا وأفْلَحَ حُجَّتَها وَلَا إثمَ عَلَيْهَا وإن هُوَ لم يَرْضَ فَقَدْ أَبْلَغتْ عِندَ اللهِ عُذْرَهَا رواه الحاكم وقالَ صحيح الاسناد .

اللّهُمّ أرْزِقْنا حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وحُبَّ العَمَلِ الّذِي يُقَرِّبُنَا إلى حُبِّكَ اللّهُمَّ افْتَحْ لِدُعَائِنَا بابَ القَبُولِ والإجَابَة وألهِمْنَا ذِكرَكَ وشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لامْتِثَالِ أمْركَ وآتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنةً وَقِنَا عَذابَ النّارِ واغْفِرْ لَنا وَلِوَالِديْنا وجميعِ المُسْلِمِيْنَ بِرحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْن .

(فصــل)

إذَا عُلِمَ مَا سَبَقَ فَالواجِبُ عَلَى المَرْأةِ أنْ تَطْلُبَ رِضَا زَوْجِهَا وَتَجْتَنِب سُخْطَهُ ولا تَمْتَنِعْ مِنْهُ مَتَى أرَادَهَا وَهِيَ طَاهِرَةٌ ويَنْبَغِيْ أن تُقَدِّرْ كأنَّهَا كَمَمْلُوكَةٍ لِلزَّوْجِ فَلا تَتَصَرَّفْ فِي نَفْسِهَا وَلَا فِي مَالِهِ إلّا بِإذْنِهِ .

وتُقَدِّم حَقَّهُ عَلَى حَقِّهَا وَحُقُوْقَ أقَارِبِهِ عَلَى حُقُوْقِ أقَارِبِهَا وَتَكُونُ مُسْتَعِدَّةً لِتَمَتُّعِهِ بِهَا بِجَمِيْعِ أسْبَابِ النَّظَافَةِ وَلَا تَفْتَخِرُ عَلَيْهِ وَلَا تَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ بِرَفْعِ صَوْتِهَا كَمَا تَفْعَلَهُ ضَعِيفَاتِ الدّيْنِ سَخِيْفَاتِ العُقُولِ المُلْسِنَاتِ الفَاهِرَاتِ اللَّاتي يَحْمِلُ أزْوَاجُهُنَّ هَماً عَظِيْماً إذا أرَادَ دُخُولَ بَيْتِهِ خَوْفاً مِنْ شُرُوْرِهِنَّ وألْسِنَتِهِنَّ وما أكثرهن في الزمن.

ويَجِبُ عَلَيْهَا أَيْضاً دَوَامُ الحَيَاءِ مِنْ زَوْجِهَا وَغَضُّ طَرْفِهَا قُدَّامِهِ وَلاَ تَفْعَلُ قُدَّامَهُ مَا يُكرِّهُهَا عِنْدَهُ وَلا تُسْمِعْهُ مَا يُنَغِصُّ علَيْهِ عَيْشَهُ وَيُكَدِّرُ خَاطِرَهُ وَتُطِيْعُهُ إذَا أَمَرَهَا فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللّهِ .

وتَسْكُتُ عِنْدَ كَلاَمِهِ وَلاَ تُنَازِعُهُ القَوْلَ ولا تَتَدَخَّلُ فِيْمَا لاَ يَعْنِيْهَا لِئَلاَّ يَحْصُلُ فِرَاقٌ وتَبْتَعِدُ عنْ كُلِّ ما يُسْخِطُهُ وتَقُومُ مَعَهُ عِنْدَ خُرُوْجِهِ .

وتَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ عِنْدَ النَّوْمِ وتَتَجَنَّبُ خِيَانَتَهُ في غَيْبَتِهِ وفي حُضُورِهِ في فِرَاشِهِ ومالِهِ وبَيْتِهِ وتُطَيِّبُ رَائِحَتَهَا .

وتَتَعَاهَدُ فَمَهَا بالسِّوَاكِ وبِالمِسْكِ والطِّيْبِ ودَوَامِ الزِّيْنَةِ بِحَضْرَتِهِ وتَتْرُكُهَا في غَيْبَتِهِ وتَحْرِصُ عَلَى كُلِّ ما يُسَلِّكُهَا عِنْدَهُ وتُكْرِمُ أهْلَهُ وأَقَارِبَهُ وتَرَى القَلِيْلَ مِنْهُمْ كَثِيْراً وَهَذا إذَا كَانَ مُسْتَقِيماً في أعْمَالِهِ وأخْلاَقِهِ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ يُخَاطِبُ زَوْجَتَهُ :

خُذِيْ العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيْمِيْ مَوَدَّتي
وَلاَ تَنْطِقِي في سَوْرَتِي حِيْنَ أَغْضَبُ
فإِنِّيْ رَأَيْتُ الحُبَّ في الصَّدْرِ والأذَى
إِذَا اجْتَمَعَا لَم يَلْبَثِ الحُبُّ يَذْهَبُ

وَمِنْ حُقُوقِ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ أَنْ لاَ تَأْلُو جُهْداً فِيْمَا يُحَبِّبُهَا إِلَيْهِ ، قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ خَارِجَةَ الفَزَارِي لابْنَتِهَا عِنْدَ الزِّفَافِ يا بُنَيَّة إِنَّكَ خَرَجْتِ مِن العِشِّ الّذي دُرَجَتِ فِيْهِ فَصِرْتِ إلى فِرَاشٍ لَمْ تَعْرِفِيْهِ وَقَرِيْنٍ لَمْ تَأْلَفِيْهِ .

فَكُونِي لَهُ أَرْضاً يَكُنْ لَكَ سَمَاءً وكُوْنِي لَهُ مِهَاداً يَكُنْ لَكِ عِمَاداً وكُونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْداً لاَ تُلْحِفِي فَيقْلاكِ « المَعْنَى لاَ تُلِحِّي عَلَيْهِ فَيُبْغِضَكِ » ولا

تَبَاعَدِي عَنْهُ فَيَنْسَاكِ إنْ دَنَا مِنْكِ فاقْرَبي مِنْهُ واحْفَظِي أنْفَهُ وسَمْعَهُ وَعَيْنَهُ فَلاَ يَشُمُّ مِنْكَ إلا طِيْباً وَلاَ يَسْمَعُ إلاّ حَسَناً ولا يَنْظُرُ إلاّ جَمِيْلاً .

وهَكَذَا تَكُونُ المَرْأَةُ المُؤَدَّبَةُ النَّاجِحَةُ فِي امْتِلاَكِ قَلْبِ زَوْجِها لاَ كَالَّتِي إذ أَتَتْ لِزَوْجِهَا اسْتَقْبَلَتْهُ بِثِيابِ المَطْبَخِ والمَلاَبِسِ الوَسِخَةِ شَهْبَاءَ الوَجْهِ غَبْرَاءَ الجِلْدِ شَعْثَاءَ الشَّعَرِ طَوِيْلَةُ اللّسانِ جَاحِدَةُ الإِحْسانِ كأنَّ زَوْجَهَا عِنْدَهَا خَادِمٌ حَقِيْرٌ مُضْطَرٌّ إلَيْهَا لاَ تُقِيْمُ لَهُ وَزْناً وَلاَ تُبَالي فِيْهِ وَلاَ تَهْتَمُّ مِنْهُ .

ومِنْ حُقُوقِ زَوْجِهَا عَلَيْهَا أَنْ تَتْرُكْ لَهُ وَقْتاً يَتَفَرَّغُ فِيْهِ لِنَفْسِهِ ولِفِكْرِهِ فَإِنْ كَانَ عَابِداً تَرَكَتْ لَهُ وَقْتاً تَطْمَئِنُّ فِيهِ نَفْسُهُ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ وَحُضُوْرٍ وقَلْبٍ وَإِنْ كَانَ عَالِماً تَرَكَتْ لَهُ وَقْتاً يُطَالِعُ فِيْهِ وَيَقْرأ الكُتُبِ أَوْ يُؤَلِّفُ أَوْ يُفَكِّرُ .

فاللَّذَّةُ الّتِي يَجِدُها العَالِمُ فِي قِراءَتِهِ والعَابِدُ فِي خَلْوَتِهِ لا تَعْدِلُهَا لذَّةٌ في الحَيَاةِ قال بعضُ العُلَمَاءِ « لَوْ عَلِمَ المُلُوكُ وأبْنَاءُ المُلُوكِ ما نَحْنُ فِيهِ لَجَالدُوْنَ عليْهِ بِالسُّيُوفِ » وَقَدْ لا تَشْعُرُ المَرْأَةُ بِهَذِهِ اللَّذَّةِ فَلاَ تَفْهَمُ لَهَا مَعْنَى وَقَدْ تَتَأَلَّمُ مِنْهَا عَلَى مَعْنَى الكُرْهِ والبُعْدِ عَنْهَا وَهِيَ في ذَلِكَ مُتَجَنِّيَةٌ على زَوْجِهَا وَنَفْسِهَا ورُبَّمَا جَنَتْ عَلَى نَفْسِهَا .

اللّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ وعَمَلَنا مِن الرِّيَاءِ وألسُنَنَا مِن الكَذِبِ وأعْيُنَنا مِن الخِيَانَةِ اللّهُمّ إنّنا نَسْألُكَ إيْمَاناً يُبَاشِرُ قُلُوبَنَا ويَقِيناً صَادِقاً حتّى نَعْلَمَ أنّهُ لا يُصِيْبُنَا إلاّ مَا كَتَبْتَ لَنَا واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنا وجَمِيعِ المُسْلِمِين بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وصَلّى اللّهُ على مُحَمّد وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصــل)

وَإِذَا كَانَتِ المَرْأَةُ مَأْمُوْرَةً بطاعَةِ زَوْجِهَا وَبِطَلَبِ رِضَاهُ فَالزَّوْجُ أيْضاً مأمُوْرٌ

بالإحْسانِ إلَيْهَا وَاللُّطفِ بِهَا وَالصَّبْرِ عَلَى ما يَبْدُوْ مِنْهَا مِن سُوْءِ خُلُقٍ وغَيْرِهِ وإيْصَالِهَا حَقَّهَا مِنَ النَّفَقَةِ .

والكِسْوَةِ والعِشْرَةِ الجَمِيْلَةِ لقولِهِ تعالى ﴿وعاشِرُوْهُنَّ بِالمَعْرُوْفِ﴾ .

ولِقَوْلِهِ ﷺ ألاَ وَاسْتَوْصُوْا بالنِّسَاءِ خَيْرَاً فَإنَّما هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ إلاَّ أنْ يَأتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإنْ فَعَلْنَ فاهْجُرُوْهُنَّ فِي المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ (أيْ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ) فَإنْ أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوْا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلاَ .

ألاَ إنَّ لَكُمْ على نِسَائِكُمْ حَقّاً وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَن تَكْرَهُوْنَ ولاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوْتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُوْنَ ألاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ انْ تُحْسِنُوا إلَيْهِنَّ في كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ .

وَقَال ﷺ خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأهْلِي مَا أكْرَمَ النِّسَاءَ إلاَّ كَرِيْمٌ وَلاَ أهَانَهُنَّ إلاَّ لَئِيْمٌ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أكْمَلُ المُؤْمِنِيْنَ إيْمَاناً أحْسَنُهُمْ خُلُقاً وخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ .

وعَنْ عَائِشَةُ رضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إنَّ مِن أكْمَلِ المُؤْمِنِينَ إيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وألْطَفُهُمْ بأهْلِهِ .

وَقَالَ ﷺ إنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ فَإنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا رَواهُ ابْنُ حَبّان في صَحِيحه .

وَفِي الصَّحِيحينْ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ اسْتَوْصُوْا بِالنِّسَاءِ فَإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ وَإنَّ أعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أعْلاَهُ فَإنْ ذَهَبَتْ تُقِيْمَهُ كَسَرْتَهُ وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ فَاسْتَوْصُوْا بِالنِّسَاءِ وَفي رواية

لمسلم إنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيْقَةٍ فَإن اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيْهَا عِوَجٌ وإنْ ذَهَبْتَ تُقِيْمَهَا كَسَرْتَهَا وَكسْرُهَا طَلاَقُهَا .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رسُولُ اللّه ﷺ لا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ رَواه مُسْلم .

فَفِيْ هَذَا الحَدِيْثِ ارْشَادٌ مِنْهُ ﷺ لِلزَّوْجِ فِي مُعَاشَرَةِ زَوْجَتِهِ وَهَذا الارْشَادُ مِن أَكْبَرِ الأَسْبَابِ والدَّوَاعِيْ إلى حُسْنِ العِشْرَةِ واسْتِدَامَتِها فَقَدْ نَهى ﷺ عَنْ سُوءِ العِشْرَةِ .

وَمَفْهُوْمُ الحَدِيثِ الحَثُّ على حُسْنِ العِشْرَةِ وأَمْرِهِ ﷺ الزَّوْجَ أَنْ يَنْظُرَ إلَى المَحَاسِنِ والمَسَاوِيءِ وَيَجْعَلَ مَا كَرِهَ فِي مُقَابَلَةِ مَا رَضِيَ مِنْهَا فَإنَّهُ إذَا تَأَمَّلَ بانْصَافِ الأَخْلاَقَ الجَمِيْلَةَ والأخلاقَ الَّتِي يَكْرَهُهَا تَبَيَّنَ لَهُ فِي الغَالِبِ أَنَّهَا أَقَلُّ مِنَ الأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ بِكَثِيْرٍ .

فَإذَا كَانَ صَاحِبَ انْصَافٍ وَعَدْلٍ وَرَأَى رُجْحَانَ المَحَاسِنِ على المَسَاوِيْ غَضَّ عَنِ المَسَاوِيْ طَرْفَهُ لاضْمِحْلاَلِهَا في المَحَاسِنِ .

وَاسْمَعْ مَا يَلِيْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْن عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَشْكُوْ زَوْجَتَهُ مِنْ جِهَةِ سُوْءِ خُلُقِهَا مَعَهُ فَوَقَفَ بِبَابِ عُمَرَ يَنْتَظِرُ خُرُوْجَهُ فَسَمِعَ امْرَأَةَ عُمَرَ تَسْتَطِيْلُ عَلَيْهِ بِلِسَانِهَا وتُخَاصِمُهُ وعُمَرُ سَاكِتٌ لا يَرُدُّ عَلَيْهَا فَقَنِعَ الرَّجُلُ وَانْصَرَفَ رَاجِعاً قَائِلاً فِي نَفْسِهِ إذا كَانَ هَذَا حَالُ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مَعَ شِدَّتِهِ وَصَلاَبَتِهِ وَحَزْمِهِ فَكَيْفَ حَالِيْ أَنَا مَعَ ضَعْفِيْ فَخَرَجَ عُمَرُ قَبْلَ أَنْ يُبْعِدَ الرَّجُلُ فَرَأَى الرَّجُلَ مُدْبِراً مُوَلِياً عَن بَابِهِ .

فَنَادَاهُ عُمَرُ وقَالَ لَهُ مَا حَاجَتُكَ يَا رَجُلُ فَقَالَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ جِئْتُ أَشْكُوْ

إِلَيْكَ سُوْءَ خُلُقِ زَوْجَتِيْ واسْتِطَالَتُهَا عَلَيَّ فَلَمَّا سَمِعْتُ زَوْجَتَكَ كَذلِكَ رَجَعْتُ وقُلْتُ إِذَا كَانَ هَذَا حَالُ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مَعَ زَوْجَتِهِ فَكَيْفَ حَالِي .

فَقَالَ عُمَرُ يَا أَخِيْ إِنِّي احْتَمِلُهَا لِحُقُوْقٍ لَهَا عَلَيَّ إِنَّهَا طَبَّاخَةٌ لِطَعَامِي خَبَّازَةٌ لِخُبْزِيْ غَسَّالَةٌ لِثِيَابِي مُرْضِعَةٌ لِوَلَدِيْ وَلَيْس ذَلِكَ كُلُّهُ بِوَاجِبٍ عَلَيْهَا وَيَسْكُنُ بِهَا قَلْبِيْ عَنِ الحَرَامِ فَأَنَا أَحْتَمِلُهَا لِذَلِكَ فَقَالَ الرَّجُلُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ وكَذَلِكَ زَوْجَتِيْ .

قَالَ عُمَرُ فَاحْتَمِلْهَا يَا أَخِيْ فَإِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ يَسِيْرَةٌ ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الانْصَافِ لأَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ فَإِنَّهُ لاَحَظَ الأَخْلاَقَ الجَمِيْلَةَ وَالمَحَاسِنَ وَغَضَّ عَنْ المَسَاوِيْ بالكُلِّيَّةِ وَتَنَاسَاهَا .

ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ أَثَّرَتْ سِيْرَتُهُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ لِيَشْكُوْ امْرَأَتَهُ وَرَجَعَ قَانِعاً رَاضِياً .وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ

(فصــــل)

وَمِنْ حُقُوْقِ الزَّوْجَةِ عَلَى زَوْجِهَا أَنْ يَغَارَ عَلَيْهَا فَلاَ يُعَرِّضْهَا لِلشُّبْهَةِ وَلاَ يَتَسَاهَلُ مَعَهَا فِي مَا يُؤْذِي الشَّرَفَ وَالمُروْءَةَ ولا يُعَرِّضُهَا لأَلْسِنَةِ السُّوْءِ والتَّسَاهُلُ في هَذَا قَبِيْحٌ يُعَدُّ مِنْ سَفْسَافِ الأَخْلاقِ لِما يَجُرُّهُ مِن الشَّقَاءِ لَهَا ولِلأُسْرَةِ وَلِزَوْجِهَا .

وَمَا زَالَ النَّاسُ تَتَأَثَّرُ سُمْعَتُهُمْ وَكَرَامَتُهُمْ بِسُلُوكِ الزَّوْجَاتِ فَمَنْ أَغْضَى عَنْ زَوْجَتِهِ وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَوْ أَغْضَى عَن بَنَاتِهِ أَوْ أَخَوَاتِهِ أَوْ أَيِّ أُنْثَى مِن قَرَابَاتِهِ فَقَدْ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنْ زُمْرَةِ الرِّجَالِ الَّذِيْنَ لَهُمْ حُرْمَةٌ وَشَرَفٌ فِي النُّفُوسِ وَمَنزِلَةٌ عِنْدَ اللّهِ عَلَى أَنَّهَا إِذَا رَأَتْ مِنْهُ تَسَامُحاً رُبَّمَا ازْدَادَتْ تَوَسُّعاً فِيْمَا هَمَّتْ بِهِ أَوْ دَخَلَتْ فِيْهِ .

فَالمَرْأَةُ شَدِيْدَةُ التَّأَثُّرِ بِسُلُوكِ زَوْجِهَا الدِّيْنِي فَإِنْ رَأَتْ مِنْهُ حِرْصاً على التَّسَتُّرِ والعِفَّةِ والنَّزَاهَةِ وَالعِبَادَةِ أَقْتَدَتْ بِهِ وَبَادَرَتْ إِلى ذَلِكَ اسْتِجَابَةً لِعَاطِفَتِهِ وارْضَاءً لِزَوْجِهَا وَإِنْ رَأَتْ مِنْهُ تَشْجِيْعاً عَلى الإِهْمَالِ والانْفِلاَتِ مِن أَحْكَامِ الدِّيْنِ وآدَبِ الأُسْرَةِ لَمْ تَجِدْ بُدّاً آخِرَ الأَمْرِ مِنْ أنْ تَسْتَجِيْبَ لَهُ وَتَفْعَلَ مَا يُرْضِيْهِ .

هَذَا فِي الغَالِبِ وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ مَنْ تَبْتَعِدُ عَنْهُ إِذَا رَأَتْهُ غَيْرَ مُسْتَقِيْمٍ وَكَمْ مِنْ زَوْجَاتٍ خَرَجْنَ مِنْ بُيُوْتِ آبَائِهِنَّ عَفِيْفَاتٍ قَانِتَاتٍ يَصُمْنَ أَيَّامَ البِيْضِ وَيَقُمْنَ لِصَلاَةِ اللَّيْلِ فَمَا مَكَثْنَ غَيْرَ زَمَنٍ يَسِيْرٍ حَتَّى انْحَرَفْنَ عَن ذَلِكَ كُلِّهِ بِتَأَثُّرِ الزَّوْجِ وانْحِرَافِهِ وَجَهْلِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ الفَاسِدَةِ وتَعْلِيْمِهِ لَهَا بِالقَوْلِ والفِعْلِ نَسْأَلُ اللّهُ العافِيَةَ .

وأَقَلُّ النَّاسِ إِيْمَاناً وتَوْفِيْقاً وأَبْعَدُهُمْ عَنِ الأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ مَنْ أَهْدَرَ المَحَاسِنَ كُلَّهَا وَلَوْ كانَتْ تَرْبُوْ بِكَثِيْرٍ عَلى المَسَاوِيْ .

وَجَعَلَ المَسَاوِيْ نَصْبَ عَيْنَيْهِ وَرُبَّمَا مَدَّدَهَا وَبَسَطَهَا وَطَوَّلَهَا وَأَلْحَقَ بِهَا غَيْرَهَا وَكَرَّرَهَا وأَعَادَهَا وَفَسَّرَهَا بِظُنُوْنِهِ السَّيِّئَةِ وَتَأْوِيْلاتِهِ الفَاسِدَةِ .

وَأَضَافَ إِلَيْهَا مِن الكَذِبِ والبَهْتِ مَا تَسْتَغِيْثُ مِنْهُ الفَضِيْلَةُ كَمَا هُوَ الوَاقِعُ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِن أَهْلِ هَذَا العَصْرِ المُظْلِمِ بالمَعَاصِي والفِتَنِ والمُنْكَرَاتِ والظُّلْمِ .

وَبَعضٌ يُلاَحِظُ المَحَاسِنَ وَالمَسَاوِيَ وَيُوَازِنُ بَيْنَهُمَا وَيُعَامِلُ الزَّوْجَةَ بِمَا يَرَى أَنّهُ مُقْتَضَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَهَذا مُنْصِفٌ ولَكِنْ الكَمَالُ في الحَالَةِ الأُوْلَى وَقَدْ حُرِمَهُ وَلَقدْ أَجَادَ القَائِلُ :

إذا قِيْسَ إِحْسَانَ امْرِىءٍ بِإِسَاءَةٍ
فَأَرْبَى عَلَيْهَا فَالإِسَاءَةُ تُغْفَرُ

وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ المَرْأَةِ المُطَاوِعَةِ لِزَوْجِهَا أَحادِيثُ كَثِيْرَةٌ نَذْكُرَ بَعْضَهَا إن شَاءَ اللّهُ مِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الجَنَّةَ رواهُ ابْنُ ماجة والتّرمذيّ وحسنه .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ إذَا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا وَحَصَّنَتْ فَرْجَهَا وأَطَاعَتْ بَعْلَهَا دَخَلَتْ مِنْ أيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شَاءَتْ رواه ابْن حبّان في صحيحه .

وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَسْتَغْفِرُ لِلْمَرْأَةِ المُطِيْعَة لِزَوْجِهَا الطَّيْرُ فِي الهَوَاءِ والحِيْتَانُ فِي المَاءِ وَالملائكةُ في السّماءِ والشّمْسُ والقمَرُ مَا دَامَتْ فِي رِضَا زَوْجِهَا .

وأَيُّمَا امْرَأَةٍ عَصَتْ زَوْجَهَا فَعَلَيْهَا لَعْنَةُ اللّهِ وَالمَلاَئِكَةِ والنّاسِ أَجْمَعِين وأَيُّمَا امْرَأَةٍ كَلَحَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا فَهِيَ فِي سَخَطِ اللّهِ إلى أنْ تُضَاحِكَهُ وتَسْتَرْضِيَهُ وأَيُّمَا امْرَأَةٍ خَرَجَتْ مِنْ دَارِها بِغَيْرِ إذْنِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتّى تَرْجِعَ .

تَنْبِيْه : المُرَادُ بِطَاعَةِ المَرْأَةِ لِزَوْجِهَا إِنَّمَا هِي في حُدُوْدِ الشَّرِيْعَةِ قَال ﷺ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخالِقِ فَلَوْ أَمَرَهَا زَوْجُهَا بِمَعْصِيَةٍ كاتْيَانِهَا فِي الدُّبُرِ أَوْ في المحيض فَلا يَجُوزُ لَهَا المُوافَقَةُ ويَحْرُمُ عَلَيْهَا ذَلِكَ .

وَكَذَا لَوْ أَمَرَهَا بِتَرْكِ صِيَامِ رَمَضَانَ أَوْ حَجّ البَيْتِ أوْ أمَرَهَا بِتَرْكِ الزَّكَاةِ فَلاَ

يَجُوزُ لَهَا طَاعَتُهُ وكَذَا لَوْ أَرَادَ جِمَاعَهَا وَهِيَ حَائِضٌ حَرُمَ عَلَيْهَا طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الأُمُوْرُ .

لِكُلِّ تَفَرُّقِ الدُّنْيَا اجْتِمَاعُ فَمَا بَعْدَ المَنُونِ مِن اجْتِمَاعِ
فِرَاقُ فاصِلٌ ونَوىً شَطُونٌ وشُغْلٌ لا يُلِبّثُ لِلْوَدَاعِ
وَكُلُّ أُخُوَّةٍ لابُدَّ يَوْماً وإنْ طَالَ الوِصَالُ إلَى انْقِطَاعِ
وَإنَّ مَتَاعَ ذِي الدُّنيا قَلِيْلٌ فَمَا يُجْدِي القَلِيْلُ مِنَ المَتَاعِ

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بنُورِ الايمَانِ وَثَبِّتْهَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتوفَّنا مُسْلِمِيْنَ وَالْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِيْنَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آله وَصَحْبِهِ

(فَصْــــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وَإيَّاكَ وَجَمِيعَ المُسْلِمين أنَّهُ يَقَعُ مَشَاكِلُ كَثِيْرَةٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تَحْتَاجُ لِلتَّنْبِيْهِ عَلَيْهَا لِتُجْتَب مِنْ أَسْبَابِ المَشَاكِلِ العَائِلِيَّةِ سُوْءُ خُلِقِ أحَدِ الزَّوْجَيْنِ وَكَوْنُهُ يَثُوْرُ لأدْنَى سَبَبٍ وَيَغْضَبُ لأقَلِّ كَلِمَةٍ وَلَوْ كَانَتْ خَارِجَةً سَهْواً فَكَمْ ثَارَتْ فِي البُيُوتِ مَشَاكِلُ مِن أسْبَابِ ضِيْقِ الصَّدْرِ وسُوْءِ الخُلُقِ .

وَكَمْ إنْهَارَتْ بُيُوْتٌ فَتَفَرَّقُوْا مِنْ أَجْلِ ضِيْقِ الصَّدْرِ والحُمُقِ مِن الزَّوْجِ أَوْ الزَّوْجَةِ والغَالِبُ أنَّ الزَّوْجَ أكْثَرُ تَجَنّياً مِن الزَّوْجَةِ فَالْمَرْأَةُ تَتَحَمَّلُ مِن الزَّوْجِ غَالِباً أَكْثَرَ مِمَّا يَتَحَمَّلُ زَوْجُهَا مِنْهَا لِغُرُوْرِهِ هَذَا فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ أمَّا الآنَ فَالنِّسَاءُ أكْثَرُهُنَّ عَلَى العَكْسِ لأنَّ المَرْأَةَ فِي زَمَنِنَا صَارَ لَهَا الكَلامُ وَسَيْطَرَتْ عَلَى الرِّجَالِ فِي الغَالِبِ بأسْبَابِ مُخَالَطَةِ الأجَانِبِ لأنَّهُمْ يَخْضَعُوْنَ لَهُنَّ وَيُقَدِّمُوْنَهُنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ يَخْرجُون عَنْ رأيِهِنَّ أبَدَا .

ومِنْ أسْبَابِ المَشَاكِلِ العَائِلِيَّةِ سوْءُ الظَّنِّ مِن أحدِهِمَا وَغَضَبِهِ قَبْلَ التَّذكُّرِ والتَّثَبُّتِ فَيَقَعُ النِّزَاعُ وَرُبَمَا حَصَلَ فِرَاقٌ ثُمَّ تَبَيَّنَ الأمْرُ خِلاَفَ الظَّنِّ .

ومِنْ أسْبَابِ المَشَاكِلِ العَائِلِيَّةِ تَدَخُّلُ الزَّوْجِ فِي الشُّئُونِ البَيْتِيَّةِ أكْثَرَ مِمَّا تَدْعُوْ الحَاجَةُ أوْ الضَّرُوْرَةُ إِلَيْهِ وَكَمْ مِن رَجُلٍ فَارِغٍ مِن العَمَلِ يَقِفُ مَعَ زَوْجَتِهِ فِي المَطْبَخِ وَيَعْتَرِضُ اعْتِرَاضَاتٍ تَافِهَةٍ واقْتِرَاحَاتٍ يُرِيْدُ بِهَا التَّحَدِّي والتَّعْجِيْزَ وَهَذَا تَضِيْقُ زَوْجَتُهُ بِفُضُوْلِهِ فَمَا تَلْبَثُ أنْ تَنْفَجِرُ وتَثُوْرُ وَيَقَعُ الخِصَامُ واللِّجَاجُ .

وَمِن أَسْبَابِ المَشَاكِلِ سُوْءُ فَهْمِ كُلٍّ مِن الزَّوْجَيْنِ لِطِبَاعِ الآخَرِ فَقَدْ يَكُونُ الزَّوْجُ حَادَّ المِزَاجِ شَدِيْدَ الإِحْسَاسِ يَتَأَثَّرُ لأَقلِّ الأَشْيَاءِ الّتي يَرَاهَا مُخَالِفَةً لِذَوْقِهِ فَلا تُرَاعِيْ زَوْجَتُهُ فِيْه هَذا فَمَثَلاً تَتْرُكُهُ وَهُوَ يُوَجِّهُ إِلَيْهَا الكَلاَمَ وَتَمْزَحُ وَالمَقَامُ يَقْتَضِيْ الجِدَّ وَتَضْحَكُ وَهُوَ غَضْبَانٌ وَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ .

فَتُقَابِلُهُ بِعِشْرِيْنَ كَلِمَةً فَقَلَّ أَنْ تَطُولَ المُدَّةُ قَبْلَ الانْفِجَارِ وَقَدْ يُجْبِرُهَا عَلَى مَا تَكْرَهُ لُبْسَهُ أَوْ يُسْكِنُهَا بِمَا لا يَصْلَحُ لِمِثْلِهَا فَمَا تَلْبَثُ الزَّوْجَةُ أَنْ تُحسَّ بِضِيْقِ الصَّدْرِ والانْقِبَاضِ ثُمَّ يَنْقَلِبُ الانْقِبَاضُ إلى تَبَرُّمٍ ثُمَّ يُؤَدِيْ إِلَى الشِّقَاقِ لأقلِّ سَبَبٍ وربما أمرها والعياذ بالله بقص رأسها أو على أن تحضر عند الملاهي.

وَمِنْ الأَسْبَابِ التَّدَخُلُ فِيْمَا لا يَعْنِي إِمَّا مِنْهَا أَوْ مِنْهُ وأَكْثَرُ المَشَاكِلِ تَقَعُ مِنْ هَذَا السَّبَبِ ولِهَذا في الحَدِيثِ مِن حُسْنِ اسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْه .

وَمِنَ الأَسْبَابِ مَيَلاَنُ أحَدِهِمَا إلى أَحَدِ الأوْلاَدِ وَتَخْصِيْصُهُ بالمالِ أَوِ الحُنُوِ والشَّفَقَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

ومِنَ الأَسْبَابِ عَدَمُ رِضَا أَحَدِهِمَا بالآخَرِ رِضىً صَحِيْح وَقُبُوْلٍ وانْقِيَادٍ عِنْدَ عَقْدِ النِّكَاحِ بَلْ إِكْرَاهٍ أَوْ مُجَامَلَةٍ فَهَذا لاَ يَلْبَثُ إلا زَمَنٌ يَسِيْرٌ ثُمَّ يَقَعُ الخِصَامُ والفِرَاقُ والدَّعَاوِيْ والمُطَالَبَاتُ .

ومِنَ الأَسْبَابِ تَدَخُّلُ أَحَدِ الأَبَوَيْنِ بَيْنَ الزَّوْجِ والزَّوْجَةِ فَتَقَعُ المَشَاكِلُ

بَيْنَهُمَا وَيَطُولُ النِّزَاعَ وَقَدْ تَقَعُ الفُرْقَةُ مِنْ ذَلِكَ السَّبَبِ .

وَمِنَ الأَسْبَابِ خُرُوجُ المَرْأَةِ مِن بَيْتِهَا مِن غَيْرِ إِذْن زَوْجِهَا وَقَدْ كَثُرَ هَذَا فِي زَمَنِنَا بِسَبَبِ مُخَالَطَةِ الأجانِبِ أَبْعَدَهُمُ اللهُ عَنَّا .

ومِنَ الأَسْبَابِ خُلُوُ الزَّوْجَةِ مَعَ أَقارِبِ الزَّوْجِ الّذيْن لَيْسُوْا مَحَارِمَ لَهَا وَلِهَذا قَالَ ﷺ الحَمُو المَوْتُ .

ومِنَ الأَسْبَابِ إِذَا كَانَ لَهُ زَوْجَتَانِ فَأَكْثَرُ مَيْلُهُ إِلى إِحْدَى الزَّوْجَاتِ فَتَجِدُ بَعْضَ مَنْ عِنْدَهُ أَكْثَرُ مِنْ زَوْجَةٍ يَحْرِصُ على أن يَجْعَلَ مَوَاعِيْدَ الدَّعْوَةِ لِطَعَامٍ أَوْ غَيْرِهِ في لَيْلَةِ الَّتِي يَكْرَهُهَا أَوْ أَقَلَّ مَحَبَّةً مِنَ الأُخْرَى وَيَأْتِي فِي لَيْلَةِ الْتي يُحِبُّهَا مِن حِيْنِ يُصَلِّي العِشَاءَ إن كَانَ مِمَّنْ يَشْهَدُوْن صَلاَةَ الجَمَاعَةِ ، وَبَعْضُهُمْ يأتِي رَاجِحَة المَحَبَّةِ في لَيْلةِ المَرْجُوْحَةِ بِغَيْرِ رِضَاهَا والعِيَاذُ بِاللّهِ .

وَأَمَّا العَادِلُ فَيَنْظُرُ إِلى السَّاعَةِ وَيَضَعُ قُرْعَةً لِلدَّعْوَةِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَتْ فِي لَيْلَتِهَا عَمِلَ بِذلِكَ ، هَذِهِ هِيَ مُعْظَمُ مَا يَحْصُلُ بِهِ المشاكِلُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فَيَنْبَغِي لِلإنْسَانِ أنْ يُلاحِظَهَا وَيَجْعَلَهَا على بَالِهِ دَائِماً لِيَتَجَنَّبَهَا وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ أكْمَلُ عَقْلاً مِنْهَا فَعَلَيْهِ أنْ يَدْمَحَ الزَّالاتِ البَسِيْطَةِ لِتَدُوْم العِشْرَةُ وتَسُوْدَ المَحَبَّةَ وَعَلَيْهَا هِيَ أيْضاً أنْ تَحْرِصَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى طَاعَتِهِ في غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللّهِ تَعالَى واللّه أعلم وصلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وآلِهِ وسلّم .

شعراً :

أَلاَ يَـا غَـوَانِي مَنْ أَرَادَتْ سَعَـادَةً
وتُـوْقَى عَذَابـاً بالنِّسـا صَارَ مُحْـدِقَـا

فَـأَكْثَـرُ أَهْـلُ النّـارِ هُنَّ حَقِيْقَـةً
رَوَيْنَـا حَدِيْثـاً فِيْـهِ صِـدْقـاً مُصَـدَّقَـا
تُخَلِي التَّبَـاهِيْ تُبْـدِلُ اللَّهْـوَ بـالبُكَـا
وتَبْـذُلُ كُلَّ الجَهْـدِ بالـزُّهْـدِ والتُّقَى
وتَعْتَـاضُ عَنْ لِيْنٍ بِـدُنْيـاً خُشُـوْنَـةً
وعن يَابِسٍ في الدِّيْنِ أَخضَرَ مُوْرِقَا
رَعَى اللّهُ نِسْـوَنـاً تَبِيْتُ قَـوَانِتـاً
ويُصْبِحُ مِنْهَا القَلْبُ بالخَوْفِ مُحْـرِقَا
تَظَلُّ عنِ المَرْعَى الخَصِيْب صَوَائِماً
ويُمْسِي سَمِيْنُ البَطْنِ بالظَّهْرِ مُلْصَقَا
تَـرَى بَيْنَ عَيْنٍ والسُّهَـادِ تَـوَاصُـلاً
وَبَيْنَ الكَـرَى والعَيْنِ مِنْهَـا تَفَـرُّقَـا
وَبَـيْنَ مِـعَـاءٍ والغِـذَاءِ تَـقَـاطُـعـاً
وبَيْنَ خُلُوفِ المِسْكِ والثَّغْرِ مُلْتَقَى
تَـرَى نَـاجِـلاتٍ قَـارِئـاتٍ مَصَـاحِفـاً
وَلُؤْلُؤُ بَحْـرِ الدُّرِّ في الْـوَرْدِ مُشْرِقَـا
فَـدَتْها مِن الآفـاتِ كُلُّ نُفُـوسٍ مَنْ
يُخَالِفُهَا فِي الـوَصْفِ غَرْبـاً وَمَشْرِقَـا
خَلِيْلِيَّ إنَّ المَـوْتَ لا شَـكَّ نَـازِلٌ
وبَـيْنَ الأَحِـبَّـا لا يَـزَالُ مُـفَـرِّقَـا
فَجُـدًا لِـدَارٍ لا يَـزُوْلُ نَعِيْـمُـهَـا
بِهَـا الحُسْنُ واللَّذَاتُ والمُلْكُ والبَقَا

وَلُقْيَا حِسَانٍ نَاعِمَاتٍ مُنَعَّمُ
بِهِنَّ سَعِيدُ سَعْدَ ذَلِكَ مَنْ لَقَا
كَوَاعِبَ أَتْرَابٍ زَهَتْ فِي خِيَامِهَا
بِظِلٍّ نَعِيمٍ قَطُّ مَا مَسَّهَا شَقَا
كَدُرٍّ وَيَاقُوتٍ وَبَيْضٍ نَعَامَةٍ
كَسَاهَا الْبَهَا والنُّورُ والحُسْنُ رَوْنَقَا
تُغَنِّي بِمَا لَمْ تَسْمَعِ الخَلْقُ مِثْلَهُ
وَقَدْ حَبَّرَتْ صَوْتاً رَخِيماً مُشَوِّقَا
غِنَاهُنَّ نَحْنُ الخَالِدَاتُ فَقَطُّ مَا
نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلاَ شَقَا
ولا سَخَطٌ والرَّاضِيَاتُ بِنَا الْمُنَى
فَطُوبِي لِمَنْ كُنَّا لَهُ مِن أُولِي التُّقَى

والله أعْلَم وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وآلِهِ وسلّم .

فصل
« في ذِكْرِ بَعْضِ أَحْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ »
« والرّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ »

عِبَادَ اللّهِ قَدْ سَبَقَ ذِكْرُ المَوْتِ وأحْوَالِ المَيِّتِ في سَكَرَاتِهِ وَفِتْنَةِ القَبْرِ وسُؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيْرٍ وعَذَابِ القَبْرِ ونَعِيْمِهِ وَخَطَرِ مَنْ كَانَ مَسْخُوْطاً عَلَيْهِ وأعْظَمُ مِن ذلِكَ الأَخْطَارُ الّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ نَفْخِ الصُّوْرِ والبَعْثِ والنُّشُوْرِ والعَرْضِ عَلَى الجَبَّارِ وَالسُّؤالِ عن الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ ونَصْبِ المِيْزَانِ لِمَعْرِفَةِ المَقَادِيرِ .

ثُمَّ جَوازُ الصِّرَاطِ مَعَ دِقَّتِهِ وَحِدَّتِهِ ثُمَّ انْتِظَارُ النِّدَاءِ عِنْدَ فَصْلِ القَضَاءِ إِمَّا بالإِسْعَادِ وإِمَّا بالإِشْقاء فَهَذِهِ أَحْوَالٌ وأَهْوَالٌ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ثُمَّ الإِيْمَانُ بِهَا عَلى سَبِيْلِ الجَزْمِ والتَّصْدِيْقِ ثُمَّ تَطْوِيلُ الفِكْرِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ الّذي مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ ألفَ سَنَةٍ .

كَمَا جَاءَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ يَجْمَعُ اللّهُ فِيهِ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ في صَعِيْدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ البَصَرُ لا يَغِيْبُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَتَدْنُو مِنْهُم الشَّمْسُ وَيُلْجِمُهُمُ العَرَقُ هَذَا اليَوْمُ هُوَ اليَوْمُ الّذي تَذْهَلُ فِيهِ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَنْ مَا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيد » .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَبْلُغُ الأَمْرُ مِن الحَيْرَةِ والدَّهْشَةِ والاضْطِرَابِ والذُّهُولُ أَنْ تَذْهَلَ المُرْضِعَةُ عن وَلَدِهَا الّذي فَمُهُ في ثَدْيِهَا وَهُوَ أعَزُّ شَيْءٍ لَدَيْهَا فَكَيْفَ بالذُّهُوْلِ عَمَّا سِوَاهُ وتَسْقِطُ الحَوامِلُ مِنَ الفَزَعِ وَالرُّعْبِ والرَّوْعِ مَا فِي بُطُونِهَا مِن الأَجِنَّةِ قَبْلَ التَّمَامِ وتَرَى النَّاسَ كَأَنَّهُمْ سُكَارَى مِن شِدّةِ الرَّوْعِ والفَزَعِ والخَوْفِ الّذِي صَيَّرَ مَنْ رَآهُمْ يُشَبِّهُهُمْ بالسُّكَارَى لِذَهَابِ عُقُوْلِهِمْ مِن شِدَّةِ الخَوْفِ كَمَا يَذْهَبُ عَقْلُ السَّكْرانِ مِن الشَّرَابِ « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ تَكُونُ الأَرْضُ كالسَّفِيْنَةِ في البَحْرِ عِنْدَ اضْطِـراب الأَمْوَاجِ تَكَفأُ بأَهْلِهَا .

فَيَمِيْدُ النّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا وَيَتَسَاقَطُونَ مِنْ شِدَّةِ الأَمْرِ وبُلُوغِهِ أقْصَى الغَايَاتِ وَلِهَذا أَذْهَلَ العُقُولَ وأَذْهَبَ التَّمْييز والفِكْرَ والصَّحْوَ إِنَّهُ يَوْمُ القِيَامةِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَها﴾ .

إنَّهَا لَهَزَّةٌ عَنِيْفَةٌ لِلْقُلُوبِ الغَافِلَةِ حَيْثُ تَرْجُفُ الأَرْضَ الثَّابِتَةُ ارْتِجَافاً وتَزَلْزَلُ زِلْزَالاً وَتَنْفُضُ ما فِي جَوْفِهَا نَفْضاً وَتُخْرِجُ مَا يُثَقِّلُهَا مِن أَجْسَادٍ وَنُقُودٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا حَمَلَتْهُ طَوِيْلاً وَهُوَ مَشْهَدٌ يَهُزُّ كُلَّ شَيْءٍ ثَابِتٍ والأَرْضُ تَهْتَزُّ والسَّمَاءِ تَمُوْرُ .

إنّهُ لَمَشْهَدٌ مُجَرَّدُ تَصَوُّرِهِ ، يَخْلَعُ القُلُوْبَ يَرَى الإنْسَانُ مَا لاَ يَعْهَدُ وَيُوَاجِهُ مَا لاَ يُدْرِكُ وَيَشْهَدُ مَا لاَ يَمْلِكُ الصَّبْرَ أَمَامَهُ وَلاَ السُّكُوتَ عَنْهُ ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ما الّذِي يُزَلْزِلُهَا هَكَذا وَيَرُجُّهَا رَجّاً .

وكَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ مَا نَزَلَ يَتَمَايَلُ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ وَيَتَشَبَّثُ وَيُحَاوِلُ أَنْ يُمْسِكَ بِشَيْءٍ لَعَلّهُ يَثْبُتُ لأنَّ كُلَّ مَا حَوْلَهُ يَمُوْرُ مَوْراً شَدِيْداً قَدْ إِمْتَلأَ مِنَ الرُّعْبِ والفَزَعِ وَالدَّهْشَةِ والعَجَبِ .

يَرَى الجِبَالَ وَهِيَ تَسِيْرُ وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ ، هَذِهِ الجِبَالُ وَقَدْ نُسِفَتْ وبُسَّتْ وَرَاءهَا ذَرَّاتٍ في الهَوَاءِ ﴿وَبُسّتِ الجبالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عنْ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبّي نَسْفا ، وسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » .

هٰذِهِ تُصَرِّحُ وَتُشِيْرُ إلى حَدَثٍ عَظِيمٍ تَتَزَلْزَلُ مِنْهُ الجِبَالُ وَتَذْهَبُ هَبَاءً يَتَلاَشى ثَبَاتُهَا وَرُسُوخُها واسْتِقْرَارُهَا وَتَمَاسُكُهَا والإِنْسَانُ يَنْظُرُ وَلاَ يَكَادُ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ ﴿إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كاظِمِيْن﴾ .

هُنَا يُشَاهِدُ وَيُواجِهُ الحَشْرَ والحِسَابَ والوَزْنَ والجَزَاءَ وَيقِفُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السّلامُ والملائِكَةُ صَفّاً بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ والملائِكَةُ صَفّاً لا يَتكَلَّمُونَ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرحمن وقال صواباً﴾ « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوْعٌ لَهُ

النّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ يَوْمَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بإذْنِهِ » ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والملكُ صَفّاً صَفّاً﴾ .

وَمَوْقِفُ هَؤُلاءِ المُقَرَّبِيْنَ صَامِتِيْنَ خَاشِعِيْنَ خَاضِعيْنَ لِعَظَمَةِ اللّهِ ﴿وَخَشَعَتِ الأصْوَاتِ للرّحمَنِ فلاَ تَسْمَعُ إلاّ هَمْسَا﴾ وَعَنَتِ الوُجُوْهُ لِلْحَي القَيُّوْمُ وَقَدْ خَابَ مَن حَمَلَ ظُلْمَا » .

مَوْقِفُهُمْ هَكَذا صَامِتِيْنَ لاَ يَتَكَلَّمُوْنَ إلاّ بإِذْنٍ مِن الرّحْمَنِ يُلْقِي فِي النَّفْسِ الرَّهْبَةَ والرُّعْبَ والفَزَعَ مِن ذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيْمِ الّذي يَنْكَشِفُ فِيْهِ كُلُّ مَسْتُوْرٍ وَيُعْلِمُ فِيْهِ كُلُّ مَجْهُوْلٍ .

وَتَقِفُ فِيْهِ النَّفْسُ أمامَ مَا أَحْضَرَتْ مِن الرَّصِيْدِ والزَّادِ فِي مَوْقِفِ الفَصْلِ والحِسَابِ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوْ كُلُّ نَفْسٍ مَا أسْلَفَتْ﴾ « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوْءٍ تَودُّ لَو أنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أمَداً بَعِيْداً » يَوْمَ يَنْظُرُ المرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِيْهِمُ اللّهُ دِيْنَهُمُ الحَقُّ﴾ .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَكُونُ التَّغَيُّرُ العَظِيْمُ الشَّامِلُ لِلْمَعْهُوْدَاتِ السّمواتِ والأَرْضِ الشَّمْسُ مُكَوَّرَةٌ وَالنُّجُوْمُ مُنْكَدِرَةٌ والسَّمَاءُ مُنْشَقَّةٌ والوُحُوشُ النَّافِرَةُ مَحْشُوْرَةٌ والأَنْعَامُ والطُّيُورُ والعِشَارُ مُعَطَّلَةٌ ﴿فإذَا بَرِقَ البَصَرُ وَخَسَفَ القَمَر وجُمِعَ الشّمْسُ والقَمَرُ يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أيْنَ المَفَر﴾ ﴿إذا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وإِذَا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ ونُزِّلَ المَلاَئِكَةُ تَنْزِيلا ﴾ ﴿ فإذا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدِّهَان ﴾ .

هَذِهِ الآيَاتُ وأَمْثَالُهَا تُشِيْرُ إِلَى ذَلِكَ الحَادِثِ الهَائِلِ فِي الكَوْنِ كُلّهِ وَلاَ يَعْلَمُ حَقِيْقَتَهُ إلاّ اللّهُ إنّهُ حَادِثٌ عَظِيْمٌ تَرْجُفُ الأَرْضُ مِنْهُ وَتَخَافُ وَتَنْهَارُ فَكَيْفَ

بالخَلْقِ الضِّعَافِ المَهَازِيْلِ الّذِينَ تَهُزُّهُمْ الصَّوَاعِقُ هَزّاً وتَخْلَعُ قُلُوبَهُمْ خَلْعا ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُوْنَ إنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلِ الوِلْدَانَ شِيْبَا السّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيْباً مَهِيْلاً﴾ .

وفي وَسَطِ هَذَا الرُّعْبِ والخَوْفِ والقَلَقِ والفَزَعِ والذُّهُوْلِ والانْقِلابِ يتساءلُ الإِنْسَانُ المَذْعُوْرُ المَرْعُوْبُ أَيْنَ المَفَرُّ وَيَبْدُوْ ذلِكَ في سُؤَالِهِ وَكَأَنَّمَا يَنْظُرُ في كُلِّ اتّجاهٍ فَإِذَا هُوَ مَسْدُوْدٌ دُوْنَهُ مأخُوْذٌ عَلَيْهِ وَلاَ مَلْجأ وَلاَ مَحِيْصَ ولا مَنْفَذَ وَلاَ وِقَايَةَ مِنْ قَهْرِ اللّهِ وأخذِهِ،والرَّجْعَةُ إِلَيْهِ والمَصِيْرُ والمستقَرُّ عِنْدَهُ ﴿كَلاَّ لاَ وَزرَ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾ ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إنْ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذُوا مِن أقطارِ السّمواتِ والأرضِ فانفذوا﴾ .

فَفِيْ هَذَا المَوْقِفِ الرَّهِيْبِ يَتَبَيَّنُ عَجزُ الخَلاَئِقِ وضَعْفُهُمْ وَكَمَالُ سُلْطَانِ اللّهِ وقُدْرَتِهِ ونُفُوذِ مَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُوْنَ لآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ﴾ إِنّكُمْ في قَبْضَةِ اللّهِ ﴿مَا مِن دابّةٍ إلاّ هُوَ آخذٌ بناصِيَتِها﴾ إِنّهُ لَيَوْمٌ عَصِيْبٌ وَمَوْقِفٌ رَهِيْبٌ «إِنْ كُلُّ مَن فِي السّمَواتِ والأرْضِ إلاّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً لقَدْ أحْصَاهُم وعَدَّهُم عَدّا وكُلُّهُم آتِيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدا » .

فَلاَ مَجَالَ لِهَرَبِ أَحدٍ وَلا نِسْيَانَ لأَحَدٍ فَعَيْنُ اللّهِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ وَكلّ فَرْدٍ يَقُوْمُ وَحِيْداً لاَ يَأْنَسُ بأحَدٍ فإذا هُوَ فَرِيْدٌ وَحِيْدٌ أَمَامَ الدَّيّانِ ﴿يَوْمَ تأتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عنْ نَفْسِها﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيْهِ وأمِّهِ وأبِيْهِ وصَاحِبَتِهِ وبَنِيْهِ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يغنيه﴾ .

مَشْهَدُ المَرْءِ يَفِرُّ وَيَنْسَلِخُ وَيَهْرَبُ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ وأَلْصَقِهِمْ بِهِ أُولَئِكَ الّذِينَ تَرْبُطُهُمْ بِهِ وَشَائِجُ وَرَوَابِطُ لا تَنْفَصِمُ وَلَكِنْ الصَّاخةُ وَالطَّامَةُ تُمَزِّقُ

هَذِهِ الرَّوَابِطِ وتُقَطِّعُ الوَشَائِجَ والصّلاتِ ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ﴾ .

فَالْهَوْلُ يُفْزِعُ النَّفْسَ ويُقْلِقُهَا وَيَفْصِلُهَا مِنْ مُحِيطِهَا وَيَسْتَبِدُّ بِهَا اسْتِبْدَاداً فَلِكُلٍّ نَفْسُهُ وَشَأْنُهُ وَلَدَيْهِ الكِفَايَةُ مِنَ الهَمِّ الخَّاصِ بِهِ الّذِي لاَ يَدَعُ لَهُ فَضْلَةً مِنْ وَعْيٍ أَوْ جُهْدٍ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنِيْهْ﴾ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِيْنَ) .

فَهَا هِيَ ذِي السَّاعَةِ الّتِي يَغْفُلُ عَنْهَا الغَافِلُونَ وَيَلْهُوْا عَنْهَا اللاَّهُوْنَ وَيَسْتَعْجِلُ بِهَا المُسْتَعْجِلُون ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالّذِيْنَ آمَنُوا مُشْفِقُوْنَ مِنْهَا وَيَعْلَمُوْنَ أَنّهَا الحَقُّ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعةُ يَلْبِسُ المُجْرِمُوْنَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كافِرِيْنَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُوْنَ وَأَمَّا الّذِينَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُوْنَ﴾ .

وَهَؤُلَاءِ المُجْرِمُونَ حَائِرِيْنَ يَائِسِينَ لاَ أَمَلَ فِي النَّجَاةِ وَلَا رَجَاءَ وَلَا خَلَاصَ بَلْ قَدْ أَيْقَنُوْا في العَطَبِ ﴿وَرَأَى المُجْرِمُوْنَ النَّارَ فَظَنُّوْا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوْهَا وَلَمْ يَجِدُوْا عَنْهَا مَصْرِفَا﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ المُجْرِمُوْنَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وسَمِعْنَا فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنّا مُوْقِنُون﴾ .

هُنَا يَعْتَرِفُوْنَ بِالخَطِيْئَةِ وَيُقِرُّوْنَ بِالحَقِّ الّذِي جَحَدُوْهُ بِالدُّنْيَا وَيُعْلِنُوْنَ اليَقِيْنَ بِمَا شَكُوْا فِيْهِ وَيَطْلُبُوْنَ العَوْدَةَ إلى الدُّنْيَا لإِصْلَاحِ مَا فَاتَ فِي الدُّنْيا وَمَنْظَرُهُمْ إِذْ ذَاكَ مُفْزِعٌ مُخِيْفٌ وَهُمْ نَاكِسُوا الرُّؤُوسِ خَجَلاً وخِزْياً .

فَالأَمْرُ أَمْرٌ فَظِيْعٌ وَالحَالُ مُزْعِجَةٌ أَقْوَاماً حَاسِرِيْنَ مَكْرُوْبِيْنَ وَسُؤَالُ غَيْرُ

مُجَاب لِفَواتِ وَقْتِ الإمْهَالِ ﴿وَقَالُوْا آمَنَّا بِهِ وأنّى لَهُمْ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيْدٍ﴾ .

فَيَا عِبَادَ اللّهِ انْتَبِهُوْا مِنْ رَقْدَتِكُمْ واسْتَدْرِكُوْا بَقِيَّةَ أَعْمَارِكُمْ وَاحْذَرُوْا الإنْهِمَاكَ فِي دَارِ الغُرُوْرِ فَالوَيْلُ كُلَّ الوَيْلِ لَكُمْ إنْ أدْرَكَكُمْ المَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَى هَذِهِ الحَالَة ، زَيَّنْتُمُ الفُلَلَ وَالقُصُوْرُ وَنَسِيْتُمُ القُبُوْرَ ، اذْكُرُوْا القَبْرَ وَظُلْمَتَهُ وَوَحْشَتَهُ وَالمَوْتَ وَسَكْرَتَهُ وَالمِيْزَانَ وخِفَّتَهُ أوْ رَجْحَتَهُ والكِتَابَ وأَخْذَتَهُ وَالصِّرَاطَ وَدِقَّتَهُ ، وَالمَوْتَ ، سَكْرَةٌ فِي سَكْرَةٍ وَحَيْرَةٌ فِي حَيْرَةٍ وَجَذْبَةٌ يَا لَهَا مِنْ جَذْبَةٍ وَكُرْبَةٌ يَا لَهَا مِنْ كُرْبَةٍ فَالمِسْكِيْنُ يُكابِدُ غُصَصَ المَنُوْنِ دَاهِشَ العَقْلِ كالمَحْزُوْنِ .

فاللّهَ اللّهَ عِبَادَ اللّهِ أَفِيْقُوْا مِنْ سَكَرَاتِكُمْ وانْتَبِهُوْا مِنْ نَوْمَاتِكُمْ واسْتَيْقِظُوا مِنْ غَفَلاتِكُمْ قَبْلَ مُفَاجَأَةِ المَنِيَّةِ وحُلُولِ الرَّزِيَّةِ وَوُقُوعِ البَلِيّةِ حَيْثُ لا مَالَ وَلاَ وَلَدَ نَافِعٌ وَلاَ حَمِيْمَ شَافِعٌ وَلاَ فَرَحَ وَاقِعٌ وَلاَ رَجَاءَ طَامِعٌ وَلاَ حَسَنَةً تُزَادُ وَلاَ سَيِّئَةً تُحْذَفُ ولاَ حَيَاةَ تُعادُ وَيُزَوِّدُكَ أَحْبَابُكَ بالحَزَنِ عَلَيْكَ وَالبُكَاءِ فَلاَ عَثْرَةً تُقَالُ وَلاَ رَجْعَةَ تُنَالُ .

شعرا :

أَلاَ إنَّ أَيَّـامَ الـحَـيَـاةِ مَـرَاحِـلُ
طَرِيْقُ الفَتَى مِنْهَا إلَى المَوْتِ سَاحِلُ
يُسَـرُّ بِمَا يَمْضِيْ لِمَـا هُوَ آمِـلٌ
وَيَأْتِي الرَّدَى مِنْ دُوْنِ مَا هُوَ أَمِـلُ
وَمَـا يَـوْمُـهُ إلاَّ غَـرِيْـمٌ مُـحَـكَّـمٌ
إذَا مَـا اقْتَضَـاهُ نَفْسَـهُ لاَ يُمَـاطِـلُ

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِيْ السَّلاَمَةَ جَاهِداً
وَمَرُّ اللَّيَالِيْ كُلُّهُنَّ غَوَائِلُ
وَنَحْنُ بَنُو الأَيَّامِ نَظْلِمْ نُفُوْسَنَا
وَنَرْجِعُ وَهْيَ القَاتِلاَتُ الثَّوَاكِلُ

اللَّهُمَّ أَقِمْ عَلَمَ الجِهَادِ وَوَفِّقْنَا لِسُلوكِ طَرِيقَ الحِقِّ وَالرَّشَادِ ، وَأَقْمَعْ أَهْلَ الكُفْرِ وَالزَّيْغِ والشَّرِّ وَالفَسَادْ ، وانْصُرْ دِيْنَكَ وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ مِنَ العِبَادِ ، وَثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوْبِنَا وَقَوِّهَا ، يَا كَرِيْمُ يَا جَوَاد ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فصــل)

وَتَفَكَّرْ فِي حَالَتِهِمْ فِي المَحْشَرِ تَجِدْ مَشْهَدَ مَكْرُوْبٍ ذَلِيْلٍ يُثِيْرُ الفَزَعَ وَالخَوْفَ « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الّذِيْنَ كَفَرُوْا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِيْن » .

هَذِهِ أَبْصَارِهُمُ لاَ تَطْرُفُ مِنَ الهَوْلِ الّذِي فُوْجِئُوْا بِهِ يَقُوْلُون يَاوَيْلَنَا وَهُوَ تَفَجُّعُ وَتَوَجُّعُ المَفْجُوْءِ الّذِي تَنْكَشِفُ لَهُ الحَقِيْقَةُ المُرَوِّعَةُ بَغْتَةً فَيَذْهَلُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ فَلاَ يَطْرُفُ وَيَدْعُوْ بِالوَيْلِ وَالهَلاَكِ وَيَعْتَرِفُ وَيَنْدَمُ وَلَكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ .

إِنَّهَا مَشَاهِدُ يَوْمِ القِيَامَةِ وَمَا يَجْرِيْ فِيْهِ مِن تَغَيُّرَاتٍ كَوْنِيَّةٍ وَمِنْ اضْطِرَابَاتٍ نَفْسِيَّةٍ ومِنْ حَيْرَةٍ وَتَحَسُّرٍ فِي مُوَاجَهَةِ الأَحْدَاثِ الغَالِبَةِ حَيْثُ يَتَجَلَّى

الهَوْلُ فِي صَمِيْمِ الكَوْنِ وفِي اغْتِرَارِ النَّفْسِ وَهِيَ تَرُوْغُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ .

« فَذَرْهُمْ يَخُوْضُوْا وَيَلْعَبُوْا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الّذِي يُوْعَدُوْنَ يَوْمَ يَخْرُجُوْنَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوْفِضُوْنَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ اليَوْمُ الّذِي كَانُوا يُوْعَدُوْن » .

وَكَذَلِكَ خُرُوْجُهُم مِنَ القُبُوْرِ يُنْبِىءُ أَنَّهُمْ فِي كَرْبٍ وَشِدَّةٍ وَأَنَّهُمْ أَذِلَّاءُ غَيْرُ مُتَمَكِّنِيْنَ مِنَ الاسْتِعْصَاءِ عَلَى الدَّاعِي إذْ هُمْ يُهَرْوِلُوْنَ مَقْهُوْرِيْنَ مَعَ خُشُوْعِ أَبْصَارِهِمْ وَذِلَّتِهَا لِهَوْلِ مَا تَحَقَّقُوا مِنَ العَذَابِ .

قَدْ مَلَكَ القَلَقُ وَالخَوْفُ قُلُوْبَهُمْ واسْتَوْلَى عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ وَسَكَّنَ حَرَكَاتِهِمْ وَقَطَعَ أَصْوَاتَهُمْ تَعْلُو وُجُوْهَهُمُ القَتَرَةُ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الكَآبَةِ وَالحُزْنِ وَالهَمِّ العَظِيْمِ الّذِي لَا يُرْجَى لَهُ فَرَجٌ « تَرَى الظَّالِمِيْنَ مُشْفِقِيْنَ مِمَّا كَسَبُوْا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِم » « وَتَرَى الظَّالِمِيْنَ لَمَّا رَأَوا العَذَابَ يَقُوْلُونَ هَلْ إلَى مَرَدٍ مِن سَبِيْلٍ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خَاشِعِيْنَ مِن الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِي » .

إنَّ هَؤُلاءِ الظَّالِمِيْنَ الطُّغَاةِ كَانُوْا فِي الدُّنْيَا مُتَكَبِّرِيْنَ فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ الذُّلُّ وَالصِّغَارُ هُوَ مَظْهَرُهُمْ البَارِزُ فِي يَوْمِ القِيَامَةَ يَوْمَ الجَزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ فَعِنْدَ مَا يُشَاهِدُوْنَ الحَقَائِقَ وَيَرَوْنَ العَذَابَ تَتَهَاوَى كِبْرِيَاؤُهُمْ وَعَظَمَتُهُمْ وَيَتَسَاءَلُوْنَ فِي ذُلٍّ وَانْكِسَارٍ وَخَوْفٍ « هَلْ إِلَى مَرَدٍ مِنْ سَبِيل » .

فِي هَذِهِ العِبَارَةِ الّتِي يُفْهَمُ مِنْهَا اليَأْسُ مَعَ التَّلَهُّفِ وَالإِنْهِيَارِ مَعَ التَّطَلُّعِ إلى أَيِّ بَارِقَةٍ لِلْخَلاصِ وَيُعْرَضُوْنَ عَلَى النّارِ خَاشِعِيْنَ لَا مِنْ وَرَعٍ وَلَا تَقْوَى وَلَا مِنْ حَيَاءٍ وَخَجَلٍ وَلَكِنْ مِنَ الذُّلِّ وَالهَوَانِ مُنَكِّسِيْ أَعْيُنِهِمْ مِنَ الذُّلِّ والعَارِ يَنْظُرُوْنَ مِن طَرْفٍ خَفِي .

إِنَّهُ لَمَنْظَرٌ وَمَرْأً فَظِيْعاً صَعْباً شَنِيْعاً مُجَرَّدُ تَصَوُّرُهُ يُزْعِجُ وَيُقْلِقُ حَيْثُ يَظْهَرُ مِنْهُ النَّدَمُ العَظِيْمُ والحُزْنُ الطَّوِيْلُ والأَسَفُ الشَّدِيْدُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِن الإِهْمَالِ والتَّفْرِيْطِ والتَّضْيِيْعِ الّذِي لاَ يُمْكِنُ تَلاَفِيْهِ .

فَيَا أَيُّهَا الغَافِلُ السَّاهِيْ المُهْمِلُ وَكُلُّنَا كَذَلِكَ انْتَبِهْ وَمَثِّلْ نَفْسَكَ فِي هَذَا اليَوْمِ العَظِيْمِ الجَامِعِ للأَوَّلِيْن وَالآخِرِيْنَ فَيَا لِعِظَمِ يَوْمٍ يُوَجَّهُ السُّؤَالُ فِيْهِ لِمَنْ قَالَ اللّهُ جَلَّ وَعَلاَ فِي حَقِّهِمْ ﴿وَسَلاَمٌ عَلَى المُرْسَلِيْن﴾ ﴿وإِذَا قَالَ اللّهُ يَا عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُوْنِي وَأُمِّي إِلَهَيْن مِنْ دُوْنِ اللّهِ﴾ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الّذِيْنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِم ولنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِيْنَ﴾ .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيْبِ يُنَادَوْنَ الخَلاَئِقَ وَاحِداً وَاحِدًا يَا فُلانُ هَلُمَّ إِلى العَرْضِ وَعِنْدَ ذَلِكَ تَنْخَلِعُ القُلُوْبُ وَتَرْتَعِدُ الفَرائِصُ وتَضْطَرِبُ الجَوَارِحُ وتَنْبَهِتُ العُقُوْلُ وتَتَحَيَّرُ ويَيْبَسُ اللِّسَانُ وَتَشْخَصُ الأَبْصَارُ .

فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُؤْخَذُ بِنَاصِيَتِهِ وَيُقَادُ وَفُؤَادُهُ مُضْطَّرِبٌ وَلُبُّهُ طَائِرٌ وَفَرَائِصُهُ تَرْتَعِدُ وَجَوَارِحُهُ تَنْتَفِضُ وَلَوْنُهُ مُتَغَيِّرٌ وَلِسَانُهُ وَشَفَتَاهُ قَدْ نَشَفَ مَا بِهِمَا مِنْ رُطُوْبَةٍ وَقَدْ عَضَّ عَلَى يَدَيْهِ وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ وَلَمْ يَنَمْ وَلَمْ يَسْتَرِح وَلَمْ يَجْلِسْ وَلَمْ يَرْكَبْ .

والعَالَمُ والجَوُّ عَلَيْه مُظْلِمٌ وضَاقَتْ عَلَيه الأَرْضُ وَصَارَتْ الدُنيَا عِندَهُ أَضْيَقَ مِنْ سَمِّ الخِيَاطِ مَمْلُوءٌ مِن الرُّعْبِ والخَجَلِ مِنْ عَلاَّمِ الغُيُوبِ والأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ وَأَهْلِ السَّموَاتِ وأَتَى يتخطّى رِقَابَ النّاسِ وَيَخْتَرِقِ الصُّفُوفَ يُقَادُ كَمَا يُقَادُ الفَرَسُ المَجْنُوْبُ وَقَدْ رَفَعَ الخَلائِقُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ حَتَّى انْتَهِي بِهِ إِلى عَرْشِ الرّحمن فَرَمُوْهُ مِن أَيْدِيْهِم .

ونَادَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَدَنَى بقَلْبٍ مَحْزُوْنٍ خَائِفٍ وَجِلٍ وطَرْفٍ خَاشِعٍ ذَلِيْلٍ وَفُؤَآدُهُ مُتَحَطِّمُ مُتَكَسِّرٌ وأُعْطِي كِتَابَهُ الذِي لا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً ولاَ كَبِيْرَةً إلا أَحْصَاهَا .

فَكَم مِن فَاحِشَةٍ نَسِيَهَا فَتذَكَّرَهَا وَكَمْ مِنْ سَاعَةً قَتَلَهَا عند مُنْكَرٍ وكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أضَاعَهَا عِنْدَ مَلْهَى وَكَمْ مِنْ فُلُوسٍ أَنْفَقَهَا فِي المَعَاصِيْ وكَمْ مِنْ صَلاَةٍ ضَيَّعَهَا وكَمْ مِنْ زَكَاةٍ تَهَاوَنَ بِهَا وَكَمْ مِنْ صِيَامٍ في الكَذِبِ والغَيْبَةِ خَرَّقَهُ وَكَمْ مِنْ أَعْرَاضٍ انْتَهَكَهَا وجلود مزقها وَكَمْ مِن جِيْرَانٍ تأذَوْا بِمُجَاوَرَتِهِ وكَمْ مِن بَرِيْءٍ قَذَفَهُ بالزِّنَا واللِّوَاطِ وكَمْ مِن مُحْصَنَةٍ قَذَفَهَا واتَّهَمَهَا وكَمْ مِن مُحْصَنَةٍ حَاوَلَهَا لِلْفَسَادِ وَكَمْ مِنْ مُخَالِطٍ لَهُ أَوْقَعَهُ فِي المَعَاصِيْ وكَمْ مِن أَرْحَامٍ قَطَعَهُمْ وكَمْ مِن مُسْلمٍ غَشَّهُ وكَمْ مِن سَاعَةٍ قَتَلَهَا فِيْمَا يُغْضِبُ اللهَ حَوْلَ المُنْكَرَاتِ وكَمْ مِنْ زَكَاةٍ تَنَاسَاهَا وَكَمْ مِن صَلاةٍ أَضَاعَهَا وأَفْسَدَها .

وَكَمْ مِن حُقُوقٍ لِخَلْقِ اللهِ نَسْيَهَا أَوْ تَنَاسَهَا وَكَمْ مِن أَسْرَارٍ تَسَمَّعَهَا لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ في ذَلِكَ وَكَمْ مِن مُحَرَّمٍ نَظَرَ إليْهِ وَمُسْلِمٍ جَسَّ عَلَيْهِ وَأَوْقَعَهُ فَأَفْزَعَهُ وأَزْعَجَ أَوْلاَدَهُ وأَحِبَّاءَهُ وَأَثَّرَ بِهِ الفَزَعُ والهَمُّ إلى أَنْ أَبَادَهُ وَكَمْ مِن رِحْلَةٍ إلى بِلاَدِ الكُفْرِ أَقَامَهَا وأَنْفَقَ فِيها الأَمْوَالَ في المَعَاصِيْ .

وَكَمْ مِن أَعْدَاءٍ للهِ جَالَسَهُمْ وَمَازَحَهُمْ وشَارَكَهُمْ وَوَلاَهُمْ وَدَاهَنَهُمْ وَكَمْ مِنْ أَوْلِيَآءِ للهِ عَادَاهُمْ وَانْتَهَكَ أَعْرَاضَهُمْ وَكَمْ مِن كُفَّارٍ والاهُمْ وَصَادَقَهُمْ وَمَدَحَهُمْ وَكَمْ مِنْ عَمَلٍ بالرِّيَاءِ أَفْسَدَهُ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِن اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُون وبَدَا لَهُمْ سيئَآتُ ما عَمِلُوا وحَاقَ بِهِم ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ .

فَلَيْتَ شِعْري بأيِّ قَدَم يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَبِأَيِّ لِسَانٍ يُجِيْبُ وبأيِّ قَلْبٍ

يَعْقِلُ ما يَقُولُ وبأيّ يَدٍ يَتَنَاوَلُ وبأَيّ عَيْنٍ يَنْظُرُ وبَدِيْعُ السمواتِ والأَرضِ أمَامَهُ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًا وَكُلُّهُمْ آتِيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدًا﴾ .

إذا فَهِمْتَ مَا سَبَقَ مِن أَحْوَالِ يومِ القِيَامَةِ وأَدِلَّتِهِ فَاعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ خَلْقِ اللهِ لَمْ يَدْخُلِ الايمانُ باليَوْمِ الآخِرِ في قُلُوبِهِم وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِن سُوَيْدَاءِ أَفْئِدَتِهِمْ .

ويَدُلُ عَلَى ذَلِكَ اسْتِعْدَادُهُم لِبَرْدِ الشِتَاءِ وحَرِ الصَّيْفِ وتَهَاوُنُهُمْ بِجَهَنَّمَ وَزَمْهَرِيْرِهَا وَزَقُومِهَا وَحَمِيْمِهَا وَوَيْلِهَا وغَسَّاقِهَا معَ مَا يَتْبَعُ ذلكَ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالأَهْوَالِ والكُرُوْبِ والْقَلاَقِلِ والمُزْعِجاتِ .

ولَو كانُوا مُصَدِّقِيْنَ مَا كَانُوا بِهَذِهِ الحَالِ ، اللِّسَانُ يُصَدِّقُ والعَمَلُ يُكَذِّبُ إِذَا سُئِلُوا عَنِ اليَوْمِ الآخِرِ نَطَقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وغَفَلَتْ عَنْه قُلُوبُهم .

ومَنْ قُدِّمَ لَهُ طَعَامٌ وأُخْبِرَ أَنَّهُ مَسْمُوْمٌ فَقَالَ لِلَّذِي أَخْبَرَهُ صَدَقت فيهِ سُمٌ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ يَتَنَاوَلُهُ لِيَأْكُلَ كَانَ مُصَدِّقاً بِلِسَانِهِ ومُكَذِّباً بِفِعْلِهِ وتَكْذِيْبُ العَمَلِ أَبْلَغُ مِن تَكْذِيبِ اللِّسَانِ قَالَ بَعْضُهم :

ومُنْتَظِرٍ لِلْمَوتِ في كُلِّ لَحْظَةٍ
يَشِيْدُ وَيَبْنِي دَائِماً وَيُحَصِّنُ
لَهُ حِيْنَ تَبْلُوْهُ حَقِيقَةُ مُوْقِنٌ
وأعْمَالُهُ أَعْمَالُ مَن لَيْسَ يُوْقِنُ
عِيَانٌ كَانْكَارٍ وَكَالجَهْلِ عِلْمُهُ
بِمَذْهَبِهِ في كُلِّ مَا يُتَيَقَّنُ

اللهم إنا نَعُوذُ بكَ مِن القَسْوَةِ والعَيْلَةِ والذِّلَّةِ والمَسْكَنَةِ ونَعُوذ بك مِن

الكُفْرِ والفُسُوقِ والعِصْيَانِ والشّقَاقِ والسُمْعَةِ والرِّيَاءِ ونَسْأَلُكَ رِضَاكَ والجَنَّةَ اللهم وَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بما يُرْضِيْكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ إنَّ مِن عِبَادِ اللهِ مَنْ إذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِ بِمَالٍ كَثِيْرٍ كَانَتِ الحَالُ عِنْدَهُ فَوْضَى فلا تَضَعُ زَوْجَتُهُ ولاَ بَنَاتُهُ أَيْدِيَهُمْ في دَقِيْقٍ ولا جَلِيْلٍ مِن أعْمَالِ البَيْتِ فَيَجِيءُ لَهُنَّ بِخَدَّامِيْنَ وَسَوَّاقِيْنَ وَطَبَّاخِيْنَ الوَاحِدُ مِنْهُمْ في طُوْلِ النَّخْلَةِ في مُنْتَهَى العَافِيَةِ ولا يَبْعُدُ أنْ يَكُونَ مِنَ الشَّبَابِ الذِيْنَ يُعْجِبُوْنَ النِسَآءَ جَمَالاً وَرُبَّمَا خَلَوْ في النِّسَآءِ وَصَاحِبُ البَيْتِ مِنْ زَوْجٍ أَوْ غَيرِهِ لاَهٍ في أُمُوْرِ دُنْيَاهُ أَوْ في عَمَلِهِ لا يُفَكِّرُ فِيْمَا تُفَكِّرُ فِيْهِ النِسَآءُ ولا فِيْمَا يُفَكِّرُ فِيْهِ الخَادِمُ أو السَّائِقُ وكَأَنَّ نِسَاءَهُ في اعْتِقَادِهِ مَعْصُوْمَاتٍ وَلاَ يَدْرِي أنَّهُ مَا خَلاَ رجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلا وَثَالِثُهُمَا الشيطانُ وأنَّ النِسَآءَ حَبَائِلُ الشيطانِ وَأَنَّهُنَّ مِن أَضَرِّ مَا عَلَى الرَّجُلِ وَأنَّ لذةَ الرَّجُلِ عِنْدَهُنَّ ولَذَّاتُهُنَّ عِنْدَهُ لا يُخَالِفُ في ذَلِكَ أَحَدٌ إلا مَعْتُوْهٌ أَوْ نَحْوُهُ فإذَا رَأَتْ المَرْأَةُ شَاباً وَلاَ ثَالِثَ لَهُمَا فَلا يَبْعُدُ أنْ تَدْعُوْهُ لِذَلِكَ فَمَا مَوْقِفُ هَذَا المُغَفَّلِ أَمَامَ بَدِيْعِ السَّمَواتِ والأَرْضِ الذي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَما تُخْفي الصُّدُوْر .

ولَعَلَّ جَوَابَ هَذَا الجَاهِلِ أَنَّهُ لا يَدُوْرُ في خَلَدِهِ أَنَّ امْرَأَتَهُ تُقْدِمُ عَلَى مِثْلِ هَذَا لأَنَّهَا عِنْدَهُ مَعْصُوْمَةٌ قُولُوا لَهُ أَمَا سَمِعْتَ بِقِصَّةِ امْرَأَةِ العَزِيْزِ اقْرَأْهَا لَعَلَّكَ تَأْخُذُ حِذْرَكَ وتَعْلَم أَنَّه لاَ يَسْلَمُ مِن فِتْنَتِهِنَّ إلا عِبَادَ اللهِ المُخْلِصِيْن .

قُوْلُوا لَهُ تَأَمَّلِ القِصَّةَ لَعَلَّكَ أَنْ تَفْهَمَ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلاَ لم يَذْكُرْهَا فِي القُرْآنِ إلا لِيَعْتَبِرَ أُولُو الأَبْصَارِ فَيَحْتَرِسِ الرِّجَالُ على نِسَائِهِم مِن الخَدَمِ وَنَحْوِهِم .

إِنَّ اِمْرَأَةَ العَزِيْزِ كَانَتْ ذَاتَ مَرْكَزٍ عَظِيْمٍ فِي مِصْرَ وكَانَ يُوْسُفُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسلامُ في بَيْتِهَا كَخَادِمٍ لَهَا وَمَعَ ذلكَ لَمْ تَسْأَلْ عَنْ شَرَفِهَا وكَرَامَتِهَا ولا شَرَفِ زَوْجِهَا بَلْ دَاسَتْهُمَا بِنَعْلِ الشَّهْوَةِ دَوْساً ولم تَتَوَقَّفْ في بَذْلِ كُلِّ مَا تَسْتَطِيْعُ مِن قُوَّةٍ وَحِيْلَةٍ لاخْضَاعِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السلامُ وَلَوْلاَ أَنَّ اللهَ عَصَمَهُ وصَرَفَ عَنْهُ السُوْءَ والفَحْشَآءَ لَوَصَلَتْ إلى مَا تُرِيْدُ قال تعالى « كذلك لِنَصْرفَ عنه السُوْءَ والفَحْشَآءَ إنه مِن عِبَادِنا المخلصين » .

والفِتْنَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّكَ تَجِدُ آخَرَ يَأْتِي بخَدَّامَةٍ وَيَتَخَيَّرُ القَوِيَّةَ الجَمِيْلَةَ وبَيْتُهُ الوَاسِعُ مَمْلُوءٌ مِن العُزَّابِ أَوْلَادٍ وإِخْوَانٍ وَرُبَّمَا خَلَوْ بِهَا وهُوَ أَيْضاً رُبَّمَا خَلاَ بِهَا وَرُبَّمَا تكونُ أَجْمَل مِن زَوْجَتِهِ أَوْ أَشَبَّ مِنْهَا وَمَعَ هَذا فَلاَ يُفكِّرُ في الخَطَرِ مِن زَوْجَتِهِ أَوْ أَوْلَادِهِ فلا تَهُمُّهُ تِلْكَ النَّاحِيَةُ وإِنَّمَا تَهُمُّهُ النَّاحِيَةُ التِي يَعْرِفُهَا عن بَعْضِ النِسَآءِ الفَاسِقَاتِ ويَسْتَبْعِدُ ذلِكَ مِن نِسَائِهِ وأَنَّهُ مِن المُحَالِ عِنْدَهُ فَتَنَبَهُوْا يا عِبَادَ اللهِ ولا تَسْتَخْدِمُوْا الشَّبَابَ ولا الشَّابَاتِ مِن النِّسَاءِ وإلا فَقَدْ عَرَّضْتُمْ أَنْفُسَكُم لِلْفِتَنِ والمَشاكِلِ والعُقُوبَاتِ. واحذروا إستخدام الكافرين والكافرات.

فإِنْ كانَ لاَ بُدَّ فاسْتَخْدِمُوْا الرِّجَالَ خَارِجَ البُيُوتِ واحْذَرُوْا مِن اتِّصَالِهِم بنسَائِكُم وأَمَّا الخَدَّامَاتِ فاحْرِصُوا على كَبِيْرَةِ السِّنِّ المُتَدَيِّنَةِ غَيْرَ الجَمِيْلَةِ لِتَبْتَعِدُوا عن أَسْبَابِ الشَّرِ والفَسَادِ وتَطْمَئِنُوْا على مَا يَأْتِيْكُم مِن أَوْلادٍ أَنَّهُم مِن أَصْلاَبِكُم وإِن أَبَيْتُمْ فالضَّرَرُ عَائِدٌ عَلَيْكُم دُنْياً وأُخْرَى .

بَـــذَلْتُ لَهُمْ نُصْحِي بِمُنْعَـرَجِ اللِّوَا
فَلَمْ يَسْتَبِيْنُوْا الرُّشْدَ إلاَّ ضُحَى الْغَدِ

اللهم احْمِنَا عن أَسْبَابِ الشَّرِ والفَسَادِ ويَسِّرْنَا لِلْعَمَلِ بالبَاقِيَاتِ الصالِحات بالجِدِّ والاجْتِهَاد ، وكَلِّل أَعْمَالَنَا بالنَّجَاحِ والسَّدَادِ ، وادْخِلْنَا الجَنَّةَ مَعَ أَوْلِيَائِكَ خِيْرَةِ العِبَادِ وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه الأخْيارِ الأمْجَاد .

(فصل)

وقِسْمٌ مِن النَّاسِ وَالعِيَاذُ باللهِ أَنْكَرُوْا يومَ القِيَامَةِ بَتَاتاً مُسْتَبْعِدِيْنَ ومُسْتَفْهِمِيْنَ اسْتِفْهَامَ إنْكَارٍ وتهكم ﴿أئذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿وضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قَال مَنْ يُحْيِيْ العظامَ وهي رَمِيْمٌ﴾ فأَوْضَحَ جَلَّ وَعَلاَ وَبَيَّنَ اَنَّ الذِيْ خَلَقَهُم وأنشَأَهُم أَوَّل مَرَةٍ قَادِرٌ عَلى إحْيَائِهِم بَعْدَ فَنَائِهِم .

بَلِ الإِعَادَةُ أَهْوَنُ في نَظَرِ النَّاسِ وَحُدُوْدِ قُدْرَتِهِم مِن الإِبْدَاعِ فالذِيْ يَعْتَرِفُ وَيُقِرُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الذِي بَدَأَ الخَلْقَ يَجِبُ عليهِ ويَتَحَتَّمُ أَنْ يُسَلِّمَ بِأَنَّ الله تعالى قادِرٌ على الإِعَادَةِ .

وذَكَرَ جَلَّ وَعَلاَ البَدْأَ دليلاً على الإعادة فقال ﴿ويقول الإنسان إذا ما مِتُّ لَســـوف أخـــرج حيـاً أَوَ لا يَـذْكُـرُ الانسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ولَـم يَكُ شَيْئَاً﴾ وَذَكَرَ جَلَّ وَعَلاَ في سُوْرَةِ الرُّوْمِ أَنَّ إِعَادَةَ الخَلْقِ أَهْوَنُ مِن ابْتِدَائِهِ فقال جَلَّ وَعَلاَ ﴿وهُوَ الذِي يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وهُوَ أَهْوَنُ عليهِ ولَهُ المَثَلُ الأَعْلَى في السمواتِ والأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيْمِ﴾ .

ومِنَ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ الدَّالَةِ عَلَى البَعْثِ دَلَالَةً قَاطِعَةً بمُجَرَّدِ نَظَرِ العَاقِلِ إِلَيْهَا يَسْتَدِلُ بِهَا اسْتِدْلالاً لاَ يَقْبَلُ الشَّكَ والشُّبْهَةَ بِوُقُوعِ مَا خَبَّرَتْ به الرُّسُلُ مِنَ البَعْثِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ على عِظَمِهِمَا فَكُلُ مُنصِفٍ يَعْلَمُ بالبَدَاهَةِ الحِسِّيَةِ أنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ في ابْتِدَائِهم وإِعَادَتِهِمْ .

وَوَرَدَ بِعِدَّةِ آيَاتٍ الاسْتِدْلَالُ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ المَوْتَى قالَ تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذِي خَلَقَ السمواتِ والأَرْضَ ولَمْ يَعْيَ بخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر﴾ .

وقال تعالى ﴿أَفَعَيِيْنا بالخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِن خَلْقٍ جَدِيْدٍ﴾ بِهَذِهِ الآيةِ أَكَّدَ جَلَّ وَعَلاَ صحَةَ البَعْثِ ، المَعْنَى أنَّ ابْتِداءَ الخَلْقِ لَمْ يُعْجِز الله والإِعادةُ أَسْهَلُ مِن الابْتِدَاءِ والكُلُ على اللهِ هَيِّنٌ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فيَكُون﴾ ، فلا مَجَالَ لِلشَّكِ فِي الإِعَادَةِ عِنْدَ مَنْ يُقِرُ في الابْتِدَاء .

وقال جَلَّ وَعَلاَ مُخْبِراً عَمَّا قَالَهُ الكُفَّارُ الذِيْنَ يَسْتَبْعِدُوْنَ البَعْثَ وَرَاداً عَلَيْهِم ﴿آئـذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » .

وقَدْ أَمَرَ الله رسولَهُ ﷺ أَنْ يُجِيْبَهُمْ ويُعَرِّفَهُم قُدْرَتَهُ على بَعْثِهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِم وانْشَائِهِ لَهُمْ كَمَا كَانُوا قَبْل بَلاَئِهِم خَلْقاً جَدِيْداً عَلى أيِّ حَالٍ كانُوا عِظَاماً أَوْ رُفَاتاً أَوْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيْدَاً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يُسْتَبْعَدُ عِنْدَكُمْ قَبُولُهُ لِلْحَيَاةِ فإِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر ، لا يُعْجِزُهُ إِعادَتُكُمْ مَهْمَا تَحَوَّلْتُم وتَمَزَّقْتُمْ وتَفَرَّقْتُمْ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴿فإِنَّما هِي زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فإِذَا هُمْ بالسَّاهِرة﴾ .

وأَخْبَرَ أَنَّه عِنْدَمَا يُقِيْمُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ على البَعْثِ يَقُولُوْنَ مَنْ يُعِيْدُنَا أَيْ مَنْ يُعِيْدُنَا وَنَحْنُ بهٰذِهِ الحَالِ : فَقُلْ تَحْقِيْقاً لِلْحَقِّ وَإِزَاحَةً للاسْتِبْعَادِ وارْشَاداً إلى طَرِيْقِ الاسْتِدْلَالِ ، الذِي يَفْعَلُ ذَلكَ هُوَ القَدِيْرُ العَظِيْمُ الذِي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا فِي السَّماءِ .

الذِي ذَرَأَكُم في الأَرْضِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ يُحْتَذَى وَلاَ مِنْهَاجٍ مُعَيَّنٍ يُنْتَحَى وكُنْتُمْ تُرَاباً لَمْ يَشُمَّ رَائحَةَ الحَيَاةِ أَلَيْسَ الذِي يَقْدِرُ على ذَلِكَ يَقْدِرُ علىَ أنْ يَجْمَعَ ما تَفَرَّقَ ويُفِيْضَ الحَيَاةَ عليهِ ويُعِيْدُهُ كَمَا خَلَقَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلَى إنَّه سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدير .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ مَا يَفْعَلُوْنَهُ حِيْنَ مَا يَسْمَعُوْا الجَوابَ « فَسيُنْغِضُوْنَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُوْلُونَ مَتَى هُوَ »أَيّ مَتَى هَذَا البَعْثُ وَفِي أيِّ وَقْتٍ وَحَالٍ يُعِيْدُنَا خَلْقاً جَدِيْداً كَمَا كُنَّا أَوَّلَ مَرَةٍ وَمَقْصَدُهُمْ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ اسْتِبْعَادُ حُصُوْلِهِ .

وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُم « وَيَقُولُون مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِيْن » قَالَ تَعَالَى « قُلْ عَسَى أنْ يَكُوْنُ قَرِيباً » أيّ فَاحْذَرُوا فَإنَّهُ قَرِيْبٌ مِنْكُمْ وَسَيأتِي لاَ مَحَالَةَ وَكُلُّ آتٍ قَرِيْب وَكُلُّ مَا هُوَ مُحَقَّقُ الحُصُوْلِ قَرِيب .

وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ فِي نَظَرِ العِبَادِ وَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ أَحَداً لاَ مَلَكاً مُقَرَّبَا وَلاَ نَبِيّاً مُرْسَلا «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيْبُوْنَ بِحَمْدِهِ » أيّ يَوْمَ يَدْعُوْكُمْ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ والحِسَابِ والجَزَاءِ فَتَسْتَجِيْبُوْنَ لَهُ مِن قُبورِكُمْ بِقُدْرَتِهِ وَدُعَائِهِ إِيَّاكُمْ وَلَهُ الحَمْدُ فِي كُلِّ حَالٍ وَتظُنُّونَ حِيْنَ تَقُوْمُوْنَ مِنْ قُبُوْرِكُمْ إنْ لَبِثْتُمْ إلاّ قَلِيْلا فِي دارِ الدُّنْيا وَقوْله « كَأَنَّهُمْ يَوم يَرَوْنَ مَا يوعَدُوْن لم يَلبثُوا إلاّ ساعَةً مِنْ نهار » .

وَنَحْوُ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تَعالَى « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوْا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وقوْله « وَيَوْمَ تَقُوْمُ السّاعةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُوْنَ مَا لَبِثُوا غيْرَ سَاعَةٍ » وقولُهُ « ويَوْمَ يحشُرهُمْ كأنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُوْنَ بَيْنَهُمْ » وَقَوْله « إِذْ يَقُولُ أمثلُهُم طَريقةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا » .

شعرا :

هُوَ الدَّهْرِ فَاصْبِرْ مَا عَلَى الدَّهْرِ مَعْتَبُ
وَلَيْسَ لَنَا مِمَّا قَضَى اللّهُ مَهْرَبُ
وَلاَ بُدَّ مِنْ كَأْسِ الحِمَامِ ضَرُورَةً
وَمَنْ ذَا الَّذِي مِنْ كَأْسِهِ لَيْسَ يَشْرَبُ
وَمَا يَعْمُرُ الدُّنْيَا الدَّنِيَةَ حَازِمُ
إِذَا كَانَ فِيْهَا عَامِرُ العُمْرِ يَخْرَبُ
وإِنَّ عَلِيّاً ذَمَّهَا فِي كَلاَمِهِ
وَطَلَّقَهَا وَالجَاهِلُ الغِرُّ يَخْطُبُ
أَلاَ إِنَّ هَذَا الكَوْنَ فِيْهِ مَوَاعِظُ
لِمُتَّعِظٍ مِن ظُلْمَةِ القَبْرِ يَهْرَبُ
فَكَمْ مِنْ عَظِيْمِ البَأْسِ صَارَتْ عِظَامَهُ
أَوَانٍ وَمِنْهَا المَاءُ يَا قَوْمُ يُشْرَبُ
وَيُنْقَلُ مِنْ أَرْضٍ لأُخْرَى وَمَا دَرَى
فَوَاهاً لَهُ بَعْدَ البِلَى يَتَغَرَّبُ

اللَّهُمَّ قَوِّمْنَا إِذَا اعْوَجَجْنَا وأَعِنَّا إِذَا اسْتَقَمْنَا وَكُنْ لَنَا وَلاَ تَكُنْ عَلَيْنا وَأَحْيِنَا فِي الدُّنْيَا مُؤْمِنِيْنَ طَائِعِيْنَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ مُخْلِصِيْنَ واجْعَلْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ

ثَابِتِيْنَ وَاجْعَلْنا مِمَّن يَأخُذُ كِتَابَهُ باليَمِيْنِ واجْعَلْنَا يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ مِنْ الآمِنِيْن وَمَتِّعْنَا بالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيمِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فصــل)

ومِنْ تَوَهُّمَاتِ المُنْكِرِيْنَ لِلْبَعْثِ أَنَّ مَنْ يَمُوْتُ يَضَلُّ رُفَاتُهُ فِي الأَرْضِ فَتَذْهَبُ صُوْرَتُهُ وَصِفَاتُهُ فَكَيْفَ يُرْجِعُ اللّهُ هَذِهِ الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ وَكَيْفَ يَجْمَعُ هَذِهِ الذَّرَّاتِ المُتَفَتِّتَةُ مِنْ عِظَامِهِمْ وَأَثَرُ هَذَا التَّوَهُّمُ الفَاسِدِ يَظْهَرُ فِي تَوَهُّمِهِمْ أَن عِلْمَ اللّهِ غَيْرُ مُحِيْطٍ بِكُلِّ صَغِيْرٍ وَكَبِيْرٍ مِن أَعْدَادِ الّذِينَ يَمُوْتُوْنَ مِن النّاسِ وَغَيْرُ محِيْطٍ بِصِفَاتِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرَ اللّهُ جَلَّ وَعَلاَ مَقَالَتَهُمُ الفَاسِدَةَ الّتِي تَدُلُّ عَلى هَذَا التَّوَهُّمِ مِنْ تَوَهُّمَاتِهِمْ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ « وَقَالُوا أئِذَ ظَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أئِنَّا لفِيْ خَلْقٍ جَدِيْد » وَهَؤُلاءِ قَاسُوْا قُدْرَةَ الخالِقِ الّذِي بَدَأهُمْ أوّلَ مَرَّةٍ عَلَى قُدْرَةِ المَخْلُوقِ العَاجِزِ ..

وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ القُدْرَتَيْنِ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون » « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فإِذَا هُمْ بالسَّاهِرَةِ » .

ثُمَّ زَادَ فِي النَّعْي عَلَيْهِمْ والإِنْكَارِ لآرَائِهِمْ بِقَوْلِهِ « بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُوْنَ » أيْ تَعَدَّوْا ذَلِكَ إِلى الجُحُودِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ وَذَكَرَ اللّهُ جَلَّ وَعَلاَ مَقَالَتَهُمْ هَذِهِ فِي سُوْرَةِ سَبَأ وَهُم أَتَوْا بِهَا عَلَى وَجْهِ الاسْتِهْزَاءِ وَالتَّهَكُّمِ وَالتَّكْذِيْبِ والاسْتِبْعَادِ والانْكَارِ .

« وَقَال الّذِيْنَ كَفرَوْا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئكُمْ إذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أَنَّكُمْ لَفِي خَلق جَدِيد » أيْ إنَّهُ يَقُولُ إذَا أَكَلَتْكُمُ الأَرْضُ وصِرْتُم رُفَاتاً وعِظَاماً وَقَطَّعَتْكُم السِّبَاعُ والطَّيْرُ سَتَحْيَوْنَ وَتُبْعَثُون ثُمَّ تُحَاسَبُوْنَ عَلَى مَا فَرطَ مِنْكُمْ مِنْ صَالِح العَمَلِ وَسَيِّئِه .

وَإنَّ أَمْرَهُ دَائِرٌ بَيْنَ أمْرَيْنِ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْتَرِياً عَلَى اللّهِ وَإمَّا أَنْ يَكُونَ مَجْنُوْناً فَرَدَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مَقَالَتهُمْ وأَثْبَتَ لَهُمْ مَا هُوَ أَشَدُّ وأَنْكى فَقَالَ « بَلْ الّذِيْنَ لا يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ والضَّلالِ البَعِيْدِ أيْ لَيْسَ الأمْرُ كَمَا زَعَمُوْا وَلاَ كَمَا ذَهَبُوْا إلَيْهِ .

بَلْ إنَّ مُحَمَّداً ﷺ صَادِقٌ فِيْمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ البَعْثِ وَهُمْ فِي شَقَاءٍ عَذَابٌ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ دَاخِلِ نُفُوسِهِمْ كُفْرٌ وشُكُوكٌ وأَوْهَامٌ وَفِي الآخِرَةِ إذَا بُعِثُوْا ذَاقُوا أَلْوَانَ العَذَابِ لأَنَّهُمْ مُجْرِمُوْنَ مُتَمَرِّدُوْنَ على الحَقِّ وهُمْ فِي الضَّلاَلِ البَعِيْدِ فِي عَقِيْدَتِهِمْ وفِي سُلُوكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ .

ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ بِمَا يُعَايِنُونَهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ مِنَ الدَّلِيْلِ العَقْلِي الدَّالِ عَلَى عَدَمِ اسْتِبْعَادِ البَعْثِ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَوْ نَظَرُوْا إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيْهِم وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأرْضِ فَرَأَوْا مِنْ قُدْرَةِ اللّهِ فِيْهِمَا مَا يَبْهَرُ العُقُوْلِ وَمِن عَظَمَتِهِ مَا يُذْهِلُ العُلَمَاءَ الفُحُوْلَ وَلَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَكَائِنْ مِنْ آيَةٍ فِي السّمواتِ والأرضِ يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُون » وَقَال عَمَّا قَالَهُ نُوْحُ عَلَيْهِ السّلام « قال يا قوم أَرَأَيْتُمْ إنْ كُنْتُ على بِينَةٍ مِنْ رَبِّي وآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكم أَنُلْزِمُكُمُوها وأَنْتُم لَهَا كَارِهُوْن » .

وَفِي الكَوْنِ مِن سِرِّ الوُجُوْدِ عَجَائِبٌ
أَطَـلَّ عَلَيْهَـا العَـارِفُـوْنَ وأَشْـرَفُـوْا

آخَرُ : فَيَا عَجَباً مِمَّنْ يُضِيعُ حَيَاتَهُ
عَلَى حِفْظِ مَالٍ وَهُوَ لِلْغَيْرِ يَدْخَرُ
وَمَنْ تُتَوفَّى نَفْسُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ
وتَرْجِعُ فِيْهِ كَيْفَ لِلْبَعْثِ يُنْكِرُ
بَلَى قَادِرٌ أَنْشَاهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
عَلَى رَدِّ رُوْحٍ مِنْهُ فِي الجِسْمِ أَقْدَرُ
آخَرُ : تَأَمَّلْ سُطُوْرَ الكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا
مِنَ المَلِكِ الأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ كَانَ فِيْهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا
أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللّهَ بَاطِلُ

وَفِي سُورةِ قٓ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ اسْتَبْعَدُوْا البَعْثَ وَتَعَجَّبُوْا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَمَّا قَالُوا « وقال الكَافِرُونَ هَذا شَيْءٌ عَجِيْب أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيْد » .

فَعُقُوْلُ هَؤُلاَءِ سَخِيْفَةٌ حَيْثُ قَاسَتْ قُدْرَةَ مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر وبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْم الكَامِلُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِقُدْرَةِ العَبْدِ الفَقِيْرِ الضَّعِيْفِ العَاجِزِ مِنْ جَمِيْعِ الوُجُوْهِ الجَاهِلِ الَّذِي لا عِلْمَ لَهُ .

فَقَالَ جَلَّ وَعَلاَ مُشِيْراً إلى دَلِيْلِ جَوَازِ البَعْثِ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ومُؤَكِّداً عِلْمَهُ بِجَمِيْعِ الأَشْياءِ « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهم وعندنا كِتَابٌ حَفِيْظ » حَافِظٌ لِتَفاصِيْلِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا مَحْفُوْظٌ عن التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ بِكُلِّ مَا يَجْرِيْ عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ أَوْ مَمَاتِهِمْ .

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَالَ مُنْكِرِيْ البَعْثَ لَفَتَ أَنْظَارَهُمْ إِلى الدَّلِيْلِ الّذِي يَدْحَضُ كَلاَمَهُمْ أَلاَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي آيَاتِهِ الأَفَاقِيَّةِ كَيْ يَعْتَبِرُوْا وَيَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى مَا جُعِلَتْ أَدِلّةً عَلَيْهِ .

فإِنَّ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَزَيَّنَهَا بالكَوَاكِبِ وأَحْكَمَهَا وَبَسَطَ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ وأَنْبَتَ فِيْهَا صُنُوفَ النَّبَاتِ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ واحدٍ وَيَتَفَاضَلُ فِي الأَكْلِ .

وَجَعَلَ ذَلِكَ تَبْصِرَةً لِأَوْلِي الأَلْبَابِ وَنَزَّلَ مِن السَّمَاءِ مَاءً فأنْبَتَ بِهِ خُضْرَ الجِنَانِ وَالزَّرْعِ المُخْتَلَفِ الأَصْنَافِ والأَلْوَانِ والطُعُومِ والنَّخْلِ البَاسِقِ ذَا الطِلْعِ المُتَرَاكِمِ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ رزقا للعباد وأَحْيَا الأرضَ الموات .

أَفَلاَ يَسْتَطِيْعُ مَنْ هَذِه قُدْرَتُه وَهَذَا شَأْنُهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ القُبُوْرِ بَعْدَ بَلاَئِهم وَبَعْدَ أَنْ يَصِيْرُوْا عِظَاماً وَرُفَاتاً ويُنْشِئُهُمْ خَلْقاً آخرَ في حَيَاةٍ اخْرَى وعَالَمٍ غَيْرَ هَذَا العَالَمِ بَلَى وَاللهِ إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر وبكلِ شَيءٍ أَحَاطَ عِلْمًا .

ومَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ السَّفَارِيْني :

واجْـزِمْ بـأَمْـرِ الـبَعْـثِ والنُـشُـوْرِ
والحَشْـرِ حَـزْمـاً بَعْـدَ نَفْـخِ الصُـوْرِ
كَـذَا وُقُـوفِ الـخَـلْقِ لِـلْحِسَـابِ
والـصُّـحْـفِ والـمِـيْـزَانِ لِـلثَّـوابِ
كَـذَا الصِراطِ ثُمَّ حَـوْظِ المُصْـطَفى
فَيـا هنـا لِـمَنْ بِـهِ نَـالَ الـشِفَـا

عَنْـهُ يُـذَادُ المُـفْتَـرِيْ كَـمَـا وَرَدْ
وَمَنْ نَحَـا سُبْـلَ السَّـلامَـةْ لَمْ يُـرِدْ
وَكُنْ مُـطِيْعـاً وَأقْفُ أهْـلَ الـطَّـاعَـةْ
في الحَـوْضِ والكَـوْثَـرِ والشَّفَـاعَـةْ
فـانَّـهَـا ثَـابِتَـةٌ لِـلْمُـصْـطَفَـى
كَغَيـرِهِ مِـن كُـلِّ أرْبـابِ الْـوَفَـا
مِنْ عَـالِمٍ كـالـرُسْـلِ والأبْـرَارِ
سِـوَى التِي خُصَّتْ بِـذِي الأنْـوَارِ

اللهم انا نعوذ بك مِن جَهْدِ البَلاء ودَرَكِ الشَّقَاء وشَمَاتَةِ الأعْدَاء وسوءِ المنظر في الأهلِ والمالِ والولَدِ اللهم حَبِّبْ إليْنَا الايمانَ وزَيِّنْهُ في قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إلينَا الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ واجعلنا مِن الراشدين واغفر لَنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصـل)

ومِن الأدلَّةِ الدَّالّةِ على البَعْثِ قولُه تعالى ﴿ومِن آياتِهِ أنَّك تَرَى الارض خاشِعةً فإذا أنْزَلْنَا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ ورَبَّتْ إنَّ الذي أحْيَاهَا لمحْيي الموتى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير » .

إنَّ جَفَافَ الزَّرْعِ ويُبْسَ الشَّجَرِ وانْقِطَاعَ تَغْذِيَتِهِ مِن الأرْضِ وحَصَادَهُ وتَحَطُّمَهُ يُشْبِهُ حَالةَ المَوْتِ في الأحياء .

ثُمَّ إنَّ سُنَّةَ اللهِ الكَوْنِيَةِ الدَّائِمَةِ الظَّاهِرَةِ المُشَاهَدَةِ في عَمَلِيَّةِ انْشِقَاقِ

الحُبُوْبِ في بَطْنِ الأَرْضِ ونَبَاتِها بَعْدَ مَا سَبَقَ مِن حَالِهَا التِي تُشْبِهُ حَالةَ المَوتِ وَعَوْدَتِهَا إلى الحياة .

والنَّظْرَةَ كَرَّةً أخِرَةً وذلكَ عِنْدَ وُجُوْدِهَا في البَيْئَةِ المُلائِمَةِ مِن مَاءٍ مُمْتَزِجٍ بالتُّرابِ الصَّالِحِ لِتُعْطِيْ تَقْرِيْباً حِسِّياً مُشَاهَدَاً بِاسْتِمْرارٍ في الظَواهِرِ الكَوْنِيَّةِ لِقِصَّةِ بَعْثِ الحَيَاةِ وتَفَرُّقِ أَجْزَائِهَا فِي تُرَابِ الأَرْضِ .

وقَدْ نَبَّهَ اللهُ في القُرْآنِ إلى هَذَا الشَاهِدِ الكَوْنِي الذِيْ يُقَرِّبُ إلى تَصَوُّرِ أَصْحَابِ هَذَا التَّوَهُمِ إمْكَانَ الحَيَاةِ الأُخْرَى وأَنَّهَا تُشْبِهُ عَوْدَةَ الحَيَاةِ إلى الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَفَافِهَا ومَا يُشْبِهُ حَالَةَ المَواتِ فِيْهَا قالَ اللهُ تعالى ﴿وَتَرى الأَرْضَ هَامِدَةً فإِذَا أَنْزَلْنَا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ مِن كُلُ زَوْجٍ بَهِيْجٍ ذَلِكَ بأن اللهَ هُوَ الحَقُ وأنهُ يُحْيِ المَوْتَى وأنه على كلِ شيءٍ قَدِير﴾ .

وقَالَ فِي سُوْرَةِ الرُّوْمِ ﴿فانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ المَوْتَى وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر﴾

وقالَ فِي سُوْرَةِ قَ ﴿وَنَزَّلْنَا مِن السَّمَآءِ ماءً مُبارَكاً فأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيْدِ والنخلَ باسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيْد رِزْقاً لِلعِبادِ وأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوْجِ﴾ جعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ما سَبَقَ دَلِيْلاً على البَعْثِ لِأَنَّهُ شَبِيْهٌ بِهِ .

وفي التَعْبِيْرِ عَن إخْرَاجِ النَّبَاتِ مِن الأَرْضِ بالاحْيَاءِ وعن احْيَاءِ المَوْتَى بالخُرُوْجِ تفخِيْمٌ لِشَأْنِ الإِنْبَاتِ وَتَهْوِيْنٍ لِأَمْرِ البَعْثِ وتَحقِيْقٌ لِلْمُمَاثَلَةِ بَيْنَ اخْرَاجِ النَّبَاتِ وإِحْيَاءِ المَوْتَى لِتَوْضِيْحِ مِنْهَاجِ القِيَاسِ وتَقْرِيْبِهِ لِأَفْهَامِ النَّاسِ وكَذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وهُوَ الذِيْ يُرْسِلُ الرِيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فأنْزَلْنا بِهِ الماءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ

كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ﴾ .

فَفِي إِحْيَاءِ الأَرْضِ اليَابِسَةِ بَعْدَ نُزُوْلِ المَطَرِ عَلَيْهَا دَلِيْلٌ قَاطِعٌ واضِحٌ على إِحْيَاءِ المَوتَى فَكَمَا أَحْيَا الأَرْضَ بَعدَ مَوْتِهَا يُحْيِ الأَجْسَادَ وَيُعِيْدُ إِلَيْهَا أَرْواحَهَا يَومَ القِيَامَةِ .

فَيَقُومُ النَاسُ مِن قُبُورِهم لِرَبِ العَالَمِين كَمَا أَخْبَرَ جَلَّ وَعَلاَ وهُوَ أَصْدقُ قَائِل وذَلِكَ أَنَّ اللهَ يُنْزِلَ مَاءً مِن السَّمَاءِ فَتُمْطَرُ الأَرْضُ أَرْبَعِيْنَ يوماً فَتَنْبُتُ مِنْهُ الأجسادُ في قُبُورِهِمْ كَمَا يَنْبُتُ الحَبُّ في الأَرْضِ ، قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

وإِذَا أَرَادَ اللهُ اخْـرَاجَ الـوَرَى
بَعْـدَ المَمَـاتِ إِلى مَـعَـادٍ ثَـانِي
أَلْقَى عَلَى الأَرْضِ التِي هُمْ تَحْتَهَا
واللهُ مُـقْـتَـدِرٌ وذُوْ سُـلْطَانِ
مَـطَراً غَـلِيْـظاً أَبْيَـضـاً مُتَتَـابِعـاً
عَشْـراً وعَشْـراً بَعْـدَهَـا عَشْـرَانِ
فَتَـظَلُّ تَنْبُتُ مِنْـهُ أَجْسَـامُ الـوَرَى
ولُـحُـومُهُـم كَمَنَـابِتِ الـرَّيْـحَـانِ
حَـتَّى إِذَا مَـا الأُمُّ خَـانَ وِلاَدُهَـا
وتَـمَخَّـضَـتْ فَـنِفَـاسُهَـا مُـتَـدَانِ
أَوْحَى لَهَـا رَبُّ السَّمـا فَتَشَـقَّقَـتْ
فَبَـدَا الجَنِيْـنُ كَـأَكْمَـلِ الشُّبَـانِ

وَتَـخَلَّتِ الأُمُّ الـوَلُـوْدُ وَأخْـرَجَتْ
أثْـقَـالَـهَـا أنْثَـى وَمِـنْ ذُكْـرَانِ
واللهُ يُـنْشِـئُ خَلْقَهُ فِـي نَـشْـأَةٍ
أُخْـرَى كَمَـا قَـدْ قَـالَ في القُـرْآنِ
هَـذَا الذِي جَـاءَ الكِتَابُ وَسُنَّـةُ الْـ
ـهَـادِيْ بِـهِ فَـاحْرِصْ عَلَى الإِيْمَـانِ

يُضَافُ إلى هَذِهِ الأدِلَّةِ مَا ذَكَرَ اللهُ في كِتَابِهِ أَيْضاً مِثْلَ قِصَّةِ إِحْيَاءِ قَتِيْلِ بَنِي اسْرَائِيلَ لِسُؤالِهِ عن القَاتِلِ وَهَذِهِ القِصَّةِ أَخْبَرَنَا اللهُ بِهَا فِي أَوَائِلِ سُوْرَةِ البَقَرةِ وَمُلَخَّصُهَا فِيْمَا ذُكِرَ أَنَّهُ كانَ فِي بَنِي اسْرَائِيْلَ شَيْخٌ مُوْسِرٌ لَهُ ابْنٌ وَاحِدٌ قَتَلَهُ ابنُ عَمِّهِ طَمَعاً في مِيْرَاثِهِ .

ثُمَّ جَاءَ يُطَالِبُ بدَمِهِ قَوْماً آخَرِيْنَ فَأنْكَرُ المُتَّهَمُوْنَ قَتْلَهُ وَتَرَافَعُوا إلى مُوْسَى عليهِ السَّلامُ كِلٌ مِنْهُمْ يَدْفَعُ التُّهْمَةَ عن نَفْسِهِ فَقَالَ لَهُمْ مُوْسَى إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوْا بَقَرَةً وَذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ القَاتِلُ الحَقِيْقِيُّ فَقَالُوا أَتَهْزَأُ بِنَا قَالَ مُوْسَى ﴿أَعُوْذُ باللهِ أَنْ أَكُوْنَ مِن الجَاهِلين﴾ فَسَأَلُوهُ عن مَا تَتَمَيَّزُ بِهِ مِن الأَوْصَافِ وَشَدَّدُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَثَرُوْا عَلَيْهَا وَذَبَحُوْهَا وَمَا كَادُوْا يَفْعَلُونَ ثُمَّ ضَرَبُوْا جَسَدَ القَتِيْلِ بِبَعْضِ البَقَرَةِ التِي ذَبَحُوْهَا فَأَحْيَا اللهُ القَتِيْلَ وأَخْبَرَ بالقَاتِلِ .

ومِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ وَكَيْفَ ضَرَبَ اللهُ عَلَى آذَانِهِمْ ثَلاثَةَ قُرُوْنٍ وَتَزِيْدُ تِسْعُ سِنِيْنَ وحَفِظَ أَجْسَامَهُمْ مِن البِلَى على طُولِ الزَّمَانِ وثِيَابَهُمْ مِنَ العَفَنِ والبِلَى وأَعْثَرَ عَلَيْهِمْ الفَرِيْقَ الآخَرَ الذينَ كَانُوا في شَكٍّ مِن قُدْرَةِ اللهِ عَلَى إِحْيَاءِ المَوْتَى وَفِي مِرْيَةٍ مِن إِنْشَاءِ أَجْسَامِ خَلْقِهِ كَهَيْئَتِهِمْ يَوْمَ قَبْضِهِمْ بَعْدَ

البِلَى لِيَعْلَمُوْا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ وَيُوْقِنُوْا أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيْهَا فَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ ودَلِيْلٌ عَلَى وُقُوعِ المَعَادِ الجِسْمَانِي يَوْمَ القِيَامَةِ .

ومِنْ ذَلِكَ الذِيْنَ خَرَجُوْا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلوفٌ حَذَرَ المَوتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوْتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ثُم بَعْدَ هَذِهِ الإِمَاتَةِ أَحْيَاهُمْ فَفِيْهَا أَيْضا عِبْرَةٌ وَدَلِيْلٌ قَاطِعٌ عَلى وُقُوْعِ المَعَادِ الجُسْمَانِيْ وَأَنَّهُ لا مِرْيَةَ فِيه ومِن ذَلِكَ قِصَّةُ الذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوْشِهَا فقال مُسْتَبْعِداً لِعَوْدَةِ عِمَارَتِهَا وإِحْيَاءِ أَهْلِهَا أَنَّى يُحْيِ هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فأَمَاتَهُ اللهُ مَائةَ عَامٍ ثُمَّ بعثَهُ قِيْل إِنَّ اللهَ تَعالى أَمَاتَهُ في أَوَّلِ النَّهَارِ وأَحْيَاهُ بَعْدَ المائَةِ آخِرَ النَّهارِ .

وقِيْلَ واللهُ أَعْلَمُ أَوَّلَ شَيْءٍ أَحْيَاهُ اللهُ فِيْهِ عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا إِلى قُدْرَةِ اللهِ وَصُنْعِهِ كَيْفَ يُحْي بَدَنَهُ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ سَوِياً قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوماً أَوْ بَعْض يَومٍ قَالَ جَلَّ وَعَلا وَتَقَدَّسَ بَلْ لَبِثْتَ مَائَةَ عَامٍ فانْظُرْ إِلى طَعَامِكَ وشَرَابِكَ قِيْلَ كَانَ مَعَهُ عَنِبٌ وَتِينٌ وَعَصِيْرٌ فَوَجَدَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ وانْظُرْ إِلى حِمَارِكَ كَيْفَ يُحْيِيْهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ « ولِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ » أيْ دَلِيْلاً عَلَى المَعَادِ حَيْثُ أَحْيَاهُ اللهُ بَعْدَ إِمَاتَتِهِ وَأَحْيَا حِمَارَهُ ولـم يَتَغَيَّرْ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ إِحْيَاءُ الطُّيُوْرِ الأَرْبَعَةِ لَمَّا طَلَبَ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السلامُ مِن اللهِ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِ المَوْتَى لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ فأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ أَرْبَعَةً مِن الطَّيْرِ فَيُقَطِّعُهُنَّ أَجْزَاءً ثُمَّ يُفَرِّقُهَا عَلَى عِدَّةِ جِبَالٍ حَوْلَهُ ثُمَّ يَدْعُوْهَا فَفَعَلَ وَدَعَاهَا بِأَسْمَائِهِنَّ فأَقْبَلْنَ إِلَيْهِ سَرِيْعَاتٍ تَطِيْرُ والطَّيْرُ أَشَدُّ الحَيَوانِ نُفُوراً مِنَ الانْسَانِ غَالِباً فهذا أَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى كَمَالِ عِزَّةِ اللهِ وحِكمَتِهِ وقُدْرَتِهِ عَلَى البَعْثِ والمعاد والجزاء . فتبارك اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِيْن .

ومِنَ الأَدِلَّةِ الدَّالَةِ على البَعْثِ مَا فِي قِصَّةِ مُوْسَى وَهرُوْنَ مَعَ فِرْعَونَ فَفِي قَلْبِ عَصِيَ مُوْسَى حَيَّةً تَسْعَى تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ أكبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى البَعْثِ وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ تِنِّيْناً عَظِيْماً هَائِلاً ذَا قَوَائِمَ وَعُنُقٍ وَرَأْسٍ وأَضْراسٍ فَجَعَلَتْ تَبْتَلِعُ تِلْكَ الحِبَالَ والْعُصِيَّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ إلاَّ ابْتَلَعتْهُ والسَّحَرَةُ والناسُ يَنْظُرُوْنَ إلى ذَلِكَ عِيَاناً جَهْرَةً نَهاراً ضَحْوَةً .

ثُمَّ أَمَرَهُ الله جَلَّ وَعَلا بِأَنْ يَأْخُذَهَا قَالَ له ﴿خُذْهَا ولاَ تَخَفْ﴾ فَلَمَّا أَمَرَهُ بِأَخْذِهَا لَفَّ طَرَفَ المِدْرَعَةَ عَلَى يَدِهِ فَقَالَ لَهُ مَلَكٌ أَرَأَيْتَ يَا مُوْسَى لَوْ أَذِنَ الله بِمَا تُحَاذِرُ أَكانتِ المِدْرَعَةُ تُغْنِيْ عَنْكَ شَيْئاً قَالَ لاَ وَلَكِنِّيْ ضَعِيْفٌ وَمِن ضُعْفٍ خُلِقْتُ فَكَشَفَ عَن يَدِهِ ثمَّ وَضَعَهَا في فَمِ الحَيَّةِ حَتَّى سَمِعَ حِسَّ الأَضْرَاسِ والأَنْيَابِ ثُمَّ قَبَضَ فإذَا هِيَ عَصَاهُ التِي عَهِدَهَا وإذَا يَدُهُ في مَوْضِعَهَا إذَا يَتَوَكَأُ عَلَيْهَا بَيْنَ الشُعْبَتَيْنِ فَفِيْهَا دَلِيْلٌ وَاضِحٌ على بَعْثِ الأجْسَادِ لِمَنْ بَصَّرَهُ الله وَنَوَّرَ عَقْلُهُ .

ومِنَ الأَدِلَّةِ الدَّالَةِ على البَعْثِ مَا أَيَّدَ الله به عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ عَلَى إحْيَاءِ المَوْتَى قَالَ الله تعالى ﴿ورَسُولاً إلى بَنِي اسْرَائِيلَ أَنِي قَدْ جِئْتِكُم فيهِ مِن رَبِّكُمْ أَنِي أخْلُقُ لكُم مِن الطِيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾ فَكَان يُصَوِّرُ مِن الطِّيْنَ شَكْلَ طَيْرٍ ثمّ يَنْفَخُ فِيه فَيَكُونُ طَيْراً فَيَطِيْرُ عِيَاناً بإِذْنِ اللهِ .

فَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ البَرَاهِيْنِ عَلَى بَعْثِ الأَجْسَادِ وكَذَلِكَ إحْيَاءُ المَوْتَى بإِذْنِ اللهِ قال تعالى « وأحْيِ المُوْتَى بإِذْنِ اللهِ » فَهَذَا بُرْهَانٌ وَاضِحٌ عَلَى بَعْثِ الأَجْسَادِ لاَ رَيْبَ فِيهِ لِذِي عَقْلٍ سَلِيْمٍ .

اللّهُمَّ يَا مَنْ لاَ تَضُرُّهُ المعصيَةُ ولاَ تَنْفَعُه الطَّاعَةُ أَيْقِظْنَا مِنْ نَوم الغَفْلَةِ وَنَبِّهنْا لاغْتِنَام أَوْقَاتِ المُهْلَةِ وَوَفِّقْنَا لِمصَالِحِنَا واعْصِمْنَا مِنْ قَبَائحنا وذُنُوبنا ولا تُؤاخِذْنَا بِمَا انْطَوَتْ عليْه ضَمائِرُنا واكَنَّتْهُ سَرَائِرُنا مِنْ أنْواع القَبَائح والمَعَائِب

التي تَعْلَمُها مِنّا واغْفِرْ لَنا ولِوالِدِيْنَا ولجميع المُسْلِمينَ الأحْياءِ مِنهُمْ والميتينَ بِرَحْمَتِك يا أرحَمَ الرّاحِمينَ وصَلى اللَّهُ على مُحَمّدٍ وعَلَى آلِه وَصَحْبِه أجْمعين .

« هَذِهِ أبْيَاتٌ مُخْتَارَةٌ مِن قَصِيْدَةٍ لِبَعْضِ »
« العُلَمَاءِ رَداً عَلَى مَنْ قَالَ بالطَّبِيعَةِ »

وَاهاً لِدُنْيَا إِذَا مَا أَقْبَلَتْ قَتَلَتْ
وشَوْطُ إِقْبَالِهَا فَوْتٌ وَإِدْبَارُ
دَسَّتْ لَكَ السُّمَّ في حَلْوَى زَخَارِفِهَا
وَزَيَّنَتْ لَكَ مَا عُقْبَاهُ أَضْرَارُ
وعِشْتَ دَهْراً مِنَ الأَعْوَامِ مُنْتَظِراً
فِي مَلْعَبٍ كُلُّهُ جُرْمٌ وإِصْرَارُ
حَتَّى إِذَا جَاءَ وَقْتُ المَقْتِ وَانْتَشَبَتْ
يَا لاَهِياً لِلْمَنَايَا فِيْكَ أَظْفَارُ
خَابَتْ ظُنُوْنُكَ فِي دُنْياً مُخَادِعَةٍ
أَلْوَتْ عِنَانَكَ عَمَّا كُنْتَ تَخْتَارُ
يَا ذَا الوِجَاهَةِ والجَاهِ العَرِيْضِ لَقَدْ
خَانَتْ عُهُوْدَكَ أَعْوَانٌ وأَنْصَارُ
أَلْقَوْكَ فِي حُفْرَةٍ هَالَتْكَ وَحْشَتُهَا
كَأَنَّها مِخْدَعٌ يُغْلَى بِهِ القَارُ
وَغَادَرُوْكَ وَمَا فِي الحَيِّ مِن حَكَمٍ
تَشْكُو إِلَيْهِ وَمَا فِي الدَّارِ دَيَّارُ
يَا رَاقِداً وَمَضِيْقُ القَبْرِ مَضْجَعُهُ
أَمَلَّكَ القِطْرُ أَمْ ضَاقَتْ بِكَ الدَّارُ

أبعدَ مَا فِي مَغَـانِي الحَيِّ مِن سَعَةٍ
تُغْنِي الضَّجِيْـعَ عنِ الأَمْيَـالِ أَشْبَـارُ
خَلَوْتَ وَحْــدَكَ لاَ خِـلٌ وَلاَ خَــدَمٌ
فَهَـلْ تُنَـاجِيْـكَ بـالإِصْــلاَحِ أَفْكَـارُ
أَمْ أَنْتَ مِمَّنْ يَـرَوْنَ المَوْتَ رَاحَتَهُمْ
يَـا حَبَّذَ المـوْتِ لَوْلاَ الحَشْـرُ والنَّارُ
والقَبْــرُ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِيْــهِ مُنَغِّـصَــةٌ
حَـاكَتْ زَوَايَـاهُ رَوْضـاً فِيْـهِ أَزْهَـارُ
لَكِنَّــهُ وَظَـلاَمُ الــزَّيْــغِ يُـوْحِشُـهُ
سِجْنٌ لَـهُ مِنْ ذَوَاتِ النَّهْشِ عُمَّـارُ
فَهَلْ يُحَاكِي قُبُـورَ القَوْمِ مَضْجَعُكُمْ
أَمْ زَاحَـمَتْـكَ ظَــلاَمَــاتٌ وآصَــارُ
بِـالأَمْسِ صَدْراً أَخَـا كِبْرٍ وَغَـطْرَسَـةٍ
وَمَــا سِـوَى الصَّــدْرِ نَهَــاؤٌ وَأَمَّــارُ
وَاليَوْمَ بَيْنَ هَوَامِ الأَرْضِ مُضْـطَجِعٌ
فِي مَضْجَـعٍ مَـا بِـهِ جَـارٌ وَسُمَّــارُ
وَاهــاً لِـدُنْيَــا إِذَا مَــا أَقْبَلَتْ قَتَلَتْ
وشَــوْطُ اقْبَــالِـهَــا فَـوْتٌ وإِدْبَـارُ
تَمُـرُّ بـالمَـرْءِ مَرَّ الـطَّيْفِ بَـاسِمَــةً
وخَلْفُهَـا مِن جُيُوْشِ الحُـزْنِ جَـرَّارُ
إِذَا سَقَتْ كَـأْسَ إِيْنَاسٍ أخَـا سَفَـهٍ
تَجَــرَّعَ السُّـمَّ مِنْـهُ وَهُــوَ مُـخْتَـارُ

وَمَـا السُّمُـوْمُ سِـوَى لِـذَّاتِهَــا وبِهَـا
كَمْ أَهْلَكَتْ أُمَمَاً فِي القَبْرِ قَدْمَا رُوْا

تَزْهُوْ لأَهْلِ الهَوَى حَتَّى إِذَا ابْتَهَجُوْا
جَــاءَتْ بِـمَــا فيْــهِ أرْزَاءٌ وَأَكْــدَارُ

يَـا وَيْحَ مَنْ أَخَـذَتْ يَـوْمـاً بمِخْنَقِـهِ
إلى طَـرِيْقٍ إِلَيْهَــا يَـنْتَـهِي الـعَــارُ

ويَا نَدَامَةَ مَنْ لَمْ يَبْكِ إنْ ضَحِكَتْ
فَضِحْكُهــا لِـذَوِيْ الـلَّذَاتِ إِنْــذَارُ

وَيَــا خَسَــارَةَ مَنْ أَنْـسَتْــهُ مَـبْـدَأَهُ
ومُنْتَهَــاهُ وَلَـمْ يُـوْقِـظْهُ تَـذْكَـارُ

كَـالشَّابِ تُنْسِيْهِ عَصْرَ الشَّيْبِ غُـرَّتُهُ
حَـتَّـى إِذَا عَـلِقَــتْ بــالأُزْرِ أَوْزَارُ

فَـرَّ الشَّبَـابُ وَظَـلَّ الشَّيْبُ هَـازِمَـهُ
إِنَّ الشَّبَــابَ أَمَــامَ الـشَّيْـبِ فَــرَّارُ

فَهَـلْ لِـذِي الجَــاهِ أَنْ يَنْسَى مَنِيَّتَـهُ
والمَوْتُ فِي رَأْسِ رَبِّ الجَاهِ مِعْثَارُ

وَكَمْ وَجِيْــهٍ تَعَــامَى عَنْ عَــوَاقِبِــهِ
إِذْهَــابَــهُ خَـشْيَــةً عَـمْــروٌ وَعَـمَّــارُ

وَظَـلَّ فِي زُخْرُفِ التَّضْلِيْـلِ مُتَّجِـراً
وَالنَّـاسُ مِنْـهُ بِسُـوْقِ الـزَّيْـغِ تَمْتَـارُ

حَتَّى إِذَا مَا الرَّدَى لِلْمَـوْتِ أَضْجَعَهُ
أَضْحَى كَـأُضْحِيَةٍ مِنْ حَـوْلِهَـا دَارُوا

وَمَـاتَ وَالخَوْفُ حَيٌّ بَيْنَ أَضْلُعُـهِ
وَلِلْمَخَـازِيْ بِـتِلْكَ الـدَّارِ أَدْوَارُ
أُفٍّ لِـمُقْبِلَةٍ مَـرَّتْ عَـلَى عَـجَـلٍ
كَـأَنَّهَـا الفَجْـرُ لَمْ يُمْهِلْهُ إِسْفَـارُ
كَـأَنَّمَـا أَنْتَ وَالـدُّنْيَا وَمَـا صَنَعَتْ
أُلْعُـوْبَـةٌ بَـاعَهَـا الصِّبْيَـانِ مِهْـزَارُ
أَلْهَتْهُمُـوا بُـرْهَـةً حَتَّى إِذَا تَـلِفَتْ
وَفَـاتَهُمْ فِي المَسَـادَفِّ وَمِـزْمَـارُ
لَمْ يَلْبَثُوا فِي المَلَاهِيْ غَيْرَ سَاعَتِهِمْ
وَقَـدْ دَهَـتْـهُـمْ مُـلِمَّـاتٌ وَأَكْـدَارُ
وَهَكَـذَا كُـلُّ حَـالٍ لَا بَقَـاءَ لَهَـا
وَكُلُّنَـا فِي الجَنَى لِلْمَـوْتِ أَثْـمَـارُ
وَكُـلُّ مَنْ كَـانَتْ الأَيَّـامُ مَـرْكَبَـهُ
فَـكُـلُّ أَوْقَـاتِـهِ ظَـعْـنٌ وَأَسْـفَـارُ
تَبّـاً لِـدَارٍ أَرَتْنَـا مِـنْ مَـلَاعِبِـهَـا
عَجَـائِبـاً مَـا أَتَـاهَـا الـدَّهْـرَ سَحَّـارُ
فَيَا أَخَا العِلْمِ لَا يُنْجِيْكَ عِلْمُكَ إِنْ
فَـاتَتْـكُ خَشْيَـةُ رَبٍّ اسْمُـهُ البَـارُ
وَيَـا أَخَا المَـالِ لَا تَـرْكَنْ لِكَثْـرَتِـهِ
فَـالـمَـالُ كَـالمَـاءِ كَـرَّارٌ وَفَـرَّارُ
وَالجَاهُ ضَيْفٌ وَعُقْبَى الضَّيْفِ رِحْلَتُهُ
وإِنْ دَعَتْـهُ لِـطُولِ المُكْثِ أَوْطَـارُ

واضْرَعْ إلى اللّهِ يَا مَنْ بَاتَ في سَعَةٍ
مِنْ نِعْمَةِ اللّهِ إنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ
ونِعْمَةُ اللّهِ تَأْتِي طَيَّ رَحْمَتِهِ
كَمَاطِرٍ غَيْثُهُ الهَطَّالُ مِدْرَارُ
لَكِنَّمَا الغَيُّ والطُّغْيَانُ يَنْقُصُهَا
فَمَا تَهَنَّى بِهَا فِي الكَوْنِ كُفَّارُ
وإِنْ تَقُلْ إنَّ أَهْلَ البَغْيَ فِي نِعَمٍ
فَرَكْبُهُمْ فِي طَرِيْقِ الغَمِّ سَيَّارُ
والغَافِلُونَ لَهُمْ فِي القَبْرِ مُزْعِجَةٌ
وَبَعْدَ فَصْلِ القَضَا عُقْبَاهُمُ النَّارُ

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُوْرِ الإيمَانِ واشْرَحْ صُدُوْرَنَا واسْتُرْ عُيُوْبَنَا وأَمِّنْ خَوْفَنَا وَوَفِّقْنَا لاسْتِغْرَاقِ أَوْقَاتِنَا فِي البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ واجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ الّذِيْنَ لَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون وآتِنَا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفِي الآخِرَة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللّهُ عَلى مُحَمّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِبْن .

(فصـــل)

قَال ابْنُ القيّم رَحِمَهُ اللّهُ :

طَبَقاتُ المُكَلَّفِيْنَ في الآخِرَةِ ثَمانِيَةَ عَشَرَ طَبَقَةً أَعلاهَا مَرْتَبَةُ الرُّسُلِ صَلَواتُ اللّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِم وَهُمْ ثَلاثُ طَبَقاتٍ أَعْلاَهُمْ أُولُو العَزْمِ الخَمْسَةُ ثُمَّ مَنْ عَدَاهُمْ من الرسل ثم االأَنْبِياءُ الّذِيْنَ لَمْ يُرْسَلُوا إِلَى الأُمَمِ.

الرَّابِعَةُ : الصّدّيقُونَ وَرَثَهُ الرُّسُلِ القَائِمُونَ بِمَا بُعِثُوْا بِهِ عِلْماً وعَمَلاً وَدَعْوَةً لِلْخَلْقِ إلى اللّهِ عَلَى طَرِيْقِهِمْ .

الخَامِسَةُ : أَئِمّةُ العَدْلِ وَوُلاَتُهُ .

السادِسةُ : المُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللّهِ .

السابِعَةُ : أَهْلُ الإِيْثَارِ وَالإِحْسَانِ وَالصَّدَقَةِ .

الثّامِنَةُ : مَنْ فَتَحَ اللّهُ عَلَيْهِ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الخَيْرِ القَاصِرِ عَلَى نَفْسِهِ مِن صَلاةٍ وَصِيامٍ وَحَجٍّ وَغَيْرِهَا .

التّاسِعَةُ : طَبَقَةُ أَهْلِ النَّجَاةِ وَهُمْ مَن يُؤَدِّيْ فَرَائِضَ اللّهِ وَيَجْتَنِبْ مَحَارِمَهُ .

العَاشِرَةُ : طَبَقَةُ قَوْمٍ أَسْرَفُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَغَشَوْا كَبَائِرَ مَا نَهَى اللّهُ عَنْهُ وَلَكِنْ رَزَقَهُمُ اللّهُ التَّوْبَةَ النَّصُوْحَ قَبْلَ المَوْتِ فَمَاتُوا عَلَى تَوْبَةٍ صَحِيْحَةٍ .

الحادِيَةَ عَشَرْ : طَبَقَةُ أَقْوَامٍ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً وَلَقُوا اللّهَ مُصِرِّيْنَ غَيْرَ تَائِبِيْنَ لَكِنْ حَسَنَاتُهُمْ أَغْلَبُ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَإِذَا وُزِنَتْ بِهَا رَجَحَتْ كِفَّةُ الحَسَنَاتِ فَهَؤُلاءِ أيْضاً نَاجِحُوْنَ فَائِزُوْنَ .

الثّانِيَةَ عَشَرْ : قَوْمٌ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيّئَاتُهُمْ وَهُمْ أَصْحَابُ الأعْرَافِ وَهُوَ مَوْضِعٌ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنّارِ ولَكِنْ مَآلُهُمْ إلى دُخُوْلِ الجَنَّةِ .

الثّالِثَ عَشَرْ : طَبَقَةُ أَهْلِ البَلِيَّةِ والمِحْنَةِ وَهُمْ قَوْمٌ مُسْلِمُوْنَ خَفَّتْ مَوازِيْنُهُمْ وَرَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ وَهَؤُلاءِ الّذِيْنَ ثَبَتَتْ فِيْهِمْ الأحَادِيثُ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ فَيَكُونُوْنَ فِيْهَا عَلَى مِقْدَارِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ يُخْرَجُوْنَ

مِنْهَا بشَفَاعَةِ الشَّافِعِيْنَ وبِرَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِيْن .

الرَّابِعَةَ عَشَر : قَوْمٌ لاَ طَاعَةَ لَهُمْ وَلاَ مَعْصِيَةَ وَلاَ كُفْرَ وَلاَ إِيْمَانَ وَهُمْ أَصْنَافٌ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ بِحَالٍ وَمِنْهُمْ المَجْنُونُ الّذي لا يَعْقِلُ ومِنْهُمْ الأصَمُّ الّذي لا يَسْمَعُ شَيْئاً أَبَدا ومِنْهُمْ أطْفَالُ المُشْرِكِيْنَ الّذِينَ مَاتُوْا قَبْلَ أنْ يُمَيِّزُوْا شَيْئاً فاخْتَلَفَتِ الأَئِمَّةُ فِيْهِمْ عَلَى ثَمَانِيَةَ مَذَاهِبٍ أَرْجَحُهَا أَنَّهُمْ يُمْتَحِنُوْنَ في عَرَصَاتِ القِيَامَةِ ويُرْسَلُ إِلَيْهِمْ هُنَاكَ رَسُولٌ فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ .

وبِهَذَا تَتَّفِق الأحَادِيْثُ وَتُوَافِقُ الحِكْمَةُ والعَدْلُ .

الطَّبْقَةُ الخَامِسَةَ عَشَرَ : طَبَقَةُ الزَّنَادِقَةِ وَهؤُلاءِ المُنَافِقُوْنَ الّذِيْنَ أَظْهَرُوْا الإِسْلاَمَ وأَبْطَنُوا الكُفْرَ وهُمْ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِن النّارِ .

الطَّبَقَةُ السَّادِسَةَ عَشَرَ : رُؤُسَاءُ الكُفْرِ وأَئِمَّتُهُ وَدُعاتُهُ وَيَتَغَلَّظُ الكُفْرُ بِغِلَظِ العَقِيْدَةِ وبِالعِنَادِ وبالدَّعْوَةِ إلى البَاطِلِ .

الطَّبقَةُ السّابِعَةَ عَشَرَ : طَبَقَةُ الْمُقَلِّدِيْنَ وَجُهَّالُ الكَفرَةِ وَقَدْ اتَّفَقَتِ الأُمَّةُ عَلَى أَنَّهُم كُفَّارٌ .

الثّامِنَةَ عَشَرَ : طَبَقَةُ الجِنّ وهُمْ مُكَلَّفُوْنَ مُثَابُونَ وَمُعَاقَبُوْنَ بحَسَبِ أعْمَالِهِمْ ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوْا ولِيُوْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُوْنَ .

وقَالَ الإنابَةُ الرُّجُوعُ إلى اللّهِ وانْصِرافُ دَوَاعِي القَلْبِ وَجَوَاذِبِهِ إِلَيْهِ وَهِيَ تَتَضَمَّنُ المَحَبَّةَ والخَشْيَةَ والنَّاسُ فِي إِنَابَتِهِمْ دَرَجَاتٌ مُتفاوِتَةٌ فَمِنْهُمْ المُنِيْبُ إلى اللّهِ بِالرُّجُوْعِ إِلَيْهِ مِن المُخَالَفَاتِ والمَعَاصي والحَامِلُ الخَوْفُ وَالعِلْمُ .

ومِنْهُمُ المُنِيْبُ إلى اللّهِ في أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ فهُوَ سَاعٍ بِجُهْدِهِ وَمَصْدَرُهَا الرَّجَاءُ وَمُطَالَعَةُ الوَعْدِ والثَّوَابِ وَهَؤُلاءِ أَبْسَطُ نُفُوْساً مِن الأَوَّلِيْنَ وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُنِيْبٌ بِالأمْرَيْنِ ولَكِنْ يَغْلِبُ عَلَى الأَوَّلِيْنَ الخَوْفُ وَيَغْلِبُ الرَّجَاءُ عَلَى الآخِرِيْن .

ومِنْهُمُ المُنِيْبُ إِلَيْهِ بالتَّضَرُّعِ والدُّعَاءِ وكَثْرَةِ الافْتِقَارِ وسُؤَالِ الحَاجَاتِ كُلِّهَا مَعَ قِيَامِهِمْ بالأمْرِ والنَّهْيِ ومِنْهُمْ المُنِيْبُ إلى اللّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَقَطْ إِنَابَة المُضْطَّرِّ لا إِنَابَةَ اخْتِيَارٍ .

وَأَعْلَى أَنْوَاعِ الإِنَابَاتِ إِنَابَةُ الرُّوْحِ بِجُمْلَتِهَا إِلَيْهِ لِشِدَّةِ المَحَبَّةِ الخَالِصَةِ المُغْنِيَة لَهُمْ عَمَّا سِوَى مَحْبُوْبِهِمْ وَحِيْنَ أَنَابَتْ إِلَيْهِ لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ شَيْء عَنِ الإِنَابَةِ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا رَعِيَّتُهَا وَأَدَّتْ وَظَائِفَهَا كَامِلَةً فَسَاعَةٌ من إِنَابَةِ هَذَا أَعْظَمُ مِن إِنَابَةِ سِنِيْنَ مِنْ غَيْرِهِ وذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ انتهى .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ نَحْنُ فِي عَصْرٍ بَارَكَ اللّهُ فِيْهِ بَرَكَةً عَمَّتِ المَشَارِقَ والمَغَارِبَ وَكُلَّ مَا للأَرْضِ مِنْ أَنْحَاءَ مِمَّا نَعْلَمُهُ وَجَّهَ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ أَفْكَارَ بَنِيْ آدَمَ إلى مَا أَوْدَعَهُ فِي خَلْقِهِ مِن أَسْرَارٍ تَفُوْتُ الاحْصَاءَ وَيَسَّرَ لَهُمْ السَّبِيْلَ فَوَصِلُوا مِنْ التَّرَاقِيْ فِي الاخْتِرَاعِ والاطِّلاعِ إلى مَا يُدْهِشُ الأفْكَارَ وتَزْدَادُ بِهِ عَقِيْدَةُ المُؤْمِنِ قُوَّةً فَلاَ يَعْتَرِيْهِ أَدْنَى شَكٍّ فِي مَا أَخْبَرَ اللّهُ بِهِ وَرَسُولُه .

أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا كُلُّها كَأَنَّهَا بَيْتٌ وَاحِدٌ يُكَلِّمُ النّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مَعَ بُعْدِ المَسَافَةِ وَيُسَافِرُوْنَ بَرّاً وَبَحْراً فيَقْطَعُوْنَ بِالمَرَاكِبِ البَرِيَّةِ والبَحْرِيَّةِ في مُدَّةٍ يَسِيْرَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى مُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ فِيْمَا مَضَى وَتَنْقُلُ تِلْكَ المَرَاكِبُ الّتِي خَلَقَهَا

اللّهُ لَنا مِنَ الأثْقالِ بِقُوَّةٍ وسُرْعَةٍ تَقِفُ أَمَامَهَا الألبَابُ حَائِرَاتٍ بَلْ لَوْ أَرَادُوْا مُسَابَقَةَ الطّيْرِ فِي السَّمَاءِ لَسَبَقُوْهُ بِالطّائِراتِ .

فَسُبْحَانَ مَنْ أَرْشَدَ عِبَادَهُ إِلَى صُنْعِ هَذِهِ المُخْتَرَعَاتِ قَالَ تَعَالَى « واللّهُ أخرجَكُم مِن بُطُوْنِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ والأفْئِدَةَ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُوْنْ » .

وانْظُر إِلَى الكَهْرَباءِ وَفَائِدَتِهِ العَظِيْمَةِ في اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَقَدْ صَارَ اللَّيْلُ بِأنْوَارِهِ وكَأنَّهُ نَهارٌ وَمَا فِيْهِ مِنْ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ والمَنَافِعِ العَظِيْمَةِ الّتِي لَمْ تَحْصُلْ لِمَنْ قَبْلَنَا أَلَيْسَ هَذا مِن أَعْظَم البَرَاهِيْنِ والأدِلّةِ عَلَى صِدْقِ مَا أَخْبَرَ اللّهُ بِهِ بِقَوْلِهِ « سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ » .

وَعَلَى صِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ مِنْ أَنَّ الزَّمَانَ يَتَقَارَبُ وَهَا أَنْتَ لاَ تَمْشِي شَرْقاً وَلاَ غَرْباً إِلاّ وَأَنْتَ تَرَى وَتَسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الأَسْرَارِ مَا تَحَارُ بِهِ الأَفْكَارُ فَنَحْنُ اليَوْمَ نَتَقَلَّبُ فِي كُلِّ أَحْوَالِنَا فِي نَعِيْمٍ لَمْ يَظْفَرْ بِهِ عَصْرٌ مِنَ الأعْصَارِ حَتَّى إِنَّكَ تَرَى حَيَوَانَ هَذَا العَصْرِ فِي رَاحَةٍ وإِكْرَامٍ لَمْ تَتَمَتَّعْ بِهَا بَنُوْ العُصُورِ الْمَاضِيَاتِ إِنَّ حَقّاً عَلَيْنَا إزاءَ كُلِّ هَذَا أنْ نَكُوْنَ أَسْبَقَ الأجْيَالِ فِي مِيْدَانِ شُكْرِ اللّهِ لِيُبَرْهِنَ كُلٌ مِنّا أَنَّهُ يُحِسُّ وَيَشْعُرُ بِمَا اخْتَصَّهُ بِهِ مَوْلاَهُ أ ـ هـ .

ولكِنْ يَا لِلأَسَفِ لَمْ يَكُنْ مِنّا شُكْرُ هَذِهِ النِّعَمِ وَاسْتِعْمَالُهَا فِي طَاعَةِ اللّهِ وَمَرَاضِيْهِ وَدَلِيْلُ ذَلِكَ مَا تَرَى وَتَسْمَعُ مِن المَعَاصِي والمُنْكَراتِ الّتِي تَكَادُ أنْ تَبْكِي مِنْ فُشُوِّهَا وَازْدِيَادِهَا الجَمَادَاتُ .

فَيَا لَلّهِ لِلْمُسْلِمِيْنَ إِنَّهَا لَتَجْرَحُ قَلْبَ المُؤْمِنِ السَّالِمِ مِنْهَا جَرْحاً يُوْشِكُ أنْ يُوْصِلَهُ إِلى القَبْرِ اللّهُمَّ وَفِّقْ وُلاَتَنا لإِزَالَةِ هَذِهِ المُنْكَراتِ ولِتأْيِيْدِ الإِسلامِ

والمُسْلِمِيْنَ في جَمِيْعِ الجِهَاتِ وَوَفِّقْهُمْ لِلرِّفْقِ فِي رَعَايَاهُمْ والنُّصْحِ لَهُمْ وَسَدِّدْ خُطَاهُمْ .

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأَعْمَالَ ، ونَجِّنَا من جميعِ الأَهْوَالِ ، وأَمِّنَا مِن الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الرَّجْفِ والزلْزَالْ ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ، وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

عَنْ ابن عَبَّاسٍ رضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ نِعْمَتَانِ مَغْبُوْنٌ فِيْهِمَا كَثِيْرٌ مِن النَّاسِ الصّحة والفَرَاغُ رَواهُ البُخاريّ والتّرمذيّ والنّسائيّ وأحْمد وابن ماجة .

لَقَدْ صَدَقَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فِيْمَا قَالَهُ فِي هَذَا الحَدِيْثِ العَظِيْمِ فَإِنَّ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ يُهْمِلُ وَاجِبَ النِّعَمِ عليْهِ فلاَ يَسْتَقْبِلُ النِّعَمَ بِمَا يَجِبُ لَهَا مِنَ الشُّكْرِ وَلاَ يُحَاوِلُ اسْتِبْقَاءَهَا بأدَاءِ حَقِّ اللّهَ فِيْهَا بَلْ يُعْرِضُ عَنْ اللّهِ وَيَنْآى بِجَانِبِهِ وَلاَ يَذْكُرُ هَذِهِ النِّعْمَةَ مِنْ نِعَمِ اللّهِ عَلَى عَظِمِهَا إلاّ حِيْنَ يَعْدُوْ عَلَيْهَا المَرَضُ فيُذْبِلُ نَضْرَةَ العَافِيَةِ وَيَخْطُوْ بِقُوَّةِ الشَّبَابِ على غَيْرِ مَوْعِدٍ إلى ضَعْفِ الشَّيْخُوْخَةِ .

أَمَّا حِيْنَ يَنْعَمُ الإِنْسَانُ بِسَلاَمَةِ أَعْضَائِهِ وقُوَّةِ بُنْيَتِهِ وَحِيْنَ يُحِسُّ الحَيَوِيَّةَ تَسْرِيْ فِي عُرُوْقِهِ فَهُوَ يَنْطَلِقُ فِي شَهَوَاتِهِ خَاضِعاً لَهَا ، وَهُوَ يَظُنُّ نَفْسَهُ الآمِرَ النَّاهِي ، وخَاسِراً بِهَا وَهُوَ يَحْسِبُ نَفْسَهُ قَدْ رَبِحَ كُلَّ شَيْءٍ .

وتَمْضِيْ بِهِ أَيَّامُهُ وَلَيَالِيْهِ وَهُوَ يَرْتَعُ كَالحَيَوَانِ فِي مَلَذَّاتِهِ مِنْ مَأْكُوْلاتٍ وَمَشْرُوْبَاتٍ دُوْنَ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ حَلاَلٍ وَحَرَامٍ ومِنْ غَيْرِ تَمِيْزٍ بَيْنَ طَيِّبٍ وَخَبِيْثٍ فَيُسِيءُ إِلَى نَفْسِهِ وَيَبْخَسُهَا حَقَّهَا إِذْ يُضَيِّعُ طَاقَتَهَا عَلى العَمَلِ النَّافِعِ وَعَلَى الطَّاعَةِ الوَاجِبَةِ فِي اللَّهْوِ واللَّعِبِ .

وَبِلاَ شَكٍّ أَنَّ الصِّحَةَ عَرَضٌ لا يَدُوْمُ بَلْ يَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ وأَنَّ المَرَضَ يُفْقِدُ الإِنْسَانَ مُعْظَمَ طَاقَتَهُ عَلَى العَمَلِ بَلْ رُبَّمَا فَقَدَهَا كُلَّها وَعَجِزَ فَمِنَ السَّفَهِ والحُمُقِ إِذاً أَنْ لاَ يَغْتَنِمَ الإِنْسَانُ فُرْصَةَ الصِّحَّةِ والفَرَاغِ مِن الشَّوَاغِلِ لِلطَّاعَةِ والعِبَادَةِ .

وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَتَقَدَّمُ بِهِ الزَّمَنُ يَقْصُرُ عُمُرُهُ وَمَقْدِرَتُهُ عَلَى العَمَلِ تَضْعُفُ كُلَّمَا خَطَا بِهِ الزَّمَنُ وَمحْصُوْلُهُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَقِلُّ كُلَّمَا أَقْعَدَهُ المَرَضُ أَوْ أَثْقَلَتْهُ السُّنُوْن فالعَاقِلُ اليَقِظُ يُحَافِظُ عَلَى وَقْتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُحَافَظَتِهِ عَلَى مَالِهِ وَلاَ يُضَيِّعُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ يَسْتَعْمِلَهُ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللّهِ والدَّارِ الآخِرَةِ أَوْ مَا هُوَ سَبَبٌ إلى ذَلِكَ فَإِنَّ فَاتَهُ شَيْءٌ أَوْ نَسِيَ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِ بِاللَّيْلِ قَضَاهُ بِالنَّهَارِ وبِالعَكْسِ .

ولِلّهِ آياتٌ كَوْنِيَّةٌ وآيَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ يَتَمَشَّى المُسْلِمُ النَّشِيْطُ المُبْتَعِدُ عَنْ الكَسَلِ والعَجْزِ عَلَى ضَوْئِهَا . قال تَعَالى : ﴿وهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهار خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورَا﴾ وقَالَ : ﴿إِنَّ في اخْتِلافِ اللّيلِ والنّهارِ ومَا خَلَق اللّه في السموات والأرضِ لآياتٍ لقَوْم يَتّقُون﴾ .

وقَالَ تَعَالى : ﴿يُغْشَى اللّيلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ فاللّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَخْلُقْ هَذِهِ عَبَثاً فالذّاهِلُونَ عن مَعَانِي هَذِهِ الآياتِ ، الهَائِمُوْنَ وَرَاءَ مَنَافِعِهِمْ المُعَجَّلَةِ حَمْقَى لا يَنْتَصِحُوْنَ مِن حِكْمَةٍ وَلا يَسْتَفِيْدُوْنَ مِنْ دَرْسٍ تَجِدْهُمْ لا يُبَالُوْنَ باضَاعَةِ أَوْقَاتِهِمْ في غَيْرِ فائِدَةٍ وَرُبَّما أَضاعُوْهَا فِي المَعَاصِي .

اللهم ثَبّتْ محَبتَك في قُلوبِنَا وَثَبّتْ إِيْمَانَنَا وَنَوّرْ بَصَائِرَنَا واهدنا سُبُلَ السَّلاَمِ وَجنِّبْنَا الفواحِشَ ما ظهرَ مِنْهَا وما بَطَنَ وأَلْهِمْنَا ذِكْرِكَ وشُكْرَكَ واعمُرْ أَوقَاتَنَا بِتِلاَوَةِ كِتابِكَ وأرْزُقْنَا التَدَبُر له والعَمَل به في الدقِيْقِ والجليل

واغفْر لَنا وَلِوَالدَيْنَا وجميعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

شعرا ـ قال بعضهم :

« إذا شَغَّلَ الضُّيَاعُ آلاتِ لَهْوِهِمْ
وَطَابَ لَهُمْ عِنْدَ المَلاَهِيَ مَحْفَلُ »
« وَسُرُّوْا بِمَا فِيْهِ هَلاَكُ نُفُوْسِهِمْ
وَدِيْنُهُمُ وَالأَهْلُ وَالمَالُ أَوَّلُ »
« فَقُمْ وَتَوَضّأ وأقْصِدْ الماجِدَ الّذي
إذا مَا مَضَى الثُّلْثَانِ لِلَّيْلِ يَنْزِلُ »
« يَقُولُ ألاَ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَ سُؤْلَهُ
ومُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرْ لَهُ مَا يُؤَمِّلُ »
« ومِنْ مُذْنِبٍ مِمَّا جَنَى جَاءَ تَائِباً
إلَى غَافِرٍ لِلّذَنْبِ لِلتَّوْبِ يَقْبَلُ »
« وَكَرِّرْ سُؤَالاً وَالدُّعَا بِتَضَرُّعٍ
لَعَلّكَ تُحْظَى بِالفَلاَحِ فَتُقْبَلُ »
« وَقُلْ عَبْدُكَ المِسْكِيْنُ قَدْ جَاءَ تَائِباً
وَيَرْجُوْكَ تَوْفِيْقاً ولِلْعَفْوِ يَأْمَلُ »
« فَجُدْ وَتَجَاوَزْ يَا جَوَادُ لِمَنْ أتَى
وَلَيْسَ لَهُ إلاَّ رَجَاؤُكَ مَوْئِلُ »

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ أَهْلَ الضَّيَاعِ لِلْوَقْتِ الّذِيْنَ كَانَ أَمْرُهُمْ فُرُطَا وأَعْمَارُهُمْ سَبَهْلَلَا لا يُفِيْقُوْنَ مِنْ قَتْلِ أَوْقَاتِهِمْ فِي البَطَالَةِ وعِنْدَ المُنْكَراتِ مِنْ كورة وفِدْيو وتِلِفزْيُون ومِذْيَاعٍ وسِيْنَمَا وَوَرَقٍ وَغِيْبَة ونَمِيْمَةٍ وتَجَسُّسٍ على المسلمين ونحْوِ ذَلِك

رُبَّمَا أَضَافُوْا إلى ذَلِكَ الجِنَايَةَ عَلَى أَوْقَاتِ الآخَرِيْن فَشَغَلُوهُم عنْ أَعْمَالِهِمْ بِشُئُونٍ تَافِهَةٍ أَوْ فِيْمَا يَعُوْدُ عَلَيْهِم بِالخُسْرانِ فَهَؤُلاَءِ أَسَاؤُوا مِنْ جِهَتَيْن عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذْ يُمْضُونَ أَيَّامَهُمْ فِي غَيْرِ عَمَلٍ وَعَلَى غَيْرِهِمْ حَيْثُ شَغَلُوْهُمْ عَن العَمَلِ والعَجَبُ أنَّ هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ اعْتَادُوْا قَتْلَ الوَقْتِ إِذَا مَا تَبَيَّنَ فَشَلُهُمْ فِي نَوْبَةِ يَقْظَةٍ رَاحُوْا يَتساءَلُوْنَ عَنْ سِرِّ هَذَا الفَشَلِ وَيَتَّهِمُوْنَ الأَيَّامَ تارةً والحَظّ تَارَةً أُخْرَى ، كَأَنَّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مَطْبُوْعُونَ عَلَى النَّجَاحِ دُوْنَ عَمَلٍ وَأَنْ يَجْنُوْا ثِمَارَ مَوَاهِبِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوْا هَذِهِ المَوَاهِبَ .

أَمَّا السَّبَبُ الحَقِيْقي لِفَشَلِهِمْ فَهُوَ لاَ يَخْطُرُ لَهُمْ بِبالٍ وَلا يُفَكِّرُوْنَ فِيْهِ وذَلِكَ لِضُعْفِ عُقُوْلِهم .

فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَن هَؤُلاَء الكُسَالَى كُلَّ البُعْدِ لِئلا يُؤَثِّرُوْا عَلَيْهِ فَيُصِيْبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِن ضَيَاعِ العُمْرِ سُدَى وَيَجْتَهِدَ فِي صُحْبَتِهِ ضِدَّ هَؤُلاَءِ أُناساً أَتْقِيَاءَ مُحَافِظِيْنَ عَلَى أَوْقَاتِهِمْ لاَ يُمْضُوْنَهَا إلا في طاعَةِ اللّهِ وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيْل :

فَصَاحِبْ تَقِيّاً عَالِماً تَنْتَفِعْ بِهِ
فَصُحْبَةُ أَهْلِ الخَيْرِ تُرْجَى وَتُطْلَبُ
وَإِيَّاكَ والفُسَّاقَ لا تَصْحَبَنَّهُمْ
فَقُرْبُهُمُ يُعْدِي وَهَذَا مُجَرَّبُ
فَإِنَّا رَأَيْنَا المَرْءَ يَسْرِقُ طَبْعَهُ
مِن الإِلْفِ ثُمَّ الشَّرُّ لِلنَّاسِ أَغْلَبُ
وجَانِبْ ذَوِيْ الأَوْزارِ لا تَقْرَبَنَّهُمْ
فَقُرْبُهُمُ يُرْدِي ولِلْعِرْضِ يَثْلِبُ

وبالتَّالِي فالّذِي يُرْشِدُنَا إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذا الحَدِيثِ أَنَّهُ يُقَرِّرُ أَوّلاً أَنَّ صِحَّةَ البَدَنِ نِعْمَةٌ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللّهِ عَلَيْنَا لِيُرَبّي فِيْنَا الوَعْيَ بِقِيْمَةِ الطَّاقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الّتِي خَلَقَهَا اللّهُ فِيْنَا . فَنَسْتَغِلّها فِيْمَا يَعُوْدُ عَلَيْنَا أَفْرَاداً وَجَمَاعَةً بالخَيْرِ والنَّفْعِ .

وَيُقَرِّرُ لَنَا ﷺ ثَانِياً أَنَّ الوَقْتَ هُوَ الحَيَاةُ ، وَأَنَّ مَا نَحْسِبُهُ فَرَاغاً فَنَتَفَنَّنُ فِي وَسَائِلِ قَتْلِهِ هُوَ الطَّرِيْقُ إِلى التَّقَدُّمِ فَالحَقِيْقَةُ أَنَّ الحَيَّ الّذِي يُقَدِّرُ حَيَاتَهُ يَبْخَلُ فِي الوَقْتِ أَنْ يَكُونَ فِيْهِ فَارِغاً وَيَجْتَهِدُ فِيْهِ فِي العَمَلِ الذي يُقَرّبُهُ إِلَى اللّهِ وإِلى مَرْضَاتِهِ مِنْ صَلَاةٍ وَصَدقَة وتَهْلِيل وتَسْبِيح وتكْبير وتَحْمِيد .

وَمِن اسْتِغْلالِ الوَقْتِ بِأَنْفَعِ الوَسَائِلِ المُدَاوَمَةُ عَلَى العَمَلِ وَإِنْ كَانَ قَلِيْلاً . وذَلِكَ أَنَّ اسْتِدَامَةَ العَمَلِ القَلِيْلِ عَلَى تَوَالي الزَّمَانِ واسْتِمْرَارِهِ يُكَوِّنُ مِن القَلِيْل كَثِيْراً مِنْ حَيْثُ لا يَجِدُ الإِنْسَانُ مَشَقَّةً وَلا ضَجَراً .

وفِي الحَدِيْث إِنّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلى اللّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ وفِي الحَدِيث الآخَرِ إِنَّ الدِّيْنَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدّيْنَ أَحَدٌ إِلّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوْا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوْا واسْتَعِيْنُوْا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ والقَصْدَ القَصْدَ .

فَقَدْ خَتَمَ ﷺ هَذَا الحَدِيثَ بوَصِيَّةٍ خَفِيْفَةٍ على النُّفُوسِ ، نَافِعَةٍ تُرْشِدُ إِلى المُحَافِظَةِ عَلَى الوَقْتِ ، حَيْثُ حَثّ فِيْهَا عَلَى التَّبْكِيْر وَرغَّبَ أَنْ يَبْدأَ المُسْلِمُ أَعْمَالَ يَوْمِهِ نَشِيْطاً طَيّبَ النَّفسِ مُكْتَمِلَ العَزْمِ فَإِنَّ الحِرْصَ عَلَى الانْتِفَاعِ مِنْ أَوّلِ اليَوْمِ يَسْتَتْبِعُ الرَّغْبَةَ القَوِيَّةَ في أَنْ لا يَضِيْعَ سائِرُهُ سُدَى .

فَهَذِهِ الأَوْقَاتُ الثّلاثَةُ المَذْكُورَةُ فِي الحَدِيثِ ، كَمَا أَنَّهَا السَّبَبُ الوَحِيْدُ لِقَطْعِ المَسَافَاتِ القَرِيْبَةِ والبَعِيْدَةِ في الأَسْفَارِ الحِسّيَةِ مَعَ رَاحَةِ المُسَافِرِ وَرَاحَةِ

رَاحِلَتِهِ وَوُصُوْلِهِ بِرَاحَةٍ وَسُهُوْلَةٍ فَهِيَ السَّبَبُ الوَحِيْدُ لِقَطْعِ السَّفَرِ الأُخْرَوِيِّ وَسُلُوْكِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ والسَّيْرِ إلى اللّهِ سَيْراً جَمِيْلاً .

فَمَتَى أَخَذَ العَامِلُ نَفْسَهُ وَشَغَلَهَا بِالخَيْرِ والأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ المُنَاسِبَةِ لِوَقْتِهِ أَوَّلَ نَهَارِهِ وآخِرَ نَهَارِهِ وشَيْئاً مِنْ لَيْلِهِ وخُصُوصَاً آخِرَ اللَّيْلِ حَصَلَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ ومِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالحاتِ أَكْمَلُ حَظٍّ وَأَوْفَرُ نَصِيْبٍ وَنَالَ السَّعَادَةَ والفَوْزَ والفلاحَ وَتَمَّ لَهُ النَّجَاحُ بِإِذْنِ اللّهِ فِي رَاحَةٍ وَطُمَأْنِيْنَةٍ مَعَ حُصُوْلِ مَقْصَدِهِ الدُّنْيَوِيِّ وأَغْرَاضِهِ النَّفْسِيَّةِ .

وَمِمَّا وَرَدَ فِي الحَثِّ عَلَى صِيَانَةِ الوَقْتِ مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ اغْتَنِمْ خَمساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ .

وَقَال ﷺ مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللّهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللّهِ الجَنَّةَ وَرُوِيَ عنْ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَرَّ بِي رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ وأنَا مُضْطَجِعَةٌ مُتَصَبِّحَةٌ فَحَرَّكَنِي بِرِجْلِهِ ثُمَّ قَالَ يَا بُنَيَّةَ قُوْمِي اشْهَدِي رِزْقَ رَبِّكِ وَلاَ تَكُونِي مِنَ الغَافِلِيْنَ فَإِنَّ اللّهَ يَقْسِمُ أَرْزَاقَ النّاسِ مَا بَيْنَ طُلُوْعِ الفَجْرِ إلى طُلُوْعِ الشَّمْسِ » إِذْ أَنَّ الجَادِيْنَ أَوْ الكُسَالَى يَتَمَيَّزُوْنَ فِي هَذَا الوَقْتِ فَيُعْطَى كُلُّ أمْرِءٍ حَسَبَ اسْتِعْدَادِهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ .

وخِتَاماً فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ اللَّبِيْبِ أَنْ لاَ يُضَيِّعَ أَيَّامَ صِحَّتِهِ وَفَراغَ وقْتِهِ بِالتَّقْصِيْرِ فِي طَاعَةِ اللّهِ، وَأَنْ لاَ يَثِقَ بِسَالِفِ عَمَلٍ وَيَجْعَلَ الاجْتِهَادَ غَنِيْمَةَ صِحَّتِهِ ، وَيَجْعَلَ العَمَلَ فُرْصَةَ فَراغِهِ . فَلَيْسَ الزَّمَانُ كُلُّهُ مُسْتَعِدّاً وَلاَ مَا فَاتَ مُسْتَدْرِكاً .

قَال بَعْضُهُمْ فَوْتُ الوَقْتِ أَشَدُّ مِنْ فَوْتِ الرُّوْحِ عِنْدَ أَصْحَابِ الحَقِيْقَةِ لأَنَّ فَوْتَ الرُّوْحِ إنْقِطَاعٌ عنْ الخَلْقِ وَفَوْتُ الوَقْتِ انْقِطَاعٌ عَنِ الحَقِّ .

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ الرَّاحَةُ لِلرِّجَالِ غَفْلَةٌ وللنِّسَاءِ غِلْمَةٌ فَالفَرَاغُ مَفْسَدَةٌ وقَالَ بَعْضُهُمْ لا تُمْضِ يَوْمَكَ في غَيْرِ مَنْفَعَةٍ وَلاَ تُضِعْ مَا لَكَ فِي غَيْرِ الفِعْلِ الحَسَنِ ، فَالعُمْرُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ يَنْفَدَ فِي غَيْرِ المَنَافِعِ كَمَا قِيْلَ :

أَذَانُ الْمَــرْءِ حِيْنَ الــطِّفْــلِ يَــأتِيْ
وتَــأْخِيْــرُ الصَّــلاةِ إلـى المَـمَــاتِ
دَلِــيْــلٌ أَنَّ مَــحْــيَــاهُ قَــلِيْــلٌ
كَـمَــا بَـيْـنَ الأذَانِ إلـى الـصَّــلاَةِ

وَالمَالُ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُصْرَفَ فِي غَيْرِ الصَّنَائِعِ والعَاقِلِ أَجَلُّ وأَكْيَسُ مِنْ أنْ يُفْنِي أَيَّامَهُ فِيْمَا لاَ يَعُودُ إلَيْهِ نَفْعُهُ وَخَيْرُهُ ويُنْفِقُ أَمْوَالَهُ فِيْمَا لاَ يَحْصُلُ لَهُ ثَوَابُهُ وأَجْرُهُ .

وَقَالَ عِيْسَى عَلَيْهِ وَعَلى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ البِرُّ ثَلاَثَةٌ المَنْطِقُ والنَّظَرُ والصَّمْتُ فَمَنْ كَانَ مَنْطِقُهُ في غَيْرِ ذِكْرٍ فَقَدْ لَغَا وَمَنْ كَانَ نَظَرُهُ فِي غَيْرِ اعْتِبَارَ فَقَدَسَها وَمَنْ كَانَ صَمْتُهُ فِي غَيْرِ فِكْرٍ فَقَدَ لَهَا .

ومِمَّا يَحْفِزُ الإِنْسَانَ عَلَى المُسَابَقَةِ إلى فِعْلِ الطَّاعَاتِ تَذَكُّرُ يَوْمِ القِيَامَةِ وَحَالَةَ السَّبْقِ لِلْمُجدِّيْنَ قَالَ بَعْضُهُمْ :

إذَا مَضَتِ الأَوْقَـاتُ فِي غَيْرِ طَـاعَـةٍ
وَلَمْ تَكُ مَحْزُوْناً فَذَا أعْظَمُ الخَطْبِ

عَلاَمَةُ مَـوْتِ القَلْب أنْ لَا تَرَى بِـهِ
حَراكاً إِلى التّقْوَى ومَيْلًا عَنِ الذَّنْبِ

وقالِ الآخر :

وَلَـوْ قَـدْ جِئْتَ يَـوْمَ الفَصْـلِ فَـرْداً
وأبْـصَـرْتَ المَـنَـازِلَ فِيْـهِ شَتَّـى
لأَعْـظَمْتَ النَّـدَامَـةَ فِيْـهِ لَهْـفـاً
عَلَى مَـا فِي حَيَاتِـكَ قَـدْ أُضَعْتَـا

فَالعَاقِلُ مَنْ يُبَادِرُ أَيَّامَ الصِّحَّةِ وَالسَّلاَمَةِ ولا يُفَوِّتُ مِنْهَا شَيْئاً فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللّهِ .

قال الأَعْشَى :

إذا أَنْتَ لَمْ تَـرْحَـلْ بِـزَادٍ مِنَ التُّقَى
وَأَبْصَرْتَ بَعْدَ الْمَـوْتِ مَنْ قَدْ تَـزَوَّدَا
نَـدِمْتَ عَـلَى أَنْ لاَ تَكُـوْنَ كَمِثْلِهِ
وَأَنَّـكَ لم تُـرْصِـدْ كَمَا كـانَ أَرْصَـدَا

شعرا :

تَغَنَّمْ سُكُـوْنَ الحَـادِثَـاتِ فَـإِنَّهَـا
وَإِنْ سَكَنَتْ عَمَّـا قَـلِيْـلٍ تَحَـرَّكُ
وبَـادِرْ بِـأَوْقَـاتِ السَّـلامَـةِ إِنَّهَـا
رِهَـانٌ وهَـلْ لِلرَّهْنِ عِنْـدَكَ مَتْـرَكُ

نَسْأَل أن يُوفِقَنَا لِتَدبُّرِ آياتِهِ وفَهْمِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ والعَمَلِ بِهِمَا وأَنْ يَرْزُقَنَا الانْتِفَاعَ بِمُرُوْرِ الزَّمَنِ على خَيرِ وَجْهٍ إِنَّه القَادِرُ على ذلكَ ، اللهم أَيْقِظْنَا مِن هَذِهِ السِّنَةِ وَوَفِقْنَا لِإتِّبَاعِ ذَوِي النُفُوسِ المُحْسِنَةْ وآتِنَا في الدنيا حَسَنَةً وفي الآخرةِ حَسنةً وَقِنَا عذابَ النارِ ، اللهم وآتِنَا أَفْضَلَ ما تُؤْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِيْنَ

واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

(فصل)

وفي وَصِيَّةِ الإِمَامِ المُوَفَّقِ بن قُدَامَةَ مَا لَفْظُهُ : فاغْتَنِمْ رَحِمَكَ الله حَيَاتَكَ النَّفِيْسَةَ واحْتَفِظْ بأَوْقَاتِكَ العَزِيْزَةِ واعْلَمْ أنَّ مُدَّةَ حَيَاتِكَ مَحْدُوْدَةٌ وأَنْفَاسَكَ مَعْدُوْدَةٌ فكُلُ نَفسٍ يَنْقُصُ بِهِ جُزْءٌ مِنْكَ والعُمْرُ كُلُّهُ قَصِيْرٌ والبَاقِي مِنْهُ هُوَ اليَسِيْرُ وَكُلُ جُزْءٍ مِنْهُ جَوْهَرةٌ نَفِيْسَةٌ لا عِدْلَ لَهَا والبَاقِي مِنْهُ هُوَ اليَسِيْرُ وَكُلُ جُزْءٌ مِنْهُ جَوْهَرَةٌ نَفِيْسَةٌ لا عِدْلَ لَهَا ولا خَلفَ مِنْهَا فإِنَّ بِهَذِهِ الحَيَاةِ اليَسِيْرَةِ خُلُودُ الأَبَدِ في النَّعِيْمِ أَوْ العَذَابِ الأَلِيْمِ .

وإذا عَادَلْتَ هَذِهِ الحَيَاةَ بِخُلُودِ الأَبَدِ عَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يُعَادِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَلفِ أَلْفِ عَامٍ فِي نَعِيْمٍ لَا خَطَرَ لَهُ أَوْ خِلافَ ذَلِكَ وما كانَ هَكَذَا فلا قِيْمَةَ لَهُ فَلَا تُضَيِّعَ جَوَاهِرَ عُمْرِكَ النَّفِيْسَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ولا تُذْهِبْهَا بِغَيْرِ عِوَضٍ واجْتَهِدْ أَنْ لَا يَخْلُو نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِكَ إلَّا في عَمَلِ طَاعَةٍ إِو قُرْبَةٍ تُقَرَّبُ بِهَا فإِنَّكَ لَوْ كَانَ مَعَكَ جَوْهَرَةٌ مِن جَوَاهِرِ الدُنْيَا لَسَاءَكَ ذَهَابُهَا فَكَيْفَ تُفَرِّطُ في سَاعَاتِكَ وكَيْفَ لَاتَحْزَنُ عَلَى عُمرِكَ الذَّاهِبِ بِغَيْرِ عِوَضٍ انتهى .

وعن عُمَرَ بنِ ذَرٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ اعْمَلُوا لِأَنْفُسِكُمْ رَحِمَكُم الله في هَذَا اللَّيْلِ وَسَوَادِهِ ، فإِنَّ المَغْبُوْنَ مَن غُبِنَ خَيْرَ اللَّيلِ والنَّهَارِ ، والمَحْرُوْمَ مَن حُرِمَ خَيْرَهُمَا ، إنَّمَا جُعِلا سَبِيْلَا لِلْمُؤْمِنِينَ إلى طَاعَةِ ربِّهِم ؛ وَوَبَالاً على الآخَرِيْنَ لِلْغَفْلَةِ عن أَنْفُسِهِم فأَحْيُوا لِلّهِ أَنْفُسَكُمْ بذِكْرِهِ ، فانَّمَا تَحْيَا القُلُوبُ بِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ .

كَمْ مِن قائِمٍ لِلهِ جَلَّ وَعَلا في هَذَا الليلِ قَدْ اغْتَبَطَ بقِيَامِهِ فِي ظُلْمَةِ

حُفْرَتِهِ وَكَمْ مِن نَائِمٍ في هَذَا اللَّيْلِ قَدْ نَدِمَ عَلَى طُوْلِ نَوْمَتِهِ عِنْدَمَا يَرَى مِن كَرَامَةِ اللهِ لِلْعَابِدِيْنَ غَداً فأغْتَنِمُوْا مَمَرَّ السَّاعَاتِ واللَّيَالِي والأَيَّامِ رَحِمَكُم الله وَرَاقِبُوا اللهَ جَلَّ وَعَلاَ في كُلِّ لَحْظَةٍ ودَاوِمُوْا شُكْرَهُ .

قالَ مُحَمَّد بنُ عَلي الترمذيُ اجْعَل مُرَاقَبَتَكَ لِمَنْ لا تَغِيْبُ عن نَظَرِهِ إلَيْكَ واجْعَلْ شُكْرَكَ لِمَنْ لا تَنْقَطِعُ نِعْمَتُهُ عَنْكَ واجْعَلْ خُضُوْعَكَ لِمَنْ لا تَخْرُجُ عَنْ مُلْكِهِ .

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ الله : العَبْدُ مِنْ حِيْنِ اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ في هذِهِ الدارِ فَهُوَ مُسَافِرٌ فِيْهَا إلى رَبِّهِ ، وَمُدَّةُ سَفَرِهِ عُمْرُهُ ولأَيَّامُ واللَّيالِي مَرَاحِلُ فلا يَزَالُ يَطْوِيْهَا حَتّى يَنْتَهِي السَّفَرُ ، فالكَيِّسُ لاَ يَزَالُ مُهْتَماً بِقَطْعِ المَرَاحِلِ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ إلى اللهِ لِيَجِدَ ما قَدَّمَ مُحْضَراً ثُمَّ الناسُ مُنْقَسِمُونَ إلى أقْسَامٍ ، مِنْهُمْ مَن قَطَعَهَا متَزَوِّداً بِمَا يُقَرِّبُهُ إلى دَارِ الشَّقَاءِ مِن الكُفْرِ وَأَنْوَاعِ المَعَاصِيْ .

ومِنْهُمْ مَنْ قَطَعَهَا سَائِراً فِيْهَا إلى اللهِ وإلى دَارِ السَّلامِ ، وَهُمُ ثَلاَثَةُ أَقْسَامٍ : سَابِقُوْنَ أَدُّوْا الفَرَائِضَ وأَكْثَرُوْا مِن النَّوَافِل بأنْوَاعِهَا ، وَتَرَكُوْا المَحَارِمَ ، والمَكْرُوْهَاتِ وفُضُولِ المُبَاحَاتِ ، ومُقْتَصِدُوْنَ أَدَّوْا الفَرَائِضَ وتَرَكُوْا المَحَارِمَ ، ومِنْهُمُ الظَّالِمُ لنفسه الّذي خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً وهُمْ فِي ذَلِكَ دَرَجَاتٍ يَتَفَاوَتُوْنَ تَفَاوُتاً عَظِيْماً أ هـ .

وقالَ رَحِمَهُ الله : الناسُ مُنْذُ خُلِقُوا لَمْ يَزَالُوْا مُسَافِرِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ حَطٌّ عن رِحَالِهِم إلا في الجَنَةِ أو النَّارِ والعَاقِلُ يَعْلَمُ أن السّفَرَ ، مبْنِيٌّ على المَشَقَّةِ وَرُكُوبِ الأَخْطَارِ وَمِنَ المُحَالِ عَادَةً أَنْ يُطْلَبَ فِيه نَعِيْمٌ ، ولَذَةٌ وَرَاحَةٌ إِنَّمَا ذَلِكَ بَعْدَ انْتِهَاءِ السَّفَرِ ومِنَ المَعْلوم أنَّ كُلَّ وَطْأَةِ قَدَمٍ أوْ كُلَّ آنٍ مِن آنَاتِ السَّفَرِ غَيْرَ وَاقِفَةٍ ولا المُكَلَّفُ وَاقِفٌ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ سَافَرَ عَلَى الحَالِ التِي يُجِبُ أَنْ

يَكُوْنَ المُسَافِرُ مِنْ تَهْيِئَةِ الزَّادِ المُوْصِلِ وَإِذَا نَزَلَ أو نام أو استراح فعلى استعداد .

شعراً :

أَنْتَ المُسَافِرُ والدُنْيَا الطَّرِيْقُ وَأَنْ
فَاسُ خُطَاكَ وَرَأْسُ المَرْءِ إِيْمَانُ
فاجْعَلْ لِنَفْسِكَ تَقْوَى اللهِ مَدْرَجَةً
فَلِلأَسَاءَاتِ قُطَّاعٌ وأَعْوَانُ
يَا قَومُ دُنْيَاكُمُوْا دَارٌ مُزَوَّقَةٌ
لكِنْ لَهَا وُضِعَتْ في الرَّمْلِ أَرْكَانُ
لَهَا سُقُوفٌ بِلاَ أُسٍ مُزَخْرَفَةٌ
وكَيْفَ يُبْنِي بِغَيْرِ الأُسِّ بُنْيَانُ
كَمْ فَاتِحٍ عَيْنَهُ فِيْهَا تَخَطَّفَهُ
أَيْدِي الرَّدَى قَبْلَ أَنْ تَنْضَمَّ أَجْفَانُ
هِيَ السَّرَابُ وَمَاءُ الوَجْهِ تُهْرِقُهُ
ولا يَرَى فِيهِ وَجْهَ الماءِ عَطْشَانُ
رَحًى يَدُوْرُ دَقِيْقٌ شَأْنُهُ عَجَبٌ
غَدَا لِكُلِّ خَلِيْلٍ وَهُوَ طَحَّانُ
يَسُرُّ كُلَّ فَتًى طُوْلُ الزَّمَانِ بِهِ
ولِلْفَتَى حَاصِلُ الأَزْمَانِ إِزْمَانُ

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ وعِمَارَةُ الوَقْتِ الاشْتِغَالُ في جَمِيْعِ آنَائِهِ بِمَا يُقَرِبُ إِلَى اللهِ أَوْ يُعِيْنُ على ذَلِكَ مِن مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ أَوْ مَنْكَحٍ أَوْ مَنَامٍ أَوْ رَاحَةٍ

فانَّهُ مَتى أَخَذَهَا بِنِيَّةِ القُوَّةِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وتَجَنَّبَ مَا يُسْخِطُهُ كَانَتْ مِن عِمَارَةِ الوَقْتِ وَإِنْ كَانَ لَهُ فِيْهَا أَتَمَّ لَذَّةٍ فلا تَحْسَبْ عِمَارَةَ الوَقْتِ بِهَجْرِ اللَّذَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ فالمُحِبُ الصَّادِقُ رُبَّمَا كَانَ سَيْرُهُ القَلْبِي في حَالِ أَكْلِهِ وشُرْبِهِ وجِمَاعِ أَهْلِهِ وَرَاحَتِهِ أَقْوَى مِن سَيْرِهِ البَدَنِي في بَعْضِ الأَحْيَانِ .

وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : والعَبْدُ إِذَا عَزَمَ عَلَى فِعْلِ أَمْرٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَوَّلاً هَلْ هُوَ طَاعَةٌ لِلهِ أَمْ لَا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَاعَةً فَلَا يَفْعَلَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُباحاً يَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وحِيْنَئِذٍ يَصِيْرُ طَاعةً فَإِذَا بانَ لَهُ أَنَّهُ طَاعَةٌ فَلا يُقْدِمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْظُرَ هَلْ هُوَ مُعَانٌ عَلَيْهِ أَمْ لَا فإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَاناً عَلَيْهِ فلا يُقْدِمْ عَلَيْهِ فَيُذِلَ نَفْسَهُ وإِنْ كَانَ مُعَاناً عَلَيهِ بَقِيَ عَلَيْهِ نَظَرٌ وهُوَ أَنْ يَأْتِيَهُ مِن بَابِهِ فَإِنْ أَتَاهُ مِن غَيْرِ بَابِهِ أَضَاعَهُ أَوْ فَرَّطَ فِيْهِ أَوْ أَفْسَدَ مِنْهُ شَيْئاً فَهَذِهِ الأُمُوْرُ الثلاثَةُ : الطَّاعَةُ والإِعَانَةُ والهِدَايَةُ أَصْلُ سَعَادَةِ العَبْدِ وفَلَاحِهِ .

وَهُوَ مَعْنَى قولِ العَبْدِ لِرَبِّهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ فأَسْعَدُ الخَلْقِ أَهْلُ هَذِهِ العِبَادَةِ والاسْتِعَانَةِ والهِدَايةِ إلى المَطْلُوبِ وأشقَاهُمْ مَنْ عَدِمَ الأُمُوْرَ الثلاثَةَ وَمِنْهُمْ مَن يَكُونُ لَهُ نَصِيْبٌ مِن إِيَّاكَ نَعْبُدُ ونَصِيْبُهُ مِن إِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ مَعْدُوْمٌ أَوْ ضَعِيْفٌ فَهَذَا مَخْذُوْلٌ مَهِيْنٌ مَحْزُوْنٌ ومِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نَصِيْبُهُ مِن إِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ قَوِياً ونَصِيْبُهُ مِن إِيَّاكَ نَعْبُدُ ضَعِيْفاً أَوْ مَفْقُوْداً فَهذا لَهُ نُفُوذٌ وَتَسَلُّطٌ وَقُوَّةٌ ولكِنْ لا عَاقِبَةَ لَهُ بَلْ عَاقِبَتُهُ أَسْوَءُ عَاقِبَةً .

ومِنْهُمْ مَن يَكُونُ لَهُ نَصِيْبٌ مِن إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ولَكِنْ نَصِيْبُهُ مِن الهِدَايَةِ إِلَى المَقْصُوْدِ ضَعِيْفٌ جِداً كَحَالِ كَثِيْرٍ مِنَ العِبَادِ والزُهَادِ الذِيْنَ قَلَّ عِلْمُهُمْ بحَقَائِقِ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ مِن الهُدَى والتُقَى .

اللهم اجْعَلْ إيْمَانَنَا بِكَ عَمِيْقًا وسَهِلْ لَنَا إلى مَا يُرْضِيْكَ طَرِيْقاً وألطفْ بِنَا يَا مَوْلَانَا وَوَفِقْنَا لِلْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ تَوْفِيْقًا واغفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا وجَمِيعِ المسلمين برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصـــل)

وقال رحمه الله :

أَقَامَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الخَلْقَ بَيْنَ الأَمْرِ والنَّهْيِ والعَطَاءِ والمَنْعِ فافْتَرَقُوْا فِرْقَتَيْنِ ، فِرْقَةً قَابَلَتْ أَمْرَهُ بالتَّرْكِ ، وَنَهيَهُ بالارتكاب ، وَعَطَاءَهُ بالغَفْلَةِ ، عَن الشُّكْرِ ومَنْعَهُ بالسُّخْطِ وهَؤُلَاءِ أَعْدَاؤُهُ ، وفِيْهِم مِنَ العَدَاوَةِ بحَسَبِ مَا فِيْهِم مِن ذَلِكَ .

وقِسْمٌ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ عَبِيْدُكَ ، فإنْ أَمَرْتَنَا سَارَعْنَا إلى الاجَابَةِ ، وانْ نَهَيْتَنَا أَمْسَكْنَا نُفُوسَنَا وكَفَفْنَاهَا عَمَّا نَهَيْتَنَا عَنهُ وإنْ أعْطَيْتَنا حَمِدْنَاكَ وشَكَرْنَاكَ ، وإنْ مَنَعْتَنَا تَضَرَّعْنَا إلَيْكَ وذَكَرْنَاكَ ، فَلَيسَ بَيْنَ هَؤلَاءِ وبَيْنَ الجَنَّةِ إلا سِتْرُ الحَيَاةِ الدُنْيَا ، فإذَا مَزَّقَهُ عَلَيْهِم الموتُ ، صَارُوا إلى النَّعِيْمِ المُقِيْمِ وقُرَّةِ العَيْنِ ، كَمَا أنَّ أُولَئِكَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ النارِ إلا سِتْرُ الحَيَاةِ ، فإذا مَزَّقَهُ الموتُ صَارُوْا إلى الحَسْرَةِ وَالألَمِ .

فاذَا تَصَادَمَتْ جُيُوشُ الدُنيا والآخِرَةِ في قَلْبِكَ وأَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ أَيّ الفَرِيْقَينِ أَنْتَ ، فانْظُرْ مَعَ مَنْ تَمِيْلُ مِنْهُمَا ، وَمَعَ مَنْ تُقَاتِلُ ، إذْ لَا يَمْكِنُكَ الوُقُوفُ بَيْنَ الجَيْشَيْنِ ، فأنْتَ مَعَ أَحَدِهِمَا لَا مَحَالَةَ .

فَفَرِيقٌ مِنْهُمْ اسْتَغَشُّوْا الهَوَى فَخَالَفُوهُ ، واسْتَنْصَحُوْا العَقْلَ فَشَاوَرُوهُ ، وفَرَّغُوا قَلُوبَهُمْ لِلْفِكْرِ فِيْمَا خُلِقُوْا لَهُ ، وَجَوَارِحَهُم لِلْعَمَلِ بمَا أُمِرُوْا بِهِ ،

وَأَوْقَاتَهم لِعِمَارَتِهَا بِمَا يَعْمُرُ مَنَازِلَهُمْ في الآخِرَةِ ، واسْتَظْهَرُوْا عَلَى سُرْعَةِ العَمَلِ بالمُبَادَرَةِ إِلَى الأعمالِ ، وسَكَنُوا الدُنْيَا وقُلُوبُهُم مُسَافِرَةٌ عَنْهَا ، واسْتَوْطَنُوا الآخِرَةَ قَبْلَ انْتِقَالِهِم إِلَيْهَا .

واهْتَمُّوْا باللهِ وطَاعَتِهِ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ ، وَتَزَوَّدُوْا لِلآخِرَةِ عَلَى قَدْرِ مَقَامِهِمْ فِيْهَا ، فَجَعَلَ لَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ نَعِيْمِ الجَنَّةِ وَرَوْحها أَنْ آنَسَهُمْ بِنَفْسِهِ ، وَأَقْبَلَ بقُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ ، وَجَمَعَهَا عَلَى مَحَبَّتِهِ ، وشَوَّقَهُمْ إِلَى لِقَائِهِ وَنَعَّمَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَفَرَّغَ قُلُوبَهُمْ مِمَّا مَلأ قُلُوبَ غَيْرِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ الدُنْيَا ، والهَمِّ والحُزْنِ عَلَى فَوْتِهَا ، والغَمِّ مِنْ خَوْفِ ذَهَابِهَا ، فاسْتَلانُوْا مَا اسْتَوْعَرَهُ المُتْرَفُوْنَ ، وأَنِسُوْا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجَاهِلُونَ ، صَحِبُوا الدُنْيَا بِأَبْدَانِهِمْ والملأ الأَعْلا بِأَرْوَاحِهِمْ على حَدِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَصَاحَبُوْهَا بِأَبْدَانٍ قُلُوبُهُمُ
طَيْرٌ لَها في ظِلَالِ العَرْشِ أَوْكَارُ

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سَيِّدُ عَمَلِهِ وطَرِيْقُهُ الذي يَعُدُّ سُلُوْكَهُ إِلى اللهِ طرِيْقَ العِلْمِ والتَّعْلِيمِ قَدْ وَفَّرَ عَلَيهِ زَمَانَهُ مُبْتَغِياً بِهِ وَجْهَ الله فلا يَزَالُ كَذَلِكَ عَاكِفاً على طَرِيقِ العِلم والتَّعلِيم حَتَّى يَصِلَ مِنْ تِلْكَ الطَّرِيْقِ إلى الله وَيَفْتَحَ لَهُ فِيْهَا الفَتْحَ الخَاصَّ أَوْ يَمُوْتَ في طَرِيْقِ طَلَبِهِ فَيُرجَى لَهُ الوُصُولُ إلى مَطْلَبِه بَعْدَ مَمَاتِهِ قَال تعالى : (وَمَن يَخْرجْ مِن بَيتِهِ مُهَاجراً إلى الله ورسولِهِ ثم يدركه الموتُ فقد وقعَ أجرُه على الله) .

وقَدْ حُكِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ كَثِيْرَةٍ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ الأَجَلُ وهُوَ حَرِيْصٌ طَالِبٌ لِلْقُرْآنِ أَنَّهُ رُؤِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ وأَخْبَرَ أَنَّهُ في تَكْمِيْلِ مَطْلُوبِهِ وأنهُ يَتَعَلَّمُ في البَرْزَخِ فإِنَّ العَبْدَ يَمُوْتُ على مَا عَاشَ عَلَيْهِ .

وَمِن النّاسِ مَنْ يَكُوْنُ سَيِّدُ عَمَلِهِ الذِّكْرُ وَقَدْ جَعَلَهُ زَادَهُ لِمَعَادِهِ وَرَأْسَ مَالِهِ لِمآلِهِ فَمَتَى فَتَرَ عَنْهُ أَوْ قَصَّرَ رأى أَنَّهُ قَدْ غُبِنَ وَخَسِرَ .

وَمِن الناسِ مَنْ يَكُوْنُ سَيِّدُ عَمَلِهِ وَطَرِيْقُهُ الصَّلاةُ فَمَتَى قَصَّرَ في وِرْدِهِ مِنها أَوْ مَضَى عَلَيْهِ وَقْتٌ وهُوَ غَيْرُ مَشْغُولٍ بِهَا أَوْ مُسْتَعِدُّ لَهَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ وَقْتُهُ وضَاقَ صَدْرُهُ .

ومِنَ الناسِ مَن يَكُونُ طَرِيْقُهُ الاحسانُ والنَّفْعُ المُتَعَدِّيْ كَقَضَاءِ الحَاجَاتِ وتَفْرِيْجِ الكُرُبَاتِ وإِغَاثَةِ اللَّهَفَاتِ وأَنْوَاعِ الصَّدَقَاتِ قَدْ فُتِحَ لَهُ فِي هَذَا وَسَلَكَ مِنْهُ طَرِيْقاً إِلى رَبِّهِ .

ومِن الناسِ مَنْ يَكُونُ طَرِيْقُهُ الصَّوْمُ فَهُوَ مَتَى أَفْطَرَ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ وَسَاءَتْ حَالُهُ .

ومِنَ الناسِ مَنْ يكُونُ طَرِيْقُهُ تِلاَوَةُ القُرْآنِ وَهِيَ الغَالِبُ عَلَى أَوْقَاتِهِ وهِيَ أَعْظَمُ أوْرَادِهِ .

ومِنْهُمْ مَن يَكُونُ طَرِيْقُهُ الأَمْرُ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ قد فتح الله له فيه ونفَذ منه إلى ربه .

ومِنْهُمْ مَن يَكُونُ طَرِيْقُهُ الذِي نَفَذَ فِيه الحَجُّ والاعْتِمَارُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ طَرِيْقُهُ قَطْعُ العَلائِقِ وتَجْرِيْدُ الهِمَّةِ وَدَوَامُ المُرَاقَبَةِ وَمُرَاعَاةُ الخَوَاطِرِ وحِفْظُ الأَوْقَاتِ أَنْ تَذْهَبَ ضَائِعَةً .

ومِنْهُمْ جَامِعُ المَنْفَذِ السَّالِكُ إِلى اللّهِ فِي كُلِّ وَادٍ الوَاصِلُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ طَرِيْقٍ فَهُوَ جَعَلَ وَظَائِفَ عُبُودِيَّتِهِ قِبْلَةَ قَلْبِهِ وَنَصْبَ عَيْنِهِ يَؤُمُّهَا أينَ كَانَتْ وَيَسِيْرُ

مَعَهَا حَيْثُ سَارَتْ قَدْ ضَرَبَ مَعَ كُلِّ فَرِيْقٍ بِسَهْمٍ فَأَيْنَ كَانَتْ العُبُوْدِيَّةُ وَجَدْتَهُ هُنَاكَ إِنْ كَانَ عِلْمٌ وَجَدْتَهُ مَعَ أَهْلِهِ أَوْ جِهَادٌ وَجَدْتَهُ فِي صَفِّ المُجَاهِدِيْنَ أَوْ صَلاةٌ وَجَدْتَهُ فِي القَانِتِيْنَ أَوْ ذِكْرٌ وَجَدْتَهُ فِي الذَّاكِرِيْنَ أَوْ إِحْسَانٌ وَنَفْعٌ وَجَدْتَهُ فِي زُمْرَةِ المُحْسِنِيْنَ أَوْ مَحَبَّةٌ وَمُرَاقَبَةٌ وإِنَابَةٌ إِلى اللّٰهِ وَجَدْتَهُ فِي زُمْرَةِ المُحِبِّيْنَ المُنِيْبِيْنَ .

يَدِيْنُ بِدِيْنِ العُبُوْدِيَّةِ أَنّي اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبُهَا وَيَتوَجَّهُ إِلَيْهَا حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ مَضَارِبُهَا لَوْ قِيْلَ لَهُ : مَا تُرِيْدُ مِنَ الأَعْمَالِ ؟ لَقَالَ أُرِيْدُ أَنْ أُنفِّذَ أَوَامِرَ رَبِّيْ حَيْثُ كَانَتْ وأَيْنَ كَانَتْ جَالِبَةً مَا جَلَبَتْ مُقْتَضِيَةً مَا اقْتَضَتْ جَمَعَتْنِي أَوْ فَرَّقَتْنِي .

لَيْسَ لِي مُرَادٌ إِلاَّ تَنْفِيذُها والقِيَامُ بِأَدَائِهَا مُرَاقِباً لَهُ فِيْهَا عَاكِفاً عَلَيْهِ بِالرُّوْحِ والقَلْبِ وَالبَدَنِ وَالسِّرِّ قَدْ سَلَّمْتُ إِلَيْهِ المَبِيْعَ مُنْتَظِراً مِنْهُ تَسْلِيْمَ الثَّمَنِ ﴿إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنِيْنَ أنفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بأن لَهُمْ الجَنَّةُ﴾ فَهَذا هُوَ العَبْدُ السَّالِكُ إِلى رَبِّهِ النَّافِذُ إِلَيْهِ حَقِيْقَةً .

وَمَعْنَى النُّفُوذُ إِلَيْهِ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ قَلْبُهُ وَيَعْلِقَ بِهِ تَعَلُّقَ المُحِبِّ التّامِ المَحَبَّةِ بِمَحْبُوْبِهِ فَيَسْلُوا بِهِ عَنْ جَمِيْعِ المَطَالِبِ سِوَاهُ فَلاَ يَبْقَى فِي قَلْبِهِ إِلاّ مَحَبَّةُ اللّٰهِ وَأَمْرُهُ وَطَلَب التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ)) **وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين**

(**فَصْــــلٌ**) فَإِذَا سَلَكَ العَبْدُ عَلى هَذَا الطَّرِيْقِ عَطَفَ عَلَيْهِ رَبُّهُ فَقَرَّبَهُ واصْطَفَاهُ وأَخَذَ بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ وَتَوَلاَّهُ فِي جَمِيْعِ أُمُوْرِهِ فِي مَعَاشِهِ وَدِيْنِهِ وَتَوَلّى تَرْبِيَتِهِ أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ مِمَّا يُرَبِّي الوَالِدُ الشَّفِيْقُ وَلَدَهُ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ القَيُّومُ المُقِيْمُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ المَخْلُوْقَاتِ طَائِعِهَا وَعَاصِيْهَا .

فَكَيْفَ تَكُوْنُ قَيُّوْمِيَتُهُ بِمَنْ أَحَبَّهُ وَتَوَلاَّهُ وآثَرَهُ عَلَى ما سِوَاهُ وَرَضِيَ بِهِ مِنَ

النّاسِ حَبِيْباً وَرَبّاً وَوَكِيْلاً وَناصِراً وَمُعِيْناً وَهَادِياً فَلَوْ كَشَفَ الغِطَاءُ عَنْ أَلطَافِهِ وَبِرِّهِ وَصُنْعِهِ لَهُ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُ وَمِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُ لَذَابَ قَلْبُهُ مَحَبَّةً لَهُ وَشَوْقاً إِلَيْهِ وَتَقَطَّعَ شُكْراً لَهُ .

وَلَكِنْ حَجَبَ القُلُوْبَ عَنْ مُشَاهَدَةِ ذَلِكَ إِخْلادُهَا إِلَى عَالَمِ الشَّهَوَاتِ والتَّعَلُّقِ بِالأَسْبَابِ فَصَدَّتْ عَنْ كَمَالِ نَعِيْمِهَا وَذَلِكَ تَقْدِيْرُ العَزِيْزِ العَلِيْمِ وإِلَّا فَأَيُّ قَلْبٍ يَذُوْقُ حَلاَوَةَ مَعْرِفَةِ اللّهِ وَمَحَبَّتِهِ ثُمَّ يَرْكَنُ إِلى غَيْرِهِ وَيَسْكُنُ إِلَى مَا سِوَاهُ هَذا مَا لا يَكُوْنُ أَبَداً .

وَمَنْ ذَاقَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ وَعَرَفَ طَرِيْقاً مُوْصِلَةً إِلى الله ثُمَّ تَرَكَهَا وأَقْبَلَ عَلَى إِرَادَتِهِ وَرَاحَاتِهِ وَشَهَواتِهِ وَلَذَّاتِهِ وَقَعَ فِي آثارِ المَعَاطِبِ وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ سُجُوْنَ المَضَايِقِ وَعُذِّبَ فِي حَيَاتِهِ عَذَابا لَمْ يُعَذَّبْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِيْن ، فَحَيَاتُهُ عَجْزٌ وَغَمٌّ وَحَزنٌ وَمَوْتُهُ كَدَرٌ وَحَسْرَةٌ وَمَعَادُهُ أَسَفٌ وَنَدَامَةٌ قَدْ فَرَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَشُتِّتَ عَلَيْهِ شَمْلُهُ وَأَحْضَرَ نَفْسَهُ الغُمُوْمَ والأَحْزَان .

فَلاَ لَذَّةَ الجَاهِلِيْنَ وَلاَ رَاحَةَ العَارِفِيْنَ يَسْتَغِيْثُ فَلاَ يُغَاثُ وَيَشْتَكِي فَلاَ يُشَكَّى فَقَدْ تَرَحَّلَتْ أَفْرَاحُهُ وَسُرُوْرُهُ مُدْبِرَةً وأَقْبلَتْ آلامُهُ وَأَحْزانُهُ وَحَسَرَاتُهُ فَقَدْ أُبْدِلَ بأُنْسِهِ وَحْشَةً وبِعِزِّهِ ذُلًّا وَبِغِنَاهُ فَقْراً وَبِجَمْعِيَّتِهِ تَشْتِيْتاً وأَبْعَدُوْهُ فَلَمْ يَظْفُرْ بقُرْبِهِمْ وأَبْدَلُوْهُ مَكَانَ الأُنْسِ إِيْحَاشَا .

ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَرَفَ طَرِيْقَهُ إِلى اللّهِ ثُمَّ تَرَكَهَا نَاكِباً عَنْهَا مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ فَأَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ وَعَرَفَ ثُمَّ أنكَرَ وأَقْبَلَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَدُعِيَ فَمَا أَجَابَ وفُتِحَ لَهُ فَوَلَّى ظَهْرَهُ البابَ قَدْ تَرَكَ طَرِيْقَ مَوْلاَهُ وأَقْبَلَ بِكُلِّيَتِهِ عَلَى هَوَاهُ .

فَلَوْ نَالَ بَعْضَ حُظُوظِهِ وتَلَذَّذَ بِرَاحَاتِهِ وَشُؤُونِهِ فَهُوَ مُقَيَّدُ القَلْبِ عَنْ

انْطِلاقِهِ فِي فَسِيْحِ التَّوْحِيْدِ وَمَيَادِيْنِ الأُنْسِ وَرِياضِ الْمَحَبَّةِ وَمَوائِدِ القُرْبِ قَدْ انْحَطَّ بِسَبَبِ إعْراضِهِ عن إلهِهِ الْحَقِّ إلى أَسْفَلِ سَافِلِينَ وحَصَلَ فِي عِدادِ الْهَالِكِيْنَ فَنارُ الحِجَابِ تَطْلُعُ كُلَّ وَقْتٍ عَلَى فُؤَادِهِ وإعْراضُ الكونِ عنْهُ ـ إذْ أعْرَضَ عنْ رَبِّهِ ـ حائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُرَادِهِ .

فَهُوَ قَبْرٌ يَمْشِي على وَجْهِ الأَرْضِ وَرُوْحُهُ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جِسْمِهِ وقَلْبُهُ فِي مَلالٍ مِنْ حَيَاتِهِ يَتمَنَّى المَوْتَ وَيَشْتَهِيْهِ وَلَوْ كَانَ فِيْهِ ما فِيْهِ حَتَّى إذا جَاءَهُ المَوْتُ على تِلْكَ الحَالِ وَالعِياذُ بِاللّهِ فَلاَ تَسْأَلْ عَمَّا يَحِلُّ بِهِ مِنَ العَذابِ الأليمِ بِسَبَبِ وُقُوعِ الحِجابِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَوْلاَهُ الحَقّ وإحْرَاقِهِ بِنَارِ البُعْدِ مِنْ قُرْبِهِ وَالإعْرَاضِ عَنْهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعَادَتِهِ وأُمْنِيَتِهِ .

فَلَوْ تَوَهَّمَ العَبْدُ المِسْكِيْنُ هَذِهِ الحالَ وَصَوَّرَتْها لَهُ نَفْسُهُ وَأَرَتْهُ إِيَّاهَا على حَقِيقَتِهَا لتَقَطَّعَ واللّهِ قَلْبُهُ وَلَمْ يَلْتَذَّ بِطَعَامٍ وَلاَ شَرَابٍ وَلَخَرَجَ إلى الصُّعْداتِ يَجأَرُ إلى اللّهِ وَيَسْتَغِيْثُ بِهِ وَيَسْتَعْتِبُهُ فِي زَمَنِ الاسْتِعْتَابِ هَذا مَع أَنَّهُ إذا آثَرَ شَهَواتِهِ وَلِذَّاتِهِ الْفَانِيَةَ الّتِي هِيَ كخَيَالِ طَيْفٍ أَوْ مُزْنَةِ صَيْفٍ نَغَّصَتْ عَلَيْهِ لذَّتَها أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهَا وَحِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَقْدَرَ ما كَانَ عَلَيْهَا وتِلْكَ سُنَّةُ اللّهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿حَتَّى إذَا أخَذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنتْ وَظَنَّ أهْلُهَا أنَّهُمْ قَادِرُوْنَ عَلَيْها أَتَاهَا أَمرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجعَلْنَاهَا حَصِيْداً كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾ .

وَهَذا هُوَ غِبُّ اعْرَاضِهِ وإيْثَارِ شَهْوَتِهِ عَلى مَرْضَاةِ رَبِّهِ يَعُوقُ القَدَرُ عَلَيْهِ أسْبابَ مُرَادِهِ فَيَخْسَرُ الأمْرَيْنِ جَمِيعاً فَيَكُوْنُ مُعَذّباً فِي الدُّنْيَا بِتَنْغِيصِ شَهَوَاتِهِ وَشِدّةِ اهْتِمَامِهِ بِطَلَبِ ما لَمْ يُقْسَمْ لَهُ وَإنْ قُسِمَ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ فَحَشْوُهُ الخَوْفُ والحَزنُ والنَّكَدُ والألَمُ فَهَمٌّ لا يَنْقَطِعُ وَحَسْرَةٌ لا تَنْقَضِي وحِرْصٌ لا يَنْفَدُ وَذُلٌّ لا

يَنْتَهِي وَطَمَعٌ لاَ يُقْلَع وهذا في هَذِهِ الدّار .

وَأَمّا فِي البَرْزَخِ فأضْعَافُ أضْعَافِ ذَلِكَ قَدْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهِي وفاتَهُ مَا كَان يَتَمنَّاهُ مِنْ قُرْبِ رَبِّهِ وَكَرَامَتِهِ وَنَيْلِ ثَوَابِهِ وأُحْضِرَ جَمِيعُ غُمومِهِ وأحْزانِهِ ، وأمّا فِي دَارِ الجَزَاءِ فَسِجْنٌ أمثَالِهِ مِنَ المُبْعِدِيْنَ المَطْرُودِيْن فَوَاغَوْثَاهُ ثُمَّ وَاغَوْثَاهُ بِغِيَاثِ المُسْتغيثينَ وأرحَمِ الرّاحِمِيْنَ .

فَمَنْ أعْرَضَ عَن اللّهِ بالكُليَّةِ أعْرَضَ اللّهُ عَنْهُ بالكُلِّيَّةِ وَمَنْ أعْرَضَ اللّهُ عَنْهُ لَزِمَهُ الشّقَاءُ وَالبُؤْسُ والبَخْسُ فِي أَحْوالِهِ وأعمَالِهِ وقَارَنَهُ سُوءُ الحَالِ وَفَسَادٌ فِي دِيْنِهِ وَمَالِهِ فَإِنَّ الرّبَّ إِذَا أعْرَضَ عَنْ جِهَةٍ دَارَتْ بِهَا النُّحُوسُ وأظلَمْتْ أرْجاؤُهَا وانْكَسَفَ أنوارُهَا وَظَهَرَ علَيْها وَحْشَةُ الإعْرَاضِ وَصَارَتْ مَأْوَى لِلشَّيَاطِيْنَ وَهَدَفاً لِلشُّرُورِ وَمَصبّاً لِلْبَلاءِ .

فَالمَحْرُوْمُ كُلَّ الْمَحْرُوْمِ مَنْ عَرَفَ طَرِيقاً إِلَيْهِ ثُمَّ أعْرَضَ عَنْهَا أَوْ وَجَدَ بَارِقَةً مِنْ حُبِّهِ ثُمَّ سُلِبَها لَمْ يَنْفُذْ إِلَى رَبِّهِ مِنْها خُصُوصاً إِذَا مَالَ بِتِلْكَ الإرَادَةِ إلى شَيْءٍ مِنَ اللَّذَاتِ وانْصَرَف بجُمْلَتِهِ إلى تَحْصِيْلِ الأغْرَاضِ والشَّهَوَاتِ عاكِفاً على ذَلِكَ فِي لَيْلِهِ وَنَهارِهِ وَغُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ- هابِطاً مِنَ الأوْجِ الأعْلَى إلَى الحَضِيضِ الأدْنَى .

قَدْ مَضَتْ عَلَيْهِ بُرْهَةٌ مِنْ أوْقَاتِهِ وَكَانَ هَمُّهُ اللّهُ وبُغْيَتُهُ قُرْبُهُ وَرِضاهُ وإِيْثَارُهُ على كُلِّ مَا سِواهُ على ذَلِكَ يُصْبِحُ ويُمْسِي وَيَظَلُّ ويُضْحِي وكَانَ اللّهُ فِي تِلْكَ الحال وَلِيَّهُ لأنَّهُ وَلِيُّ مَنْ تَوَلاّهُ وَحَبِيْبُ مَنْ أَحَبَّهُ وَوَالاَهُ .

فَأَصْبَحَ فِي سِجْنِ الهَوَى ثَاوِياً وفِي أَسْرِ العَدُوِّ مُقِيْماً وفِي بِئْرِ المَعْصِيَةِ سَاقِطاً وفِي أوْدِيَةِ الحَيْرَةِ وَالتَّفْرِقَةِ هَائِماً مُعْرِضاً عَنِ المَطَالِبِ العالِيَةِ إلى

الأغْرَاضِ الخَسِيْسَةِ الفَانِيَةِ كَانَ قَلْبُهُ يَحُومُ حَوْلَ العَرْشِ فأصْبَحَ مَحْبُوْساً فِي أَسْفَلِ الحُشِّ :

فَـأَصْبَـحَ كَـالبَـازِ المُنَتَّفِ رِيْشُـهُ
يَـرَى حَسَـراتٍ كُلَّمَـا طَـارَ طَـائِـرُ

وَقَدْ كَانَ دَهْـراً فِي الرِّيَـاضِ مُنَعَّماً
عَلَى كُلِّ مَا يَهْوَى مِنَ الصَّيْدِ قَـادِرُ

إِلَى أَنْ أصـابَتْـهُ مِنَ الـدّهْـرِ نَكْبَـةٌ
إِذَا هُـوَ مَقْصُوصُ الجنـاحَيْنِ حَاسِـرُ

فَيَا مَنْ ذَاقَ شَيْئاً مِنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَمَحَبَّتِهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا واسْتَبْدَلَ بِغَيْرِها مِنْهَا يَا عَجَبا لَهُ بأيِّ شَيْءٍ تَعوَّضَ وكَيْفَ قَرَّ قرارُهُ فَما طَلَبَ الرُّجوعَ إلى أحنِيَتِهِ وَمَا تَعَرّضَ وَكَيْفَ اتّخذ سوى احنيتَهُ سَكناً وجَعَلَ قَلبَهُ لِمَنْ عادَاهُ مولاهُ مِنْ أجْلِهِ وطَناً أمْ كيْفَ طاوَعَهُ قَلْبُهُ على الاصطِبارِ ووافَقَهُ عَلَى مُساكَنَةِ الأغيار .

فَيَا مُعْرِضاً عَنْ حَياتِهِ الدّائِمَةِ وَنَعِيْمِهِ المُقِيمِ وَيَا بَائعاً سَعَادَتَهُ العُظْمَى بالعَذابِ الألِيْمِ وَيَا مُسْخِطاً مَنْ حَيَاتُهُ وَرَاحَتُهُ وَفَوْزُهُ فِي رِضاهُ وطَالباً رِضى مَنْ سَعادَتُهُ فِي إرْضاءِ سِوَاه إنّما هِيَ لَذّةٌ فَانِيةٌ وشَهْوَةٌ مُنْقِضيةٌ تَذْهَبُ لذّاتُها وَتَبقى تبِعاتُهَا فَرَحُ ساعَةٍ لا شَهْرٍ وغَمُّ سَنَةٍ بَل دَهْرِ طعامٌ لذيذٌ مَسْمُومٌ أوَّلُهُ لذّةٌ وآخِرُهُ هَلاكٌ .

فَالعَامِلُ عَلَيْها والسّاعِي فِي تَوْصِيْلِها كَدُودَةِ القَزِّ يَسُدُّ على نَفْسِهِ المَذَاهِبَ بِمَا نَسَجَ عَلَيْها مِن المَعَاطِبِ فَيَنْدَمُ حِيْنَ لَا تَنْفَعُ النَّدَامَةُ وَيَسْتَقِيلُ حِيْنَ لا تُقْبَلُ الاسْتِقَالَةُ فَطُوبَى لِمَنْ أقْبَلَ على اللّهِ بكُلّيتِهِ وَعَكَفَ عَلَيْهِ بإرادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ .

فَإِنَّ اللّهَ يُقْبِلُ عَلَيْهِ بِتَوَلِّيهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وإِنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ إِذَا أقْبَلَ عَلَى عَبْدٍ اسْتَنَارَتْ جِهاتُهُ وأشْرَقتْ سَاحَاتُها وَتَنوّرتْ ظُلمَاتُها وَظَهَرَ علَيْهِ آثارُ إقْبالِهِ مِنْ بَهْجَةِ الجلاَلِ وآثارِ الجَمَالِ .

وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ أهلُ الملأ الأعْلَى بالمَحَبّةِ والمُوالاَةِ لأنَّهُمْ تَبَعٌ لِمَوْلاهُمْ فَإذا أَحَبَّ عَبْداً أحبُّوهُ وإذا وَالَى وَلِيّاً وَالوْهُ إذا أَحَبّ اللّهُ العبْدَ نادى يَا جِبْرائيلُ إنّي أُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ فيُنادِي جِبْرائيلُ في السّماءِ إنّ اللّهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ فيُحِبُّهُ أهْلُ السّماءِ ثُمَّ يُحِبُّهُ أهْلُ الأرْض .

فَيُوْضَعُ لَهُ القَبُولُ بَيْنَهُمْ ويجْعَلُ اللّهُ قُلوبَ أوْليائِهِ تَفِدُ إِلَيْهِ بالوُدِّ والمَحَبّةِ والرّحْمَةِ ونَاهِيْكَ مَنْ يَتوجَّهُ إِلَيْهِ مالِكُ المُلْكِ ذُو الجَلاَلِ والإكْرَامِ بِمَحَبَّتِهِ ويُقْبِلُ عَلَيْهِ بأنْوَاعِ كرَامَتِهِ ويَلْحَظُهُ الملأ الأعلى وأهْلُ الأرْضِ بالتَّبْجِيلِ والتّكريمِ وذَلِكَ فضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين

(**فصـــل**)(قاعدة) السائِرُ إلى اللّهِ والدّارِ الآخِرَةِ بَلْ كُلُّ سائِرٍ إلى مَقْصَدٍ لا يَتِمُّ سيرُهُ ولا يَصِلُ إلى مَقْصُودِهِ إلاّ بِقُوَّتَيْنِ ـ قُوّةٍ عِلْمِيَّةٍ ـ وقُوَّةٍ عَمَلِيَّةٍ ـ فَبالقُوَّةِ العِلْمِيَّةِ يُبْصَرُ مَنَازِلَ الطَّرِيقِ ومَواضِعَ السُّلُوكِ فَيَقْصِدُها سَائراً فِيها ويَجْتَنِبُ أسْبابَ الهلاكِ ومواضِعَ العَطَبِ وطُرُق المَهالِكِ المنحرفةِ عَنِ الطّريقِ الموصِلِ .

فَقُوَّتُهُ العِلْمِيَّةُ كَنُورٍ عَظِيمٍ بيدِهِ يَمْشي فِي لَيْلَةٍ عَظِيْمَةٍ مُظْلِمةٍ شَديدَةِ الظُّلْمَةِ فَهُوَ يُبْصِرُ بذَلِكَ النّورِ مَا يَقَعُ الماشي فِي الظُّلْمَةِ فِي مِثْلِهِ مِنَ الوِهَادِ والمتآلِفِ ويَعْثُرُ بِهِ مِنَ الأحجَارِ والشّوْكِ وَغيْرِهِ ويُبْصِرُ بِذَلِكَ النّورِ أيضاً أعْلاَمَ الطّرِيقِ وأدَاتَها المَنْصُوْبَةَ عَلَيْها فَلا يَضِلُّ عَنْها فَيَكشِفُ لَهُ النّورُ عَنِ الأمْرَيْنِ

أَعْلَامِ الطَّرِيقِ وَمَعاطِبِهَا .

وبالقُوَّةِ العَمَلِيَّةِ يَسِيْرُ حَقِيْقَةً بَلِ السَّيْرُ هُوَ حَقِيْقَةُ القُوَّةِ العَمَلِيَّةِ فَإِنَّ السَّيْرَ هُوَ عَمَلُ المُسَافِرِ وكَذَلِكَ السَّائِرُ إِلى رَبِّهِ إِذا أَبْصَرَ الطَّرِيقَ وأَعْلامَهَا وأَبْصَرَ المَغَابِرَ والوِهَادَ والطُّرُقَ النَّاكِبَةَ عَنْها فَقَدْ حَصَلَ لَهُ شَطْرُ السَّعادَةِ والفَلاحِ وبَقِيَ عَلَيْهِ الشَّطْرُ الآخَرُ وَهُوَ أَنْ يَضَعَ عَصاهُ عَلَى عَاتِقِهِ ويُشَمِّرَ مسافِراً فِي الطَّرِيقِ قَاطِعاً مَنَازِلَها مَنْزِلَةً بَعْدَ مَنْزِلَةٍ فَكُلَّمَا قَطَعَ مَرْحَلَةً اسْتَعَدَّ لِقَطْعِ الأُخرى وَاسْتَشْعَرَ القُرْبَ مِنَ المَنْزِلِ فَهانَ عَلَيْهِ مشَقَّةُ السَّفَرِ .

وَكُلَّمَا سَكَنَتْ نَفسُهُ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ ومُواصَلَةِ الشَّدِّ والرَّحِيلِ وَعَدها قُرْبُ التَّلاقي وبَرْدُ العَيْشِ عِنْدَ الوُصُولِ فَيُحْدِثُ لَها ذَلِكَ نَشاطاً وَفَرَحاً وهِمَّةً فهُو يقولُ : يا نفسُ أَبْشِري فَقَدْ قرُبَ المنزلُ ودَنا التَّلاقِي فَلا تَنْقطِعِي في الطَّرِيقِ دُونَ الوُصُولِ فيُحالَ بَيْنَكِ وَبَيْنَ مَنازِلِ الأحِبَّةِ .

فَإِنْ صَبَرْتَ وَوَاصلْتِ المَسْرَى وَصَلْتِ حَمِيْدَةً مَسْرورةً جَذِلَةً وتلقَّتْكِ الأَحِبَّةُ بأنواعِ التُّحَفِ والكَراماتِ ولَيْس بَيْنَكِ وَبَيْنَ ذَلِكَ إِلَّا صَبْرُ سَاعَةٍ فَإِنَّ الدُّنْيا كُلَّها كَساعةٍ مِنْ سَاعَاتِ الآخِرَةِ وعُمُرُكِ درجةٌ مِنْ دَرَجِ تِلْكَ السَّاعَةِ فَاللَّهَ اللَّهَ لا تَنْقَطِعِي في المَفازَةِ فهُوَ واللَّهِ الهلاكُ والعَطَبُ لوْ كُنْتِ تَعْلَمين .

فَإِنْ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ فليُذَكِّرْهَا ما أَمَامَهَا مِنْ أَحْبابِها وَمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الإِكْرَامِ والإِنْعَامِ وَمَا خَلفَها مِنْ أَعْدَائِها وَمَا لَدَيْهِمْ مِن الإِهَانَةِ والعَذَابِ وأَنْواعِ البلاءِ فَإِنْ رَجَعَتْ فإِلى أعدَائِهَا رُجُوعها وإِنْ تَقَدَّمَتْ فإِلى أحبابِها مصِيْرُها وإِنْ وَقَفَتْ في طَرِيقها أَدْرَكَهَا أعداؤُهَا فَإِنَّهُمْ وَرَاءَها في الطَّلَبِ ولا بُدَّ لَها مِنْ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الأَقْسَامِ الثَّلاثَةِ فلْتَخْتَرْ أَيَّهَا شاءَتْ انتهى .

شعرا :

تَـراهُمْ وأَمْلاَكُ الـرِّضَـا يَقْـدُ مُـونَهِمْ
إِلَى جَنَّــةٍ طَـابَتْ وَطَــابَ نَعِيمُهَــا
يَسِيْــرُوْنَ فِي أَمْنٍ إِذَا الخَلْقُ فُــزَّعٌ
وَقَــدْ بَـرَزَتْ نَــارٌ وَشَبَّ جَحِيْمُهَــا

آخر : فَلِلّهِ كَمْ مِنْ خَيْرةٍ قَدْ تَهَيَّئَتْ
لِقَـوْمٍ عَلَى الأَقْـدَامِ بِـاللَّيْـلِ قُـوَّمُ
يُـنَـاجُـوْنَ رَبَّ العَــالَـمِيْـنَ إِلَهَـهُمْ
فَتَسْـرِي هُمُوْمُ القَـوْمِ والنّـاسُ نُـوَّمُ

آخـر : ولِلّهِ أَلْـطافٌ بَـطِيٍّ قَضَـائِـهِ
أَخُــو الفَهْمِ فِي أَسْــرَارِهَــا يَتَفَهَّمُ
فَـمُــوْسَى بِـقَــذْفِ آلْيَـمِّ تَمَّ عُـلُوُّهُ
تَـرَقَّى إِلى أَعْلَى الذُرَى وَهْـوَ مُكْرَمُ
ويُـوْسُفُ بَعْدَ الجُبِّ والسِّجْنِ حُقْبَـةً
حَوَى المُلْكَ وهُوَ المُسْتَفَـادُ المُعَظَّمُ
وبِــالصَّبْـرِ والتَّقْــوَى تُنَـالُ هِبَــاتُــهُ
وأَتْقَى الـوَرَى عِنْـدَ المُهَيْمِنِ أَكْــرَمُ

وقال رحمه الله :

السَّنَةُ شَجَرةٌ والشُّهُورُ فُرُوعُهَا والأَيَّامُ أغْصَانُها وَالسَّاعَاتُ أَوْرَاقُها والأَنْفَاسُ ثَمَرُهَا فَمَنْ كَانَتْ أنْفَاسُهُ فِي طَاعةٍ فَثَمَرَةُ شَجَرَتِهِ طَيِّبَةٌ وَمَنْ كَانَتْ فِي مَعْصِيَةٍ فَثَمَرَتُهُ حَنْظَلٌ وإِنّمَا يَكُونُ الجَدَادُ يَوْمَ المَعَادِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَبَيّنُ حُلْوُ

الثِّمَارِ مِنْ مُرِّهَا .

والإِخْلاصُ والتَّوْحِيْدُ شَجَرَةٌ في القَلْبِ فُرُوعُها الأعمالُ وثَمَرُهُ طِيْبُ الحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا والنَّعِيْمُ المُقِيْمُ فِي الآخِرَةِ وَكَما أنّ ثِمارَ الجَنّةِ لَا مَقْطُوْعَةٌ وَلَا مَمْنُوْعَةٌ فَثَمَرَهُ التَّوْحِيْدِ والإِخْلَاصِ في الدُّنْيا كذَلِكَ .

والشِّرْكُ والكَذِبُ والرِّياءُ شَجَرَةٌ فِي القَلْبِ ثَمَرُهَا فِي الدُّنْيا الخَوْفُ والهَمُّ والغَمُّ وضِيْقُ الصَّدْرِ وظُلمَةُ القَلْبِ وثَمرُها في الآخِرَةِ الزَّقُّومُ والعَذَابُ الأَلِيْمُ المُقِيْمُ وَقَدْ ذَكَرَ اللّهُ هاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ فِي سُورَةِ إبراهيمَ .

وقال رَحِمَهُ اللهُ: إِشْتَرِ نَفْسَكَ فَالسُّوقُ قَائِمَةٌ والثَّمَنُ مَوْجُودٌ وَلا بُدَّ مِن سِنَةِ الغَفْلَةِ وَرُقَادِ الهَوَى ولَكِنْ كُنْ خَفِيْفَ النَّوْمِ فَحُرَّاسُ البَلَدِ يَصْحُونَ دَنَا الصَّبَاحُ نُورُ العَقْلِ يُضِيءُ في لَيْلِ الهَوَى فَتَلُوحُ جَادّةُ الصَّوَابِ فَيَتَلمَّحُ البَصِيْرُ فِي ذَلِكَ النُّوْرِ عَوَاقِبَ الأُمورِ أُخْرُجْ بالعَزْمِ مِن هَذا الفِنَاءِ الضّيّقِ المَحْشُوِّ بالآفاتِ إلى ذلِكَ الفِنَاءِ الرَّحْبِ الّذي فِيهِ ما لَا عيْنٌ رأتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

فَهُنَاكَ لَا يَتَعَذَّرُ مَطلوبٌ وَلا يُفْقَدُ محبُوبٌ يا بائعاً نَفْسَهُ بِهَوَى مَنْ حُبُّهُ ضَنًا وَوَصْلُهُ أذى وحُسْنُهُ إلى فَنَاءٍ لقَد بِعْتَ أنْفَسَ الأشياءِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ كأنّكَ لَمْ تَعْرِفْ قَدْرَ السِّلعَةِ حتّى إذا قَدَمْتَ يَوْمَ التَّغابُنْ تَبَيَّنَ لَكَ الغَبْنُ فِي عَقْدِ التَّبايُعِ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ سِلْعَة اللّهُ مُشْتَريها ، وثَمَنُهَا الجَنّةُ .

اللَّهُمَّ ثَبّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثّابِتِ في الحياةِ الدُنيا وَفي الآخِرَةِ اللهم وَأَيّدْنَا بِنَصْرِكَ وَأَرْزِقْنَا مِن فَضلِكَ وَنَجّنَا مِنْ عَذَابِكَ يومَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الراحِمينَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وسَلَّمَ

شعراً :

كـرِهْتُ وَعَـلَّامِ الغُيـوبِ حَيَـاتِي
وأَصْبَحْتُ أَرجُـو أنْ تَحينَ وَفَـاتـي

فَشَا السُّوءُ إلا في القليل مِنَ الوَرَى
وخـاضُـوا بِحَـارَ اللهْـوِ والشَّهَـواتِ

وضَاعَتْ لَدَيْهِمْ حُرْمَةُ الدِّينِ واَغْتَدَتْ
نُفُـوسُهُمُـوْا في الفِسْقِ مُنْغَمِسَـاتِ

وقـدْ فَسَـدَتْ أَخْـلاقُهُمْ وتَغَيَّـرتْ
وأَضْحَتْ خِـلالُ الخِـزْيِ مُنْتَشِـرَاتِ

وَسَارَ الخَنَا فِيْهِمْ فلَسْتُ أرَى سِوَى
كَتَـائِبِ فُسَّـاقٍ وجَـمْـعَ طغَـاةِ

فَمِنْهُمْ كَـذُوْبٌ في الـوِدَادِ مُخَـادِعٌ
أراهُ صَـدِيقِي وهُـوَ رأْسُ عُـداتِي

يُقَـابِلُنِي بـالبِشْـرِ واللُّطفِ عِنْدَمَـا
يَـرَانِي ويَـدْعُـو لِيْ بِـطُولِ حَيَـاتِي

وإنْ غِـبْتُ عـنـه سَبَّـني وأَهَـانَـني
وَعَـدَّ عُيُـوبـي لـلوَرَى وَهَـنَـاتِـي

ومِنهُمْ شَقِيٌّ هَمُّـهُ الفِسْقُ والـزِنَـا
ولَـوْ كـانَ عُقْبَـاهُ إلى الهَـلَكَـاتِ

تُـلاقِيـهِ يَجْـرِي خَلْفَ مُسْلِمَـةٍ بِـلاَ
حَيَـآءٍ ولا خَـوْفٍ مِنَ اللَّعَنَـاتِ

كَـأنْ لَمْ يُفَكِّـرْ أنَّ تِلْكَ كَـأخْتِـهِ
فَيَغْـمِـزُهَـا لِلْحَظِ والـغَـمَـزَاتِ
وَيُبْدِي لَهَا الإعْجَـابَ غِشًّا وَخِـدْعةً
ولَمْ يَـرْعَ حقَّ اللهِ في الحُـرُمَـاتِ
وآخَـرُ أمْسَى لِلْعُـقَـارِ مُـعَـاقِـراً
وأصْبَـحَ في خَبْلٍ وفي سَكَـرَاتِ
تَـرَاهُ إذَا مَـا أسْـدَلَ الليلُ سِتْـرَهُ
عَـلَيـهِ وَوَافِـيَ بَـادِيَ الـظُلُمَـاتِ
يُدِيْرُ ابْنَـةَ العُنْقُـودِ بَينَ صِحَـابِـهِ
ويَـطْربُ بينَ الكـأسِ والنَغَمَـاتِ
وَقَـدْ أغْفَـلَ المِسْكِيْنُ ذِكْـرَ مَمَاتِـهِ
وَمـا سَيُلاقِي مِنْ جَـوَى النَّـزَعَـاتِ
يَتِيْـهُ عَـلَى كُـلِّ العِبـادِ بِعُـجْبِـهِ
وَيَـخْتَـالُ كِبْـراً نَـاسِيـاً لِـغَـدَاةِ
غَـدَاةَ يُـوارَى فِي التُّـرابِ ويَغْتَـدِي
طَعـامـاً لِـدُودِ القَبْـرِ والحَشَـرَاتِ
وآخَـرُ مَـغْـرُورٌ بِـكَـثْـرَةِ مَـالِـهِ
ومـا عِنْـدَهُ فِي البَنْـكِ مِنْ سَنَـدَاتِ
يُفَـاخِـرُ خَلْقَ اللّهِ بِـالْجَـاهِ والغِنَى
وبـالْمَـالِ لا بـالفَضْـلِ والْحَسَنَـاتِ
وَلَـمْ يَـدْرِ أنَّ المَـالَ فَـانٍ وأنَّـهُ
يَـزُولُ كَسُحْـبِ الصَّيْفِ مُنْقَشِعَـاتِ

وَذَا شَـاهِـدٌ بـالـزُّور إنْ يَسْتَعِنْ بِـهِ
أَخُـوْ شِقْـوةٍ يَشْهَـدْ بِكُـلِّ ثَبَـاتِ
ولَمْ أَدْرِ مَـاذَا قَـدْ أَعَـدَّ لِمـوْقِفٍ
بِـهِ يَقِفُ العَـاصِيْ بغَيْـرِ حُـمَـاةِ
وذَا آكِـلٌ مَـالَ اليَتِيْمِ وَلَـمْ يَـدَعْ
لَـهُ عِنْـدَ رَدِّ الحَـقِّ غَيْـرَ فُتَـاتِ
وفي بَـطْنِهِ قَـدْ أدْخَلَ النّـارَ عـامِـداً
وأصْبَـحَ مَحْـرُوْمـاً مِنَ النَّفَحَـاتِ
وَذَلِـكَ مُـغْـتَـابٌ وَهَـذا مُنَـافِـقٌ
لِحِـطَّتِـهِ قَـدْ عُـدَّ فِي النّكِـرَاتِ
وهَذَا يَغُشُّ النّاسَ فِي البَيْعِ والشِرَا
وأَرْبَـاحُـهُ مَنْـزُوْعَـةُ الـبَـرَكَـاتِ
وَهَـذَا حَـوَى كُـلَّ الخَنَـا وَصِفَـاتُـهُ
مَعَ الخَلْقِ والخَـلاَّقِ شَـرُّ صِفَـاتِ
وكَمْ مُعْلِنٍ لِلْفِـطْرِ والنّـاسُ صُـوَّمٌ
يُجَاهِـرُ فِي الإِفْـطَارِ في الـطُّرُقَـاتِ
وَلَـيْسَ يُبَـالِـي بـانْـتِقَـامِ إلٰـهِـهِ
وَتَـعْـذِيْبِـهِ لِـلأَنْـفُسِ النَّجِسَـاتِ
وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ مُسْتَـطِيْـعٍ تَـرَاهُ لاَ
يُبَـادِرْ بِحَـجِّ البَيْتِ قَبْـلَ فَـوَاتِ
فَيَسْعَى بِنَفْسٍ مِلْؤُهـا البِـرُّ وَالتُّقَى
لِـتَلْبِيَـةِ الـرَّحْمَنِ في عَـرَفَـاتِ

وَلَمْ أَرَ إلَّا النَّــزْرَ فِيْهِـمْ مُســارِعــاً
لإِحْيَــاءِ دِيْـنِ الـلّهِ بِــالـصَّـلَوَاتِ
ومـا الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ إلَّا وَسَـائـلٌ
عَلَى المُتّقِي تَسْتَنْــزِلُ الـرَّحَـمَـاتِ
وَتَنْهَى عَنْ الفَحْشـاءِ والمُنْكَرِ الّـذي
يَــزُجُّ بِمَنْ يَـأتِيْــهِ فِي الكُــرُبَــاتِ
وَيَـنْــدُرُ أَنْ أَلْقَـى غَنِيّــاً بِـمــالِــهِ
يَجُــودُ لِــذِي جُــوعٍ وَذَاتِ عُــرَاةِ
فَمَـا ائْتَمَرُوا بِـالأَمْرِ كَـلَّا وَلَا انْتَهَـوْا
عَنْ النَّهْيِ حَتَّى سَوَّدُوا الصَّفَحَـاتِ
وعَـاثُوا فَسـاداً فِي البِلادِ فَـأَصْبَحُـوا
بِعِصْيَــانِهِمْ في أَسْفَـلِ الـدَّرَجَـاتِ
خَـلائِقُ يَـأْبَـاهَـا الـرَّشِيْـدُ لِقُبْحِهَــا
وَلَا يَــرْتَضِيْهَـا غَيْــرُ أَحْمَقَ عَــاتِي
ويُنْكِرُها ذُوْ العَقْلِ والرَّأْيِ والحِجَـا
ويَخْجَــلُ مِنْهَـا صَــادِقُ العَـزَمَــاتِ
وَمَنْ يَتَّخِـذْهـا مَنْهَجاً خَـابَ سَعْيُـهُ
ولا يَقْتَنِيْ مِنْهَــا سِوَى الحَسَــرَاتِ
إِذَا جَـاءَ وَقْتُ الصَّيْفِ شَدَّ رِحـالَـهُ
إلَى الغَـرْبِ يَلْهُـوْ والشَّبَـابُ مُـوَاتِي
كَأَنَّ بَنِي الإِسْلَامِ في عَصْرِنا غَدَوْا
لِهَــدْمِ عُـلا الإِسْــلامِ شَرَّ دُعَــاةِ

فَتُـــوبُـــوا عِبَـــادَ اللّهِ لِلّهِ وَارْجِـعُــوا
إلَيْـــهِ تَنَـــالُـــوا مُنْتَهَى الـــرَّغَبَـــاتِ
وَلاَ تَقَـرّبُـوا مَـــا لاَ يَحِـلُّ وأَبْعِـــدُوا
نُفُـــوسَكُمُـــوا حَتَّى عنْ الـشُّبُـهَـــاتِ
وأَدُّوا حُقُـــوقَ اللّهِ وآرعَـوْا حُـــدودَهُ
كَمَـــا يَنْبَغِي في الجَهْـــرِ والخَلَوَاتِ
وَلاَ تَهِنُـوا يَـومـاً وَلاَ تَحْـزَنُـــوا لِمَـا
يُصِيبُكُمُـــوا فِي الحَقِّ مِنْ عَقَبَـــاتِ
تَفُـــوزُوا بِـرِضْـــوانِ الإلَـهِ ولُـــطْفِـــهِ
ويُغْـــدِقْ عَلَيْكم أنْـعُمَـــاً وهِبَـــاتِ
وَيَفْتَــحْ لَكُمْ بَابَ القَبـولِ ويَسْتَجِبْ
إذا مَـا دَعَـوْتُمْ صـالِحَ الـــدَّعَـوَاتِ
وَيَجْعَـلْ لَكُمْ فِي النَّسْلِ قُـرَّةَ أعْيُنٍ
وَيَـــرْزُقَـكُمْ مِـنْ أطَيَـبِ الـثَّمَـــرَاتِ
ويُمْـــدِدْكُمْ بـــالنَّصْـــرِ حَتَّى إذا طَغَى
عَـــلَيْـــكُـــمْ عـــدُوٌّ رَدَّهُ بِـــشَـــتَـــاتِ
فَمَـــا حَـلَّ هَـذَا الحَـالُ إلَّا لِنَبْـذِكُمْ
تَـعَـــالِيـمَ دِيـنِ الـــلَّهِ نَـبْـــذَ نَـــوَاةِ
وَمَـــا سـلَّطَ الـلّهُ الـعَـــدُوَّ عَـلَيْـكُـمُ
فَلَمْ يَبْقَ فِيْكُمْ غَيْـــرُ بعضِ رُفَـــاتِ
سِـــوَى بُعْـــدِكُمْ عَنْ دِينِـــهِ ولأنّـكُمْ
قَنِعْتُمْ عَن الأعْمَـــالِ بـــالـكلِمَـــاتِ

اللّهُمَّ ثَبِّتْ وَقَوِّ مَحَبَّتَكَ في قُلوبِنا واشْرَحْ صُدُورَنا وَنَوِّرْها بِنُورِ الإِيْمانِ واجْعَلنا هُداةً مُهْتَدين وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وآجْعَلنا مِمَّنْ يفُوزُ بالنَّظَرِ إلَى وَجْهِكَ فِي جَنّاتِ النّعِيمِ يَا حَليمُ وَيَا كَرِيمُ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِينا ولِجَميعِ المُسْلِمين الأحياءِ منهُم والميّتينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ وصلّى اللّهُ عَلَى مُحمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصــــل)

وقال ابن القيم رحمه الله :

الجِهَادُ أرْبَعُ مَرَاتِبَ أحدُهَا أنْ يُجاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الهُدَى ودِينِ الحقِّ الّذي لا فلاحَ لَها وَلاَ سَعادَةَ لَها فِي مَعَاشِهَا ومَعادِها إلا بِهِ وَمَتى فَاتَها علمُهُ شَقِيَتْ في الدَّارَيْن الثانية أَنْ يُجاهِدَهَا عَلَى العَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ وإلَّا فمُجَرَّدُ العِلْم بِلا عَمَلٍ إنْ لَمْ يَضُرَّها لَمْ يَنْفَعْهَا الثّالِثَةُ أنْ يُجاهِدَ عَلَى الدَّعْوَةِ إلَيْهِ وتَعْلِيمِهِ مَنْ لا يَعْلَمُهُ وإلاّ كَانَ مِنَ الّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ الهُدَى والبَيِّنَاتِ وَلاَ يَنْفَعُهُ علمُهُ وَلاَ يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللّهِ .

الرَّابِعةُ : أَنْ يُجاهِدَها عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إلى اللّهِ وأذى الخَلْقِ وَيَتَحَمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلّهِ فَإذا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ المَرَاتِبَ الأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِيْنَ فَإنَّ السَّلفَ مُجْمِعُوْنَ عَلَى أنَّ العالِمَ لا يَسْتَحِقُّ أنْ يُسَمَّى رَبَّانياً حَتَّى يَعْرِفَ الحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ .

فَمَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ وَعَمِلَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيْماً فِي مَلَكُوْتِ السَّمَاءِ وأمّا جِهَادُ الشّيطانِ فَمَرْتَبتانِ جهادُهُ عَلى دَفْعِ ما يُلْقِي إلى العَبْدِ مِن الشُّبُهاتِ والشُّكوكِ القادِحَةِ في الإِيمانِ .

الثّانية : جِهادُهُ عَلَى دَفْعِ ما يُلْقِيهِ مِنَ الإرَادَاتِ والشَّهَوَاتِ فَالجِهَادُ الأوّلُ يَكُونُ بَعْدَهُ اليَقِينُ والثّاني بَعْدَهُ الصَّبْرُ قَالَ تعالَى ﴿وَجعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنا لمَّا صَبَرُوْا وكَانُوا بآياتِنَا يُوْقِنُون﴾ فأخْبَرَ أَنَّ إمامَةَ الدِّيْنِ إنّما تُنَالُ بالصَّبْرِ واليَقِيْنَ فَالصَّبْرُ يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ والإرَادَاتِ وَاليَقِيْنُ يَدْفَعُ الشُّكُوكَ والشُّبُهَاتِ وأمّا جِهَادُ الكُفّارِ والمُنَافِقِيْنَ فأَرْبَعُ مَرَاتِبَ بالقَلْبِ وَاللّسانِ والْمَالِ وَالنَّفْسِ وَجِهَادُ الكُفَّارِ أَخصُّ باليَدِ وجِهَادُ المُنَافِقِيْنَ أخصُّ باللّسَانِ وأمّا جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ والبِدَعِ والمُنْكَرَاتِ فَثَلاثُ مَرَاتِبَ الأُولَى باليَدِ إِذَا قَدَرَ فَإِنْ عَجِزَ انتقلَ إلى اللّسانِ فَإِنْ عَجزَ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ فَهَذِهِ ثَلاثَةَ عشْرَةَ مَرْتَبَةً مِنَ الجهادِ وَمَنْ مَاتَ ولَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بالغَزْوِ ماتَ على شُعْبَةٍ مِنَ النّفاقِ وَلاَ يَتِمُّ الجِهَادُ إلّا بالهِجْرَةِ وَلاَ الهِجْرَةُ وَالجِهادُ إلّا بالإيمانِ .

والرّاجُونَ رَحْمَةَ اللّهِ هُمُ الّذِينَ قَامُوْا بهَذِهِ الثّلاثَةِ قَال تَعالَى ﴿إنَّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِي سَبِيْلِ اللّهِ أُولئِكَ يَرْجُوْن رَحمةَ اللّهِ واللّهُ غَفورٌ رحِيمٌ﴾ .

وَكَمَا أَنَّ الإيمانَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أحَدٍ فَفرِضَ عَلَيْهِ هِجْرَتَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ هِجْرةٌ إلى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْحِيْدِ وَالإخْلاصِ وَالإنابَةِ وَالتَّوكُّلِ والخَوْفِ وَالرَّجَاءِ والمَحَبَّةِ والتَّوْبَةِ وهِجْرَةٌ إلى رَسُولِهِ بالمُتَابعَةِ والانْقِيَادِ لأمْرِهِ والتَّصْدِيْقِ بِخَبَرِهِ وتَقْدِيْمِ أمْرِهِ وخَبَرِهِ على أَمْرِ غَيْرِهِ وخَبَرِهِ .

فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللّهِ ورسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أوْ امْرَأةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ .

وفُرِضَ عَلَيْهِ جِهادُ نَفْسِهِ فِي ذَاتِ اللّهِ وجِهَادُ شَيْطَانِهِ فَهَذَا كُلُّهُ فَرضُ

عَيْنٍ لَا يَنُوبُ فِيهِ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ وأمّا جِهَادُ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِيْنَ فَقَدْ يُكْتَفي فِيْهِ بِبَعْضِ الأُمّةِ إذا حَصَلَ مِنْهُم مَقْصُوْدٌ .

وأَكْمَلُ الخَلْقِ عِنْدَ اللّهِ مَنْ أَكْمَلَ مَرَاتِبَ الجِهَادِ كُلَّها ، وَالخَلْقُ مُتَفاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللّهِ تَفاوُتَهُمْ فِي مَرَاتِبِ الجِهَادِ وَلِهَذَا كَانَ أَكْمَلُ الخَلْقِ وأكْرَمُهُمْ عَلَى اللّهِ خاتَمُ أنْبيائِهِ وَرُسُلِهِ فَإِنّهُ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الجِهَادِ وَجَاهَدَ فِي اللّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَشَرَعَ في الجِهَادِ مِنْ حِيْنَ بُعِثَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ شَمَّرَ عَنْ ساقِ الدَّعْوَةِ وَقامَ فِي ذَاتِ اللّهِ أَتَمَّ قِيَامٍ وَدَعَا إِلَى اللّهِ لَيْلاً وَنَهَاراً وَسِرّاً وَجَهْراً فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ صَدَعَ بأمْرِ اللّهِ لا تأخُذُهُ فِيْهِ لَوْمَةُ لائِمٍ فَدَعَا إِلَى اللّهِ الصّغيرَ وَالكَبِيْرَ والحُرَّ والعَبْدَ والذّكَرَ وَالأُنْثَى والأحْمَرَ والأسْوَدَ والجِنَّ والإِنْسَ .

وَلَمَّا صَدَعَ بِأَمْرِ اللّهِ وَصَرَّحَ لِقَوْمِهِ بِالدَّعْوَةِ وَنَادَاهُمْ بِسَبِّ آلِهَتِهِمْ وَعَيْبِ دِيْنِهِمْ اشْتَدَّ آذَاهُمْ لَهُ وَلِمَنْ اسْتَجَابَ لَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَنَالُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الأَذَى وَهَذِهِ سُنَّةُ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيْلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وَقَال : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِيْنَ الإِنْسِ والجِنِّ﴾ وقال : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ قَالُوا سَاحِرٌ مَجْنون أَتَواصَوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُون﴾ .

فَعَزَّى سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِذَلِكَ وأنَّ لَهُ أُسْوَةً بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ المُرْسَلِيْنَ وَعَزَّى أَتْبَاعَهُ بقَوْلِهِ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البأسَاءُ والضّراءُ وزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرّسُولُ والّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ ألاَ أنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيْب﴾ .

وَقَوْلِهِ ﴿أَلَم أَحَسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون ، وَلَقدْ فَتَنَّا الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الّذِيْنَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِيْنَ ، أَمْ حَسَبَ الّذِيْنَ يَعْمَلُونَ السّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءما يَحْكُمُونَ مَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَاءَ اللّهِ فَإِنَّ أجل اللّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيْعُ العَلِيم ، وَمَنْ جَاهَد فَإِنّما يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالَمِيْن والّذِيْنَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُكَفِرَنَّ عَنْهُم سَيّئاتِهِم ولَنجزيَنَّهُمْ أحسَنَ الّذي كَانُوايَعْمَلُون﴾.

وَوَصّيْنا الإنْسَانَ بِوالديهِ حُسْناً وإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُون ، وَالّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لِنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصّالِحِين ، ومِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللّهِ فَإِذا أُوْذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ ولَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لِيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّهُ بأعْلَمَ بِمَا فِي صُدُوْرِ العالَمين﴾ فَلْيَتَأَمَّلِ العَبْدَ سِيَاقَ هٰذِهِ الآياتِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِن العِبَرِ وكُنُوْزِ الحِكَمِ فَإِنَّ النّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْن : إِمَّا أَنْ يَقُوْلَ أحدُهُمْ آمَنَّا ، وإِمَّا أَنْ لاَ يَقُولَ ذَلِكَ بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئاتِ والكُفْرِ .

فَمَنْ قَالَ آمَنَّا . امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وابْتَلاَهُ وَفَتَنَهُ والفِتْنَةُ الإِبْتِلاءُ والاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الكَاذِبِ . وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلاَ يَحْسَبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللّهَ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ فإِنَّهُ إِنَّما يَطْوِي المَرَاحِلَ فِي يَدَيْهِ .

وَكَيْفَ يَفِرُّ المَرْءُ عَنْهُ بِذَنْبِهِ
إِذَا كَانَ يطْوي في يَدَيْهِ المَرَاحِل

فَمَنْ آمَنَ بالرُّسُلِ وأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَآذَوْهُ فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ ،

وإنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ وَلَمْ يُطِعْهُمْ عُوْقِبَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ وَكَانَ هَذَا المُؤْلِمُ أعْظَمَ وَأَدْوَمَ مِن أَلَمِ إتباعِهِمْ فَلا بُدَّ مِنْ حُصُولِ الألَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الإِيْمَانِ لَكِنْ الْمُؤْمِنُ يَحْصُلُ لَهُ الأَلَمُ لِكُلِّ نفسٍ آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَن الإِيْمَانِ لَكِنْ المُؤْمِنُ يَحْصُلُ لَهُ الألَمُ فِي الدُّنْيا ابْتِدَاءً ثُمَّ يَكُونُ لَهُ العاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ والمُعْرِضُ عَنْ الإيمانِ يَحْصُلُ لَهُ لَذَّةٌ ابْتِداءً ثُمّ يَصِيْرُ في الألَمِ الدَّائِمِ وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« **فَصْــلٌ** » وسُئِلَ الشّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللّهُ أيُّمَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُمَكَّنَ أَوْ يُبْتَلى فَقَالَ لاَ يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى وَاللّهُ تَعَالَى ابْتَلى أُولُوا العَزْمِ مِن الرُّسُلِ فَلَمَّا صَبَرُوْا مَكّنَهُمْ .

فَلا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنَّهُ يَخْلُصُ مِنَ الأَلَمِ البَتَّةَ وإنَّمَا تَفَاوَتَ أَهْلُ الآلامِ في العُقُولِ فَأَعْقَلُهُمْ مَن بَاعَ أَلماً مُسْتَمِرّاً عَظِيْماً بألمٍ مُنْقَطِعٍ يَسِيْرٍ وأشْقَاهُمْ مَنْ بَاعَ الأَلَمَ المُنْقَطِعَ اليَسِيْرَ بالآلمِ العَظِيْمِ المُسْتَمِرِ . فإنْ قِيْلَ كَيْفَ يَخْتَارُ العَقْلُ لِهَذا ؟ قِيْلَ الحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا النَّقْدُ والنَّسِيْئَةُ والنَّفْسُ مُوكَّلَةٌ بالعَاجِلِ (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العاجِلة ـ أيّ الدُّنْيا ﴿وتذرون الآخِرة﴾ ﴿إنّهؤلاء يُحبّونَ العاجِلةَ ويَذَرُوْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمَا ثَقِيْلا﴾ وهَذا يَحصُلُ لِكُلِّ أحَدٍ فإنّ الإنْسَانَ مَدَنِيٌّ بالطَّبْع لا بُدَّ لَهُ أنْ يَعِيْشَ مَعَ النّاسِ .

وَالنَّاسُ لَهُمْ إرَادَاتٌ وَتَصوُّرَاتٌ فَيَطْلُبُوْنَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْها وانْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ وعَذَّبُوْهُ ، وإنْ وَافَقَهُمْ حَصَلَ لَهُ الآذَى وَالعَذَابَ تَارةً مِنْهُمْ ، وتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ كَمَنْ عِنْدَهُ دِيْنٌ وتُقىً حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجّارٍ ظَلَمَةٍ وَلَا يَتمَكَّنُوْنَ مِنْ فُجُوْرِهِمْ وظُلْمِهِمْ إلاّ بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ وسُكُوْتِهِ عَنْهُمْ فَإنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الابْتِدَاءِ ثُمَّ يَتَسلَّطُوْنَ عَلَيْهِ بالإهَانَةِ والأذَى أضْعَافَ

مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِم وخَالَفَهُمْ وإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلا بُدَّ أنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ .

فَالحَزْمُ كُلَّ الحَزْمِ في الأَخْذِ بِمَا قَالَتْ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ لِمُعَاوِيَة : مَنْ أَرْضَى اللّهَ بسَخَطِ النّاسِ كَفَاهُ اللّهُ مؤُنَةَ النّاسِ وَمَنْ أَرْضَى النّاسَ بسَخَطِ اللّهِ لَمْ يُغْنُوْا عَنْهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً .

ومَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ العَالَمِ رَأَى هَذَا كَثِيْراً فِيْمَنْ يُعِيْنُ الرُّؤَسَاءَ عَلَى أَغْرَاضِهِمْ الفَاسِدَةِ وفِيْمَنْ يُعِيْنُ أَهْلَ البَدَعِ عَلَى بِدَعِهِمْ هَرَباً مِنْ عُقُوْبَتِهِمْ فَمَنْ هَدَاهُ اللّهُ وأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ امْتَنَعَ مِن المُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ المُحَرَّمِ وَصَبَرَ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ ثُمَّ يَكُونُ لَهُ العَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ لِلرُّسُلِ وأَتْبَاعِهِمْ كالمُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ وَمَنْ ابْتُلِي مِنَ العُلَمَاءِ والعُبَّادِ وصَالِحِيْ الوُلاَةِ والتُّجارِ وغَيْرِهِمْ وَلَمَا كَانَ الأَلَمُ لاَ مَحِيْصَ مِنْهُ البَتَّةَ عَزَّى سُبْحَانَهُ مَنْ اخْتَارَ الأَلَمَ اليَسِيْرَ المُنْقَطِعَ عَلَى الألمِ العَظِيْمِ المُسْتَمِرِّ بقَوْلِهِ ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لآتٍ وهُوَ السَّمِيْعُ العَلِيم﴾ .

فَضَرَبَ لِمُدَّةِ هَذَا الأَلَمِ أَجَلاً لاَ بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ وَهُوَ يَوْمُ لِقَائِهِ فَيَلْتَذُّ العَبْدُ أَعْظَمَ اللَّذَّةِ بِمَا تَحَمَّلَ مِنَ الألَمِ فِي اللّهِ ولِلّهِ وأَكَّدَ هَذَا العَزَاءَ وَالتَّسْلِيَةِ بِرَجَاءِ لِقَائِهِ لِيَحْمِلَ العَبْدَ اشْتِيَاقُهُ إِلَى لِقاءِ رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ عَلَى تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ الأَلَمِ العَاجِلِ بَلْ رُبَّمَا غَيَّبَهُ الشَّوْقُ إِلى لِقَائِهِ عَنْ شُهُوْدِ الأَلَمِ والاحْسَاسِ بِهِ وَلِهذا سَأَلَ النَّبيّ ﷺ رَبَّهُ الشَّوْقَ إِلى لِقَائِهِ فقَالَ في الدُّعَاءِ الّذي رواهُ أحمد وابن حبان :

(اللَّهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِني إِذا

كانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لِيْ وَتَوَفَّنِيْ إِذَا كانَتْ الوَفاةُ خَيْراً لِيْ وأسألكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ والشَّهَادَةِ وأَسْأَلُك نَعِيْماً لَا يَنْفَدُ وأسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ وأسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ وأسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ وأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ وأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فتنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِيْنَةِ الإِيمانِ واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدِيْن) .

فالشَّوْقُ يَحْمِلُ المُشْتَاقَ عَلَى الجِدِّ فِي السَّيْرِ إلى مَحْبُوْبِهِ ويُقَرِّبُ عَلَيْهِ الطَّرِيْقَ وَيَطْوِيْ لَهُ البَعِيْدَ ويُهَوِّنُ عَلَيْهِ الآلامَ والمَشَاقَ وَهُوَ مِنْ أعْظَمِ نِعْمَةٍ أنْعَمَ اللّهُ بِهَا على عَبْدِهِ ولكِنْ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ أقْوَالٌ وأعْمَالٌ هُمَا السَّبَبُ الّذي تُنَالُ بِهِ واللّهُ سُبْحَانَهُ سَمِيْعٌ لِتِلْكَ الأَقْوَالِ عَلِيْمٌ بِتِلْكَ الأفْعَالِ وَهُوَ عَلِيْمٌ بِمَنْ يَصْلحُ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بأعْلَمَ بِالشّاكِرِين﴾ .

فَإذَا فَاتَتِ العَبْدَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ رَبِّهِ فَلْيَقْرَأْ عَلَى نَفْسِهِ ﴿أَلَيسَ اللّهُ بأَعْلَمَ بالشّاكِرين﴾ ثُمَّ عَزَّاهُمْ تَعَالى بِعَزَاءٍ آخَرَ وَهُوَ أنَّ جِهادَهُمْ فِيْهِ إِنَّمَا هُوَ لأَنْفُسِهِمْ وَثَمَرَتُهُ عائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِيْنَ ومَصْلَحَةُ هَذَا الجِهَادِ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ لا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ أخْبَرَ أَنَّهُ يُدْخِلُهُمْ بِجِهَادِهِمْ وَإِيْمَانِهِمْ فِي زُمْرَةِ الصّالِحِيْنَ ثُمَّ أخْبَرَ عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الإِيمانِ بلا بَصِيْرَةٍ وَأنَّهُ إذا أُوْذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ لَهُ كَعَذَابِ الله .

وَهِيَ أَذاهُمْ لَهُ وَنَيْلُهُمْ إيّاهُ بالمَكْرُوْهِ والأَلَمِ الّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَنالَهُ الرُّسُلُ وأتْبَاعهُم مِمَّنْ خَالَفَهُمْ جَعَلَ ذَلِكَ الّذِي نَالَهُ مِنْهُمْ كَعَذَابِ اللّهِ الّذي فَرَّ مِنْهُ المُؤْمِنُونَ بالإيمانِ فَالمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيْرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ ألَمِ عَذابِ اللّهِ إِلَى الإِيمانِ وتَحَمَّلُوا مَا فِيْهِ مِنَ الألَمِ الزّائِلِ المُفَارِقِ عَنْ قَرِيبٍ .

وَهَذَا لِضُعْفِ بَصِيْرَتِهِ فَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِلى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ فَفَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِهِمْ إِلى أَلَمِ عَذَابِ اللّهِ فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةَ النَّاسِ فِي الفِرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللّهِ وَغُبِنَ كُلَّ الغَبْنِ إِذْ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ وَفَرَّ مِنْ أَلَمِ سَاعَةٍ إِلى أَلَمِ الأَبَدِ وإِذَا نَصَرَ اللّهُ جُنْدَهُ وأَوْلِيَاءَهُ قَالَ إِنِّي مَعَكُمْ وَاللّهُ عَلِيم بِمَا انْطَوى عَلَيْهِ صَدْرُهُ مِنَ النِّفَاقِ .

وَالمَقْصُوْدُ أَنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ اقْتَضَتْ حِكْمَته أَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَمْتَحِنَ النُّفُوسَ ويَبْتَلِيْهَا فَيَظْهَرُ بالامْتِحَانِ طِيْبَهَا مِنْ خُبْثِهَا ومَنْ يَصْلُحُ لِمُوالاتِهِوكَرَامَاتِهِ وَمَنْ لاَ يَصْلحُ ولِيُمَحِّصَ النّفُوسَ الّتي تَصْلُحُ لَهُ ويُخَلّصَهَا بِكيْرِ الامْتِحانِ كالذَّهَبِ لاَ يَخْلُصُ وَلاَ يَصْفُو مِنْ غِشِّهِ إِلاّ بالامْتِحانِ إِذ النَّفْسُ فِي الأَصْلِ جَاهِلةٌ ظَالِمةٌ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا بالجَهْلِ والظُّلْمِ مِنَ الخُبْثِ مَا يَحْتَاجُ خُرُوْجَهُ إِلَى السَّبْكِ والتَّصْفِيَةِ فَإِنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الدَّارِ وإِلاّ فَفِيْ كِيْرِ جَهَنَّمَ فإِذا هُذِّبَ العَبْدُ ونُقِّيَ أُذِنِ له فِي دُخول الجَنَّةِ .

قال الناظم رحمه الله :

وَإِنَّ جِهَادَ الكُفْرِ فَرْضُ كِفَايَةٍ
وَيَفْضُلُ بَعْدَ الفَرْضِ كُلَّ تَعَبُّدِ
لأَنَّ بِهِ تَحْصِيْنُ مِلَّةِ أَحْمَدٍ
وَفَضْلُ عُمُومِ النَّفْعِ فَوْقَ المُقَيَّدِ
فَلِلّهِ مَنْ قَدْ بَاعَ لِلّهِ نَفْسَهُ
وجُوْدُ الفَتَى فِي النَّفسِ أَقْصَى التَّجَوُّدِ
وَمَنْ يَغْزُ إِنْ يَسْلَمْ فَأجْرٌ ومَغْنَمٌ
وإِنْ يَرْدَ يَظْفَرْ بالنَّعِيْمِ المُخَلَّدِ

وَمَا مُحْسِنٌ يَبْغِي إِذَا مَاتَ رَجْعَةً
سِوَى الشُّهَدَا كَيْ يَجْهَدُوْا فِي التَّزَوُّدِ
لِفَضْلِ الَّذِي أُعْطُوْا وَنَالُوا مِنَ الرِّضَى
يَفُوقُ الأَمَانِيْ فِي النَّعِيْمِ المُسَرْمَدِيْ
كَفَى أَنَّهُمْ أَحْيَا لَدَى اللّهِ رُوْحُهُمْ
تَرُوْحُ بِجَنَّاتِ النَّعِيْمِ وَتَغْتَدِيْ
وغُدْوَةُ غَازٍ أَوْ رَواحُ مُجَاهِدٍ
فَخَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِقَوْلِ مُحَمَّدِ
يُكَفَّرُ عَنْ مُسْتَشْهَدِ البَرِّ مَا عَدَا
حُقُوقَ الوَرَى والكُلُّ فِي البَحْرِ فَاجْهَدِ
وَقَدْ سُئِلَ المُخْتَارُ عَنْ حَرِّ قَتْلِهِمْ
فَقَالَ يَرَاهُ مِثْلَ قَرْصَةِ مُفْرَدِ
كُلُوْمُ غُزَاةِ اللّهِ ألْوَانُ نَزْفِهَا
دَمٌ وكَمِسْكٍ عَرْفُهَا فَاحَ في غَدِ
ولَمْ يَجْتَمِعْ فِي مَنْخِرِ المَرْءِ يَا فَتَى
غُبَارُ جِهَادٍ مَعْ دُخَانٍ لَظَى أَشْهَدِ
كَمَنْ صَامَ لَمْ يُفْطِرْ وقَامَ فَلَمْ يَنَمْ
جِهَادُ الفَتَى في الفَضْلِ عِنْدَ التَّعَدُّدِ
لَشَتَانَ مَا بَيْنَ الضَّجِيْعِ بِفُرْشِهِ
وسَاهِرِ طَرْفٍ لَيْلَةً تَحْتَ أَجْرَدِ
يُدَافِعُ عَنْ أَهْلِ الهُدَى وحَرِيْمِهِمْ
وأَمْوَالِهِم بالنفسِ والمَالِ واليَدِ

وَمَن قَـاتَـلَ الأَعْـدَاء لإِعْـلاَءِ دِيْنِنَـا
فَـذَا فِيْ سَبِيْـلِ اللهِ لاَ غَيْـرُ قَيِّـدِ
وَيَحْسنُ تَشْيِيْـعُ الغُـزَاةِ لِـرَاجِـلٍ
وَحَـلَّ بـلاَ كُـرْهٍ تَلَقِيْـهُمُ أشْـهَـدِ
وأَهْلُ الكِتَابِ والمجُوسُ إِنْ تَشَا أغْزُهُمْ
بِغَيْـرِ دُعَـاءٍ إِذْ بِـإِبْـلاغِهِمْ بُـدِيْ
ويُغْـزَوْنَ حَتَّى يُسْلِمُـوْا أَوْ يُسَلِّمُـوْا
صَغَـاراً إِلَيْنَـا جِـزْيَـةَ الذُّل عَنْ يَدِ
وَغَيْرُ أُولَى فَلْيُدْعَ قَبْلَ قِتَالِهِ
إلى أَشْـرَفِ الأَدْيَـانِ دِيْنِ مُحَمَّـدِ
وَعَـرِّفْـهُ بِـالبُـرْهَـانِ حَتْمَ اتِّبَـاعِـهِ
ولا تَـقْبَـلَنْ مِـنْـه سِـوَاهُ بِـأَوْطَـدِ
وإِنَّ رِبَـاطَ الـمَـرْءِ أَجْـرٌ مُعَـظَّمٌ
مُـلازِمُ ثَـغْـرٍ لِلِّقَـا بِـالـتَّـعَـدُّدِ
ويَجْـرِيْ عَلى مَيْتٍ بِـهِ أَجْـرُ فِعْلِهِ
كَحَيٍ وَيُـؤْمَنْ بِـافْـتِتَـانِ بِـمَلْحَـدِ
ولا حَدَّ في أَدْنَاهُ بَلْ أَرْبَعُوْنَ في التَّـ
ـمَامِ ويُعْـطَى أَجْـرَ كُـلِّ مُـزَيَّـدِ
وأَفْضَلُهُ مَـا كَـانَ أَخْـوَفَ مَـرْكَـزاً
وأَقْـرَبَ مِن أرضِ العَـدُوِّ المُنَكِـدِ
وذَلِـكَ أَثْـنَى مِـن مُقَـامٍ بِـمَـكَـةٍ
وفي مَكَـةٍ فَضْـلُ الصَّـلاةِ فَـزَيِّـدِ

وَمَنْ لَمْ يُطِقْ في أرْضٍ كُلِّ ضَلالَةٍ
قِيَاماً وَإظهَاراً لِـدِيْنِ مُحَمَّدِ
فَحَتْمٌ عَلَيْـهِ هِجْرَةٌ مَـعَ أَمْنِـهِ الْـ
هَـلاَكَ ولَـوْ فَـرْداً وَذَاتَ تَـعَـدُّدِ
بِـلاَ مَحْرَمٍ مَشْياً وَلَوْ بَعُدَ المَدَى
لِفِعْلِ الصَّحَابِيَاتِ مَعْ كُلِّ مُهْتَدِ

اللَّهُمَّ أَلهِمْنَا ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وَوَفِقْنَا لِمَا وَفّقْتَ لَهُ الصّالحين من خَلْقِكَ واغفرْ لنا ولوالدِينا وجميع المسلمين برَحْمتك يا أرْحَم الرّاحمين وصلى الله على محمد وآلهِ وصحبه أجمعين . **فائدة جليلة**

وَقَالَ إذَا أَصْبَحَ العَبْدُ وأَمْسَى ولَيْسَ هَمُّهُ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ يَحْمِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ حَوَائِجَهُ كُلَّهَا وَحَمَلَ عَنْهُ كُلَّ مَا أَهَمَّهُ ، وفَرَّغَ قَلْبَهُ لِمَحَبَّتِهِ ولِسَانَهُ لِذِكْرِهِ وَجَوَارِحَهُ لِطَاعَتِهِ وإنْ أَصْبَحَ وأَمْسَى والدُنْيَا هَمُّهُ حَمَّلَهُ اللهُ هُمُوْمَهَا وَغُمُوْمَهَا وَأَنْكَادَهَا وَوَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ فَشَغَلَ مَحَبَّتَهُ بمَحَبَّةِ الخَلْقِ ولِسَانَهُ عن ذِكْرِهِ بِذِكْرِهِمْ وجَوَارِحهُ عن طَاعَتِهِ بِخِدمَتِهم وأشْغَالِهِم .

فَهُوَ يَكْدَحُ كَدَحِ الوَحْشِ في خِدْمَةِ غَيْرِهِ كالكِيْرِ يَنْفُخُ بَطْنَهُ وَيَعْصِرُ أَضْلاَعَهُ في نَفْعِ غَيْرِهِ فَكُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَن عُبُودِيَّةِ اللهِ وطَاعَتِهِ ومَحَبَّته بُلِيَ بعُبُوْدِيَّةِ المَخْلُوقِ ومَحَبَّتِهِ وخِدْمَتِهِ قَالَ تَعَالى « وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ له شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ » أ هـ .

شعرا :

كَأَنِّي بنَفْسِيْ قَدْ بَلَغْتُ مَدَى عُمْرِي
وأنْكَرْتُ مَا قَدْ كُنْتُ أعْرِفُ مِنْ دَهْرِي

وطَـالَبَنِـيْ مَن لاَ أَقُـوْمُ بِـدَفْعِـهِ
وحُـوِّلْتُ مِن دَارِي إلى ظُلْمَةِ القَبْرِ
وَفَـازَ بِـمِيْـرَاثِـي أنـاسٌ فَشَـتَّتُـوْا
بإفْسَادِهِم مَا كُنْتُ أَجْمَعُ في عُمْرِي
وأهْمَلَنِي مَنْ كَـانَ يُبْـدِي مَحَبَّتِـيْ
وأَخْـلِصُـهُ وُدِّيْ ويَـغْـمِـرُهُ بِـرِّيْ
ولَمْ يَسْخُ لِي مِنْهُمْ صَدِيْقٌ بِـدَعْوَةٍ
إذَا مَا جَرَى يَـوماً بحَضْـرَتِهِ ذِكْـرِي
وأَضْحَى لِبَيْتِيْ سَـاكِنٌ مُبْهَـجٌ بِـهِ
وفي اللحدِ بَيْتِيْ لاَ أَقُوْمُ إلى الحَشْرِ
فَيَـا شِقْـوَتِي إنْ لَمْ يَجُـدْ بنَجَاتِـهِ
إلٰهي ولَمْ يَجْبُـرْ بِـرَحْمَتِـهِ فَقْـرِي
فقَـدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِي ذُنُـوْبٌ لَـوْ أنَّهَـا
على ظَهْـرِ طَـوْرٍ أَثْقَلَتْـهُ مِن الـوِزْرِ

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ مَضَى رِجَالٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ كَانُوا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خَشْيَةَ العَارِفِينَ الموقِنِينَ لِذَلِكَ كَانَتْ أَقْوالُهُمْ وأفْعَالُهُم مَوْزُوْنَةً بِمَا لِلشَّرْعِ مِن مَوَازِيْنَ كانُوا يَزِنُونَ كَلاَمَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَلْفُظُوا بِهِ لِأَنَّهُم يُوْقِنُوْنَ أنَّ خَالِقَهُمْ سَمِعَهَا وشَهِدَ عَلَيْهَا وهُوَ تَعَالَى خَيرُ شَاهِدٍ .

كَانُوا إذَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ يَقِفُونَ في مَحَارِيْبِهِمْ بَاكِيْنَ مُتَضَرِّعِيْنَ لَهُم أَنِيْنٌ كَأَنِيْنِ المَرْضَى ولَهُمْ حَنِيْنٌ كَحَنِيْنِ الثُّكْلَى وكانُوا رُبَّمَا مَرُّوْا بالآيةِ مِن كِتَابِ اللهِ

فَجعَلُوْا يُرَدِّدُوْنَهَا بقَلْبٍ حَزِيْنٍ فأَثَّرَتْ عَلَيْهِم ومَرِضُوْا بَعْدَهَا مَاتَ أُولَئِكَ السَّلَفُ الصَّالِحُ الذِينَ تَتجافَى جُنُوبُهُم عن المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطمعاً .

ومَاتَتْ تِلْكَ الخَشْيَةُ وأعْقَبَها قَسْوَةٌ أَذْهَلَتِ العِبَادَ عن طَاعةِ اللهِ فَصَارُوْا يَأْتُونَ ويَذَرُوْنَ ما يَذَرُوْنَ دُوْنَ سُؤَالٍ عن سَخَطِ اللهِ ورِضَاه .

وغَدَتْ جَوَارِحُهُم مُطْلَقَةً في كُلِّ مَا يُغْضِبُ الله وصَارَتْ أَفْعَالُهُم فَوْضَى لَيْسَ لَهَا ضَوَابِطُ وَلاَ قُيُودُ العَينُ تَجُولُ في المَنَاظِرِ المُحرَّمَةِ مِن نِسَاءٍ سَافِرَاتٍ إلى سِيْنَماءٍ إلى تَلْفِزْيُونٍ إلى الفِدْيُوْ مُعَلِّمِ الفَسَادِ إلى كُوْرَة إِلَىَ مَجَلاَّةٍ في طَيِّها الشُّرُورُ إلى صُورةٍ مُجَسَّدَةٍ وغَيرِ مُجَسَّدَةٍ إلى كُتُبٍ هَدَّامَةٍ لِلأَخْلاَقِ إِلَى غَيْرِ ذلكَ مِن المُحَرَّمَاتِ التي تَجْرَحُ القُلُوب .

والفَرْجُ يَسْرَحُ كَمَا شَاءَ إلى الفَوَاحِشِ الدِّيْنُ ضَعِيْفٌ وَالخُلُقُ فاسِدٌ والاذنُ لا تَشْبَعُ مِن سَمَاعِ مَا يُسْخِطُ رَبَّهَا والبَطْنُ يَسْتَزِيْدُ مِن سُحْتِ الأقْوَاتِ .

وأما اليَدُ فَحَدَّثْ ولاَ حَرَجَ في تَعَدِّي الحُدُوْدَ وأَمَّا اللِّسَانُ فَلَيْلُهُ ونَهَارُهُ يَتحَرَّكُ وَيَتَقَلَّبُ في مُنْكَرِ القَوْلِ وزُوْرِهِ وَلاَ كَأَنَّ رَبَّهُ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ العَلِيْمُ مَوْجُوْدٌ وَتَرَاهُ يَطْعَنُ في أعْرَاضِ الغَوَافِلِ ويُمَزِّقُ جُلُودَهُم في السَّبِ والغِيْبَةِ والبَهْتِ والكَذِبِ ولا يَعِفُ عَن عِرْضِ أَيِّ بَشَرٍ .

ويَحْلِفُ باللهِ العَلِي العَظِيم كُلَّ يَومٍ مَرَّاتٍ ولا يَهُمُّهُ أَبَرَّ في يَمِيْنِهِ أَمْ فَجرَ وأَمَّا وُعُودُهُ وَعُهُوْدُهُ وَعُقُوْدُهُ فَتُهْمَلُ وَلاَ كأنَهُ مُكَلَّفٌ باحْتِرَامِهَا فَهَذَا وأَمْثَالُهُ قد انْهَمَكُوا في المَعَاصِي وتَوَغَّلُوْا فِيْهَا وصَارَتْ عِنْدَهُم عَادَاتٌ وشَيءٌ طَبِيْعِيٌ مَألُوفٌ لَهُمْ .

وَلِذَلِكَ إِذَا مَرَرْتَ بِهِمْ أَوْ مَرَرْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ اسْتَوْحَشْتَ مِنْ سَمَاعِ الأَغانِيْ والرَّقصِ والمُطْرِبِيْنَ والسَّببِ واللَّعْنِ والقَذْفِ والاسْتِهْزَاءِ بِالدِّينِ وأَخَذْتَ فِي العَجَبِ بَيْنَ هَؤلآءِ وَأُولَئِكَ الذينَ في أَوْقَاتِ التَّجَلِّياتِ في حَنَادِسِ الظُّلمِ يُنَاجُوْنَ رَبَّهُمْ رَاغِبِيْنَ في رِضْوَانِ العَزِيْزِ الجَبَارِ خَائِفِيْنَ مِنْ سَخَطِ المُنْتَقِمِ القَهَّارِ مُتَفَكِّرِيْنَ في سُرْعَةِ حُلُولِ المَنَايَا التي تُسَارِعُ الأَيَّامَ واللَّيَالِيْ في اقْتِرَابِهَا ومُوْقِنِيْنَ بِأَنَّهُمْ مُحَاسَبُوْنَ على الفَتِيْلِ والنَّقِيْرِ والقِطْمِيْرِ عَالِمِينَ بِأَنَّهُم مُكَلَّفُوْنَ بِوَاجِبَاتِ عُبُوْدِيَّةٍ مَا قَامُوا بِالقَلِيْلِ مِنْهَا وهُمْ عَنْهَا مَسْؤُلُونَ وعلى مَا قَدَّمُوْهُ مِن خَيْرٍ وشَرٍّ قَادِمُوْنَ .

وَهَلْ حَالُ هَؤلآءِ السُّعَدَاءِ في جَانِبِ أُولَئِكَ التُعَسآءِ الأَشْقِيَآءِ إِلَّا كَحَالِ المُصَابِ بالجُنُونِ في جَانِبِ أَوْفَرِ الناسِ عَقْلًا وأَكْمَلِهِمْ وَقَاراً فأَكْثِرْ يَا أَخِيْ مِنْ قَوْلِكَ الحَمْدُ لله الذِي عَافَانَا مِمَّا ابْتَلاهُمْ اللهُ يُعَافِيْهِمْ وَلَا يَبْلانَا قَال تعالى « قُلْ إن الخَاسِرِيْنَ الذِينَ خسِرُوْا أَنْفُسَهُم وأَهْلِيْهِم يومَ القِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِيْنُ »

وَكُــلِ كَــسْــرٍ فَــإن اللهَ يَــجْــبُــرُهُ

وَمَــا لِكَسْـرِ قَنَــاةِ الــدِّيْنِ جُبْــرَانُ

فَتَنَبَّهْ أَيُّهَا المُؤْمِنُ واعْلَمْ أَنَّكَ مَسْؤُلٌ عَن كُلِّ مَا تَعْمَلُ لا مُهْمَلٌ كالأَنْعَامِ فانْهَجْ نَهْجَ الاِسْتِقَامَةِ وَرَاقِبْ رَبَّكَ في مَصَادِرِكَ وَمَوَارِدِكَ لِتَقِفْ عِنْدَ الحُدُوْدِ قَالَ بَعْضُ المُرشِدِيْنِ إِلى مَعَالِمِ الرُشْدِ ضَارِباً لِذَلِكَ مَثَلاً .

واعْلَمْ أَنَّ الانسَانَ فِي تَقَلُّبِهِ في أَطْوَارِ حَيَاتِهِ كَمَثَلِ غَرِيْبٍ أَلْقَتْ بِهِ المَقَادِيْرُ إلى قَوْمٍ اسْتَقْبَلُوهُ بِتَرْحَابٍ وتَكْرِيْمٍ وكانَ ذَلِكَ النَّازِلُ فَاقِدَ القُوَى غَيْرَ عَالِمٍ بِمَا عَلَيْهِ القَوْمُ مِن الشُؤُنِ ولا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَتَى وَلا إِلى أَيْنَ يَذْهَبُ .

فَقَامَ القَوْمُ بواجِبَاتِ خِدْمَتِهِ وإكْرَامِهِ حَتَّى قَوِيَتْ حَوَاسُّهُ وَجَوارِحُهُ ومَدَارِكُهُ وأخذَ يَعْمَلُ كَمَا يَعْمَلُ القَوْمُ فَجَاءَ رَجُلٌ مِن عُقَلائِهِم قَائِلاً يَا هَذَا إنَّ هَذِهِ الدارَ التِي تَوَطَّنَهَا مُكْرِمُوْكَ ما هِيَ دَارُ إقَامَةٍ ولا هِيَ مَمْلُوكَةٌ لأحَدٍ مِن الخَلقِ ولكِنَّهُمْ أمْثَالُكَ نُزَلَاء مَنْ كَانُوْا يَعْمِرُوْنَ هَذِهِ الدارَ قَبْلَهُم ثُمَّ رَحَلُوْا وَتَرَكُوْهَا وَمَا كَانَ رَحِيْلُهُم إلى مَكَانٍ بَعِيْدٍ ولَكِنَّهُ كَانَ إلى سِجْنٍ ضَيِّقٍ وَمَكَانٍ مُظْلِمٍ لَوْ أرْسَلْتَ بِبَصَرِكَ لَرَأَيْتَهُ وقَدْ فَقَدُوْا تِلْكَ القُوَى وتَنَاسَوْا ذَلِكَ النَّعِيْمَ .

ثُمَّ أخَذَ بِيَدِهِ إلى مَكَانٍ قَفْرٍ وأعْنِي به المَقْبَرَةَ وقَالَ لَهُ هَذَا مُرَاحُ القَوْمِ ومَسْقَطُ رؤُسِهِمْ وإنَّ الطَّرِيْقَ التِي تُوْصِلُكَ إلى هَؤلآءِ القَومِ هِيَ الطَّرِيْقُ التي سَلَكَهَا مُكْرِمُوْكَ وإنَّهَا لَطَرِيْقٌ ذَاتُ عَقَبَاتٍ مُهْلِكَةٍ وَلَهَا أوْحَالٌ مَنْ تَوَرَّطَهَا هَلَكَ وَلا مَخْلَصَ مِن تِلْكَ الأوْحَالِ إلا بتَجَنُّبِ تِلْكَ العَقَبَاتِ أوْ تَجَاوُزِهَا عَدْواً .

فإنْ رُمْتَ السَّلَامَةَ فَسِرْ فَرِيْداً مُتَحَفِّظاً مِن تَخَاصُمِ القَوْمِ وتَنَازُعِهِم ومِنْ مَلَاهِيْهِمْ وَألعَابِهِمْ ولا تُصْغِ لِمَنْ يُنَادِيْكَ مِن خَلْفِكَ فإنَّ الذِي يُنَادِيْكَ مِن خَلْفِكَ في طَرِيْقِ النَّجَاةِ هُوَ أجْهَلُ مِنْكَ بِهَا ولا تُخَالِفْ مَنْ نَادَاكَ مِن الأمَامِ فَإنَّهُمْ أدْرَى مِنْكَ بمَفَاوِزِ الطَّرِيْقِ .

وايَّاكَ أنْ تَشْتَبِهَ عَلَيْكَ الطُّرُقُ وأصْوَاتُ المُنَادِيْنَ فإنَّ طَرِيْقَ السَّلامَةِ لَهَا أعْلَامٌ ومَصَابِيْحُ نَيِّرَةٌ عَلَى رَأسِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِها وأمَّا بَاقِي الطُرُقِ فإنَّهَا مُظْلِمَةٌ مُوْحِشَةٌ مُهْلِكَةٌ وَمَا هِيَ إلا طَرِيْقٌ وَاحِدَةٌ وَلَكِنَّهَاذَاتُ شُعَبٍ ومَسَارِبٍ كَثِيْرَةٍ .

فاحْذَرْ انْ تَتَهَاوَنَ بِنَفْسِكَ كَمَا تَهَاوَنَ القَوْمُ بِنُفُوسِهِمْ فَهَلَكُوْا وَهُمْ لا يَشْعُرُوْنَ فإنْ كَانَ النَازِلُ الغَرِيْبُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَعَقُّلِ النَّصَائِحِ وَذَا قَابلِيَةٍ تَقْبَلُ

الارْشَادَ وقَفَ عَلَى أَفْوَاهِ الطَرِيْقِ وفَتَحَ عَيْنَيْهِ واسْتَعْمَلَ فِكْرَهُ وتَبَصَّرَ في أَمْرِهِ وتَدَبَّرَ عَوَاقِبَ مَا عَلَيه القَومُ وأَخَذَ لِنَفْسِهِ بأَحْوَطِ الأَحْوَالِ وأَقْرَبِهَا إلَى السَّلاَمَةِ وَجَعَلَ عَيْنَهُ مُتَّجِهَةً لِلنَّظَرِ إلى مَنَازِلِ الرَّاحِلِيْنَ التِي لا أَنِيْسَ بِهَا ولا جَلِيْسَ .

وَتَأَمَّلَ سُرْعَةَ الرَّحِيْلِ وقِصَرَ أَوْقَاتِ الاقَامَةِ وتَجَنَّبَ الأَلْعَابَ والمَلاَهِي وسَلَكَ سَبِيْلَ المُهْتَدِيْنَ وإنْ كَانَ ضَيِّقَ الحَضِيْرَةِ قَاصِرَ النَّظَرِ ضَعِيْفَ الهِمَّةِ ضَائِعَ العَقْلِ سَيِّءَ التَّصَوُرِ فَاقِدَ الفِكْرِ خَبِيْثَ الاسْتِعْدَادِ لَئِيْمَ الطَّبْعِ لا يَجِدُ بُداً مِن مُنَازَعَةِ اللاَّعِبِيْنَ وَمُسَابَقَةِ اللاَّهِيْنَ وَتَغَافَلَ عن عَاقِبَةِ أَمْرِهِ وسُوْءِ مَصِيْرِهِ وتَبَاعَدَ عن صِيَاحِ النَّاصِحِيْنَ وأَصْغَى إلَى مُدَاهَنَةِ الغَاوِيْنَ أَصْبَحَ مِن النادِمِيْنَ .

وَمَا ضَرَبْنَا لَكَ هَذَا المَثَلَ إلا لِتَعْلَمَ أَنَّكَ أَنْتَ الغَرِيْبُ الذي نَزَلْتَ يَوْمَ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بقَوْمِكَ وأنْتَ ضَعِيْفُ القُوَى لا تَعْلَمُ شَيْئاً كَمَا قَالَ تَعالَى « واللهُ أخرجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُون شيئاً وجَعَلَ لَكُم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تَشْكُرون » فَفَرِحَ بِكَ قَوْمُكَ وأكْرَمُوكَ إلى أَنْ قَوِيَتْ الآتُ أَعْمَالِكَ وصِرْتَ تُحْسِنُ الرَّحِيْلَ وَحْدَكَ .

ونُرِيْدُ بالرَّحِيْلِ هُنَا سُلُوكَ إحْدَى الطَّرِيْقَيْنِ إمَّا طَرِيقَ الكَمَالاتِ وإمَّا طَرِيْقَ النَّقَائِصِ لِأَنَّهُما مَسَارِبَ المكلفِيْنَ الذينَ لا بُدَّ لَهُمْ مِن السَّيْرِ فِيْهَا لِلوُصُوْلِ إلى أَحَدَ الغَايَتَيْنِ فَإِنَّهُ مَا مِن طَرِيْقٍ إلا وَلَهَا غَايَةٌ يَنْتَهِي إلَيْهَا مَسِيْرُ سَالِكِهَا .

وَمَا نُرِيْدُ بالرَّجُلِ العَاقِلِ المُرْشِدِ إلَّا صَاحِبَ الرِّسَالَةِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أَوْ النَّائِبِ عَنْهُ فِي تَبْلِيْغِهَا وَمَا نُرِيْدُ بِمَنْ يُنَادِيْكَ مِنَ الأَمَامَ إلَّا السَّلَفُ

الصَّالِحُ الّذِينَ سَبَقُوْنَا بِالإِيْمانِ وَبَيَّنُوْا لَنَا طَرِيْقَ النَّجَاةِ أَوِ الأَتْقِيَاءِ المُقْتَفُوْنَ لآثارِهِمْ الّذِيْنَ ثَبَتَتِ اسْتِقَامَتُهُمْ .

وَمَا نُرِيْدُ بِالّذِيْنَ يُنَادُوْنَكَ مِنْ خَلْفِكَ إِلَّا الّذِيْنَ لَا قَدَمَ لَهُمْ فِي طَرِيْقِ النُّبُوَّةِ فَلَمْ يَسْلُكُوْا سَبِيْلَ المُهْتَدِيْنَ بَلْ اعْتَمَدُوْا فِي ارْشَادِهِمْ عَلَى مَقَالٍ لَا حَالَ مَعَهُ وَلَا عَمَلَ وَهَذا لا تَصْلُحُ مُتَابَعَتُهُ لأَنَّهُمْ أَجْهَلُ النَّاسِ بِطَرِيْقِ الاسْتِقَامَةِ .

وَمَا أَهْلُ الاسْتِقَامَةِ إِلَّا الّذِيْنَ رَاقَبُوْا قُلُوْبَهُمْ وأَمْسَكُوْا أَلسِنَتَهُمْ وَطَهَّرُوْا أَقْلامَهُمْ فَلاَ عَزْمَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى أَعْمَالِ البِرِّ والمُوَاسَاةِ وَلَا يَقُوْلُوْنَ إِلَّا الحَقَّ المُنْجِيْ وَلَا يَكْتُبُوْنَ إِلّا مَا لَوْ سُئِلُوا عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لأَحْسَنُوْا الإِجَابَةِ وَالّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللّهَ كَثِيْراً وإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالبَكّاؤُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ المُقْتَفُونَ لآثَارِهِ ﷺ .

شعرا :

نُـورُ الحَـدِيْثِ مُبِيْنٌ فَـادْنُ وَاقْتَبِسِ
وَاحْدُ الرِّكَابَ لَهُ نَحْوَ الرِّضَا النَّدُسِ
مَـا العِلْمُ إِلَّا كِتَـابُ اللّهِ أَوْ أَثَـرٌ
يَـجْلُو بِنُـوْرِ هُـدَاهُ كُـلَّ مُلْتَبِسِ
نُـوْرٌ لِمُقْتَبِسٍ خَيْـرٌ لِمُـلْتَمِسِ
حِمىً لِمُحْتَـرِسٍ نُعْمَى لِمُبْتَئِسِ
فَـاعْكُفْ بِبَابِهِمَـا عَلَى طِلابِهِمَـا
تَمْحُوْ العَمَى بِهِمَا عَنْ كُـلِّ مُلْتَبِسِ

وَرِدْ بقَلْبِـكَ عـذْباً مِنْ حِيَـاضِهِمَــا
تَغْسِـلْ بِمَـائِهِما مـا فِيْـهِ مِنْ دَنسِ
واقْـفُ النَّبِيَّ وأتْبَـاعَ النَّبِيِّ وَكُـنْ
مِنْ هَـدْيِهِمْ أبَـداً تَـدْنُـوْ إلَى قَبَسِ
والْـزَمْ مَجَـالِسَهُمْ وَاحْفَظْ مُجَـالِسَهُمْ
وَانْدُبِ مَدَارِسَهُمْ بـالأرْبُعِ الـدُّرُسِ
واسْلُكْ طَـرِيْقَهُمْ وَاتْبَـعْ فَـرِيقَـهُمُ
تَكُنْ رَفِيْقَهُمُ في حَضْـرَةِ القُـدُسِ
تِلْكَ السَّعَـادَةُ إنْ تُلْمِمْ بِسَـاحَتِهَـا
فَحُطَّ رَحْلَكَ قَـدْ عُوْفِيْتَ مِنْ تَعَسِ

وَمَا نُرِيْدُ بِمَرَاحِلِ حَيَاتِكَ إلاّ الأَطْوَارَ الَّتِي تَتَقَلَّبُ بِكَ فِيْهَا الشَّمْسُ كُلَّمَا غَرَبَتْ أَوْ أَشْرَقَتْ وَتَنْتَقِلُ بِكَ إِلَيْهَا اللَّيَالِي وَأَنْتَ لا تَشْعُرُ فَمَا أَسْرَع مُرُوْرِ الشَّمْسِ بِكَ إِلى نِهَايَةِ أجَلِكَ وَمَا أَغْفَلَكَ عَنْ عَمَلِهَا فِيْكَ .

وَمَا نُرِيْدُ بأَوْحَالِ حَيَاتِكَ إلاّ مُتَابَعَةُ شَهَوَاتِكَ عِنْدَ بُلُوغِ الحُلْمِ فَإِنَّ لِطَوْرِ الشُّبُوبِيَّةِ أَوْحَالٌ مُهْلِكَةٌ وهِيَ الشَّهَوَاتُ البَهِيْمِيَّةُ الَّتِي تَضْطَرُّ الشَّبَابَ الّذِيْ غَلَبَتْ شَهوَتُهُ عَقْلَهُ إلى مُغَازَلَةِ الغَانِيَاتِ وَمُعَانَقَةِ المَلاَهِيْ وَتَعَاطِيْ المُحَرَّمَاتِ فَيَصِيْرُ في أَوْحَالٍ تُنَاسِبُهُ .

وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَسْتَطِيْعُ تَجَنُّبَ تِلْكَ الأَوْحَالَ إلاّ الّذِيْ وَفَّقَهُ اللّهُ فَتَبَاعَدَ عَنْ ظُلُمَاتِ الزَّيْغِ وَتَنَوَّرَ بِنُورِ العِلْمِ الدِّينِيْ الّذي عَلَّمَهُ العَلِيْمُ الخَبِيْرُ لِرَسُوْلِهِ ﷺ وأَمْرَهُ بِتَعْلِيْمِهِ لِلنَّاسِ لأنّهُ جَلَّ شَأْنُهُ هُوَ الحَكِيْمُ العَلِيْمُ الّذِي عَلِمَ الدَّاءَ ودَبَّرَ

الدَّوَاءَ قَال تَعَالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الخَبِير﴾ انتهى بتصرف يسير .

شعرا :

مَثِّلْ لِنَفسِكَ أَيُّهَا المَغْرُوْرُ
يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُوْرُ
قَدْ كُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وأُضْعِفَتْ
حَرّاً عَلَى رُؤُس العِبَادِ تَفُوْرُ
وَإِذَا الجِبَالَ تَعَلَّقَتْ بِأُصُوْلِهَا
فَرَأَيْتَهَا مِثْلَ السَّحَابِ تَسِيْرُ
وإِذَا النُّجُومُ تَسَاقَطَتْ وَتَنَاثَرَتْ
وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الضِّيَاءِ كَدُوْرُ
وإِذَا العِشَارُ تَعَطَّلَتْ عَنْ أَهْلِهَا
خَلَتِ الدِّيَارُ فَمَا بِهَا مَعْمُوْرُ
وإِذَا الوُحُوْشُ لَدَى القِيَامَةِ أُحْضِرَت
وتَقُوْلُ لِلأَمْلَاكِ أَيْنَ نَسِيْرُ
فَيُقَالُ سِيْرُوْا تَشْهَدُوْنَ فَضَائِحاً
وَعَجَائِباً قَدْ أُحْضِرَتْ وَأُمُوْرُ
وإِذَا الجَنِيْنُ بِأُمِّهِ مُتَعَلِّقٌ
خَوْف الحساب وقلبه مذعُوْرُ
هَذَا بِلَا ذَنْبٍ يَخَافُ لِهَوْلِهِ
كَيْفَ المُقِيْمُ عَلَى الذُّنُوْبِ دُهُوْرُ

اللّهُمَّ ثَبِّتْ وَقَوِّي مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِنَا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ وامْتِثالِ أمْرِكَ اللّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُوْرِ الإِيْمَانِ واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدِيْن وتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ والْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا وجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى الله عَلَى مُحَمّد وَعلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْن .

(فصـــل)

« نَخْتُمُ هَذَا الجُزْءَ فِي فَصْلٍ يَحْتَوِيْ عَلَى نُبْذَةٍ يَسِيْرَةٍ »
« عَنْ سِيْرَةِ النَّبِيّ ﷺ »
« وَنُمُوذجٍ عَنْ حِلْمِهِ وَوَفَائِهِ »

هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلبِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصيّ بْنِ كِلاَبِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بنِ لُؤ ي بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مالِك بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ بْنِ الياس بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِ بْنِ عَدْنَانٍ هَذا متّفق علَى صِحَّتِهِ .

وَلاَ خِلافَ أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيْلَ بْنِ إبراهِيمَ وإِسْمَاعِيْلُ هُوَ الذَّبِيْحُ عَلَى القَوْلِ الصَّحِيْحِ والقَوْلُ بِأَنَّهُ اسْحٰقُ باطلٌ وَلاَ خِلافَ أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ بِمَكَّةَ عَامَ الفِيْلِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ لِثَمَانٍ خلَوْنَ مِنْ رَبِيْعِ الأَوَّلِ وقِيْلَ لِعَشْرٍ مِنْهُ وقِيلَ لاثْنَتَي عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْهُ سَنَة ٥٧١ م .

وأَمَّا عَبْدُ اللّهِ أَبُو رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَكَانَ أَحْسَنَ أَوْلادِ عبْدِ المُطَّلِبِ وأعَفَّهُمْ وَكَانَ أَبُوْهُ يُحِبُّهُ والأكْثَرُ يَقُولُونَ أَنَّهُ تُوفّيَ وَالنَّبِيُّ ﷺ حَمْلٌ وقِيْلَ أَنَّهُ مَاتَ وَلِرَسُولِ اللّهِ ﷺ شَهْرَانِ وَجَمِيْعُ مَا خَلَّفَهُ عَبْدُ المُطّلِبِ خَمْسَةُ أجْمَالٍ وجَارِيَةٌ

حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا بَرَكَةُ وَكُنْيَتُهَا أُمُّ أَيْمَنَ وهِيَ حَاضِنَتُهُ ﷺ .

وَرَوَى البيهقيُّ أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ مَخْتُوْناً وذَكَرَ البَيْهَقِيُّ أَيْضاً أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةَ الَّتِي وُلِدَ فِيْهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ ارْتَجَّ إِيْوَانُ كِسْرَى وَسَقَطَ مِنْهُ أَرْبَعَ عَشْرَ شَرَفَةً وخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ وَلَمْ تَخْمُدْ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ أَلْفِ عَامٍ وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَة .

وإلى هذا أشارَ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ :

نُـوْرٌ مِـنَ الـرَّحْمَنِ أَرْسَلَهُ هُـدَى
لِلنَّـاسِ فَـازْدَهَـرَ الـزَّمَـانُ وأَيْنَعَـا
دَعْ عَنْـكَ إِيْـوَانـاً لِكِسْرَى عِنْـدَمَا
هَتَفُـوْا بِمَـوْلِـدِهِ هَـوَى وتَصَـدَّعَـا
واذْكُـرْهُ كَيْفَ أَتَى شُعُـوْبـاً فُـرِّقَتْ
أَهْـوَاءُهَا كُـلٌّ يُصَحِّحُ مَـا ادَّعَـا
فَـهَـدَاهُمْ لِـلْحَقِّ حَتَّى أَصْبَـحُـوْا
فِـي اللّهِ إِخْـوَانـاً تَـرَاهُـمْ رُكَّعَـا
أَبْـنَـاءَ أَخْيَـافٍ تَـجَمَّـعَ شَـمْـلُهُـمْ
وَغَـدَوْا بِـدِيْنِ اللّهِ شِعْبـاً أَمْـنَعَـا
فَتَحْـوا لَـهُ الـدُّنْيـا فَسَـار مُـظفـراً
وَبَنَـوْا لَـهُ حِصْنـاً أَشَمَّ مُـمَنَّـعَـا
بَـذَلُوْا النُّفُـوسَ رَخِيْصَـةً فِي نَصْـرِهِ
فَتَسَنَّمُـوْهَـا م السَّـلَامِ الأَرْفَعَـا

لَهْفِيْ عَلَى مَــاضِي الحَنِيْفَــةِ إِنَّــهُ
مَــاض تَــأَلَّقَ زَاهِيــاً وَتَـضَــوَّعَــا
أَيَّــامَ كَــانَ الــدِّيْنُ تُشْرِقُ شَمْسُــهُ
فَيَــرَى الغُــوَاةُ السَّــادِرُوْنَ المَهْيَعَــا
يَــا أُمَّــةَ التَّــوْحِيْـدِ هَــذَا مَجْدُكُمْ
إِنِّـيْ لأَخْشَـى أَنْ يَضَــلَّ مُـضَيَّـعَــا
سِيْــرُوْا عَلَى سُنَنِ النَّبِيِّ وَجَنِّبُــوْا
زَيْفَ الحَضَـارَةِ عَنْكُمُ أَنْ يَخْدَعَـا
وَخُذُوْا لَكُمْ مِن سُنَّةِ الهَادِي هُدَى
فَهُــوَ المَنَـارُ إِذَا الظَّــلاَمُ تَجَمَّعَــا

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ إِنِّيْ عِنْدَ اللّهِ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَخَاتِمُ النَّبِيِّيْنَ وإِنَّ آدَمَ لَمُجَنْدَلٌ فِي طِيْنَتِهِ وَسَوْفَ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيْلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيْمَ وَبَشَارَةُ عِيْسَى قَوْمَهُ وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِيْ رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُوْرٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُوْرُ الشَّامِ .

قَالَ فِي اللَّطَائِفِ وخُرُوْجُ هَذَا النُّورِ عِنْدَ وَضْعِهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا يَجِيءُ بِهِ مِنَ النُّوْرِ الَّذِي اهْتَدَى بِهِ أَهْلُ الأَرْضِ وَزَالَتْ بِهِ ظُلْمَةُ الشِّرْكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى قَدْ «جَاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُوْرٌ وكِتَابٌ مُبِيْنٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ» .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ لاَ تَضرُّهُ المعصيَةُ ولاَ تَنْفَعُه الطَّاعَةُ أَيْقِظْنَا مِنْ نَوْمِ الغفْلَةِ وَنَبِّهنْا لاغْتِنَام أَوْقَاتِ المُهْلَة وَوَفِّقْنَا لِمصَالِحِنَا واعْصِمْنَا مِنْ قَبَائِحِنا وذُنُوبِنا ولا تُؤاخِذْنَا بِمَا انْطَوَتْ عليْهِ ضَمائِرُنا واكَنَّتْهُ سَرَائِرُنا مِنْ أَنْواعِ القَبَائِحِ والمَعَائِبِ التِي تَعْلَمُها مِنّا واغْفِرْ لَنا ولِوالِدِيْنَا ولِجميعِ المُسْلمينَ الأَحياءِ مِنهُمْ والميتِينَ برَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الرَّاحِمينَ وصَلى اللّهُ على مُحَمّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبه أجْمعين .

(فصـــل)

وَبَعْدَ مَوْلِدِهِ ﷺ أَرْضَعَتْهُ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بنِ كُلَابِ ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ﷺ ثُوَيْبَةُ عَتِيْقَةُ أَبِي لَهَبٍ أَعْتَقَهَا حِيْنَ بَشَّرَتْهُ بِوِلادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّةُ .

قَالَتْ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّةُ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ تَقُوْمَ بِإِرْضَاعِهِ قَدِمْتُ مَكَّةَ مَعَ تِسْعِ نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ نَلْتَمِسُ الرَّضَاعَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ عَلَى أَتَانٍ لِي وَمَعِيْ صَبِيٌّ لَنَا وَقَدْ عُرِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ مِنَّا فَأَبَيْنَ أَنْ يُرْضِعْنَهُ حِيْنَمَا عَلِمْنَ أَنَّهُ يَتِيْمُ الأَبِ .

وَذَلِكَ أَنَّا كُنَّا نَرْجُو المَعْرُوْفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ فَكُنَّا نَقُوْلُ إِنَّهُ يَتِيْمٌ مَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ مِنْ صَوَاحِبِيْ امْرَأَةٌ إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيْعاً فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ قُلْتُ لِزَوْجِيْ وَهُوَ الحَارِثُ بْنُ عَبْدِ العُزَّى وَاللَّهِ إِنِّيْ لَا أَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِيْ وَلَيْسَ مَعِيْ رَضِيْعٌ لَأَنْطَلِقَنَّ إِلَى ذَلِكَ اليَتِيْمِ وَلَآخُذَنَّهُ .

قَالَ لَا ضَرَرَ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلِيْ . عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيْهِ بَرَكَةً فَذَهَبْتُ ثُمَّ أَخَذْتُهُ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيِي بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبَ حَتَّى رَوِيَ وَشَرِبَ ابْنِيْ حَتَّى شَبِعَ فَوَدَّعَتِ النِّسَاءُ بَعْضُهُنَّ بَعْضا .

ثُمَّ رَكِبْتُ أَتَانِيْ وَأَخَذْتُ مُحَمَّداً بَيْنَ يَدَيَّ ثُمَّ مَشَتْ أَتَانِيْ حَتَّى سَبَقَتْ دَوَابَّ النَّاسِ الَّذِيْنَ كَانُوْا مَعِيْ وَصَارُوْا يَتَعَجَّبُوْنَ مِنِّي ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى مَنَازِلِ بَنِيْ سَعْدٍ وَلَا أَعْلَمُ أَرْضاً مِنْ أَرْضِ اللَّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوْحُ عَلَيَّ حِيْنَ قَدِمْنَا بِهِ كَثِيْرَةَ اللَّبَنِ فَنَحْلِبُ وَنَشْرَبُ .

وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ ذُكِرَ أَنَّ مَلَكَيْنِ شَقَّا بَطْنَهُ واسْتَخْرَجَا قَلْبَهُ وَشَقَّاهُ فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ ثُمَّ غَسَلاَ قَلْبَهُ وَبَطْنَهُ بِالثَّلْجِ وَقَالَ أَحَدُهُمَا زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَوَزَنَهُ ثُمَّ ما زَالَ يَزِيْدُ حَتَّى بَلَغَ الأَلْفَ فَقَالَ واللّهِ لَوْ وَزَنْتُهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَها .

وَمَاتَتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ السّلامُ وَلَمْ يَسْتَكْمِلْ إِذْ ذَاكَ سَبْعَ سِنِيْنَ حِيْنَ انْصَرَفَتْ مِنْ زِيَارَاتِ أَخْوَالِهِ بَنِيْ النَّجارِ وَكَانَتْ خَرَجَتْ بِهِ مَعَهَا وَمَعَهُ دَايَتُهُ أُمُّ أَيْمَنَ قَدِمَتْ بِهِ إِلى مَكَّةَ بَعْدَ مَوْتِهَا .

فَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ وَرَقَّ عَلَيْهِ رِقَّةً لَمْ يَرِقَّهَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَوْلاَدِهِ فَكَانَ لاَ يُفَارِقُهُ وَمَا يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِهِ إِجْلاَلا لَهُ إِلاَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ .

وَقَدِمَ مَكّةَ قَوْمٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ مِنَ القَافَةِ فَلَمَّا نَظَرَوْا إِلَيْهِ قَالُوْا لِجَدِّهِ احْتَفِظْ بِهِ فَلَمْ نَجِدْ قَدَماً أَشْبَهَ بالقَدَمِ الّذي في المَقَامِ مِنْ قَدَمِهِ فَقَالَ لأَبِي طَالِبٍ اسْمَعْ مَا يَقُولُ هَؤُلاءِ واحْتَفِظْ بِهِ .

وَتُوُفِّيَ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبْ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مَوْلِدِهِ ﷺ وَأَوْصَى بِهِ إِلَى عَمِّهِ أَبِيْ طَالِبٍ شَقِيْقِ أَبِيْهِ عَبْدِ اللّهِ فَكَفَلَهُ وَأَحْسَنَ كَفَالَتَهُ قَالَ الوَاقِدِيّ أَقَامَ أَبُو طَالِبٍ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنْ مَوْلِدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إِلى السَّنَةِ العَاشِرَةِ مِنَ النُّبُوّةِ ثَلاَثاً وأَرْبَعِيْنَ سَنَة يَحُوْطُهُ وَيَقُومُ بأمْرِهِ ويَذُبُّ عَنْهُ وَيَلْطُفُ بِهِ .

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً خَرَجَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى بَلَغَ بُصْرى فَرَآهُ بُحَيْرُ الرَّاهِبُ وَاسْمُهُ جِرْجِيْسُ فَعَرَفَهُ بِصِفَتِهِ فَقَالَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِهِ هَذَا سَيِّدُ العَالَمِيْنَ هَذا يَبْعَثُهُ اللّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ فَقَالَ وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ فَقَالَ إِنَّكُمْ حِيْنَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ العَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ حَجَرٌ وَلاَ شَجرٌ إِلاَّ وَخَرَّ سَاجِدَا وَلاَ

تَسْجُدُ إلاّ لِنَبيّ وإنّيْ أعْرِفُهُ بِخَاتِم النُّبُوَّةِ في أسْفَلِ غُضُرُوْفِ كتِفِهِ مِثْلُ التُّفَاحَةِ وإنّا نَجِدُهُ فِي كُتبِنَا .

وَسَأَلَ أَبَا طَالِبِ أَنْ يَرُدَّهُ خَوْفاً عَلَيْهِ مِنَ اليَهُوْدِ الحَدِيْثَ رَواه ابن أبي شيْبَة وفِيْهِ إنَّهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظَلِّلُهُ . ثُمَّ خَرَجَ ﷺ مَرَّةً أُخْرَى ومَعَهُ مَيْسَرَةُ غُلاَمُ خَدِيْجَةَ فِي تِجَارةٍ لَهَا حَتَّى بَلَغَ سُوْقُ بُصْرَى وَلَهُ إذْ ذَاكَ خَمْسٌ وعِشْرُوْنَ سَنَةً .

فَنَزَلَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ فَقَالَ نَسْطُوْرُ الرَّاهِبُ مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاّ نَبِيٌّ وَكَانَ مَيْسَرَةُ يَرَى فِي الهَاجِرَةِ مَلَكَيْنِ يُظَلاّنِهِ مِنَ الشَّمْسِ فَلَمَّا رَجَعُوْا إلَى مَكَّةَ سَاعَةَ الظَّهِيْرَةِ وَخَدِيْجَةُ فِي عَلِيَّةٍ لَها رَأَتْ رَسُوْلَ اللّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَعِيْرِهِ وَمَلَكَانِ يُظِلاّنِهِ ذَكَرَهُ أَبُو نُعَيْم .

اللّهُمَّ عَمِّقْ إيمَانَنَا بِكَ وبِمَلائِكَتِكَ وبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وبِاليَوْمِ الآخِرِ وبِالقَدّ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وآلِهِ وَسلّم .

(فصــــل)

وَتَزَوَّجَ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ خَدِيْجَةَ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَانَتْ تَحْتَ أَبِي إهَابَة بْنِ زُرَارَةَ التَّمِيْمِي ثُمَّ تَزَوَّجَهَا عَتِيْقُ بْنُ عَائِذٍ المَخْزُوْمِيّ فَوَلَدَتْ لَهُ هِنْداً وَكَانَ لَهَا حِيْنَ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنَ العُمُرِ أَرْبَعُونَ سَنَةً فَوَلَدَتْ لِرَسُولِ اللّه ﷺ بَنِيْنَ وَبَنَاتٍ وَكُلُّ أَوْلاَدِهِ مِنْهَا حَاشَا إبْرَاهِيْمَ فَإنّه مِنْ مَارِيَةِ القُبْطِيَّةِ الّتِي أهْدَاهَا لَهُ المُقَوْقِسُ صَاحِبُ مِصْرَ .

فَالذُّكُوْرُ مِنْ وَلَدِهِ القَاسِمُ وَبِهِ كَانَ يُكْنَى وَهُوَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ عَاشَ أَيّاماً

يَسِيْرَةً وُلِدَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَوُلَدَ لَهُ غَيْرُ إبْرَاهِيْمَ وَالقاسِمَ عَبْدُ اللّهِ وَهُوَ المُسَمَّى بِالطَّيِّبِ وَالطَّاهِرِ لأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ وأَمَّا إبْرَاهِيْمُ فَوُلِدَ لَهُ بِالمَدِيْنَةِ وَعَاشَ عَامَيْنِ غَيْرَ شَهْرَيْنِ وَمَاتَ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بثَلاثَةِ أَشْهُرٍ يَوْمَ كُسُوفٍ .

وَأَمَّا بَنَاتُهُ ﷺ فَأَرْبَعُ زَيْنَبُ تَحْتَ أَبي العَاصِ بْنِ الرَّبِيْعِ وَكَانَتْ خَدِيْجَةُ خَالَتُهُ وَالثَّانِيَةُ رُقِيَّةٌ تَزَوَّجَهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَمَاتَتْ بَعْدَ بَدْرٍ بِنَحْوِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَزَيْنَبُ مَاتَتْ فِي حَيَاةِ أَبِيْهَا ﷺ وَالثَّالِثَةُ أُمُّ كُلْثُومٍ وَهِيَ أَصْغَرُ بَنَاتِهِ كَانَتْ مُمَلَّكَةً بعُتْبَةَ بنَ أبي لَهَبٍ فَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا وَطَلَّقَهَا فتَزَوَّجَهَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فَمَاتَتْ عِنْدَهُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ .

الرّابعةُ فَاطِمَةُ تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ فَوَلَدَتْ لَهُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ وَزَيْنَبَ وَأُمّ كُلْثُومٍ وابْنَا مَاتَ صَغِيْراً اسْمُهُ المُحْسِنُ وَمَاتَتْ فَاطِمَةُ بَعْدَ رَسُوْلِ اللّهِ ﷺ بستّةِ شُهُوْرٍ ، وَخَدِيْجَةُ أَوَّلُ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَ بِهَا وَأَوَّلُ امْرَأَةٍ مَاتَتْ مِنْ نِسَائِهِ وأَمَرَهُ جِبْرِيْلُ أَنْ يَقْرَأ عَلَيْهَا السّلامَ مِنْ رَبِّهَا .

وَهِيَ أَوَّلُ امْرَأَةٍ آمَنَتْ بِهِ وَعَاضَدَتْهُ وَنَاصَرَتْهُ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ لَهَا مِنْهُ المَنْزِلَةُ العَالِيَةُ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ وَمَحَبَّةَ كُتُبِكَ وَمَلاَئِكَتِكَ وَرُسُلِكَ وَأَوْلِيائِكَ فِي قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُوْرِ الإِيْمانِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَجمِيعِ المُسْلِمِيْن بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللّهُ عَلَى نَبِيّنا مُحَمّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصــل)

وَلَمْ يَرِثْ ﷺ مِنْ وَالِدِهِ شَيْئاً بَلْ وُلِدَ يَتِيماً عَائِلاً فَاسْتُرْضِعَ فِي بَنِي سَعْدٍ وَلَمَّا بَلَغَ مَبْلَغاً يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلاً كَانَ ﷺ يَرْعَى الغَنَمِ مَعَ إِخْوَانِهِ مِنَ الرِّضَاعِ فِي البَادِيَةِ وَكَذَلِكَ لَمَّا رَجَعَ إِلى مَكَّةَ كَانَ يَرْعَاهَا لأَهْلِهَا عَلَى قَرَارِيْطَ كَمَا ذَكَرَ البُخَارِيُّ فِي صحِيحه .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النّبِيِّ ﷺ قَالَ مَا بَعَثَ اللّهُ نَبِيّاً إلاّ رَعَى الغَنَمَ فقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيْطَ لأَهْلِ مَكَّةَ .

وَلَمَّا شَبَّ ﷺ كَانَ يَتَّجِرُ وَكَانَ شَرِيْكُهُ السَّائِبُ بْنُ أبِي السَّائِبِ وَذَهَبَ بِالتِّجَارَةِ لِخَدِيْجَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا إِلى الشَّامِ عَلَى جُعْلٍ يَأْخُذُهُ وَلَمَّا شَرَفَتْ خَدِيْجَةُ بِزوَاجِهِ وَكَانَتْ ذَاتَ يَسَارٍ عَمِلَ فِي مَالِهَا وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ نَتِيْجَةِ عَمَلِهِ وَحقَّقَ اللّهُ مَا امْتَنَّ عَلَيْهِ بِهِ فِي سُوْرَةِ الضُّحَى بِقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى » بالإِيْوَاءِ والاغْنَاءِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ والهِدَايَةِ بِالنُّبُوَّةِ هَدَاهُ اللّهُ لِلْكِتَابِ وَالإِيْمَانِ وَدِيْنِ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السّلامُ وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي قَبْلَ ذَلِكَ قَالَ تَعَالى « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوْحاً مِنْ أمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِيْ مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنا وإِنَّكَ لتَهْدِيْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْم » .

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أَحْسَنَ قَوْمِهِ خُلُقاً وأَصْدَقَهُمْ حَدِيْثاً وأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً وأَبْعَدَهُمْ عَنْ الفُحْشِ والأَخْلاقِ الّتِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ حَتَّى كَانَ أفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوْءةً وأَكْرَمَهُمْ مُخَالَطَةً وَخَيْرَهُمْ جِوَاراً وَأَعْظَمَهُمْ حِلْماً

وأَصْدَقهُمْ حَدِيْثاً فَسَمُّوْهُ الأَمِيْنَ .

لَما جَمَعَ اللّهُ فِيْهِ مِنَ الأُمُوْرِ الصَّالِحَةِ الحَمِيْدَةِ والفِعَالِ السَّدِيْدَةِ مِنَ الحِلْمِ والصَّبْرِ والشُّكْرِ والعَدْلِ وَالتَّوَاضُعِ والعِفَّةِ والجُوْدِ وَالشَّجَاعَةِ والحَيَاءِ حَتَّى شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَلَدُّ أَعْدَائِهِ النَّظْرُ بْنُ الحَارِثِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدّارِ حَيْثُ يَقُوْلُ قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيْكُمُ غُلاماً حَدَثاً أَرْضَاكُمْ فِيْكُمْ وأَصْدَقُكُمْ حَدِيْثاً وأَعْظَمُكُمْ أَمَانَةً حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ قُلْتُمْ سَاحِرٌ لاَ وَاللّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ .

قَالَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الاتِّفَاقِ عَلَى مَا يَقُوْلُوْنَهُ لِلْعَرَبِ الّذِيْنَ يَحْضُرُوْنَ المَوْسِمَ حَتَّى يَكُوْنُوْا مُتَّفِقِيْنَ عَلَى مَا يَقُوْلُوْنَهُ وَلَمَّا سَأَلَ هِرْقَلُ مَلِكِ الرُّوْمِ أَبَا سُفْيَانَ قَائِلاً هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُوْنَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُوْلَ مَا قَالَ قَالَ لاَ فَقَالَ هِرْقلُ مَا كَانَ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللّهِ وَرَدَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ صَحِيحِ البُخَارِيّ .

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ خَمْسَ عَشْرَةَ حَجَّةً
يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقاً مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي كُلِّ المَوَاسِمِ نَفْسَهُ
فَلَمْ يَرَى مَنْ يُؤْوِيْ وَلَمْ يَرَ دَاعِيَاً
فَلَمَّا أَتَانَا واطْمَأَنَّتْ بِهِ النَّوَى
وكنا لَهُ عَوْناً مِن اللَّهِ بَادِيَا
يَقُصُّ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ
وَمَا قَالَ مُوسى إِذَا أَجَابَ المناديا

فأَصْبَحَ لا يَخْشَى مِنَ النّاسِ وَاحداً
قَـرِيْباً ولا يَخْشَى مِن النـاسِ نَائِيـا
بَـذَلْنَـا لَـهُ الأَمْـوَالَ مِنَ جُـلِّ مَـالِنَـا
وأَنْفُسَنَـا عِنْـدَ الـوَغَى والتَّـآسِيَـا
نُعَادِي الذِي عَادَى مِن الناسِ كُلَّهِمْ
جَمِيْعـاً وَلَو كـانَ الحَبِيْبَ المُوَاسِيَا
ونَـعْـلَمُ أَنَّ الـلَّهَ لاَ رَبَّ غَـيْـرهُ
وأنَّ كِـتَـابَ اللَّهِ أَصْبَـحَ هَـادِيَـا

اللَّهُمَّ اغفر لنا جَميعَ ما سَلَفَ مِنا مِن الذُنُوب . واعْصَمْنَا فيما بَقى مِن أَعْمارنا ، وَوَفقنا لِعَمَلٍ صَالحٍ تَرضَى به عنا واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين

« **فَصْــلٌ** »وقال شَيْخُ الاسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ وقَدَ نَقَل النَّاسُ صِفَاتِ النبي ﷺ الطَّاهِرَةَ الدَّالةَ عَلَى كَمَالِهِ ونَقَلُوا أَخْلاَقَهُ مِنْ حِلْمِهِ وشَجَاعَتِهِ وكَرَمِهِ وزُهْدِهِ وغَيرِهِ ونَحْنُ نَذْكُرُ بَعْضَ ذَلِكَ :

فَفِيْ الصَّحِيْحَيْنِ عنِ البَرَاءِ بنِ عازِبٍ قال كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ الناسِ وَجْهَاً وَأَحْسَنَهُم خُلُقَا لَيْسَ بالطَويْلِ الذَّاهِبِ ولا بالقَصِيْرِ وعَنْهُ قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ عَظِيْمَ الجُمَّةِ إلى شَحْمَةِ أُذَنَيْهِ عَلَيْهِ حُلَةَ حَمْرَاءَ ما رَأَيْتُ شَيْئاً قَطُ أَحْسَنَ مِنْهُ .

وفي البخاري وسئِل البَرَاءُ أَكَانَ وَجْهُ رَسولِ الله ﷺ مِثْلُ السَّيْفِ قَالَ لا بَلْ مِثْلَ القَمَرِ وفي الصَّحِيْحَيْنِ مِنْ حَديثِ كَعْبِ ابنِ مالِكِ قَالَ كَانَ النبيُ ﷺ إذا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ فِلْقَةُ قَمرٍ .

وفي الصحيحين عن أنس بنِ مالِكٍ قال كَانَ رسولُ اللّهِ ﷺ ضَخْمُ الرَّأْسِ والقَدَمَيْنِ وَلَمْ أَرَ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ مِثْلَهُ وكانَ بَسِيْطَ الكَفَيْنِ ضَخْمُ اليَدَيْنِ وَسُئِلَ عن شَعَرِهِ فقال كَانَ شَعْراً رَجِلاً لَيْسَ بالجَعْدِ ولا بالسَّبِطِ بَيْنَ أُذُنَيْهِ وعَاتِقِهِ .

وفي الصحيحين عن سِمَاكِ بنِ حَرْبٍ عن جابر بن سَمُرَةَ قال كان رسولُ اللّهُ ﷺ ضَلِيْعُ الفَمِ اشْكَلَ العَيْنَيْنِ مَنْهُوْسَ العَقِبَيْنِ وفَسَّرهُمَا بنُ سِمَاكٍ بنُ حَرْبٍ فَقالَ وَاسِعَ الفَمِ طَوِيْل شِقِّ العَيْن قَلِيْلَ لَحْمِ العَقِبِ .

وفي الصَّحِيْحَيْنِ عن أنسٍ بن مالكٍ قال كَانَ رَسولُ اللّهِ ﷺ لَيْسَ بالطَّوِيْلِ البَائِنِ ولا بالقَصيْرِ وَلَيْسَ بالأَبْيَضِ الأَبْهَقِ ولا بالآدَمِ ولا بالَجْعِدِ ولا بالسَّبِطِ .

وفي الصحيحين عنه قال كان رسولُ اللَّهِ ﷺ أزْهَرَ اللَّوْنِ كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُؤْلُؤُ إذا مَشَى تَكَفَأَ وَمَا مَسْستُ دِيْبَاجَةً ولا حَرْيَرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسُوْلِ اللّهِ ﷺ ورَوَى الدَّرامِيُ عن اِبنِ عباسٍ قال كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ أَبْلَجَ الثَّنِيَّتَيْنِ إذا تَكَلَّمَ رُؤِي النُوْرُ يَخْرُجُ مِن ثَنَايَاهُ

وعنَ أَنَسٍ قَالَ دَخَلَ عَلَيْنا رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَقَالَ عِنْدَنَا - أَيْ نَامَ - فَعَرَقَ وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُوْرَةٍ فَجَعَلَتْ تَسْلِتُ العَرَقَ فِيْهَا فاسْتَيْقَظَ رسولُ اللّهِ ﷺ فَقَالَ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ما هَذَا الذِي تَصْنَعِيْنَ قَالَتْ هَذا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ في طِيْبِنَا وإنه أَطْيَبُ مِن الطِّيْبِ أخرجاه .

وَرَوَى الدَّارِمِيُ عن جابر قال رسولُ اللّهِ ﷺ لاَ يَسْلُكُ طَرِيْقاً فَيَتْبَعُهُ أَحَدُ إلَّا عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ سَلَكَهُ مِن طِيْبِ عَرَقِهِ ﷺ .

وفي حديثِ أُمِّ مَعْبَدِ المَشْهُوْرِ لَمَّا مَرَّ بِهَا النَّبيُّ ﷺ في الهِجْرَةِ هُوَ وأَبُو بَكْرٍ وَمَوْلَاهُ وَدَلِيْلُهُمْ وَجَاءَ زَوْجُهَا فقَالَ صِفِيْهِ لِيْ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ فَقَالَتْ رَجُلاً ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ حُلْوُ المَنْطِقِ فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ كأنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ .

وذَكَرَ بَعْضُهُم زِيَادَةً عَلَى هَذَا قَالَ فِيه :

وفي وَصْفِ أُمِّ مَعْبَدٍ الخُزَاعِيَّةِ لِرَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ قال أَبُو مَعْبَدٍ لِزَوْجَتِهِ صِفِيْ لِيْ صَاحِبَ قُرَيْشٍ الذِي يُطْلَبُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ قالَتْ رَأَيْتُ رَجُلاً ظاهِرَ الوَضَاءَةِ ـ أَيْ الحُسْنِ والنَّظَافَةِ مُبْتلِج الوَجْهِ ـ أَيْ مُشْرِقٌ ذَا نُوْرٍ ـ .

حَسَنُ الخُلُقِ لِمْ تَعْبهُ ثَجْلَةٌ ـ أَيْ لَيسَ بَطْنُهُ ضَخْمٌ ـ وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ ـ أَيْ لَيْسَ رَأْسُهُ صَغِيرٌ ـ وَسِيْمٌ ـ أَيْ جَمِيْلٌ مُعْتَدِلُ القَامَةِ ـ في عَيْنيْهِ دَعَجٌ ـ أَيْ شِدَّةُ سَوَادِ العَيْنِ مَعَ سَعَتِهَا ـ .

وفي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ ـ كَثْرَةُ شَعَرِ الحَاجِبْينِ ـ وفي صَوْتِهِ صَحَلٌ ـ صَوْتُهُ رَخِيْمٌ ـ أَحْوَرُ ـ شِدَّةُ بَيَاضِ العَيْنِ في شِدَّةِ سَوَادِهَا ـ أَكْحَلُ أَزَجُ ـ كَانَّ عَيْنَهُ مَكْحُوْلَةٌ وَإِنْ لَمْ تُكْحَلْ ـ دَقِيْقُ الحَاجِبْنِ في طُولٍ ـ أَقْرَنُ ـ مَقْرُوْنُ الحَاجِبَيْنِ ـ شَدِيْدُ سَوَادِ الشَّعَرِ في عُنُقِهِ سَطْحٌ ـ أَيْ ارْتِفَاعٌ وطُوْلٌ وفي لِحْيَتِهِ كَثَافَةٌ .

إذا صمتَ فَعَلَيْهِ الوَقَارُ وإذا تَكَلَّم سَمَا ـ أَيْ أَرْتَفَعَ ـ وَعَلَاهُ البَهَاءُ ـ الحُسْنُ والجَمَالُ وكَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرزَاتٌ يَتَحَدَّرْنَ حُلْوُ المَنْطِقِ فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولَا هَذْرٌ ـ أَيْ لَا عِيَّ فِيْهِ ولا ثَرْثَرَةَ أَجْهَرُ الناسِ وَأَجْمَلُهُم مِن بَعِيْدٍ وأَحْلَاهُمْ وأَحْسَنُهُمْ مِن قَرِيْبٍ .

رَبْعَةٌ لا تَشْنَؤُهُ من طُوْلٍ ولا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِن قِصَرٍ غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْن فَهُو أَنْظَرُ الثَّلاثَةِ مَنْظِراً وَأَحْسَنُهُمْ قدْراً لَهُ رُفَقَاءُ يَحُصُونَ بِهِ إذا قَالَ اسْتَمَعُوْا لِقَوْلِهِ وَإِذَا أَمَرَا تَبَادَرُوْا إلى أَمْرِهِ مَحْفُودٌ ـ أَيْ يُطِيْعُهُ أَصْحَابُهُ مُسْرِعِيْنَ ـ مَحْشُوْدٌ ـ يَجْتَمِعُوْنَ حَوْلَهُ .

اللَّهُمَّ أَلْهَمْنَا ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وَوَفِقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ لَهُ الصّالحين من خَلْقِكَ واغْفِرْ لَنَا ولِوالِدِايْنا وجميع المسلمين بِرَحْمتك يا أَرْحَم الرّاحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين

« قِصَّةُ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِي »

أَبُو أَيُوْبَ الأَنْصَاري خَالدُ بنُ زَيْدِ الأَنْصَارِي ، شَهِدَ بَدْرَاً والعَقَبَةَ ، وَرَوَى مائةً وخَمْسِيْنَ حَدِيْثاً ، مَاتَ بِأَرْضِ الرُوْمِ غَازِياً سَنَة **٥٢** هـ ودُفِنَ إلى أَصْلِ حِصْنٍ بالقَسْطِنْطِيْنِيَّةِ ، ولَهُ قِصَّةٌ يَحْلُوْ ذِكْرُهَا .

بَعْدَ مَا تَآمَرَتْ قُرَيْشٌ بدَارِ النَّدْوَةِ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَاءَ جِبَرِيْلُ عليهِ السلامُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فأخبَرَهُ بذَلِكَ وأَمَرَهُ أَنْ لا يَنامَ في مَضْجَعِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ .

وَجَاء رَسُولُ الله ﷺ إلى أَبِي بَكْرٍ نِصْفَ النهارِ في سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيْهِ فِيْهَا مُتَقَنِعاً فقال أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ فقالَ إِنَّمَا هُم أَهْلُكَ يا رَسُوْلَ اللَّهِ ، فقال رَسولُ اللَّهِ ﷺ إنَّ اللَّهَ قَدْ أذِنَ لِي في الخُرُوْجِ فقال أَبُو بَكْرٍ الصُحْبَةَ يا رَسُولَ الله ، قال نَعَمْ فقال أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّي احْدَى الرَّاحِلَتَيْنِ ، فَقَالَ بالثَّمَنِ ، وأَمَرَ عَلِياً رَضِي اللَّه عَنْهُ أنْ يَبِيْتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ على فِرَاشِهِ ﷺ .

ومَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى بَيْتِ أَبْيْ بَكْرٍ فَخَرَجَا مِن خَوْخَةٍ في بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ لَيْلاً ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وأَبُو بَكْرٍ إلى غَارِ ثورٍ ، فَنَسَجَتِ العَنْكَبُوْتُ

على بَابِهِ ، وَحَامَ الحَمَامُ فوْقَ الغَارِ وَجدَّتْ قُرَيْشٌ في طَلَبِهِمَا وأَخَذُوْا مَعَهُمُ القَافَةِ حَتَّى انْتَهَوْا إلى بِابِ الغَارِ ، فَوَقَفُوا عَلَيْهِ فلمَّا رَأوْا الحَمَامَ فَوْقَهُ والعَنْكَبُوتَ قَدْ نَسَجَتْ على بَابِهِ اسْتَبْعَدُوا ذَلِكَ جِدًّا وأَعْمَى اللَّهُ بَصَائِرِهُم وَأَبْصَارَهُمْ وفي ذلك يَقُولُ الشاعِرُ :

وَمَا حَوَى الغَارُ مِنْ خَيْرٍ ومِنْ كَرَمٍ
وكُـلُ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّـارِ عَنْـهُ عَمِيْ
ظَنُّوْا الحَمَامَ وظَنُّـوْا العَنْكَبُوتَ عَلَى
خَيْـرِ البَـرِيَّـةِ لَمْ تَنْسِـجْ وَلَمْ تَحُمِ
وِقَـايَـةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَـاعَفَـةٍ
مِنَ الـدُرُوْعِ وعَنْ عَالٍ مِن الأُطُمِ

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نظَرَ إِلى مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فقالَ مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ، لاَ تَحْزنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا وَكَانَا يَسْمَعَانِ كَلاَمَهُمْ إِلا أنَّ اللَّهَ عَمَّى عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمَا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر .

بَلَغَ النَّبِيُ ﷺ المدِيْنَةَ ، فَتلَقَتْهُ قُلُوبُ أَهْلِهَا بأَكْرَمِ ما يُتَلَقى بِهِ وَافِدٌ ، وتَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ عُيُوْنُهَمْ تَبُثُهُ شَوْقَ الحَبْيبِ إلى حَبْيبِهِ ، وفَتَحُوْا لَهُ قُلُوْبَهُم لِيَحِلَّ مِنْهَا في سُوَيْدَائِهَا ، واشرَعُوْا لَهُ أَبْوَابَ بُيُوْتِهِم لِيَنْزِلَ فِيْهَا أَعَزَّ مَنْزِلٍ ، فَكَانُوا يَخْرُجُونَ كُلَّ يَوْمٍ إلى الحَرَّةِ يَنْتَظِرُوْنَهُ ، فإِذَا اشْتَدَّ حَرُّ الشمسِ رَجَعُوا إلى مَنَازِلِهِم .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الأثْنَيْنِ ثَانِي عَشَرَ الأَوَّلِ عَلَى رَأْسِ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِن نُبُوَّتِهِ ﷺ خَرَجُوْا على عَادَاتِهم فَلَمَّا حَمِيْتِ الشَّمْسُ رَجعُوْا ، فَصَعِدَ رَجُلٌ من

اليَهُوْدِ على أُطُمٍ من آطامِ المدِيْنَةِ فرآى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وأصْحَابَهُ مُبَيضِيْنَ يَزُوْلُ بِهِمُ السَّرابُ ، فَصَرِخَ بأعْلَى صَوْتِهِ يا بَنِيْ قَيْلَةَ ، هَذَا صَاحِبُكَم هَذَا جَدُكُم الذِي تَنْتَظِرُوْنَهُ .

فَثَارَ الأَنْصارُ إِلى السِّلاَحِ ، لِيَتَلَقُوْا رَسُوْلَ اللَّهِ ﷺ ، وسُمِعَتِ الوَجْبَةُ وَالتَّكْبِيْرُ في بَنِيْ عَمْرٍو وبنِ عَوْفٍ وكَبَّرَ المُسْلِمُونَ فَرحاً وَسُرُوْراً بِقُدُوْمِهِ .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الجُمعَةِ رَكِبَ فَأَدْرَكَتْهُ الجُمُعَةُ في بَنِيْ سَالِمٍ ابنِ عَوْفٍ فَصَلاَّهَا في المَسْجِدِ الذي في بَطْنِ الوَادِي ، فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ صَلاَهَا بالمَدِيْنَةِ ، ثَمَّ رَكِبَ نَاقَتَهُ فَجَاءَهُ سَادَاتُ يَثْرِبَ في طَرِيْقِهَا كُلُّ يُرِيْدُ أَنْ يَظفَرَ بِشَرَفِ نُزُوْلِهِ ﷺ عِنْدَهُ .

فأَتَاهُ عِتْبَانُ بنُ مَالِكِ ، وعَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنُ نَضْلَةَ في رِجَالٍ مِنَ بَنِي سَالِمِ بنِ عَوْفٍ ، فقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقِمْ عِنْدَنَا في العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ قالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فإِنَّهَا مَأمُوْرَةٌ) فخَلُّوَا سَبِيْلَ نَاقَتِهِ ﷺ .

فانْطَلَقتْ حَتَّى إذَا وَازَنَتْ دَارَ بَنِيْ بَيَاضَةَ تَلَقَّاهُ زِيَادُ بنُ لَبْيدِ وَفَرْوَةُ بنُ عَمْروَ، في رِجَالٍ مِن بَنِيْ بَيَاضَةَ ، فقالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ هَلُّمَّ إلَيْنَا إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ ، قالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فإِنَّها مَأْمُوْرَةٌ) فَخَلَّوْا سَبِيْلَهَا .

فانْطَلَقَتْ حَتَّى إذا مَرَّتْ بِدَارِ بَنِيْ سَاعِدَةَ اعْتَرَضَهُ سَعْدُ ابنُ عُبَادَةِ ، والمُنْذِرُ بنُ عَمْرو ، في رِجَالٍ مِن بَنِي سَاعِدَةَ ، فَقَالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ هَلُّمَّ إِلَيْنَا إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ قالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فإِنَها مَأْمُوْرَةٌ) فخلوا سبيلها .

فانْطَلَقَتْ حَتَّى إِذَا وَازَانَتْ دَارَ بَنِيْ الحَرْثِ بْنِ الخَزْرَجِ اعْتَرَضَهُ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيْعِ وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فِي رِجَالٍ مِنْ بَنِيْ الحَرْثِ

بْنِ الخَزْجِ فقالُوْا يَا رَسُوْلَ اللّهِ هَلُمَّ إِلَيْنَا إِلَى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ قَالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ) فَخَلُّوا سَبِيْلَهَا .

فَانْطَلَقَتْ حَتَّى إِذَا مَرَّتْ بِدَارِ بَنِيْ عَدِيِّ بْنِ النَّجّارِ وَهُمْ أَخْوَالُهُ دُنْيَا أُمِّ عَبْدِ المُطَّلِبِ سَلْمَى بِنْتِ عَمْرٍو وإِحْدَى نِسَائِهِمْ اعْتَرَضَهَا سَلِيْطُ بنُ قَيْسٍ وَأَبُوْ سَلِيْطِ أَسِيْرُهُ بنُ أَبِي خَارِجَةَ في رِجَالٍ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجّارِ فَقَالُوْا يَا رَسُولَ اللّهِ إِلَى أخْوالِكَ إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ قَالَ (خَلُوْا سَبِيْلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ) فَخَلُوا سَبِيْلَهَا .

فَانْطَلَقَتْ حَتَّى إذا أَتَتْ دَارَ بَنِيْ مَالِكِ بْنِ النَّجّارِ بَرَكَتْ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مِرْبَدٌ ـ المَوْضِعُ الّذِيْ يُجَفّفُ فِيْهِ التَّمْرُ ـ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيْمَيْن مِنْ بَنِيْ النَّجارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي مَالِك بنِ النَّجّارِ فِي حِجْرِ مُعَاذِ بْنِ عَفْراءَ : سَهْلٌ وسُهَيْلٌ ابْنَيْ عَمْرو فَلَمَّا بَرَكَتْ وَرَسُوْلُ اللّهِ ﷺ عَلَيْها لَمْ يَنْزِلْ وَثَبَتْ فَسَارَتْ غَيْرَ بَعِيْدٍ وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ واضعٌ لَهَا زِمَامَهَا لاَ يَثْنِيْهَا بِهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَتْ إلى خَلْفِهَا فَرَجَعَتْ إلى مَبْرَكِهَا أَوَّلَ مَرّةٍ فَبَرَكَتْ فِيْهِ ثُمَّ تَحَلْحَلَتْ ـ أيّ تَحَرّكَتْ ـ وَرَزَمَتْ ـ أيّ رَغَتْ وَرَجَّعَتْ فِي رُغَائِهَا وَوَضَعَتْ جِرَانَهَا فَنَزَلَ عَنْهَا ﷺ .

فَاحْتَمَلَ أَبو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ رَحْلَ النَّبِيّ ﷺ وكَأَنَّما يَحمِلُ كُنُوزَ الدُّنْيَا مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ وَالسُّرُوْرِ وبَادَرَ أَبو أَيُّوبَ يُرَحِّبُ بِرَسُوْلِ اللّهِ ﷺ قالَ أَبُوْ أَيُّوبَ لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ في بَيْتي نَزَلَ في السُّفْلِ وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ فِي العُلُوِّ فَقُلْتُ لَهُ يَا نَبِيَّ اللّهِ بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمّيْ إِنّي لأَكْرَهُ وأُعْظِمُ أَنْ أَكُوْنَ

فَوْقَكَ وَتَكُوْنَ تَحْتِيْ فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي العُلُوِّ ونَنْزِلُ نَحْنُ فَنَكُنْ فِي السُّفْلِ .

فَقَالَ يَا أَبَا أَيُّوْبَ ارْفَقْ بِنَا وبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُوْنَ فِي سُفْلِ البَيْتِ قَالَ فَكَانَ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ فِي سُفْلِهِ وكُنَّا فَوْقَهُ فِي المَسْكَنِ فَلَقَدْ انْكَسَرَ حِبٌّ لَنَا فِيْهِ مَاءٌ فَقُمْتُ أنَا وَأُمُّ أيُّوْبَ بِقَطِيْفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا نُنَشِّفُ بِهَا الماءَ تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُوْلِ اللّهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيْهِ .

قَالَ وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ العَشَاءَ وَنَبْعَث بِهِ إِلَيْهِ فإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلةً تَيَمّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذَلِكَ البَرَكَةَ حَتَّى بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بعَشَائِهِ وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيْهِ بَصَلاً أَوْ ثُوْماً فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيْهِ أَثَراً قَالَ فَجِئْتُهُ فَزِعاً فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ بأبِيّ وَأُمِّي رَدَدْتَ عَشَاءَكَ وَلَمْ أَرَى فِيْهِ مَوْضِعَ يَدِكَ وَكُنْتُ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ مَوْضِعَ يَدِكَ نَبْتَغِي بِذَلِكَ البَرَكَةَ قَالَ إِنِّيْ وَجَدْتُ فِيْهِ رِيْحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِيْ فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوْهُ قَالَ فَأَكَلْنَاهُ وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةِ بَعْدُ .

شِعْرَا :

إلَى مَوْلَاكَ سَلِّمْ كُلَّ أَمْرٍ تَفُزْ في كُلِّ صُبْحٍ أَوْ عَشِيِّ
وصُنْ مِنْكَ الفُؤادَ بحُسْنِ سَيْرٍ بإخْلاصٍ على النّهْجِ السَّوِيِّ
ومِنْ مَوْلاكَ أُطْلُبْ مَنْحَ فَضْلٍ تَنَلْ مِنهُ صَفَا العَيش الهَنِيِّ
وأَكثِرْ مِنْ صَلاتِكَ مَعْ سَلامٍ على أسْمَي نَبِيٍّ هَاشِمِيٍّ
صَلاةُ اللهِ يَتْلُوهـا سَلامٌ عليهِ دَامَ كَالَمِسْكِ الزَّكِيِّ

اَللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِن المتقينَ الأبْرارِ وأَسْكِنَّا مَعَهمُ في دارِ القرارَ ، اللَّهُمَّ وفقنـا بِحُسْنِ الاقبالِ عَليك والإِصْغَاءِ إليك ووَفّقنْا للتّعاوُنِ في طَاعَتِكَ والْمُبَادَرَةِ إلى خِدْمَتِكَ وحُسْنِ الآدابِ في مُعَامَلَتِكَ والتّسليمِ لِأمْرِكَ والرِّضا

بقضائِكَ والصَّبْرَ على بَلائك والشّكْرِ لِنَعْمَائِكَ ، واغفرَ لَنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى اللّهُ على محمدٍ وآلِهِ أجمعين .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ إنَّ الإنْسَانَ مِنَّا كَمَا عَلِمْتُمْ مُعَرَّضٌ لِلأذى وَالإسَاءَةِ والإهَانَةِ وَعُرْضَةٌ لِلأخْطَارِ ، والمُهْلِكَات ، فَمَنَحَهُ اللّهُ قُوَّةً يَدْفَعُ بِها الإهَانَةَ ، ويَدْفَعُ بِهَا الخَطَرَ ، وَيَنْجُوْ بِهَا بِإذْنِ اللّهِ مِن الهَلاكِ ، هِيَ قُوَّةُ الغَضَبِ والحَمِيَّةِ .

وَخُلِقَ الغَضَبُ مِنَ النّارِ ، فَتَسَلَّطَ الشَّيْطانُ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الطَّرِيْق وَرَكِبَنَا وقْتَ الغَضَبِ ، حَتَّى صَارَ النّاسُ فِي غَضَبِهِمْ حَمْقَى مُتَهَوِّرِيْنَ ، وسُفَهَاءَ طَائِشِيْنَ .

فَكَرِهَ النّاسُ الغَضَبَ لِذَلِكَ ، واصْطَلَحُوْا عَلى ذَمِّهِ مُطْلَقَا ، وَهَذَا خَطَأٌ فَظِيْعٌ وَخَلْطٌ لا يَجُوْزُ ، فَلَيْسَ كُلُّ غَضَبٍ مَذْمُوْم وَلاَ كُلُّ حِلْمٍ بِمَمْدُوْحٍ ، واللّهُ جَلَّ وَعَلاَ لاَ يَخْلُقُ لَنا طَبْعاً إلاَّ لِحكمةٍ ، وَلاَ يُرَكِّبُ فِيْنَا قُوّةَ الحَمِيَّةِ والغَضَبِ إلاّ لِسَبَبٍ وحِكْمَةٍ .

فَالأذَى إِذَا جاءَنَا لاَ يُدْفَعُ إلاّ بالغَضَبِ ، والشَّرُّ إذَا نَالَنَا لاَ يُدْفَعُ إلاّ بالغَضَبِ ، وحِمَايَةُ الدِّيْنِ والأعْرَاضِ والشَّرَفِ والكَرَامَةِ لاَ تُدْفَعُ إلاّ بِالغَضَبِ لِلْحَقِّ ، فَمَنْ فَقَدَ قُوَّةَ الغَضَبِ بالكُلّيّةِ ، أوْ ضَعُفَتْ فِيْهِ الحَمِيَّةُ فَهُوَ نَاقِصٌ مَحْلُولُ العَزْمِ ، مَفْقُوْدُ الحَزْمِ ، مَعْدُوْمُ الرُّجُوْلَةِ .

وَقَدْ امْتَدَحَ اللّهُ غَضَبَ المُؤْمِنِيْنَ عَلَى الكُفَّارِ ، وحَمِيَّتَهُمْ الدِّيْنِيَّةِ ، لِمَا لَهُ مِن أثَرٍ في اعْلاَءِ كَلِمَةِ اللّهِ ، فَقَالَ تَعالى « أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ » .

وقال « أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ » وقَالَ « ولْيَجِدُوْا فِيْكُمْ غِلْظَةً » .

وأَمَرَنَا بِالغَضَبِ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرْمَةُ الدِّيْنِ ، والغَيْرَةِ عَلَى حُدُوْدِ اللّهِ ، فَقَالَ فِي الزُّنَاةِ « وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ اللّهِ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُون بِاللّهِ واليومِ الآخِر » .

فَمَنْ فَقَدَ قُوَّةَ الغَضَبِ ، يُصْبِحُ جَبَاناً ، ضَعِيْفاً ، وَذَلِيْلاً حَقِيْراً لاَ يَأْنَفُ مِنَ العَارِ ولاَ يَهُمُّهُ ، وَلاَ يَتَأَلَّمْ لأَذَى السُّفَهَاءِ ، يَتَطَاوَلُ السُّفَهَاءُ والفَسَقَةُ على حَرَمِهِ ، فَلا يَغَارُ لِعِرْضٍ ، ولاَ يَغْضَبُ لِشَرَفٍ ، فَيَكُوْنُ تَيْساً فِي صُوْرَةِ إِنْسَانٍ ، وجَمَاداً لاَ إِحْسَاسَ لَهُ ، وَلا شُعُوْر .

وَلَيْسَ مِنَ الحِلْمِ فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ جُبْنٌ ، وخَوَرٌ ، وَذِلَّةٌ وَقَدْ وَرَدَ عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ دَيُّوْثٌ ، قَالُوْا وَمَا الدَّيُّوْثُ يَا رَسُوْلَ اللّهِ قَالَ الّذِي لاَ يَغَارُ عَلَى أَهْلِهِ .

وَقَالَ سَعْدٌ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللّهِ لَوْ وَجَدْتُ مَعَ أَهْلِيْ رَجُلاً أُمْهِلُهُ حَتَّى آتِي بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَقَالَ ﷺ نَعَمْ ، فَقَالَ كَلَّا وَالّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ ، إِنْ كُنْتُ لأُعَاجِلُهُ بالسَّيْفِ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَقالَ ﷺ اسْمَعُوْا إِلَى مَا يَقُوْلُ سَيِّدُكُمْ ، إِنَّهُ لَغَيُّوْرٌ وأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ واللّهُ أَغْيَرُ مِنِّيْ .

وَإِذَا لَمْ يَغْضَبِ الإِنْسَانُ لِعِرْضِهِ ، ضَاعَتْ الأَنْسَابُ ، واخْتَلَطَتِ الأَوْلاَدُ ، وَكُلُّ أُمَّةٍ تَمُوْتُ الغَيْرَةُ فِيْهِمْ لاَ بُدَّ وأَنْ تَضِيْعَ العِفَّةُ ، والصِّيَانَةُ مِنْ نِسَائِهَا ، وَهَذَا هُوَ الضَّعْفُ ، والخَوَرُ ، والعَجْزُ ، وَالجُبْنُ ، الّذِي اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيّ ﷺ ، وَكَيْفَ تَذُمُّ رَجُلاً يَغْضَبُ لِدِيْنِهِ ، إِذَا رَأى المُنْكَرَاتِ ، وَقَدْ أُمِرَ بِمُحَارَبَتِهَا وكَيْفَ يُصْلِحُ المَرْءُ عُيُوْبَ نَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ يَغْضَبْ عَلَيْها ، ويَشْتَدُّ فِي رَدِّهَا عَنْ هَوَاهَا .

أَمَّا الغَضَبُ المَذْمُوْمُ فَهُوَ الّذِي يُعْمِيْ صَاحِبَهُ عَن الحَقِّ ، ويُفْقِدُهُ بَصَرَ البَصِيْرَةِ ، والفِكْرِ فَتأخُذُهُ العِزَّةُ بالإِثْمِ ، ويُعْرِضُ عَن النُّصْحِ إِذَا نُصِحَ ، وَرُبَّمَا زَادَ هَيْجَاناً ، وإِذَا رُوْجِعَ في قَوْلٍ ازْدَادَ سُخْطاً ولِجَاجاً .

وَقَدْ يَحْدُثُ مِنْهُ ضَرَرٌ عَلَى مَنْ حَوْلَهُ ، وتَجِدُهُ مُتَغَيّراً لَوْنُهُ ، مُرْتَعِشَةً أَعْضَاؤُهُ ، زَائغاً بَصَرُهُ ، وكَالأَعْمَى يَسُبُّ الجَمَادِ ، والحَيَوانَ ، ويَبْطِشُ بِكُلِّ مَا يُصَادِفُهُ ، حَتَّى إِنَّهُ يُتْلِفُ الأَثَاثَ ، وَالرِّيَاشَ ، ورُبَّمَا لاَ يَشْفِيْ غَلَّةً ، وَقَدْ يَحْدُثُ مِنْهُ طَلاَقٌ ، ولَعْنٌ وَسَبٌّ ، وشَتْمٌ ، فَهَذا غَضَبٌ مَذْمُوْمٌ قَبِيْحٌ مَرْذُوْلٌ يَنْتَصِرُ فِيْهِ إِبْلِيْسُ عَلَى هَذَا الّذي لاَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْد الغَضَبِ كَمَا قِيْلَ :

وَمَا غَضَبُ الإِنْسَانِ إِلاَّ حَمَاقَةٌ
إِذَا كَانَ فِيْمَا لَيْسَ لِلّهِ يَغْضَبُ

ومِثْلَ هَذَا الغَضَبِ يَهْدِمُ الجِسْمَ ، ويُتْلِفُ الصِّحَّةَ ، ويَحْرِمُ صَاحِبَهُ الرَّاحَةَ والهَنَاءَ وَيَجْعَلُ نَظَرَتَهُ إِلَى الحَيَاةِ مُظْلِمَةً سَوْدَاءَ فالتَّفْرِيْطُ فِي الغَضَبِ ضَعْفٌ ، والإِفْرَاطُ تَهُورٌ وجُنُوْنٌ ، والمَحْمُوْدُ مِنْهُ الوَسَطُ والاعْتِدَالُ والقَصْدُ المَحْمُودُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ غَضَبُكَ لِلدِّيْنِ فَإِذَا اعْتَدَى قَوْمٌ عَلَى الإِسْلامِ بالطَّعْنِ والتَّشْهِيْرِ أَوْ التَّشْكِيْكِ فِي العَقَائِدِ كَمَا يُحاوِلُ المُلْحِدُوْنَ وَكَمَا يَفْعَلُ المُبَشِّرُونَ فَيَجِبُ أَنْ تَغْضَبَ عَلَيْهِم انْتِصاراً لِدِيْنِنَا وَدِفاعاً عَنْ شَرْعِنَا .

وَمِنَ الغَضَبِ المَحْمُودِ الغَضَبُ عَلَى مَنْ تَعَدَّى عَلى بِلاَدٍ إِسْلامِيَّةٍ أَوْ تَعَدَّى عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ مَدَحَ غَيْرَ الدِّيْنِ الإِسْلامِيْ أَوْ ذَكَرَ اللّهَ أَوْ كِتَابَهُ أَوْ مَلاَئِكَتَهُ أَوْ رُسُلَهُ بِسُوْءٍ أو سَبَّ صَحَابِيّاً أَوْ إِمَاماً مَشْهُوْراً بالتُّقى وَالوَرَعِ

والاسْتِقَامَةِ أَوْ طَعَنَ في رِجَالِ الدّيْنِ لأَجْلِ دِيْنِهِمْ أَوْ كَذَبَ عَلَى اللّهِ أَوْ عَلَى رُسُلِهِ أَوْ أَحَلَّ شَيْئاً مِنَ المُحَرَّمَاتِ أَوْ حَرَّمَ شَيْئاً مِمَّا حَلَّلَهُ اللّهُ أَوْ اسْتَهَانَ بِكِتَابِ اللّهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ أَوْ كُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ المُحَقِّقِيْنَ مِثْلُ الإِمَامِ أَحْمَدَ والشَّافِعِيّ ومَالِكٍ وأَبي حَنِيْفَةَ والمُوَفَّق والمَجْدِ وابْنِ أَبي عُمَرَ وَشَيْخِ الإِسْلامِ وابْنِ القَيِّم وابْنِ كَثِيْرٍ وابْنِ رَجَبَ وابْنِ مُفلحٍ ونَحْوِهِمْ مِنَ العُلَمَاءِ المَشْهُوْرِيْنَ بالاسْتِقَامَةِ والبُعْدِ عَن البِدَعِ وكَأَئِمّةِ الدَّعْوَةِ .

ومِنَ الغَضَبِ المَحْمُوْدِ الغَضَبُ عَلَى مَنْ مَدَحَ الكَفَرَةَ والمُنَافِقِيْنَ وأئمة الضَّلالِ والحَيَارَى كابنِ عَرَبِيّ وابْنِ رُشْدٍ وَالفَارَابِيّ وابْنِ سِيْنَا وَابْنِ كُلَّابِ والعَفِيْفِ التِّلْمُسَانِيّ وابْنِ سَبْعِيْنَ وابْنِ الفَارِضِ وابْنِ الرَّاوَنْدِي والكَوْثَرِي والبُوْصِيْرِي والمَعَرّي ونَحْوِ هؤُلاءِ مِنَ المُلاَحدةِ والزَّنَادِقَةِ والمُبتَدِعَةِ والفَسَقَةِ والظَّلَمَةِ وأعْوانِهِمْ .

ومِنَ الغضَبِ المَحْمُودِ الغَضَبُ عَلَى مَنْ ابْتَدَعَ فِي الدِّيْنِ بِدَعاً أَوْ نَشَرَهَا أَوْ دَعَا إِلَيْهَا أَوْ مَدَحَ مُحَلِّلِيْهَا أَوْ مَدَحَ الكُفَّارَ أَوْ مَدَحَ المَلاهِي والمُنْكَرَاتِ الّتِي حَطَّمَتِ الأخْلاقِ وَقَضَتْ عَلَيْهَا وأتْلَفَتِ الأَمْوَالِ وَقَتَلَتِ الأَوْقَاتَ وَأَوْرَثَتِ الخَلْقَ أَفَانِيْنَ العَدَوَاتِ وأَحْدَثَتِ التَّفَرُّقَ فِي البُيُوْتِ والقُلُوْبِ .

شِعْرا :

« إِنَّ المَلاَهِيَ أَلْقَتْ بَيْنَنَا إِحَناً
وَأَوْرَثَتْنَا أَفَانِيْنَ العَدَوَاتِ »
« وَهَلْ أُصِيْبَ شَبَابُ اليَوْمِ وانْحَرَفُوْا
إِلَّا بِتَقْلِيْدِ أَصْحَابِ الضَّلاَلاَتِ »

« مِنْ كُلِّ أَهْوَجَ لاَ دِيْنٌ وَلاَ أَدَبٌ
وَلاَ حَيَــاءٌ ومَعْــدُوْمُ الـمُــرُؤاتِ »
« يَرَى التَّمَدُّنِ فِي تَطْوِيْلِ شَــارِبِهِ
وَحَلْقِ لِحْيَتِـهِ مِثْـلَ الخَــوَاجَـاتِ »
« يُقَلِّدُ الكُفْـرَ فِي تَطْوِيْـلِ أَظْفُـرِهِ
أَقْبِحْ بِهِ مِنْ سَفِيْهٍ سَاقِطٍ عَـاتِ »

اللَّهُمَّ قَوِّي إِيْمَانَنَا بِكَ وَبِمَلاَئِكَتِكَ وبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وبِاليَوْمِ الآخِرِ وبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ اللّهُمَّ وَفِّقْنَا لِلهِدَايَةِ وَجَنِّبْنَا أَسْبَابَ الجَهَالَةِ والغِوَايَةِ اللّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى الإِسْلامِ والسُّنَّةِ وَلاَ تُزِغْ قُلُوْبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّاب ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحيَاءِ مِنْهُمْ والمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصـــل)

ومِنْ وَفَائِهِ ﷺ مَا أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيْحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيْجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا وَلَكِنْ كَانَ النّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا .

وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيْجَةَ فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلا خَدِيْجَةَ فَيَقُوْلُ إِنَّها كَانَتْ وَكَانَ لِيْ مِنْهَا وَلدٌ ، كَانَتْ خَدِيْجَةُ رَضِيَ الله عنها في الجَاهِلِيَّةِ سَيِّدَةً وَقُوْرةً ذات عَقْلٍ رَزْينٍ وصَاحَبَةَ مَالٍ وَيَسَارٍ وجاهٍ وشَرَفٍ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالِ في مَالِهَا وَتُضَارِبُهُمْ إِيَّاهُ .

فلَمَّا وَقَعَ في سَمْعِهَا مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ الناسُ وَيَتَنَاقَلُهُ العَارِفُونَ عن المُصْطَفَى ﷺ مِن الوَفاءِ والصِّدْقِ والأَمانةِ والنُصْحِ وحُسْنِ السِّيْرَةِ وكَرِيْمِ الشَّمَائِلِ والسَّخَاءِ ونَحْوِ ذَلِكَ مِن مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ومَحَاسِنِ الشِّيم مَا لَمْ تَسْمَعْهُ عَنْ غيرِهِ حَتَّى سَمَّاهُ قَوْمُهُ الأَمِيْنَ اسْتأجَرْتْهُ لِيَخْرُجَ في مَالِهَا تَاجِراً وتُعْطِيْهِ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ .

فَسَافَرَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسلام بقَصْدِ الاتِّجَارِ إِلَى الشَّام يَصْحَبُهُ غُلاَمُهَا مَيْسَرَةُ فَبَاعَا وابْتَاعَا وَرَبِحَا رِبْحاً عَظِيْماً وَظَهَرَ لَهُ ﷺ في هَذِهِ السَّفرةِ مِن البَرَكَاتِ وإِفَاضَةِ الخَيْرَاتِ الشيءُ الكثيرُ وجَعَلَ اللَّهُ حُبَّهُ في قَلْبِ غُلاَمِهَا مَيْسَرَةَ وأُعْجِبَ بِمَا شَاهَدَهُ مِنْهُ .

وكَانَتْ سِنُّهُ ﷺ في هَذِهِ السَّفْرَةِ خَمْساً وعِشْرِيْنَ سَنَةً وهِيَ السَّفْرَةُ الثانِيَةُ مِن اسْفَارِهِ إِلى الشَّامِ وَلمَّا رَجَعَ قَافِلاً مِن الشَّامِ وقَدِمَ مَكَّةَ وَرَأَتْ خَدِيْجَةُ ما وَفقَهُ اللَّهُ لَه مِن رِبْحٍ كانَ عَلَى يَدَيْه وَبَرَكَاتٍ وَفِيْرَةٍ .

وَمَا أَتْحَفَهَا بِهِ غُلاَمُهَا مَيْسَرَةُ مِمَّا شَاهَدَهُ مِن حُسْنِ سِيْرَتِهِ وَمَا جَعَلِ اللَّهُ عَلى يَدَيْهِ مِن البَرَكَاتِ كُلُّ ذَلِكَ حَفَزَهُ في نَفْسِ خَدِيْجَةَ وَحَبَّبَهُ إِلَيها فَلَمْ تَتَمَالَكْ نَفْسُهَا وكَانَ سِنُّهَا نَحْوُ الأَرْبَعِيْنَ سَنَةً وهِيَ كَمَا وَصَفْنَا وَأَضْعَافِ مَا وَصَفْنَا مِن كَرَامَةِ مَحْتَدِهَا وَشَرَفِ حَسَبِهَا وحُسْنِ سِيْرَتِها رضي اللَّهُ عَنهَا .

فأَرْسَلَتْ إِلى رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ تَخْطُبُهُ لِنَفْسِهَا فقَامَ ﷺ يُنْجِزُ رَغْبَتَها ويُجِيْبُ طِلْبَتَهَا واسْتَدْعَى أَعْمَامَهُ حَتَّى دَخَلَها على عَمِّهَا عَمْرِو بنِ أَسَدٍ فَخَطَبَهَا مِنْه بِوَاسِطَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فَزَوَّجَهَا عَمُّهَا .

ثم قَامَ أَبُو طَالِبِ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَطِيْباً فَقَالَ الحَمْدُ لِله الذِي جَعَلَنَا

مِن ذُرِّيَةِ إبراهِيْمَ وَزَرْعِ اسْمَاعِيْلَ وضِئْضِيءِ مَعَدٍ وعُنْصُرِ مُضَرٍ وَجَعَلَنا حَضَنَةَ بَيْتِهُ وَسُوَّاسَ حَرَمِهِ وَجَعَل لنا بَيْتاً مَحْجُوْجاً وَحَرَماً آمِناً وَجَعَلَنَا حُكَّامَ الناسِ .

ثُمَّ إنَّ أبنَ أَخِيْ هَذَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ لا يُوْزَنُ بِهِ رَجُلٌ شَرَفاً وَنُبْلاً وفَضْلاً وَإنْ كَانَ في المالِ قِلٌ فإنَّ المالَ ظِلٌ زَائِلٌ وَأَمْرٌ حَائِلٌ وعَارِّيةٌ مُسْتَرَدَّةٌ وهُوَ وَاللّهِ بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبَأٌ عَظِيْمٌ وخَطَرٌ جَلِيْلٌ وَقَدْ خَطَبَ إِلَيْكُمْ رَغْبَةً في كَرِيْمَتِكُم خَدِيْجَةَ وقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ كَذَا وعَلَى ذَلكَ تَمَّ الأَمْرُ .

وَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بالِّرسَالَةِ وشَرَّفَهُ بالنُبُوَّةِ كَانتْ خَدِيْجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَسْرَعَ الناسِ بِهِ إِيْمَاناً ولِدَعْوَتِهِ تَصْدِيْقاً ولَهُ إجَابَةً وَلَم تَنْتَظِره آيةً أُخْرَى زِيَادَةً على مَا عَلِمَتْهُ مِن مَكَارِمِ أَخْلاَقِهِ ﷺ وما سَمِعَتْ مِن خَوَارِقِ العَادَاتِ التِي كانَتْ تَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ .

وَأَوَّلُ شَيْءٍ بُدِيءَ بِهِ الوَحْيُ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْياً إلا جَآءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِليْهِ الخَلاَءُ وَالعُزْلَةُ عَنِ البَشَرِ فَكَانَ يَخْلَوُ بِغَارِ حِرَا فَيتَعَبّدُ فِيْهِ اللَّيالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ فَتارَةً يَمْكُثُ عَشَرَةً وتَارَةً أَكْثَرَ إلى شَهْرٍ .

وَكانَتْ عِبَادَتُهُ إِذْ ذَاكَ عَلَى الشَّرِيْعَةِ الحَنِيْفِيَّةِ دِيْنِ أَبْيهِ إبراهِيمَ عَليهِ السَّلامُ ويَأْخُذُ زَادَهُ فَاذَا نَفَدَ رَجَعَ إلى خَدِيْجَةَ فَيَتزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَ مُبَلِّغُ الوَحْيِ ومَلَكُ السَّمآءِ جَبْرِيْلُ عليهِ السلامُ فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَى الجَبَلِ إذْ فَاَجَأَءَهُ جِبْرِيلُ وَقال أَبْشِره يا مُحَمَّدُ أَنَا جِبْرِيْلُ وَأَنْتَ رَسُوْلُ اللَّهِ إِلى هَذِهِ الأُمَّةِ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ اقْرَأْ قَالَ مَا أَنَا بِقَارِيءٍ يُرِيْدُ بذَلِكَ أَنَّهُ أُمِّيٌ لَمْ يَتعَلَّمِ القِرَاءَةَ مِن قَبْلُ فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ بِالنَّمَطَ الذِي كانَ يَنَامُ عليهِ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الجُهْدَ ثم أَرْسَلَهُ فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ قال مَا أَنَا بِقَارِيءٍ فأَخَذَهُ فَغَطَّهُ ثَانِيَةً ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ اقْرَأْ قَالَ مَا أَنَا

بِقَارِىءٍ فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ الثَّالِثَةَ فقَالَ « اِقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ خَلَقَ الانْسَانَ مِن عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الذِي عَلَّم بالقَلَمِ عَلَّمَ الانسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

فَرَجَعَ عَلَيه السلامُ مَذْعُوراً خَائِفاً يَرْجُفُ فُؤآدُهُ ولاَ يَتَمَالَكُ نَفَسُهُ مِن هَوْلِ المَنْظِرِ وشِدَّةِ مَا أَلَمَّ بِهِ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيْجَةَ زَوْجَتِهِ فقالَ « زَمِّلُونِي زَمِّلُوْنِي » أَيْ لُفُّوْنِيْ في ثَوْبِيْ ، لِيَزُوْلَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِن الرُّعْبِ والقُشَعْرِيْرَةِ التِي انْتَابَتْهُ مِن رُؤْيَةِ المَلَكِ فَزَمَّلُوْهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الخَوْفُ .

فَذَكَرَ لِخَدِيْجَةَ الأَمْرَ وأَخْبَرَهَا قَائِلاً لَقَدْ خَشِيْتُ عَلَى نَفْسِيْ مِن شِدَّةِ مَا أَصَابَنِي مِن غَطِّ المَلَكِ لِيْ ولَمْ يَكُنْ عَلَيهِ الصلاةُ والسلامُ يَعْرِفُ شَيْئَاً عن جِبْرِيْلَ وَوَصْفِهِ وأَشْكَالِهِ ، فأَجَابَتْهُ خَدِيْجَةُ رضي اللَّهُ عنها على الفَوْرِ وَوَقَفَتْ ذَلَكَ المَوْقِفَ المُشَرِّفَ في تَثْبِيْتِ فُؤآدِهِ وتَهْدِئَةِ أَعْصَابِهِ وتَقْوِيَةِ دَوَاعِي الأَمَلِ فيهِ قَائِلَةً كَلَّا واللَّهِ لا يُخْزِيْكَ اللَّهُ أَبَدَا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتَحْمِلُ الْكَلَّ وتَكْسِبُ المَعْدُوْمَ وتَقْرِيْ الضَّيْفَ وتُعِيْنُ عَلىَ نَوائِبِ الحَقِ فَلاَ يُسَلِطُ اللَّهُ عليكَ الشَياطِينَ والأَوْهَامَ ولا مِرَاءَ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَكَ لِهِدَايَةِ قَوْمِكَ .

ثُمَّ لَمْ تَكْتَفِ بِهَذَا القَدْرَ مِن القَوْلِ بَلْ أَرَادَتْ أَنْ تَتَثَبَّتَ مِمَّنْ لَهُمْ عِلْمٌ بحَالِ الرُسُلِ واطِّلاَعٌ عَلَى أَخْبَارِهِمْ بِمَا قَرَؤُهُ في الكُتُبِ القَدِيْمَةِ فانْطَلَقَتْ بِهِ إلى وَرَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ وهُوَ ابنُ عَمِّهَا وَكَانَ امْرأً قَدْ تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ وكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَبْرَانِي فَيَكْتُبُ مِن الانْجِيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ وكان شَيْخاً كَبِيْراً قَدْ عَمِيَ .

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيْجَةُ يا بنَ عَمِّ اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيْكَ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِيْ مَاذَا تَرى فأَخْبَرَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ خَبَرَ مَا رَأَى فقال لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوْسُ الذِي

أَنْزَلَ اللَّهُ على مُوْسَى لأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ وَاسِطَةَ الوَحْيِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ هُوَ جِبْرِيْلُ عليهِ السلامُ .

ثُمَّ قال يَا لَيْتَنِي فِيْهَا جَذَعاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ مِن بِلَادِكَ الَّتِي نَشَأْتَ بِهَا لِمُعَادَاتِهِمْ إِيَّاكَ وكَرَاهَتِهِمْ لَكَ حِيْنَمَا تُطَالِبُهُم بِتَغْيِيْرِ اعْتِقَادَاتِهِم التِي وَجَدُوْا عَلَيْهَا آبَاءَهُمْ فَكَانَ قَوْلُ وَرَقَةَ مَوْضِعَ اسْتِغْرَابِ النَّبِي ﷺ لِمَا يَعْرِفُهُ مِن حُبِّ قَوْمِهِ لَهُ لاتِّصَافِهِ بِصِدْقِ الحَدِيْثِ والأَمَانَةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاقِ حَتَّى سَمَّوْهُ الأَمِيْن .

وقَالَ أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُوْدِيْ عَلَى حَدِّ مَا جَاءَ فِي القُرآنِ الكَرِيْمِ (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ) وقوله « وقال الذِينَ كفروا لرسلهم لنخرجَنَّكَم مِن أرضنا أو لَتَعُوْدُنَّ في مِلَّتِنَا » وقولهم « أَخْرِجُوْا آلَ لُوْطٍ مِن قَرْيَتِكُم » .

ثم قال وَرَقَةُ مُسْتَأْنِفاً : وإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصراً مُؤَزَّرا ثم تُوُفِي وَرَقَةُ بَعْدَهَا بِقلِيْلٍ : قَالَ وهذا نُمُوْذَجُ مِن مَنَاقِبِ أُمِّنَا وَأُمِّ المُؤْمِنِيْنَ خَدِيْجَةَ وَمَوَاقِفِهَا إِزَاءَ مَا كَانَ يَحْدُثُ لِلنَّبِي ﷺ .

ولِذَا كَانَ ﷺ يُبَادِلُهَا الوَفَاءَ بالْوَفَاءِ والإِخلاصَ بالإِخلاصِ وكانَ يَحْنُوْ إِلَيْهَا وَيُدِيْمُ ذِكْرَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا اللهم صَلي وسلم عليه .

وكَانَ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرِهَا ورُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيْجَةَ وَهَذا يُشْعِرُ بِبَقَاءِ وِدِّهَا واسْتِمْرَارِ حُبِّهِ لَهَا واخْلَاصِهِ حَتَّى كَانَ يَتَعَهَّدُ صَدِيْقَاتِهَا بالاهْدَاءِ والعَطَاء بَعْدَ مَوْتِهَا .

ولِذَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِن نِسَاءِ النبي ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيْجَة ومَا رأَيْتُهَا وفي حَدْيثٍ رَوَاهُ البُخَارِيُ عن عائشةٍ رَضْيَ

اللَّهُ عنها قَالَتْ : اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدُ أُخْتُ خَدِيْجةِ على رَسُولِ اللَّه ﷺ فَعَرفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيْجَةَ فارْتَاعَ لِذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَالَةُ قَالَتْ فَغِرْتُ الحديث .

وفي الاسْتِيْعَابِ لأَبِي عمر جـ ص ١٨١٠ بسندِهِ إلى عائِشَةَ قَالَتْ جَاءَتْ عَجُوْزٌ إلى النبيِ ﷺ فقالَ لَهَا مَنْ أَنْتِ قَالَتْ أَنَا جَثَّامَةَ المزُنِيَّةُ : قالَ بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ المُزَنِيَّةُ : كَيْفَ حَالُكُم كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنا قالَتْ بخَيْرٍ بأَبِيْ أَنْتَ وأُمِّي يَا رَسُولَ الله .

فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ العَجُوزِ هَذَا الاقْبَال قَالَ إنَّها كَانَتْ تَأْتِيْنَا أَيَّامَ خَدِيْجَةِ وَإنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِن الايْمانِ : مُقَابَلَةٌ طَيِّبَةٌ ومُلاَطَفَةٌ جَمِيْلَةٌ وتَوَدُّدَ مَحْمُوْدُ وَوَفَاءٌ مِنْ النّبيّ ﷺ لِزَوْجَتِهِ خَدِيْجَةَ الّتي ماتَتْ وَطَالَما أيّدَتْهُ وخَفّفَتْ عنه وسَلَّتْهُ وَعَاشَرَتْهُ وَتَبَادَلُ هُوَ وَإيّاهَا المَوَدَّةَ ولَمْ تُكَدِّرْ خَاطِرَهُ ولاَ مَرَّةً وَاحِدَةً عَكْسُ مَا عَلَيْهِ زَوْجَاتُ هَذا الجِيْل المنحرف إلا النّادرة .

وأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ جـ ٢ ص ٦٣ أَنَّ عُمَرَ بنَ السَّائِبِ حَدَّثَهُ أَنَّه بَلَغَهُ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَالِساً يَوْماً فأقْبَلَ أَبُوْهُ مِن الرَّضَاعَةِ فَوَضَعَ لَهُ بَعْضَ ثَوْبِهِ فَقَعَدَ عَلَيه ثُمَّ أَقْبَلَتْ أُمُّهُ فَوَضَعَ لَهَا نِصْفَ ثَوْبِهِ مِن جَانِبِهِ الآخَرَ فَجَلَسَتْ عَلَيهِ ثم أَقْبَلَ أَخُوْهُ مَن الرَّضَاعَةِ فَقَامَ لَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ فَأَجْلَسَهُ بيْنَ يَدَيْهَا .

وعَندَ أَحْمَدَ مِن حَدْيْثِ مَسْرُوْقٍ عن عائشةَ : آمَنَتْ بِي إِذْ كفَرَ بِي النَّاسُ وصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِيْ النَاسُ وَوَاسَتْنِيْ إِذ حَرَمَنِي النَاسُ وَرزَقِنِي اللَّهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِيْ أَوْلاَدَ النِسَآءِ وكَانَ جَمِيْعُ أَوْلاَدِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْهَا عَدَا إِبْرَاهِيْمَ فَإِنَّهُ مِن مارِيَةِ القِبْطِّيَةِ وتُوُفِيَتْ خَدِيْجَة قَبْلَ الهِجْرَةِ بثَلاَث سِنْين وحَزِنَ عَلَيْهَا ﷺ حَزَناً

شَدِيْداً لِمَا كَانَ لَهَا مَن الأَعْمَالِ النَّبِيْلَةِ والوَفَاءِ التَّامِ والتَّأْيِيْدِ لَهُ وَتَثْبِيْتِهِ ولِمَا لَهَا مِن آراءَ سَدِيْدَةٍ .

ومْنِهَا القَاسِم الذِي كَانَ يُكْنَى بِهِ وسَائِرُ وَلَدِهِ سوَى إِبْرَاهِيْمَ وِبوَفَاتِهَا انْطَفَأَ مِصْبَاحٌ مُنِيْرٌ وعَوْنٌ كَبَيْرٌ لِيَتَمَثَّلَ النِّسَآءُ بأعْمَالِهَا في حُسْنِ الوَفَاءِ والاخلاصِ والصِدْقِ والبرِ فانَّهَا امْرأَةٌ ولكِنَّهَا خَيْرٌ مِنْ آلافِ الرِّجَالِ وفي مِثْلِهَا وأشْبَاهِهَا لَوْ يُوْجَدُ حَسَنُ التَّمَثُّلُ بقَولِ المُتَنبي :

(ولَــوْ كَــانَ النِسَــآءُ كَمَنْ فَقَــدْنَــا

لَفُضِّلَتِ النِّسَــاءُ عَلَى الــرِّجَــالِ)

ولِهَذَا اسْتَحَقَّتْ أَجْرَ العَامِلِيْنَ وَثَوَابَ المُخْلِصِيْنَ وَجَاءَتْها البَشَارَةُ مِن رَبِّ السَّمَآءِ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيْلَ الأَمِيْن قَائِلاً « يَا رَسُولَ اللَّهَ هَذِهِ خَدِيْجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيْه إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ شَكٌّ مِنْ الرَّاوِيء » وذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ ﷺ في غَارِ حِرَاءٍ فاذا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السلامَ مِن رَبِّهَا ومِنِّي وبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ في الجَنَّةِ مِن قَصَبٍ لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ »

فقالَتْ هُوَ السَّلامُ ومِنْهُ السلامُ وعلى جِبْرِيْلُ السَّلامُ وَعَلَيْكَ يا رسولَ اللَّهِ السلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

رَأَتْ خَــدِيْجَــةُ إِنْسَــانــاً تُصَــاحِبُــهُ

عِنَــايَــةُ اللَّهِ رَغْــمَ الفَــقْــرِ والْيُتُمِ

فاخْتَارَتْ المُصْطَفَى زَوْجاً لَهَـا ولَقَدْ

وَفَّى لَهَا المُصْطَفَى المُخْتَارُ بالذِّمَمِ

يُثْنِيْ عَلَيْهَــا ولاَ يَنْسَى فَـضَــائِلَهَــا

مِثْــلُ اسْتِجَــابَتِهَــا فِيْ لاَ وَفِي نَعَمِ

أَوْلاَدُهُ غَيْرَ إِبْرَاهِيْمَ سِتَّتُهُمْ
أَتَوْهُ مِنْهَا وَنُوْرُ الشَّمْسِ فِي النَّجِمِ

واللّهُ أَعْلَم وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وآلِهِ وسَلّم .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ إِنَّ شَأْنَ الصَّلاَةِ عَظِيْمٌ جِدّاً فِي دِيْنِنَا مَعْشَرَ المُسْلِمِيْنَ وَفِي كُلِّ دِيْنٍ وأَسْرَارُهَا العَظِيْمَةُ وَبَرَكَاتُهَا العَمِيْمَةُ وَفَوائِدُهَا الكَثِيْرَةُ لا تَخْفَى عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ .

وَلَيْسَتِ الصَّلاَةُ مُجَرَّدُ أَقْوَالٍ يَلُوْكُهَا اللِّسَانُ وَحَرَكَاتٌ تُؤَدِّيْهَا الجَوَارِحُ بِلاَ تَدَبُّرٍ مِنْ عَقْلٍ وَلاَ تَفَهُّمٍ وَلاَ خُشُوْعٍ مِنْ قَلْبٍ لَيْسَتْ تِلْكَ الّتِيْ يَنْقُرُهَا صَاحِبُهَا نَقْرَ الدِّيَكَةِ وَيَخْطِفُهَا خَطْفَ الغُرَابِ وَيَمُرُّ بِهَا مَرَّ السَّحَابِ كَأَنَّ وَرَاءَهُ طَالِبٌ حَثِيْثٌ وَيَلْتَفِتُ فِيْهَا التِفَاتَ الثَّعْلَبِ يَمِيْناً وَشِمَالاً وَفَوْقاً وَتَحْتاً .

كَلَّا فَالصّلاةُ المُقَامَةُ تَمَاماً هِيَ الّتِي تَأْخُذُ حَقَّهَا مِنَ التَّأَمُّلِ والخَشْيَةِ والخُضُوْعِ والسُّكُوْنِ واسْتِحْضَارِ عَظَمَةِ المَعْبُوْدِ جَلَّ جَلاَلُهُ .

وَذَلِكَ أَنَّ القَصْدَ مِنَ الصَّلاَةِ وَسَائِرِ العِبَادَاتِ هُوَ تَذْكِيْرُ الإِنْسَانِ بِرَبِّهِ الأَعْلَى الّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .

وَالصّلاَةُ صِلَةٌ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ تَقْوَى بِهَا مَحَبَّةُ العَبْدِ لِرَبِّهِ كُلَّمَا تَكَرَّرَتْ قَالَ ابْنُ القِيم رَحِمَهُ اللّهُ فَإِنَّ المُحِبَّ يَتَلَذَّذُ بِخِدْمَةِ مَحْبُوْبِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي طَاعَتِهِ وكُلَّمَا كَانَتْ المَحَبَّةُ أَقْوَى كَانَتْ لَذَّةُ الطَّاعَةِ والخِدْمَةِ أَكْمَلُ فَلْيَزِنِ العَبْدُ إِيْمَانَهُ وَمَحَبَّتَهُ بِهَذَا المِيْزَانِ والْيَنْظُرْ هَلْ هُوَ مُلْتَذٌ بِخِدْمَةِ مَحْبُوْبِهِ أَوْ

مُتَكَرِّهٌ لَهَا يَأْتِي بِهَا عَلَى السَّآمَةِ والمَلَلِ والكَرَاهَةِ فَهَذا مَحَكُّ إيْمانِ العَبْدِ وَمَحَبَّتُهُ لِلّهِ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إِنِّي أَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ فَأَحْمِلُ هَمَّ خُرُوْجِيْ مِنْهَا وَيَضِيْقُ صَدْرِي إذا فَرَغْتُ لِأَنِّي خَارِجٌ مِنْهَا وَلِهَذا قَالَ النَّبِيّ ﷺ وَجُعِلَتْ قُرَّتْ عَيْنِي في الصّلاةِ وَمَن كَانَتْ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي شَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يَوَدُّ أَنْ يُفَارِقَهُ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ فَإِنَّ قُرَّةَ عَيْنِ العَبْدِ نَعِيْمُهُ وَطِيْبُ حَياتِهِ بِه .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إِنِّي لَأَفْرَحُ بالليْلِ حِيْنَ يُقْبِلُ لِمَا تَتَلَذَّذُ بِهِ عيشتي وتَقَرُّبِهِ عَيْنِي مِن مُنَاجَاةِ مَنْ أُحِبُّ وَخَلْوَتِي بِخِدْمَتِهِ والتَّذلُّلِ بَيْنَ يَدَيْهِ واغْتَمَّ لِلفَجْرِ إِذا طَلَعَ لِمَا اشْتَغِلُ بِهِ بِالنَّهَارِ عَنْ ذَلِكَ فَلا شَيْءَ أَلَذُّ لِلْمُحِبِّ مِنْ خِدْمَةِ مَحْبُوْبِهِ وَطَاعَتِهِ أَيْنَ هؤلآء ممن لَذَّتُهُم وأنْسُهُمْ عند المنكرات.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ تَعَذَّبْتُ بِالصَّلاةِ عِشْرِيْنَ سَنَةً ثُمَّ تنعَمْتُ بِهَا عِشْرِيْنَ سَنَةً وَهَذِهِ اللَّذَّةُ وَالتَّنَعُّمُ بالخِدْمَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالمُصَابَرَةِ عَلَى التَّكَرُّهْ والتَّعَبِ أَوَّلاً فَإِذا صَبَرَ عَلَيْهِ وَصَدَقَ فِي صَبْرِهِ أَفْضَى بِهِ إِلَى هَذِهِ اللَّذَّةِ .

وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ سُقْتُ نَفْسِيْ إِلَى اللّهِ وَهِيَ تَبْكِيْ فَمَا زِلْتُ أَسُوْقُهَا حَتَّى انْسَاقَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ تَضْحَكُ أ . هـ .

وَقَالَ اللّهُ تَعَالَى « وأَقِمِ الصّلاةَ لِذِكْرِي » .

وَقَالَ ﷺ إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلاَةُ وأُمِرَ بالحَجِّ وأُشْعِرَتِ المَنَاسِكُ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللّهِ رَواهُ أَبُو داود ولِهَذا كَانَتْ عُنْوَانًا عَلَى الفَلاحِ قَالَ تَعَالى « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ الآية » .

والمُرَادُ بِعِمَارَتِهَا بالصّلاَةِ والقُرُبَاتِ وقَال ﷺ إذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فَاشْهَدُوْا لَهُ بِالإِيْمَانِ ، فَإِنَّ اللّهَ يَقُول : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ باللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ » .

وَجَاءَ ذِكْرُ الصّلاَةِ فِي القُرْآنِ في مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ وأَثْنَى جَلَّ وَعَلا عَلَى المُقِيْمِيْنَ لَهَا والمُحَافِظِيْنَ عَلَيْهَا وأَخْبَرَ أَنَّهَا تَنْهَى عن الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ومِنْ دُعَاءِ الخَلِيْلِ عَلَيْهِ السّلامُ أنّهُ يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُ مُقِيْماً لَهَا قَالَ تَعَالَى : « رَبِّ اجْعَلْنِيْ مُقِيْمَ الصَّلاَةِ ومِنْ ذُرِّيَتِي » .

وَمَدَحَ بِهَا إِسْمَاعِيْلَ قَالَ تَعَالَى « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيَا » وأَمَرَ جَلَّ وَعَلاَ مُوْسَى بإِقَامَتِهَا أَوَّلَ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ فِي سَاعَاتِ الوَحْيِ الأُوْلَى قَالَ تَعَالَى « وأنَا اخْتَرْتُكَ فاسْتَمِعْ لِمَا يُوْحَى إِنَّنِي أَنَا اللّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وأَقِمِ الصّلاةَ لِذِكْرِي » وَقَالَ لَهُ وَلِهَارُوْنَ « أَنْ تبَوَآ لِقَوْمِكُمَا بمِصْرَ بُيُوْتاً واجْعَلُوْا بُيُوْتَكُمْ قِبْلَةً وأَقِيْمُوْا الصَّلاَةَ » .

وفي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لابْنِهِ يَا بُنَيَّ أقِمِ الصَّلاَةَ وأْمُرْ بالمَعْرُوْفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ الآيَة ويُنْطِقُ اللّهُ عِيْسَى وَهُوَ فِي مَهْدِهِ فَيَقُوْلُ « وَأَوْصَاني بِالصّلاةِ والزّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّا » .

وَيَأْمُرُ اللّهُ بِهَا صَفْوَةَ خَلْقِهِ وَخَاتِمَ أَنْبِيَائِهِ فَيَقُوْلُ جَلَّ وَعَلاَ « اتلُ مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصّلاَةِ » وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلاَ وَتَقَدَّسَ « وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » .

وَيَبْتدِئ بِهَا أَوْصَافَ المُؤْمِنِيْنَ وَيَخْتِمُ بِهَا فَيَقُوْلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى « قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُوْنَ الّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُوْنَ » الآيَات إلى قَوْلِهِ « وَالّذِيْنَ

هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ » .

وَيُؤَكِّدُ المُحَافَظَةَ عَلَيْهَا حَضَراً وَسَفَراً وفِي الأَمْنِ والخَوْفِ والسِّلْمِ والحَرْبِ « حَافِظُوْا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى وقُوْمُوْا لِلّهِ قَانِتِيْنَ فإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً » .

وَأَخْبَرَ جَلَّ وَعَلاَ عَمَّنْ أَضَاعُوْا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوْا الشَّهَوَاتِ أَنَّ عَاقِبَةَ أَعْمَالِهِمْ وَسُوْءَ مَآلِهِمْ شَرٌّ وخُسْرَانٌ فقالَ « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوْا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيَا » .

وَجَعَلَها النَّبِيُّ ﷺ الشِّعارَ الفَاصِلَ بَيْنَ المُسْلِمِ والكَافِرِ فَقَالَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ وَقَالَ العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ وَفِي الحَدِيثِ الآخِرِ مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللّهِ وَرَسُوْلِهِ وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةٌ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ الصَّلاَةِ مَعَ مَا تَقَدَّمَ اهْتِمَامُ المُسْلِمِيْنَ بِتَوْجِيْهِ المُحْتَضَرِ وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ إِلى القِبْلَةِ وَكَذَلِكَ وَضْعُهُ فِي قَبْرِهِ مُتَّجِهاً إِلى القِبْلَةِ وَمَا ذَاكَ إِلاّ لأَنَّهَا الجِهَةُ الَّتِي يَتَّجِهُ إِلَيْهَا كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَى رَبِّهِ وَيَدْعُوْهُ وَيُجَدِّدُ الصِّلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ فِي الصَّلاَةِ .

على الصوات الخمس حَافِظْ فإنها ... لآكَدُ مَفْـرُوْضٍ على كلِ مُهْتَـدِ
فلا رُخْصَةَ في تركهَـا لِمُكَلَّـفِ ... وأولُ مَا عَنـه يُحَـاسَبُ في غدِ
بإهْمالِهـا يَسْتَوجِبُ المَـرْءُ قَرْنَـهُ ... بفرعونَ مَعْ هَامـانَ في شرِ مَوْرِدِ
ومـــازَال يُوصِيْ بالصلاة نَبِيُّنَـــا ... لَدَى الموتِ حَتَّى كَلَّ عن نُطْقٍ مِذْوَدِ

وَاللّه أعلَم وصَلّى اللّهُ عَلَى نَبِيّنا مُحَمّد وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّم

(فصـــل)

إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْتَنِيْ بِهَا وَتَجْتَهِدَ فِي كُلِّ مَا يُصْلِحُهَا ويُكَمِّلُهَا تَجْتَهِدُ أوّلاً فِي الطَّهَارَةِ وَالنَّظَافَةِ فِي جِسْمِكَ وَثَوْبِكَ وَمَوْضِعِ صَلاَتِكَ فَعَلَيْكَ أوّلاً بالاسْتِبْراءِ مِن البَوْلِ والغائِطِ بأنْ تَتَأَنَّى قَلِيلاً حَتَّى يَخْرُجَ البَوْلُ كُلُّهُ بِدُوْنِ نَتْرٍ .

وهُوَ دَفْعُ بَقِيْتِ البَوْلِ وبِدُوْنِ مَصْرٍ لِلذَّكَرِ فَإِنَّ هَذَا العَمَلَ يُحْدِثُ السَّلَس وتَغْسِلُ مَحَلَّ الغَائِطِ حَتَّى يَعُوْدَ المَحَلُّ كَمَا قَبْلَ التَّغَوُّطِ خَالٍ مِنْ آثارِ النَّجَاسَةِ ولُزُوْجَتِها لِئَلا تَكُونَ حَامِلاً لِلنَّجَاسَةِ فِي صَلاَتِكَ فَتَبْطُلُ .

ثُمَّ عِنْدَ الوُضُوءِ تُزِيْلُ مَا يَمْنَعُ وُصُوْلَ المَاءِ إِلَى البَشَرَةِ مِنْ مَرْهَمٍ أَوْ وَازِلِيْن أَوْ دُهْنٍ عَلَى غَيْرِ جُرْحٍ يَضُرُّهُ المَاءُ وتَتَفَقَّدُ عِنْدَ الوُضُوءِ أَخْمَصَ القَدَمَيْنِ والعَقِبَ وَهُوَ مُؤَخَّرُ القَدَمِ وأعْلَى الجَبة ومَا حَوْلَ المَرَافِقِ .

وفِي الغَسْلِ صِمَاخَ الأُذُنَيْنِ وَطَيَّ الرُّكْبَتَيْنِ وَمَا تَحْتَ الشُّعُوْرِ والإِبْطِ والسُّرَّةَ وَمَا بَيْنَ الأصَابعِ أَصَابع الرِّجْلَيْنِ والأضافِرِ ان كَانَتْ طِوَالاً وتَمْنَعُ الماءَ وَيَضُرُّكَ قصُّهَا وإِلاَّ فَتَقُصُّهَا ثُمَّ بَعْدُ تَنْتَبه لِهَذِهِ الدَّقَائِقِ .

وَتَكُوْنُ مُحْسِناً لِلْوُضُوْءِ وَتَسْعَى فِي تَفَقُّدِ مَا يُفْسِدُهَا أَوْ يُنَقِّصُها كَمَا تَرَاهُ فِي فِعْلِ الصَّلاةِ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ تَرَا عِنْدَهُ مِنَ العَبَثِ والحَرَكَةِ والتَّلَفُّتِ مَا يَجْعَلُكَ فِي شَكٍّ مِنْهُ هَلْ هُوَ فِي صَلاةٍ أَمْ لاَ فَتَجِدُهُ أَحْياناً يَنْظُرُ سَاعَتَهُ وأَحْيَاناً يُصَلِّحُ غُتْرَتَهُ وأحْيَاناً يُوَاسِيْ ثَوْبَهُ وَيُطَالِعُهُ وأَحْيَاناً يَعْبَثُ فِي مَحَلٍّ لِحْيَتِهِ وأحْيَاناً فِي أَنْفِهِ أَوْ عَيْنِهِ وَفِي خِفَّةِ رُكُوْعِهِ وسُجُوْدِهِ مَا يُدْهِشُكَ .

وَلَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّ هَذَا مُبَالَغَةً ولَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ الوُقُوْفَ عَلَى ذَلِكَ فَانْظُرْ بَعْدَ مَا تُسَلِّمْ إِلى الّذِيْنَ يُكَمّلُوْنَ وَإِلَى مَنْ يُصَلِّي وَحْدَهُ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ الأَمْرُ عَظِيْمٌ وَمَعَ ذَلِكَ النّاسُ فِي غَفْلَةٍ وسَهْوٍ عَنْ ذَلِكَ .

وَأَمَّا الطُّمَأْنِيْنَةُ فِي الصّلاةِ فَيُفْهَمُ قَدْرُ تَرْكِهَا مِنْ حَدِيْثِ المُسِيْءِ فِي صَلَاتِهِ الّذي رَواهُ أَبو هُرَيْرَةَ رضِيَ اللّهُ عَنْهُ مِنْ أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ المَسْجِدَ وَرَسُوْلُ اللّهِ ﷺ جَالِسٌ في نَاحِيَةِ المَسْجِدِ فَصلَّى ثُمَّ جَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ ﷺ وَعَلَيْكَ السّلامُ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ .

فَصَلَّى ثُمَّ جاءَ فَسَلَّمَ فَقالَ وَعَلَيْكَ السّلامُ فَارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ وَعَلَيْكَ السّلامُ فَقَالَ فِي الثّانِيَةِ أو فِي الّتِي تَلِيْهَا عَلّمْنِي يَا رَسُولَ اللّهِ فقَالَ « إِذَا قُمْتَ إِلى الصّلاةِ فأَسْبِغِ الوُضُوءَ » .

ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكبِّرْ ثُمَّ إقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِماً ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمّ اسْجُدْ حَتّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا .

ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّها رَواهُ البُخارِيّ ومُسْلِم فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ لِمَنْ تَرَكَ الطُّمَأْنِيْنَةَ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ فَإِنَّ هَذَا نَفْيٌ صَرِيْحٌ فِي أَنَّ الرَّجُلَ وإِنْ كَانَ يَفْعَلُ صُوْرَةَ الصَّلاَةِ فِي رَأْيِ العَيْنِ لَمْ يَأْتِ بِحَقِيْقَةِ الصّلاةِ .

وَالّذي جَعَلَهُ كَذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُ لِلطُّمَأْنِيْنَةَ فِيْهَا وَهِيَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهَا إِذاً فَلْيَطْمَئِنَّ الّذِي يُرِيْدُ أنْ يَصْدُقَ عَلَيْهِ أنّهُ صَلَّى والْيَعْلَمَ أهْلُ السُّرْعَةِ والنَّقْرِ

ذلِكَ تَماماً واليُمَرِّنُوْا أنْفُسَهُمْ عَلَى التَّأَنّي والتَّرَيُّثِ والرِّفْقِ حَتَّى يُعَدُّوْا فِي فَرِيْقِ المُصَلِّين .

وإنْ لَمْ يَطْمَئِنُّوْا فَلْيَعْلَمُوْا أَنَّهُمْ هُمْ وَتَارِكُ الصَّلاَةِ سَوَاءٌ حُكْمُهُمْ بِمُقْتَضَى قَوْلِهِ ﷺ لِلْمُسْتَعْجِلِ فِي صَلاتِهِ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ أَوْصَانِي خَلِيْلِي ﷺ بِثَلاَثٍ ونَهَانِي عن ثَلاثٍ نَهَانِي عَنْ نَقْرَةٍ كَنَقْرَةِ الدِّيْكِ (العَجَلَة فِي الصَّلاَةِ) واقْعَاءٍ كاقْعَاءِ الكَلْبِ (وَضْعُ الإِلْيَةِ عَلَى الأَرْضِ ونَصْبُ السَّاقَيْنِ وَوَضْعُ اليَدَيْنِ عَلَى الأَرْضِ) .

والتِفَاتٍ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ ، وقَال ﷺ لاَ يَزَالُ اللّٰهُ مُقْبِلاً عَلَى العَبْدِ فِي صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ فإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ انْصَرَفَ عَنْهُ وَنَهَى ﷺ عَن رَفْعِ البَصَرِ إلى السَّماءِ في الصَّلاَةِ ، إِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَابْذِلْ يَا أَخِيْ كُلَّ مَا فِي وُسْعِكَ مِن الاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيْلِ صَلاتِكَ واحْذَرْ مِن التَّفْرِيْطِ فِيْهَا فَعَلَيْهَا مَدَارٌ عَظِيْمٌ .

وَالمَعَانِي الَّتِي تَتِمُّ بِهَا الصَّلاَةُ كَثِيْرَةٌ مِنْهَا حُضُوْرُ القَلْبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّكَ تُفَرِّغُ قَلْبَكَ عَن الشَّوَاغِلِ الّتِي تَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا وزِيْنَتِهَا مُتَفَهِّماً لِمَا تَتْلُوْهُ أَوْ تَقُوْلُهُ أَوْ تَسْمَعُه إِنْ كُنْتَ مَأْمُوْماً فَتَصْرِفُ ذِهْنَكَ وَهِمَّتَكَ إِلَى إِدْرَاكِ المَعْنَى بِدَفعِ الخَوَاطِرِ الشَّاغِلَةِ وَقَطْعِ مَوَادِّهَا فَإِنَّ المَوَادَ إِذَا لَمْ تَنْقَطِعْ لَمْ تَنْصَرِفْ الخَوَاطِرُ والهَوَاجِسُ عنْهَا وَالمَوادُّ إِمَّا ظاهِرَةٌ وَهِيَ مَا يَشْغَلُ السَّمْعَ والبَصَرَ .

وإمَّا بَاطِنَةٌ وهِيَ أَشَدُّ كَمَنْ تَشَعبتْ بِهِ الهُمُوْمُ في أَوْدِيَةِ الدُنْيَا فإنَّه لا يَنْحَصِرُ فِكْرُهُ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَمْ يُغْنِهِ غَضُّ البَصَرِ لإنَّ مَا وَقَعَ في القَلْبِ كَافٍ في الاشْتِغَالِ بِهِ .

وعِلاجُ ذَلِكَ إنْ كَانَ مِن المَوَادِ الظَّاهِرَةِ بِقَطْعِ مَا يَشْغَلُ البَصَرَ والسَّمع وهُوَ القُرْبُ مِن القِبْلَةِ والنَّظَرُ إلى مَوْضِعِ السُجُوْدِ والابْتِعَادُ في الصَّلاةِ عَمَّا فِيْهِ نُقُوشٌ أَوتَطْرِيْزٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يُلْهِيْ ويَشْغَلُ القَلْبَ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى في أَنْبِجَانِيَّةٍ فِيْهَا أَعْلامٌ ونَزَعَهَا وَقال « إِنَّها أَلْهَتْنِي آنِفاً عن صلاتي » .

وإنْ كَانَ مِن المَوادِّ البَاطِنَةِ فَطَرِيْقُ عِلاَجِهِ أَنْ يَرُدَّ النَّفْسَ قَهْراً إلى مَا يَقْرَأُ في الصَّلاةِ وَيَشْغَلُهَا بِهِ عَنْ غيرِهِ وَيَسْتَعِدُّ لِذَلِكَ قَبْلَ الدُخُوْلِ في الصَّلاةِ بأَنْ يَقْضِيْ أَشْغَالَهُ ويَجْتَهِدَ عَلَى تَفْـرِيْغِ قَلْبِهِ عَن الهَوَاجِسِ وَيُجَدِّدُ عَلَى نَفْسِهِ ذِكْرِ الآخِرَةَ وخَطَرَ القِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وهَولَ المطْلع .

فإِنْ لَمْ تَذْهَبْ وتَسْتَكِنُّ الأَفْكَارُ بذَلِكَ فَلْيَعْلَم أَنَّهُ إِنَّمَا يَتفَكَّرُ فِيْمَا أَهَمَّهُ واشْتَهَاهُ ونَاسَبَ لِهَوَاهُ فَلْيَتْرُكْ تِلكَ الشَّهواتِ والِيَقْطَعْ تِلْكَ العَلاَئِقَ .

واعْلَمْ أَنَّ العِلَّةَ والمَرَضَ مَتَى تَمَكَّنَ لاَ يَنْفَعُ فِيْهِ إِلاَّ الدَّوَاءُ القَوِيُّ والعِلَّة إذَا قَوِيَتْ جَاذَبَتْ المُصَلِيَ وجَاذَبَهَا إلى أَنْ تَنْقَضِيَ الصَلاةُ في المُجَاذَبَةِ ومِثْلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ أَرَادَ أَنْ يَصْفُوْ لَهُ فِكْرُهُ أَوْ أَرادَ أَنْ يَنَامَ وكَانَتْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ مَأْوَى لِلْعَصَافِيرْ تَقَعُ عَلَيْهَا وتُشَوِّشُ عَلَيْهِ بأَصْوَاتِهَا وَحَرَكَاتِهَا وفي يَدِهِ عَصَا يَطْرُدُهَا بِهِ فَمَا يَسْتَقِرُ فِكْرُهُ حَتَّى تَعُوْدُ العَصَافِيْرُ فَيَشْتَغِلُ بِهَا .

فَقِيْلَ لَهُ هَذَا شَيْءٌ يَدُوْمُ لاَ يَنْقَطِعُ فَإِنْ أَرَدْتَ الخَلاَصَ مِمَّا شَوَّش عَلَيْكَ فاقْطَعِ الشَّجَرَةِ فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الشَّهْوَةِ وَحُبُّ الدُنْيَا إذا ارْتَفَعَتْ وَتَفرَقَتْ أَغْصَانُهَا انْجَذَبَتْ إِلَيْهَا الأَفْكَارُ فَذَهَبَ العُمُرُ النَّفِيْسُ في دَفْعِ مَالاَ يَنْدَفِعُ وَالسَّبَبُ الوَحِيْدُ حُبُّ الدُنْيَا فَهُوَ الذِي يَجْذِبُ الأفكَارَ وَيُوَلِّدُهَا وِيُنَمِّيْهَا فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَجْتَهِدَ في قَلْعِ حُبِّهَا .

ولِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَعْتَنُوْنَ بالصَّلاةِ اعْتِنَاءً عَظِيْماً وَيَتَلَذَّذُوْنَ بِهَا وَيَحْزَنُوْن لانْقِضَائِهَا وقَالَ بَعْضُهُمْ تَفقدُوا قُلوبَكُمْ في ثَلاَثَةِ مَوَاضِعَ في الصلاةِ وفي القُرْآن وفِي ذِكْرِ الله فإنْ وَجَدْتُمْ حَلاَوةً وإلَّا فالبَابُ مُغْلَقٌ .

ومِنَ المُؤْسِفِ أنَّكَ تَجِدُ كَثِيْراً مِن النَّاسِ يأتِي الصلاةَ كالمُكْرَهِ بدَلِيْل أنَّهُ إِذَا تَأخَّرَ الامامُ ولو قَلِيْلا ضَاقَتْ صُدُوْرُهُمْ مَعَ أنَّهمْ في صَلاَةٍ مَا انْتَظَرُوْا الصَّلاةَ وتَجِدْهُمْ يُسْرِعُوْنَ الخُرُوْجَ بَعْدَهَا بِخِلافِ المَجِيءِ إِلَيْهَا .

وتَجِدْهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى الامِامِ الذِيْ يَنْقُرُهَا مَعَ أنَّهُمْ في أُمُورِ الدُنْيَا عَلَى العَكْسِ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُم أنْ يَذْهَبَ إلى طَبِيْبٍ لِيَكْشَفَ عَلِيهِ حَرِصَ عَلَى مَنْ يَتَرَكَّدُ ويَطْمَئِنُ وَيُطيْلَ الفَحصْ وَيُتْقِنُهُ ولوَ بِزِيادَةٍ كَثِيْرَةٍ لمَا يُؤَمِّلُهُ مِنَ النُصْحِ وإِتقانِ العَمَلِ .

وَكَذلِكَ إذا أَرَادَ صَنعَةَ شَيْءٍ حَرِصَ عَلَى البَصِيرِ الخبيرِ المُتْقِنِ لِذَلِكَ .

أَمَّا في الصَّلاةِ فَكَمَا ذَكَرْنَا ما يَهْتَمُّ لَهَا ولاَ يُبَالِي وَيرَاهَا عَلَيْهِ أثْقَلَ مِن أُحُدٍ وَرَضْوَى وهِيْ عَشْرُ دَقَائِقَ أَوْ أَقَلَّ ولوَ وَقَفَ مَعَ صَدِيْقٍ لَهُ أَوْ قَرِيْبٍ أَوْ زَمِيْلٍ سَاعَةً أَوْ أَكْثَرَ وَأرَادَا التَّفَرُّقَ لَقَالَ سَاعَةُ المُحِبِّ قَصِيْرَةٌ لأُنْسِهِ بِهِ وتَلَذُّذِهِ بِمُنَاجَاتِه .

وأَمَّا رَبُّ العَالَمِين الذِي نِعَمُهُ عَلَيْهِ لاَ تُعَدُ ولاَ تُحْصَى فالوُقُوْفُ أَمَامَهُ طَوِيْلٌ وإنْ كانَ قَصِيْراً صَدَقَ اللّهُ العَظِيْمُ حَيْثُ يَقُولُ « وإنَّها لَكَبِيْرَةٌ إلا عَلَى الخَاشِعِيْن » فلا حَوَلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللّهِ العلي العظَيْمِ « إنا لِلهِ وإنا إِلَيْهِ رَاجِعُوْن »

ومِن البَلِيَّةِ أن تَرى لَكَ صَاحِباً في صُورَةِ الرجلِ السميعِ المبصر

فِطِنُ بكـلِ مُصيبَـةٍ في مالِـهِ　　وإذا يُصَابُ بِدِيْنِـهِ لم يَشْعُـرِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

« فصل »

وإليْكَ نَمَاذِجُ مِن حِلْمِهِ فَقَدْ أَرَادَ مَرَّةً أَنْ يُعَلِّمَ أَصْحَابَهُ الحِلْمَ والأَنَاءةَ والتُّؤَدَةَ وضَبْطَ النَّفْسِ فَرُوِيَ أنَّ أعْرَابياً جاءَ يَوْماً يَطْلُبُ مِن النبي ﷺ شَيْئاً فأَعْطَاهُ ﷺ ثُمَّ قالَ لَهُ أَحْسَنْتُ إليكَ قَالَ الأَعْرَابِيُ ولا أَجْمَلْتَ فَغَضَبَ المُسْلِمُونَ وقَامُوْا إِلْيهِ فأشارَ إلِيْهِمْ أنْ كُفُوْا ثُـمَّ قَامَ ﷺ ودَخَلَ مَنْزِلَهُ فَأَرْسَلَ إِليَهِ وَزَادَهُ شَيْئاً ثم قالَ لَهُ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ قالَ نَعَمْ فَجَزَاكَ اللَّهُ مِن أَهْلٍ وعَشِيْرَةٍ خَيْرَا .

فَقَالَ النَّبي ﷺ إِنَّك قُلْتَ مَا قُلْتَ آنِفاً وَفي نَفْسِ أَصْحابِي مِن ذلكَ شَيْءٌ فانْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بيْنَ أَيْدِيْهِمْ حَتَّى يَذْهَبَ مَا فِي صُدُوْرِهِم عَلَيْكَ قَالَ نَعَمْ فَلَمَّا كانَ الغَدُ جَاءَ فقال لَهُ النبيُ ﷺ إنَّ هَذَا الأَعرابِيَّ قالَ مَا قَالَ فِزَدْنَاهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ أَكَذلِكَ قَالَ نَعَمْ فَجَزَاكَ اللَّهُ مِن أَهْلٍ وَعَشِيْرةٍ خَيْرَا .

فقالَ رسولُ الله ﷺ مَثَلِيْ وَمَثَلُ هَذَا وكَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيهِ فاتَّبَعَهَا الناسُ فَلَمْ يَزِيْدُوْهَا إلا نُفُوْراً فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا فقالَ لَهُمْ خَلُّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِيْ فإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنكُمْ وأَعْلَمُ فتوجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا فَأَخَذَ مِن قُمَامِ الأَرْضِ فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ واسْتَنَاخَتْ وشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا واسْتَوَى عَلَيهَا وإِنِي لَوْ تَرَكْتُكُم حَيْثُ قال الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوْهُ دَخَلَ النارَ .

ومِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رضيَ اللَّهُ عنهما أَنَّهُ ﷺ كانَ يَقْبِضُ لِلنَّاسِ يَوْمَ حَنَيْنِ مِن فِضَّةٍ في ثَوْبِ بِلالٍ فَقَال رَجُلٌ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَعْدِلْ فَقَامَ عُمُرُ فقال ألا أَضربُ عُنُقَهُ فإِنَّهُ مُنَافِقٌ فقالَ مَعَاذَ اللَّهِ أنْ يَتَحدَّثَ الناسُ أَنِي

أَقْتُلُ أَصْحَابِي رواه مسلم .

ومِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن أنِسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ كُنْتُ أَمْشِيْ مَعَ النَّبي ﷺ وعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحاشِيَةِ فأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجبَذَهُ بِرِادَائِهِ جَبْذَةً شَدِيْدَةً فَنَظَرْتُ إلى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبي ﷺ وقَدْ أَثَّرتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِن شِدَّةِ الجَبْذَةِ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ مُرْلِيْ مِن مَالِ اللَّهِ الذِي عِندَكَ فالتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بعَطَاءٍ متفق عليه .

ومِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه قال كُنَّا إِذَا صَحِبْنَا رَسولَ اللَّهِ ﷺ في سَفَرٍ تَرَكْنَا لَهُ أعْظَمَ شَجَرَةٍ وَأَظَلَّهَا فَيَنْزِلُ تَحْتَهَا فَنَزَلَ ذَاتَ يَومٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ وعَلَّقَ سَيْفَهُ فِيْهَا فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَخَذَهُ فقالَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ اللَّهُ يَمْنَعُنِيْ مِنْكَ ضَعِ السَّيْفَ فَوَضَعَهُ ، ولم يُعَاقِبْهُ ﷺ .

وَوَرَدَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ تَمْراً في عُرْجُوْنِهِ في يَومٍ شَدِيْدِ الحَرِّ فَهَجَمَ عَلَيه أَعْرَابِيٌّ فَضَايَقَهُ فَضَرَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بعِرْجُوْنِهِ فقال لَهُ الرَّجُلُ أَتَضْرِبُنِيْ يا رسولَ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ خُذْ فاقْتَصَّ فَقَالَ لَهُ بَلْ عَفَوْتُ يَا رَسولَ اللَّهِ ، فانْظُرْ إلى عَفْوِهِ ﷺ عن الرَّجُلِ الذِي أَرَادَ قَتْلَهُ فإنَّهُ لَفَتَ بَعَفوِهِ نَظَرَ الرَّجُلِ إلى مَكَارِمِ أَخْلاَقِهِ ﷺ ولِذَلِكَ ذَهَبَ الرَّجُلُ إلى قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ جِئْتُكُم مِن عِندِ خَيرِ الناس .

وفي ذلِكَ مِن تَوْجِيْهِهِم إلى النَّظَرِ فِي تَعَالِيْمِهِ والبَحْثِ فِيْمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِن عِندِ رَبِهِم ما قَد يَكُونُ سَبَباً في اسْلامِهِمْ وهِدَايَتِهِمْ وهَذِهِ هِيَ النَّتِيْجَةُ الْتي يَسْعَى لَهَا ﷺ .

وَمِن ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبرانيُّ عن عبدِ اللَّهِ بِنِ سلامٍ باسنادٍ رِجالُهُ ثِقاتٌ

قالَ لَمَّا أرَادَ اللَّهُ هُدَى زَيْدِ بنِ سَعِنَةَ قالَ زيدُ مَا مِن علاماتِ النُّبُوةِ شَيْءٌ إلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهَا في وَجْهِ مُحَمَّدٍ حِيْنَ نَظَرْتُ إلِيْهِ إلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ولا تَزِيْدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إلَّا حِلْمًا .

قال زَيْدُ فَخَرَجَ رسولُ الله ﷺ يَوماً مِنَ الحُجُرَاتِ وَمَعَه عَليُ بنُ أَبي طالبٍ فأتَاهُ رَجُلٌ عَلىَ رَاحِلَتِهِ كالبَدَوي فقال يَا رَسُولَ اللَّهِ لي نَفرٌ في قَرْيَةِ بَنِيْ فُلاَنٍ قَدْ أَسْلَمُوا وَدَخَلُوا في الاسْلامِ وَكُنْتُ حَدَّثْتُهُمْ إنْ أَسْلَمُوْا أَتَاهُمْ الرِّزْقُ رَغَداً وقَدْ أصَابَتْهُمْ سَنَةٌ وشِدَّةٌ وقَحْطٌ مِنَ الغَيْثِ .

فأنَا أَخْشى يَا رَسُولَ اللَّهِ أنْ يَخْرُجُوْا مِنَ الاسلامِ طَمَعاً كَمَا دَخَلُوا فِيهِ طَمَعاً فإنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلْ إليْهِمْ بِشيْءٍ تُغِيْثُهُمْ بِهِ فَعَلْتَ فَنَظَرَ إلى رَجُلٍ بِجَانِبِهِ أُرَاهُ عَلِياً فقالَ يا رَسولَ اللَّهِ مَا بَقِي مِنْهُ شَيْءٌ قال زَيْدُ بنُ سَعْنَةَ فَدَنُوتُ إلِيْهِ فَقُلْتُ يا مُحَمَّدُ هَلْ لكَ أنْ تَبْيْعَني تَمراً مَعْلُوماً في حَائِطِ بَنِي فُلاَنٍ إلى أَجَلٍ مَعْلُومٍ إلى أَجَلٍ كذَا وَكَذَا قال لَا تُسَمِّيْ حَائِطَ بَنِيْ فُلاَنٍ قُلْتُ نَعَمْ فَبَايَعَني فاطَلَقْتُ هَمَيَانِيْ فَأَعْطَيْتُهُ ثَمَانِيْنَ مِثْقَالاً مِن ذَهَبٍ في تَمْرٍ مَعْلُومٍ إلى أَجَلٍ كَذَا وَكذا . فَأعْطَاهَا الرَّجُلَ وقال اعْدِلْ عَلَيْهِمْ وَأَغِثْهُمْ .

قال زَيْدُ فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَحَلِّ الرَّجُلِ بِيَوْمَينِ أَوْ ثلاَثٍ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ومَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وعُثْمَانُ في نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ .

فَلَمَّا صَلَّى عَلَى الجَنَازَةِ وَدَنَا إلِى الجِدَارِ لِيَجْلِسَ إليه أَتَيْتُهُ فأَخَذْتُ بمَجَامِعِ قَمِيْصِهِ وَرِدَائِهِ ونَظَرتُ إليه بوَجْهٍ غَلِيْظٍ قُلْتُ يا مُحَمَّدُ أَلَا تَقْضِيْني حَقِّيْ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ بَنِي المُطَّلِبِ إلا مُطْلاً ولقد كانَ بِمُخَالَطَتِكُم عِلْمٌ ، ونَضَرْتُ إلى عُمَرَ وَعَيْنَاهُ تَدُوْرَانِ في وَجْهِهِ كالفَلَكِ المُسْتَدِيْر .

ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ما أَسْمَعُ وتَصْنَعُ بِهِ ما أَرَى فَوَالذِي نَفْسِي بِيْدِهِ لَولاَ مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بسَيْفِي رَأْسَكَ وَرَسولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُر إليَّ في سُكُونٍ وتَؤدَةٍ .

فقال يَا عُمَرُ أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إلى غَيْرِ هَذَا أَنْ تَأْمُرَنِي بحُسْنِ الأَدَاءِ وتأْمُرَهُ بحُسْنِ اتِّبَاعِهِ إذهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فأعْطِهِ حَقَّهُ وزِدْهُ عِشْرِيْنَ صَاعاً مِن تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ قالِ زَيْدُ فَذَهَبَ بِي عُمَرُ فأعطانِي حَقِّي وَزادَنِي عِشْرِيْنَ صَاعاً مِن تَمْرٍ .

فَقُلْتُ مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ قال أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَزِيْدَكَ مَكَانَ ما رُعْتُكَ قال وَتَعْرِفُنِيَ يا عُمَرُ قال لاَ قُلْتُ أَنَا زَيْدُ بنُ سَعْنَةَ قالَ الحَبْرُ قُلْتُ الحَبْرُ قال فَمَا دَعَاكَ إلى أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُولِي مَا فَعَلْتَ وقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ .

قُلْتُ يَا عُمَرُ لَم يَكُنْ مِن عَلاَمَاتِ النُّبُوةِ شَيْئاً إلا وَقَدْ عَرَفْتُه في وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِيْنَ نظَرْتُ إليْه إلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ . يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ولا تَزِيْدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إلاَّ حِلْمَا .

وقَدْ اخْتَبَرتُهُمَا أُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيْتُ باللَّهِ رَباً وبالاسلامِ دِيْناً وبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً وأُشْهِدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي فإنِّيْ أَكْثَرُهَا مَالاً صَدَقةٌ على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ قالَ عُمَرُ أَوْعَلَى بَعْضِهِمْ فَإنَّكَ لا تَسَعْهُمْ قُلْتُ أوْعَلَى بَعْضِهِمْ فَرَجَعَ عُمَرُ وزَيْدٌ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقالَ زَيْدُ أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاّ اللّهُ وأشْهَدُ أنَّ مُحمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه وآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وبَايَعَهُ وشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيْرَةً .

ثم تُوُفِيْ في غَزْوَةِ تَبُوْكَ مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ ـ رَحِمَ اللَّهُ زَيداً ، مِن هَذِهِ الآثارِ وما يَأتِي بَعدَهَا يَتَبَيَّنُ لكَ كَيْفَ قَامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالقِسْطِ وأَقَامَهُ على نَفْسِهِ

وأتْبَاعِهِ وأصْحَابِهِ بلا مُحَابَاةٍ ولا مُدَارَاةٍ ولا مُدَاهَنَةٍ فَكَانَ في ذلكَ في القُمَّة العَالِيَةِ التِّي لا يَصِلُ إلَيْهَا رَاقٍ في تَنْفِيْذِ أمْرِ اللَّهِ وتَطْبِيْقِهِ على الكبيرِ والصغيرِ والقَوِيِّ والضَّعِيْفِ والشَّرِيْفِ والوَضِيْعِ والسَّيدِ والمَسُوْدِ .

اللهم أرْزُقْنَا حُبَّكَ وحُبَّ مَن يُحِبُّكَ وحُبَّ العَمَلِ الذي يُقَرِّبُنَا إلى حُبِّكَ ، اللَّهُم ثَبِّتْ إيْمَانَنَا ثُبُوْتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَوَفِقْنَا لِلْعَمَل بالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ واعْصِمْنَا يا مَوْلاَنَا عن المُحَرَّمَاتِ والمُشْتَبِهَاتِ واغْفِرْ لَنَا جَمِيْعَ الخَطَايَا والزَّلاَّتِ وافْتَحْ لِدُعَائِنَا بابَ القَبُولَ والإجابَات يَا أجْوَدَ الأجْوَدِين وأكرم الأكرمين وصَلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

ومِن ذَلِكَ حِلْمُهُ مَعَ الأعرابِي الذي قَالَ لَهُ أتَضْرِبُنِي يا رسولَ اللَّهِ فإنه ﷺ لَمْ يَتَمادىَ في غَضَبِهِ ولم يَسْتَنْكِرْ مَن الأعْرَابِي اسْتِفْهَامَهُ الذِي فيهِ المُطَالَبَةُ فقالَ للأعْرَابِي خُذْ العِرْجُونَ واقْتَصَّ مِنِّيْ .

ولَقَدْ بَلَغَ مِن حِلْمِهِ ﷺ أنَّهُ لَمْ يَضْرِبْ امْرَأةً ولا خَادماً ولَمَّا قِيلَ لَهُ وَهُوَ في القِتَالِ لَوْ لَعْنَتَهُم يا رسولَ اللَّهِ فقالَ إنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً ولم أبْعَثْ لَعَانًا وعِندَمَا لقِيَ ﷺ مِن قَوْمِهِ أشَدَّ مَا لَقِي نَادَاهُ مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عليهِ .

ثم قَالَ يا محمدُ إنَّ اللَّهَ سَمِعَ قولَ قَوْمِكَ وأنَا مَلَكُ الجِبَالِ وقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْك لِتأمُرَنِي بأمْرِكَ فمَا شِئْتَ إنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأخْشَبَيْنِ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ بَلْ أرْجُو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصْلابِهِم مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ به شَيْئاً .

ولَمَّا آذاهُ المُشْرِكُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَسَرُوْا رَبَاعِيَتَهُ وشَجُّوْا وَجْهَهُ وشَقَّ ذَلِك

على أصْحَابِهِ فقَالَوُا لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِم فقال إِنِّي لَمْ أُبْعَثِ لَعَاناً ولكِنْ بُعْثِتُ دَاعِياً وَرَحْمَةً اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي أوِ اهْدِي قَوْمِي فإِنَّهُم لا يَعْلَمُون .

وقال أنسُ رضي الله عنه خَدَمْتُ النبيَّ ﷺ عَشَرَ سِنِيْنَ فَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : لِمَ صَنَعْتَهُ ولا لِشَيْءٍ لِمْ أَصْنَعْهُ لِمَ لَمْ تَصْنَعْهُ وكان إذا عَاتَبَنِي بَعْضُ أَهْلِهِ يَقُوْلُ دَعُوْهُ فَلَوْ قُضِيَ لَكانَ .

وقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ في سَفَرٍ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ باصَلاحِ شَاةٍ فقالَ رَجُلٌ يا رَسُولَ اللَّهِ عَليَّ ذَبْحُهَا وقَالَ آخَرُ عَليَّ سَلْخُهَا وقال آخرُ عَلِيَّ طَبْخُهَا فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ وَعَليَّ جَمْعُ الحَطَبِ فقالوُا يَا رَسولَ اللَّهِ نَكْفِيْكَ العَمَلَ فقالَ عَلِمْتُ أنكُم تَكْفُونَنِيْ ولكِنْ أَكْرَهُ أنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُم وإنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وتَعالى يَكْرَهُ مِن عَبْدِهِ أنْ يَرَاهُ مُتَمَيِّزاً بَيْنَ أصْحَابِهِ وقَدْ جاءَ وَفْدُ النَّجَاشِي فقامَ ﷺ يَخْدِمُهُمْ فقال أصحابُهُ نَكْفِيكَ قال إِنَّهُمْ كانُوا لإِصْحابِنَا مُكْرِمِيْنَ وأنا أُحِبُّ أنْ أُكَافِئَهُمْ .

وجَاءَتْه امْرَأَةٌ في عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ إِنَّ لِيْ إِلَيْكَ حَاجَةٌ فَقَالَ اجْلِسِيْ فِي أَيِّ سِكَكِ المَدِيْنَةِ شِئْتِ أَجْلِسُ إِلَيْكِ حَتَّى أَقْضِيْ حَاجَتَكِ فَخَلاَ مَعَهَا في بَعْضِ الطَّرِيْقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِن حَاجَتِهَا وَجَاءَ في البُخارِي كَانَتِ الأَمَةُ تَأْخُذُ بيَدِ رسولُ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلَقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ .

وَدَخَلَ الحَسَنُ بنُ عَلي والنبيُ ﷺ يُصَلِّيْ فَرَكِبَ عَلىَ ظَهْرِهِ وهُوَ سَاجِدٌ فَأَبْطَأَ في سُجُوْدِهِ حَتَّى نَزَلَ الحَسَنُ فَلمَّا فَرَغَ قال لَهُ بَعْضُ أصْحَابِهِ لَقَدْ أطَلْتَ سُجُودَكَ قال إِنَّ ابْنِي ارْتَحَلنِي فكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ .

وكان ﷺ يُبَاسِطُ أَصْحَابَهُ وكَانَ رَجُلٌ يُسَمَّى زُهَيْراً يُهَادِي النبيَّ ﷺ بِمَا

يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَوْجُودِ البَادِيَةِ وَكان ﷺ يُهادِيْهِ ويُكَافِئُهُ بمَوْجُودِ الحَاضِرَةِ وبِمَا يُسْتَطرَفُ مِنْهَا وكان ﷺ يَقُولُ زهَيْرٌ بادِيَتُنَا ونَحْنُ حَاضِرَتُهْ .

ولَقَدَ جَاءَ إلى السُوْقِ يَوْماً فَوَجَدَ زُهَيْراً قَائِماً فَجَاءَ مِن قِبَلِ ظَهْرِهِ وضَمَّهُ بِيَدِهِ إلى صَدْرِهِ فأَحَسَّ زُهَيْرُ أَنَّهُ الرَّسُوْلُ ﷺ فَجعَلَ يَمْسَحُ ظَهْرَهُ في صَدْرِ النَّبي ﷺ رَجَاءَ البَرَكَةِ مِن اللَّهِ ثُمَّ مِن جَسَدِه ﷺ فَجعَلَ ﷺ يقولُ مَنْ يَشْتَري العَبْدَ قالَزُهيراً إذَا تَجِدْنِي كَاسِداً فقالَ المُصْطَفى ﷺ أَنْتَ عَندَ اللَّهِ غَالِيْ .

وكَانَ ﷺ يَمْزَحُ ولاَ يَقُولَ إلا حَقاً فَمِنْ ذَلِكَ أنَّ رَجُلاً جَاءَهُ فقالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ احْمِلْنِي فقَالَ أَحْمِلُكَ على ابْنِ النَّاقَةِ فقال مَا عَسَى يُغْنِي عَنِيْ ابنُ الناقةِ فقالَ النبي ﷺ وَيْحكَ وَهَلْ يَلِدُ الجَمَلَ إلا النَّاقَةُ .

وجَاءَتْه مَرَّةً عجُوزٌ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ لِيْ أَنْ يُدْخِلَنِي الجَنَّةَ فقالَ يَا أُمَّ فُلاَنٍ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوْزٌ فَوَلَّتْ تَبْكِيْ فقالَ أَخْبِرُوْهَا أَنَّهَا لا تَدْخُلُهَا وهي عَجْوزٌ إن اللَّهَ تعالى يَقُولُ « إِنَّا أنشأناهَنَ إنَشاءً فجعلناهن أبكارا » .

ومِنْ ذَلِكَ أنَّ أَنساً كَانَ لَهُ أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُوْ عُمَيْرٍ وَكَانَ لَهُ نُغَرٌ « طَائِرٌ صَغِيْرٌ » يَلْعَبُ بِهِ فَمَاتَ فَدَخَلَ عَلى النبي ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وهُوَ حَزِيْنٌ فَقَالَ مَا شَأْنُهُ قِيْلَ لَهُ مَاتَ نُغَرُهُ فقالَ يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُغَيْرُ .

وكَانَ النبي ﷺ يُكْرِمُ كَرِيْمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُوَلِيْهِ أَمْرَهُمْ ويَقْبَلُ مَعْذِرَةَ المُعْتَذِرِ إلِيْهِ وَإلِيْكَ قِصَّةُ كَعْبِ بنِ زُهَيرٍ غضَبَ كَعْبٌ على أَخِيْهِ بُجَيْرٍ حيْنَ أَسْلَمَ وَآمَنَ بالنَّبي ﷺ فقالَ عَليهِ الصَّلاةُ وَالسلامُ مَنْ لَقِيَ مِنْكَمُ كَعْبَ ابنَ زُهَيْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ .

فَكَتَبَ بُجَيْرُ إلى أَخِيْهِ كَعْبٍ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ وأنَّ النَّبِيَ ﷺ أَهْدَرَ دَمَهُ فإنْ كانَ لَكَ في نَفْسِكَ حَاجَةٍ فَصِرْ إلَيْهِ فانَّهُ يَقْبَلُ مَنْ جَاءَ تَائِباً ولا يُطَالِبُه بِمَا عَمِلَ

قَبْلَ الإِسْلَامِ .

فَلمَّا بَلَغَ الكِتابُ كَعْباً فَرَّ إلى قَبِيْلَتِهِ لِتُجِيْرَهُ فأَبَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ فأشْفَقَ وخَافَ عَلىَ نَفْسِهِ وأَرْجَفَ بِهِ أَعْدَاؤُهُ فَقَدِمَ المَدِيْنَةَ ونَزلَ عَلىَ عَلِيِّ بْن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه فأتَى بِهِ إلى المَسْجِدِ وقال هذا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُمْ إِلَيْهِ واسْتَأْمِنْهُ .

فَسَمِعَ كَلَامَهُ وقَامَ إِلَيْهِ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَوَضَعَ يَدَهُ في يَدِهِ قائِلًا يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كَعْبَ بِنَ زُهَيْرٍ قَدْ جَاءَ يَسْتَأْمِنُكَ تائباً مُسْلِماً فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ ذَلكَ إِنْ أَنا جِئْتُكَ بِهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ أَنَا كَعْبُ بنُ زُهَيْرٍ فقَال النبي ﷺ الذِيْ يَقُولُ مَا يَقُولُ .

وَوَثَبَ إليه رَجُلٌ مِن الأَنْصَارِ فقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي وَعَدُوَّ اللَّهِ أَضْرِبُ عُنَقَهُ فقال لَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ دَعْهُ عَنْكَ فانَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِباً نَازِعاً ثُمَّ أَخذَ كَعْبُ في إِنْشَاءِ قَصِيْدَتِهِ المَشْهُوْرَةِ يَمْدَحُ فِيها رسولَ اللَّهِ ﷺ وَيَذْكُرُ خَوْفَهُ وارْجَافَ الوُشَاةِ بِهِ ومَطْلَعُهَا :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِيْ اليَوْمَ مَتْبُوْلُ
مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَي مَكْبُوْلُ

إِلى أَنْ بَلَغَ :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُوْرٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
مُهَنَّدٌ مِن سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوْلُ

فَرَمَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بُرْدَتَهُ الشَّرِيْفَةَ إِلَيْهِ وَعَفَا عَنهُ كَمَا هِيَ عَادَتُهُ الكَرِيْمَةُ

وَكانَ ﷺ لا يُوَاجِهُ أَحَداً في وَجْهِهِ بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ لِسعَة صَدْرِهِ وَغَزَارَةِ عَقْلِهِ وشِدَّةِ حَيَائِهِ وكان ﷺ يأمُرُ بالرِّفِق ويَحُثُّ عليهِ وَيَنْهَي عن العُنْفِ ويُبْغِضُهُ ولَمْ يَكُنْ فَاحِشاً ولاَ مُتَفَحِّشاً ولا يُجْزِيْ بالسَّيِئَةِ السَّيِئَةَ بَلْ يَعْفُوْ ويَصْفَحُ اللَّهم صلِ وسَلِّمْ عليه .

وكانَ يَزُوْرُ ضُعَفَاءَ المُسْلِمِيْنَ تَلَطُّفا بِهِمْ وإِيْنَاساً لَهُمْ ويَعُوْدُ مَرْضَاهُمْ وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ سَواءٌ كانَتْ لِشَرِيْفٍ أَوْ وضِيْعٍ وبذَلِكَ كان خَيْرَ أُسْوَةٍ وكانَ ﷺ أَصْبَرَ الناسِ على مَا يَكُونُ مِن قِبَيْحِ الأفعالِ مِنهُم وَسُوْءِ سِيْرَتِهِمْ وقَبْيحِ سَرْيرَتِهِمْ لإنَّ اللَّهَ تعالى شَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فاتَّسَعَ لِما تَضِيْقُ مِنهُ صُدُوْرُهُمْ .

وَكانَ ﷺ كَامِلاً في قُوَّةِ عَقْلِهِ وَادْرَاكِهِ وصِحَّةِ قِيَاسِهِ الفِكْري وصِدْقِ ظُنُوْنِهِ وصِحَّة فَهْمِهِ وقُوَّةِ حَوَاسِّهِ مَفْطُوْراً عَلَىَ الصَّبْرِ والسُّكُونِ والحَيَاءِ والمُرُؤَةِ والمَوَدَّةِ والرَّحْمَةِ والهِدَايَةِ لِلْخَلْقِ وَحُبِّ الخَيْرِ لَهُمْ وإِعْطَاءِ الحِكْمَةِ حَقَّهَا في سَائِرِ أُمُوْرِهِ .

وكانَ ﷺ ذَا سَياسَةٍ شَرِيْفةَ ومَعَارِفَ مُنْيفةٍ وَنَظَرٍ ثاقِبٍ ورأيٍ صائِبٍ وحَدْسٍ مُوَافق وَفَضَائِلَ مَقْصُودَةٍ وأَخْلاقٍ مَحْمُوْدَةٍ دِيْنُهُ الاسلامُ وخُلُقُهُ القُرآنُ يَرْضَي لِرِضَاهُ وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ مُحَرِّراً لِلشَّرائِعِ حَافِظاً لِلْوَدَائِعِ .

وكَان ﷺ كَثِيْرَ الأفْضالِ يَصِلُ مَن قَطَعَهُ ويُعْطِيْ مَن حَرَمَهُ ويَبْذِلُ لِمَنْ مَنَعَهُ ويَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ويُغْضِي طَرْفَهُ عن القَذَى ويَحْبِسُ نَفْسَهُ عن الأذَى لا يَنْتَقِمُ مَعَ القُدْرَةِ ويَصْبِرُ على ما يَشُقُّ ويُكْرَهُ ولا يَزِيْدُ مَعَ أذَى الجَاهِلِ إلَّا صَبْرَا وَحِلْمَا .

وما خُيِرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إثْمَا وَكَمْ أَعْرَضَ عَن

جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وكان ﷺ يأكلُ مَعَ الخَادِمِ وَيُبَادِرُ إلى خِدْمَةِ القَادِمِ ويَرْقَعُ ثَوْبَهُ ويَخْصِفُ نَعْلَهُ ويَقُمُّ بَيْتَهُ ويَخْدِمُ أَهْلَهُ ويَحْمِلُ بِضَاعَتَهُ مِن السُوْقِ مَعَ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وأكْرَمُ الخَلْقِ على اللَّهِ .

وكَانَ ﷺ رَحِيْماً حَتَّى بأَعْدَائِهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ لمَّا دَخَلَ يومَ فَتْح مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ : وقَدْ جَلَسُوْا بالمَسْجِدِ الحَرَامِ وصَحْبُهُ يَنْتَظِرُوْنَ أَمْرَهُ فِيْهِمْ مِن قَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ .

قالَ لِقُرَيْشٍ ما تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ قَالُوا خَيْرًا أَخٌ كَرِيْمٌ وابنُ أَخٍ كَرِيمٍ فقال ﷺ أَقُولُ كَمَا قالَ أخِي يُوْسُفُ : لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ اليومَ . اذْهَبُوا فأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ .

ولا غَرَابَةَ فَقَدْ انْفَرَدَ بالأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ والمَحَاسِنِ والمَعَارِفِ والتَّوَدُّدِ والرِّفْقِ واللَّهُ أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

« موعظة »

عبادَ اللَّهِ إِنَّ أَمَامَكُم يَومٌ لا كَالأَيَّامِ يَومٌ فِيهِ مِن الأَهْوَالِ والشَّدائِدِ والكُرُوْبِ ما يُشَيِّبُ الوِالْدَانَ وتَذْهَلُ فِيه المُرْضِعَةُ عَمَّا أَرْضَعَتْ يَوْمٌ يَتَغَيَّر فيهِ العَالَمُ ويَنْتَهِي نِظَامُهُ الذي نَرَاهُ .

فَتَنْتَثِرُ الكَوَاكِبُ وتَتَسَاقَطُ وتُطْوَى السَّمَاءُ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكُتُبِ يُزِيْلُهَا اللَّهُ وتُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وتُمِدُّ كما أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى ويُنْفَخُ في الصُوْرِ فَيَقُومُ الناسُ مِن قُبُورِهِم لِرَبِ العَالَمِين .

وحِيْنَئِذٍ يُحْشَرُ الكَافِرُ أَعْمَى لا يُبْصِرُ أَصَمَّ لا يَسْمَعُ أَبْكَمُ لا يَنْطِقُ يَمْشِي

عَلىَ وَجْهِهِ لِيَعْلَمَ مِن أَوَّلِ الأَمْر أَنَّهُ مِن أَهْلِ الإِهَانَةِ ويَكُونُ أَسْوَدَ الوَجْهِ أَزْرَق العَيْنَيْنِ في مُنْتَهَى العَطَشِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ ألفَ سَنَةٌ لَيس بَيْنَهُ وبَيْنَ الشَّمْسِ إلا مِقْدَارُ مِيْلٍ .

إذْ ذَاكَ يِقِفُ مَبْهُوْتاً ذَاهِلَ العَقْلِ شَاخِصَ البَصَرِ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ تُرَاباً ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إلى النَّارِ ويُسْلَكُ في سِلْسِلةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً وَبَعْدَ دُخُولِهِ فِيْهَا لا يَخْرُجُ مِنها أبداً وَلاَ يُزدادُ إلاَّ عَذَاباً ولا يُفَتَّرُ عنه .

إن اسْتَغَاثَ يُغَاثُ بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِيْ الوُجُوْهَ ويُذِيْبُ الأَمْعَاءَ وَيُحْرِقُ الجُلُوْدَ تُحِيْطُ بِهِ النارُ مِن كُلِ جِهَاتِهِ لَهُمْ مِن جَهَنَّمَ مَهادٌ ومِن فَوْقِهِم غَواشٍ كُلَّما نَضِجَ جِلْدُهُ بُدِّلَ جِلْداً غَيْرَهُ .

وَكُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا قُمِعَ بمَقَامِعَ مِن حَدِيْدٍ كُلُ هَذَا العَذَابَ يُعَانِيْهِ ولا يَمُوْتُ« وَيأتِيْهِ المَوتُ مِن كُلِ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ومِن وَرَائِهِ عذابٌ غَلِيْظٌ » لا يَمُوتُ فِيْهَا ولا يَحْيَا وسَواءٌ صَبَرَ أمْ لَمْ يَصْبِرْ هُوَ خَالِدٌ في جَهَنَّمَ خُلُوداً لا انْتِهَاءَ لَهُ أبَدَا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيْ اللَّهُ عَنْه أنَّ رَسُوْلَ اللَّه ﷺ أتِيَ بفَرَسٍ يَجْعَلُ كُلَّ خَطْوٍ مِنْهُ أَقْصَى بَصَرَهُ فَسَارَ وَسَارَ مَعَهُ جِبْرِيْلُ عليه السلامُ .

فأتَى عَلىَ قَوْمٍ يَزْرَعُونَ في يَوْمٍ ويَحْصُدُوْنَ في يَومٍ كُلَّمَا حَصَدُوْا عَادَ كَمَا كَانَ فقالَ يَا جِبْرِيْلُ مَنْ هَؤُلاَءِ قال هَؤُلآءِ المُجَاهِدُوْنَ في سَبْيلِ اللَّهِ تُضَاعَفُ لَهُمُ الحَسَنَةُ بسَبْعِمِائَةِ ضَعْفٍ وما أَنْفَقُوا مِن شيءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ .

ثُمّ أتَى عَلَى قَوْمٍ ترضَخُ رُؤُوسُهُمْ بِالصَّخْرِ كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ قَالَ يا جِبْرِيْلُ مَن هَؤُلاءِ قَالَ هَؤُلاءِ الّذِينَ

تَثَاقَلَتْ رُؤُوسُهُمْ عَن الصَّلَاة .

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ عَلَى أَدْبَارِهِم رِقَاعٌ وعَلَى أَقْبَالِهِم رَقَاعٌ يَسْرَحُونَ كَمَا تَسْرَحُ الأَنْعَامُ إلى الضَّرِيْعِ والزَّقُومِ وَرَضَفِ جَهَنَّمَ قالَ مَا هَؤُلَآءِ يا جِبْرِيْلُ قال هَؤلَآءِ الذينَ لا يُؤَدُّوْنَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِم وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ومَا اللَّهُ بظلام لِلْعَبِيْدِ .

ثُمَّ أُتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حُزْمَةً عَظِيْمَةً لاَ يَسْتَطِيْعُ حَمْلَهَا وهُوَ يُرِيْدُ أنْ يَزِيْدَ عَلَيْهَا قالَ يَا جِبْرِيْلُ مَا هَذَا قال هَذَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِكَ عَلِيهِ أمَانَةُ الناسِ لا يَسْتَطِيْعُ أدَاءَهَا وهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَزِيْدَ عَلَيْهَا .

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بمَقَارِيْضَ مِن حَدِيْدٍ كُلَّمَا قُرِضَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ لا يُفَتَّرُ عَنْهُم مِن ذَلكَ شَيْء قال يا جِبْرِيْلُ مَا هَؤُلَآءِ : قالَ خُطَبَآءُ الفِتْنَةِ .

ثُمَّ أَتَى عَلَى جُحْرٍ صَغِيْرٍ يَخْرُجُ مِنْهُ ثَوْرٌ عَظِيْمٌ فَيْرِيْدُ الثَّوْرُ أَنْ يَدْخُلَ مِن حَيْثُ خَرَجَ فلاَ يَسْتَطِيْعُ قالَ مَاهَذايَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا الرَّجلُ يَتَكَلَّم بالكَلِمَةِ العَظِيْمَةِ فَيَنْدَمُ عَلَيْهَا فَيُرِيْدُ أَنْ يَرُدَّهَا فَلاَ يَسْتَطِيْعُ .

ثَمَّ أَتَى عَلَى وَادٍ فَوَجَدَ رِيْحاً طَيِّبَةٍ وَوَجَدَ رِيْحَ مِسْكٍ مَعَ صَوْتٍ فقالَ مَا هَذَا قالَ صَوْتُ الجَنةِ تَقُولُ يَا ربُّ ائْتِنِي بأَهْلِي وبِمَا وَعَدْتَنِي فَقَدْ كَثُرَ غَرْسِيْ وحَرِيْرِيْ وسُنْدُسِيْ وَإِسْتَبْرَقِي وعَبْقَرِيّي ومُرْجَانِي وفِضَّتِيْ وذَهَبِي وأَكْوَابِي وصِحَافِي وأَبَارِيْقِي وفَوَاكِهِيْ وعَسَلِيْ ومَائِيْ ولَبَنِيْ وخَمْرِيْ ائتِنِي بِمَا وَعَدْتَنِيْ .

قال لَكِ كُلُّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ ومُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ وَمَنْ آمَنَ بِي وبِرُسُلِي وعَمِلَ

صَالِحاً ولَمْ يُشْرِكْ شَيْئاً ولَمْ يَتخِذْ مِن دُوْنِي أنداداً فَهُوَ آمِنٌ ومَن سَأَلَنِي أعْطَيْتُهُ ومَنْ أَقْرَضَنِيْ جَزَيْتُهُ ومَن تَوكَّل عَليَّ كَفَيْتُهُ إِنِيْ أَنَا اللَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنَا لاَ خُلْفَ لِمِيْعَادِيْ قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُوْنَ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِيْن فَقَالَتْ رَضِيْتُ . ثُم أَتى عَلَى وادٍ فَسَمِعَ صَوْتاً مُنْكِراً فَقَالَ يَا جِبْرِيْلُ مَا هَذَا الصَّوْتُ قَالَ هَذَا صَوْتُ جَهَنَّمَ تَقُولُ يَا رَبُّ ائْتِنِي بأَهْلِيْ وبِمَا وَعَدْتَنِي فَقَدْ كَثُرَتْ سَلاسِلِيْ وأغْلالِيْ وسَعِيْرِيْ وَحَمِيْمِيْ وَغَسَاقِي وغِسْلِيْنِي وَقَدْ بَعْدَ قعْرِيْ واشْتَدَّ حَرِّيْ ائتِنِي بِمَا وَعَدْتَنِيْ قال لَكِ كلُّ مُشْرِكٍ وَمُشْرِكَةٍ وخَبِيْثٍ وَخَبِيْثَةٍ وكُلُّ جَبَّارٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ قالَتْ قَدْ رَضِيْتُ رواه البزارُ عن أَبي العالِيةِ ـ أو غيرِهِ ـ عن أبي هَريرَةِ الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٤٥٤ في كتاب صفة الجنة والنار .

عن أبي سَعِيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه عن النبي ﷺ قال « وَيْلٌ وَادٍ في جَهَنَّم يَهْوِيْ فِيْهِ الكَافِرُ أرْبَعِيْنَ خَرِيْفاً قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ .

وعنه رَضِي اللَّهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال في قوله سَأرْهِقُهُ صَعُودًا » قال : « جَبَلٌ مِن نَارٍ يُكَلَّفُ الكَافِرُ أنْ يَصْعَدَهُ فاذَا وَضَعَ يَدَهُ عليهِ ذَابَتْ فإذا رَفَعَهَا عَادَتْ وإذا وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَيهِ ذَابَتْ فَإذَا رَفَعَهَا عَادَتْ يَصْعَدُ سَبْعِيْنَ خَرِيفًا ثم يَهْوِيْ كذلك رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد .

عَظِيمٌ هَوْلُهُ والناسُ فيه ... حَيَارَى مِثْلَ مَبْثُوثِ الفَراشِ
بِهِ تَتَغَيَّرُ الأَلْوانُ خَوفاً ... وتَصْطَكُّ الفَرائِصُ بارْتِعَاشِ
هنالِكَ كُلُّ مَا قَدَّمْتَ يَبْدُو ... فَعَيْبُكَ ظاهِرٌ والسِّرُّ فاشِ
تَفَقَّدْ نَقْصَ نَفْسِكَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَقَدْ أَوْدَى بها طَلَبُ المَعَاشِ
أَلَا لِمْ تَبْتَغِي الشَّهَواتِ طَوْراً ... وَطوْراً تكتسي لِيْنَ الرِّياشِ ؟

اللهُمَّ أَلْحِقْنَا بِعبَادِكَ الأبْرَارِ وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ واغِفْر لنَا وَلَوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحمّد وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

نَمَاذِجُ مِن
« عَدْلِهِ ﷺ »

مِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن عُروةَ عن عائشةَ أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ في عَهْدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ في غَزْوَةِ الفَتْحِ فَفَزِعَ قَوْمُهَا الى أُسَامَةَ ابنِ زَيدٍ يَسْتَشْفِعُوْنَ بِهِ قَالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيْهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وقال أَتُكَلِّمُنِي في حَدٍّ مِن حُدُوْدِ اللَّهِ تَعَالى فَقَالَ أُسَامَةُ اسْتَغْفِرْ لِيْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فلمَّا كَانَ العَشِيُّ قامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيْبًا فأَثْنَى على اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِم الشَّرِيْفُ تَرَكُوْهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيْفُ أَقَامُوْا عَلَيهِ الحَدَّ والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحمدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا .

ثُمَّ أَمَرَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ المَرْأَةَ فَقُطِعَتْ يَدُهَا الحَدِيْثَ أخرجَهُ البُخاري .

ولَمَّا كَانَ العَبَاسُ عَمُّ النَّبي ﷺ في وَثَاقِهِ مَعَ الأَسْرَى يَئِنُ فَأَرِقَ النبيُ ﷺ فَسُئِلَ عن سَبَبِ أرقِه ـ أَيْ عَدَمِ نَوْمِهِ ـ وقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ نَصْراً مُؤَزَّراً قال سَمِعْتُ أَنِيْنَ العَبَاسِ في وَثَاقِهِ فَأَسْرَع بَعْضُ المُسْلِمِينَ لَمَّا سَمِعَهُ وَحَلَّ وَثَاقَهُ وعَادَ فأَخْبَرَ النبيَّ ﷺ أَنَّهُ حَلَّ وَثَاقِ العَبَاسِ قال ﷺ اذْهَبْ فافْعَلْ ذَلِكَ بالأَسْرَى كُلِّهِمْ فَتَأَمَّلْ هذا النَّصَفَ والعَدْلَ مِنه ﷺ .

« موعظة »

عِبَادَ الله مِنْ أَحْكامِ دِيْنِنا وَوَحْيِ قُرْآنِنا وتَعَالِيْمِ نَبِيِّنا مُحمدٍ ﷺ المُقَرَّرَةِ

الثَّابِتَةِ أنَّهُ لا فَضلَ لِعَرَبِي على عَجَمِي ولاَ لأبيض عَلَى أسْوَدَ ولا لِسَيِّدٍ عَلَى مَسُوْدٍ ولا لِمِلِكٍ على مَمْلُوْكٍ ولا صُعْلوكٍ إلا بالتَّقْوَى .

فالمِعْيَارُ الصحيحُ والمِيْزَانُ العَدْلُ الحَقُّ لِلتَّفَاضُلِ بَيْنَ الأَفْرَادِ والجَمَاعَاتِ والتَّرْجِيْحِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الطَّوَائِفِ والطبقاتِ والْهَيْئَآتِ مَا جَاءَ عَن رَبِّ الأَرْضِ والسَّمواتِ « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ولَم يَقُلْ سُبْحَانَهُ وتعالى إِنَّ الكَرْيْمَ مَنْ عَظُمَ جَاهُهُ أَوْ كَثُرَ مَالُهُ أَوْ كَثُرَ رِجَالُهُ واسْتَسْلَمَ لَهُ الناسُ طائِعِيْنَ ومُكْرَهِيْنَ، بَلِ الكَرِيْمُ عِنْدَهُ مَنْ اتَّصَفَ بالتَّقْوَى .

فالعَاقِلَ مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ في السِّرِ والنَّجْوَى وعَامَل النَّاسَ بالمُسَاوَاةِ ولَمْ يُرَاعِي الرُّتَبَ والدَّرَجَاتِ والحَسَبَ والشَّرَفَ والسِّيَادَاتِ وسَوَّى بَيْنَهُمْ وِفْقَ تَسْوِيَةِ اللَّهِ لَهُمْ في الوَاجِبَاتِ والحُدُوْدِ وَالعِبَادَاتِ .

فَتَأَمَّلْ تَجِدْ في المَوْقِفِ بالصَّلاةِ والحَجِّ وَكَيْفَ يَتَسَاوَى فِيهِ الأَمِيْرُ وَالمَأْمُوْرُ والعَظِيْمُ والحَقِيْرُ والغَنِيُ والفَقِيْرُ والصُّعْلُوكُ والوَزِيْرُ كُلُّهُمْ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ ولَهْجَةٍ صَادِقَةٍ يُؤَدُّوْنَ العِبَادَةَ لِمَوْلاَهُمْ العَلِي الكَبِيْرِ وهُمْ مُعْتَرِفُوْنَ بِشِّدةِ الافْتِقَارِ إِلَيْهِ والعَجْزِ والتَّقْصِيْرِ فتِلْكَ هِيَ المُسَاوَاةُ كُلَّ المُسَاوَاةِ الَّتِي جَاءَ بِها الاسلامُ ودَعَى إِلَيْها النَّبي ﷺ ومَكَّنَهَا في نُفُوسِ أَصْحَابِهِ أيَّ تَمْكِيْنٍ .

كَمَا سَتَرَى ما سَنَذْكُرْهُ إنْشَاءَ اللَّهُ مِن عَدْلِهِمْ وانْصَافِهِم وحُبِّهِمْ لِلْمُسَاوَاةِ وإِيْثَارِهِم العَدْلَ في الأَحْكَامِ وتَأَمَّلْ مَا فِي هَذَا الحَدَيِثِ الشَّرِيْفِ ومَا قَالَهُ المُصْطَفَى ﷺ وتَأَمَّلْ ما بَعْدَهُ مِمَّا سَيَأتِيْكَ مِن سِيْرَتِهِ أ . هـ .

أَخرَجَ ابنُ عَسَاكِرَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ حَدْرَدٍ الأَسْلَمِي رَضي اللَّهُ عنه أَنَّه كانَ لِيَهُوْدِي عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ فاسْتَعْدى عليهِ فقال يا مُحَمَّد إِنَّ لِيْ عَلَى هَذَا

أرْبَعَةَ دَرَاهِمَ وقَدْ غَلَبَنِيْ عَلَيْهَا قالَ أعْطِهِ حَقَّهَ قال والذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أُقْدِر عَلَيْهَا قال أعْطِهِ حَقَّهُ قال والذي نَفْسِيْ بِيَدِهِ ما أَقْدِرُ عَلَيْهَا قَدْ أخْبَرْتَهُ أنَّكَ تَبْعَثُنَا إلى خَيْبَرَ فأرْجُوْ أنْ تُغَنِّمَنَا شَيْئاً فأرْجِعُ فأَقْضِيْهِ .

قالَ أَعْطِهِ حَقَّهُ وكانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذَا قال ثَلاثاً لَمْ يُرَاجَعْ فَخَرَجَ ابنُ أَبِي حَدْرَدٍ إلى السُّوْقِ وعلى رَأسِهِ عِصَابَةٌ وهُوَ مُتَّزِرٌ بِبُرْدَةٍ فَنَزَعَ العِمَامَةَ فاتَّزَرَ بِهَا ونَزَعَ البُرْدَةَ فقَالَ : اشْتَرِ مِنِّيْ هَذِه البُرْدَةَ فَبَاعَهَا مِنْهُ بِأرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فَمَرَّتْ عَجُوْزٌ فَقَالَتْ مَا لَكَ يَا صَاحِبَ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ فأَخْبَرَهَا فَقَالَتْ هَا دُوْنَكَ هَذا البُرْدَ لِبُرْدٍ عَلَيْها طَرَحَتْهُ عليه .

وعن أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِي قال جَاءَ أَعْرَابِيٌ إلى النبي ﷺ يَتَقَاضَاهُ دَيْناً كَانَ عَلَيْهِ فاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قال احَرِّجُ عَلَيْكَ إلاَّ قَضَيْتَنِي فانْتَهَرَهُ أصْحَابُهُ فَقَالُوا وَيْحَكَ تَدْرِيْ مَنْ تكلم فقَالَ إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّيْ فقالَ النبيُ ﷺ :

هَلاَّ مَعَ صَاحِبِ الحَقِّ كُنْتُمْ ثُمَّ أرْسَلَ إلى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقَالَ لَهَا إنْ كَانَ عِنْدَكَ تَمْرٌ فأقْرِضِيْنَا حَتَّى يَأْتِيْنا تَمْرٌ فَنَقْضِيْكِ فَقَالَتْ نَعَمْ بِأَبِيْ أَنْتَ وأُمِّيْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْرَضَتْهُ فقَضَى الأَعْرابِيَّ وأطْعَمَهُ .

فَقَالَ أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللَّهُ لَكَ فَقَالَ أُولَئِكَ خِيَارُ الناسِ إنَّهُ لاَقُدِّسَتِ أمةٌ لا يَأْخُذُ الضَّعِيْفُ فِيْهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ أخرجه ابنُ ماجَة ورَوَاهُ البزارُ مِن حديث عائشة رضي الله عنها مُخْتَصَرا .

وأَخْرَجَ الطبرانِيُّ خَوْلَة بِنْتِ قَيْسٍ امْرأةِ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَتْ كانَ عَلىَ رَسُولِ اللَّهِ وسَقٌ مِن تَمْرٍ لِرَجُلٍ مِن بَنِي سَاعِدَةَ فَأَتَاهُ يَقْتَضِيْهِ فأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً مِن الأَنْصَارِ أنْ يَقْضِيَهُ فَقَضَاهُ تَمْراً دُوْنَ تَمْرِهِ

فأَبى أنْ يَقْبَلَ فقالَ أَتَرُدُّ على رَسُولِ الله ﷺ .

قَالَ نَعَمْ ومَنْ أَحَقُّ بالعَدْلِ مِن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فاْكَتَحلتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بدُمُوْعِهِ ثُمَّ قَالَ صَدَقَ ومَنْ أَحَقُ بالعَدْلِ مِنِّي لاَقدَّسَ اللَّهُ أُمَّةً لاَ يَأْخُذُ ضَعِيْفُهَا حَقَّهُ مِن شَدِيْدِهَا ولاَ يُتَعْتِعُهُ .

ثُمَّ قَالَ « يَا خَوْلَةُ عِدْيهِ وَاقْضِيْهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ غَرِيْمٍ يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِ غَرِيْمِهِ رَاضِياً إِلاَّ صَلَّتْ عَلَيْهِ دَوَابُّ الأَرْضِ وَنُوْنُ البِحَارِ وَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَلْوِيْ غَرِيْمَهُ وَهُوَ يَجِدُ إلاّ كَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِثْماً .

وَلَمَّا بَلَغَ بُنْيَانُ قُرَيْشٍ مَوْضِعَ الرُّكْنِ اخْتَصَمَ القَبَائِلُ كُلُّ قَبِيْلَةٍ تُرِيْدُ أَنْ تَرْفَعَ الرُّكْنَ إلى مَوْضِعِهِ وَكادُوْا يَقْتَتِلُوْنَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ لَهُمْ أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ المُغِيْرَةِ بنُ عَبْدِ اللّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ مَخْزُوْمٍ وَكَانَ شَرِيْفاً مُطَاعاً اجْعَلُوا الحَكَمَ بَيْنَكُمْ لأَوّلِ مَن يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الصَّفَا فَقَبِلُوا ذَلِكَ مِنْهُ وَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا هَذَا الأَمِيْنُ أَقْبَلَ وَكَانَ يُسَمَّى فِي الجاهِلِيّةِ « الأَمِيْنُ » لأَمَانَتِهِ وَصِدْقِهِ فَقَالُوا جمِيْعاً رَضِيْنَا بِحُكْمِهِ .

ثُمَّ قَصُّوْا عَلَيْهِ قِصَّتَهُمْ فَقَالَ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ هَلُّمَّ إِليَّ ثَوْباً فَأُتِي بِهِ فَوَضَعَ الرُّكْنَ فِيْهِ يَعْنِي الحَجَرَ الأَسْوَدَ ثُمَّ قَالَ لِتَأخُذْ كُلُّ قَبِيْلَةٍ بِطَرَفٍ مِنْ هَذَا الثَّوْبِ فَحَمَلهُ مِنْ أَرْبَعةِ أَطْرَافٍ أَرْبَعَةٌ مِن وُجُوْهِ القَبَائِلِ وأَشْرَافِهَا وزُعَمَائِهَا وَرَفَعُوْهُ إِلى مُحَاذاةِ مَوْضِعِ الحَجَرِ .

فَتَنَاوَلَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنَ الثَّوْبِ وَوَضَعَهُ بِيَدِهِ الشَّرِيْفَةِ فِي مَحَلِّهِ فَكَانَ الأَشْرَافُ والزُّعَمَاءُ خَدَماً لَهُ ﷺ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ هُبَيْرَةُ بْنُ وَهْبٍ المَخْزُوْمِي :

تَشَاجَرَتِ الأَحْيَاءُ فِي فَضْلِ خُطَّةٍ
جَرَتْ طَيْرُهُمْ بالنَّحس مِنْ بَعْدِ أَسْعَدِ
تَرَامَوْا بِهَا بالغَضِّ بَعْدَ مَوَدَّةٍ
وأَوْقَدَ نَاراً بَيْنَهُمْ شَرُّ مُوْقِدِ
فَلَمَّا رَأَيْنَا الأَمْرَ قَدْ حَانَ جِدُّهُ
وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ غَيْرَ سَلِّ المُهَنَّدِ
رَضِيْنَا وَقُلْنَا العَدْلُ أَوّلُ طَالِعٍ
يَجِيءُ مِنَ البَطْحَاءِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ
فَفَاجَأَنَا هَذَا الأَمِيْنُ مُحَمَّدُ
فَقُلْنَا رَضِيْنَا بالأَمِيْنِ مُحَمَّدِ
بِخَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّها أَسْوَ شِيْمَةٍ
وَفِي اليَوْم مَعْ مَا يُحْدِثُ اللّهُ فِي غَدِ
فَجَاءَ بأَمْرٍ لَمْ يَرَ النّاسُ مِثْلَهُ
أَعَمَّ وأَرْضَى فِي العَوَاقِبِ والبَدِيْ
أَخَذْنَا بأَطْرَافِ الرِّدَاءِ وكُلُّنَا
لَهُ حِصَّةٌ مِنْ رَفْعِهِ قَبْضَةُ اليَدِ
فَقَالَ ارْفَعُوْا حَتَّى إذا مَا عَلَتْ بِهِ
أَكُفُّهُمُ وَالَى بِهِ خَيْرُ مُسْنِدِ
وَكُلُّ رَضِيْنَا فِعْلَهُ وَصَنِيْعَهُ
فأَعْظِمْ بِهِ مِن رأى هَادٍ وَمُهْتَدِ
وتِلْكَ يَدٌ مِنْهُ عَلَيْنَا عَظِيْمَةٌ
يَرُوْحُ بِهَا هَذا الزَّمَانُ وَيَغْتَدِيْ

وَالأَرْبَعَةُ الآخِذِيْنَ بِطَرَفِ الرِّدَاءِ هُمْ عُتْبَةُ بنُ رَبِيْعَةَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْس بنِ عَبْدِ مَنَافٍ والأَسْوَدُ بْنُ المُطَّلِبِ بْنِ أَسَد بْن عَبْدِ العُزَّى بن قُصَيّ ، وأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ المُغِيْرَة بْنِ عَمْرو ابنِ مَخْزُوْمِ بْنِ يَقظة ، وَقَيْسُ بنُ عَدِيّ السَّهْمِي .

اللَّهُمَّ علمْنَا ما ينفعُنَا وأنفعْنَا بها علَّمْتَنَا وبارِكْ لنا في علومِنَا وأعمالِنا وأعمارنا وأَصْلِحْ نياتِنا وذُرِّياتِنا واغفِرْ لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحْمَتِك يا أرحمَ الراحمِينَ وصلى اللَّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

(**فصــــل** وَقالَ شَيْخُ الإسلاَمِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحِمَهُ اللّهُ وسيْرَةُ النّبِيِّ ﷺ مِن آياتِهِ وأخْلاَقُهُ وأقْوَالُهُ وأفْعَالُهُ وَشَرِيْعَتُهُ مِنْ آيَاتِهِ وَأُمَّتُهُ مِن آياتِهِ وكَرَامَاتُ صَالِحِي أُمَّتِهِ مِن آياتِهِ .

وَذَلِكَ يَظْهَرُ بتَدَبُّرِ سِيْرَتِهِ مَنْ وُلِدَ إلى أَنْ بُعِثَ وَمِنْ حِيْنِ بُعِثَ إلى أَنْ مَاتَ وبِتَدَبُّرِ نَسَبِهِ وَبَلَدِهِ وأَصْلِهِ وَفَصْلِهِ فإنَّهُ كَانَ مِن أَشْرَفِ أَهْلِ الأرْضِ نَسَبًا مِن صَمِيْمِ سُلاَلَةِ إبْرَاهِيْمَ الّذي جَعَلَ اللّهُ فِي ذُرِّيَتِهِ النُّبُوَّةَ والكِتَاب .

فَلَمْ يَأْت نَبِيٌّ مِنْ بَعْدِ إبْرَاهِيْمَ إلاّ مِن ذُرِّيَتِهِ وَجَعَلَ لَهُ ابْنَيْنِ اسْمَاعِيْلَ وإسْحَاقَ وذُكِرَ فِي التَّوْرَاةِ هَذَا وَهَذَا وبُشِّرَ فِي التَّوْرَاةِ بِمَا يَكُونُ مِن وَلَدِ إسْمَاعِيْل .

وَلَمْ يَكُنْ فِي وَلَدِ إسْمَاعِيْلَ مَنْ ظَهَرَ فِيْمَا بَشَّرَتْ بِهِ النُّبُوَّاتُ غَيْرَهُ وَدعَا إبْراهيمُ لِذُرِّيَةِ إسْمَاعِيْل بأَنْ يَبْعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلاً مِنْهُمْ ثُمَّ هُوَ مِن قُرَيْشٍ صَفْوَةِ بَنِيْ إبْرَاهِيْمَ مِن بَنِيْ هَاشِمٍ صَفْوَةِ قُرَيْشٍ .

ومِنْ مَكَّةَ أُمِّ القُرَى وَبَلَدُهُ البَيْتُ الّذِي بَنَاهُ إبْرَاهِيْمُ وَدعَا النّاسَ إلى

حَجِّهِ ، ولَمْ يَزَلْ مَحْجُوجاً مِنْ عَهْـدِ إبْرَاهِيْمَ مَذكوراً في كُتْبِ الأَنْبِيَاءِ بأحْسَنِ وَصْفٍ ، وَكَانَ مِن أَكْمَلِ النّاسِ تَرْبِيَةً وَنَشأةً لَمْ يَزَلْ مَعْرُوْفاً بالصِّدْقِ والبِرِّ وَالعَدْلِ ومَكَارِمِ الأخلاقِ وَتَرْكِ الفَوَاحِشِ والظُّلْمِ وكُلِّ وَصْفٍ مَذْمُوْمٍ .

مَشْهُوداً لَهُ بِذَلِكَ عِنْدَ جَمِيْعِ مَنْ يَعْرِفُهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَمِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ، لاَ يُعْرَفُ لَهُ شَيْءٌ يُعَابُ بِهِ لا فِي أَقْوالِهِ وَلاَ فِي أَفعالِهِ وَلاَ فِي أخلاَقِهِ وَلاَ جُرِّبَتْ عَلَيْهِ كِذْبَةٌ قَطُّ ولاَ ظُلْمٌ وَلاَ فَاحِشَةٌ .

وكَانَ خُلُقُهُ وَصُوْرَتُهُ مِن أكْمَلِ الصُّوَرِ وأَتَمِها وأجْمَعِهَا لِلْمَحَاسِنِ الدَّالَةِ عَلَى كَمَالِهِ ، وَكَان أُمِّياً مِن قَوْمٍ أُمِّيْيْنَ لاَ يَعْرِفُ لا هُوَ وَلاَ هُمْ مَا يَعْرِفُهُ أهْلُ الكِتَابِ « التَّوْرَاةِ والانْجِيلِ » .

وَلَمْ يَقْرَأْ مِنْ عُلُومِ النّاسِ وَلاَ جَالَسَ أَهْلَهَا وَلَمْ يَدّعِ بِنُبوَّةٍ إلى أنْ أكْمَلَ اللّهُ لَهُ أرْبَعِيْنَ سَنَةً فَأتَى بأَمْرٍ هُوَ أعْجَبُ الأُمُوْرِ وأعْظَمُهَا وبكَلاَمٍ لَم يَسْمَعْ الأَوَّلُونَ والآخَرُونَ بنَظِيْرِهِ .

وأخْبَرَ بأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي بَلدِهِ وَلاَ فِي قَوْمِهِ مَنْ يَعْرِفُ مِثْلَهُ وَلَمْ يُعْرَفْ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ ، لاَ فِي مِصْرٍ مِن الأمصَارِ وَلاَ فِي عَصْرٍ مِن الأعْصَارِ مَن أتَى بِمِثْلِ مَا أتَى بِهِ وَلاَ مَنْ ظَهَرَ كَظُهُوْرِهِ .

وَلاَ مَنْ أَتَى مِنَ العَجَائِبِ والآياتِ بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ وَلاَ مَن دَعَا إلى شَرِيْعَةٍ أَكْمَلَ مِن شَرِيْعَتِهِ ، وَلاَ مَنْ ظَهَرَ دِيْنُهُ عَلَى الأَدْيَانِ كُلِّهَا بالعِلْمِ والحُجَّةِ وبِاليدِ والقُوَّةِ كَظُهُوْرِهِ .

ثُمَّ إنَّهُ اتَّبَعَهُ أتْبَاعُ الأَنْبِيَاءِ وهُمُ الضُّعَفَاءُ مِنَ النّاسِ وَكَذَّبَهُ أَهْلُ الرِّئَاسَةِ

وَعَادَوْهُ وَسَعَوْا فِي هَلَاكِهِ وَهَلاكِ مَن تَبِعَهُ بِكُلِّ طَرِيْقٍ ، كَمَا كَانَ الكُفَّارُ يَفْعَلُونَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ وأَتْبَاعِهِمْ .

وَالَّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ لَمْ يَتَّبِعُوْهُ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَالٌ يُعْطِيْهِمْ وَلاَ جِهَاتِ يُوَلِّيْهِم إِيَّاهَا وَلاَ كَانَ لَهُ سَيْفٌ بَلْ كَانَ السَّيْفُ والجَاهُ والمالُ مَعَ أَعْدَائِهِ ، وَقَد آذَوْا أَتْبَاعَهُ بِأَنْوَاعِ الأذَى وهُمْ صَابِرُوْنَ مُحْتَسِبُونَ لاَ يَرْتَدُوْنَ عَنْ دِيْنِهِمْ لمَّا خَالَطَ قُلُوْبَهُمْ حَلاَوَةُ الإِيْمَانِ والمَعْرِفَةِ .

وكَانَتْ مَكّةُ يَحُجُّهَا العَرَبُ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيْمَ فَتَجْتَمِعُ فِي المَوْسِمِ قَبَائِلُ العَرَب فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ يُبَلِّغُهُمْ الرِّسَالَةَ وَيَدْعُوْهُمْ إِلى اللّهِ صَابِراً عَلَى مَا يَلْقَاهُ مِن تَكْذِيْبِ المُكذِّبِ وَجَفاءِ الجَافِي وإِعْرَاضِ المُعْرِضِ إِلى أَنْ اجْتَمَعَ بأَهْلِ يَثْرِبَ وكَانُوا جِيْرَانَ اليَهُودِ قَدْ سَمِعُوْا أَخْبَارَهُ مِنْهُمْ وَعَرَفُوْهُ .

فَلَمَّا دَعَاهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُ النَّبِيُّ المُنْتَظِرُ الّذي تُخْبِرُهُمْ بِهِ اليَهُوْدُ وَكَانُوا قَدْ سَمِعُوا مِنْ أَخْبَارِهِ مَا عَرَفُوا بِهِ مَكَانَتَهُ ، فَإِنَّ أَمْرَهُ كَانَ قَدْ انْتَشَرَ وَظَهَرَ فِي بِضْعِ عَشْرَةِ سَنَةً فَآمَنُوا بِهِ وَتَابَعُوْهُ عَلى هِجْرَتِهِ وهِجْرَةِ أَصْحَابِهِ إِلى بَلَدِهِمْ وعَلَى الجِهَادِ مَعَهُ فَهَاجَرَ هُوَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ إِلى المَدِيْنَةِ وَبِها المُهَاجِرُوْنَ والأَنْصارُ لَيْسَ فِيْهِم مَنْ آمَنَ بِرَغْبَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ وَلاَ بِرَهْبَةٍ إِلا قَلِيلاً مِن الأَنْصَارِ أَسْلَمُوا فِي الظَّاهِرِ ثُمَّ حَسُنَ إِسْلاَمُ بَعْضِهِمْ ثُمَّ أُذِنَ لَهُ في الجِهادِ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ .

وَلَمْ يَزَلْ قَائِماً بِأَمْرِ اللّهِ عَلَى أَكْمَلِ طَرِيْقَةٍ وأَتَمِهَا مِن الصِّدْقِ والعَدْلِ والوَفَاءِ لَا يُحْفَظُ عَلَيْهِ كِذْبَةً وَاحِدةً وَلاَ ظُلْمٌ لأَحدٍ وَلاَ غَدْرٌ بأَحدٍ ، بَلْ كَانَ أَصْدَقَ النّاسِ وأَعْدَلَهُمْ وأَبَرَّهُمْ وأوفاهُمْ بِالعَهْدِ مَعَ اخْتِلَافِ الأَحْوَالِ عَلَيْهِ مِنْ حَرْبٍ وسِلْمٍ وأَمْنٍ وخَوْفٍ وغِنىً وفِقْرٍ وقِلَّةٍ وكَثْرَةٍ وظُهُوْرِهِ على العَدُوِّ

تَارَةً وَظُهُوْرِ العَدُوِّ عَلَيْهِ تَارَةً .

وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مُلاَزِمٌ لأَكْمَلِ الطُّرُقِ وَأَتَمِّهَا حَتَّى ظَهَرَتِ الدَّعْوَةُ فِي جَمِيْعِ أَرْضِ العَرَبِ الَّتِي كَانَتْ مَمْلُوءَةً مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَمِنْ أَخْبَارِ الكُهَّانِ وَطَاعَةِ المَخْلُوْقِ فِي الكُفْرِ بالخَالِقِ وسَفْكِ الدِّمَاءِ المُحَرَّمَةِ وقَطِيْعَةِ الأَرْحَامِ لاَ يَعْرِفُوْنَ آخِرَةً وَلاَ مَعَاداً .

فَصَارُوْا أَعْلَمَ أَهْلِ الأَرْضِ وأَدْيَنَهُمْ وَأَعْدَلَهُمْ وَأَفْضَلَهُمْ وَهَذِهِ آثَارُ عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ فِي الأَرْضِ وآثارُ غَيْرِهِمْ يَعْرِفُ العُقَلاءُ فَرْقَ مَا بَيْنَ الأَمْرَيْنِ وَهُوَ ﷺ مَعَ ظُهُوْرِ أَمْرِهِ وَطَاعَةِ الخَلْقِ لَهُ وَتَقْدِيْمِهِمْ لَهُ عَلَى الأَنْفُسِ والأَمْوَالِ مَاتَ وَلَمْ يُخَلِّفْ دِرْهَماً وَلاَ دِيْنَاراً وَلاَ مَتَاعاً وَلاَ دَابَّةً إِلاّ بَغْلَتَهُ وَسِلاَحَهُ وَدِرْعُهُ مَرْهُوْنَةٌ عِنْدَ يَهُوْدِي عَلَى ثَلاَثِيْنَ وَسَقاً مِن شَعِيْرٍ ابْتَاعَهَا لأَهْلِهِ .

وَكَانَ بِيَدِهِ عَقَارٌ يُنْفِقُ مِنْهُ عَلَى أَهْلِهِ والبَاقِي يَصْرِفُهُ فِي مَصَالِحِ المُسْلِمِيْنَ فَحكَمَ بأَنَّهُ لاَ يُوْرَثُ ولا يَأخُذْ وَرَثَتُهُ مِنْهُ شَيْئاً وَهُوَ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الآياتِ وفُنُوْنِ الكَرَامَاتِ مَا يَطُوْلُ وَصْفُه .

ويُخْبِرُهُمْ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُوْنُ وَيَأْمُرُهُمْ بالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ويُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَشْرَعُ الشَّرِيْعَةَ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ .

أَكْمَلَ اللّهُ دِيْنَهُ الّذي بُعِثَ بِهِ وَجَاءتْ شَرِيعَته أَكْمَلَ شَرِيْعَةٍ لَمْ يَبق مَعْرُوف تَعرفُ العُقُولَ أَنّهُ مَعْرُوْفَ إلاّ أمَرَ بِهِ وَلاَ مُنْكَرٌ تَعْرِفُ العُقُولُ أَنّهُ مُنْكَرٌ إلاَّ نَهَى عَنْهُ .

لَمْ يَأْمُرْ بِشَيْءٍ فَقِيلَ لَيْتَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ وَلاَ نَهى عَنْ شَيْءٍ فَقِيلَ لَيْتَهُ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ وأَحَلَّ الطَّيِّباتِ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئاً مِنْها كَمَا حُرِّمَ فِي شَرْعِ غَيْرِهِ وَحَرَّمَ الخَبَائِثَ لَمْ يُحِلَّ مِنْها شَيْئاً كَمَا اسْتَحَلَّهُ غَيْرُهُ .

وَجَمَعَ مَحَاسِنَ مَا عَلَيْهِ الأُمَمُ فَلا يُذْكَرُ فِي التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ وَالزَّبُورِ نَوْعٌ مِنَ الخَبَرِ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ مَلاَئِكَتِهِ وَعَنْ اليَوْمِ الآخِرِ إلَّا وَقَدْ جاءَ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ وأَخْبَرَ بأَشْياءَ لَيْسَتْ فِي هَذِهِ الكُتُبِ .

وأُمَّتُهُ أَكْمَلُ الأُمَمِ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ فَإِذَا قِيسَ عِلْمُهُمْ بِعِلْمِ سَائِرِ الأُمَمِ ظَهَرَ فَضْلُ عِلْمِهِمْ وإن قِيسَ دِيْنُهُمْ وَعِبادَتُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِلَّهِ بِغَيْرِهِمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ أَدْيَنُ مِنْ غَيْرِهِمْ وإِذَا قِيسَ شَجَاعَتُهُمْ وَجِهادُهُمْ وَصَبْرُهُمْ عَلَى المَكَارِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ ظَهَرَ أَنَّهُمْ أَعْظَمُ جِهاداً وأَشْجَعُ قُلُوباً وهَذِهِ الفَضَائِلُ بِهِ نَالُوْها ومِنْهُ تَعَلَّمُوهَا وهُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهَا ا . هـ .

وَقَالَ آخَرُ :

اعْلَمْ أَنَّ مَنْ شَاهَدَ أَحْوالَهُ ﷺ وأَصْغَى إلى سَماعِ أَخْبَارِهِ المُشْتَمِلَةِ عَلَى أَخْلاَقِهِ وأَفْعَالِهِ وأَحْوالِهِ وعَادَاتِهِ وَسَجَايَاهُ وَسِيَاسَتِهِ لأَصْنَافِ الخَلْقِ وهِدَايَتُهُ إلى ضَبْطِهِمْ وَتَأَلُّفِه أَصْنَافَ الخَلْقِ وقَوْدَهُ إِيَّاهُمْ إلى طَاعَتِهِ .

مَعَ مَا يَحْكِيْ مِنْ عَجَائِبِ أَجْوِبَتِهِ فِي مَضَايِقِ الأَسْئِلَةِ وَبَدَائِعِ تَدْبِيْرَاتِهِ فِي مَصَالِحِ الخَلْقِ وَمَحَاسِنِ إِشَارَاتِهِ فِي تَفْصِيلِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ الَّتِي يَعْجِزُ الفُقَهاءُ والعُقَلاءُ عَنْ إِدْرَاكِ أَوائِلِ دَقَائِقِها فِي طُوْلِ أَعْمَارِهِمْ لَمْ يَبْقَ لَهُ رَيْبٌ وَلاَ شَكٌّ فِي أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُكْتَسَباً بِحِيْلَةٍ تَقُوْمُ بِهَا القُوَّةُ البَشَرِيَّةِ .

بَلْ لاَ يَتَصَوَّرُ ذَلِكَ إلَّا بالاسْتِمْدَادِ مِنْ تَأْيِيْدٍ سَمَاوِيٍّ وَقُوَّةٍ إِلهِيَّةٍ وأَنَّ

ذَلِكَ كُلَّهُ لا يَتَصوَّرُ لِكَذَّابٍ وَلاَ مُلَبِّسٍ بَلْ كَانَتْ شَمَائِلُهُ وأحْوَالُهُ شَوَاهِدُ قَاطِعَةٌ بِصِدْقِهِ حَتَّى أنَّ العَرَبِيَّ القُحَّ كَانَ يَرَاهُ فَيَقُولُ : وَاللّهِ مَا هَذَا وَجْهُ كَذَّابٍ .

فَكَانَ يُشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِهِ لِشَمَائِلِهِ فَكَيْفَ مَنْ شَاهَدَ أخْلاَقَهُ وَمَارَسَ أحْوَالَهُ فِي جَمِيْعِ مَصَادِرِهِ وَمَوَارِدِهِ أ . هـ .

وَقَالَ حَسّانُ يَرْثِي رَسُولَ اللّهِ ﷺ :

بِطَيْبَةَ رَسْمٍ للرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
مُنِيْرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُوْمُ وتَهْمُدُ
وَلاَ تَنْمَحِيْ الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
بِهَا مِنْبَرُ الهادِيْ الّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آيَاتٍ وبَاقِي مَعَالِمٍ
وَرَبْعُ لَهُ فِيْهَا مُصَلًّى ومَسْجِدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا
مِنَ اللّهِ نُوْرٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوْقَدُ
مَعَالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى العَهْدِ آيُهَا
أتَاهَا البِلَى فالآيُ مِنْهَا تَجَدَّدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُوْلِ وعَهْدَهُ
وقَبْراً بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مَلْحَدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوماً رَزِيَّةٌ هَالِكٍ
رَزِيّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيْهِ مُحَمَّدُ

تَقَطَّعَ فِيْهِ مَنْـزِلُ الـوَحْيِ عَنْهُمُ
وَقَـدْ كَـانَ ذَا نُـوْرٍ يَغُـورُ ويُنْجِـدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِيْ بِهِ
وَيُنْقِـذُ مِنْ هَوْلِ الخَـزَايَا ويُـرْشِدُ
إِمَـامٌ لَهُمْ يَهْـدِيْهِمُ الحَقَّ جَـاهِـداً
مُعَلِّمُ صِـدْقٍ إِنْ يُطِيْعُـوهُ يَسْعَـدُوا
عَفُـوٌّ عَن الـزَّلَّاتِ يَقْبَـلُ عُـذْرَهُمْ
وأَنْ يُحْسِنُـوا فَاللّهُ بـالخَيْـرِ أَجْـوَدُ
فَبَيْنَـاهُمُـوْا فِي نِعْمَـةِ اللّهِ بَيْنَهُمْ
دَلِيْـلٌ بِـهِ نَهْـجُ الـطَّرِيْقَـةِ يُقْصَـدُ
عَزِيْزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيْدُوْا عَنِ الهُدَى
حَرِيْصٌ على أَنْ يَسْتَقِيْمُوْا وَيَهْتَدُوْا
عَـطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُثَنِّيْ جَنَـاحَـهُ
إلى كَنفٍ يَحْنُـوْ عَلَيْهِمْ وَيَمْهَـدُ
فَبَيْنَاهُمُوْا فِي ذَلِكَ النُّوْرِ إِذْ غَدَى
إِلَى نُوْرِهِمْ سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ مُقْصِدُ
فَـأَصْبَحَ مَحْمُـوْداً إلى اللّهِ رَاجِعـاً
يُبَكِّيْـهِ جَفْنُ المُـرْسَـلاتِ ويَحْمَـدُ
وأَمْسَتْ بِلَادُ الحُرْمِ وَحْشاً بِقَاعُهَا
لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الوَحْيِ تَعْهَـدُ
قِفَاراً سِوَى مَعْمُوْرَةِ اللَّحْدِ ضَـافَهَا
فَـقِيْـدٌ يُـبَكِّـيْـهِ بـلَاطٌ وغَـرْقَـدُ

وَمَسْجِـدُهُ فَـالمُـوحِشَـاتُ لِفقْـدِهِ
خَـلاَءٌ لَـهُ فِيْـهِ مَقَـامٌ وَمَـقْعَـدُ
فَبَكِّيْ رَسُـوْلَ اللّهِ يَـا عَيْنُ عَبْـرَةً
ولا أعْرِفَنْكِ الـدَّهْرَ دَمْعُـكِ يَجْمُدُ
ومَا لَكِ لاَ تَبْكِيْنَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِيْ
عَلَى النّـاسِ مِنْهَا سَـابِـغٌ يَتَغَمَّـدُ
فَجُـوْدِيْ عَلَيْهِ بـالـدُّمُـوْعِ وأعْـوِلِي
لِفَقْدِ الّذِي لاَ مِثْلَهُ الـدَّهْرَ يُـوْجَدُ
وَمَـا فَقَدَ الْمَـاضُـوْنَ مِثْلَ مُحَمَّـدٍ
ولا مِثْلَهُ حَتَّى الـقِيَـامَـةَ يُـفْقَـدُ
أَعَـفَّ وَأَوْفَـي ذِمَّـةً بَـعْـدَ ذِمَّـةٍ
وأقْـرَبَ مِنْـهُ نَـائِـلاً لاَ يُنَكَّـدُ
وأَبْـذَلَ مِـنْـهُ لِـلطَّرِيْـفِ وتَـالِـدٍ
إِذَا ظَنَّ مِعْـطَاءٌ بِمَـا كَـانَ يُتْلَدُ
وَأَكْرَمَ حَيّاً فِي البُيُـوْتِ إِذَا انْتَمَى
وأكْـرَمَ جَـداً أبـطَحِيّـاً يُسَـوَّدُ
وأَمْنَـعَ ذِرْوَاتٍ وأثْبَتَ فِي الـعُلَى
دَعَـائِمَ عِـزٍّ شَـاهِقَـاتٍ تُـشَيَّـدُ
وأثْبَتَ فَـرْعـاً فِي الفُـرُوْعِ ومَنْبَتـاً
وعُـوْداً غَذَاهُ المُـزْنُ فَالعُـوْدُ أغْيَـدُ
رَبّـاهُ وَلِيْـداً فـاسْتَتَمَّ تَـمَـامُـهُ
عَلَى أكْـرَمِ الخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّـدُ

تَنَـاهَتْ وِصَـاتُ المُسْلِمِيْنَ بِكَفِّـهِ
فَلا العِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلاَ الرَّأْيُ يُفْنَدُ
أَقُـوْلُ وَلا يُلْفَى لِقَـوْلِيَ عَـائِبُ
مِنَ النَّاسِ إِلاَّ عَازِبُ العَقْلِ مُبْعَدُ
وَلَيْسَ هَـوَائِي نَـازِعاً عَنْ ثَنَـائِـهِ
لَعَلِّيْ بِـهِ في جَنَّـةِ الخُلْدِ أُخْلَدُ
مَعَ المُصْطَفَى أَرْجُـوْ بِذَاكَ جِـوَارَهُ
وفِي نَيْلِ ذَاكَ اليِوْمِ أَسْعَى وأُجْهَدُ

آخـر :

سَـأَنْـظِمُ مِنْ فَخْـرِ النَّبِيِّ مُحَمَّـدٍ ... لآلِيءَ لاَ يَبْلَى جَـدِيـدُ نِـظَامِهَـا
تَضَـوَّعَ طِيبـاً عَـرْفُهـا فَكَـأَنَّـه ... تَضَـوُّعُ أَزْهَـارٍ بـدَتْ مِنْ كِمـامِهَـا
سَجَـايـا أَبَتْ إلاّ السِّمَـاكَيْنِ مَنْـزِلاً ... فَفَـاقَ عَلَى العَليـاءِ عِلْقُ مَقـامِهَا
خِـلاَلٌ إِذَا لاحَتْ قِبَابُ لَـدَى عُـلاً ... تُنيفُ فَتعلُوهـا قِبـابُ خِيَـامِـهَـا
إِذَا يَمَّمُـوا يَـوْمـاً إِمَـامَ مَكَـارِمٍ ... فَـأَحْمَدُ قَـدْ أَضْحَى إمامَ إِمَامِهَا
فَكَم ذُو عُـلاً أَوْمَا لِـدَرْكِ مَقَـامِهَـا ... فَمَـرَّ وَلَم يُـدْرِكْ مَـرَامِي مـرامِهَـا
وَكَم ظَـامِيءٍ قَدْ رَامَ يُـرْوَى بَـرِيِّهَـا ... فَـآبَ وَقَـدْ أَضْحَى عَليـلَ أُوَامِهَـا
لِـذَاكَ العُـلاَ قَلبِي مَشُـوقٌ بِحُبِّهِمْ ... وَقَـدْ شُوِّقَتْ نَفْسِي بِطُولِ مُقامِهـا
فَـلِلّهِ عَـيْـنٌ لاَ تَـمَـلُّ بُكَـاءَهَـا ... وَقَـدْ حُـرِمَتْ فِيـهِ لَـذِيـذَ مَنَـامِهَـا
وَنَفْسٌ عَلَى بُعْـدِ الـدِّيَـارِ قَـرِيحَـةٌ ... تُـطَارِحُ فِي البَلْوَى حَمَامَ حِمـامِهـا
وَعمـرٌ مَضَتْ أَيـامُ شَـرْخِ شَبَـابِـهِ ... وَقد قَدَّ صَرْفُ الدَّهْرِ غُصْنَ قَوامِهَـا
فَيَا نَسْمَةَ الأسحـارِ مِنْ نَحْوِ يَثْـرِبٍ ... أَلِمِّي بِنَفْسٍ قَـدْ ذَوَتْ بِضِـرامِهَـا
وَيَـا حَـادِيَ الأَظْعَـانِ نَحْـوَ قِبَـابِهِمْ ... أَلاَ فَاخْصُصِ العَلْيَا بِطِيبِ سَلاَمِهَا

اللّهُمَّ توَفّنَا مُسْلِمِين وألْحِقْنا بِعِبادِكَ الصَّالِحِيْنَ الّذِينَ لاَ خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنا وجَمِيع المُسْلِمِيْن بِرَحْمتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْن .

« موعظـــة »

عِبَادَ اللّهِ نحْنُ فِي زَمَنٍ بَلَغَ فِيْهِ الفَسَادُ مَبْلَغاً مَا كَانَ يَدُوْرُ فِي خَلدِ إنسانٍ وَهَانَ عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ النّاسِ اليَوْمَ أنْ يَتَقَدَّمُوا إلى المَعَاصِيْ مُطْمَئِنِّيْنَ وَخَفَّ عَلَيْهِم جِداً أنْ يَرْتَكِبُوا مَا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ غَيْرَ هَيَّابِيْنَ وَسَهُلَ كُلَّ السُّهُوْلَةِ عَلَيْهِمْ أنْ يَقْتَحِمُوا حَتَّى مُوْبَقاتِ الأَوْزَارِ غَيْرَ خَائِفِيْنَ مِنَ اللهِ تَعَالى وَلاَ مُبَالِيْنَ بِنواهِيه .

وَلَعَلَّ زَمَنَنا هَذَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ مَا فِي حَدِيْثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يأتِي على النّاسِ زَمَانٌ القَابِضُ عَلَى دِيْنِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ وَمَا فِي حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنّهُ قالَ « بَدَا الإِسْلاَمُ غَرِيْباً وَسَيَعُودُ غَرِيْباً كَمَا بَدَا فطُوبى لِلْغُرَبَاءِ أخرَجهُ مسلم .

وأخْرجَهُ الإمَامُ أحمَدُ وابْنُ ماجَةَ مِنْ حَدِيْثِ بنِ مَسْعُودٍ بزيادةٍ فِي آخِرِهِ وهي ـ قِيْلَ يا رَسُولَ اللّهِ ومِنَ الغُرَبَاءُ قَالَ « النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ » وأخرجه أبو بكر الآجُرِيُّ وعِنْدَهُ ـ قِيْلَ ومَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللّهِ ، قال « الذين يَصْلَحُوْنَ إذا فَسَدَ النّاسُ » .

وخَرَّجَهُ غَيْرُهُ وعِنْدَهُ قال « الّذِينَ يَفِرُّوْنَ بِدِيْنِهِمْ مِنَ الفِتَنِ » وخَرَّجَهُ التِّرْمِذيُّ مِنْ حَدِيثِ كَثِيْر بْنِ عَبْدِ اللّه المُزَنِيِّ عَنْ أبِيهِ عنْ جَدِّهِ عَنْ النّبِيِّ ﷺ « إنَّ الدِّيْنَ بَدَا غَرِيْباً وَسَيَرْجِعُ غَرِيْباً فطُوبى لِلْغُرَبَاءِ الّذِيْنَ يُصْلِحُوْنَ مَا أفْسَدَ

النَّاسُ مِنْ سُنَّتِيْ » وفِي حَدِيْثِهِ قِيْلَ وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللّهِ قالَ « الّذِيْنَ يَصْلَحُوْنَ حِيْنَ فَسَادِ النَّاسِ » .

أمَّا الحَدِيْثُ الأَوَّلُ فَهُوَ وَاضِحٌ وَمُنْطَبِقٌ كُلَّ الانْطِبَاقِ عَلَى هَذَا الزَّمَانِ فِيْمَا أَرَى وَاللّهُ أَعْلَمُ وَذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى الشَّرَّ والفَسَادَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مُنْتَشِراً والخَيْرَ نَادِرُ الوُجُودِ فالفِتَنُ فِي البُيُوْتِ والأَسْوَاقِ والدَّكَاكِيْن والسَّيَارَاتِ والقِطَارَاتِ والطَّائِرَاتِ فِتَنُ شَهَواتٍ نِسَاءٌ سَافِرَاتٌ وفِتَنُ شُكُوكٍ وإلحَادٍ وشُبُهَاتٍ مِن أُناسٍ مُنْحَرِفِيْنَ وكُتُبُ ضَلالٍ ومَجَلاَّتٌ تَحْمِلُ فِي طَيِّهَا البَلاَيَا والشُّرُوْر وفِدْيُواتٌ تُعَلِّمُ الفَسادَ أبْلَغَ تَعْلِيْم وتُهَيِّجُ عَلَيْهِ ، حَدَثَ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُها بَعْضاً وحَوَادِثُ الأُخْرَى أعْظَمُ مِن الأُوْلَى ومن أعظَم ما حَدَثَ كَثْرَةُ الخَدَّامِينِ والخدامات والسواقينَ والطباخينَ والمربينَ فإن ضررهم عَظِيمٌ على الدينِ والأخلاقِ والدنيا . فأنتبه يا مَن زُينَ له سُوءُ عَمَلهِ وأَتَى بكفار أعداء الله ورسوله والمؤمنين وأمنهم على محارمه خدامين أو سوَاقين أو مربين أو نحو ذلك عياذا بالله من ذلك .

شعرا : إذا اكثُر الأَجانِبُ في بلاد تَـلاشَـى الأمـنُ وانتشـر الفَسَـادُ

آخـر :

وَقَدْ كُنْتُ أَشْكُو مِنْ حَوَادِثَ بُرْهَةً
واسْتَمْرِسُ الأَيَّـامَ وهْيَ صَحَـائِـحُ

إلَى أَنْ تَغَشَّتْنِيْ وُقِيْتَ حَـوَادِثٌ
تُحَقِّـقُ أَنَّ السَّـالِفَـاتِ مَنَـائِـحُ

آخر : ظُلَمٌ تَهافَتْ آخِذَاتٌ بَعْضُهَا
بِـالبَعْضِ تَسْتَلِبُ الفُؤَادَ الأَلْمَعَـا

لاَ يَسْتَبِيْـنُ المَـرْءُ فِيْهَـا كَفَّـهُ
تَـذَرُ الحِجَى بِـالبَـاطِـلاَتِ مُـوَلَّعَـا

وجَهَـالَـةٌ جَهْـلاَ يَـرْتَـعُ أهْلُهَـا
في حِنْـدِسٍ مِنْهَا وَسَـاءَتْ مَرْتَعَـا

وفِتَنُ أمْوَالٍ انْفَتَحَتْ عَلى النّاسِ بكَثْرَةٍ وفِتَنُ أوْلاَدٍ وبَنَاتٍ وَزَوْجَاتٍ وزُمَلاءٍ وشُركَاءٍ وعُمَّالٍ مُنَافِقِيْنَ كَذّابِيْنَ لاَ يُصَلُّونَ وَلا يَصُوْمُوْنَ وكَثْرَةُ مُغْتَابِيْنَ ونَمَّامِيْنَ وخَدَّاعِيْنَ وَمَكَّارِيْنَ ومُجَاهِرَةٌ بِالمَعَاصِي وقِلّةُ أنْصَارٍ وأعْوَانٍ وكَثْرَةُ مُثَبِّطِيْنَ عَنِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوْفِ والنَّهْيِ عنْ المُنْكَرِ ونحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يطُولُ ذكْرُهُ. وقَلَّ أن تجد من هؤلاء من يحافظ على أركان الإسلام.

ولَكِنَّ المُتَمَسِّكَ بِدِيْنِهِ القَائِمَ بِدَفْعِ هَذِهِ المُعَارَضَاتِ والعَوائِقِ الَّتِي لاَ يَصْمُدُ لَها إلاّ أَهْلُ البَصَائِرِ واليَقِيْنِ وَأَهْلُ الإيْمانِ المَتِيْنِ الثَّابِتِيْنَ ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ مِنْ أفْضَلِ خَلْقِ اللّهِ وأعْلاَهُم دَرَجَةً عِنْدَ اللّهِ وأعْظَمِهِمْ عِنْدَهُ قَدْراً جَعَلَنَا اللّهُ وإيّاكُمْ مِنْهُم إنّهُ القَادِرُ على ذَلِكَ .

وهـذا زَمـانٌ مَـن لَـكَ بـالّـتِي   لِقَبْض على جَمرٍ فَتَنْجُو مِن البَلاَ

وأمَّا الحَدِيْثُ الثَّانِي فَالإسْلامُ فِي أوَّلِ أمْرِهِ غَرِيْبٌ قَلِيْلٌ لأَنَّ النّاسَ كانُوا قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ عَلى ضَلالَةٍ عَامَّةٍ فَلَمَّا بُعثَ مُحَمّداً ﷺ لم يَسْتَجِبْ لَهُ فِي أَوَّلِ الأمْرِ إلاّ الوَاحِدُ بعْدَ الواحِدِ مِنْ كُلِّ قَبِيْلَةٍ وكَانَ المُسْتَجِيْبُ لَهُ خَائِفاً مِنْ عَشِيْرَتِهِ يُؤْذَى غَايَةَ الأذَى ويُنَالُ مِنْهُ وَهُوَ صَابِرٌ عَلَى ذَلِكَ فِي اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَانَ المُسْلِمُوْنَ إذْ ذَاكَ مُسْتَضْعَفِينَ يُشَرَّدُوْنَ كُلَّ مُشَرَّدٍ ويَهْرَبُوْنَ بِدِيْنِهِمْ إلى البِلادِ النَّائِيَةِ كَمَا هَاجَرُوْا إلى الحَبَشَةِ مَرَّتَيْن ثُمَّ هَاجَرُوا إلى المدِينَةِ وَكَان مِنْهُمْ مَنْ يُعَذَّبُ فِي اللّهِ ويُقْتَلُ كعَمَّارٍ وأُمِّهِ وأبِيْهِ وبِلالٍ وغَيْرِهِمْ مِنَ الصّحابَةِ .

وَلَعَلَّهُ مَرَّ بِكَ أَثْنَاءَ الكِتَابِ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ فِي أَوَّلِ إسْلامِهِمْ مِنَ الأَذى فَقَدْ ذَكَرْنَا نَمَاذِجَ مِنْهم ، قَالَ بَعْضُهم أبياتاً لَا تَنْطَبِقُ إلا عَلَى الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْن :

قَـوْمٌ لَقَـدْ آمَنُـوْا بِـاللّهِ خَـالِقِهِمْ
وَهَـاجَـرُوْا وَاتَّقَـوا إِثْمـاً وَعُـدْوَانَـا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيْلِ اللّهِ بَلْ صَبَرُوْا
وَصَـابَرُوْا لِـذَوِيْ الإِشْـرَاكِ أَزْمَـانَـا
تَعَلُّمُ العِلْمِ بِـالإِصْبَاحِ هَمُّهُمُـوْا
ويَنْقَـضِيْ لَـيْلُهُـمْ ذِكْـراً وقُـرْآنَـا
وجَامِعُ الأَمْرِ إِنْ تَطْلُبْ لِوَصْفِهِمُوْا
نَهَـارُهُـمْ أُسُـدٌ واللَّيْـلُ رُهْبَـانَـا
فَكَانَ الدَّاخِلُونَ فِي الإِسْلامِ إِذْ ذَاكَ غُرَبَاء .

ثُمَّ ظَهَرَ الاسلامُ بَعدَ الهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ وعَزَّ وصَارَ أَهْلُهُ ظاهِرِينَ كُلَّ الظُّهُورِ ودَخَلَ الناسُ بَعدَ ذَلِكَ في دِيْنِ اللهِ أفواجاً وأَكمَلَ اللهُ لَهُم الدِّينَ وأَتَمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ .

وتُوفِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ والأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ وأَهْلُ الاسلامِ على غَايَةٍ مِن الاسْتِقَامَةِ في دِيْنِهِمْ وهُمْ مُتَعَاضِدُوْنَ مُتَنَاصِرُوْنَ .

وكانُوا على ذَلِكَ فِيْ زَمَنِ أَبِيْ بَكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ثُمَّ عَمِلَ الشَّيْطَانُ مَكَائِدَهُ على المُسْلِمِيْنَ وأَلْقَى بأسَهُمْ بَيْنَهُمْ وأفْشَى فِيهِم فِتَنَ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ .

ولم تَزَلْ هَاتَانِ الفِتْنَتَانِ تَتزَايَدَ ان شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى اسْتَحْكَمتْ مَكِيْدَةُ

الشيطانِ وأطاعَهُ أكْثَرُ الخَلْقِ فمِنْهُم مَن أطاعَهُ وَدَخلَ في فِتْنَةِ الشُبُهَاتِ ومِنْهُمْ مَن دَخَلَ في فِتْنَةِ الشَّهَوَاتِ ومِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ في الفِتْنَتَيْنِ .

وكُلُّ ذلكَ مِمَّا أَخْبَرَ النبيُّ ﷺ بِوُقُوْعِهِ فأمَّا فِتْنَةُ الشُبُهَاتِ .

فقد رُوِيَ عنِ النبي ﷺ مِن غيرِ وَجْهٍ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ على أَزْيَدَ مِن سَبْعِيْنَ فِرْقَةً وأَنَّ تِلْكَ الفِرَق في النّارِ إلاَّ وَاحِدةً وهِيَ مَن كَانَتْ على مَا هُوَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُه ﷺ .

وعن أبي بَرْزَةَ عن النبي ﷺ قَالَ إِنَّمَا أَخْشَى عليكُم الشَّهَواتِ الَّتِي في بُطُونِكُم وفُرُوْجِكُم ومُضِلاَّتِ الفِتَنِ وفي رِوَايَةٍ ومُضِلاتِ الهَوَى .

فَلَمَّا دَخَلَ أَكْثَرُ الناسِ في هَاتَيْنِ الفِتْنَتَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا أَصْبَحُوا مُتَقَاطِعِيْنَ مُتَبَاغِضِيْنَ بَعْدَ أَن كَانُوا إِخْوَاناً مُتَحَابِّيْنَ مُتَوَاصِلِيْنَ فإِنَّ فِتْنَةَ الشَّهَوَاتِ عَمَّتْ غَالِبَ الخَلْقِ فَفُتِنُوْا بِالدُنْيَا وزَهْرَتِهَا فَصَارَتْ غَايَةَ قَصْدِهِمْ لَهَا يَطْلُبُوْنَ وبِهَا يَرْضَوْنَ ولَهَا يَغْضَبُونَ ولَهَا يُوَالُونَ وعَلَيْهَا يُعَادُوْنَ فَقَطَعُوْا لِذلِكَ أَرْحَامَهُمْ وسَفَكُوْا دِمَاءَهُم وارْتَكَبُوا مَعَاصِيَ اللهِ بسَبَبِ ذَلِكَ .

وأَمَّا فِتْنَةُ الشُّبُهَاتِ والأَهْوَاءِ المَضُلَّةِ فَبِسَبَبِهَا تَفَرَّقَ أَهْلُ القِبْلَةِ وَصَارُوْا شِيَعاً وكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضَا وَأَصْبَحُوا أَعْدَاءً وفِرَقاً وأَحْزَاباً بَعْدَ أنْ كَانُوا إِخْوَاناً قُلُوبُهُمْ على قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ يَنْجُ مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ كُلِّهَا إلا الفِرْقَةُ الوَاحِدةُ النَّاجِيَةُ .

وهُمُ المَذْكُوْرُوْنَ في قَوْلِهِ ﷺ لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الحَقِ لاَ يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأتِيَ أَمْرُ اللهِ وهُمْ عَلى ذلك .

وهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ الغُرَبَاءُ المَذْكُوْرُوْن فِي هذِهِ الأَحَادِيث الذينَ يَصْلحُونَ إِذَا فَسَدَ الناسُ ويُصْلِحُونَ ما أفسَدَ الناسُ مِن السُنَّةِ وهُمُ الذينَ يَفِرُّوْنَ بِدِيْنِهِم مِن الفِتَنِ وهُمُ النُّزَّاعُ مِن القَبَائِلِ .

لأَنَّهُم قَلُّوا فَلاَ يُوْجَدُ في كُلِّ قَبِيْلَةٍ مِنهم إلا الوَاحِدُ وقَدْ لا يُوْجَدُ في بَعْضِ القَبَائِلِ مِنْهُم أَحَدَ كَمَا كانَ الدَّاخِلُونَ في الاسلامِ في أَوَّلِ الأمرِ كَذلِكَ .

وفِي مُسْنَدِ الامامِ أحمدَ عن عبادةَ بنِ الصامتِ أنه قال لِرَجُلٍ مِن أصْحَابِهِ يُوْشِكُ إنْ طَالَتْ بِكَ الحَيَاةُ أنْ تَرَى الرَّجُلَ قَدْ قَرَأَ القُرْآنَ على لِسَانِ محمدٍ ﷺ فأعادَهُ وَأَبْدَاهُ وأَحلَّ حَلاَلَهُ وحَرَّمَ حَرَامَهُ ونَزَلَ عِنْدَ مَنَازِلِهِ لا يَجُوْز فِيْكُم إلا كَمَا يَجُوزُ الحِمَارُ المَيْتُ .

ومِثْلُه قَوْلُ ابن مَسْعُودٍ يَأْتِي على الناسِ زَمَانٌ يكونُ المُؤمنُ فِيه أذَلَّ مِن الأُمَّةِ وَإِنَّمَا ذَلَّ المؤمنُ آخِرَ الزمانِ لِغُرْبَتِهِ بَيْنَ أهلِ الفَسَادِ مِن أهْلِ الشُبَهات والشهوات فكُلُّهم يكرهُهُ ويؤذيه لِمُخَالَفَةِ طَرِيْقَتِهِ لِطَريقتهم ومَقْصُوْدِهِ لِمَقْصُوْدِهِم ومُبَايَنَتِهِ لِما هُمْ عليهِ مِن الشَّرِ والفَسادِ والخُبْثِ وسائرِ الصِفَاتِ القَبِيْحَةِ التى أهونُها توريُد الكفار والملاهي والمنكرات لبلاد المسلمين .

وتَجِدُ أَكْثَرَ مَن يُؤْذِيْهِ سَقَطُهُمْ وسُفَلُهُم ولئَامُهُمْ لِقِلَّةِ أَعْوَانِهِ وأَنْصَارِهِ وكَثْرَةِ المُخَذِّلِيْنَ والمُرْجِفِيْنَ وأَعْوَانِ ابْلِيْسَ وجُنُودِهِ خَذَلَهُمُ اللَّهُ وَدَمَّرَهُمْ .

فكَمْ فَتَّرُوْا عَزْمَ آمِرٍ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ ناهِي عن مُنْكَرٍ بِقولهم ما أَنْتَ بِمُكَلَّفٍ بِهِم اُتْرُكهمْ عَلَيْك بِنفْسِكَ ونحوِ هذا الكلام والعِياذُ بالله .

شعرا :

وقَـدْ تَسْلِبُ الأَيَّامُ حَـالاتِ أَهْلِهَـا
وتَعْدُوْا على أُسْدِ الرِّجَالِ الثَّعَالِبُ

آخَرُ : إِذَا هَلَكَتْ أُسْدُ العَرِيْنَ ولَمْ يَكُنْ
لَهَا خَلَفٌ في الغِيْلِ سَادَ الثَّعَالِبُ

آخر : لَمَّا تَبَدَّلَتِ المَجَالِسُ أَوْجُهاً
غَيْـرَ الذين عهِـدْتُ مِن عُلَمَـائِهَـا

وَرَأَيْتُهَـا مَحفُـوفَـةً بِسِـوَى الأُولى
كَـانُـوا وُلاَةَ صُـدُوْرِهَـا وَفِنَـائِهَـا

أَنْشَـدْتُ بَيْتـاً سَـائِـراً مُتَقَـدِّمـاً
والعَيْنُ قَـدْ شَرِقَتْ بِجَـارِيَ مَائِهَـا

أَمَّـا الـخِيَـامُ فَـإِنَّهَـا كَخِيَـامِهِمْ
وَأَرَى رِجَـالَ الحَيِّ غَيْـرَ رِجَـالِهَـا

فَيَا لَهُ مِن زَمَانٍ يُوَاجِهُ فِيهِ المؤمِنُ الصَّابِرُ عَوَاصِفَ الفِتَنِ ورُبَّمَا تَمَنَّى المَوْتَ لِمَا يَرَى مِن المُنْكَراتِ الَّتِيْ لا يَسْتَطِيْعُ لَهَا تَغْيِيْراً واسْمَعْ إِلى مَا وَرَدَ

فَعَنْ مَعْمَر عَن يَحْيَ بْن أَبِي كَثِيْرٍ قال دَخَلْتُ عَلَى أَبِي مَسْلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرحمن وهو مَرِيْضٌ فقالَ إِنْ اسْتَطَعْتَ أن تَمُوْتَ فَمُتْ فَوَاللهِ لَيَأْتِي على الناسِ زَمَانٌ يكونُ الموتُ أَحَبَّ إلى أحدِهِم مِن الذَّهَبِ الأَحْمَرِ .

قُلْتُ وفي زَمَنِنَا هَذَا مَوْجُوْدٌ في كَثِيْرٍ مِن اَقْطَارِ الأَرْضِ مُسْلِمُوْنَ يُنَوَّعُ عَلَيهِم العَذَابُ عَشِيَّةً وضُحاهَا وبِوِدِّهِم لَوْ ماتُوا واسْتَرَاحُوا فالموتُ أَحَبُّ إِليهم مِن الذهبِ الأَحْمَرِ وقال طاوُوْسُ لا تُحْرِزُ دِيْنَ المرءِ إلا حُفْرَتُه .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ قال لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَكْثَرْتَ مِن الدُّعَاءِ بالموتِ حَتَّى خَشِيْتَ أنْ يَكونَ ذَلِكَ أَسْهَلَ لَكَ عندَ أوَانِ نُزُوْلِهِ فَلِمَاذا مَلَلْتَ أمَا تُعِيْنُ صَالِحاً أَوْ تُقَوِّمُ فاسِداً قال يا ابنَ عَبَّاسٍ إنِي قَائِلٌ لَكَ قَولاً وهُوَ إلَيكَ قالَ قُلْتُ لَنْ يَعْدُوْنِي قال كَيْفَ لا أُحِبُّ فِرَاقَهُم وفِيْهِم ناسٌ كلٌ فَاتِحٌ فَاهُ لِلَهْوَةٍ مِن الدُنْيَا إما بحَقٍّ لا يَنُوْءُ بِهِ أو بِبَاطِلٍ لا يَنَالُهُ ولَوْلاَ أنْ أُسْأَلَ عَنْهُم لَهَرَبْتُ مِنكُم فأصْبَحَ الأَرْضُ مِنِّي بَلاَقِعُ واللّهُ أعْلَم وصلّى اللّهُ على مُحَمّد

(فصــــل)

ومِن كَلاَمِ أَحْمَدَ بْنِ عَاصِمٍ الأنْطَاكِيْ وكانَ مِن كِبَارِ التَّابِعِيْنَ قال إني أدْرَكْتُ مِن الأزْمِنَةِ زَماناً عَادَ فِيه الاسلامُ غَرِيْباً كَمَا بَدَا إنْ تَرْغَبَ فيه إلى عَالَمٍ وَجَدْتَهُ مَفْتُوْناً بحُبِ الدُنْيَا يُحبُّ التَّعْظِيْمَ والرِّيَاسَةَ ، قُلْتُ وَمَا أكثرهُ في زَمَنِنَا فأمْعِنْ نظرَكَ ، قال وإنْ تَرْغَبَ فيه إلى عَابِدٍ وَجَدْتَهُ جَاهِلاً في عِبَادَتِهِ مَخْدُوْعاً صَرِيْعاً غَدْرَهَ إبْلِيْسَ قَدْ صَعَدَ بِهِ إلى أعْلاَ دَرَجَةِ العِبَادَةِ وهو جَاهِلٌ بأدْنَاهَا فَكَيْفَ لَهُ بأعْلاَهَا .

وسَائِرُ ذَلِكَ مِن الرَّعَاعِ هَمَجٌ عُوْجٌ ذِئَآبٌ مُخْتَلِسَةٌ وسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ وَثَعَالِبُ ضَوَارٍ هَذَا وَصْفُ عُيُوْنِ أَهْلِ زَمَانِكَ مِن حَمَلَةِ العِلْمِ والقُرْآنِ ودُعَاةِ الحِكْمَةِ خَرَّجَهُ أَبُوْ نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ فهذا وَصْفُ أَهْلِ زَمَانِهِ فَكَيْفَ بِمَا حَدَثَ بَعْدَهُ مِن العَظَائِمِ والدَّوَاهِي الَّتِي لَم تَخْطُرْ بِبَالِهِ ولم تَدُرْ في خَيَالِهِ من المنكرات .

وعن الحسنِ البَصْرِي أَنَّه قَالَ لَو أَنَّ رَجُلاً مِن الصَّدْرِ الأَوَّلِ بُعِثَ اليومَ مَا عَرَفَ مِنَ الاسْلامِ شيئاً إلا تِلكَ الصلاة . قُلْتُ وفي زمننا الصلاة

جسْمٌ بلا رُوْحٍ عندَ كَثِيْرٍ مِن البَقَايَا المُتَمَسِّكِينَ بها فلا حَوْلَ ولا قوةَ اَلا بَالله العلي إلعَظِيم وَهُو حَسْبُنا وَنِعمَ الوَكِيل .

ثُمَّ قَالَ والذي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَئِنْ عَاشَ على هَذِهِ المُنْكَراتِ فَرَأى صَاحِبَ بِدْعَةٍ يَدْعُو إلى بِدْعَتِهِ وصَاحِبَ دُنْيَا يَدْعُو إلى دُنْيَاهُ فَعَصَمَهُ الله تعالى وَجَعَلَ قَلْبَهُ يَحِنُ إلى ذِكْرِ السَلَفِ فَيَتْبَعُ آثارَهُم ويَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِمْ وَيَتْبَعُ سَبِيْلَهُمْ كَانَ لَهُ أجْرٌ عَظِيْمٌ .

وَقَالَ عَليُ بِنُ أبِي طَالِبٍ تَعَلَّمُوا العِلْمَ تُعْرَفُوا بِه واعْمَلُوْا به تَكُوْنُوا مِن هْلِهِ فإنه سَيَأتِي بَعْدُ زَمَانٌ يُنْكِرُ الحَقَّ فيه سَبْعَةُ أعْشَارِهِمْ .

وقال اِبْنُ مَسْعُوْدٍ يُوشِكُ مَنْ عَاشَ مِنْكُم أنْ يَرَى مُنْكَراً لا يَسْتَطِيْعُ لَهُ غَيْرَ أنْ يَعْلَمَ اللهُ مِن قَلْبِهِ أنه لَهُ كَارِهٌ . قُلْتُ وقَدْ وقَعَ شيءٌ كَثِيْرٌ في زَمِنِنَا وقَبْلَهُ مثل الصُوَرِ والتلفزيونِ والفيديوِ والمذياعِ ، والكُوْرة والسُّفُورِ وحلقِ اللحيةِ والدُّخَانِ .

لَقَدْ بَانَ لِلنَّاسِ الهُدَى غيرَ أنَّهُمْ غَدَوْ ابِجَلاِ يِبْبِ الهَوَىَ قد تَجْلبَبُوا

وقال أبُو الدَّرْدَاءِ لَوْ خَرَجَ إلَيْكُم رَسُوْلُ اللهِ ﷺ اليومَ مَا عَرَفَ شيئاً مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وأَصْحَابُهُ إلا الصلاةَ وعن ابنِ عَباسٍ قالَ قالَ رسولُ الله ﷺ مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أمَّتِي فَلَهُ أجْرُ مائَةِ شَهِيْدٍ رواه البيهقي ورواه الطبراني من حديث أبي هريرة إلا أنَّه قال فله أجر شهيد .

وروى الترمذيُ عن أبِي أُمَيَّةَ الشَعْبَانِي قَالَ أتَيْتُ أبَا ثَعْلَبَةَ الخُشَنِي فَقُلْتُ لَهُ مَا تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ قَالَ أيَّةُ آيَةٍ قُلْتُ قولَ اللهِ تعالى « يَا أيُّها الذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنْفُسَكُم لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ .

قال أَمَا واللهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيْراً سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فَقَالَ بَلِ ائْتَمِرُوْا بالمَعْرُوْفِ وتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحاً مُطَاعَاً وَهَوًى مُتَّبَعاً ودُنْياً مُؤْثَرَةً وإِعْجَابَ كُلِّ ذِيْ رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ العَوَّامَ .

فانَّ مِن وَرَائِكُم أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيْهِنَّ عَلَى دِيْنِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيْهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِيْنَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُم قال الترمذيُ عن ابنِ مُبَارَكٍ وزَادَ غَيْرُ عُتْبَةَ أَيْ الرَّاوِي وهُوَ ابنُ حَكِيْمٍ خَمْسِيْنَ رَجُلاً مِنْكُمْ ورَوَى الطَّبَرَانِيُ مِن حَدِيْثِ عُتْبَةَ بِن غَزْوَانَ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن وَرَائِكُمْ أَيَّامُ الصَّبْرِ المُتَمَسِّكُ فِيْهَا يَوْمَئِذٍ بِمثل ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كأَجْرِ خَمْسِيْنَ مِنْكُمْ .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

هَــذَا ولِـلْمُتَـمَسِّكِيْـنَ بِسُنَّـةِ الْـ
مُخْتَـارِ عِنْـدَ فَسَـادِ ذِيْ الأَزْمَـانِ
أَجْـرٌ عَـظِيْمٌ لَيْسَ يَقْـدُرُ قَـدْرَهُ
إلا الـذِي أَعْـطَاهُ لِـلإِنْـسَـانِ
فَـرَوَى أَبُـو دَاوُدَ في سُنَنٍ لَـهُ
وَرَوَاهُ أَيْـضـاً أَحْمَـدُ الشَّيْبَـانِي
أَثَـراً تَضَمَّنَ أَجْـرَ خَمْسِيْنَ امْـرأً
مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ خِيْرَةِ الـرَّحْمٰنِ
إِسْنَـادُهُ حَسَـنٌ ومِصْـدَاقٌ لَـهُ
في مُسْلِمٍ فـافْهَمْـهُ بـالاحْسَـانِ
أَنَّ العِبَـادَةَ وَقْتَ هَـرْجٍ هِجْـرَةٌ
حَـقـاً إِلَـيَّ وَذَاكَ ذُوْ بُـرْهَـانِ

هَذَا فَكَمْ مِن هِجْرَةٍ لَكَ أَيُّهَا السّـ
سُنِّيُ بِـالـتَّـحْـقِـيْـقِ لَا بِـأَمَـانِ
هَــذَا وَكَمْ مِن هِجْـرَةٍ لَهُمُ بِمَـا
قَــالَ الــرســولُ وجَــاءَ فِي القُرآن
وَلَقَدْ أَتَى مِصْدَاقُه فِي التِرْمِذِيّ
ي لِـمَــنْ لَــهُ أُذُنَــانِ وَاعِــيَــتَـانِ
في أَجْـرِ مُحْيِيْ سُنَّةً مَـاتَتْ فَـذَا
كَ مَعَ الـرسُولِ رَفِيْقُـهُ بِجِنَــانِ
هَــذَا ومِصْــدَاقٌ لَــهُ أيضــاً أَتَى
في التِــرْمِــذِيْ لِمَنْ لَــهُ عَيْنَــانِ
تَــشْــبِــيْــهُ أُمَّـتِـهِ بِـغَـيْـثٍ أوّلٍ
مِــنْــهُ وآخِــرُهُ فَـمُـشْـتَـبِـهَــانِ
فَلِذَاكَ لَا يُدْرَى الذِي هُوَ مِنْهُمَا
قَـدْ خُصَّ بِـالتَّفْضِيْـلِ والـرُّجْحَانِ
ولَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ الْفَضْلَ فِي الطَّـ
ـطَرَفَيْـنِ أَعْـنِـيْ أَوَّلًا والـثَّــانِـي
والْـوَسْطُ ذُوْ ثَبَجٍ فـاعْـوَجَ هَكَـذَا
جَــاءَ الحَـدِيْثُ ولَيْسَ ذَا نُكْــرَانِ
ولَقَدْ أَتَى في الوَحْيِ مِصْدَاقٌ لَهُ
فِـي الثُـلَّتَيْـنِ وذَاكَ فـي الـقُـرْآنِ
أَهْــلُ اليَمِيْنِ فَثُلَّةٌ مَـعْ مِـثْلِهَــا
والسَّــابِقُـوْنَ أَقَــلُّ في الحُسْبَــانِ

مَــا ذَاكَ إلاَّ أنَّ تَـابِعَهُمْ هُمُ الْـ
غُـرَبَـاءُ لَيْسَتْ غُـرْبَـةَ الأَوْطَــانِ
لَــكِـنَّــهَــا واللهِ غُــرْبَــةُ قَـائِـمٍ
بــالـدِّيْنِ بَيْنَ عَسَــاكِـرِ الشَّيْـطَانِ
فَـلِذَاكَ شَبَّـهَهُـمْ بِـهِ مَتْبُـوعُـهُـمْ
فـي الغُــرْبَـتَيْـنِ وَذَاكَ ذُوْ تِبْـيَــانِ
لم يُشْبِهُـوْهُمْ في جَمِيْعِ أُمُـوْرِهِمْ
مِنْ كـلِ وَجْـهٍ لَيْسَ يَسْتَــوِيَــانِ
فـأنْظُر إلى تَفْسِيْـرِهِ الغُـرَبَـاءَ بِـالْـ
مُـحْـيِيْـنَ سُـنَّـتِـهِ بـكُــلِّ زَمَــانِ
طُوْبيَ لَهُمْ والشَّوْقُ يَحْـدُوْهُمْ إلَى
أَخْـذِ الحَــدِيْثِ وَمُحْكَمِ القُــرْآنِ
طُـوْبَي لَهُمْ لَمْ يَعْبَؤُا بِنُحَاتَـةِ الْ
أفْــكَــارِ أَوْ بِــزُبَــالَــةِ الأَذْهَــانِ
طُوْبَي لَهُمْ رَكِبُوا عَلَى مَتْنِ العَزَا
ئِمِ قَاصِدِيْــنَ لِمَـطْلعِ الإِيْـمَــانِ
طُــوْبَـي لَهُـمْ لَمْ يَعْبَؤُا شَيْئاً بِـدَالْـ
أَراءِ إذْ أغْـنَــاهُــمُ الــوَحْــيَــانِ
طُـرْبيَ لَهُمْ وإمامُهُمْ دُوْنَ الـوَرَى
مَنْ جَــاءَ بــالإيْمَــانِ والفُـرْقَــانِ
واللهِ مَــا ائْتَمُّــوْا بِشَخْصٍ دُوْنَـهُ
إلَّا إذَا مَــا دَلَّــهُــمْ بِــبَــيَــانِ

فِي البَــابِ آثــارٌ عَــظِيْمٌ شَــأْنُهَــا
أَعْيَتْ عَلَى العُلَمَــاءِ فِي الأَزْمَـانِ

إِذْ أَجْـمَـعَ العُـلَمَــاءُ أَنَّ صَـحَــابَــةَ الْـ
مُــخْـتَــارِ خَــيْــرُ طَــوَائِــفِ الإِنْــسَــانِ

ذَا بالضَّرُوْرَةِ لَيْسَ فِيْهُ الخُلْفُ بَيْـ
نَ اثْنَيْنِ مَــا حُكِيَتْ بِـهِ قَــوْلاَنِ

فَلِذَاكَ ذِي الآثـارِ أَعْضَـلَ أَمْـرُهَـا
وبَغَــوْا لَهَـا التَّفْسِيْــرَ بـالإِحْسَــانِ

فـاسْمَـعْ إِذاً تَـأْوِيْلَهَـا وافْهَمْــهُ لاَ
تَعْجَــلْ بِــرَدٍّ مِـنْـكَ أَوْ نُكْــرَانِ

إِنَّ البِـدَارَ بِرَدِّ شَيْءٍ لَمْ تُحِطْ
عِلْمـاً بِـهِ سَبَبٌ إِلى الحِـرْمَـانِ

والـفَضْــلُ مِـنْــهُ مُــطْلَقٌ ومُقَيَّــدُ
وهُمَــا لِأَهْـلِ الفَضْــلِ مَـرْتَبَتَــانِ

والفَضْلُ ذُوْ التَّقْيِيدِ لَيْسَ بِمُـوْجِبٍ
فَضْـلاً عَلَى الإِطْـلاقِ مِن إِنْسَـانِ

لا يُـوْجِبُ التَقْيِيْـدُ أَنْ يَقْضِيْ لَـهُ
بـالاسْتِــوَاءِ فَكَيْفَ بـالــرُّجْحَـانِ

إِذْ كَانَ ذُوْ الاطلاقِ حَازَ مِن الفَضَا
ئِـلِ فَوْقَ ذِي التَّقْيِيْـدِ بـالإِحْسَـانِ

فـإِذَا فَـرَضْنَـا وَاحِـداً قَـدْ حَـازَنَـوْ
عاً لَمْ يَحُــزْهُ فَــاضِــلُ الإِنْسَــانِ

لم يُوْجِبِ التَّخْصِيْصُ مِن فَضْلٍ عَلَيْـ
ـهِ وَلا مُـسَـاوَاةٍ ولا نُـقْـصَـانِ

مَـا خَلْقُ آدَمَ بـاليَـدَيْنِ بِمُـوْجِبٍ
فَضْـلاً على المَبْعُـوْثِ بـالقُـرْآنِ

وكَذَا خَصَائِصُ مَن أَتَى مِن بَعْدِهِ
مِنْ كُـلِ رُسْـلِ اللهِ بـالبُـرْهَـانِ

فَمُحَـمَّـدٌ أَعْـلاهُمُ فَـوْقـاً وَمَـا
حَكَمْتَ لَهُمْ بمَـزِيَّـةِ الـرُّجْحَـانِ

فالحَائِزُ الخَمْسِيْنَ أَجْراً لَمْ يَحُزْ
هَا فِي جَمِيْعِ شَـرَائِعِ الإِيْمَـانِ

هَلْ حَازَهَا فِيْ بَدْرٍ أَوْ أُحُدٍ أَوِ الْـ
فَتْـحِ الْمُبِيْنِ وبَيْعَـةِ الـرِّضْـوَانِ

بَلْ حَازَهَا إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ الْمُعِيْـ
نَ وهُمْ فَقَـدْ كَانُـوا أُولِي أَعْـوَانِ

والرَّبُ لَيْسَ يُضِيْعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ
مُـتَـحَـمِّـلُونَ لأَجْـلِهِ مِـن شَـانِ

فَتَحَمُّـلِ العَبْدِ الـوحيدِ رِضَـاهُ مَعْ
فَـيْضِ الـعَـدُوِّ وَقِـلَّةِ الأَعْـوَانِ

مِمَّـا يَـدُلُّ على يَـقِيْـنٍ صَـادِقٍ
وَمَـحَـبَّـةٍ وَحَـقِيْـقَـةِ الـعِـرْفَـانِ

يَـكْفِيْـهِ ذُلّاً وَاغْتِـرَابـاً قِـلَّةُ الْـ
أَنْصَـارِ بَيْنَ عَسَـاكِـرِ الـشَّـيْـطَانِ

فِي كُـلِّ يَـوْمٍ فِـرْقَـةٌ تَغْـزُوْهُ إِنْ
تَـرْجِعْ يُـوَافِيْـهِ الفَـرِيْقُ الثَّـانِي

فَسَلِ الغَرِيْبَ المُسْتَضَامَ عَنِ الذِيْ
يَلْقَـاهُ بَيْنَ عِـدًى بِـلاَ حُسْبَـانِ

هَذَا وَقَدْ بَعُدَ المَدَى وتَـطَاوَلَ الْـ
عَهْدُ الذِيْ هُـوَ مُوْجِبُ الإِحْسَـانِ

ولِذَاكَ كَانَ كَقَـابِضٍ جَمْراً فَسَـلْ
أَحْشَـاءَهُ عَنْ حَـرِّ ذِيْ الـنِيْـرَانِ

واللهُ أَعْـلَمُ بـالـذِيْ فِـي قَـلْبِـهِ
يَـكْفِيْـهِ عِلْمُ الـوَاحِـدِ الـمَنَّـانِ

فِي القَلْبِ أَمْرٌ لَيْسَ يَقْدُرُ قَـدْرَهُ
إِلا الـذِيْ آتَـاهُ لِـلْإِنْـسَـانِ

بِـرٌّ وتَـوْحِيْـدٌ وصَبْرٌ مَـعْ رِضَا
والـشُّـكْـرُ والتَّـحْـكِيْمُ لِـلْقُـرْآنِ

سُبْحَـانَ قَـاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَـا
دِ فَـذَاكَ مُوْلِ الفَضْـلِ والإِحْسَانِ

فالفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بصُوْرَةِ الْـ
أَعْمَـالِ بَـلْ بِحَقَـائِقِ الإِيْـمَـانِ

وَتَفَاضُلُ الأَعْمَـالِ يَتْبَعُ مَـا يَقُوْ
مُ بِقَلْبِ صَـاحِبِهَـا مِن البُـرْهَـانِ

حَتَّى يَكُـونَ العَـامِـلاَنِ كِـلاَهُمَـا
فـي رُتْبَـةٍ تَـبْـدُوْ لَـنَـا بِـعِيَـانِ

هَـذَا وَبَيْنَهُمَـا كَمَـا بَيْنَ السَّمَـا
والأَرْضِ فِي فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ
وَيَكُـونُ بَيْنَ ثَـوَابِ ذَا وَثَـوَابِ ذَا
رُتَبٌ مُضَـاعَفَـةٌ بِـلا حُسْبَـانِ
هَـذَا عَـطَاءُ الـرَّبِ جَـلَّ جَـلالُـهُ
وبِـذاكَ تُعْـرَفُ حِكْمَـةُ الـرَّحْمٰنِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ إنَّ لَكُمْ بِأَبْدَانِكُم عِنَايَةَ عَظِيْمَةٌ لا تُسَامِيْهَا العِنَايَاتُ بَلْ كُلَ حَيَاتِكُم ذَاهِبَةٌ فِيْمَا تَبْذِلُونَهُ لِخِدْمَةِ هَذَا البَدَنِ مِنْ مَجْهُودَاتٍ أليْسَ لَيْلُكُم وَنَهَارُكُم في كَدٍّ مُدِيْمٍ لِجَمْعِ الأَمْوَالِ وهَلْ كلُ تِلْكَ الأَمْوَالِ إلا وَسِيْلَةٌ تَصِلُونَ بِهَا مَا لِهَذَا البَدَنِ مِنْ مَلْذُوْذَاتٍ .

لا بَأْسَ بالاعْتِنَاءِ بالبَدَنِ لَكِنْ بدُوْنِ هَذَا الافْرَاطِ الَّذِيْ لاَ يَرْتَضِيْهِ العَاقِلُ اللَّبِيْبُ لِأَنَّ البَدَنَ مَهمَا أكْرِمَ مَآلُهُ إلَى التُرَابِ تَتَمَتَّعُ بِلَذِيْذِ لَحْمِهِ الدِيْدَانُ والذي يَنْبَغِي أَنْ تَهْتَمَّ بِهِ وتَصْرِفَ عِنَايَتَكَ بِهِ نَفْسَكَ قَبْلَ جِسْمِكَ الَّتِيْ أَنْتَ بِهَا مِن صَفْوَةِ هَذَا العَالَمِ وعَلَى العِنَايَةِ بِهَا تَتَوَقَّفُ سَعَادَتُكَ في هَذِهِ الحَيَاةِ وَبَعْدَ المَمَاتِ .

ولِهَذِهِ النَّفْسُ غِذَاءٌ وَلَعَلَّكَ تَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَهُ وهُوَ جَدِيْرٌ بالإِعْتِنَاءِ مِنْكَ والتَقْدِيْرِ والجِدّ لَهُ والتَّشْمِير لأَنَّ مَنْفَعَتَهُ دُنْياً وأُخْرَى ولا نِسْبَةَ بَيْنَهَا وبَيْنَ مَنْفَعَةِ هَذِهِ الأَبْدَانِ .

ذَلِكَ الغِذَاءُ أَوِ القُوْتُ هُوَ أَنْوَاعُ الطَّاعَاتِ كاخْلاَصِ الأَعْمَالِ لله

والذِكْرِ لَهُ والشُكْرِ لَهُ وَمَحَبَّتِهِ وتَعْظِيْمِهِ والقِيَامِ التَّامِ بأرْكَانِ الاسلامِ الشَّهَادَتَيْنِ وَالصلاةِ والزَّكَاةِ والصِيَامِ والحَجِ وسَائِرِ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وأنْوَاعِ العُلُومِ والمَعَارِفِ أوْحَاهَا اللهُ وأوْدَعَهَا هَذِهِ المَصْنُوعَاتِ .

والاعْتِنَاءِ بمكَارِمِ الأخلاقِ ومَحَاسِنِ الشِيَمِ وما إلى ذَلِكَ مِن أنْوَاعِ القُرُبَاتِ والذي يَظْهَرُ لَنَا مِن حَالِكَ وسِيْرَتِكَ أنَّكَ في شُغْلٍ شَاغِلٍ عن الإقْبَالِ عَلَى النَّفْسِ وَتَغْذِيَتِهَا بِمَا قُلْنَا مِن أنْوَاعِ الطَّاعَاتِ ذَلِكَ أنَّ قَلْبَكَ مُتَعَلِّقٌ بتَحْصِيْلِ غِذَاءِ الجِسْمِ والاعْتِنَاءِ بِهِ فَهُوَ الذِي نَصْبَ عَيْنَيْكَ .

ولِذَلِكَ تَشِبُّ وتَشِيْبُ وتَمُوْتُ وأنْتَ جَاهِلٌ بِضَرُوْرِيَاتِ الدِيْنِ الإسْلامِي ورُبَّمَا مَرَّ عَلَيْكَ مُدَّةٌ طَوِيْلَةٌ بِدُوْنِ أنْ تَتَفَكَّرَ بِنِعَمِ اللهِ وتذْكُرَهُ بِلِسَانِكَ وتَشْكُرَهُ عَلَى مَا أوْلاَكَ وكَذَلِكَ الآخِرَةَ رُبَّمَا أنَّهَا تَمْضِيْ المُدَّةُ لا تَذْكُرُهَا ولا تَسْتَعِدُّ لَهَا .

وكَمَا أنَّ لِلأَبْدَانِ أمْرَاضٌ كَثِيْرَةٌ فَلِنَّفْسِ أمْرَاضٌ أكْثَرُ وأعْظَمُ وأخْطَرُ وتِلْكَ الأمْرَاضُ هِيَ السَّيئآتِ التِيْ مَن وُقِيَهَا رُحِمَ قال اللهُ تعالى « ومَن تَقِ السَّيئآتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْم » .

وكذلكَ مِن أمْرَاضِ النَّفْسِ رَذَائِلُ الأخْلاَقِ والجَهْلُ بالشَّرْعِ الحَكِيمِ ولِهذه الأمْرَاضِ دَوَاءٌ نافعٌ بإذنِ اللهِ أنْ تَتُوْبَ تَوْبَةً نَصُوْحاً إلى اللهِ وتَتَخَلَّقَ بِضِدِّ الفِعْلِ أوِ الخُلُقِ الذَّمِيْمِ فهَلْ لَكَ شَوْقٌ إلى هَذَا الدَّوَاءِ الشَّافِي بإذْنِ اللهِ كَمَا أنَّكَ تَشْتَاقُ بَلْ تُهَرْوِلُ وتُسْرِعُ إلى طَبِيْبِ الأبْدَانِ وَمَعَكَ مَا مَعَكَ مِن المَالِ إذَا أحْسَسْتَ بِمَرَضٍ في بَدَنِكَ وانْ لَمْ تَجِدْ في بِلاَدِكَ ذَهَبْتَ تَطْلُبُ الشِّفَاءَ ولَو فِي بلادِ الحُرِّيَةِ والكُفْرِ مُحَكِّمَة القَوانِيْن أعداءَ اللهِ ورَسُوْلِهِ والمؤمِنِيْن .

أَمَّا بَدِيْعُ السَّمواتِ والأَرْضِ فلا أَرَاكَ تَلْتَجِي لَهُ إلا عِنْدَ الشَّدَائِدِ وهذا وَاللهِ قَبِيْحٌ مِمَّنْ يَدِيْنُ بِدِيْنِ الاسلام ويُؤْمِنُ بالبَعْثِ والنُشُوْرِ ، فالتَفِتْ يَا أخِيْ لِنَفْسِكَ وَذَكِّرْهَا بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ لِتَتَمَكَّنَ مَحَبَّتُهُ مِنها واقْبِل عَلَيْهَا وَعَوِّدْهَا على الآدابِ الشَّرْعِيَّةِ .

شعراً :

يا خادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ
أتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيْهِ خُسْرَانُ
أَقْبِلْ عَلى النَّفْسِ واسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا
فأَنْتَ بالنَّفْسِ لا بالجِسْمِ إِنْسَانُ
آخر : أَرَى وُجُوْدَكَ هَذَا لَمْ يَكُنْ عَبَثاً
إلا لِتَكْمُلَ مِنْكَ النَّفْسُ فانْتَبِهِ
فاعْدِلْ عَنِ الجِسْمِ لا تُقْبِلْ عَلَيْهِ وَمِلْ
إلى رِعَايَةِ مَا الإنسانُ أَنْتَ بِهِ
فَمُؤْيِسُ النَّفْسِ عن أَهْوَائِهَا يَقِظٌ
ومُطْوِعُ النَّفْسِ فِيْهِ غَيْرِ مُنْتَبِهِ
واسْلُكْ سَبِيْلَ الهُدَى تحْمِدْ مَغَبَّتَهُ
فَمَنْهَجُ الحَقِّ بَادٍ غَيْرُ مُشْتَبِهِ

إذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فاعْلَمْ أَنَّ غِذَاءَ نَفْسِكَ وَدَوَائَهَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ العَامِلِيْنَ بِهِ الذِيْنَ يُصَدِّقُوْنَ أَقْوَالَهُم بأَفْعَالِهِمْ المُعَظِّمُوْنَ لِلشَّرِيْعَةِ الذِيْنَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ذَكَرْتَ اللهَ الذِيْنَ لا يَتَشَبَّهُوْنَ بِأَعْدَاءِ اللهِ ولا يُجَاهِرُوْنَ بالمَعَاصِي الصَّادِعُونَ بالحَقِّ الذِيْنَ لَا تَأْخُذُهُمْ في اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ الذِيْنَ لَا تَهُمَّهُمْ الدُنْيَا وَزَخَارِفُهَا البَرَّاقَةُ .

وكَذَلِكَ مَوْجُوْدٌ الدَّوَاءُ الذيْ ذَكَرَنَا في كُتُبِ العُلَمَاءِ السَّلَفِيِّيْنَ أتْبَاعِ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ كَالأئِمَةِ الأَرْبَعَةِ والمُوَفَّقِ وابْنِ أَبِي عُمَرَ وشَيْخِ الاسلامِ وابنِ القيمِ وابنِ رَجَبَ وابْنِ مُفْلِحِ وابْنِ كُثَيْرٍ ومَنْ تَلْمَذَ عَلَى كُتْبِهِمْ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ واقْتَفَى أَثَرَهُمْ وسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ فَجَزَاهُمُ اللهُ عن الإِسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ خَيْرَاً

شعـــراً :

عِلْمُ الحَديثِ أَجَلّ السُؤْلِ والْوَطَرِ ... فاقْطَعْ به العَيشَ تَعرِفْ لَذَّةَ العُمُرِ
وانقلْ رِحَالَكَ عن مَغْنَاكَ مُرتَحِلاً ... لِكَـي تَفُوزَ بنقِـلِ العِلـمِ والأثـرِ
ولا تَقُلْ : عَاقَنِي شُغْلٌ ، فليَس يُرى ... في التَّرْكِ لِلعِلمِ مِنْ عُذَرٍ لِمُعْتَذِرِ
وأيُ شُغْلٍ كَمِثْلِ العِلـمِ تَطْلُبُه ... وَنَقْلِ ما قد رَوَوْا عن سَيِّدِ البَشَرِ ؟
أَلْهَىْ عن العِلـمِ أقواماً تَطَلُّبُهُمْ ... لَذَّاتِ دُنيـاً غَدَوا منها على غَرَرِ
وخَلّفُـوا مالَــه حَظٌ ومَكْرُمَةٌ ... إلى الَّتي هِيَ دَأْبُ الهُونِ والخَطَرِ
وأيُّ فَخْـرٍ بِدُنْيَـاهُ لِمَـنْ هَدَمَتْ ... مَعَائِبُ الجهلِ منه كُلَّ مُفْتَخَرٍ ؟
لا تَفخَـرَنَّ بِدَنيـاً لا بَقَـاءَ لَهـا ... وبالعَفـافِ وكَسْبِ العِلـمِ فَافتَخِرِ
يَفْنَى الرِجالُ وَيَبقى عِلْمُهُـمْ لَهُـمُ ... ذِكْـراً يُجـدَّدُ في الآصالِ والبُكُـرِ
ويَـذهبُ الموتُ بالدنيـا وصاحِبِهـا ... وليس يَبقَى له في الناسِ مِن أثَرِ
تَظُـنُّ أنكَ بالدنيـا أخُـوُ كِبَـــرٍ ... وأنتَ بالجهلِ قد أصبَحْتَ ذا صِغَرِ
لَيسَ الكَبيرُ عَظِيمُ القَدْرِ غَيرَ فَتَى ... ما زَالَ بالعِلم مَشْغُولاً مَدَى العُمُر
قَد زَاحَمَتْ رُكْبَتاهُ كُلَّ ذِي شَرَفِ ... في العِلمِ والحِلْمِ لا في الفَخْرِ والبَطَرِ
فجـالِسِ العلمـاءَ المُقْتَـدَى بِهِـمُ ... تَسْتَجْلِبِ النفعَ أو تَأمَنْ مِنَ الضَّرَرِ
هُمْ سَادَةُ الناسِ حَقّا والجُلُوسُ لَهُم ... زِيـادةٌ هكـذا قد جَاءَ في الخَبـرِ
والْمَرْءُ يُحسَبُ مِن قَومٍ يُصَاحِبُهُم ... فارْكَنْ إلى كُلّ صافِي العِرضِ عن كَدَرِ
فَمَنْ يُجَالِسْ كَرِيْمـاً نَالَ مَكَرْمَـةً ... ولَمْ يَشِنْ عِرضَهُ شَيءٌ مِن الغِيـرَ

كَصَاحِبِ العِطْرِ إنْ لم تَستَفِدْ هِبَةً مِن عِطْرِهِ لم تَخِبْ مِنْ رِيحِهِ العَطِرِ
وَمَنْ يُجَالِسْ رَدِيءَ الطَّبْعِ يُرْدِ به ونالَه دَنَسٌ مِن عِرْضِهِ الكَدِرِ
كَصَاحِبِ الكِيرِ إنْ يَسْلَمْ مُجالِسُه مِن نَتْنِهِ لَمْ يُوَقَّ الحَرْقَ بالشَّرَرِ
وَكُلُّ مَن لَيسَ يَنْهاهُ الحَياءُ ولا تَقوى فَخَفْ كُلَّ قُبْحٍ منه وانتظِرِ
والناسُ أخلاقُهُم شتّى وأنفسُهم مِنهم بَصِيرٌ ومنهم مُخْطِيءُ النَّظَرِ
وأصْوبُ الناسِ رَأياً مَنْ تَصَرُّفُهُ فِيمَا بِهِ شَرَفُ الألبابِ والفِكَرِ
واركَنْ إلى كُلِّ مَنْ في وِدِّهِ شَرَفٌ مِن نابِهِ القَدْرِ بَينَ الناسِ مُشتَهِرِ
فالمَرْءُ يَشْرُفُ بالأخيارِ يَصْحَبُهُمْ وإنْ يَكُنْ قَبلُ شيئاً غيرَ مُعْتَبَرِ
إنَّ العَقيقَ لَيَسْمُو عندَ نَاظِرِهِ إذا بَدَا وهو مَنْظُومٌ مَعَ الدُّرَرِ
والمرءُ يَخْبُثُ بالأَشْرَارِ يأْلَفُهُمْ ولو غَدَا حَسَنَ الأخلاقِ والسِّيَرِ
فالماءُ صَفْوٌ طَهُورٌ في أَصَالتِهِ حتى يُجَاوِرَه شَيْءٌ مِن الكَدَرِ
فكُنْ بِصَحْبِ رسولِ الله مُقْتَدِياً فإنَّهُمْ لِلْهُدَى كالأَنْجُمِ الزُّهُرِ
وإنْ عَجَزْتَ عن الحَدِّ الذي سَلَكُوا فكُنْ عنَ الحُبِّ فِيهِم غيرَ مُقْتَصِرِ
والحَقْ بقَوْمٍ إذا لاحَتْ وُجُوهُهُمُ رَأيْتَهَا مِن سَنَا التوفيقِ كالقَمَرِ
أضْحَوْا مِن السّنّةِ العَلْيَاءِ في سَنَنٍ سَهْلٍ وقامُوا بَحِفْظِ الدِينِ والأَثَرِ
أَجَلُّ شَيْءٍ لَدَيْهِمْ : قال أَخْبَرَنَا عن الرسولِ بما قد صَحّ مِن خَبَرِ
هَذِي المَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِن لَبَنٍ ولا التَّمَتُّعَ باللذاتِ والأَشَرِ
لا شيءَ أَحْسَنَ مِن : قال لرَّسُولُ وما أَجَلُّ مِن سَنَدٍ عن كُلِّ مُشْتَهِرِ
ومَجْلِسٍ بَينَ أهلِ العِلمِ جَادَ بما حَلَا مِنَ الدرِ أَوْ حُلّي مِن الدُّرَرِ
يومٌ يَمُرُّ وَلَمْ أَرْوِ الحَدِيثَ بِهِ فَلَسْتُ أَحْسِبُ ذاكَ اليومَ مِن عُمُري
فإنّ في دَرْسِ أَخْبَارِ الرسولِ لَنَا تَمَتُّعاً في رِيَاضِ الجنةِ الخُضُرِ
تَعَلُّلاً إذْ عَدِمْنَا طِيبَ رُؤيَتِهِ مَنْ فَاتَهُ العَيْنُ هَدّا الشَوْقَ بالأَثَرِ
كَأنَّهُ بَينَ ظَهرَيْنا نُشَاهِدُهُ في مَجْلِسِ الدَّرْسِ بالآصالِ والبُكَرِ
زَيْنُ النُبوةِ عَيْنُ الرُّسْلِ خَاتِمُهُم بَعْثاً وأَوّلُهُم في سَابِقِ القَدَرِ

صلى عليه إلهُ العرشِ ثُمَّ عَلَى أشياعِهِ ما جَرَى طَلٌّ على زَهَرِ
مَعَ السلامِ دَوَاماً والرِضا أبَداً عن صَحبِهِ الأَكْرَمينَ الأَنْجُمِ الزُّهُرِ
وعن عُبَيْدِكَ نحن المُذْنِبِيْنَ فَجُدْ بالأَمْنِ مِن كُلِّ ما نَخْشاهُ مِن ضَرَرَ
وَتُبْ على الكُلِّ مِنا واعطِنا كَرَماً دُنْياً وأُخرىَ جَمْيعَ السُؤْلِ والوَطَرِ

اللهم ثَبّتْ مَحَبَّتَكَ في قلوبنا وقَوِّهَا ووفقنا لِشُكْرِكَ وذِكْرِكَ وارزقنا التأهُّبَ والاسْتِعدادَ لِلِقَائِكَ واجْعَلْ خِتَامَ صَحَائِفِنَا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال إبن رجب رحمه الله على حديث إبن عباس المتضمن لِوَصِيةِ النبي ﷺ فإنه تَضَمَّنَ وصايا عَظِيمةً وقَواعِدَ كُلِّيةً مِن أَهَمِّ أُمُورِ الدين وأجلِها حتى قال الأمام أبو الفرجِ إبنِ الجوزي في كتابة صَيْدِ الخاطرِ : تدبرتُ هذا الحديثَ فأدْهَشَني وكِدت أَطِيشُ ثم قال فوا أسفاً مِن الجهلِ بهذا الحديثِ وقِلةِ الفَهْمِ لمعْنَاه .

فقوله ﷺ : « إحفظ الله يَحفظكَ يعني إحفظ حُدودَ الله وحُقُوقَه وأوامَرهُ ونواهيَهُ ، وحِفْظُ ذلكَ هو الوقوفُ عندَ أوامِره بالامتثالِ وعندَ نَواهِيْهِ بالاجتناب وعند حدودِه فلا يَتجَاوَزَ ولا يَتَعدَّى ما أمِرَ به إلى ما نُهِي عنه » .

ودَخَلَ في ذلك فِعلُ الواجبَاتِ جميعاً وتركُ المحرماتِ كُلِّهَا كما في حديث ثَعْلَبَةَ المرفوع : « إن الله فَرض فَرائِضَ فلا تُضيعّوُها وحَرّمَ حُرُماتٍ فلا تَنْتَهِكُوها وحَدَّ حُدُوداً فلا تَعْتَدُوها » .

وذلك يدخَلُ في حِفظِ حدودِ الله كما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ .

وُفُسِّرَ الحفيظُ هَاهُنَا بالحافظِ لأوامَرِ الله وفُسِّرَ بالحافظ لذِنوبه حتى يرجعَ منها ، وكلاهما يدْخُلُ في الآية . ومَن حَفِظَ وَصِيَّةَ الله لِعبادِه وإمْتَثَلهَا فهو داخلٌ أيضاً ، والكُلُ يَرجع إلى مَعنىً واحد .

وقد ورد في بعض ألفاظِ حديث يوم المزيدِ في الجنة ، إن الله تعالى يقـول لأهـل الجنةِ إذا اسْتَدْعَاهُم لزيارتِهِ وكَشفَ لهم الحجابَ « مَرْحباً بعبادي الذين حَفِظُوا وصِيّتي وَرَعَوا عَهْدِي وخافوني بالغيب وكانوا مِني على كُلِّ حالٍ مُشفقين » .

فأَمْـرُهُ ﷺ لابن عبـاس أن يَحفظَ الله يَدخُلُ فيه هذا كُلُّهُ . ومِن أعظمِ ما يجبُ حِفظُه مِن المأموراتِ الصلوات الخمسُ قال الله تعالى : ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ .

وقال ﷺ : « مَن حَافَظَ عليها كان له عندَ الله عهداً أن يدخلهَ الجنةِ » .

وفي حديث آخر : « مَن حَافَظَ عليهن كُنَّ نُوراً وبُرهاناً ونجاةً يومَ القيامة » وكذلك الطهارةُ فإنها مفتاحُ الصلاة .

وقـال النبي ﷺ : « لا يُحافِظُ على الـوضـوءِ إلا مؤمنٌ فإن العبدَ تَنْتَفِضُ طَهـارَتهُ ولا يَعْلَمُ بذلك إلا الله » . فالمحافظةُ على الوضوءِ للصلاةِ دليلٌ على ثُبوتِ الإيمانِ في القَلب .

ومما أمرَ الله بحفظِهِ الأَيْمانُ لَمَّا ذَكرَ كَفارَةَ اليمينِ قال : ﴿ ذلك كفارةُ أيمانهم إذا حلفتم وإحفظِوا أيمانكم ﴾ فإن الأيمانَ كَثيراً ما تَقعُ مِن الناسِ ومُوجباتُها مُختلفةٌ .

فتارةً يجبُ بها كفارةُ يمين وتارة يجَبُ فيها كفارةُ مُغَلَّظَة وتارةً يَلزمُ بها

المحلوف عليه مِن طلاق ونَحوه . فَمَنْ حَفِظ أَيمانَه دَلَّ على دُخُولِ الإيمانِ في قلبهِ .

وكان السلفُ كَثيراً ما يُحافظون على الأَيمانِ فمنهم مَن كان لا يَحلفُ بالله البَتةً . ومنهم مَن كانَ يَتَورعُ حتى يُكَفِرّ فيما شكَّ فيه الحنث .

وَوَصَّى الإمامُ أحمدُ رحمه الله عندَ موتهِ أن يُخرجَ عنه كفارةَ يمين . وقال أظنُ أَني حَنِثتُ في يَمين حَلَفتُها . وقد روى عن أيوب عليه السلام أنه كان إذا مَرَّ باثنينِ يحلفانِ بالله ذهبَ فَكَفَّرَ عنهما يَمِيْنَيهِمَا لِئَلا يأثمانَ وهُما لا يشعْرُانِ .

ولهـذا لَمَّا حَلَفَ على ضربِ إمـرأته مِائة جَلْدَة أفتاهُ الله بالرخصةِ لِحفظَهِ لأَيمانهِ وأَيمانِ غيرهِ . وقد إختلفَ العلماءُ هل تتعدى الرُخْصَةُ إلى غيَرهِ أم لا ؟

وقال يزيدُ بنُ حبيب : بَلَغني أن مِن حَمَلَةِ العرشِ مَن يَسيلُ مِن عَينيهِ أمْثَالُ الأنهارِ من البكاءِ فإذا رَفعَ رأسهَ قال : سبحانكَ ما تُخْشَى حَقَّ خَشْيَتِـكَ فيقـول الله تعـالى : ﴿ لكن الذين يَحلِفُون بإسْمِي كاذِبينَ لا يَعْلَمُون ذلكَ ﴾ وقد وَرَدَ التشديدُ العظيمُ في الحِلفِ الكاذِبِ بالله .

ولا يَصـدرُ كثرةُ الحـلف بالله إلاَّ مِن الجهـلِ بالله تعالى وقلّةِ هَيْبَةِ في الصدورِ . ومِمَا يلزَمُ المؤمنَ حِفْظُهُ ، رَأْسُهُ وبَطْنُهُ كما في حديث إبن مسعود رضي الله عنه المرفوع : « الاستحياءُ مِن الله حقَّ الحياءِ أن يُحفظِ الرأسُ وما وَعَى ويُحُفَظَ البَطنُ وما حَوَى » خرجه الإمام أحمد والترمذي . وحِفظُ البطنِ وما حَوَى يَتَضَمَّنُ حِفظَ القلب عن الإصرار على مُحَرَّمٍ .

وقد جَمَعَ الله ذلك كُلّهُ في قوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ . ويدخل في حِفْظِ البطن وما حَوى حِفظهُ مِن إدْخَالِ الحرامِ إليه من المأكولاتِ والمشروباتِ .

اللَّهُمَّ طهِّـرْ قُلُوبَنا مِن النِفاق وعَمَلنا مِن الرياء وَأَلْسِنَتَنَا مِن الْكَذِبِ وَأَعْيُنَنَا مِن الخِيانَةِ وآذانَنَا عَن الاستماعِ إلى مَا لاَ يُرْضِيْكَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين وَأَلْحِقْنَـا بالصَّالِحِينْ واغفر لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الرَّاحِمِينْ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ .

(فَصْـــلٌ)

وقال رحمه الله ومما يَجبُ حِفْظهُ مِن المنهيَّاتِ حِفظُ اللسانِ والفرجِ .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : ﴿ من حَفِظَ ما بَين لَحْيَيهَ وما بينَ رِجْلَيهِ دَخَـل الجنةَ ﴾ خرجه الحاكم . وخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ولفظه : « مَن يَضْمَنُ لي ما بينَ لحْيَيهَ ورِجْلَيهِ . أضْمَنْ له الجنةَ » .

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مَن حَفِظَ ما بينَ فَقْمَيه وفَرْجِهِ دَخَلَ الجنةَ » . وقد أمرَ الله بِحفظِ الفَرجِ خاصةً ومَـدَحَ الحـافظينَ قال الله تعالى : ﴿ قل لِلْمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفـظوا فروجهم ﴾ وقـال : ﴿ والحافظينَ فروجهم والحافظات ﴾ وقال تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ .

وقد روى عن أبي إدريس الخولاني أن أولَّ ما وَصَّى الله بِهِ آدمَ عند إهَباطِهِ إلى الأرضِ بحفظِ فرجِهِ وأن لا يَضَعَهُ إلا في حَلال .

قوله : « يَحفَظْكَ » يعني أن مَن حَفِظَ حُدود الله وَرَاعَى حُقُوقَهُ حَفِظَه الله فإن الجزاءَ مِن جنسِ العمل كما قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ وقال ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ .

وقال : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ . وحِفْظُ الله تعالى لِعَبدِهِ يَتَضَمَّنُ نوعَين : أحدُهما حِفْظُه له في مَصَالحِ دُنياهُ كَحِفْظِهِ في بَدَنِهِ وَوَلَدِهِ وأهلِهِ ومالِهِ .

وفي حديث إبن عمر رضي الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ يَدعُ هؤلآء الدعواتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ : « اللهم إني أسألك العافيةَ في الدنيا والآخرةِ ، اللهم إني أسألك العفوَ والعافيةَ في دِيني ودنُياي وآخِرَتي وأهلْي ومَالي ، اللهم إستر عَوْرَاتِي وآمِنْ رَوْعَاتي وإحْفِظْني مِن بَيْنَ يَديَّ ومِن خَلْفِي وعن يَميني وعن شِمَالي ومِن فوقِي ، وأعوذ بعَظَمَتِكَ أن أغتالَ مِن تحتي » . خرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وإبن ماجه .

وهذا الدعاءُ مُنتَزَعٌ من قولِ الله تعالى : ﴿ له مُعَقبات مِن بَين يَديهِ ومِن خلفِهِ ﴾ الآية . قال إبن عباس رضي الله عنهما : هم الملائكة يحفظُونه بأمْرِ الله فإذا جاءَ القَدَرُ خَلَّوا عنه . وقال عَليٌ رضي الله عنه : إن مَعَ كُلِّ رَجُلٍ ملكين يَحفظانِهِ مما لم يُقَدَّرْ فإذا جاءَ القَدَرُ خَلّيا بَيّنَه وَبيْنَه وإن الأجلَ جُنَّةٌ حَصِيْنَةٌ .

وقال مُجاهِدُ : ما مِن عبدٍ إلا لهُ مَلَكُ يَحفَظُهُ في نومِهِ ويَقْظَتِهِ مِن الجن والإنسِ والهوامِ فما مِن شيء يأتيهِ إلا قال وَرَاءَكَ إلا شيئاً قد أذنَ الله فيه فَيُصِيْبُهُ . ومِن حِفْظِ الله للعبد أن يحفظَه في صِحَّةِ بَدَنِهِ وقوتِهِ وعَقْلِهِ ومَالِهِ .

قال بعضُ السلفِ : العالِمُ لا يحزنُ وقال بعضُهم مَن حَفِظَ القُرآنَ

مُتعَ بَعْقِلِهِ ، وتأوّلَ ذلكَ بعضُهم على قَوله : ﴿ ثم رَدَدْنَاهُ أسفَل سَافِلينَ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

وكانَ الطيبُ أبوُ الطبري قد جَاوَزَ المائة السنة وهو مُمَتَّعٌ بعَقْلِهِ وقوتِهِ فَوَثَبَ يَوماً مِن سَفِينةٍ كان فيها إلى الأرضِ وَثْبَةً شديدةً فعُوتِبَ على ذلك فقال : هَذِهِ جَوَارِحُ حفظناهَا في الصِغْرِ فَحَفِظَهَا الله علينا في الكبرِ .

وعكسُ عهـذا أنَّ الجنيدَ رأى شيخاً يسألُ الناسَ فقال : إن هذا ضَيَّعَ الله في صِغَرِهَ فَضَيَّعَهُ الله في كِبَرِهِ . وقد يَحْفَظُ الله العبدَ بصَلاحِهِ في وَلَدِهِ وَوَلَدِ وَلَدِهِ كما قِيل في قوله تعالى : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ إنهما حُفِظا بصِلاحِ أبيهما .

وقال محمد بن المنكدر إن الله لَيَحْفَظُ بالرجل الصالحِ وَلدهُ وَوَلَدَ وَلَـدِهِ وقَـرْيَتَـهُ التي هو فيها والدُوَيْراتِ التي حَوْلَهَا فما يَزَالُونَ في حِفْظِ الله وسِتْرِهِ . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْـــــلٌ)

وقال رحمه الله :

وَمَتى كَان العبدُ مُشْتَغِلاً بطاعةِ الله تعالى يَحْفَظُه في تِلكَ الحالِ كما في مسند الإمام أحمد عن حميد بن هلال عن رجل قال : أتيتُ النبي ﷺ فإذا هُوَ بربِي بَيْتِنَا فقـال : « إن إمـرأةً كانَتْ فيه فَخَرَجَتْ في سَرَّيَةٍ مِن المسلمينَ وتَرَكَتْ ثِنْتي عَشَرَةَ عَنْزاً وصَيْصِيَّتَهَا قال : فَفَقَدَتْ عَنْزاً وصَيْصِيَّتَهَا كَانَتْ تَنْسِجُ بها .

فقالت : يا رَبّ إنكَ قَدْ ضَمِنْتَ لِمَنْ خَرَجَ في سَبْيلكَ أن تَحْفَظَ عليه

وإني قد فَقَدْتُ عَنْزاً مِن غَنَمِي وصَيْصِيتي وإني أنْشُدكَ عَنْزي وصَيْصِيتي وإني أنشدك عَنْزي وصَيْصِيتي .

قال فجعلَ رسولُ الله ﷺ يَذكرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِها رَبَّها تَبارَكَ وتعالى . قال رسولُ الله ﷺ «فأصْبَحتْ عَنْزُهَا ومِثْلُهَا وصَيْصِيتها ومِثْلُهَا وهَاتِيْكَ فأتِها إن شِئْتَ » قال فقلت بل أصدقك .

وكــان بعضُ السلفِ بيَدَه المـيزان يَزنُ بِهِ دَرَاهِمَ فَسَمِـعَ الأذانَ فَنَهَضَ ونَفَضَهَا على الأرضِ وذهبَ إلى الصلاة فلما عَادَ جَمَعَهَا فلم يذهبْ منها شيءٌ .

ومِن أنواعِ حِفْظِ الله لِمَنْ حَفِظَهُ في دُنياه أن يَحْفَظَه مِن شَرِ كل مَن يُرِيْدُهُ بأذَى مِن الجنِ والإنسِ كما قال تعــالى ﴿ ومَن يَتقِ الله يَجْعَـلْ له مَخْرَجاً ﴾ قالت عائشةُ رضي الله عنها : يَكْفِيهِ غَمّ الدنيا وهَمَّهَا .

وقال الربيعُ بنُ خيثم يَجْعَلْ لَهُ مَخرجاً مِن كُلِ ما ضاقَ على الناسِ . وكَتَبَتْ عائشةُ رضي الله عنها إلى مُعاوية : إن إتقيتَ الله كَفَاكَ الناسَ . وإن اتَقَيْتَ الناسَ لم يُغْنُوا عنكَ مِن الله شيئاً .

وكَتَبَ بعضُ الخلفاءِ إلى عَمْرِو الغِفاري كتاباً يأمره فيه بأمرٍ يُخالِفُ كِتابَ الله ، فكَتَبَ إليه : إني نظرتَ في كتابَ الله فوجدتُه قَبلَ كِتابِ أميرِ المؤمنين وإن السمواتِ والأرضَ لو كانَتَا رَتْقاً على إمرءٍ فاتَّقَي الله عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ له مَخرجاً والسلام . وأنشد بعضُهم : بتقوى الإله نَجاَ مَن نَجاَ .

كَتَبَ بعضُ السلفِ إلى أخيه أما بَعدُ فإنه مَن إتَّقَى الله فَقد حَفِظَ نَفْسَهُ ومَن ضَيَّعَ تَقْواه فقد ضَيَّعَ نفسَهُ والله الغنيُ عنه .

ومِن عَجيْب حِفْظِ الله تعالى لِمَنْ حَفِظَهَ أن يَجْعَلَ الحيواناتِ المؤذِيَة بالطبع حَافِظَةً له مِن الأذى وساعيةً في مَصْالِحِه كما جَرَى لِسَفِيْنَةَ مَوَلَى النبي ﷺ حَيْثُ كُسِرَ بِهِ المركبُ وخَرَجَ إلى جَزيرةٍ فَرأى السَّبعُ فقال يا أَبَـا الحارث أنا سَفِيْنَةُ مولى النبي ﷺ فَجَعَلَ يَمْشِي حَوْلَه ويَدُلُّه على الطريقِ حتى أوقَفَهُ عَليها ثم جَعَلَ يُهَمْهِمُ كأنه يُوَدّعُه وإنصرفَ عنه .

وكان أبُو إبراهيم السايح قَدْ مَرِضَ في بَريةٍ بقُرب دَيْرٍ فقال لو كُنْتُ عندَ بابِ الدِّيْرِ لنَزَلَ الرُهْبانُ فَعَالجوني . فجَاء السَّبعُ فَاحْتَمَلَهُ على ظَهْرِهِ حتى وَضَعَهُ على بابِ الَدّيْرِ فَرآهُ الرُهْبانُ فأسْلَمُوا وكانوا أربَعَمائةٍ .

وكـان إبـراهيمُ بنُ أدْهَم نائماً في بُسْتَانٍ وعِنْدَهُ حَيَّةٌ في فَمِهَا طَاقَةُ نَرْجَسٍ فما زَالَتْ تَذبُ عنه الذُبابَ حتى إسْتَيقَظَ . فمن حَفِظَ الله حَفِظَهُ مِن الحيواناتِ المؤذيةِ بالطبعِ وجَعَلَ تلكَ الحيواناتِ حَافِظَةً له .

ومن ضَيَّعَ الله ضَيَّعَهُ الله بَينَ خَلْقِهِ حتى يَدخُلُ عليه الضررُ ممَّنَ كان يَرجُو أن يَنْفَعَهُ ويَصيْرُ أخَص أهْلِهِ بِهِ وأرفَقُهم به يُؤْذِيه .

كما قال بعضُهم : إني لأعْصِي الله فأعـرفُ ذلك في خُلُق خَادِمي وحِمَاري . يعني أن خَادِمَهُ يَسُوءُ خُلقُهُ عليه ولا يُطِيْعُهُ وحِمارُهُ يَسْتَعْصِي عليه فلا يُواتِيه لرُكُوبه . فالخيرُ كُلَّه مجموعٌ في طاعِة الله والإقبالِ عليه ، والشَّرُّ كلهُ مَجمُوعٌ في مَعْصِيةِ الله .

اللّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِح الأَعْمَالَ ، ونَجِّنَا من جميعِ الأَهْوَالِ ، وآمنّا مِنَ الفَـزَعِ الأَكْـبَرِ يومَ الـرَّجْفِ والـزلْـزَالْ ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنا ، وَلجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَم الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلى اللّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعين

(فَصْـــــلٌ)

النوع الثاني مِن الحفظِ وهو أشْرَفُهَا وأفْضَلُها ، حِفْظُ الله تعالى لِعَبْدِه في دِينِه فَيَحْفَظُ عَليه دْينَـهُ وإيْمَـانَهُ في حَيَاتِهِ عن الشُبُهاتِ المُـرْدِيَةِ والبِـدعِ المضلةِ والشهواتِ المُحَرَّمَةِ ويحفَظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإسلام .

قال الحكمُ بنُ أبان عندَ أبي مَكِي : إذا حَضَرَ الرَجُلَ الموتُ يقال لِلْمَلَكِ شُمَّ رَأْسَهُ قالَ أجدُ في رأسِهِ القرآنَ قال شُمَّ قَلْبَهُ قال أجد في قلبهِ الصِيامَ قال شُمَّ قَدَمَيْهِ قال أجَدُ في قَدَمَيْهِ القِيامَ قال حَفِظَ نِفْسَهُ فَحَفِظَهُ الله عز وجل . خرجه إبن أبي الدنيا .

وقد ثبتَ في الصحيحين مِن حديث البراءِ بن عازبٍ أن النبي ﷺ عَلَّمَهُ أن يقولَ عندَ مَنامِهِ : « اللهم إن قَبضْتَ نَفسِي فارْحَمْهَا وإن أرْسَلْتَها فاحْفَظْهَا بِما تَحْفَظُ به عبادَكَ الصالحين » .

وفي حديث عمر عن النبي ﷺ أنه عَلَّمَهُ أن يقولَ « اللهم إحْفَظْني بالإسلامِ قائماً وإحْفَظْني بالإسلامِ قاعِداً وإحْفَظْني بالإسلامِ رَاقِداً ولَا تطعْ فِيَّ عَدُواً ولا حَاسِداً » خرجه إبن حبان في صحيحه .

وكان النبي ﷺ إذا وَدَّعَ مَن يُريدُ السَّفَر يقولُ لَهُ : « إستودع الله دينَكَ وأمانتَكَ وخَواتِيمَ أعْمَالِكَ » . وفي رواية وكان يقول : « إن الله إذا إسْتُودِعَ شيئاً حَفِظَهُ » خرجه النسائي وغيره .

وخَـرَّجَ الطبرانُي حديثاً مرفوعاً : « إن العبدَ إذا صَلَّى الصلاةَ على وَجْهِهَـا صَعِـدَتْ إلى الله ولها بُرْهَانٌ كبرْهان الشمس وتقول لِصَاحبها : حَفِـظَكَ الله كما حَفِظْتَني ، وإذا ضَيَّعَهَا لُفَّتْ كما يُلفُ الثوبُ الخلق ثم

يُضْرَبُ بها وَجْهَ صَاحِبَهاَ وتقولُ : ضَيَّعَكَ الله كما ضَيَّعَتَنِي » .

وكان عُمرُ رضي الله عنه يقولُ في خُطْبَتِهِ : اللهم إعْصِمْنَا بحْفِظِكَ وثَبِتنَا على أمْرِكَ . ودَعَا رجلٌ لِبَعْضِ السلفِ أن يَحَفَظَهُ الله . فقال يأ أخي لا تَسأَلَن عنَ الحِفْظَ الدُنيوي قد يَشْتَرِكَ فيه البَرُ والفاجرُ ، فالله تعالى يَحْفَظُ على المؤمن دِينهُ وبينَ مَا يُفْسِدُه عليه بأسبابٍ قد لا يَشْعُرُ بها العبد .

وقد يكونُ ما يكرهُهُ وهذا كما حَفِظَ يُوسُفَ عليه السلام قال تعالى : ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُوءَ والفَحْشَاءَ ﴾ وعَصَمَهُ الله مِنها مَن حَيْثُ لا يشْعُرُ وحَالَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أسباب المعاصِي المُهْلِكة . كما رَآى مَعْرُوْفُ الكَرْخِيْ شَبَابَاً يَتَهاوَنُونَ في الخُروجِ إلى القِتالِ في فِتْنَةٍ فقال : اللهم إحْفَظْهُم فَقِيلَ له : تَدْعُو لهؤلآء ؟ فقال : إن حَفِظَهُم لم يخرجوا إلى القتال .

وسمع عُمَرُ رجلاً يقول : اللهم إنك تَحُولُ بَين المرءِ وقِلبهِ فحُل بيني وبينَ مَعَاصِيكَ فأعْجبَ عُمُرُ ودَعَا لَهُ بخير : ورَوَى إبنُ عباسِ رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ يَحُوُلُ بينَ المرءِ وقلبِهِ ﴾ قال : يحول بينَ المؤمنِ وبَيْنَ المعصيةِ التي تَجُرُهُ إلى النار .

حَجَّ بعضُ المتقدمين فباتَ بمكَّةَ مَعَ قَومٍ فَهَمَّ بمَعْصِيةٍ فَسَمِعَ هَاتفاً يَهْتِفُ يقولُ : ويلكَ أَلَمْ تَحُجَّ فَعَصَمَهُ الله مما هَمَّ به . وخَرجَ بعضُهم مَعَ رُفْقَةٍ إلى مَعْصيَةٍ فلما هَمَّ بمُواقعِتها هَتَفَ بهِ هَاتِفُ : كُلَّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ رَهِيْنةُ فَترَكَهَا .

ودَخَلَ رَجلٌ غَيْضَةً ذاتَ شَجَرٍ فقال لوَ خلوتُ هَا هُنَا بمعصِيةٍ من كان يَرَانِي ؟ فَسَمِعَ صَوتاً مَلأَ مَا بَيْنَ حافتي الغَيْضَةِ : ألاَ يَعْلَمُ مَن خَلق وهو اللطيفُ الخبيرُ .

وهَمَّ رجَلٌ بمعصيةٍ فَخَرجَ إليها فَمَر في طَرِيقِهِ بقاصٍّ على الناسِ فوقَفَ على حَلْقَتِهِ فَسَمِعَهُ يقولُ : أيُّها الهامُّ بالمعصيةِ أما علمْتَ أن خَالِقَ الهِمَّةِ مُطَّلِعٌ على همتِكَ فوقَعَ مَغْشِياً عليه فما أفاقَ إلا مِن تَوْبةٍ .

ومنهم مَن عَصَمَ نَفْسَه بموعِظَةٍ جَرَتْ على لِسانِ مَن أرادَ منه الموافقةَ على المعصيةِ كما جَرَى لِأحد الثلاثةِ الذين دَخَلُوا الغارَ وإنطبقتْ عليهم الصخرةُ ، فإنه لَمَّا جَلَسَ مِن تِلك المرأةِ مجْلِسَ الرجلِ مِن إمرأتِهِ قالتْ له يا عبد الله إتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الخاتمَ إلا بِحَّقِهِ فقامَ عنها .

وكذلك الكفلُ مِن بني إسرائيلَ كان لا يَتَورَّعْ عن مَعْصِيَةٍ فأعْجَبَتْهُ إمرأةٌ فأعطاها سِتِينَ دِيناراً فلمَّا قَعدَ منها مَقْعَدَ الرجلِ مِن إمرأتِهِ إرتَعَدتْ وقال أكْرَهْتُكِ ؟ قالت لا ولكن عَمَلٌ ما عَمِلْتُهُ قَطُّ وإنما حَمَلني عليه الحاجةُ .

فقال تَخَافِينَ الله ولا أخافُهُ ثم قامَ عنها وَوَهَبَ لَهَا الدنانيرَ وقَالَ والله لا يَعْصِي الله الكفلُ أبداً وماتَ مِن لَيَلتِهِ فأصْبَحَ مَكْتُوباً على بَابِهِ قد غَفَر الله لِلكفلِ .

خَرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُ حَدِيثَه هذا من حديث إبن عُمَرُ مَرفوعاً .

ورَاوَدَ رجلٌ إمرأةً عن نفسِها وأمَرَهَا بغَلْقِ الأبوابِ فَفَعَلَتْ وقَالَتْ بقِيَ بابٌ واحدٌ . قال : أيُ باب ؟ قالتْ البابُ الذي بيننا وبينَ الله تعالى فلم يَتَعرَّضْ لَهَا .

ورَاوَدَ رَجُـلٌ أعرابيةً قال لَهَا مَا يَرانَا إلا الكَواكِبُ . قَالَتْ : فأيْنَ مُكَوْكِبُهَا وهذا كلهُ مِن ألطافِ الله تعالى وحَيْلُولَتِهِ بينَ العبدِ ومَعْصِيتِهِ .

قال الحسنُ وذَكَرَ أهل المعاصِي : هانُوا عليه فَعَصَوْهُ ولو عَزُوا عليه

لعَصَمَهُمْ ، وقال بِشْرُ ما أصرَ على مَعصَيةِ الله كَريمٌ ولا آثر الدنيا على الآخرة حَلِيم . والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(فَصْـــلٌ)

ومِن أنواع حِفْظِ الله لِعبدِه في دِيْنِهِ ، أن العبدَ قَدْ يَسْعَى في سَبَب مِن الدنيا ؛ الولايَاتِ أو التجاراتِ أو غير ذلك فَيَحُولُ الله بَيْنَهُ وبَيْنَ ما أرادَهُ لِما يَعْلَمُ لَه مِن الخِيْرَةِ في ذلكَ وهُو لا يَشْعُر مَعَ كَراهَتِهِ لِذَلِكَ .

قال إبنُ مَسعُودِ رضي الله عنه : إن العبدَ لَيَهِمُّ بالأمرِ مِن التجَارةِ أو الإمَـارَةِ فينظُر الله إليه فَيقُولُ لِلْمَلائِكَةِ إصْرِفُوهُ عنه فإني إن يَسّرتُهُ لَهُ أدخَلْتُه النارَ فيصرفُه الله عنه فيظلُ يَتطيرُ يقول سَبَقني فلانٌ . دَهاني فلانٌ وما هُوَ إلا فضلُ الله عز وجل .

وأعْجَبُ مِن هذا أنَ العبدَ قد يطلبُ بَاباً مِن أبواب الطاعاتِ ولا يكونُ فيه خَيرٌ له فَيحولُ الله بَينَهُ وَبْينَهُ صِيانةً لهْ ، وهُو لا يَشْعُر .

وخرج الطبرانُي وغيرُه حديثَ أنسٍ مَرفوعاً ، يَقول الله عز وجل : « إن مِن عبادِي مَن لا يُصْلحُ إيمانَهُ إلا الغِنى ولو أفقرتُه لَأفْسَدَهُ ذلك ، وإن مِن عبادِي مَن لا يُصلحُ إيمانَهُ إلا الفقرُ ولو أغنيتُه لَأفسَدَهُ ذلك » .

وإن مِن عِبادِي مَن لا يصلحُ إيمانَهُ إلا الصِحّةُ ولو أسْقَمْتُهُ لأفسدَهُ ذلكَ وإن مِن عبادِي مَن لا يصلحُ إيمانَهُ إلا الّسُقْمُ ولو صَحَّحْتُهُ لَأفْسَدَهُ ذلكَ .

وإن مِن عبادِي مَن يَطلبُ باباً مِن العِبادَةِ فاكُفُّهُ عنه كَيْلَا يَدْخُلُه العُجْبُ . إني أُدَبرُّ عبادِي بِعلمِي بما في قُلُوبِهِم إني عَلِيمٌ خَبير» .

كان بعضُ المتقدمين يُكْثِر سُؤآل الشهادَةِ فهتَف به هَاتفٌ إنَكَ إن غَزَوْتَ أُسِرْتَ وإن أسِرْتَ تَنَصَّرتَ فكَفَّ عَن سُؤآلِهِ وفي الجُمْلةِ فَمَنْ حَفِظَ حُدودَ الله وَرَاعَى حُقوقَهْ تَولَّى الله حِفْظَهُ في أمورِ دينه ودُنياهُ وفي دُنياهُ وآخرتِهِ .

وقـد أخْـبرَ الله تعـالى أنـه وَلِيُ المؤمنين وأنه يَتولىَ الصالحين وذلك يَتَضَمَّنُ أنه يَتولى مَصَالِحَهمُ في الدنيا والآخرة ولا يكلهم إلى غيره . قال تعـالى : ﴿ الله ولي الـذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأَنَّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ .

فمن قامَ بحقوق الله فإن الله يَتَكَفَّلُ له بالقيام بجَميع مَصَالحِه في الدنيا والآخرة . فَمَنْ أرادَ أن يَتولىَ الله حِفْظَهُ ورِعَايَتَهُ في أمُورِهِ كُلِهَّا فليُرَاعِ حُقُوقَ الله عليه .

ومَن أرادَ أن لا يُصِيبُه شيءٌ مِمَّا يكرهُ فلا يأت شيئاً مما يكْرهُهُ الله . كان بعضُ السلفِ يَدُورُ على المجـالسِ ويقـولُ : مَن أحَبَّ أن تَدُومَ له العافيةَ فليتق الله .

وقال العُمَريُ الزاهدُ لِمَنْ طلبَ مِنه الوصيةَ : كما تُحِبُّ أن يكون الله لكَ فهكـذا كُنْ لله عز وجـل . وفي بعضِ الآثـار يقول الله : (وعزتي وجَـلالي لا أطلعُ على قَـلْب عبدٍ فأعلمُ أنَ الغالبَ عليه حُبُّ التَّمَسُّكُ بطاعَتِي إلا توليتُ سِياسَتَهُ وتَقويمَهُ) .

وفي بعض الكتبِ المتقدمةِ يقولُ الله عز وجل : (إبنَ آدم لا تُعلمني ما يُصْلِحُكَ إبنَ آدمَ إتقني . . . ونَمْ حَيثُ شِئْتَ) .

والمعنى أنك إذا قُمْتَ بما عَليكَ لله مِن حُقُوقِ التَّقْوىَ فلا تَهْتَمُ بعدَ ذلك بِمَصَالِحِكَ فإن الله هُو أعْلَمُ بها منكَ وهو يُوصِلُها إليكَ على أتم الوجُوْهِ مِن غيرِ أهتمامٍ منكَ بها .

وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَن كان يُحِبُ أنْ يَعْلَمَ مَنزلَتَهُ عندَ الله فلينظرْ كيفَ منزلةُ الله عندَهُ فإن الله يُنّزِلُ العبدَ منه حيثُ أنزلَه مَن نفسِهِ » .

فهذا يَدُلُ على أنه على قَدْرِ إهتمامِ العبدِ بحُقوقِ الله وبأداءِ حُقوقِهِ ومُراعاة حُقُوقِهِ ومُراعاةِ حُدُودِهِ وإعْتَنائِهِ بذلكَ وحِفْظِهِ له يَكونُ إعتناؤهُ به وحفظُه له .

فَمَنْ كـان غَـايَةُ هَمّـِهِ رضَـى الله عنه وطَلَـب قُـرْبـِهِ ومَعْـرِفَتِهِ ومَحَبّتِهِ وخِـدْمَتِهِ فإن الله يكونُ لَه على حَسَبِ ذلكَ كما قال تعالى : ﴿ أذكروني أذكركم وأوفوا بعهدي أوفِ بعَهدِكم ﴾ بل هو سُبحانه أكرمُ الأكرمين فهو يُجازِي بالحسنةِ عَشْراً ويَزيد .

ومَن تَقرَّبَ مِنه شِبراً تَقَرَّب مِنه ذِراعاً ، ومَن تَقربَ منه ذِرَاعاً تَقرَّبَ منه باعاً ومَن أتاهُ يَمشِي أتاهُ هَرْوَلَة . ما يُؤتِيَ الإِنسانُ إلا مِن قِبلِ نَفْسِهِ ولا يُصِيبُهُ المكْرُوْهُ إلا مِن تفريطِهِ في حقِ ربِه عَزَّ وَجَلَّ .

قال علي رضي الله عنه : لا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إلا رَبّهُ ولا يَخَافَنَّ إلا ذَنْبَهُ . قال بعضُهم مَن صفَى صُفى له ، ومَن خَلّطَ خُلّطَ عليه . وقال مَسْرُوقُ : مَن رَاقَبَ الله في خَطَرتِ قلبِهِ عَصَمَهُ الله في حَرَكَاتِ جَوارِحِهِ وبَسَطَ لَهُ . هذا المعنى يَطُولُ جداً . وفيما أشَرْنا إليه كِفَايةٌ ولله الحمد والمنة .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ وَبَعْدَهَا ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُفْلِحِينَ الذِيْنَ نَوَّرْتَ قُلُوبَهُم بِمَعْرِفَتِكَ ، وَأَهَّلْتَهُم لِخِدْمَتِكَ ، وَحَرَسْتَهُم مِنْ عَدُوِّكَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فَصْـــــلٌ)

وقوله ﷺ تَجِدْهُ أَمَامَكَ وفي رواية أخرى تجاهَكَ مَعْنَاه : أن مَن حَفِظَ حُدودُ الله وَرَاعَى حُقُوقَه وَجَدَ الله مَعَهُ في جَمِيع الأحوالِ يَحُوطُه ويَنْصُرُهُ ويَحفَظُه ويُوفِّقُهُ ويُؤيِدُهُ ويُسَدِدُهُ فإنه قَائِمٌ على كُلِ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ .

وهو تعالى ﴿ مع الذين إتقوا والذين هم محسنون ﴾ قال قتادة ومَن يَتَّقِ الله يكُن مَعَه . ومَن يَكِن الله مَعَه فَمَعَهُ الفِئَةُ التي لا تُغْلَبُ والحارِسُ الذي لا يَنَامُ والهادِي الذي لا يَضِل .

كَتَبَ بَعضُ السلفِ إلى أخٍ له أما بعدُ إن كان الله مَعَكَ فَمنَ تَخَاف وإن كان عليكَ فَمَنْ تَرجُو والسلام . وهَذِهِ المعيةُ الخاصةُ بالمتقين غيرُ المعيةِ العامةِ المذكورةِ في قوله تعالى ؛ ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وقوله : ﴿ ولا يَسْتَخْفُونَ مِن الله وهو مَعَهُم إذ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرضى من القول ﴾ .

فإن المعيةَ الخاصةَ تَقْتَضِي النصرَ والتأييدَ وَالحفَظَ والإعانةَ ، كما قال تعالى لموسى عليه السلام وهارون ﴿ لا تخافا إنني مَعَكُمَا أسمعُ وأرى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذا يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

وكـان النبي ﷺ قد قال لأبي بَكْرٍ الصِدِيق رضي الله عنه في تلك الحال : « ما ظنكَ باثنينِ اللَّهُ ثالثهما » .

فهذا غيرُ المعنى المذكور في قوله تعالى : ﴿ ما يكون مِن نَجوى ثلاثةٍ إلا هو رابُعِهم ولا خمسة إلا هو سادسُهم ولا أَدْنَى مِن ذلكَ ولا أكثرُ إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ فإن ذلكَ عامٌ لِكلّ جَماعَةٍ .

ومن هذا المعنى الخاص الحديث الإلهي وقوله فيه : « ولا يَزَالُ عَبدي يَتَقرب إليَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّهُ فإذا أحْبَبْتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يسمعُ به وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها ورجلهُ التي يَمشِي بها » إلى غير ذلك مِن نصوصِ الكتابِ والسنةِ الدالةِ على قُرْبِ الربِ سبحانه ممن أطاعَهُ وإتقاهُ وحَفِظَ حُدُودَهُ وَرَاعَاهُ .

دَخَلَ بَنَانُ الحَمَّالُ البَرية على طَريق تَبُوكَ فاستَوحَشَ فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ : لِمَ تَسْتَوحِشْ ؟ أَلَيْسَ حَبِيْبكَ مَعَكَ ؟ فَمنْ حَفِظَ الله وراعَى حُقوقه وجَدَهُ أمامَه وتجاهَهُ على كلٍ حالٍ فليستأنِسْ بِهِ وليستغنْ به عن خَلقِهِ .

وفي الحديث : « أفضلُ الإيمانِ أن يعلمَ العبدُ أن الله معه حَيْثُ كانَ » خرجه الطبراني وغيره وبَسْطُ هذا القولِ يَطُول جِداً .

كان بعضُ العُلَماء الربانيين كَثِيرَ السَّفَرِ وَحْدَهُ فَخَرجَ الناسُ مَرةً مَعَهُ يُودِعُونَه فَردَّهَمُ .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ خَلَقَ الإنْسَان في أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ وَبِقُدْرَتِهِ التِيْ لاَ يُعْجِزُهَا شَيءٌ يُحْيِيْ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ . نَسْأَلُكَ أَنْ تَهْدِيْنَا إلى صِرَاطِكَ المُسْتَقِيْم صِرَاطَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّنْ وَالصِّدِيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَأَنْ تَغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــــلٌ)

وقال رحمه الله على قوله ﷺ : « تَعَرَّف إلى الله في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِدَّةِ » . المعنى أن العبدَ إذا إتقى الله وكانَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ مَعْرِفَةً فَعَرَفَه رَبه في الشِدَّةَ وعَرَّفَهُ عَمَلَهُ في الرَّخَاء فَنَجَّاهُ مِن الشدائدِ بتلكَ المعرِفَةِ .

وهذه أيضاً معْرِفةٌ خاصةٌ تَقْتَضِي القُربَ مِن الله عز وجل ومَحبتَهُ لِعَبدِه وإجابتَه لِدُعَائِه وليس المرادُ بها المعرِفة العامةِ ، فإن الله لا يَخفَى عليه حَالُ أحدٍ مِن خَلْقِهِ كما قال تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذا أنشأكم مِن الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ .

وهذا التَّعَرُفُ الخاصُ هو المشارُ إليه في الحديث الإلهي : « لا يَزَالُ عَبْدَي يَتَقَربُ إليّ بالنوافِل حتى أحِبَّهُ » إلى أن قال ؛ « ولَئِنْ سَألني لأعْطِيَّنهُ ولئن إسْتَعَاذني لأعِيْذَنَّهُ » .

إجتمعَ الفُضَيْلُ بشَعْوانَةَ العابدَة فسألها الدّعُاءَ ، فقالت : يا فُضَيْلُ وما بَيْنَكَ وبَيْنَهُ ، إن دَعَوتَهُ أجَابَكَ . فَشَهقَ الفُضَيْلُ شَهْقَةً خَرَّ مَغْشِياً عليه .

وقال أبوُ جَعفَر السائح : أتَىَ الحسنُ إلى حَبيب أبَي مُحمدٍ هَارِباً مِن الحَجَّاجِ فقال : يَا أبا مُحَمَّدٍ إحْفَظْني مِن الشُرطِ هُمْ علَىَ أثَرِي .

فقال يا أبا سَعِيدٍ ألَيْسَ بَينكَ وبيْنَهُ مِن الثِقةِ ما تدعُوه فَيَسْتُرَكَ مِن هؤلآء أدخُـلِ البَيْتَ فَدَخَـلَ الشُرَطُ على أثَـرِه فلم يَرَوْهُ فذكَـرُوا ذلـك لِلْحَجَّاجِ فقال بَلْ كَانَ في بَيْتِهِ إلا أن الله طَمَسَ على أعينهم فلم يَرَوْهُ .

ومَتَى حَصَلَ هذا التَّعَرفُ الخاصُ لِلعَبدِ مَعْرفَة خَاصةً بربهُ تُوجِبُ لَهُ الأَنْسَ به والحَياءَ منه . وهذه مَعْرفةٌ خَاصَّةٌ غيرَ مَعْرفَةِ المؤمنين العامةِ . ومَدَار العارِفين كُلهُم على هَذِه المعرفَةِ وهذا التعرفِ وإشاراتهم تُومي إلى هذا .

سَمِعَ أبوُ سُلَيْمانَ رَجُلاً يقولُ سَهرتُ البارحَةَ في ذِكْرِ النِساء . فقال وَيْحَكَ أما تَسْتَحِيْ منه يَرَاكَ سَاهِراً في ذِكْرِ غيرِهِ ؟ ولكن كَيفَ تَستَحِي مِمَّنْ لا تَعْرِف ؟

وقال أحمدُ بنُ عاصِم الأنطاكِي : أحِبُّ أن لا أمُوتَ حَتَّى أعْرِفَ مَوْلاَيَ . وليس مَعْرِفَتُه الإقرارُ بِهِ ولكن المعرفةُ الذي إذا عَرَفْتُه إسْتَحْيَيْتُ منه .

وهـذه المعرفةُ الخَاصةُ والتعرفُ الخاصُ تُوجِبُ طُمأنِينَةَ العبدِ بربهِ وثِقته بِه في إنجائِهِ مِن كُلِ شِدَّةٍ وَكَرْبٍ وتُوجِبُ إسْتِجَابَةَ الربِ دُعاءَ عَبدِهِ .

لما إخْتَفَى الحسنُ البَصرْي من الحَجَّاجِ قِيلَ لَه : لَو خَرَجْتَ فإنا نَخَـافُ أن يُدَلَ عليكَ . فَبكَى ثم قال : أخْـرُجُ مِن مِصرْي وأهـلي وإخواني ، إن مَعْرِفَتِي بِربي ونِعَمِهِ عَلَى أن سَيُنْجِيْنِي منه إن شَاءَ الله تَعالى . فما ضَرَّهُ الحجاجُ بِشَيء ، ولقد كان يُكرمُه بعدَ ذلك إكراماً شديداً .

وقـال رَجَـلُ لمعروفٍ : هَيَّجَكَ على الانقطاعَ والعِبادَةِ ذِكْرُ الموتِ والبرزَخِ والجنةِ والنارِ ؟ فقال مَعْرُوفُ : أيُّ شَيءٍ هذا إن مَلِكاً هذا كلُّه بيَدِهِ إن كانَتْ بَينكَ وبَينَهُ مَعْرِفَةٌ كَفَاكَ جَمْيعَ هذا .

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(فَصْــــلٌ)

ومما يُبين هذا ويوضِحُه الحديثُ الذي أخرجه الترمذي مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « مَن سَرَّهُ أن يَستجِيْبَ لَهُ عندَ الشدائدِ فليكثر الدعاءَ في الرَّخَاء » .

وخَرَّجَ إبنُ أبي الدنيا وإبنُ حاتم وإبنُ جرير وغيرُهم مِن حديث يزيد الرقاش عن أنس يَرفعُه : « إن يُونسَ عليه السلام لما دَعَا في بطِن الحوتِ قالت الملائكة يا رب هذا صوتٌ معروفٌ في بلادٍ غَريبةٍ فقال الله : أما تَعرفُونَ ذلك ؟ قالوا : ومَن هو ؟

قال : عَبدِي يُونسُ . . قالوا عبدَكَ يُونسُ الذي لم يَزَلْ يَرفَعُ عَملاً مُتَقَبَّلاً ودَعوةً مُستجابةً ؟ قال : نعم . قالوا يا رب أفلا تَرحمُ ما كان يَصنعُ في الرخاءِ فَتُنْجِيْهِ مِن البلاء ؟ قال بَلَىَ : فأمَر الله الحوتَ فَطَرحَهُ بالعَراءِ .

وقال الضحاكُ بنُ قَيس إذكروا الله في الرَّخَاءِ يذكركم في الشدةِ . إن يُونس عليه السلام كانَ يذكرُ الله فلما وَقَعَ في بَطنِ الحوتِ قال الله تعالى : ﴿ فلولا أنه كان مِن المسبحين لَلَبَثَ في بطنه إلى يوم يُبعَثون ﴾ .

وإن فرعونَ كان طاغياً ناسياً لِذِكر الله فلما أدركَه الغرقُ قال : آمنتُ . فقال الله تعالى : ﴿ الآن وقد عَصَيْتَ قبلُ وكنتَ مِن المفسدين ﴾ .

وقال رُشْدِين بُن سَعْدِ قال رجلٌ لأبي الدرداءِ رضيَ الله عنه أوْصِني . فقال : أذكر الله في السَّراء يَذْكُركَ في الضَّراءِ فإن العبدَ إذا ذكرَ في السَّراءِ فَنَزلَتْ به ضَرَاءُ فَدَعَا الله عَز وجَل قالتِ الملائكةُ صوتٌ معروفٌ فشفعوا لَهُ .

وإذا كان لَيْسَ بِدَعَّاءٍ في السَّراءِ فنزلَتْ به ضَرَاءُ فدعا الله عز وجل قالت الملائكة صَوتٌ ليسَ بِمعْروف فلا يَشفعون له .

وحديثُ الثلاثةِ الذينَ دَخَلُوا الغارَ وإنطبقتْ عليهم الصخرةُ يَشهدُ لهذا أيضاً . فإن الله فَرَّج عنهم بدعائِهم بما كان سَبَقَ منهم مِن الأعمالِ الصالحةِ الخالصةِ في حالِ الرَّخَاءِ مِن بر الوالدين وتركِ الفُجُورِ وأداءِ الأمانةِ الخفيةِ .

فإذا عُلمَ أن التعرفَ إلى الله تعالى في الرخاء يُوجبُ مَعْرفَةَ الله لِعبدِه في الشِدَّةِ فلا شِدَّة يلقاها العبدَ في الدنيا أعظمَ مِن شدةِ الموتِ وهي أهونُ مما بَعدَهَا إنْ لم يكن مَصِيْرُ العبدِ إلى خيرٍ . وإنْ كانَ مَصِيْرُهُ إلى خير فهي آخِرُ شِدَّةٍ يَلْقَاهَا .

فالواجبُ على العبدِ الاستعدادُ لِلْمَوتِ قبلَ نزولِهِ ، بالأعمالِ الصالحةِ والمبادَرةُ إلى ذلك فإنه لا يَدْري المرءُ مَتىَ تَنزلُ به هَذِهِ الشدةُ مِن ليلٍ أو نهارٍ . وذِكْرُ الأعمالِ الصالحةِ عندَ الموتِ مما يُحَسّنُ ظَنَّ المؤمنِ بِرَبهِ ويُهَوّنُ عليه شِدةَ الموتِ ويُقَوّي رَجَاءَهُ .

قال بعضُهم يَسْتَحِبُّون أن يكون لِلمَرْءِ خُبْيَةٌ مِن عَمَلٍ صَالحٍ لِيكونَ أهونَ عليه عِندَ نُزولِ الموتِ أو كما قال . وكانو يَستَحِبُونَ أن يَموتَ الرجلُ عَقِبَ طَاعَةٍ عَمِلها مِن حَجٍ أو جهادٍ أو صيام .

وقال النَّخعِيُ : كانوا يَستَحِبُون أن يُلَقِنُوا العبدَ مَحَاسِنَ عَمَلِهِ عندَ مَوتِهِ لِكَي يُحْسِنَ ظَنَّهُ بربِهِ .

قال أبو عبدِ الرحمن السُلَمِي في مَرَضِهِ كَيفَ لا أرجُو ربي وقد صُمْتُ له ثمانينَ رَمَضان . ولما إحتضرَ أبو بكر بنُ عَياشٍ وبكوا عليه قال لا تَبكُوا

فإني خَتَمْتُ القرآن في هذه الزاوية ثلاثَةَ عَشَرَ ألفِ ختمةٍ . ورُويَ عنه أنه قال لابنِهِ : أترى إن الله يُضَيعُ لِأبيكَ أربعينَ سَنَةَ يختمُ كُلُ ليلةٍ .

وقال بعضُ السلفِ لابنِهِ عندَ مَوتهِ ورَآهُ يَبكي قال لا تَبكي فما أوتي أبُوكَ قَطُ . وَخَتَم آدَمُ بنُ أبي إياسٍ القرآنَ وهَو مُسَجَّى لِلمَوتِ ثم قال : بحبي لَكَ إلاَ رَفَقْتَ بي في هذا المصرع ؟ كُنتُ أُؤمِلُكَ لهذا كُنتُ أرجُوكَ لِهذا لا إله إلا الله ، ثم قَضَى رَحِمَهُ الله .

وكـان عبـدُ الصمدِ الزاهدُ يقولُ عندَ مَوتِهِ : سَيدّي لهذهِ الساعةِ خَبَّأتُـكَ حَقّقْ حُسْنَ ظِني بكَ . وقـال إبنُ عِقيل عنـدَ مَوتـهِ وقد بَكى النِسوةُ : قَدْ وَقَفْتُ مَنه خمسين سنة فَدعُوني أتهنأ بلِقائِهِ .

وَلَمَّا هَجَم القَرامِطةُ على الحُجَاجِ وَقتلُوهُم في الطَّوافِ وكان عَليٌّ بنُ بَاكُويَةَ الصوفي يَطُوفُ فلم يَقطَعِ الطوافَ والسيوفُ تأخذُهُ حتَى وَقَع

تضرع إلى فاطر السموات والأرض وثناء عليه

يا مَن عَليه مَدَى الأَيَّام مُعْتَمدِي	إليكَ وَجَّهْتُ وجْهي لَا إلى أَحَـدِ
يَا مَالِكَ الْمُلْكِ يا مُعْطِي الجَزيْلَ لِمَنْ	يَـرْجُـو نَـدَاهُ بِـلا مَـنٍّ ولا نَكَـدِ
ما لِـي سِـوَاك وما لِـي غَيْرِ بَابكَ يا	مَوْلَايَ فامْحُ بِعَفْوِ مَا جَنَتْهُ يَـدِي
وانْعِـمْ وأَمْطِـرْ عَلَيْنَا رَحْمَـةً فَـلنَا	عَـوائِدٌ مِنْكَ بالإِحْسَـان وَالْمَـدَدِ
وانْظُـرْ إليْنَـا فـكَمْ أَوْ لَيْتَنَا نِعَـمًا	ما أَنْ تَمُـرُّ على بَـالٍ ولا خَـلـدِ
يَا مَـن يُجِيْبُ دُعَائِي عِنْـدَ مَسْـأَلتِي	ومَن عَليه وإنْ أخَطَأتُ مُعْتَمَدِي

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

فصـــل

وقال رَحِمَهُ الله فَمَنْ أطاعَ اللهِ وإتَّقاهُ في حَياتِهِ تَوَلاهُ الله عندَ وَفَاتِهِ على الإيمانِ وثَبتَه بالقولِ الثابتِ في القبر عندَ سؤالِ الملكين ودَفعَ عنه عذابَ القبرِ وآنَسَ وَحْشَتَهْ في تِلك الوَحْدَةِ والظُلمَةِ .

قال بعضُ السلفِ إذا كان الله مَعَـكَ عند دخولِ القبرِ فلا بأسَ عليكَ ولا وَحْشَةَ . ورُؤي بعضُ الصالحينَ في النومِ بعدَ مَوتِهِ فَسُئِلَ عن حَالِه فقال : يُؤْنسني رَبي عز وجل فَمَنْ كان الله سُبحانَه وتعالى أنِيسَهُ في خلَواتِهِ في الدنيا فإنه يُرجَى أن يكونَ أنِيسةَ في ظلماتِ اللّحُودِ إذا فَارَقَ الدنيا وتَخَلىَّ عنها . وفي هذا يقول بعضُهم :

فيا ربّ كُنْ لي مُؤْنساً يَومَ وَحْشَتي ... فـإنـي بمَـا أنـزَلْتَـه لَمصَـدّقُ
ومـا ضَـرَّني أَنـي إلـى الله صَـائِرٌ ... ومَـن هُـو مِـن أهْـلي أبَـرُ وأشْـفَقُ

وكذلكَ أهوالُ القيامةِ وأفزَاعُها وشَدائِدُهَا إذا تَولَى الله عبدَهُ المطيعُ له في الدنيا أنجاهُ من ذلكَ كُلّهِ . قال قتادةُ في قوله تعالى : ﴿ ومَن يتقِ الله يجعل له مخرجاً ﴾ . قال : مِن الكرب عندَ الموتِ ومِن أفزاعِ يومِ القيامةِ .

وقـال عليُ بنُ أبي طلحـةَ عن إبنِ عباسِ رضي الله عنهما في هذه الآية : يُنْجيْهِ مِن كُلّ كَرْبِ في الدنيا والآخرة .

وقال زيدُ بنُ أسلمَ في قوله تعالى : ﴿ إن الذين قَالوا ربنا الله ثم إستقـاموا ﴾ قال يُبَشَّرُ في ذلك عِندَ مَوتِهِ وفي قَبرِهِ ويومَ البعثِ فإنه لَفي الجَنَّةِ ، وما ذَهَبَتْ فَرحَةُ البَشارَةِ مِن قَلْبِهِ .

وقال ثابتُ البُناني في هذه الآية : بَلَغَنَا أن المؤمنَ يَبعَثُهُ الله مِن قبرِهِ يَتَلَقَاهُ مَلكَاهُ اللذانِ كانَا مَعَهُ في الدنيا فيقولانِ لَهُ لا تَخَفْ ولا تَحزَنْ فيؤَمّنُ الله خَوفَهُ ويقرُ عَيْنَهُ .

فما مِن عَظيمَةٍ تَغْشَى الناسَ يومَ القيامةِ إلا وَهِيَ لِلْمُؤمن قُرّةُ عَينْ لِما هَدَاهُ الله ولِما كَانَ يَعْمَلُ في الدنيا . خَرَّجَ ذلكَ كُلّهُ إبنُ أَبي حَاتمٍ وغَيرُهُ .

وأما مَن لَم يَتعرَّفْ إلى الله في الرَّخَاءِ فليسَ لَهُ أن يَعْرِفَهُ في الشدةِ لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وشَواهِدُ هَذا مُشَاهَدةُ حَالِهِم في الدنيا وحالهم في الآخرة أشد ومِا لهم مِن ولي ولا نصير .

قوله ﷺ : « إذا سألت فأسأل الله » أَمَرَ بإفرادِ الله تعالى بالسؤال ونَهى عن غيرِهِ مِن الخلقِ .

وقد أمَرَ سبحانه وتعالى بِسؤالِهِ فقال : ﴿ وإسألوا الله مِن فضله ﴾ . وفي الترمذي عن إبن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من لا يَسْأل الله يَغْضَبْ عليه » .

وفيه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه : « إسْألُوا الله مِن فَضْلِهِ فإن الله يحُبُ أن يُسألَ » .

وفيه أيضاً : « إن الله يحُبُ الملحينَ في الدعاء » .

وفي حديث آخر : « لِيَسألْ أحَدُكُم حَاجَتهُ كُلّها حتى يسأل شِسعَ نَعلِه إذا انْقَطَعَ » . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وفي النَّهْي عن سُؤآلِ الخلقِ أحَادِيْثُ كَثيرةٌ صحيحةٌ . وفي حديث إبن مسعود وإبن عمَرَ رضي الله عنهما مرفوعاً : « لا يزالُ العبدُ يَسألُ وهو غَنِيٌ حَتّى يخَلّقَ وَجْهُهُ فما يكون له عندَ الله وَجْهٌ » .

وقد بَايعَ النبي ﷺ جماعةً من الصحابةِ على أن لا يَسألُوا الناسَ شيئاً منهم الصديقُ رضي الله عنه وأبوُ ذر وثوبان .

وكان أحدُهُم يَسقُطُ سَوطُهُ وخِطَامُ ناقِتِهِ فلا يَسألُ أحداً أن يُنَاوِلَه إياهُ رَضي الله عنهم . وإعلمْ أنَ سُؤآل الله تعالى دُوْنَ خَلْقِهِ هو المتعينُ عقلاً وشرعاً .

وذلـك مِن وُجُوهٍ مُتَعَدّدةٌ منها أن السؤآل فيه بَذلُ لِماءِ الوجهِ وذِلٌ لِلسائلِ وذلكَ لا يَصْلَحُ إلا لله وَحْدَهُ . فلا يَصْلُحُ الذُلُ إلا الله بالعبادِهِ والمسألةِ وذلك مِن غَايةِ المحبةِ الصادقةِ .

سُئِلَ يُوسُفُ بنُ الحُسين ما بالُ المحِبينً يتَلَذَذُونَ بِذُلِهِمْ في المحبةِ فأنشد :

ذلّ الفتى في الحـبِ مَكْـرُمَةٌ وخُضُـوعُـه لِحَبيبِـهِ شَـرَفُ

وهذا الذلُ وهذِه المحبةُ لا تَصلُحُ إلا الله وحْدَهُ وهذا حَقِيْقَةُ العِبادَةِ التي يَخْتَصُ بها الإلهُ الحق .

كان الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ الله يقولُ في دُعائِهِ : اللهم كما صُنْتَ وجْهي عن السُجُودِ لِغَيركَ فصُنْهُ عن المسألةِ لِغيركَ .

وقـال أبو الحسين الأَقطعُ : كُنتُ بمكةَ سَنَةً فأصابتْني فاقةٌ وضَرَرٌ فكُنتُ كُلّما أردتُ أن أخْرُجَ إلى المسألةِ هَتَفَ بي هَاتِفٌ يَقولُ : الوَجْهُ الذي تسجُدُ لي بِهِ تَبْذِلُه لِغيري . إنتهى كلامه رحمه الله تعالى .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فَصْـــــلٌ)

وقال إبن القيم رحمه الله :

للعبـد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس فمن هتك الستر

الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس .

للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه ، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه ، ويعمر بيته قبل إنتقاله إليه .

إضاعة الوقت أشد من الموت ، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة ، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها .

الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم العمر كله . محبوب اليوم يعقب المكروه غداً ، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غداً .

أعظم الربح في الدنيا : أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولي بها وأنفع لها في معادها .

كيف يكون عاقلا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة .

المخلوق إذا خفته إستوحشت منه وهربت منه والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه . لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب ، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين .

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ست مشاهد :

أحدها : مشهد التوحيد وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

الثاني : مشهد العدل وأنه ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه .

الثالث : مشهد الرحمة وإن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وإنتقامه ورحمته وعفوه .

الرابع : مشهد الحكمة وإن حكمته سبحانه إقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاه عبثاً .

الخامس : مشهد الحمد وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه .

السادس : مشهد العبودية وأنه محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه .

الاجتماع بالإخوان قسمان :

أحدهما : إجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت ، فهذا مضرته أرجح من منفعته ، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها .

ولكن فيه ثلاث آفات :

إحداها : تزين بعضهم لبعض .

الثانية : الكلام والخلطة أكثر من الحاجة .

الثالثة : أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود .

وبالجملة : فالاجتماع والخلطة لقاح ، إما للنفس الأمارة ، وإما للقلب والنفس المطمئنة والنتيجة مستفادة من اللقاح فمن طاب لقاحه طابت ثمرته .

وهذه الأرواح الطيبة لقاحها من المَلَك والخبيثة لقاحها من الشيطان

وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات وعكس ذلك .

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين خطوة عن نفسه ، وخطوة عن الخلق فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله ؛ فلا يلتفت إلا إلى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه .

من عرف نفسه إشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس .
من عرف رَبَّهُ إشتغل بِهِ عن هوى نفسه .

أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نَفْسَكَ ولا ترى الخلق .

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب : باب شبهة أورثت شكا في دين الله ، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته ، وباب غضب أورث العدوان على خلقه .

أصول الخطايا كلها ثلاثة : الكبر ، وهو الذي أصار إبليس إل ما أصاره والحرص ، وهو الذي أخرج آدم من الجنة .

والحسد ، وهو الذي جرأ أحد إبني آدم على أخيه . فمن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر ، فالكفر من الكبر ، والمعاصي من الحرص ، والبغي والظلم من الحسد .

جمع النبي ﷺ في قوله : « فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » بين مصالح الدنيا والآخرة .

فالآخرة ونعيمها ولذاتها ، إنما تنال بتقوى الله ، وراحة القلب

والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناء ، والكد والشقاء في طلب الدنيا ، إنما ينال بالإجمال في الطلب .

فمن إتقى الله فاز بلذة الآخـرة ونعيمهـا ، ومن أجمل في الطلب إستراح من نكد الدنيا وهمومها ، فالله المستعان :

قـد نـادت الدنيـا عـلى نفسها   لـو كـان في ذا الخلق من يسمع
كـم واثـق بالعـيش أهلكتـه   وجـامـع فـرقـت مـا يجمـع

سر التوكل على الله وحقيقته ، هو إعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضر مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الإعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : توكلت على الله ، مع إعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به .

فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء . كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب مع إعتماد قلبه على غيره ، مثل قوله : تبت إلى الله وهو مصر على معصيته مرتكب لها .

إتباع الهوى وطول الأمل ، مادة كل فساد ، فإن إتباع الهوى يعمي عن الحق معـرفـة وقصـداً ، وطـول الأمـل ، ينسي الآخـرة ويصد عن الاستعداد لها .

إذا أراد الله بعبد خيراً جعله معترفاً بذنبه ، ممسكاً عن ذنب غيره ، جواداً بما عنده ، زاهداً فيما عند غيره ، محتملا لأذى غيره ، وإن أراد به شراً عكس ذلك عليه .

العقول المقيدة بالتوفيق ، ترى أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة .

والعقول المضروبة بالخذلان ، ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع .

أقرب الوسائل إلى الله ، ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن ودوام الافتقار إلى الله ، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال .

وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة ، وما إنقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها .

الأصول التي إنبنى عليها سعادة العبد ثلاثة ، ولكل واحد منها ضد ، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده ، التوحيد وضده الشرك ، والسنة وضدها البدعة ، والطاعة وضدها المعصية .

ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده ، ومن الرهبة منه وما عنده .

إذا إستغنى الناس بالدنيا ، فإستغن أنت بالله ، وإذا فرحوا بالدنيا فأفرح أنت بالله ، وإذا أنسوا بأحبابهم ، فاجعل أنسك بالله .

وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة ، فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه ، تنل بذلك غاية العز والرفعة .

قال بعض الزهاد : ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان . فقال له رجل إني أكثر البكاء فقال : إنك أن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك ، وأن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه .

فقال : أوصني فقال : دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها ، وكن في الدنيا كالنحلة ، إن أكلت أَكَلَتْ طيبا ، وإن أطعمت أطعمت طيبا ، وأن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه .

النعم ثلاثــة : نعمــة حاصلة يعلم بها العبــد ، ونعمــة منتــظرة يرجوها ، ونعمة هو فيها لا يشعر بها . فإذا أراد إتمام نعمته على عَبدِهِ ، عرفه نعمته الحاضرة ، وأعطاه من شكره قيدا يقيدها به حتى لا تشرد فإنها تشرد بالمعصية وتَبْقَى بالشكر ، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة ، وبصره بالطرق التي تسدد وتقطع طريقها ، ووفقه لاجتنابها ، وإذا بها قد وافقته إليه على أتم الوجوه ، وعرفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها .

ويحكى أن أعرابيا دخل على الرشيد فقال : أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها ، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الـظن به ودوام طاعته ، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها ، فأعجبه ذلك منه وقال : ما أحسن تقسيمه .

قال شقيق بن إبـراهيم : أغلق باب التـوفيق عن الخلق من ستة أشياء : إشتغالهم بالنعمة عن شكرها ، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل والمســارعـة إلى الذنب وتأخير التوبة ، والاغترار بصبحة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم ، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها ، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها .

قلت : وأصــل ذلــك : عدم الـرغبـة والـرهبـة ، وأصله ضعف اليقــين ، وأصله ضعف البصـيرة ، وأصله مهـانـة النفس ودنـاءتهـا ، وإستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير .

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حَظٌّ من رحالهم إلا في الجنـة أو النـار ، والعـاقـل يعلم أن السفـر مبني على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة ، إنما ذلك بعد إنتهاء السفر .

ومن المعلوم أن كل وطأة قدم ، أو كل من آنات السفر غير واقفة ، ولا المكلف واقف ، وقد ثبت أنه سافر على الحال التي يجب أَنْ يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل ، وإذا نزل أو نام أو إستراح ، فعلى قدم الاستعداد للسير .

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر ، وله عليه فيه نهي ، وله فيه نعمة ، وله به منفعة ولذة ، فإن قَامَ في ذلك العضو بأمره وإجتنب فيه نهيه .

فقد أدى شكر نعمته عليه فيه ، وسعى في تكميل إنتفاعه ولذته به ، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه ، عطله الله من إنتفاعه بذلك العضو ، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومَعَرَّتِه .

وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه ، فإن شغل وقته بعبودية الوقت ، تقدم به إلى ربه ، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة ، تأخر ، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر ، ولا وقوف في الطريق البتة .

قال تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وقال القحطاني رحمه الله :

يَا أَيُّهَا السُّنِيُّ خُذْ بِوَصِيَّتِي ... وأَخْصُصْ بذَلِكَ جُمْلَةَ الإِخْوانِ
واقْبَلْ وَصِيَّةَ مُشْفِقٍ مُتَوَدِّدٍ ... وَأَسْمَعْ بِفَهْمٍ حاضِرٍ يَقْظَانِ
كُنْ فِي أُمورِكَ كُلِّهَا مُتَوَسِّطاً ... عَدْلاً بِلا نَقْصٍ ولا رُجْحانِ
وأعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ رَبٌّ وَاحِدٌ ... مُتَنَزِّهٌ عن ثَالِثٍ أَوْ ثَانِ

الأوَّلُ المُبْـدِي بغَيرِ بـدَايَـةٍ … والآخِـرُ المُفْـني وَلَيْسَ بفـانِ
رُكْـنُ الدِّيانَةِ أَنْ تُصَـدِّقَ بالقَضَـا … لَا خَـيْرَ فـي بَيْـتٍ بـلا أَرْكـانِ
فاقْصِـدْ هُـدِيْتَ ولا تكُن مُتغَالِياً … إنَّ القُـدُوْرَ تَفُـورُ بالغَـلَيـانِ
دِنْ بالشَّـريعـةِ والكتـابِ كِلَيْهِمَا … فَكِـلَاهُمَـا لِلـدِّيـنِ واسِـطتانِ
وإذَا دُعِـيْتَ إلَـى أَدَاءِ فَـريضَـةٍ … فَأَنْشَطْ وَلَا تَكُ في الإجـابَةِ وانِي
قُمْ بالصَّلاةِ الخمسِ وأعْرِفْ قَدْرَهَا … فَلَهُـنَّ عنـدَ اللّـهِ أَعْظَـمُ شَـانِ
لا تَمْنَعَـنَّ زكـاةَ مَـالِـكَ ظـالِماً … فَصَـلاتنَـا وَزَكـاتُنـا أُخْتَـانِ
لا تَعْتَقِـدْ دِيْـنَ الـرَّوافِـضِ إنَّهـم … أَهْـلُ المُحَـالِ وشِيعَةُ الشَّيْطانِ
إنَّ الرَّوافِضَ شَرُّ مَن وَطِيءَ الحَصَا … مِـن كُـلِّ إنْسٍ نَاطِـقٍ أَوْ جَـانِ
مَـدَحُـوا النَّبيَّ وَخَـوَّنُـوا أَصْحَـابَهُ … وَرَمَـوْهـمُ بالظُّـلْمِ والعُـدْوَانِ
قُـلْ إنَّ خَـيْرَ الأنبيـاءِ مُحَمَّـدٌ … وَأَجَـلُّ مَـن يَمْشِـي علىٰ الْكُثْبانِ
قُـلْ خَيْرَ قَـوْلٍ فِي صَحَـابَةِ أَحْمَدٍ … وَأَمْـدَحْ جَمِيـعَ الآلِ والنِّسْـوانِ
دَعْ ما جَرى بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي الوَغَى … لِسُيُوفِهِم يَـومَ الْتَقَـى الجَمْعَـانِ
لَا تَقْبَـلنَّ مِـنَ التَّـوارِخِ كُـلَّ مـا … جَمَعَ الـرُّواةُ وَخَـط كُـلُّ بَنَـانِ
ارْوِ الحـديثَ المُنْتَقـى عـن أَهْـلِه … سِيَّمَا ذَوِي الأَحْـلَامِ والأَسْـنَانِ
وأَحْفَظْ لأَهْلِ البَيْتِ واجِبَ حَقِّهِمْ … وَأَعْـرِفْ عَـلِيًّا أَيَّمَـا عِـرْفانِ
لا تَنْتَقِصْـهُ ولا تَـزِد فـي قَـدْرِه … فَعَلَيْـهِ تَصْلَى النـارَ طَـائِفتَـان
إحْـدَاهُمَـا لا تَـرْتَضِيْـه خَلِيْفَـةً … وتَنُصُّـهُ الأُخْـرى إلهـاً ثـان
احْـذَرْ عِقَـابَ اللّـهِ وأَرْجُ ثَـوَابَـهُ … حَتَّى تـكونَ كَمَـنْ لَـهُ قَلْبَـانِ
وَإذَا خَـلَوْتَ بريبَـةٍ فـي ظُلْمَـةٍ … والنَّفْـسُ داعِيَـةٌ إلـى الطُّغيـانِ
فاسْتَحْيِيْ مِن نَظَرِ الألـهِ وقُـلْ لَهَـا … إنَّ الَّـذي خَـلَقَ الظَّـلامَ يَـرَانِـي
كُـنْ طَـالِبـاً لِلْعِلْمِ وأعْمَلْ صالِحاً … فَهُمَـا إلى سُبُلِ الهُدَىٰ سَبَبَانِ
لا تَعْـصِ رَبَّـكَ قـائِلاً أَوْ فـاعِلاً … فكِـلاهما فـي الصُّحْـفِ مكتـوبانِ

جَمِّلْ زَمَانَكَ بالسُّكُوتِ فإِنَّه ... زينُ الحَليمِ وسِتْرَةُ الحَيْرانِ
كُنْ حِلْسَ بَيْتِكَ إن سَمِعْتَ بِفِتْنَةٍ ... وَتَوقَّ كُلَّ مُنافِقٍ فَتَّانِ
أَدِّ الفَرائِضَ لا تَكُنْ مُتَوانِياً ... فَتَكُونَ عِندَ اللَّهِ شَرَّ مُهَانِ
أَدِمِ السِّوَاكَ مَعَ الوُضُوءِ فَإِنَّهُ ... مُرْضِي الإِلَهِ مُطَهِّرُ الأَسْنانِ
سَمِّ الأَلَهَ لَدَىٰ الوُضُوءِ بِنِيَّةٍ ... ثم أَسْتَعِذْ مِن فِتْنَةِ الوَلْهَانِ
فأَسَاسُ أَعْمَالِ الوَرَىٰ نِيَّاتُهُمْ ... وعلىٰ الأَسَاسِ قَواعِدُ البُنْيَانِ
لا تَلْقَ رَبَّكَ سَارِقاً أَوْ خَائِناً ... أَوْ شَارِباً أَوْ ظَالِماً أَوْ زَانِي
أَيْقِنْ بِأَشْراطِ القِيامَةِ كُلِّها ... وأَسْمَعْ هُدِيتَ نَصِيْحَتِي وبَيَانِ
أَحْسِنْ صلاتَكَ رَاكِعاً أَوْ سَاجِداً ... بتطمْؤُنٍ وَتَرفُّقٍ وتَدَانِ
حَصِّنْ صِيامَكَ بالسُّكُوتِ عن الخَنَا ... أَطْبِقْ عَلى عَيْنَيْكَ بالأَجْفانِ
لا تَمْشِ ذا وَجْهَيْنِ مِن بَيْنِ الوَرَىٰ ... شَرُّ البَرِيَّةِ مَن لَهُ وَجْهَانِ
لا تَحْسُدَنْ أَحَداً علىٰ نَعْمَائِهِ ... إِنَّ الحَسُودَ لِحُكْمِ ربِّكَ شَانِ
لا تَسْعَ بَيْنَ الصَّاحِبَيْنِ نَمِيْمَةً ... فَلأَجْلِهَا يَتَباغَضُ الخِلاَّنِ
وتَحَرَّ بِرَّ الوالِدين فَانَّه ... فَرْضٌ عَلَيْكَ وطَاعَة السُّلْطانِ
« في غيرِ مَعْصِيَةِ الإِلهِ فإِنَّهُ ... لا طَاعَةٌ لِلْخَلْقِ في العِصْيَانِ »
لا تَخْرُجَنَّ على الإِمامِ مُحَارِباً ... ولَوَ أنّهُ رَجُلٌ مِن الحُبشانِ
ومَتَى أُمِرْتَ بِبِدْعَةٍ أَوْ زَلَّةٍ ... فَاهْرُبْ بِدِيْنِكَ آخِرَ البُلْدَانِ
الدِّينُ رأْسُ المَالِ فاسْتَمْسِكْ بِهِ ... فَضَياعُهُ مِن أَعْظَمِ الخُسْرانِ
لا تَخْلُ بامْرَأَةٍ لَدَيْكَ برِيبَةٍ ... لَوْ كُنْتَ في النُّسَّاكِ مِثْلَ بُنَانِ
وَأَغْضُضْ جُفُونَكَ عن مُلاَحَظَةِ النِّسَا ... ومَحَاسِنِ الأَحْداثِ والصِّبْيَانِ
واحْفِرْ لِسِرِّكَ في فُؤادِكَ مَلْحَداً ... وأَدْفِنْهُ فِي الأَحْشَاءِ أَيَّ دِفَانِ
لا يَبْدُ منكَ إلى صَدِيقِكَ زلّةٌ ... وأَجْعلْ فُؤادَكَ أَوْثَقَ الخُلاّنِ
لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنوبِ صِغارَها ... فالقَطْرُ منه تَدَفُّقُ الخُلْجَانِ

وَإذا نَـذَرتَ فَكُـنْ بنَـذْرِكَ مُـوفيـاً ... فالنَّـذْرُ مِثْـلُ العَهْـدِ مَسْـئُولانِ
لا تَشْـغَلَنّ بِعَيْـبِ غَـيرِكَ غَـافِـلاً ... عـن عَـيْبِ نَفْسِـكَ إنَّـهُ عَيْبَـانِ
لا تُفْـن عُمْـرَكَ في الجدَالِ مُخَاصِماً ... إنَّ الجِـــدالَ يُخِـــلُّ بالأَدْيَـــانِ
وَأحْـــذَرْ مُجَـادَلَـةَ الـرِّجـالِ فإنَّهَـا ... تـدْعُـو إلَـى الشَّـحْنَاءِ والشَّـنَآنِ
وإذا أضْطُرِرْتَ إلى الجدالِ ولَمْ تَجِدْ ... لَكَ مَهْـربـاً وتَـلاَقَـتِ الصَّفـانِ
فاجْعـلْ كِتَـابَ اللّهِ دِرْعـاً سَـابغاً ... والشَّـرْعَ سَـيْفَكَ وابْـدُ فـي المَيْدانِ
والسُّـنَةَ البيضـاءَ دُونَـكَ جُنَّـةً ... وَأرْكَـبْ جَـوادَ العَزْمِ في الجَـوَلانِ
وأثبُتْ بصَـبْرِكَ تَحْتَ ألْوِيةِ الهُـدىٰ ... فالصَّـبرُ أوثَـقُ عُـدَّةِ الإنسانِ
وأطعَنْ برُمْـحِ الحَقّ كُـلَّ مُعَـانِدٍ ... لِلَّـهِ درُّ الفَـارِسِ الطَّعـانِ
واحْمِلْ بسَيْفِ الصِّدقِ حَمْلةَ مُخْلِصٍ ... مُتَجَــرِّدٍ لِلَّـهِ غـيرِ جَبَـانِ
وَإذا غَلَبْتَ الخَصْـمَ لا تَهْـزأْ بِـهِ ... فالعُجْـبُ يُخْمِـدُ جَمْـرَةَ الإِ نسـانِ
لا تَغْضبنَّ إذا سُئِلْتَ وَلا تَصِـحْ ... فكِـلاَهُمَـا خُـلُقَـانِ مُـذْمُـومَانِ
كُنْ طُـوْلَ دهْـرِكَ سَـاكِتاً مُتَواضِعاً ... فَهُمَـا لِكُـلِّ فَضِيْـلَةٍ بـابَانِ
وَأخْـلَعْ رِداءَ الكِـبْرِ عَنْـكَ فَـإنَّـهُ ... لا يَسْـتَقِلُّ بحَمْـلِهِ الكَتِفَـانِ
كُـن فـاعِـلاً لِلْخَـيرِ قَـوَّالاً لَـهُ ... فالقَـوْلُ مِثْـلُ الفِعْـلِ مُقْـتَرِنَـانِ
من غَـوْث مَلْهُوفٍ وشبعةِ جَـائِعٍ ... ودِثـارِ عُـرْيـانٍ وفِـدْيـةِ عَـانِ
فَـإذا فَعَـلْتَ الخَيْرَ لا تَمْـنُنْ بِـهِ ... لا خَـيْرَ فـي مُتَمَـدِّحٍ مَنَّـانِ
أشْكُرْ على النَّعمَاءِ وأصْبرْ لِلْبَلا ... فكِـلاَهُمَـا خُـلُقَـانِ مَمْـدُوحَـانِ
لا تَشْـكُوَنَّ بعِـلّةٍ أوْ قِـلَّـةٍ ... فَهُمَـا لِعِـرضِ المَـرْءِ فاضِحَتَـانِ
صُـنْ حُـرَّ وَجْهِـكَ بالقَنـاعَةِ إنَّمَـا ... صَـوْنُ الـوُجُـوهِ مُـرُوْءَةُ الفتْيَـانِ
باللَّـهِ ثِـقْ ولَـهُ أَنِـبْ وَبِـهِ أسْـتَعِنْ ... فَـإذَا فَعَـلْتَ فَـأنْـتَ خَـيْرُ مُعَـانِ
وَإذا عَصَـيْتَ فَتُـبْ لِربِّـكَ مُسْـرِعاً ... حَـذَرِ المَمَـاتِ وَلا تقُـلْ لِـمَ يَـانِ

وَإذا أبْتُـلِيْتَ بِعُسْـرةٍ فـأصْـبِرْ لَهَـا فالعُسْــرُ فَــرْدٌ بَعْـدَهُ يُسْــرَانِ
لا تَتَّبِـعْ شَـهَواتِ نَفْسِـكَ مُسْرِفـاً فاللَّـهُ يُبْغِـضُ عَـابِـداً شَـهْوَانِـي
أعْـرِضْ عَـنِ الدُّنْيَا الدَّنيَّةِ زَاهِـداً فالزُّهْـدُ عِنـدَ أُولي النُّهَـىٰ زُهْـدَانِ
زُهْـدٌ عَن الدُّنيا وزُهْـدٌ في الثَّنَـا طُـوبَـىٰ لِمَـنْ أمْسَـىٰ لَـهُ الـزُّهْـدَانِ
وَأحْـفَظْ لِجَـارِكَ حَقَّـهُ وذِمَــامَـهُ ولِكُـلِّ جـارٍ مُسْـلِمٍ حَقَّـانِ
وأضْحَكْ لِضَيْفِكَ حِينَ يُنْزِل رَحْلَهُ إنَّ الكَـرِيْـمَ يُسَـرُّ بالضِّيفَـانِ
واصِلْ ذَوي الأرْحامِ مِنْكَ وإنْ جَفَوْا فَـوِصَـالُهُـمْ خَـيْرٌ مِـنَ الهِجْـرانِ
وَاصْــدُقْ وَلا تَحْـلِفْ بِـربِّـكَ كَـاذِبـاً وتَحَـرَّ فـي كَفَّـارةِ الأيْمَـانِ
وَتَـوَقَّ أيْمَــانَ الغَمُــوسِ فَـإنَّهـا تَـدَعُ الـدِّيـارَ بَـلاقِـعَ الحِيْطَـانِ
أعْـرِضْ عن النِّسوان جُهْدَكَ وانْتَدِبْ لِعِنـاقِ خَـيْراتٍ هُنَـاكَ حِسَـانِ
فـي جَنَّـةٍ طـابَـتْ وطَـابَ نَعِيْمُهَـا مِـن كُـلِّ فـاكِهـةٍ بهـا زَوجـانِ
إن كُـنْتَ مُشْـاقـاً لَهَـا كَلِفـاً بِهَـا شَـوقَ الغَـرِيْـبِ لِـرُؤْيَـةِ الأوطَـانِ
كُـنْ مُحْسِـناً فيمـا أستطعتَ فَـرُبَّمـا تُجْـزَىٰ عَـن الإحْسـانِ بالإحسـانِ
وأعْمَـلْ لِجَنَّـاتِ النَّعـيمِ وطِيْبِهَـا فَنَعِيْمُهَـا يَبْقَـىٰ وَلَيْسَ بِفَـانِ
قُمْ في الدُّجَىٰ وأتْلُ الكِتابَ ولا تَنَمْ إلَّا . كَنَـوْمَـةِ حَـائِـرٍ ولْهَـانِ
فلَـرُبَّمـا تَـأْتِـي المَنِيَّــةُ بَغْتَـةً فَتُسَـاقُ مِـن فُـرُشٍ إلـى الأكْفَـانِ
يـا حَبَّـذا عَيْنَـانِ فـي غَسَقِ الدُّجى مِـن خَشْـيَةِ الـرَّحْمٰـنِ بـاكِيَتـانِ
لا تَجْـزعَـنَّ إذا دَهَتْـكَ مُصِيْبَـةٌ إنَّ الصَّبُــورَ ثَـوَابُـهُ ضِعْفَـانِ
فَـأذا أبْتُلِيْـتَ بِنَكْبَـةٍ فَاصْـبِرْ لَهَـا اللَّـهُ حَسْـبِي وحْـدَهُ وكَفَـانِـي
وَعَـلَيْكَ بالفِقْـهِ المُبَيِّنِ شَـرْعَنَـا وفَـرائـضِ المِـيْرَاثِ والقُـرْآنِ
أمْـرِرْ أحَـادِيثَ الصِّفـاتِ كَمـا أتَتْ مِـن غَـيرِ تَحْـرِيْـفٍ ولا هَـذَيـانِ
هـو مذهـب الزُّهـري ووافَقَ مَـالِكٌ وَكِـلاهُمـا فـي شَـرْعِنـا عَلَمَـانِ
والله يَـنْزل كُـلَّ آخِـرِ لَيْـلَةٍ بِسَمَائِـهِ الـدُّنيـا بـلا كِتْمـانِ

فيقولُ هَلْ مِن سَائِلٍ فأُجِيْبُهُ   فَأنا القَريبُ أُجيبُ مَن نَادَانِي
والأصْلُ أنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ   شَيءٌ تَعَالَىٰ الرَّبُّ ذُو الإحسانِ
صلَّىٰ الإلٰهُ علىٰ النَّبيّ مُحَمَّدٍ   ما ناحَ قَمْرِيٌّ على الأَغْصَانِ
وعلىٰ جَمِيْعِ بَنَاتِهِ وَنِسَائِهِ   وَعلىٰ جَمِيْعِ الصَّحْبِ والإخْوانِ

« موعظة »

عباد الله أين الذين سادوا وشادوا أوطانا ، وحكموا وأحكموا بنياناً ، وجمعوا فحشدوا أموالا وأعوانا عوضوا بأرباح الهوى خسرانا ، وبدلوا بإعزاز الكبر والتجبر هَوانا وأخرجوا من ديارهم بعد الجموع وحدانا ، وما استصحبوا مما جمعوا إلا أكفانا .

نَصِيْبُكِ مِمَّا تَجْمَعَ الدَّهْرَ كُلَّهُ   رِدَاآنِ تُطْوَى فِيْهِمَا وحَنُوْطُ
آخر : فما تزودَ مما كان يجمعه   سِوَى حَنوط غداة البين في خرق
وغير نِفحة أعوادٍ تشبُّ له   وقَلّ ذلك مِن زاد لمنطلق

يحْمَلْونَ على الأعناق ولا يُسَمَّونَ رُكبانا ، ويَنْزلُونَ بُطونَ الألحادِ ولا يُسَمَّونَ ضِيْفَانَا ، مُتقارِبين في القبور ولا يُسَمَّوْنَ جيرَانَا .

أو ليس قد رأينا كيفَ يُنْقَلُونَ ولا كَفَانَا ، فيا مَن قَد بَقِي مَن عُمُرِهِ القَليلُ ولا يَدْرِي مَتَى يَقَعُ الرحيل ، كأنكَ بطَرْفِكَ حِيْنَ الموت يَسِيْلُ والروحُ تنزعُ والكربُ ثقِيْل ، والنُّقْلَةُ قد قَربَتْ وأينَ المقيل ، أفي الجنةِ ونِعيمها والسَّلْسَبيلِ أم في الجحيم وأنكالِها وأغلالِها وبِئْسَ المقيل .

يا مَن تُعَدُّ عليه أنْفَاسُهُ اسْتَدْركْها ، يا مَّنَ سَتَفُوتُه أيامُهُ أدْركْهَا ، إنَّ أعَزَّ الخَلْق عَليكَ نَفْسُكَ فلا تُهلِكْهَا كَمَ أغْلقْتَ بَاباً على قَبيحْ ، وكم

أعْرَضْتَ عن قولِ المخلصِ النَّصِيْحِ ، أعظم الله أجرك في عمر قد مضى ما رزقت فيه العفو ولا الرضى .

إنقضَتْ فيه اللذاتُ كَمَن قَضَى ، وصارتِ الحسراتُ مِن الشهوات عِوضًا ، قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ وأنذرهم يومَ الحسرة إذا قُضِي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الخاسرين ﴾ والله أعلم وصلى الله على محمد .

« موعظة »

عِباد الله ما هذه الغفلة وأنتم مستبصرون وما هذه الرقدة وأنتم مستيقظون كيف نسيتم الزاد وأنتم راحلون ، أينَ مَن كان قبلكم ألا تتفكرون أما رأيتم كيف نازلهم المنون ﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

عباد الله لو حضرت القلوب لجرت من العيون عيون فكأنكم بالآلام قد إعْتَرَضَتْ ، وبالأجسام قد إنقضت ، وبالأوصال قد فصلت ، فرحم الله عبدا أعتق نفسه من رق شهواتها ونظر لها قبل مماتها وأخذ من جدته عَتاداً لفقره وإدخر من صحته زاد لقبره قبل أن يفوت زمن الاستدراك بوقوع الهلاك .

فكأنكم بالموت قد حل العراص ، وأنشب مخاليبه في الأرواح للاقتناص ، وأين لكم الفلات فلا تحين مناص ثم يقومون للحساب والجزاء والقصاص .

وإذا الخلائق قد حشرت ، وإذا الصحف قد نشرت ، وإذا جهنم

قد سيقت ومرارة الندم قد ذيقت ، فستنطق عليكم الجوارح وتنشر حين القضاء الفضائح .

فيا خجل المقصرين ويا أسف المذنبين ويا حسرة المفرطين ويا سوء منقلب الظالمين ، قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ ولا تحسبن الله عافلا عما يعمل الظالمون . إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

خَفِ الله في ظلمِ الورَى واحْذَرَنَّهُ   وخَفْ يومَ عض الظالمين على اليد

والله أعلم وصلى الله محمد وآله وسلم .

فصل : قال بعضُ السلفَ : ما سَبَقهُم أَبُو بكرٍ بكثرةِ صَومٍ ولا صَلاةٍ ولكن بِشيَءٍ وقَرَ في صَدْرِهِ .

وقال بَعْضُهم : الذي كان في صدرِ أبي بكرٍ رضي الله عنه المحبةُ لله والنصيحةُ لِعبادِهِ .

وقال طائفةُ مِن العارفين ما بلغَ مَن بَلغ بكثرةِ صيامٍ ولا صَلاةٍ ولَكِنْ بسَخَاوَةِ الأَنفسِ وسَلاَمِة الصدرِ والنصيحةِ لِلأُمَّةِ ، زادَ بَعْضُهُم : وبِذَمِ نُفُوسِهم .

وقال آخَرُ إنما تَفَاوَتُوا بالارَادَاتِ ولم يَتَفَاوَتُوا بكَثْرةِ الصِيامِ والصَلوات .

وذُكِرَ لأبي سُليمان : طُولَ أَعْمَارِ بَني إسرائيلَ وشِدَّةِ إجْتِهادِهم في الأعمالِ ، وأَنَّ مِنَ الناسِ مَن غَبَطَهُمْ بِذلكَ ، فقالَ : إنما يُريدُ الله منكم صِدقَ النيةِ فيما عِنده . أو كَمَا قال .

وقال إبنُ مَسعودٍ رَضِي اللّهُ عنه لأَصْحَابِهِ : أَنتمُ أَكْثَرُ صَوماً وصَلاةً مِن أَصْحَابِ محمدٍ ﷺ ، وهمَ كانُوا خَيراً مِنكم ، قالوا : وبما ذاكَ ؟ قال كانُوا أزْهَدَ منكم في الدنيا وأرغبَ في الآخرة .

يُشِير إلى الصحابةَ رضي اللّهُ عنهم فاقُوا على مَن بَعدَهُم بِشِدّةِ تَعَلْقِ قلوبهم بالآخرةِ ورَغْبتِهم فيها وإعراضِهم عن الدنيا وتحقيرِها وتصغيرِها .

وهذه الحالُ وَرثُوها مِن نَبيهم ﷺ ، فإنه كان أشدَّ الخلقِ فَراغاً بقَلبهِ مِن الدنيا وتَعَلُقهُ بالله والدارِ الآخِرَةِ مَعَ مُلاَبَستِهِ لِلْخَلْقِ بِظَاهِرِه ، وقِيامهِ بأَعْباءِ النُبوةِ وسِيَاسَةِ الدِين والدنيا .

وكـذلـك خُلَفَـاؤُهُ الـراشِدُون بَعدَهُ ، وكذلكَ أَعْيَانُ التابعينَ لهم بإحسانٍ كالحسنِ وعمرَ بن عبدِ العزيز وقد كان في زَمَانِهم مَن هُو أكثرُ منهم صَوْماً اللّهُمَّ أرْزُقْنَـا حُبّـكَ وحُبَّ مَن يُحبُّكَ وحُبَّ العَمَلِ الذي يُقَرِّبُنَا إلى حُبِّكَ ، اللّهُمَّ ثَبِّتْ إيْمَانَنا ثُبُوْتَ الجبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَوَفقْنَا لِلْعَمَل بالبَاقِيَاتِ الصَّـالِحَاتِ واعْصِمْنَا يا مَوْلاَنَا عن المُحَرَّمَاتِ والمُشْتَبِهَاتِ واغْفِرْ لَنا جَمِيْعَ الخَطَايَا والزَّلاّتِ وافْتَحْ لِدُعَائِنَا بابَ القَبُولَ والإجابَات يَا أَجْودَ الأَجْوَدِين وأَكْرمَ الأَكرمين وصَلى الله على محمد وعلى آلِه وصحبه أجمعين .

(فَصْـــــلٌ)

وقال إبن رجب رحمه الله على « قوله ﷺ في حديث أبي هريرةَ وعائشةَ رضي الله عنهما فسددوا وقاربوا المراد بالتسديد العملُ بالسداد ، وهو القصدُ والتوسطُ في العبادة فلا يُقصرُ فيما أمر به ، ولا يَتحَمَّلُ منها ما لا يطيقه » .

قال النظر بنُ شُمَيل : السدادُ القصدُ في الدين والسبِيل ، وكذا

المقاربةُ ، المراد التوسطُ بين التفريطِ والافراطِ فهما كلمتان بمعنى واحد أو متقارب ، وهو المرادُ بقوله في الرواية الأخرى : « عليكم هَدْياً قاصداً » .

قوله : وأبشروا يعني أن مَن مَشَى في طاعة الله على التسديدِ والمقاربةِ فَلْيَبْشِرْ ، فانه يصِلُ ويسبقُ الدائبَ المجتهد في الأعمال فان طريقةَ الاقتصادِ والمقاربةِ أفضلُ مِن غيرها .

فمن سلكها فليبشر بالوصول فان الاقتصادَ في سُنّةٍ خيرٌ مِن الاجتهاد في غيرها . وخيرُ الهدي هدىُ محمد ﷺ ، فمَن سلكَ طَريقة كان أقرب إلى الله من غيره .

وليست الفضائلُ بكثرةِ الأعمالِ البدنيةِ ، لكن بكونها خالِصَةً لله صواباً على متابعةِ السنةِ وبكثرةِ مَعَارِف القلوبِ وأعمالِها .

فمن كان بالله أعلم وبدينه وأحكامه وشرائعه أعلم ، وله أخوفَ وأحَبَّ وأرْجَى فهو أفضلُ ممن ليس كذلك ، وإن كان أكثر منه عملاً بالجوارح .

وإلى هذا المعنى الاشارة في حديث عائشة رضي الله عنها بقول النبي ﷺ : « سَدِدُوا وقارِبُوا وإعْلَمُوا أنه لن يُدخِلَ أحداً منكم عملُه الجنة ، وإن أَحَبَّ الأعمالِ إلى الله أدْوَمُها وإن قَلّ » .

فأمر بالاقتصاد في العمل وأن يضم إلى ذلك العِلْمَ بأحَبّ الأعمالِ إلى الله ، وبأن العمل وحده لا يُدخل الجنة .

وصلاةً ، ولكن لم يصلْ قلبُه إلى ما وَصِلَتْ إليه قلوبُ هؤلاءِ من إرتحاله عن الدنيا وتَوَطُّنِهَا في الآخِرةِ .

فأفضلُ الناسِ من سلك طريقَ النبي ﷺ وخواصِ أصحابهِ في الاقتصاد في العبادةِ البدنيةِ والاجتهادِ في الأحوالِ القلبيةِ فإن سَفَرَ الآخرةِ يُقْطعُ بِسَيرِ القلوبِ لا بِسَيرِ الأبدان .

جاء رجلٌ إلى بعض العارفين فقال له : قَطَعْتُ إليكَ مَسَافَةً ، فقال له ليس هذا الأمرُ بقطعِ المسافاتِ ، فارق نفْسَكَ بخطوةٍ وقد حَصَلَ لكَ مَقْصُوْدُكَ . قال أبو يَزيد : رأيتُ رَبَّ العِزةِ في المنامِ فقلتُ لهُ : يا رب كيفَ الطريقُ إليك ؟ قال : أترِكْ نَفْسَكَ وتَعَالَ .

ما أعطيتْ أمُةٌ مَا أعُطِيَتْ هذا الأمةُ ببركةِ مُتَابَعَةِ نبيها ﷺ ، حيثُ كان أفضـلُ الخلقِ ، وهديهُ أكملُ الهُدي مع ما يَسرَ الله على يَدَيه مِن دِينهِ ، ووضعَ به الآصارَ والأغلالَ عن أمتهِ ، فمن أطاعهُ فقد أطاعَ الله وأحبه الله ، وإهتدى بهدي الله .

فمن جملةُ ما حصل لأمتِهِ ببَرَكَتِهِ وتَيْسِيرِ شَرِيْعَتِهِ أن مَن صَلّى منهم العِشَاء في جماعةٍ فكأنما قامَ نِصفَ اللَيل ، ومن صلى الفجر في جماعةٍ فكأنما قامَ الليلَ كُلّهُ ، فيكتبُ له قِيامُ ليلةٍ وهو نَائم على فراشِهِ ، ولا سيما إن نامَ على طُهْرٍ وذِكْرٍ حَتَّى تَغْلِبُهُ عَيناه .

ومَن صام منهم ثلاثةَ أيامٍ من كل شهرٍ فقد صامَ الشهرَ كلّه فهو صائمٌ لِبقيةِ الشهرِ في ضِيافةِ الله ، ومُفْطِرٌ له في رُخَصه والطاعمُ الشاكُر له أجرُ الصائم الصابر . ومَن نَوى أن يقومَ مِن الليلِ فَغَلَبْته عَيْنَاهُ فنامَ كُتِبَ له ما نوى ، وكان نومُهُ عليه صَدَقَةً .

وقال أبو الدرداء يا حبذَا نَومُ الاكياس وإفطارُهُم كَيْفَ يسْبقُون سَهَرَ الحَمْقَى وصيَامَهُم . ولهذا جاء في الحديث الصحيح : « رُبَّ قائمٍ حَظُه مِن قِيامِهِ السَّهَرُ ، وصائمٍ حظُه مِن صِيامِهِ الجوعُ والعَطَشُ » رواه الطبراني وأحمدُ بنُ حنبل .

وقال بعضُهم : كم مِن مُسْتَغِفرٍ مَمْقُوتٍ وساكتٍ مَرحُومٍ ، وهذا إستغفرَ وقلبُه فاجرٌ ، وهذا ساكتٌ وقلبُه ذَاكِـرٌ ، وقال بعضُهم : ليس الشأنُ فيمن يَقُومُ الليلَ ، إنما الشَّـأْنُ فِيمنَ ينَامُ على فِراشه ثم يُصبِحُ وقد

اللهم وَفِّقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ إليه القَوْمِ وأَيْقِظْنَا مِن سِنةِ الغَفْلَةِ والنَّوم وأرزقْنَا الاستعـدادَ لِذَلِكَ اليَوْمِ الذي يَرْبَحُ فيه المُتَّقُونَ اللهم وعامِلنَا بإِحْسَانِك وَجُدْ علينا بِفَضْلِكَ وامْتِنَانِكَ واجعلنا مِن عِبادِكَ الذين لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنـون اللهم ارحَمْ ذُلَّنـا بَيْنَ يَدَيْكَ واجعلْ رَغْبَتَنَا فيما لَدَيْكَ ، ولا تَحرمنـا بِذُنـوبنـا ، ولا تَطْرُدْنَـا بعُيوبنا ، واغفر لنا وَلِوالدينا وَلجميع المُسْلمِـين الأَحياء مُنْهُم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِينْ وصلّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِينْ .

(فَصْـــــلٌ)

وقال رحمه الله :

قولـه ﷺ : « اغْـدُوا ورُوْحُوا وشيء مِن الدلجة » كقوله في الرواية االأخرى : « إستعينوا بالغدوةِ والروحةِ وشيءٍ مِن الدلجة » ، يعني أن هذه الأوقاتِ الثلاثةَ تكون أوقاتَ السَّير إلى الله بالطاعات ، وهي آخر الليل وأولّ النهارِ وآخرهُ .

وقد ذكر الله هذه الأوقاتَ في قوله تعالى : ﴿ واذكر إسم ربكَ بُكْرةً وأصِيْلاً - ومِن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ . وقال : ﴿ وسبح بحَمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل وأطراف النهارِ لعلك ترضى ﴾ ، وقال ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب - ومِن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ .

وذكر الله تعالى الذكر في طَرَفيّ النهار في مواضع كثيرة من كتابه كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ وقال : وإستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك العشيّ والإبكار ﴾ ، وفي ذكر زكريا عليه السلام ﴿ واذْكُر رَبَّكَ كَثِرا وسَبِح بالعَشِي والإبكار ﴾ . وقال ؛ ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ وقال : ﴿ فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرةً وعشياً ﴾ .

فهذه الأوقات الثلاثةُ منها وقتانِ وهما أول النهار وآخِرُهُ يجتمع في كل مِن هذين الوقتين عَمَلٌ واجبٌ هو تَطوعٌ فأما العملُ الواجبُ فهو صَلاةُ الصبحِ وصلاةُ العصرِ وهما أفضل الصلواتِ الخمسِ ، وهما البَرْدَانِ الّلذانِ مَن حافظ عَلَيْهِمَا دَخَل الجنة ، وقد قيل في كِل منهما أنها الصلاةُ الوسطى . .

وأما العمـلُ التطوعُ فهو ذِكْرُ الله بعدَ صَلاةِ الصبح حَتَّى تطلعَ الشمسُ ، وبعد العصر حتى تغربَ الشمسُ . وقد ورد في فضله نصوصٌ كثيرةٌ ، وكذلك وردت النصوصُ الكثيرةُ في أذكارِ الصباحِ والمساءِ وفي فضلِ مَن ذَكَر الله حيثُ يصبحُ وحيثُ يُمسِي .

وقد روي من حديث إبن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « إبنَ آدم إذكرني ساعةً مِن أولِ النهارِ وساعةً مِن آخِره أغْفِر لكَ ما بينَ ذلكَ إلا الكبائَر أَوْ تَتُوبَ منها » . وكان السلفُ لآخر النهارِ أشدَّ تعظيماً مِن أولِهِ .

قال إبنُ المبارِكِ : بلغنا أنه مَن خَتَم نهارهُ بِذِكَرِ الله كُتَب نهارهُ كلُه ذكراً . وقال أبو الجَلْدِ : بلغنا أن الله تَعالى يَنزلُ مَساءَ كِلَ يومٍ إلى السماءِ الدنيا يَنظُرُ إلى أعمالِ بني آدم .

ورأى بعضُ السلفِ أبا جعفرٍ القاري في المنام فقال له : قل لأبي حازم - يعني الأعرجَ الزاهدَ الكَيّسَ : إن الله وملائكتَه يتراؤنَ مَجْلِسَكَ بالعشَياتِ . والظاهرُ أن أبا حازمٍ كان يَقُصُّ على الناسِ آخر النهارِ .

وقد جاء في الحديث أن الذكرَ بعدَ الصبح أفضلُ مِن أربع رقابٍ وبعد العصر أحبّ مِن ثمانٍ . وأيضاً فيومُ الجُمعةِ آخِرُهُ أفضلُ مِن أوّلِهِ لما يُرجى في آخِرِهِ مِن ساعةِ الاجابة .

ويومُ عرفَةَ آخِرُهُ أفضلُ مِن أولِهِ لأنه وقْتُ الوقوف . وكذلك آخِرُ الليل أفضلُ مِن أولِهِ ، وكذا قال السلفُ ، واستدلوا بحديث النزولِ الإلهي . وهذا كلُه مما يُرجحُ به قولُ مَن قال أن صلاةَ العصرِ هي الوُسْطَى .

وأما الوقتُ الثالثُ فهو الدلجةُ . والإدلاجُ سيرُ آخِرِ الليل ، والمرادُ هنا العملُ في آخرِ الليل وهو وقتُ الاستغفارِ كما قال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ وقال : ﴿ وبالاسحار هم يستغفرون ﴾ .

وهو آخرُ أوقاتِ النزولِ الإلهي المتضمنِ لاستعراضِ حوائج السائلين ، وإستغفارِ المذنبين ، وتوبةِ التائبين ، وسط الليلِ للمحبين لِلخَلْوةِ بحبيبهم ، وآخرُ الليل للمذنبين يَستغفرون مِن ذنوبهم ، مَن عجزَ عن مُشاركةِ المحبين في الجَرِي مَعَهُم في ذلك المضمار فلا أقلّ مِن مُشاركةِ المذنبين في الاعتذار .

وَرَدَ في بعضِ الآثار : أن العرشَ يَهتزُّ مِن السحرِ . قال طاووسُ ما كُنْتُ أظنُ أن أحَداً يَنامُ في السحر .

وفي الحديث الذي خرجه الترمذي : « من خاف أدلج ومن أدلج بلـغ المنزل . سير الدّلجة آخرَ الليل يَقطُع به سَفَرَ الدنيا والآخِرةِ .

ولهذا الحديث الذي خرجه مسلم : « إذا سافرتم فعليكم بالدُلجة فإن الأرضَ تُطوى بالليل » وقد دَخَل الأشتر على عَلي رضي الله عنه وهو يُصّلي فأنشد :

إصْبِرْ على مَضَض الإدلاج بالسَّحَر ... وفي الرَّواح على الطاعاتِ والبُكَر
لا تَضْجَرَنّ ولا يُعْجِزْكَ مَطْلَبُهَا ... فالهـمُ يَتْلفُ بين اليأسِ والضَّجَـر
إنـي رأيـتُ وفـي الأيـام تَجْرِبَـةٌ ... لِلصَّـبْرِ عـاقبـة مَحْمُـودَةَ الأثـر
وقَـلّ مَـن جَـدَّ فـي أمـرٍ تَطَلّبَـهُ ... واستصحبَ الصَّبْرَ الا فـازَ بالظفـرِ

اللّهُمَّ أَلحِقْنـا بِعِبَـادِك الصّـالحِينَ الأبْرَارْ ، وَآتِنَا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِـرَة حَسنَـةً ، وَقِنَـا عذابِ النّـارْ ، واغْفـرْ لَنَـا وَلِوَالِدَيْنا ، وَلجميعِ المُسْلمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم والمَيِّتِينَ ، برَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين ، وَصَلَّى اللَّهُ على سَيّدِنا مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْـــــلٌ)

وقال رحمه الله :

وقـولـه ﷺ « والْقَصْـدَ القصـدَ تبلُغُـوا » حَثَّ على الاقتصادِ في العبادةِ ، والتوسطِ فيها بينَ الغلوَ والتقصيرِ» ، ولذلك كَرَّرَهُ مَرَّةٍ بَعْدَ مَرةٍ .

وفي مسند البزارِ من حديث حذيفةَ رضي الله عنه : ما أَحْسَنَ القصدَ في الفقرِ ، وما أحسنَ القصدَ في الغِنى ، وما أحسنَ القصدَ في العِبادة .

وكان المطرفُ بنُ عبدِ الله بهن الشّخِيْرِ قد إجتهدَ في العِبَادَة فقال له

أبوُه : خَيرُ الأمور أوسطها ، الحسنةُ بين السَيئتين ، وشرُ السَّير القَحْقَحَةُ أن يُلحَّ في شِدَّةِ السيرِ حتى تقومَ عليه راحلتُه وتَعْطَبُ فَيبقَى مُنْقَطَعٌ بِهِ سَفَرُهُ ، إنتهى .

ويَشهدُ لهذا الحديثُ المروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن هذا الدينَ مَتِينٌ فأوْغلْ فيه برفقٍ ولا تُبغِضْ إلى نفسكَ عِبادةِ الله ، فإن المنبتَّ لا سَفَرًا قَطَعَ ولا ظهراً أبقَى فاعملْ عَمَلَ إمرىءٍ يظنُّ أنه لن يموُت إلا هَرَماً وإحْذَرْ حَذَرَ إمرىءٍ يَخشَىَ أن يموتَ غداً » أخرجه حميدُ بنُ زَنجوَية وغُيره .

وفي تكرير أمره بالقصدِ إشارةٌ إلى المداومةِ عليه فإنَّ شِدَّةَ السيرِ والاجتهادَ مَظِنَّةٌ السآمةِ والانقطاع ، والقصدُ أقربُ إلى الدوامِ ، ولهذا جعل عاقبةَ القصدِ البلوغَ . قال أدَلجَ : بَلَغَ المنزلَ .

فالمؤمنُ في الدنيا يسيرُ إلى ربهِ حتى يبلُغَ إليه كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ، قال الحسن : يا قومُ : المداومةَ فإن الله لم يجعلُ لِعَملِ المؤمن أجلاً دونَ الموت ثم تَلَى هذه الآية .

وقال أيضاً : نُفُوسُكُم مَطَايَاكُم فأصلحوا مَطَايَاكُم تُبَلِّغكُم إلى ربكُمْ عَزَّ وجل . وإصلاح المطايا ، الرفقُ بها وتعاهُدها بما يصلحها مِن قوتِها والرفْقُ بها في سيرِها ، فإذا أَحَسَّ بها بتَوَقّفٍ في السَّيرِ تعَاهَدَهَا تَارةً بالتَّشْويْقِ وتارةً بالتخويفِ حتى تسيرَ .

قال بعضُ السلفِ : الرَّجَاءُ قَائدٌ والخَوفُ سَائِقٌ ، والنفسُ بينهما ، كالدابةِ الحرون ، فمتى فَتَر قَائدُها وقَصَّرَ سَائِقها وقَفَتْ فتحتاجُ إلى الرِّفْقِ بها والحُدُو لها حتى يَطِيْبَ لها السير .

قال خُليْدُ العَصَرِيُ : إن كلَّ حَبْيب يُحبُ أن يَلْقى حَبْيبَـهُ فأحِبو رَبَّكم وسـيَرُوا إليه مَسِيْراً جَمِيْلًا لا مُصْعِداً ولا مُمِيلاً ، فغايةُ السيرِ يُوصِلُ المؤمنَ إلى ربهِ ، ومَن لا يعْرِفُ الطريقَ إلى ربِهِ لم يَسْلُكْ إليه فيه ، فهو والبهيمةُ سَواء .

قال ذُوْ النون : السَّفَلَةُ مَن لا يعرفُ الطريقَ إلى الله ولا يَتَعَرَّفُهُ . والطريقُ إلى الله هو سُلوكُ صِراطِهِ المستقيم الذي بَعثَ الله بِهِ رِسُوَلَهُ وأنزلَ بِهِ كِتَابهُ وأمَرَ الخلقَ كُلّهُم بسُلُوكِهِ والسَّيرِ فِيه .

قال إبن مُسعودٍ رضي الله عنه : الصراطُ المستقيمُ ، تَركَنَا مُحمدٌ ﷺ في أدَنَاهُ وطَرَفُه في الجنةِ ، وعن يمينه جَوَادٌ وثَمّ رجالٌ يدعونَ مَنَ مَرَّ بهم ، فمَن أخذَ في تلك الجوَادِ إنتهتْ به إلى النار ، ومَن أخذ على الصِراطِ إنتهى به إلى الجنـة . ثم قرأ : ﴿ وأن هذا صِراطِي مستقيماً فاتبعـوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ خرجه إبن جرير وغيره .

فالـطريقُ المـوصلُ إلى الله واحدٌ ، وهو صراطُه المستقيمُ ، وبقيةُ السبلِ كُلَّها سُبلُ الشيطانِ ، مَن سلَكَها قَطعَتْ بهِ عن الله ، وأوصَلَتْهُ دَارَ سَخَطِهِ وغَضَبهِ وعِقابه ، فربما سَلكَ الإنسانُ في أولِ أمرهِ على الصراطِ المستقيم ثم يَنْحَرِفُ عَنهَ آخِرَ عُمُرهِ فيسلكُ بعضَ سُبُلَ الشيطانِ فيقطعُ عن الله فَيَهلكُ .

« إن أحدَكُم ليعملُ بعملِ أهل الجنةِ حتى ما يكونُ بينه وينَها إلا ذراعٌ إلا ذراعٌ أو باعٌ فيعملُ بعملِ أهل النار فيدخلُ النارَ » وربما سلكَ بالـرجـل أولاً بعضَ سُبُلِ الشيطَانَ ثم تُدركُه السعادةُ فيسلكُ الصراطَ المستقيمَ في آخرِ عُمُرِه فيصلُ به إلى الله .

والشأنُ كُلَّ الشأنِ في الاستقامةِ على الصراطِ المستقيمِ مِنْ أول السير إلى الله ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . ما أكثرَ مَن يرْجِعُ أثناءَ الطريق وينْقَطِعُ ، فإن القلوبَ بينَ إصبعين من أصابعِ الرحمنِ ﴿ يثبتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ .

خَلِيْلَيَّ قُطّاعُ الطّريقِ إلى الحِمَا كَثِيرٌ وأمَّا الوَاصِلُونَ قَلِيْلُ

وفي الحديث الصحيح الإلهي (القدسي) يقول الله عز وجل : ﴿ مَن تَقَرَّبَ مني شِبراً تَقَرَّبْتُ منه ذراعاً ، ومَن تَقَرب مِني ذِراعاً تَقَرَّبْتُ منه باعاً ومَن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلَة » .

وفي المسند زيادة « والله أعلا وأجل والله أعلا وأجل » وفيه أيضاً : يقول الله : ﴿ إبنَ آدمَ قُمْ إليَّ وامْشِ إليَّ أهرولْ إليكَ ﴾ .

اللَّهُمَّ أَعِذْنَا بِمُعافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ واحْفَظ جَوارِحَنا مِن مُخالَفَة أَمْرِك واغْفِرْ لَنَا وَلِوالِدَيْنَا وَلِجَمِيعَ المسلمين الأَحياءِ منهم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين وَصَلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحبِهِ

(فَصْـــــلٌ)

وقال رحمه الله :

الوصولُ إلى الله نوعان : أَحَدُهما في الدنيا ، والثاني في الآخِرَةِ . فأما الوصولُ الدنيويُ فالمَرادُ به : أن القلوبَ تصل إلى مَعْرِفَتِهِ ، فإذا عَرَفَتْهُ أحبته ، وأنِسَتْ بِهِ ، فوَجَدْتُه منها قريباً ، ولِدُعَائِها مُجيباً ، كما في بعض الآثار : « إبنَ آدمَ أطلبني تجدني فإن وجَدتني وجدتُ كُلَّ شيءٍ ، وإن فِتُكَ فَاتكَ كُلّ شيءٍ » .

« الصراطُ المستقيمُ في الـدنيا يشتملُ على ثلاثِ درجاتٍ : درجةِ الإِســلامِ ، ودرجـةِ الايمان ، ودرجـةِ الإِحسـان . فمن سَلَكَ دَرَجَـةَ الإِسلامِ إلى أن يَمُوتَ عليها مَنَّعتْهُ مِن الخلودِ في النارِ ، ولم يَكُنْ له بُدٌّ مِن دُخولِ الجنة ، وإن أصابَهُ قبلَ ذلكَ ما أصابَهُ .

ومَن سَلَكَ على دَرَجَةِ الايمانِ إلى أن يموتَ عليها مَنَعَتْهُ مِن دخولِ النارِ بالكليةِ فإن الايمانَ يُطفِىءُ لَهَبَ نارِ جهنم حتى تقولَ : يا مُؤْمَنُ جُزْ فقد أطفأ نُورُكَ لَهبي .

وفي المسند عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً : « لا يَبْقى بَرٌّ ولا فاجرٌ إلا دَخَلَها فتكونُ على المؤمنِ بَرْداً وسَلَاماً كما كانَتْ على إبراهيم ، حتى إن لِلنّـارِ ضَجِيْجـاً مِن بَرْدِهِمَ ، هذا مِيْرَاثٌ ورثَـه المحبونه مِن حَالِ أبيهم إبراهيم عليه السلام » .

ومَن سلك على درجة إحسان إلى أن يموت عليها وَصِلَ بعدَ الموتِ إلى الله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ . وفي الحديث الصحيح : « إذَا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ نادَى مُناد يا أهل الجنةِ إن لكم عندَ الله مَوعداً يُريدُ أن يُنْجزَكُمُوهُ .

فيقولون ما هو؟ ألمَ يبيض وجوهنا ؟ ألم يثقل موازيننا ؟ فوالله ما أعـطاهُم الله شيئـاً أَحَبَّ إليهم ، ولا أقرّ لأعينهم من النظر إليه ، وهو الزيادةُ ، ثم تلا : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

كُلُ أهلِ الجنةِ يَشتَركُونَ في الرُوايةِ ولكن يَتَفَاوتُون في القرُبِ في حال الـرؤيةِ . عُمُـومُ أهـلِ الجنـةِ يرَوْنَ ربَّهم يومَ المـزيدِ وهـو يوم الجمعة ، وخواصُهم يَنْظُرونَ إلى وجه اللَّهِ في كُلِ يَومٍ مَرتَين بكرةً وعَشِياً . العارفونَ لا يُسَلِّيْهِم عن محبوبِهم قَصرٌ ولا يُرويْهم دونَه نهرٌ .

ويَـرونَـهُ سُـبحانَـهُ مِـن فَـوقِهـم ... نَظَـر العِيـانِ كمـا يُـرىَ القَمَـرانِ
هـذا تَـواتَـر عـن رسـولِ اللّهِ لم ... يُنكِـرهُ إلا فَـاسِـدُ الايمـانِ
وأتـى بـه القـرآنُ تَصـريحـا وتَعْـ ... ـريضـاً هُمـا بِسِيَاقِـهِ نَـوعـانِ
وهِـيَ الزيـادةُ قَـدْ أَتتْ في يُونُسٍ ... تفْسِيرَ مَـن قَـدْ جـاءَ بالقـرآن
وهـي المـزيـدُ كـذاكَ فَسَّـرهُ أبـو ... بكـرٍ هـو الصـديقُ ذُو الايمـان
وعليـه أصحـابُ الرسـول تَتَابَعُـو ... هـم بعـدهـم تَبَعِيَّةَ الإحسـان

اللهم أمنُنْ علينَا باصْلاحِ عُيوبِنَا واجعلْ التقْوى زادَنا وفي دِيْنِكَ اجتهادَنا وعليك توكّلنا واعتَمادُنا واغفرْ لنا ولوالِديْنَا ولجميعِ المسلمينَ الاحياءِ منهم والميتينَ برحمتك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين .

(فِصْـــــلٌ)

وفي المسند عن إبن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « أن أدنَي أهلِ الجنةِ مَنزلةً لَيَنْظُرُ في ملكه أَلفَي سنة يَرى أقصاه كما يرى أدناه ، يَنظرُ إلى أزواجِهِ وخَدَمِهِ ، وأن أفضَلهُم مَنزلةً لمن يَنْظُر إلى وجْهِ الله تبارَكَ وتَعالَى كُلّ يَومٍ مَرَّتين » وخرجه الترمذي ، ولفظه « إن أدني أهل الجنة منزلةً لَمْن يَنظُر إلى أزواجِهِ ونعيمِهِ وخَدَمِهِ وسُرُرِهِ مَسْيرَةَ ألفَ سنة » .

وأكرمُهم على الله من ينظرُ إلى وَجْههِ غُدْوَةً وعَشِيّاً ثم قرأ رسولُ الله ﷺ : ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ - إلى ربها ناظرة ﴾ ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح ، حديث جرير بن عبدالله البَجَلي « إنكم سَتَرونَ رَبَّكُم يومَ القيامةِ كما تَرونَ القمرَ ليلةَ البدرِ لا تُضَامُونَ في رُؤْيَتِه » قال : « فان إسْتَطَعْتُم أَن لا تُغَلبُوا على صلاةٍ قَبلَ طَلوعِ الشمسِ وصلاةٍ قَبل

غُروبِها فافْعَلُوا » . ثم قرأ ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ .

ولما كان هذانِ الـوَقْتَـانِ في الجنة وقتانِ للرؤية في خواص أهلِ الجنةِ ، خَصَّ ﷺ على المحافظة على الصلاة في هذين الوقتين في الدنيا فَمَنْ حَافَظَ على هاتين الصلاتين في الدنيا في هذين الوقتين وصلاهُما على أكْملِ وُجُوهِمَا وخُشُوعِهِمَا وحُضُورهِما وأدَبِهِما فإنه يُرجَى له أن يكونَ مِمن يَرَى الله في هذين الوقتين في الجنة ، لا سيما إن حافظ بعدَهُما على الذكر وأنواعِ العِبادات حتى تطلعَ الشمسُ أو تغربَ .

فإن وَصَـلَ العبدُ ذلكَ بدُلجَةِ آخر الليلِ فقد إجتمعَ له السيرُ في الأوقات الثلاثةِ وهي : الدُلْجَةُ ، والغَدوةُ ، والرَّوْحَةُ ، فيوشكُ أن يَعْقِبَه الصِدقُ في هذا السيرِ الوصول الأعظم إلى ما يطلبه في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

مَن لَزِمَ الصِدق في طلبهِ أداهُ الصِدْقُ إلى مَقْعِد الصِدْق . ﴿ وبشر الذين آمنوا إن لهم قدَم صدقٍ عند ربهم ﴾ .

المحبُ لا يَقْطَعُ السؤالَ عَمَّنْ يُحِبُ ويَتَحَسَّس الأخبارَ وينْسِمُ الرِياحَ ويَسْتَدِلُ بآثار السلوكِ على الطريق إلى محبوبه .

لقـد كَبُرتْ هِمَّةُ الله مُطلوبُها وشرفَتْ نفسُ الله مَحْبُوبُها ﴿ ولا تطرد الذين يدعون بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ .

مـا للمحـبِ سـوى إرادة حِبـه   إنّ المحـبَّ بكُلِ بَـرٍ يُصْـرَعُ

قيمةُ كُلِ إمرىءٍ ما يَطْلُبُ ، فَمَن كانَ يَطْلُبُ الله فلا قيمةَ له من طَلَبَ الله فَهُو أجَلّ مِن أن يُقَوَّمَ . ومَن طَلَب غَيَرهُ فهو أخَسُّ مِن أن يكونَ لهُ قِيْمَة .

قال الشبلي : مَن ركن إلى الدنيا أحْرَقَتْهُ بنارِها فصارَ رماداً تَذْرُوْهُ الرياحُ ، ومَن ركن إلى الآخرةِ أحرقته بنورِها فصار سبيكةَ ذهبٍ ينتفعُ به ، ومَن ركن إلى الله أحرقه نُورُ التوحيد فصارَ جوْهَراً لا قيمة لَهُ .

اللّهُم هَبْ لَنا ما وهَبتهُ لأوْليائِكَ وتَوفّنا وأنتَ رَاضٍ عنّا وقَد قَبِلْتَ اليَسيرَ منّا واجْعلنَا يا مْولانا مِنْ عِبادِكَ الذينَ لا خَوفٌ عَليهِمْ ولا هِمُ يَحزنُونَ واغْفرْ لنَا ولوالِديْنَا ولجَميع المسلمينَ برحمتكَ يا أرحمَ الرَّاحِمِيْنَ

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصْـــــلٌ)

في قوله تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونو يحتسبون ﴾ هذه الآية كانت تَشْتَدُ على الخائفين مِن العارفين ، فانها تَقتضِي أن من العباد مَن يَبْدُو له عندَ لِقاء الله ما لم يكن يحتسب ، مثل أن يكون غافلا عما بين يديه مُعْرضاً غير مُلتفتٍ إليه ولا يَحتسِبُ له ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه : لو أن لي مُلْكَ الأرض لافتديتُ به مِن هَوْلِ المطلعِ .

وفي الحديث : « لا تمنوا الموتَ فإن هولَ المطلعِ شديد ، وإن مِن سعادةِ المرءِ أن يطَولَ عُمُره ويرزقه الله الإنابة » .

وقال بعضُ حكماء السلف : كم مَوقِفِ خِزيٍ يومَ القيامةِ لم يَخطُر على بالك قط . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

وإشتملَ على ما هو أعم مِن ذلك وهو أن يكون له أعمالٌ يرجو بها الخيرَ فتصيرُ هَباءً منثوراً وتبدلُ سيآت . وقد قال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم

كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ .

وقال : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ .

وقال الفضيلُ في هذه الآية : ﴿ وبَدَا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ قال : عملوا أعمالاً وحسبوا أنها حسنات فإذا هي سيئآت . وقَرِيبٌ من هذا أن يعملَ الإنسانُ ذنباً يحتقِرُهُ ويَسْتَهونُ به فيكون هو سَبَبَ هلاكِهِ . كما قال تعالى : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ .

وقال بعضُ الصحابةِ إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدقُّ مِن الشعر ، كنا نعهدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات ، وأصعبُ مِن هذا من زُيّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً . قال تعالى ﴿ قل هل نُنَبئكم بالأخسرين إعمالاً - الذين ضلّ سعْيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ .

قال إبن عيينة لَمَّا حَضرَتْ مُحمدَ بنَ المنكدر الوفاةُ جَزِعَ فَدَعُوْا له أبا حازم فجاءَ فقال له إبن المنكدر : إن الله يقول : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ فأخاف أن يبدوَ لي من الله ما لم أكن أحتسب . فجعلا يبكيان جميعاً . خرجه إبن أبي حاتم . وزاد إبن أبي الدنيا . فقال له أهله : دعوناك لتخفف عليه فزدته فأخبرهم بما قال .

وقال الفضيلُ بنُ عياض أُخبِرتُ عن سليمان التيمي أنه قِيلَ له : أنتَ أنتَ ومن مثْلك ؟ فقال مه لا تقولوا هذا لا أدري ما يَبدُو لي من الله . سمعتُ الله يقول : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ .

وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية : وَيْلٌ لأهْلِ الرِياء مِن

هذه الآية ، وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أولُ مِن تَسُعّرُ بهم النار ، العالم والمتصدق والمجاهد . وكذلك مَن عَمِل أعمالاً صالحةً وكانت عليه مظالمِ فهـو يظن أن أعـماله تنجيه فيبدو له ما لم يكن يحتسب ، فيقتسمُ الغرماءُ أعماله كلّها ثم يفضلُ لهم فضلٌ فيطرحُ مِن سيئَاتهم عليه ثم يطرح في النار .

وقـد ينـاقش الحساب فيطلب منه شكرُ النعم فتقوم أصغر النعم فتستـوعب أعماله كلها وتبقى بقيةٌ فيطالب بشكرها فيعذب . ولهذا قال عليه ا لصـلاة والسلام : « مَن نوقش الحساب عذب أو هلك » . وقد يكون له سيئَات تحبط بعضَ أعماله أو أعمال جوارحه سوى التوحيد فيدخل النار .

وفي سنن إبن ماجـة من رواية ثوبان مرفوعاً : « إن من أمتي مَنْ يجيىء بأعمال أمثال الجبال فيجعلها الله هباءًا منثوراً » وفيه : « وهم قوم من جلدتكم ويتكلمـون بألسنتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون من الليل ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله إنتهكوها » .

وخرج يعقوب بن أبي شعبة وإبن أبي الدنيا في حديث سالم مولى أبي حذيفة مرفوعاً : « ليجاءُ يوم القيامة بأقْوام معهم من الحسنات مثل جبال تهامة ، حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباءً ثم أكبهم في النار » .

قال سالم خشيتُ أن أكـون منهم . فقـال أما أنهم كانوا يصوُمون ويُصَلون ويأخذَون هُنَيهةً مِن الليل ، لعلهم كانوا إذا عَرَضَ لهم شيءٌ سرا حَراماً أخذوه فأدحضَ الله أعمالهم . وقد يحبط العمل بآفة من رِيَاءٍ خفي أو عُجُبٍ بِهِ ونحو ذلك ولا يشعر به صاحبه .

قال ضَيْغَمُ العابدُ : إن لم تأتِ الآخرةُ بالسرور لقد إجتمع عليه

الأمران هَمُّ الدنيا وشقاءُ الآخرةِ . فقِيل له : كيفَ لا تأتيه الآخرة بالسرور وهو يتعبُ في دار الدنيا ويَدأب ؟ قال : كيف بالقَبُول ، كيف بالسلامة .

ثم قال : كم مِن رجـل يَرى أنه قد أصلحَ عَمَلَهُ يُجمَعُ ذلك كلّه يومَ القيامة ثم يضربُ به وَجْهَهُ ، ومِن هنا كان عامر بن عبد قيس وغيره يقلقون مِن هذه الآية : ﴿ إنما يتقبلُ الله مِن المتقين ﴾ .

وقال إبنُ عَون : لا تثق بكثرةِ العمل ، فانك لا تَدْري يُقبلُ منكَ أم لا ، ولا تأمنْ ذُنـوبَـكَ فانك لا تَدرِي هَلْ كفّرتْ عنكَ أم لا ؟ لان عَمَلَكَ عنكَ مُغَيَّب كُلُّه لا تدرِي ما الذي صانع به . وبكى النخعيُ عندَ الموتِ وقال : أنتظرُ رَسُولَ رَبي ما أدري أيُبَشّرُني بالجنة أو النار ؟

وجزع غيرهُ عندَ الموتِ ، قِيل له تَجْزَع ؟ قال : إنما هي ساعةٌ ولا أدري أينَ يُسلكُ بي ؟ وجزعَ بعضُ الصحابة عندَ مَوته ، فَسُئِل عن حَالهِ فقـال : إن الله قبضَ خلقَه قَبضتين ، قبضةٍ للجنة وقبضةٍ للنار ولستُ أدري في أي القبضتين أنا ؟

ومَن تَأمَّـل هَذا حَقَّ التأملِ أوجَب لَه القَلَقَ فإن إبنَ آدم مُتَعّرضٌ لأهوالٍ عظيمةٍ مِن ذلك ، الوقوف بينَ يدي الله عَزَّ وجَلّ ودخولِ النارِ ويَخْشَى على نفسِه الخلودَ فيها بأن يُسْلبَ إيمانهُ عندَ الموتِ ، ولم يأمَنْ المؤمن شيئاً مِن هذه الأمور ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ . فَتَحَققُ هذا ، يمنع إبنَ آدم القَرار .

إذا افتكـر اللبيـبُ رَآى أمـوراً   تَـردُ الضّـاحكات إلـى الـوجُـومِ

رأى بعضهم قائلاً يقول له :

وكيف تنامُ العينُ وهي قريرةٌ ... ولم تدرِ في أي المحلين تِنزلُ ؟

وسئل بعضُ الموتي وكان مجتهداً عن حاله ؟ فأنشد يقول :

وليس يَعلَمُ ما في القبر داخلهُ ... إلا الإلهُ وساكُن الأَجداثِ

وقال غيره :

أمـا واللَّه لو علم الأَنامُ ... لِمَا خُلقُوا لَما غَفَلُوا ونَامُوا
لَقدْ خُلقُوا لِما لَو أبَصْرَتْه ... عُيونُ قُلُوبِهم تَاهُوا وهَامُوا
مَمَاتٌ ثم قَبْر ثم حَشْرٌ ... وتَوبيخٌ وأهوالٌ عِظَامُ

اللّهُمَّ ثَبِّتْ إيْمَانَنَا بِكَ وَمَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الجِبَالِ الرّاسِياتِ واعْصِمْنَا يَا مَوْلَانا مِنْ جَمِيْعِ المُوبِقَاتِ وَوَفّقْنَا لِلْعَمَلِ بِالبَاقِياتِ الصَّالِحَاتِ وَارْفَعْ مَنَازِلَنَا فِي فَسِيْحِ الجَنَّاتِ وأرْزُقْنَا النَّظَرَ إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ يا حَكِيْمُ يَا عَلِيْمُ يا حَيُّ يَا قَيُّومُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالدَيْنا ولِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين . . .

(فَصْلٌ فِيْ الرِّيَاءِ)

اعْلَمْ عَصَمَنا اللهُ وايَّاكَ وجَمِيْعَ المسلمينَ أَنَّ القُلُوبَ تُمْرَضُ كَمَا تُمرِضُ الأبدانُ بَلْ مَرَضُها أشدُّ ومِن أمْرَاضِهَا الرِّياءُ وهو مِن أَخْطَرِ أمْرَاضِ القُلُوبِ ومِن الأَوْباء الأخلاقِيَّةِ الضارةِ التي تَحْتَاجُ إلى عِلاجٍ دَائِمٍ وَيَقْظَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ وهُوَ مَأخُوذُ مَن الرُؤْيَا لِأنَّ المَرَائِي يُرِيَ النَّاسَ فِعْلَه لِلْخَيْرِ لِيُثْنُوا عليه ويَحْمَدُوْه وَيأْمَنُوْهُ فَيسْتَوْلِيْ بِذَلِكَ على قُلُوبهم فيكونُ لَهُ سُلْطَانٌ عليهم يَصِلُ به

إِلَى لَذَتِهِ ويَسْتَعِيْنُ بهِ على تَحْصِيْلِ شَهَوَاتِهِ وهذا الرِّياء إنَّما يَكُونُ مِن رَجُلٍ قَصُرَ نَظَرُهُ وَرَقَّ دِيْنُهُ فإن هذَا هُوَ الذي يَتصَوَّرُ أنَّ الناسَ إذَا رَأَوْهُ يُصَلِّي كَثِيْراً أَوْ رَؤَهُ يُطِيْلُ الصلاةَ أو يَصُومُ النوافلَ أو يَحُجُ أو يَتصَدَقُ أو يَفْعَلُ أيَّ فَعْلٍ مِن أفعالِ الخَيرِ يُحْسِنُونَ بِهِ الظنَّ ويُعَامِلُونَهُ مُعَامَلةً خاصَّةً تَتْرُكُهُ في دُنياه في سرور .

وأما العاقِلُ بَعِيْدُ النَّظَرِ صَادِقُ الايْمَانِ فإنَّهُ يَعْلَمُ عِلْمَاً يَقِيْنَاً لاَ يَشُوْبُهُ الظنُ أنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ دُنْيَاً وَأخرَى لِلَّهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وأَنَّ العَالَمَ كُلَّهُ أعْجَزُ مِن أنْ يَدْفَعَ أَجَلاً أَوْ يُكْثِرَ رِزْقاً أو يُجِيْرَ مِن نَائِبَةٍ تَنْزِلُ عَلَى الانسان كَمَا في حَدِيْثِ ابنِ عَبَاسٍ قَولُهُ ﷺ واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوْا على أَنْ يَنْفَعُوْكَ بشَيءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أنْ يَضُرُوْكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُوْكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ فإذا كانَ الخَلْقُ بِهذا الضَّعْفِ فلا يَلْتَفِتُ لِمُرَاآتِهِمْ إلا مَنْ كَانَ سَخِيْفَ العَقْلِ وضَعِيْفَ الدِيْن على أنَّ رِياءَ المُرَائِي لاَ يَخْفِي حَتَّى عَلَى الخَلْقَ غَالِبَاً فَإنَّ حَرَكَاتِهِ لا تَشْتَبِهُ بأعمالِ المُخْلِصِيْنَ الذينَ قَد اسْتَوَتْ ظَوَاهِرُهُم وبَوَاطِنُهُم على السَّوَاءِ .

قال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ لِلْمُرَائِي ثلاثُ عَلاَمَاتٍ أَولاً أَنَّهُ يَكْسَلُ إذا كَانَ وَحْدَهُ وَيَنْشَطُ إذَا كانَ فِي الناسِ ويَزِيْدُ فِي العَمَلِ إذا أُثْنِيَ عَلَيْهِ الناسُ وَيَنْقُصُ إذا ذُمَّ وقَد وَرَدَتْ آياتٌ وأحادِيثُ وآثارٌ تَدُلُّ على تَحْرِيْمِ الرِّيَاءِ وأنَّهُ مَمْقُوتٌ مِنْهَا قولُ اللهِ تعالى ﴿فويلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الذِيْنَ هُمْ عن صلاتِهِم ساهُوْنَ الذين هُم يُرَاؤُ نَ الآية﴾ .

وقال تعالى ﴿والذينَ يَمْكُرُوْنَ السَّيْئَآتِ لَهُم عذابٌ شديدٌ وَمَكْرُ أولَئِكَ هُوَ يَبُوْر﴾ .

قال مُجَاهِدُهُمْ أَهْلُ الرِّيَآءِ وقال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبه فليعمل

عملاً صالحاً ولا يشرك بِعِبَــادَةِ ربه أحداً﴾ نَزَلَ ذَلِكَ فِيْمَنْ يَطْلُبُ الأجرَ والحَمْدَ بِعِبَادَاتِهِ وأَعْمَالِهِ .

وأما الأحاديث فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقْضِي يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فأتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَما عملتَ فيها قال قاتَلْتُ فِيْكَ حَتى اسْتُشْهِدْتُ قال كَذَبْتَ ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لِأنْ يُقَالَ هُوَ جَرِيءٌ فقدْ قِيْلَ ثم أمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النار .

ورَجلٌ تَعَلَّمَ العلمَ وعَلَّمَهُ وَقرأَ القُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلتَ فِيها قال تَعَلَّمْتُ العِلمَ وَعلَّمْتُه وَقَرَأْتُ فِيكَ القرآنَ قال كَذَبْتَ ولكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِىءٌ فقد قِيْل ثُمَّ أمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النارِ ورَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْه وأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المالِ فأتى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قال فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا قال ما تَرَكْتُ مِن سَبِيْلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فِيْهَا إلا أنْفَقْتُ فِيها لكَ قال كَذَبْتَ ولكنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيْلَ ثم أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَي وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النار رواه مسلم والنسائي والترمذي وابن حبان .

وعن عبدِ الله بن عمرو بنِ العاصِ قال قُلْتُ يا رسولَ اللهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الجِهَادِ والغَزْوِ فقال يا عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو إنْ قَاتَلْتَ صَابِراً مُحْتَسِباً بَعَثَكَ الله صَابِراً مُحْتَسِباً وإنْ قَاتَلْتَ مُرَائِياً مُكَاثِراً بَعَثَكَ الله مُرَائِياً مُكَاثِراً يا عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو عَلَى أَيِّ حَالٍ قاتَلْتَ أَوْ قُتِلْتَ بَعَثَكَ الله على تِلْكَ الحالِ رواه أبو داود .

وعن أُبَيّ بن كَعْبٍ قال قال رسول رسول الله ﷺ بَشِّرْ هَذِهِ الأمَّةَ بالسَّنا والرِفْعَةِ والدِيْنِ والتَّمْكِيْنِ في الأرضِ فَمَنْ عَمِلَ مِنهم عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدنيا لَمْ

يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَصِيْبٍ رواه أحمدُ وابنُ حِبانَ في صحيحِه والحاكمُ والبيهقيُّ ، إذا فَهِمْتَ ذلكَ فأعْلَم أنَّ هُنَالكَ أمورٌ خَمْسَةٌ ١ ـ مُرَاءٍ وهو العابِدُ الذي يُظْهِرُ خِصَالَ الخَيْرِ ٢ ـ ومُرَاءَىَ وهُمُ الخَلْقُ الذِين يُظْهِرُ المُرَائِي لَهُم أعْمَالَهُ ٣ ـ ومُرَآءً لِأجْلِهِ وهو الجَاهُ والمالُ والسلطانُ وحُبُّ الحَمْدِ وَكَرَاهَةُ الذَّمِ ورِيَاءٌ وهو قَصْدُ إِظْهارِ العِبَادَةِ لِذَلِكَ الغَرضِ ، والمُراؤ ن بالعبادات أقْسَامٌ ، القِسْمُ الأولُ المُراؤ نَ فِي العَقَائِدِ الدّيْنِيَّةِ وهم الذينَ يُظْهِرُوْنَ للنَّاسِ أنهم مُوَحِّدُونَ يَشْهَدُونَ أنْ لَا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ وهم يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ ذلكَ أوْ يُظْهِرُونَ لَهُمْ أنَّهم يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ مِن جَنَّةٍ أو نار ويُظْهِرُونَ للناسِ أنه يُؤمِنُونَ بالملائِكَةِ وَيُصَدِّقونَ بوُجُودِهِم ونحوِ ذلكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مِن الدِيْنِ بِالضَرُوْرَةِ وهُمْ يَعْتَقِدُونَ في قلوبهم غَيْرَ ذَلِكَ ولا رَيْبَ في ذَلِكَ أنه كُفْرٌ نَاقِلٌ عن المِلَّةِ الاسلاميَّةِ بالكُلِّيَّةِ لأنَّهُ تكذيبٌ للهِ ولِرسُولِهِ وصاحبُه إنْ لَم يَتُبْ فَهُوَ مُخَلَّدٌ في النار .

قال الله تعالى ﴿ومِن الناسِ مَن يعجبكَ قَولُه في الحياة الدنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبه وهو ألدُ الخِصَام﴾ فهذا لِلْمُرائِي الشِرير الذَّلِق اللسانِ الذي إذا تكلم رَاقَ كَلَامُهُ لِلسَامِعِ وظنه يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ نَافِعٍ ويُؤكد هذا المُرائِي ما يقول بأنهُ يُخبِرُ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ أن ما نَطَقَ به مُوَافِقٌ ومُطَابِقٌ لِمَا فِي قلبه وهو كَاذبٌ في ذلكَ لِأنَّهُ يُخَالِفُ قولُه فِعلَه .

وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿وإذا لقُوا الذينَ آمنوا قَالُوا أَمَّنَا وإذا خَلَوا إلى شَيَاطِيْنِهِم قالُوا إنَّا مَعَكُم إنَّما نَحْنُ مُستهزؤون ﴾ .

وما أَكْثَرَ أَشْبَاهِ هَؤلَاءِ في زَمَنِنَا مِن مُنْكِرِيْ الجِنِّ والملائكةَ والبَعْثَ مِمَّن نَجِدُهُم يَجْبَنُونَ عندَ المُواجَهَةِ وَيَتَظَاهَرُونَ بالايمانِ عندَ لِقَاءِ المؤمِنِينَ

ويَعْترِفُونَ بوُجُودِهِم لِيَتَّقُوا الأذِى ولِيَتَّخِذُوا هَذا السِّتَارَ وَسِيْلَةً لِلأذَى وإِذا انْفَرَدُوْا مَعَ أَوْلِيَائِهِم مِن شَيَاطِيْن الإِنْسِ صَرَّحُوْا بمُعْتَقَدَاتِ قُلُوبِهِم وتَفَكَّهُوا بأكلِ لُحُومِ المؤمِنين وطعَنُوا في الدِّيْن وَحَمَلَتِهِ وصَرَّحُوْا بانْكَارِ الجِنِّ والملائكةِ وهَؤُلآءِ كَفَرَةٌ مُنَافِقُونَ والرِّياءُ في العَقِيْدَة على هذا الوَجْهِ مِن أكبَرِ دَرَجَاتِ الرِّيَاءِ وأَشَدِّهَا أثراً وَضَرَراً .

القِسْمُ الثاني : المُرَاؤُنَ في الفَرَائِضِ والأرْكَانِ الشرعيةِ هَؤُلآء الذين يَفْعَلُونَ أركانَ الدِيْنِ مِن صلاةٍ وصِيَامٍ وزكاةٍ وحَجٍ أمامَ الناسِ مِن أجل غَرَضٍ مِن الأغراضِ التي ذَكَرتُ آنِفَاً فإذَا خَلاَ الوَاحِدُ مِنْهُم بِنَفْسِهِ لم يَعْمَلْ شَيْئاً فَلَولاَ الغَرَضُ الذي يُرِيدُ تَحْقِيْقَهُ مَا صَامَ وَلاَ صَلَّى ولا حَجَّ ولا زكَّى فهذا العَمَلُ باطِلٌ لِأنَّه لم يُرِدْ بِهِ وَجْهَ اللهِ فَعَن أَنسٍ رضي اللهُ عنه قال رسولُ اللهِ ﷺ تُعْرَضُ أعْمَالُ بَنِي آدَمَ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وجَلَّ يومَ القِيَامَةِ في صُحُفٍ مُخَتَّمَةٍ فَيَقُولُ اللهُ أَلْقُوا هَذَا واقْبَلُوا هَذَا فَتَقُولُ الملائكةُ يا رَّبِّ واللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُ إلا خَيْرَا فَيَقُولُ إن عَمَلَهُ كانَ لِغَيْرِ وَجْهِي ولا أَقْبَلُ اليومَ مِن العملِ إلا مَا أُرِيْدَ بِهِ وَجْهِيْ .

صاحِ اسْتَمِعْ نُصْحاً أتاكَ مُفَصَّلاً
كَتَفَصُّلِ العِقيانِ فَوقَ لَئالِي
بادِرْ بَقَايَا عُمْرِكَ الفَانِي فَلاَ
تَصْرِفْهُ إلاَّ فِي الرِّضَى المُتَوَالِي
واشْغَلْ فُؤآدَكَ دَائِباً مُتَفَكِّراً
فِيْمَا يَلِيْقُ بِمَنْصِبِ الإِجْلاَلِ
واخْلِصْ عِبَادَتَكَ التِي بَاشَرْتَهَا
فِي القَولِ والأحْوالِ والأفْعَالِ

واشْغَلْ بِذِكْرِ اللهِ قَلْبَكَ لَاهِجاً
بِصِفَاتِهِ العُلْيَا بِلَا إمْلَالِ
واجْعَلْ مَمَاتَكَ نَصْبَ عَيْنَيْكَ إِنَّهُ
أَوْلَى الأُمُورِ وأنصَحُ الأحْوَالِ
واعْلَمْ بأنَّكَ بَعْدَ ذاكَ مُحَاسَبٌ
فاضْبُطْهُ لا تَكُ فِيْه ذَا إهْمَالِ
واعْلَم بأنَّكَ بَعدَ ذلِكَ صَائِرٌ
إما إلى بُؤْسٍ أَوِ الإفْضَالِ
وادْأَبْ على حِفْظِ الشَّرِيْعَةِ سَالِكاً
سُبْلَ الهُدَى لَا قَالِياً أو غَالِي
وابْدَأْ بحِفْظِ القَلْبِ عن شُبُهَاتِهِ
واعْرِفْ مَسَاوِيَهَا على الإجْمَالِ
ثم اسْقِهِ مَاءَ الحياةِ بِوَاعِظٍ
مِن مُحْكَمِ التَنزِيلِ في إجْلَالِ
واحْرِسْ فَرَاغَكَ بالتَّذَكُّرِ إنَّهُ
عُمُرٌ إذَا مَا ضَاعَ مِنْكَ لَغَالِي
واحْفَظْ جَوَارِحَكَ الَّتِي أُوْتِيْتَهَا
عن كلِ مَا يَقْضِي بكُلِ نَكَالِ
واعْلَمْ بأنَكَ مَا خُلِقْتَ سَبَهْللاً
فاعْبُد إلَهَ العَرْشِ بالإقْبَالِ
واجْعَلْ سِلَاحَكَ دَعْوَةً بإنَابَةٍ
والْجَأْ إلَى مَوْلَاكَ غَيرَ مُبَالِي

واسْـأَلْـهُ لا تَسْـأَمْ فـإنَّـكَ عَبْـدُهُ
فَهْـوَ الكَـرِيـمُ وربُّ كُـلِ نَـوَالِ
يـا رَبُّ فاقْـطَعْ عَن فُؤَادِي كُلَّ مَـا
أرجُـوْهُ إلا مِـنْـكَ مِـنْ آمَـالِ
واغْسِلهُ مِن دَرَنِ الـذُّنُـوبِ فـأنَّـهُ
مَـرَضُ القُلُوبِ وَمُـوجِبُ الاعْـلَالِ
وأَرِحْـهُ مِن مَـرَضِ الـرِّيـاءِ فـإنَّـهُ
أصْـلُ الفَسَـادِ وأفْسَـدُ الأشْغَـالِ
وأخْتُم لَنَـا بـالخَيْـرِ عَـاجِلِهِ الـذِي
تَـبْـدُوْ حَـلاوةُ ذَوْقِـهِ بِـمَـآلِ
واجْعَـلْ صَلاتَـكَ دَائِماً تَتْـرَى عَلَى
كَنْـزِ المَعَـالِي السَّيِـدِ المِفْضَـالِ
وكَـذَا عَـلَى آلٍ لَـهُ وَصَحَـابَـةٍ
أَهْـلِ الـعُـلَا والـعِـزِّ والإجْـلَالِ

« فصل »

وأَقْبَحُ أَنْوَاعِ الرِّيَاءَ مَا فُعِلَ لِلْحصولِ على لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ كأَنْ يَحْتَالَ على الفِسْقِ بامْرَأةٍ أَوْ يَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَى سَلْبِ مَالٍ ظُلْمًا وعُدْوَانًا أوْ يَتَوَسَّلُ بِهِ إلى ايْذَاءِ بَرِيْىءٍ في عِرْضِهِ أوْ مَالِهِ أَوْ دِيْنِهِ وَصَاحِبُ هَذَا العَمَلِ مُعَرَّضٌ نَفْسَهُ لِلْمُجَازَاتِ على عَمَلِهِ أشَدَّ الجَزَاءِ والعِقَابِ عَلَيْهِ أَسْوَأَ العِقَابِ في يَومٍ يُؤْخَذُ فيهِ المُجْرِمُوْنَ بالنَّوَاصِي إنْ لَمْ يَتُبْ مِن عَمَلِهِ ذلك توبةً نَصُوحاً .

ومِن أنواعِ الرِّياءِ الرِّياءُ بالفَرائِضِ الدِيْنِيَّةِ لِلْحُصُولِ على لَذَّةٍ مُباحَةٍ

كأنْ يَحْتَالَ بأداءِ الفَرَائِضِ على الحُصُولِ عَلَى مَالٍ بِطَرِيْقِ الهِبَةِ وَنَحْوِهَا وَلَوْلاَ هَذَا الغَرَضَ مَا قَامَ بأدَائِهَا وَهَذَا شِرْكٌ باللهِ بَلْ فِي الحَقِيْقَةِ عِبَادَةٌ لِلشَّهْوَةِ لاَ لِلَّهِ ولو كانَ عِنْدَ صاحِبِ هَذَا العَمَلِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن الأدَبِ والحَيَاءِ لَخَجِلَ مِن خَالِقِهِ الذي يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يُخْلِصَ العِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ولكِنَّهُ بَدَلاً مِن ذلكَ قَدْ جَعَلَ عِبَادَتَهُ وسِيْلَةً لاقْتِنَاصِ المَلاَّذِ والحُصُولِ عَلَى الشَّهَواتِ .

القسم الثالثُ : المُرَاؤُوْنَ بِالنَّوَافِلِ الَّتِي يُؤَدُّوْنَهَا فِي حَضْرَةِ النَّاسِ ويَتْرُكُوْنَها إذا خَلَوْا أَوْ يُجِيْدُوْنَ الفَرائِضَ ويُطِيْلُونَها فِي حَضْرَةِ النَّاسِ وإذا انْفَرَدُوْا خَفَّفُوا وهذا أيضاً قَبِيْحٌ ولَكِنَّهُ دُوْنَ الأوّلِ وَوَجْهُ قُبْحِهِ أنَّ عِبَادَةَ اللّهِ يَجِبُ أنْ تَكُونَ خَالِصَةً لَهُ لاَ يَشُوْبُهَا رِيَاءٌ أبَدَا فَمَنْ يُؤَدِّيْهَا لِغَرَضٍ مِنَ الأغْرَاضِ فَقَدْ أشْرَكَ فِيْهَا مَعَ اللّهِ وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَهُوَ غَبِيٌّ مَمْقُوْتٌ يَسْتَحِقُّ الذَّمَّ والعِقَابَ إنْ لَمْ يَتُبْ لأنَّهُ قَدْ اسْتَهَانَ بِعِبادَةِ اللّهِ وَجَعَلَها وَسِيْلَةً لِلْحُصُولِ عَلَى الأغْرَاضِ الدُّنْيوِيَّةِ والشَّهَواتِ الجُسْمَانِيَّةِ مَعَ أنَّ النَّوَافِلَ مَثَلاً لَمْ تُشْرَعْ إلاّ لِلحُصُولِ على الثَّوابِ الكَثِيْرِ والدَّرجاتِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ اللّهِ تَعالى فانْقَلَبَتْ عَلَى المُرائِي بِهَا شَرّاً وَوَبَالاً بِفِعْلِها رِيَاءً وأصْبَحَ يَسْتَحِقُ عَلَيْها عِقاباً وذلك فَسَادٌ وخَلَلٌ عَظِيْمٌ فكَمْ مِنْ إنْسَانٍ يُرَائِي يَتَظَاهَرُ بالصَّلاحِ ويَتَباعَدُ عن مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ونَفْسُهُ فاجِرَةٌ لاَ يَتَوَرَّعُ مِن أكْلِ أمْوالِ النَّاسِ بالباطِلِ واسْتِحْلاَلِها بأدْنَى الوَسَائِلِ وعِنْدَ مُعَامَلَتِهِ فِي بَيْعٍ أوْ شِرَاءٍ أوْ اسْتِئْجارٍ يَظْهَرُ مَخْبَرُهُ عَكْسَ مَنْظَرِهِ على حَدِّ قَوْلِ الشاعر :

قَـوْمٌ هُمُـوا شَـرُّ خَلْقِ اللّهِ كُلِّهِمُ
وأخْبَثُ النّاسِ في الدُّنْيا وَفِي الدِّيْنِ
هُمْ في الظَّواهِرِ زُهّادٌ أُولُـوا وَرَعٍ
وفِي البَـواطِنِ إخْـوَانُ الشَّيَـاطِيـنِ

يُحَـرِّمُوْنَ الّـذِي حَـلَّ الإلـهُ لَهُمْ
وَيَسْتَبِيْـحُـونَ أمْـوَالَ المَسَـاكِيـنِ
يا بِئْسَ مَا فَعَلُوا يَـا بِئْسَ مَا تَـرَكُوا
وهُـمْ يُعَـدّوْنَ فِـينَـا بـالـمَـلاَيِيْـنِ

ويقول الآخر فى المُرائِينْ بأعْمَالِهم :

أَظْهَـروْا للنَّـاسِ زُهْـداً وَعَلى الدّيْنَـارِ دَارُوْا
وَلَـهُ صَلّـواْ وَصَامـوُاْ وَلَـهُ حَجُّـواوَزَ ارُوْا
لَوْ يُرى فَوْقَ الثُّرَيّـا وَلَهُـمْ رِيْش لَطَـارُوْا

قالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللّهُ واعْلَمْ أَنَّ العَمَلَ لِغَيْرِ اللّهِ أقْسَامُ فَتَارَةً يكُونُ رِيَاءً مَحْضاً كَحَالِ المُنَافِقِيْنَ كَمَا قَال تَعالى ﴿وإذا قامُوا إلى الصّلاةِ قامُوا كُسَالى يُرَاؤ ن النّاسَ ولاَ يذكُرونَ اللّهَ إلا قليلاً﴾ .

وهَذَا الرّياءُ المَحضُ لا يكادُ يصدُرُ عَنْ مُؤْمِنٍ فِي فَرْضِ الصّلاةِ والصّيامِ وَقَدْ يَصْدُرُ فِي الصّدقَةِ أو الحَجّ الواجِبِ أوْ غيرِهِما مِنَ الأعمالِ الظّاهِرَةِ أو الّتي يَتَعدَّى نَفْعُها فإن الإخلاصَ فِيها عَزِيْزٌ وَهَذا العَمَلُ لاَ يَشُكُّ مُسلمٌ أنّهُ حابطٌ وأن صَاحِبَه يَسْتَحِقُّ المَقْتَ مِنَ اللّهِ والعُقوبةِ وتَارةً يكونُ العَمَلَ لِلّهِ ويُشارِكُهُ الرِّياءُ فإنْ شَارَكَهُ مِن أصْلِهِ فالنُّصُوصُ الصّحِيحَةُ تَدلُّ على بطلانِهِ أيضاً وحُبُوطِهِ .

وَفِي صحِيح مُسلم عن أبِي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللّهُ عَنْه عَن النّبيّ ﷺ قالَ يَقُولُ اللّهُ تَبَارَكَ وتَعَالى أنَا أغْنِيَ الشُّركَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ وخَرَجَهُ ابنُ ماجَه ولَفظه فأنا مِنْهُ برِيء وهُوَ للذي أشركَ .

وخَرَجَ الإمام أحمد عن شَدّادِ بنِ أوْسٍ عَن النّبِيّ ﷺ قالَ مَنْ صَلّى يُرائِي فَقَدْ أَشْرَكَ وَمنْ تَصَدَّقَ يُرائِي فقَدْ أشْرَكَ فَإِنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ أنَا خَيْرُ قَسِيْمٍ لِمَنْ أشْرَكَ بِي شَيْئاً فإن جِدَةِ عَمَلِهِ قَلِيْلِهِ وَكَثِيْرِهِ لِشَرِيْكِهِ الّذِي أشْرَكَ بِهِ أنا عَنْهُ غَنِيٌّ وَخَرَجَ الإمام أحمد والتّرمِذي من حديث أبي سعيد ابن أبي فَضَالة وكان مِنَ الصّحابَةِ قال قَالَ رَسُولُ اللهﷺ إذا جَمَعَ الله الأولين والآخرين ليوم لا ريبَ فِيهِ نَادَا مُنَادٍ من كَانَ أشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمَلَهُ لِلّهِ فَيَطْلُبُ ثَوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ عَزَّ وجَلّ فإن الله أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ انتهى والله أعلم

(فصــــل)

القِسم الرّابع : مِنَ المُرائِين المُتَحَدِّثُونَ بأعمالِهِمْ بَعْدَ تَمامِهَا كأن يَقولَ الواحِدُ صَلّيْتُ كَذا وَصُمْتُ كَذَا وحَجَجْتُ كَذَا مِنْ أفعالِ الخَيْرِ وَهَذَا وإنْ كَانَ لَا يُحْبِطِ العَمَلَ الّذي تَمَّ عَلَى وَجْهٍ صَحِيْحٍ إلاّ أنّهُ يُنْظَر إلى مَقْصَدِه مِن التَّحدُّثِ بِذَلِكَ فإن كَانَ فَسَاداً كَانَ مُحَرَّماً وإنْ كَانَ فِراراً مِن ذَمِّ النّاسِ وَرَغْبَةً فِي مَدْحِهِمْ بِدُونِ أنْ يَقْصُدَ مِنْهَا الوُصُولَ إلى غَرَضٍ غَيْر ذَلِكَ كَان مَلُوماً مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وأنّهُ قَصَدَ رِيَاءَ النّاسِ بِطَاعَةِ اللّهِ وقَدْ عَلِمْتَ أنّ ذَلِكَ لَا يَجُوز .

القِسْم الخامسُ : المراؤونَ بالهَيْئَةِ والزِّي فَتَرى الوَاحِد مِنْ هَؤلاءِ يَتَكلَّفُ العَمَلَ على نُحُولِ بَدَنِهِ واصْفِرَارِ وَجْهِهِ كَيْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ العَابِدِ الّذي أضْنَاهُ وأنْهَكَهُ السَّهَرُ وانحلَ جِسْمَهُ الصَّوْمُ وَمِنْهُمْ مَن يَتَكَلَّفُ خَفْضَ صَوْتِهِ أَوْ يَلْبَسُ ثَوْباً يَخْتَلِفُ عن أثْوابِ أهلِهِ وبَنِي جِنْسِهِ لِيَلْفِتَ أنظَارَ النّاسِ إلَيْهِ وَهَذا النّوعُ مِنَ الرِّيَاءِ سَخِيْفٌ جِداً لَا يَتَأَثّرُ بِهِ إلاّ ضِعَافُ العُقُولِ صِغَارُ النُّفُوسِ وكُلُّ هَؤلاءِ مِن شِرَارِ النّاسِ الّذِيْنَ يَجِبُ على النّاسِ أنْ يَحْذَرُوْا مِنْهُمْ ويَمْقُتُوهُمْ ولا يُبَالُوا بِهِمْ ولَا بِحِيَلِهِمْ وأزْيَائِهِمْ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ النِّيَّةَ عَلَيْهَا مَدَارٌ عَظِيْمٌ مَدَارُ الثّوابِ والعِقَابِ فإِنَّ المَرءَ يَتَحَدَّثُ بِعَمَلِهِ الصّالِحِ أَوْ يُظْهِرُهُ لِيَكُونَ قُدْوَةً صَالِحَةً لَهُمْ ومِثالاً حَسَناً يَقْتَدُونَ بِهِ لَا يُرِيْدُ بِذَلِكَ إلاّ وَجْهَ اللّهِ وابتِغاءَ مَرْضَاتِهِ بِنَشْرِ الفَضِيْلَةِ وإِحْيَائِهَا بَيْنَ النّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْظُرَ إلى مَدْحِهِمْ لَهُ وَذَمِّهِمْ لَهُ فَلا يَثْنِيْهِ شَيْءٌ عَن عَمَلِ الصّالِحَاتِ وَلَا يُغْرِيْهِ عَلَيْها رِضَاءُ أَحَدٍ مِنَ النّاسِ على أن يَكُونَ يَقِظاً نَبِيْهاً لَا يَجْعَلُ لِلْغُرورِ والعُجْبِ إِلَيْهِ سَبِيْلا فإنَّ عَمَلَهُ على ذلِكَ الوَجْهِ الحَسَنِ لا يَكُونُ رِيَاءً بل رُبَّمَا يَكُونُ مُسْتَحِبّاً إِنْ تأَكَّدَ مِن اقْتداءِ النّاسِ بِهِ في عَمَلِهِ الصّالِحِ وكذَلِكَ تَنْظُرُ الشَّرِيْعَةُ الإسلامِيَّةُ الكريمةُ إلى جَمِيْعِ الأَعْمَالِ فإِنْ تَرَتَّبَ على العَملِ فَسَادٌ كَانَ مَذْمُوماً وانْ تَرتَبَ عَلَيْهِ صَلاحٌ كَانَ مَمْدُوْحاً فَجَمِيْعُ أحْكَامِهَا مَبْنِيَّةٌ على جَلْبِ المَصَالِحِ ودَرْءِ المَفَاسِدِ وكُلُّها تَرْمِي إلى تَهْذِيْبِ النُّفُوسِ وتَطْهِيْرِ القُلُوبِ وتَرْبِيَةِ النّوعِ الإنْساني أحسَنَ تَرْبِيَةٍ وتأدِيْبِهِ أفضَلَ الأَدَبِ ويَكْفِي في ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى ﴿إِنَّ الله يأمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى ويَنْهَى عن الفَحْشاءِ والمُنْكرِ والبَغي يَعِظُكم لعلّكُم تَذكُرُوْنَ﴾ .

وخِتاماً فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَتَفكَّر ويَعْلَمَ مَضَرَّةَ الرِّياءِ وَمَا يَفُوتُهُ مِن صَلاحِ قَلْبِهِ وَمَا يُحْرَمُ عَنْهُ مِن التَّوْفِيْقِ وَما يَتَعَرَّضُ لَهُ مِن العِقابِ والمَقْتِ الشّدِيْدِ والخِزْيِ الظّاهِرِ فَمَهْمَا تفَكَّرَ الإنْسانُ وَقَابَلَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِن العِبَادِ والتَّزَيُّنِ لَهُمْ فِي الدُّنْيا بِمَا يَفُوتُهُ فِي الآخِرَةِ وبِمَا يَحبُطُ عَلَيْهِ مِنْ ثَوابِ الأعمالِ فإِنَّهُ يَسْهَلُ عَلَيْهِ قَطْعُ الرّغبَةِ عنْهُ كَمَنْ يَعْلَمُ أن العَسَلَ لَذِيْذٌ ولكِنْ إذا بَانَ لَهُ أَنَّ فِيهِ سُمّاً أعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ أيُّ غَرَضٍ لَهُ فِي مَدْحِهِمْ وإِيْثَارِ ذَمِّ اللّهِ لأجْلِ حَمْدِهِمْ وَلَا يَزِيْدُهُ حَمْدُ النّاسِ رِزْقاً وَلا أَجلاً ولا يَنْفَعُهُ يَوْمَ فَقْرِهِ وفَاقَتِهِ .

وأَمَّا الطَّمْعُ فِيْمَا فِي أَيْدِي النّاسِ فَبِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللّهَ تَعالى هُوَ الرَّزَاقُ وهُوَ المُسَخِّرُ لِلْقُلُوبِ بِالمَنْعِ والإعْطَاءِ وأَنَّ الخَلْقَ مُضْطَرُّوْنَ فِيهِ .

ولا رَازِقَ إلاّ اللّهُ ومَنْ طَمِعَ فِي الخَلْقِ لَمْ يَخْلُ مِنَ الذُّلِّ والخَيْبَةِ وإِنْ وَصِلَ إلى المُرادِ لَمْ يَخْلُ عَن المِنَّةِ والمَهانَةِ فَكَيْفَ يَلِيْقُ بعَاقِلٍ أنْ يَتْرُكَ مَا عِنْدَ اللّهِ بِرَجَاءِ كَاذِبٍ وَوَهْمٍ فاسِدٍ وَقَدْ يُصِيْبُ وَقَدْ يُخْطِيءُ وإِذَا أَصَابَ فَلا تَفِيْ لذَّتُهُ بِأَلَمِ مِنَّتِهِ ومَذلَّتِهِ .

شعرا :

أمِنْ بَعْدِ غوصِي فِي عُلُومِ الحَقائِقِ
وطُولِ انْبِسَاطِي في مَواهِبِ خَالِقِي
وفِي حِيْنَ اشْـرَافِي عَلَى مَلَكُـوتِـهِ
أَرَى طَـالِباً رِزْقـاً إلى غَيْـرِ رَازِقِ
وأيّـامُ عُمْـرِ المَـرْءِ مُتْعَـةُ سَـاعَـةٍ
تَجِيءُ حَثِيْثـاً مِثْـلَ لَمْحَـةِ بَـارِقِ
وَقَـدْ آذَنَتْ نَفْسِي بتَقْـوِيْضِ رَحْلِهَـا
وأسْرَعَ فِي سَوْقِي إلَى المَوْتِ سَائِقِي
وإنّي وَإنْ أَوْغَلْتُ أَوْ سِـرْتُ هَـارِبـاً
مِنَ المَوْتِ فِي الآفاقِ فالمَوْتُ لاَحِقِي
آخر : شَادَ الأنامُ قُصُورَهُمْ وتَحَصَّنُوا
مِن كُـلِّ طَـالِبِ حـاجَـةٍ أوْ رَاغِبِ
فـارْغَبْ إلَى مَلِكِ المُلُوكِ ولا تَكُنْ
يـا ذَا الضَّـراعَـةِ طَـالِبـاً مِن طَـالِبِ

وَأَمّا ذَمُّ الخَلْقِ لَهُ فَلاَ يَحْذَرْ مِنْهُ فَإنَّهُ لاَ يَزِيْدُهُ ذَمُّهُمْ شَيئاً مَا لَمْ يَكْتُبْهُ اللّهُ عَلَيْهِ ولا يُعَجِّل أجلَهُ وَلاَ يُؤَخِّرُ رِزْقَهُ وَلا يَجْعَلُهُ مِنْ أَهْلِ النّارِ إن كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنّةِ ولا يُبَغِّضُهُ إلى اللّهِ إن كَانَ مِن الّذِينَ يُحِبُّهُم اللّهُ فَالعِبَادُ كُلُّهُمْ عَجَزَةٌ لاَ

يَمْلِكُوْنَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً فإذا قَرَّرَ في قَلْبِهِ آفَةَ هَذِهِ الأَسْبَابِ وضَرَرَهَا فَتَرَتْ رَغْبَتَهُ عَنِ الرِّيَاءِ وأَقْبَلَ عَلَى اللّهِ قَلبُهُ والعَاقِلُ لا يَرْغَبُ فِيْمَا يُكْثِرُ ضَرَرَهُ ويُقِلُّ نَفْعَهُ فهذا دَوَاءٌ نافِعٌ قَالِعٌ لِلرِّياءِ مِن أَصْلِهِ بإِذْنِ اللّهِ فَهَذا مِنْ الأَدْوِيَةِ العِلْمِيَةِ القَالِعَةِ مغَارِسَ الرِّيَاءِ بإذنِ اللّهِ وأَمَّا الدَّوَاءُ العَمَليُّ فَهُوَ أنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ إخْفَاءَ العِبَادَاتِ وإغلاقَ الأبوابِ دُوْنَهَا كَمَا تُغْلَقُ الأبوابُ دُوْنَ الفَوَاحِشِ فَلاَ تُنَازِعُهُ نَفْسُهُ إلى طَلَبِ غَيْرِ اللّهِ بِهِ .

وبالتالِي :

فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ وعِلْمٍ وبَصِيْرَةٍ عَرَفَ شِدَّةَ حَاجَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وشِدَّةِ فَقْرِهِ إِلَى صَافِي الحَسَنَاتِ فَخَشِيَ أَنْ يَأتِي ذَلِكَ اليَوْمَ بِصَلاةٍ أَوْ صِيَامٍ أو حَجٍّ او جِهَادٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الأعْمَالِ لَمْ يُخْلِصْهُ لِلّهِ فَيَحْبَطَ عَمَلُهُ فَتَصِيْرَ حَسَنَاتُهُ أَنْقصَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ كَانَ أَخْلَصَ العَمَلَ للّهِ فِي الدُّنْيا لَرَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَيَدْخُلُ الجَنّةَ فَلَمَّا فَاتَهُ ذَلِكَ الإخلاَصُ فلا تَسْأَلْ عَن ذَهابِ نَفْسِهِ حَسَراتٍ فَيَخَافُ اللَّبِيْبُ ذَلِكَ فيَغْلِبُ عَلَى عَقْلِهِ حَذَرُ الرِّيَاءِ والتَّصَنُّعِ لِلْعِبَادِ ويُقْبِلُ عَلَى تَصْحِيْحِ عَمَلِهِ وتَنْقِيَتِهِ مِن شَوَائِبِ الرِّيَاءِ حَتَّى يُوافِيْ بِهِ يوْمَ القِيامَةِ خَالِصاً صَوَاباً .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ أُوْصِيْكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللّهِ فالْزَمُوْهَا ، وأُحُثُّكُمْ على الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ فاغْتَنِمُوْهَا ، إنَّ الزَّمَانَ يَطْوِي بِكُمْ مَسَافَةَ الأعمارِ لا شَكَّ وأَنْتُمْ رَاحِلُونَ عنْ هَذِهِ الدَّارِ فيَا مَعْشَرَ الشُّيُوخِ مَاذَا تَنْتَظِرُوْنَ بَعْدَ المَشِيْبِ وَهَلْ بَعْدَهُ إلا المَوْتُ فإِنَّ المَوْتَ قَرِيْبٌ إِنّهُ لَيْسَ إِلَى البَقَاءِ مِنْ سَبِيْلٍ فَمَاذَا تَزَوَدْتُم لِلرَّحِيلِ وَيَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ أَنْفَقْتُم غُرَرَ الأَعْمَارِ عِنْدَ المِذيَاعِ والكُرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وعَنْ الصَّلاةِ ويَا مَعْشَرَ التُّجَارِ لَقَدْ ضَاعَتْ

أعْمَارُكُمْ فِي أَلُوْوكَمْ رَبحَ فُلاَنٌ وَكَمْ بِيْعَ البَيْتُ الفُلاَنِيُّ والأرْضُ الفُلاَنِيَّةُ وخُذْ هَذِهِ الجَرِيْدَةَ وأعْطِنِي الأخْرَى ألاَ صَرَفْتُمْ بَعْضَ الوَقْتِ إلى المُسَابَقَةِ إلى غُرَفِ الجَنَّةِ وأَرَاضِيْهَا وأَنْفَقْتُمْ بَعْضَ مَا وَهَبَكُمْ اللّهُ مِنَ المَكَاسِبِ إلى مَا يُرْضِيْ اللّهَ مِنْ تَفَقُّدِ الفُقَرَاءِ الّذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ مَوَارِدُ لا قَلِيْلَةً وَلاَ كَثِيْرَةً مِمَّنْ يَسْتَعِيْنُونَ بِها عَلَى طَاعَةِ اللّهِ ومِن مَسَاجِدَ تَحْتَاجُ إلى تَرْمِيْمٍ أو فُرُشٍ وإلَى إنْشَاءِ مَسَاجِدَ عِنْدَ مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا أَوْ إلى طِبَاعَةِ مَصَاحِفَ طِبَاعَةً جَيِّدَةً فتُوزِعُوْهَا عَلَى التالِينَ لِلْقُرْآنِ آنَاءَ اللّيْلِ والنّهارِ أوْ طَبْعِ كُتُبٍ دِيْنِيَّةٍ فِيها تَقْوِيَةٍ لِلشَّرِيْعَةِ ونَشْرِ لِمَحاسِنِ الإسلامِ كَكُتُبِ شَيْخِ الإِسْلامِ بنِ تَيْمِيَّةَ وتِلْمِيْذِهِ بْنِ القَيِّم وابنِ رَجَب وابنِ مُفْلِحٍ وابنِ كَثِيْرٍ والمُوفق والمَجْدِ والشّيخِ المُجدّدِ الشَّيخِ مُحَمَّد بنِ عبْدِ الوهاب ونَحْوِهِمْ مِنَ العُلَمَاءِ العَامِلِينَ بِعِلْمِهِمْ المُصْلِحينَ المُخْلِصِيْنَ الّذينَ لا تأْخُذُهُم في اللّهِ لَومةَ لائـم نَسأَلُ اللّهَ أنْ يُيَسِّرَ لنا في هَذا الزّمان أمثالَهم لنَصْرِ دينه إِنّهُ القَادِرُ على ذَلِك .

شعرا :

الـمَـالُ يَـذْهَـبُ حِـلُّهُ وَحَـرَامُـهُ
طُـرّاً وتَـبْـقَـى فـي غَـدٍ آثَـامُـهُ
لَـيْسَ الـتَّـقِيُّ بِـمُـتَّـقٍ لِإلاهِـهِ
حَـتَّى يَـطِـيبُ شَـرَابُـهُ وطَعَـامُـهُ
وَيَـطِـيبُ مَـا يَحْـوِي ويَكْسِبُ كَفُّـهُ
ويَكُـوْنُ فِي حُسْنِ الحَدِيْثِ كَـلاَمُـهُ
نَـطَقَ الـنَّبِـيُّ لَنَـا بِـهِ عَـنْ رَبِّـهِ
فَـعَلى الـنَّبِـيِّ صَـلاَتُـهُ وَسَـلاَمُـهُ

اللّهُمّ طهِّرْ قُلوبَنا مِنَ النِّفَاقِ وعَمَلَنَا مِنَ الرّياء وطَهِّر مَكْسَبنا مِنَ الرِّبَا

وألسُنَنا مِنَ الكَذِب وَوَفّقْنا لِمَصالِحِنَا واعصِمْنا عن ذُنوبِنا وقبائحنا ولا تؤاخذنا بِما انطوَتْ عَلَيْهِ ضمائِرُنا وأكنته سرائرنا مِن أنواعِ القبائح والمعائب واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الرّاحمين وصلّى الله على محمّد وعلى آلِه وصحبِهِ أجمعِين .

« فصل » في الكبر والعجب

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإِيَّاكَ وجَمِيْعَ المُسلِمين أنَّ مِمَّا يَتَأَكَّدُ تَحرِيْمُهُ واجْتِنَابُه في رَمَضَانَ وَغَيرِهِ الكِبْرُ والاعْجَابُ لِأَنَّهُمَا يَسْلِبَانِ الفضائلَ ويَكْسِبَانِ الرذائل وليسَ لِمَنْ اسْتَوْلَيَا عليه قَبُوْلُ النُصْحِ ولا قَبُولُ التأدِيْبِ لأنَّ المتَكَبِرَ يَعْتَقِدُ في نفسِهِ أنه جَلِيْلٌ عَظِيْمٌ مُتَعَالٍ عن رُتْبَةِ المُتَعَلِّمِيْنَ والكِبْرُ في اللغة العِزَّةُ والعَظَمَةَ ومثلُه الكِبْرِيآء وقد فَسَّرَ ﷺ الكِبْرَ بأنه بَطَرُ الحقِ وغَمْطُ الناسِ والكِبْرُ والعُجْبُ مِن الصِفَاتِ النَّفْسِيَّةِ المَرْذُوْلَةِ التِي كَثِيْراً مَا تُثِيْرُ الغَضَبَ والحِقْدَ وتُوْرِثُ العَدَاوَةَ والبَغْضَآءَ وَتُوْرِثُ الاحْتِقَارَ والازدِرَاءَ بالناسِ واغتيَابَهُم وَيُجَافِي بَيْنَ الصِّدْق وكَظْمِ الغَيْضِ وقَبُولِ النُصْحِ ويُعْمِي المَرْءَ عن عُيوبِه ويَحُولُ بَيْنَهُ وبَينَ العِلْمِ والانقيَاد لِلْحَق .

والكِبْرُ نوعانِ أحَدُهُما التَّكَبُرُ على الحَقِ وهُوَ رَدُّهُ وَدَفْعُهُ وعَدَمُ قَبُولِهِ وهو عالِمٌ به سَوَاءٌ كانَ مِن حُقُوقِ اللهِ أوْ مِن حُقُوقِ عِبَادِهِ فَمَعْنَى بَطَرُ الحقِ رَدُّهُ وَجَحْدُهُ وهُوَ عَالِمٌ بِهِ فَكُلُّ مَنْ رَدَّ الحَقَّ فَإِنَّهُ مُسْتَكْبِرٌ عنه بحَسَبِ مَا رَدَّ مِن الحَقِ ومَعْنَى غَمْطُ الناسِ احتقارُهُم وتَنَقُصُهُمْ وذلكَ نَاشِيءٌ عن عُجْبِ الانسانِ بِنَفْسِهِ وتَعَاظُمِهِ عَلَيْهِم فالعُجْبُ بالنفسِ يَحْمِلُ على التَّكَبُرِ على الخَلْقِ واحتقارِهِم والاستِهْزَاءِ بِهم وتنقيصِهم بِقولِهِ وفعلِهِ وذلكَ أنَّ ذا العُجْبِ إِذَا مَدَّ نَظَرَهُ إلى مَنْ مِثْلِهِ أو فوقَهُ اعْتَقَدَ أنه مُمْتَازٌ عنه بمَا سَمَا بِهِ في نَظَرِ نَفْسِهِ وإِذَنْ يَرَى ذلكَ الغَيْرَ في دَرَجَةٍ مُنْحطَّةٍ عن دَرَجَتِهِ فَيَعْتَقِدُ حِيْنَئِذٍ أنَّ مُسْتَوَاهُ

فَوْقَ مُسْتَوى غَيْرِهِ وذلكَ هُوَ الكِبْرُ بعَيْنِهِ فالعُجْبُ عَنه نَشَأ الكِبْرُ وعَلَى أصْلِهِ تَفرَّعَ .

ولِلْكِبْرِ أسْبَابٌ كَثِيْرةٌ فَقَدْ تَكونُ عن صِفَةِ كَمَالٍ كَالعِلْمِ والنسبِ والجاهِ والسلطانِ وربما نشأ عن غُرورٍ وَوَهْمٍ بِحَيْثُ يَعْتَقِد أنَّهُ أكْمَلُ مِن غَيْرِهِ خَطأً وجَهْلاً وهَذا بُرْهَانٌ عَلَى نَقْصِ عَقْلِهِ ولِذَا يَقُولُ محمدُ بن علي البَاقِرُ مَا دَخَلَ قلبَ امْرءٍ شيءٌ مِن الكِبر إلا نَقَصَ مِن عَقْلِهِ مثل ما دخلَ مِن ذلك قَلَّ أو كَثرُ .

فإنْ كَانَ الكِبْرُ نَاشئاً عنِ العِلْم كانَ صَاحِبُهُ مِثَالاً سَيئاً وقُدْرَةً رَدِيْئَةً ، خُصوصاً إِذَا دَفَعَهُ الكِبْرُ إلى صِفَةٍ ذَمِيْمَةٍ كالحَسَدِ وَ الحِقْدِ ، أَوْ أَفْضَى بهِ إلى ارْتِكَابِ مَظْلَمَةٍ مِن المَظَالِمِ بِيَدِهِ أو لِسَانِهِ ، فإنَّ ضَرَرَ هَذَا لا يُقَدَّرُ ، لأنَّ النَّاسَ يَقْتَدُوْنَ بالعُلَمَاءِ في أقْوَالِهِم وأفْعَالِهِم ، فَيَسْتَسْهِلُونَ عِنْدَ ذَلِكَ ارْتِكَابَ الجرائم ، ويَسْتَبِيْحُونَ الاتصَافَ بالصِّفَاتِ الذَّمِيْمَةِ ، وفي هذا شرٌ عظيم ، وأيضاً فإن العالمَ المُتَكَبِّرَ يَنْصَرِفُ الناسُ عنه وَيَنْفَضُّوْنَ مِن حَوْلِهِ ، فلا يَنْتَفِعُ بعِلْمِهِ إلا مَنْ يُوَافِقُهُ عَلَى هَوَاهُ فلا يَرُدُّهُ عَن خَطَأ ، ولاَ يُشِيْرُ عليهِ بحقٍ وَلاَ يُزَاحِمُه في غَرَضٍ ومثل هَذَا لا فَائِدَةً مِن تَعْلِيمِهِ لأنَّهُ نَاقِصُ النَّفْسِ ضَعِيْفُ الارَادَةِ ومَنْ كَانَ هَذَا شَأنُهُ فان عِلْمَهُ وَبَالٌ عليه .

أَمَّا العِلْمُ النَّافِعُ فَهُوَ الّذِي يُرَبّيْ الأنْفُسَ ، وَيُطَهِّرُهَا مِنَ الصِّفَاتِ الرَّدِيئَةِ ، وَيُعَرِّفُ العَبْدَ رَبَّهُ وَنَفْسَهُ وَخَطَرَ أمْرِهِ ، وهَذا يُوْرِثُ الخَشْيَةَ والتَّوَاضُعَ ، فَيَكُوْنُ صَاحِبُهُ مِثَالاً حَسَناً فِي النَّاسِ ، وقُدْوَةً صَالِحَةً في الأقْوَالِ وَالأفعَالِ .

وإنْ كَانَ الكِبْرُ ناشِئاً عنْ النَّسَبِ فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُوْنُ سَبَباً لِلطَّعْنِ في ذَلِكَ

النَّسَبِ ، وحَمْلِ النّاسِ عَلى اعْتِقَادِ أنَّهُ نَسَبٌ رَدِيءُ العُنْصِرِ ، خَسِيْسُ الأصْلِ ، فإنّ النَّسَبَ الشَّرِيْفَ هُوَ الّذي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ آثَارٌ صَالِحَةٌ تَدُلُّ عَلَى رِفْعَتِهِ وكَرَمِهِ ، أَمَّا مَنْ يَتَكَبَّرُ ويَظْلِمُ ويُؤْذِي عِبَادَ اللّهِ ويَحْتَقِرُهُمْ فإنَّهُ لا يَكونُ مِن عُنْصُرٍ طَيّبٍ ، ولا مِنْ أصْلٍ كَرِيم غَالِباً ، وَقَدْ يَتَّهِمُ النّاسُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ بِأنَّهُ وَلَدُ زِنَا ، وذلِكَ أنَّ اللّهَ وَصَفَ النَّمامَ والفَاجِرَ والمَنَّاعَ لِلْخَيْرِ بالوَصْفِ الذّمِيْمِ كَمَا تَقَدَّمَ وذَلِكَ لِأنَّ الأعْمَالَ الفاجِرَةَ تَتْبَعُ خُبْثَ المَنِيِّ غَالِباً ، مَا لَمْ يُيَسِّرَ اللّهُ لِوَلَدِ الزِّنَا بيْئَةً صَالِحَةً يَتَرَبَّى فِيْها ويَنْزِعُ مِنْ نَفْسِهِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الرَّدِيْئَةِ الّتي وَرِثَهَا مِن أَصْلِهِ واكْتَسَبَهَا مِنْ وَالِدَيْهِ .

وإنْ كَانَ الكِبْرُ ناشِئاً عَن الجَاهِ والسُّلطانِ فإنَّهُ غَالِباً يُفْضِيْ إلِيّ شَرِّ أنواعِ الظُّلْمِ وانْتِهَاكِ المَحَارِمِ مِن حُقُوقِ اللّهِ وحُقُوقِ خَلْقِهِ ، فَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ أَوْ ضَيَاعُ حَقٍّ فَهُوَ الكِبْرُ الضَّار .

وأمّا العِزَّةُ الّتي يَنْشَأُ عَنْهَا ما يَنْفَعُ النّاسَ ، ومَا يَحْفَظُ كَرَامَةَ المَرْءِ وَعَدالَتَهُ وَمَكَانَتَهُ ، مِثْلُ تَرَفُّعِ الحَاكِمِ عن مُخَالَطَةِ العَوامِ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَمُجَامَلَتِهِمْ بِمَا يُسْقِطُ هَيْبَتَهُ أَوْ يُطْعِمُهُمْ فِي قَضَائِهِ أو يُسَهِّلُ لَهُمْ الإخلاَلَ بِمَا يَقْتَضِيْهِ الشَّرْعُ ، فإنَّ مِثْلَ هَذَا لاَ يُعَدُّ تَكَبُّراً لأَنَّهُ إِذَا أَهْمَلَهُ الإِنسانُ لَم يَكُنْ جَدِيْراً بالحُكْمِ إنَّمَا الكِبْرُ المَمْنُوعُ هُوَ أنْ لا يُبَالِي بِهِم فَلا يَسْمَعُ شَكْوَى ضَعِيْفِهِمْ ولا يَسْمَحُ لَهُ بالدُّنُوِ مِنْهُ لِيُعَبّرَ عَن مَظَالِمِهِ ، أوْ يَحْقِد على مَنْ تَوَسَّعَ فِي الدِّفاعِ عنْ نَفْسِهِ بِما لاَ يُرْضِيْهِ ، أو أعْرَضَ عَنْ سَمَاعِ النَّصِيْحَةِ واسْتَكْبَرَ عن العَمَلِ بِالحَقِّ ، فإنَّهُ فِي هَذِهِ الحالةِ يكُونُ مُتكبّراً مَذْمُوماً مَمْقُوْتاً .

لِكُـلِّ بَنِي الـدُّنْيـا مُـرَادٌ ومَقْصَـدٌ
وإنَّ مُـرَادِي صِـحَّـةٌ وَفَـرَاغُ

لِأَبْلُغَ فِي عِلْمِ الشَّـرِيعَـةِ مَبْلَغـاً
يَكُـونُ بِـهِ لِي فِي الجِنَـانِ بَــلاَغُ
فَفِي مِثْلِ هَذَا فَلْيُنَافِسْ أُولِي النُّهَى
وحَسْبِي مِن الـدُّنْيـا الغَـرُوْرِ بَلاَغُ
فَمَـا الفَـوْزُ إلاَّ في نَعِيْمٍ مُـؤَبَّـدٍ
بِـهِ العَيْشُ رَغْـدٌ والشَّـرَابُ يُسَـاغُ

اللّهُمَّ إنّا نَسألك العفوَ والعافِيَةَ في دِيْنِنَا ودُنْيَانَا وأهْلِنَا وأمْوَالِنَا ونَسألُكَ أنْ تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا وجميعِ المُسلمين برحْمتكَ يا أرحمَ الرّاحِمين وصلّى الله على مُحمّد وآلِه وصحبِهِ أجمَعِين .

« موعظـــة »

عِبَادَ اللَّهِ لَقَدْ تَوعَّدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الّذِيْنَ يُخَالِفُونَ أَمْرَهُ ويُعْرِضُونَ عَن مُرَاقَبَتِهِ ويَنْصَرِفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وذِكْرِهِ ويَجْتَرَؤُنَ عَلَى مَعَاصِيْهِ بِشَدِيْدِ غَضَبِهِ وَعَظِيْمِ سَخَطِهِ وحَذَّرَهُمْ بأسَهُ وانْتِقَامُهُ فَمَا بَالُ المُسْلِمينَ بَعْدَ القُرُوْنِ الأُوْلَى وَدُخُولِهِمْ فِي هَذِهِ الأَزمَانِ عَمَدُوا إلى مَحَارِمِ اللّهِ فارْتَكَبُوهَا وَمَنْهِيَاتِهِ فاسْتَبَاحُوهَا وَمأْمُوْرَاتِهِ فاجْتَنَبُوها وَنَبَذُوْهَا وقَطَعُوا الأَسْبَابَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خَالِقِهِمْ وَرَازِقِهِمْ وَعَادُوْا بِمُرِّ الشَّكْوَى مِن تَغَيُّرِ الأَحْوَالِ وانْتِزَاعِ البَرَكَةِ مِنَ الأَرْزَاقِ والآجَالِ وَلَيْس الغَرِيْبُ أنْ تَذْهَبَ البَرَكَةُ مِن أَرْزَاقِ العُصَاةِ وأَمْوَالِهِمْ فَإِنَّ اللّهَ جَلَّ وَعَلاَ يَغَارُ عَلَى أَوَامِرِهِ أن تُجْتَنَبَ وَمَحَارِمِهِ أنْ تُرْتَكَبَ عِبَادَ اللّهِ إن المُحَافَظَةَ عَلَى أوامِرِهِ الّتِي أمَرَكُمْ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَعَلى لِسَانِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَنْزِلَةِ العَهْدِ والمِيْثَاقِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ تَعَالى أنْ يَحُوْطَكُم بِرَحْمَتِهِ ويُسْبِغُ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً

وَباطِنَةً وأنْ يكُونَ مَعَكُمْ بالعَوْنِ وَالتَّوْفِيْقِ فإذا حَارَبْتُمُوْهُ بارْتِكابِ مَعَاصِيْهِ وإهْمَالِ أوامِرِهِ فقَدْ حَارَبْتُمْ بَدِيْعَ السَّمَواتِ والأرْضِ ذَا القُوَّةِ المَتِيْنِ وَلَسْتُمْ بِمُعْجِزِيْهِ أنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُم عَذاباً فِي الدُّنْيَا ولعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأبْقَى عِبَادَ اللّهِ اتّقُوا اللّهَ وَرَاقِبُوْهُ فِي سِرِّكُمْ وَجَهْرِكُمْ وإيَّاكُمْ أنْ تَظُنُّوا أنَ اللّهَ يُهْمِلُ المُسِيْءَ فَلاَ يُجَازِيْهِ وَلا يُحَاسِبُهُ عَلَى جُرْمِهِ وذَنْبِهِ الّذي اقْتَرَفَهُ وَمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِن الّذينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُوْنَ يا عِبَادَ اللّهِ قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِن الأُمَمِ مَنْ اصْطَفَاهُمُ اللّهُ عَلَى عِلْمٍ عَلى العَالَمِيْن وآتاهُمْ مِنَ الآياتِ مَا فِيهِ بلاغٌ لِلعَابِدِيْن وأسْبَغَ علَيْهِم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وباطِنَةً فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا وَقالُوا نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللّهِ وأَحِبَّاؤُهُ فَلَمَّا أَفْسَدُوْا فِي الأرْضِ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ النُّذُرُ شَيْئاً وأخذَهُم اللّهُ أخْذَ عَزِيْزٍ مُقْتَدِرٍ قَالَ تَعَالى ﴿وَكَذلك أخْذُ ربِّكَ إذا أخَذَ القُرى وهيَ ظالمةٌ إن أَخْذَهُ أليمٌ شَدِيد﴾ وفي الحديث ان الله لَيُمْلِيْ لِلظَّالِمَ فإذا أخذه لم يفلته .

شعـرا :

خَفِ اللَّهَ في ظُلْمِ الوَرَى واحْذَرَنَّهُ — وخَفْ يَوْمَ عَضَّ الظَّالِمينَ عَلَى اليَدِ

ولا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ عَـن ذَاكَ غَـافِلاً — ولكِنّـه يُمْـلِيْ لِمَـنْ شَـاءَ إلى الغَـدِ

ولا تَغْـتَرِرْ بالحِـلْـمِ عن ظُلْـمِ ظَالِمِ — سَيَأخُذُهُ أَخْـذاً وَبِيْـلاً وعـن يَـدِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلى نَهْجِ الاَسْتِقَامَةِ وَأَعِذْنَا مِنْ مُوْجِبَاتِ الحَسْرَةِ وَالنَّدامَةِ يَوْمَ القِيَامةِ وَخَفِّفْ عَنَّا ثُقْلَ الأَوْزَارِ ، وَارْزُقْنَا عِيْشَةَ الابْرَارِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمْينَ برحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللَّهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(وفي كتاب الأخلاق)

قَال : والكِبْرُ أنْواعٌ وَأعْظَمُ أنْوَاعِ الكبر على اللّهِ وَعَلَى رُسُلِهِ ، وَهذا شَرُّ أنْواع الكِبْرِ ، لأنَّ الإنْسَانَ الضَّعِيْفَ المَخْلُوقِ مِن مَاءٍ مَهِيْنٍ ، الّذي يَصْرَعُهُ أضْعَفُ الحَيَوَانَاتِ إذا سَلَّطَهُ اللّهُ عَلَيْهِ لا يَلِيْقُ بِهِ وَلا يَحِلُّ لَهُ أنْ يَتَكَبَّرَ على مَنْ خَلَقَهُ وأوجَدَهُ وَمِنْهُ يَسْتَمِدُ بَقَاءَهُ ويَحْتَاجُ إلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَفِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ .

وَمَنْ جَهِلَ قَدْرَ رَبِّهِ فَهُوَ مِنْ بَهِيْمَةِ الأنْعَامِ أوْ أضَلُّ ، كَمَا أخْبَرَ اللّهُ عَمَّنْ اسْتَكْبَرُوْا عَلَيْهِ وَعَلى رُسُلِهِ ، وكَيْفَ يَجْهَلُ الإنْسانُ قَدْرَ إلٰهِهِ القَادِرِ القَاهِرِ الّذِي أبْدَعَ العَالَمَ على أحْسَنَ إحْكَامٍ وأدَقِّ تَكْوِيْنٍ وَلَهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ خَلْقِهِ شَاهِدٌ واضِحُ الدَّلَالَةِ ، وحُجَّةٌ ظَاهِرَةُ البَيَانِ ، تَدُلُّ عَلى أنَّهُ هُوَ ذَلِكَ الصَّانِعُ الّذِيْ ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْر﴾ فَمَنْ تَكَبَّرَ عَلى اللّهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِذَاتِهِ وَصِفاتِهِ أوْ اسْتَكْبَرَ عن عِبَادَتِهِ فإنّهُ سَيَرَى نَتِيجَةَ كِبْرِيَاتِهِ ذلاًّ وصَغاراً وعذاباً ألِيْمَا يَوْمَ البَعْثِ والنُّشُورِ ، فَضْلاً عَمَّا يُصِيْبُ كَثِيْراً مِنَ المُتَكَبِّرِيْنَ عنْ عِبَادَةِ اللّهِ مِن الانْتِقامِ الدُّنْيَوِيّ ، كما وَقَعَ لِلنَّمْرُوْدِ وفِرْعَوْنَ وغَيْرِهم مِنَ المُتكبرين .

وأمّا المتكبّرُ على رُسُلِ اللّهِ فَهُوَ كالمُتَكَبِّرِ على اللّهِ فِي نَتِيْجَتِهِ فإنَّ جَزَاءهُ الخُلُودُ فِي نارِ جَهَنَّمَ ،لأنَّهُم إنَّما جاؤُوا بِتَوْحِيدِ اللّهِ وتَنْزِيهِهِ عن كُلِّ مَا لا يَلِيْقُ بِهِ ، وهِدَايَةِ النّاسِ إلَى سَبِيْلِ السَّعَادَةِ ، فَمَنْ اسْتَكْبَرَ عَلَيْهِم ولَمْ يُؤْمِن بِهِمْ فَقَدْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وخَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيْنا .

ولَقَدْ قَالَ المستكبرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ على رَجُلٍ مِن

القريتين عظِيم﴾ يُرِيْدُونَ الوليدَ بنَ المُغِيْرَةَ مِن مَكَّةَ وأبا مَسْعُودٍ الثّقفيّ مِن أهْلِ الطّائِفِ ، دَفَعَهُمْ الكِبْرُ إلى أَنْ يَطْلُبوا مَنْ هُوَ عِنْدَهُمْ وفِي زَعْمِهِمْ أَعْظَمُ رِئاسَةً مِن المُصْطَفَى ﷺ لأنّه غُلَامٌ يَتِيْمٌ وإِنْ كَانَ مِن أطْهَرِ أصْلابِهِمْ وأشْرَفِ أَنْسَابِهِمْ فَرَدَّ اللّهُ عَلَيْهِم بقَوْلِه ﴿أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ ربِّكَ﴾ ، ذلِكَ أنَّهُمْ جَهَلَةٌ مُتَهَوِّرُوْنَ غِلَاظُ القُلُوبِ حَسَدَةٌ لَمْ يُقَدِّرُوْا اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ وَالّذِينَ مِن قَبْلِهِم ، الحَكِيم الّذِي يَضَعُ الأشيَاءَ مَوَاضِعَهَا وَيُنَزِّلُ الأُمُورَ مَنَازِلَهَا .

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَعْدِ بنِ أَبي وَقّاصٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ فقَالَ المُشْرِكُونَ : اطْرُدْ هَؤُلاءِ عَنْكَ فإِنَّهُمْ وَإِنَّهُم ، قَالَ فكُنْتُ أنَا وابنَ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِن هُذَيْلٍ وبلالٌ وَرَجلانِ نَسِيْتُ أسْمِيْهِمَا ، قالَ فَوَقَعَ في نَفْسِ النّبِيّ ﷺ مِن ذَلِكَ مَا شَاءَ اللّهُ فَحَدَّث بِهِ نَفسَهُ ، فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ ﴿وَلَا تطرد الّذينَ يدعُون رَبّهُم بالغداةِ والعشي يريدون وجهه﴾ وَرَوَى عن خَبابِ ابنِ الأرَتِّ ـ في سَبَبِ نُزُوْلِ هَذِهِ الآيَةِ ـ قَالَ جَاءَ الأقْرَعُ بنُ حَابِسٍ التَّمِيْمِي وعُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ الفَزَارِي فَوَجَدُوا النّبيَّ ﷺ قاعِداً مَعَ بِلَالٍ وعَمَّارٍ وصُهَيْبٍ وخَبَّابٍ ، في نَاسٍ مِن الضُّعَفاءِ مِنَ المُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَقَرُوْهُم ، فَخَلوا بِهِ فَقالُوا : إِنَّا نُحِبُّ أنْ تَجْعَلَ لنا مِنْكَ مَجْلِساً تَعْرِفُ لَنا بِهِ العَرَبُ فَضْلَنَا ، فإِنَّ وُفُودَ العَرَبِ تأتِيْكَ ، فَنَسْتَحيْ أن يَرانَا العَرَبُ قُعُوداً مَعَ هَذِهِ الأعْبُدِ فإِذا نَحنُ جِئْنَاكَ فأقِمْهُم عَنَّا ، فإِذا نحْنُ فَرَغْنا فاقْعِدْهُم إن شِئْتَ ، قالَ « نَعَمْ » ، قَالُوا : فاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَاباً ، فَدَعَا بالصّحِيفَةِ ، لِيَكْتُبَ لَهُمْ ، وَدَعَا علياً لِيَكْتُبَ ، فَلَمَّا أَرادَ ذَلِكَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ ، إِذْ نَزَلَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فقالَ : ﴿وَلا تطْرد الّذين يدعُون ربّهُم بالغداة والعشي يريدُون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء

فتطردَهُم فتكون مِنَ الظَّالمين﴾ ثم ذَكَرَ الأقرعَ وصَاحِبَه فقال : ﴿وكَذَلِكَ فتنا بعضهم ببعْض لِيقولوا أهؤلاء مَنَّ الله علَيْهم مِن بيْننا أليسَ اللّهُ بأعلم بالشّاكِرين﴾ .

ثُمّ ذَكَرَنَا فقَال ﴿وإِذَا جَاءَكَ الّذِين يؤ مِنُون بآياتنا فقُل سلام عليكم كتَبَ ربُّكم على نفسِهِ الرّحمة﴾ فرَمَى رسُولُ اللّهِ ﷺ بالصَّحِيْفَةِ وَدَعَانَا فَأَتَيْناهُ وهُوَ يَقُولُ ﴿سَلامٌ عَلَيكُم﴾ فَدَنَوْنَا مِنه حتَّى وَضَعْنَا رُكبَنَا عِنْدَ رُكْبَتِهِ فَكانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فإذا أَرَادَ أنْ يَقُومَ قَامَ وتَرَكَنَا فأنزل الله ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عنْهُمْ تُريد زينةَ الحيَاةِ الدُّنْيا﴾ يقولُ لَا تَعْدُ عَيناكَ عَنهُمْ تُجَالِسُ الأشرافَ ﴿وَلاَ تطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكْرنا واتّبع هَواهُ وكان أمرهُ فرطا﴾ أمّا الّذي أَغْفَلَ قَلبُهُ عن الذِّكر فهو عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ والأقرَعُ ، وأمّا فرطا فهلاكا ، فإذا بلغْنا الساعةَ الّتِي كان يقومُ فِيها قُمْنَا وتَركنَاهُ حَتَّى يقُومَ ، وإلا صَبَرَ أَبَدًا حتَّى نقُومَ ، رواه ابن شيبة ورواه أبو نعيم .

ومعنَى هَذَا أَنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ حَمَلَهُمَا الكِبْرُ والأنفَةُ علَى احتقارِ بَعْضِ هَؤلاءِ المُؤمنين لِضَعْفِهِم مِن جِهَةِ المالِ والنَّسَبِ فَطَلَبَا مِنَ النّبِيِّ ﷺ أنْ يَخْتَصَّهُمْ بمَجْلسٍ لا يَشْملَ هؤلاءِ الضُّعَفاءِ وفي روايةٍ أنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ إن فَعَلَ ذلِكَ وكان ﷺ حَرِيصاً عَلَى إيمانِ النّاسِ ، كَمَا ذَكَرَ اللّهُ عنْهُ بقولِه ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نفسَكَ أن لا يكُونوا مُؤمنين﴾ .

وقال ﴿فلا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهِمْ حسراتٍ﴾ وقال ﴿فلعلّك باخعٌ نفسَكَ على آثارِهم إن لم يُؤمِنُوا بِهذا الحديث أسفا﴾ وقال ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِم﴾ ورَأى أن هذا لا يَضُر أَصحابَهُ خُصُوْصاً بَعْدَ أن يَدْخُلَ هَذَانِ مَعهُمَا ، فإن الدِّيْنَ كَفِيْلٌ بإِذْنِ اللّهِ في تَهْذِيْبِهِمَا فأجَابَهُمَا إلى طَلَبِهِمَا .

ولكِنَّ اللّهَ تَعالى الّذي شَرَعَ الدِّيْنَ وَهُوَ الّذِيْ فَوْقَ عِبَادِهِ جَمِيْعاً أبى على نَبِيّهِ ذلِكَ وأعْلَمَهُ أنَّهُ لا يُبَالِي بالمُتَكبِّرِيْن ، ولا يَحْفَلُ بدُخُولِهِمْ فِي دِيْنِهِ ، ما دَامَتْ أنفُسُهُمْ مُتأثِّرَةً بالعِزَّةِ الكَاذِبَةِ واحْتِقَارِ المُؤْمِنِيْنَ لأنَّ دِيْنَهُ تَعالَى قَدْ جَاءَ بِالقَضَاءِ عَلَى هَذِهِ الرَّذِيْلَةِ وَلَمْ يَجْعَلْ الاحْتِرَامَ وعُلُوَ الهِمَّةِ والمَنْزِلَةِ وَرِفْعَةِ القَدْرِ مُرْتَبِطاً بِرِفْعَةِ النَّسَبِ أوْ كَثْرةِ المالِ أوْ الجاهِ والسُّلطان، وإنَّمَا جَعَلَ ذلِكَ مُرْتَبِطاً بالعِلْمِ النَّافِعِ وَتَقْوى الله ، ولِذَا قالَ لِنَبِيِّهِ ﴿واصْبِرْ نفسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشي يُرِيْدُونَ وَجْهَهُ ، ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أمْرُهُ فُرُطَا﴾ وقالَ ﴿وَلا تَطْرُدِ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشي﴾ ، الآية فصَدَعَ ﷺ بأمْرِ اللّهِ تَعَالَى وبَلَّغَ ما أوْحِيَ إلَيْهِ .

شعرا :

رغِبْتُ عَن الـدُّنْيـا لِـعِلْمِـيَ أَنَّهَـا
مَحَــلُّ حَيَــاةِ المَــرْءِ فِيْهَــا بَــلاَغُ
وقَدْ لاَحَ فِي فَوْدَيَّ شَيْبٌ على الرَّدَى
دَلِـيْــلٌ وفِـيْــهِ مَــا أَرَدْتُ بَــلاَغُ
وأَمَّلْتُ مِن مَــوْلاَيَ نَـظْرَةَ رَحْـمَـةٍ
يَـكُـوْنُ بِـهَـا مِـنِّـي إلـيْـهِ بَــلاَغُ
فـأحْظَى إِذَا الأبْـرَارُ قِيْـلَ لَهُمْ غَـداً
هَلِمُّـوا إلى دَارِ الـنَّعِـيمِ فَـرَاغُـوا
رَأَيْتُ بَنَيْهـا مَـا رَمَتْهُمُ سِهَـامُهـا
فَـطَاشَتْ ولا حُمَّ الحِمَـامُ فَـرَاغُـوا

فَعُجِبْتُ إِلى دَارِ البَقاءِ بِهِمَّتِي
فَعِنْدِيَ عَنْهَا رَاحَةٌ وَفَرَاغُ

اللّهُمَّ مَكِّنْ مَحَبَّةَ القُرْآنِ في قُلُوبِنَا وَوَفِّقْنَا لِتِلاوَتِهِ آناءَ اللّيلِ وَالنّهار اللّهُمّ وارْزُقنا العملَ بِهِ والدّعوةَ إلَيْهِ واجْعلهُ حُجَّةً لنَا وقائِداً لنا إلى جَنّتِكَ وَاغْفِرْ لنا ولِوَالِديْنَا ولِجَمِيع المُسْلِمين برحمتِكَ يا أرحَمَ الرّاحِمِين وصلّى الله على مُحَمّد وآلِه وصَحْبِهِ أجمَعِين .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ إِنَّمَا يَسْعَدُ المُسْلِمُونَ أَنْ يَتَّبِعُوا الحَقَّ وَيَدْعُوْا إِليْهِ ولا تأخُذُهُمُ في اللّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ وَيَقْبَلُوا النَّصِيْحَةَ مِمَّنْ يَنْصَحُهُمْ وَيَعْمَلُوا بِهَا رَاضِيَةً نُفُوسُهُمْ شَاكِرَةً أَلْسِنَتُهُمْ غَيْرَ مُسْتَكْبِرِيْنَ وَلا مُتَعَنِّتِيْنَ وَلَمْ يُعْمِهِمُ الهَوَى عَن اتّبَاعِ الحَقِّ إِذْ ذَاكَ تَكمَلُ لَهُم السَّعَادَةُ ويتمُّ لَهُمْ النَّعِيْمُ وقَدْ فَشَا في النّاسِ دَاءُ الكِبْرِ واسْتَحْكَمَ ولا أقْصُدُ بِذَلِكَ مِنَ الكِبْرِ الخُيَلاءَ والتَّبَخْتُرَ فَقَط وَإِنَّما أقْصُدُ كِبْرَ المُتَكبِّرِ عن قَبُولِ نَصَحِ النَّاصِحِ وارْشَادِ المُسْتَرْشِدِ فإِنَّ الأَوَّلَ وإِنْ كَانَ شَرّاً ولَكِنْ الثّانِي شَرٌّ مِنْهُ فإِنَّ المَرْءَ إذا لَمْ يَقْبَلَ نَصِيْحَةَ النَّاصِحِ كانَ رَاضِياً عَن نَفْسِهِ وَمَتَى رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ عَمِيَتْ عَن عُيُوبِهَا فَلا يُؤَثِّرُ فِيْهَا نُصْحٌ وَلاَ يَنْفَعُ مَعْهَا إِرْشَادٌ لأَنَّ الغُرُوْرَ مُتَحَكِّمٌ فِيْهَا والشَّهَوَاتِ مُحِيْطَةٌ بِها فإِذا أَرادَ اللّهُ بِعَبْدِهِ خَيْراً بَصَّرَهُ بعُيُوبِ نَفْسِهِ فأَصْلَحَها واتّهَمَهَا دَائماً بالنَّقْصِ وطَالَبَهَا بالكَمَالِ حَتَّى تَلْتَحِقَ بالنُّفُوسِ الزَّكِيّةِ والأرْواحِ الطَّاهِرَةِ وهكذا كان سَلفنا الصالِحُ فَكَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَقُولُ رَحِمَ اللّهُ امْرأً أهْدَى إليَّ عُيُوْبِ نَفْسِي وَكَانُوْا إذا أَرْشَدَهُمْ أخٌ مِنْ إِخْوَانِهِمْ إِلَى عَيْبٍ في

نُفُوسِهِمْ فَرِحُوا بِهَذَا التَّنْبِيه وَطَهَّرُوْا نُفُوسَهُمْ مِنْهُ وشَكَرُوْا مَنْ نَصَحَهُمْ وَجعَلُوا نَصِيْحَتَهُ مِنَّةً لَهُ عَلَيْهِم وَلَمْ يأنفُوا أو لَمْ يَسْتَكْبِرُوْا لأنَّهُم يَتَّهِمُونَ نُفُوسَهُمْ وَيَرَوْنَها نَاقِصَةً وَيَسْعَونَ إلَى رِفْعَتِهَا إلى أوْجِ الكَمَالِ وبهَذَا بَلَغُوْا مَا بَلَغُوا ونَالُوا مَا نَالُوا يا عِبَادَ اللّهِ كيْفَ نَرْضى عنْ نُفُوسِنَا واللّهُ جَلَّ وعَلاَ يَقُولُ ﴿إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ عِبَادَ اللّهِ مَنْ مِنَّا بَلَغَ مِعْشَارَ مَا بَلَغَهُ عُمَرُ في كَمَالِ نَفْسِهِ وقُوَّةِ إيْمَانِهِ وشِدَّةِ يَقِيْنِهِ وَقَدْ كَانَ يَقُوْلُ لأصْحَابِهِ مَن رَأى مِنْكُمْ فِيَّ اعْوجَاجاً فَلْيُقَوِّمْهُ هَكَذَا كَانَ ظَنُّهُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ بنَفسِهِ على جَلاَلَةِ قَدْرِهِ وعُلُوِ مَنْزِلَتِهِ فِي دِيْنِهِ وكُلُّ مَا كَان أكْبَرَ كَانَ أقلَّ اعْجَاجاً بِنفْسِهِ وأكثَرَ مُطَالَبَةً لَهَا بسُلُوكِ طَرِيْق الحَقِّ .

شعْراً:

نَالُوا بذَلِكَ فَرْحَةً وسُرُوْرَا ... وسَعَوْا فأَصْبَحَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورَا
قَوْمٌ أقَامُوْا لِلإلـهِ نُفُوسَهُمْ ... فَكَسَا وُجُوْهَهُمُ الوَسِيمَة نُوْرَا
تَركُوْا النَّعِيْمَ وطَلَّقُوا لَذَّاتِهم ... زُهْدًا فَعوَّضُهُمْ بذَاكَ سُرُوْرَا
قامُوْا يُنَاجُوْنَ الإلَهَ بَأدْمُعٍ ... تَجْرِيْ فَتَحْكِي لُؤْلُؤًا مَنْثُورَا
سَتَروْا وُجُوهَهُمُوْا بأسْتَارِ الدُّجَى ... لَيْلاً فَأضْحَتْ فِي النَّهار بدُوْرَا
عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوْا فجَادُوْا بالذِيْ ... وجَدُوْا فأَصْبَحَ حَظُّهُم مَوْفُورَا
وإذَا بَدَا لَيْلٌ سَمِعْتَ أنِيْنَهُمْ ... وشَهِدْتَ وَجْدًا مِنْهُمُوْا وزَفِيْرَا
تَعِبُوْا قَلِيلاً فِي رِضَا مَحْبُوبِهِم ... فأَرَاحَهُمْ يَوْمَ المَعَادِ كَثِيْرَا
صَبَرُوا عَلى بَلْوَاهُمُوا فَجزَاهُمُوْا ... يَوْمَ القِيَامَةِ جَنَّةً وحَرِيْرَا

اللهم اجعلنا مِن اهَل الصلاحِ والنجاحِ والفلاحِ ، ومن المؤيِدِين بنَصْرِكَ وتأيِيْدكَ ورضَاكَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ اجمعِين

(فَصْـــلٌ)

وأمَّا التَّكَبُّر عَلَى خَلْقِ اللّهِ فَهُوَ مِنْ شَرِّ الرَّذَائِلِ وأسْوَءِ الصِّفَاتِ ، لأنَّهُ يَسْتَلْزِمُ مَظَالِمَ شَائِنَةً وجَرَائِمَ مَمْقُوْتَةً وقدْ يُفْضِيْ بِهِ ذلِكَ إلى التَّكَبُّرِ عَلَى اللّهِ وعَلى رُسُلِهِ لأنَّ اللّهَ تَعَالى نَهَى عَنْ ارْتِكَابِ تِلْكَ المَظَالِمِ ، وَحَذَّرَ عَاقِبَةَ

شَرِّهَا ، فَلَمْ يُبَالِ بِهِ ولَمْ يَخْشَى وَعِيْدَهُ ، ولَمْ يَخَفْ بَطْشَهُ ، وفي ذَلِكَ كِبْرٌ وعُتُوٌ وتَمَرُّدٌ .

وأيضاً فإنَّ المُسْتَعْظِمَ عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللّهِ لا يُصْغِيْ لِقَوْلِهِ مَهْمَا كَانَ حَقّاً مَفْرُوْضاً ولاَ يَدَّخِرُ مَجْهُوْداً في رَدِّهِ بالباطِلِ وهَذا مِن أخْلاقِ الكَافِرِيْنَ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُوْنَ على اللّهِ فَمَنْ أجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ اللّهُ الكِبْرَ ونَهى عنْهُ نَهْياً شَدِيْداً ا هـ بتصرف .

وَقَدْ وَرَدَتْ آياتٌ وأحَادِيثُ في ذَمِّ الكِبْرِ والنَهْي عَنْهُ مِن ذَلِكَ آيةُ سُوْرَةِ الأعْرَافِ المُشِيْرَةِ إلى حِرْمَانِ الحَقِّ وعَمَى القَلْبِ عَنْ مَعْرِفَةِ آياتِ اللّهِ تَعَالى وفَهْمِ أحْكَامِهِ ، قَال تَعَالى : ﴿سَأَصْرِفُ عن آياتِي الّذِينَ يَتَكَبَّرُوْنَ فِي الأرْضِ بغَيْرِ الحَقِّ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ، وإنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لا يَتّخِذُوْهُ سَبِيْلا وإنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيْلا ، ذلِكَ بأنّهم كَذَّبُوْا بآياتِنا وكانُوا عَنْها غَافِلين﴾ .

وقال تعالى ﴿كذَلِكَ يطْبعُ الله على كلّ قَلْبِ متكبر جَبَّار﴾ وقال ﴿إنّه لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِيْن وقال تعالى ﴿تِلْكَ الدّار الآخِرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا﴾ وقال ﴿وَلاَ تمشي في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ وقال ﴿ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ وقال ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّك للناس ولا تمشي في الأرض مرحا﴾ وعن أبي هُرِيرَةَ رضيْ الله عنْهُ أن رسُول الله ﷺ قال : « لا يَنْظُرُ اللّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إلى مَن جَرَّ إزَارَهُ بَطَرا » متفق عليه ، وعنْهُ أن رَسُولَ اللّهِ ﷺ قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي في حُلَّةٍ ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ رأْسَهُ ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ خَسَفَ اللّهُ بِهِ فهُوَ يَتجَلْجَلُ في الأرضِ إلى يوْمِ القِيامَةِ متفق عليه .

وعن ثوبانَ رضِيَ اللّهُ عَنْهُ قال رسُولُ اللّهِ ﷺ « مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِن الكِبْرِ والغُلُولِ والدَّيْنِ دَخلَ الجَنَّةَ » رواه الترمذي واللفظ له والنسائي ، وابنُ مَاجَه وابن حبان في صحيحه .

وعن أبي سعيد وأبي هُريرة رضي الله عنهما قال (قال رسولُ الله ﷺ « يقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ : العِزُّ إزارِي - والكِبْرِياءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي شَيْئاً مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ » رواه مسلم بلفظ « يقُولُ اللّهُ عزْ وجلّ : العِزُّ إزارُهُ ، والكبْرِياءُ رِداؤُهُ ، فَمَن يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسولُ الله ﷺ « يقولُ اللّهُ جلّ وعلاّ : الكِبْرِياءُ رِدَائي والعَظَمَةُ إزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ في النَّارِ » رواه ابن ماجه واللفظ له وابن حبان في صحيحه .

وعن حارثةَ بنِ وَهْبٍ رضِيَ اللّهُ عنه قال سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ : « ألا أخْبِرُكُم بأهلِ النّارِ ؟. كُلُّ عتلٍ جواظٍ مُسْتَكْبِرٍ رواه البخاري ومسلم » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول اللّهِ ﷺ قال : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلّهِ دَرَجَةً يَرْفَعُهُ اللّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ اللّهُ في أعْلَى عِلّيين - ومَن تَكَبَّر عَلَى اللّهِ دَرَجَةً يَضَعُهُ اللّهُ دَرَجَةً ، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أسْفَلِ سَافِلِيْنَ ، وَلَو أنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صمّاءَ لَيْس عَلَيْها بابٌ وَلاَ كُوَّةٌ لَخرَجَ ما غَيَّبَهُ لِلنَّاسِ كائناً مَا كَانَ » رواه ابنُ ماجه وابنُ حبان في صحيحه .

وَعَنْ أبي سعيدٍ الخدري رضيَ اللّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال « احْتَجَّتِ الجنّةُ والنّارُ فقالت النّارُ : فِيَّ الجَبّارُوْنَ والمتكَبِّرُوْنَ ، وقالَت الجنّةُ : في

ضُعفَاءُ المُسْلِمِينَ ومَسَاكِيْنُهُمْ ، فَقَضى اللّهُ بَيْنَهُمَا : إنَّكَ الجَنَّةُ رَحْمَتِي أرْحَمُ بِك مَنْ أشَاءُ ، وإنّكَ النّارُ عَذَابِي أُعذِّبُ بِك مَنْ أشَاءُ ، ولِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤها » رواه مسلم .

وعنْ أبي سلمةَ بن عبدِ الرّحمنِ بنِ عَوْفٍ قال الْتَقَى عَبْدُ اللّهِ ابنُ عُمَرَ وعَبْدُ اللّهِ بنُ عمْرَو بنِ العاص رضي اللّهُ عَنْهُمْ عَلَى المَرْوَة فَتَحَدَّثَا ثمّ مَضَى عَبْدُ اللّهِ بنُ عَمْرو وبَقِيَ عَبْدُ اللّهِ بنُ عُمَرَ يَبْكِيْ فقَالَ ـ لَهُ رَجُلٌ مَا يُبْكِيْكَ يَا أبَا عَبْدِ الرّحمنِ ؟ قال هذَا . يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بنِ عَمْرو زَعَمَ أنَّهُ سَمِعَ رَسُوْلَ اللّهِ ﷺ يقُولُ « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ كبَّهُ اللّهُ لِوَجْهِهِ فِي النّارِ » رواه أحمد ورواته رواة الصحيح . بلغ يا أخي هذا الحديث حاملي الماجستير والدكتوراه والبكالوريوس والعالمية ونحوهم من يرون الناس بعين الاحتقار والتنقّص لما عندهم من الكِبْرِ والعُجْبِ والعَظمةِ .

شعرا :

اعْجَبْ لمُحْتَكِـرِ الـدُّنْيـا وبَـانِيْهَـا
وعن قَـرِيبٍ عَـلى كُـرْه يُخَـلّيْهَـا
دَارٌ عَــواقبُ مَفْـرُوْحَـاتِهـا حَـزَنٌ
إذَا أعَـارَتْ أسَـاءَتْ في تَقَـاضِيْهَـا
يـا مَنْ يُسَـرُّ بـأيَّـامٍ تَسِيْـرُ بِـهِ
إلـى الـفَـنَـاءِ وأيَّـامٍ يُـقَـضِّـيْـهَـا
قِفْ في مَنَـازِلِ أَهْلِ العِـزِّ مُعْتَبِـراً
وأنْـظُر إلَى أيِّ شَيءٍ صَـارَ أهْلُوهَـا

صَـــارُوا إلـى جَدَثٍ فِيْهِ مَحَـــاسِنُهُـم
على الثَّـــرَى ودَوِيُ الـدُوْدِ يَعْلُوهَـــا

اللهم يَسِّرْنَا لِلْيُسْرَى وجَنِّبْنَا العُسْرَى واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْن واغْفِر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« **موعظة** »

عِبَادَ اللَّهِ لَقَدْ كَانَتِ القُلُوبُ مَوْضِعَ العِنَايَةِ التَّامَّـةِ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِأَنَّهُمْ يَعلمون أنّها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَـدُ كُلُّهُ » وذلكَ لِأَنَّهـا مَبْدَأُ الحَـرَكَاتِ البَـدَنِيَّةِ ، والإِرادات النَّفْسَانِيَّة ، فإن صَدَرَتْ مِن القُلُوبِ إرَادَةٌ صَالِحَةٌ تَحَرَّكَ البَدَنُ حَرَكَةً طاعة ، وان صَدَرَتْ عَنْهَا ارادَةٌ فَاسِدَةٌ تَحَرَّكَ البَدَنُ حَرَكَةً فَاسِدَةً ، فَهُوَ كَمَلِكٍ والأَعْضَاءُ كَالرَّعِيَّةِ ، ولا شَكَّ أَنَّ الرَّعِيَّةِ تَصْلَحُ بِصَلاحِ المَلِكِ وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ ، وكانَ وَاجِباً عَلَيْنَا أن نَكُونَ كَمَا كَانَ سَلَفُنَا في العِنَايَةِ بِهَاتِيْكَ القُلُوبِ لأنّ بِهَا سَعَادَتُنَا بإِذْنِ اللهِ وَبِهَا شَقَاؤُنَا ، ولكن يَا لِلأَسَفْ مَا كَانَ مِن ذَلِكَ شَيْءٌ والذي كانَ مِنَّا أَنَّنَا أَهْمَلْنَا قُلُوبَنَا إِهْمَالاً تَتَجَرَّحُ لَهُ القُلُوبُ ، وَتَذُوْبُ لَهُ الأكْبَـادُ وَلِذَلِـكَ نَشَأَ فِيْنَـا نَتِيْجَةَ الإِهْمَـالِ كَثْرَةُ الأمْرَاضِ فِي القُلُوبِ وَتَشَعَّبَتْ وَأَعْضَلَتْ وَصَعَبَ شِفَاؤُهَـا ، وانْعَدَمَ أطبَاؤُهَا وَمَنْ وَصِلَ إلى هَذَا الحَدِّ فَهُوَ في خَطَر عَظِيْمٍ .

فَمِنْ الأَمْرَاضِ التِي أَزْمَنَتْ فِي قُلُوبِنَا مَرَضُ الرِّياءِ الذِي لا يَكَادُ يَسْلَمُ منه إلَّا النَّوَادِرُ ، وَمِنَ الأَمْرَاضِ التِي أُصِبْنَا بِهَا مَرَضُ العُجْبِ ، ولِهَذَا يَعْتَقِدُ

الصغيرُ مِنَّا والكبيرُ الكَمَالَ في نَفْسِهِ ومَن اعْتَقَدَ ذلكَ في نَفْسِهِ هَوَى لأنَّهُ لا يَلْتَفِتُ إلى مَا بِهِ كَمَالُ الرِّجَالِ ، وَمَرَضٌ يُنْتِجُ مَرَضاً آخَرَ هُوَ مَرَضُ الكِبْرِ وَصْفُ الأَنْذَالِ والأَرْذَالِ والجُهَّالِ ، والمُتَكَبِّرُ لا يُنْظَرُ إليهِ بعَيْنِ الرضَا والكِبْرُ يَنْشأُ عَنه مَرَضُ الحَسَدِ والحَسُودُ يَتَمَنَّى زَوَالَ نِعْمَةِ اللهِ عَن خَلْقِهِ ، والحَسَدُ يُوَلِّدُ الحِقْدَ الذي رُبَّمَا حَمَلَ صَاحِبَهُ على قَتْلِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ إلَّا ما أَوْلَاهُ اللهُ مِن النِّعَمِ ، ولَيْسَ هَذَا كُلُّ مَا في قُلُوبِنَا مِن الأمْرَاضِ بَلْ فِيْهَا مَرَضُ البُخْلِ وَالشُّحِّ الذِي وَصلَ بِنَا إلى مَنْعِ الزكاةِ أو بَعْضِهَا ، وغَيرُ ذَلِكَ كَثِيْرٌ وَكُلُّهَا أمْرَاضٌ مُهْلِكَاتٌ ، ونحنُ لا نَهْتَمُّ بقُلُوبِنَا ولا بأَمْرَاضِهَا وإنَّمَا نَهْتَم بأَمْرَاضِ أَجْسَامِنَا ، ونُبَادِرُ في عِلَاجِهَا إلى المُسْتَشْفَيَاتِ ، وأَمْرَاضُهَا يَسِيْرَةٌ بَسِيْطَةٌ بِالنِّسْبَةِ إلى أمْرَاضِ القُلُوبِ ، ونَهْتَمُّ أَيْضاً بِجَمَالِ ظَوَاهِرِنَا فَنُبَالِغُ فِي تَحْسِيْنِ مَلَابِسِنَا ومَرَاكِبنَا ومَسَاكِنِنَا ومَجَالِسِنَا وأبْدَانِنَا ، أنْظُرْ إلَيْنَا عِنْدَ الذَّهَابِ إلَى مَقَرِّ العَمَلِ لِتَتعَجَّبَ مِن تَغْفِيْلِنَا وانْخِدَاعِنَا ، ولَو كانَتْ عنَايَتُنَا بالقُلُوبِ كَعِنَايَتِنَا بالمَلَابِسِ فَقَطْ مَا كُنَّا بِهَذِهِ الحَالَاتِ المحزنات .

شعراً :

خَلِيْـلَيَّ قُـومَا فـاحْمِلاَ لِي رِسَـالَـةً
وقُـولاَ لِـدُنْـيـانَـا الَّتِي تَتَـصَنَّـعُ
عَـرَفْنَاكِ يـا خَدَاعَـةَ الخَلْقِ فـاذْهَبِي
ألسنَـا نَـرَى مـا تَصْنَعِيْنَ وَنَسْمَـعُ
فـلا تَـتَجَـلَّيْ لِـلْعُيُـونِ بِـزِيْـنَـةٍ
فـإنَّـا مَتَى مَـا تَسْفُـرِي نَتَقَنَّـعُ

نُغَطِي بِثَوْبِ اليَأسِ عَنْكِ عُيُونَنَا
إِذَا لاَحَ يَوماً مِن مَخَازِيْكِ مَطْمَعُ
رَتَعْنَا وجُلْنَا في مَرَاعِيكِ كُلِّهَا
فلم يَهْنَنَا فِيْمَا رَعَيْنَاهُ مَرْتَعُ

اللهم أرِنا الحقَّ حَقاً وارْزُقْنَا اِتّبَاعَه ، وأرنا الباطل باطلاً وجَنِبْنَا اِتّبَاعه ، واغفر لنا ولوالدينَا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

عن حذيفةَ رضي اللهُ عنه قال كُنَّا مَعَ النبي ﷺ في جَنَازَةٍ قال : « ألاَ أُخْبِرُكُم بشَرِّ عِبَادِ اللهِ ؟ : ألفَظُ المُسْتَكْبِرُ ، ألا أُخْبِرُكُم بِخَيْرِ عِبَادِ اللهِ ؟ الضَعِيْفُ المُسْتَضْعَفُ لله ، ذُوْ الطِّمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَو أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ » رواه أحمد ورواته رواةَ الصحيح إلا محمدَ بنَ جابر .

وعن عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ رضيَ اللهُ عنه أنه مَرَّ في السُوْقِ وعليه حُزْمَةٌ مِن حَطَبٍ ، فَقِيْلَ لَهُ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا ، وقَدْ أغْنَاكَ اللهُ عن هَذَا ؟ قال أَرَدْتُ أنْ أدْفَعَ الكِبْرَ ، سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقولُ « لا يَدْخُلُ الجنةَ مَن في قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ مِن كِبْرٍ » رواه الطبراني باسناد حسن والاصبهاني إلا أنه قال ذَرَّةٍ مِن كبر .

وعن عمروِ بنِ شُعَيْبٍ رضي اللهُ عنه عن أَبِيهِ عن جَدِّهِ قال قال رسولُ اللهِ ﷺ يَحْشَرُ المُتَكَبِرُونَ يومَ القيَامَةِ أمْثَالَ الذَّرِ في صُوَرِ الرِجَالِ يَغْشَاهُم الذُّلُ مِن كُلِّ مَكَانٍ يُسَاقُونَ إلى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُوْلَسُ ، تَعْلُوهُم نارُ الأَنْيارِ يُسْقَوْنَ مِن عِصَارَةِ أهلِ النارِ طِيْنَةِ الخَبَال. رواه النسائي والترمذي واللفظ له

وقال حديث حسن وعن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ « لا يَدْخُلُ الجنةَ مَن كَانَ في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْر » فقالَ رجلٌ : إن الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يَكُونَ ثوبُهُ حَسَناً ، ونَعْلُهُ حَسَنَة قال إن الله جَمِيْلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ الناسِ » رواه مسلم والترمذي .

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَ ﷺ قال : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَم يَنْظُرِ اللهُ إليه يَوْمَ القِيَامَةِ فقال أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : يا رَسُوْلَ اللهِ إن إزاري يَسْتَرْخِيْ إلا أنْ أتعَاهَدَهُ . فقال لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ « إنكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلَاءَ » رواه مالك والبخاري واللفظ له .

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : « مَنْ تَعَظَّمَ في نَفْسِهِ واخْتَالَ في مِشْيَتِهِ لَقِيَ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى وهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَان » رواه الطبراني في الكبير واللفظ له ورواته محتج بهم في الصحيح والحاكم بنحوه وقال صحيح علي شرط مسلم .

وعن خولةَ بنتِ قَيْسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال « إذا مَشَتْ أُمّتِيْ المُطَيْطَاءَ ، وخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ والرُّوْمُ ، سُلِّطَ بَعْضُهُم عَلى بَعْضٍ » رواه ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ وَرَواهُ التِّرمِذيُّ وابنُ حبّان أيضاً مِن حديث ابنِ عُمَرَ ، وَرُوِيَ عن أسماءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ واخْتَالَ ونَسِيَ الكَبِيْرَ المُتَعَالِي ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ واعْتَدَى ، وَنَسِيَ الجَبّارَ الأعْلَى ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ سَهَا ولَها ، وَنَسي المَقَابِرَ والبِلَى ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ عَتَى وَطَغَى ، وَنَسِيَ المُبتَدَأَ والمُنْتَهَى بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيا بالدِّيْن ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّيْنَ بالشُّبُهاتِ ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ طَمِعٌ يَقُودُهُ ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ هَوَىً يُضِلُّهُ ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ

يُذِلُّهُ » رواه التّرمذِيّ وقال حديث غريب .

وعَنْ أبي هُريرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَال قَال رسُولُ اللّهِ ﷺ « ثَلاثَةٌ لا يُكلِّمُهُمْ اللّهُ يَوْمَ القِيامَةِ ولا يُزكِّيْهم وَلا يَنْظُرُ إلَيْهِم ولَهُمْ عَذَابٌ ألِيْم ، شَيْخٌ زَانٍ ، ومَلِكٌ كَذابٌ ، وعائِلٌ مُستكبر » راه مسلم والنسائي ، وعنهُ رضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَال رسُولُ اللّهِ ﷺ « أرْبَعَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللّهُ البَيَّاعُ الحَلاَّفُ والفَقِيْرُ المُخْتَالُ ، والشَّيْخُ الزَّانِي ، والإمامُ الجَائِرُ » رواهُ النّسائي وابن حبّان في صحيحِهِ .

وعَنْهُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ « عُرِضَ عَليَّ أَوَّلُ ثَلاَثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ : أَمِيْرٌ مُسَلَّطٍ ، وَذُوْ ثَرْوَةٍ مِن مَالٍ لا يُؤَدِّيْ حَقَّ اللّهِ فِيهِ ، وَفقِيْرٌ فَخُورٌ » رواهُ ابن خُزيمة وابن حبّان في صحِيحِهِ .

وأخْرَجَ ابنْ ماجَه والحاكِمِ وصحّح إسنادَه أنّ رسُول اللّه ﷺ بَصَقَ يَوْماً عَلَى كَفِّهِ وَوَضَعَ أصْبعَهُ عَلَيْهِ وَقال : « يَقُولُ اللّهُ تَعَالى : ابنَ آدَمَ أتُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟ حَتَّى إذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْين ، ولِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيْدٌ ، جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتّى إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، قُلْتَ أتَصَدّقُ ، وأنّي أوَانُ الصَّدَقةِ » واللّهُ أعلم وصلّى الله على مُحمّد وآلِه وصَحبِهِ وسلّم .

شعــراً :

حَقَيق بالتـواضع مَنْ يَمُـوتُ ويَكْفِي الْمَرَءَ مِن دُنْياهُ قوتُ
فما لِلْمرءِ يُصْبِحِ ذَا هَمُوْمٍ وحِرْصٍ ليسَ يُدْرِكُهُ النُعوتُ
فيا هذا سَتَرْحَلُ عن قَرِيْبٍ إلى قَوِمٍ كَلَامُهُـمُ السُكُـوتُ

آخــــر :

يا غافلاً عن ساعَةً مَقْرُوْنَةٍ بنـــوَادِبٍ وصَوَارِخٍ وثَوَاكِـــلِ

قَـدِّمْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَـوْتِـكَ صَـالِحـاً
فـالمَوْتُ أسْـرَعُ مِن نُزُوْلِ الهَـاطِلِ

حَتَّـامَ سَمْعُــكَ لا يَعِـي لِمُــذَّكِـرٍ
وصَـمِيْـمُ قَلْبِــكَ لا يَـلِيْنُ لِـعَــاذِلِ

تَبْغي مِنَ الـدُّنْيـا الكَـثِيْـرَ وإنَّمَــا
يَكْفِيْــكَ مِنْ دُنْيَـاكَ زَادُ الـرَّاحِــلِ

آيُ الكِتَــابِ يَهُزُّ سَمْعَــكَ دَائِمــاً
وتَصُمُّ عَنْهــا مُعْرِضـاً كـالغَــافِلِ

كَمْ لِــلإلَـهِ علَيْــكَ مِن نِعَمٍ تُـرَى
وَمَــواهِــبٍ وفَــوائِــدٍ وفَــوَاضِــلِ

كَمْ قَـد أنَالَـكَ مِن مَـوَانِـحِ طَـوْلِهِ
فـأسْأَلْـهُ عَفْواً فهُـوَ غَـوثُ السَّـائِـلِ

اللّهُمَّ مَكِّنْ حُبَّكَ في قُلوبِنا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ ووفّقْنا لامْتِثَالِ طَاعَتِكَ وأمْرِكَ واغْفِرْ لَنَا ولِوالِدِيْنَا ولجَمِيع المُسْلِمينَ بِرَحْمتِك يَا أرْحمَ الرّاحِمِين وصلّى الله على مُحَمّد وآلِهِ وصحْبِهِ أجمَعِين .

« موعظـــة »

عِبَادَ اللّه مَن تَكَبَّرَ أَذَلَّهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلّهِ رَفَعَهُ اللّهُ والمُتَكَبِّرُوْنَ يُحْشَرُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ في صُوَرِ الذَّر تَطَؤُهُمْ النّاسُ لِهَوانِهِمْ عَلَى اللّهِ تعالى المُتَكَبّرُوْنَ

شِرَارَ الخَلْقِ وأهلُ النّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوّاظٍ مُسْتكْبِرٍ ، المُتكبِّرُ يَشْمَخُ بأنْفِهِ إذا تكَلَّمَ ، وَيُجَافِي مِرْفَقَيْهِ عَن جَنْبَيْهِ لاَوِياً عُنُقَهُ، يُقَارِبُ خُطَاهُ إذا مَشَى ، مُتَطَاوِلاً عَلَى إخْوَانِهِ ، مُترَفِّعاً على أقْرَانِهِ ، يَنْظُرُ النّاسَ شَزَراً بمُؤَخَّرِ العَيْنِ ، مُتَقَدِّماً عَلَيْهِم إذا مَشَى ، مُحْتَقِراً لِلْعَامَّةِ ، ولا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَهُم وَبَيْنَ الحَمِيْرِ اسْتِجْهَالاً مِنْهُ لَهُم ، فالمُتَكَبِّرُ لا يُحِبُّ لِلْمُؤْمِنينَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، لأنّهُ لا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، ولا يَقدِرُ على التّواضُعِ وَهُوَ رَأسُ أخْلاَقِ المُتّقِيْنَ ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الحِقْدِ ، وَلا يَقْدِرُ أنْ يَدُوْمَ عَلَى الصِّدْقِ ، ولا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الغَضَبِ ، وَلا عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ ، ولا يَسْلِمُ مِنَ الازْدِرَاءِ بالنّاسِ واحْتِقَارِهِم ولاَ يَسْلَمُ مِنْ اغْتِيابِهِمْ ، وتَنْقُصِهِمْ ، لِأَنَّ فِيْهِ مِنَ العَظَمَةِ والعِزَّةِ والكِبْرِيَآء ، مَا يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَمَا مِن خُلُقٍ ذَمِيْمٍ إلا وَصَاحِبُ الكِبْرِ والعَظَمَةِ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ ، لِيَحْفَظَ بِهِ عِزَّهُ وَعَظَمَتُهُ ، وَمَا مِن خُلُقٍ مَحْمُوْدٍ إلاّ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ خَوْفاً مِن أنْ يَفُوتُهُ عِزُّهُ وعَظَمَتُهُ ، ولِذَلِكَ وَرَدَ فِي الحَدِيْثِ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنّةَ مَن فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ ،ومِمَّا جَاءَ فِي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لابنِهِ﴿وَلاَ تُصَعِّر خَدَّك لِلنَّاسِ وَلَا تمشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور » ومِن تَعَالِيمِ رَبِّنَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ ونَبِيِّهَا عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، بقَولُ تَعَالى : ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأرْضِ مَرَحاً إنّك لَنْ تَخرق الأرْض ولنْ تَبْلُغ الجبالَ طُوْلَا﴾ فَيا أَيُّهَا المُتَكبِّرُ النّاظِرُ في عِطْفَيْهِ ، المُتَعَاظِمُ فِي نَفْسِهِ ، إنَّ شَأنَكَ حَقِيْرٌ ، وَقَدْرُكَ صَغِيْرٌ وَلَسْتَ بمَحْسُوبٍ في العِيْر ، ولا في النَّفِيْر ، وَمَا لَكَ عِنْدَ عَاقِلٍ مِنْ حِسَابٍ ، ولا تَقْدِيْر ، لاَ قَلِيْلٍ ولا كَثِيْرٍ ، فَهَوِّنْ عَلَيْكَ ، وارْفُقْ بنَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ مَغْرُوْرٌ ، يا مِسْكِيْن وَتَدَبّرْ كَلاَمَ رَبِّ العَالَمِيْن ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِيْن﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنّمَ دَاخِرِين ﴿قِيْلَ ادْخُلُوا أبوابَ جَهَنّمَ خَالِدِيْنَ فِيْهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبّرينَ﴾ وذَمُّ الكِبْر في القُرآنِ كَثِيرٌ ، والمُتَكَبّرُ

عَدُوٌّ لِلّهِ ولِنَفْسِهِ ، ولِلّنَاسِ ، يُقَصِّرُ في الوَاجِبِ ويَدَّعِيْ مَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَشدَّقُ في الكَلاَمِ ، وَيَتَأَلّقُ في اللِّبَاسِ ، وإِنّهُ لَثَقِيْلٌ فِي حَرَكَاتِهِ ، وسَكَنَاتِهِ ، بَغِيْضٌ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ، وَمُجَالَسَتِهِ ، ومُؤاكَلَتِهِ وَمُشَارَبَتِهِ ، والوَيْلُ كُلَّ الوَيْلَ لِمَنْ صَاهَرَهُ أوْ شَارَكَهُ أوْ رَبَطَتْهُ بِهِ صِلَةٌ ، لأنَّ دَاءَ الكِبْرِ يُعْدِي ويَسْرِي فَتَبْعُدُ السَّلاَمَةُ مِن المقْتَرِبِ مِنْهُ رَأى بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ مَنْ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ فَغَمَزَ جَنْبَهُ ، ثُمّ قَالَ لَيْسَتْ هَذِهِ مِشْيَةُ مَنْ فِي بَطْنِهِ خِراءٌ ، وكَيْفَ يَتَكَبَّرُ مَنْ أوَّلُهُ نُطْفَةٌ مذِرَةٌ ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَحْمِلُ البَوْلَ والعَذَرَة ، هَذَا أكْبَرُ بُرْهانٍ على أنّهُ دَنِس جَاهِلٌ مَجْهُوْلٌ نَكِرَةٌ مُمْتَلِئاً كِبْراً وإعْجَاباً بِنفْسِهِ وسُمْعَةً ، ورِيَاءً ، ولُؤماً وشُؤْماً وشَرَهاً فَهُوَ أشْبَهُ شَيْءٍ بالدُّخّانِ يَمْلأُ الفَضَاءَ ويَتُكُ صُدُوْرَ النّاسِ وأصْلُهُ مِن القُمَامَاتِ والأوْسَاخِ المُبَعْثَرَةِ نَسألُ اللّهَ أن يُقَلِّلَ هَذَا النوعَ المُنْحَطَّ وأنْ يُكثِّرَ ضِدَّهُ مِنْ أهْلِ التَّواضُعِ واللِّيْنِ والعَطْفِ والحَنَانِ : قَالَ اللّه تعَالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرة نَجْعَلُها لِلّذِينَ لاَ يُرِيْدُونَ عُلوا فِي الأرْضِ ولا فَسَاداً والعَاقِبةُ لِلمتّقِين﴾ : اللّهُمّ أنْظِمْنَا في سِلْكِ عِبادِكَ الأخْيار ونَجِّنَا بِرحْمَتِكَ مِن عَذَابِ النّارِ وأسكنّا الجَنّة مع أوليائِكَ الأبرَار واغْفِرْ لَنا ولِوَالِديْنَا ولِجَمِيع المُسْلِمينْ يا أرْحَم الرّاحِمِين وصلّى الله على مُحمّد وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجمَعِين .

(فَصْـــلٌ)

ولِلْكِبْرِ آثارٌ تَظْهَرُ عَلَى الجَوارِحِ كُلِّهَا تَدُوْرُ حَوْلَ ذَلِكَ النَّظر ، فَتَرَى المُتَكبِّرَ إنْ سَمَحَ بِمَمْشَاهُ مَعَ الناسِ يَكُونُ مُتَقدِّماً عَليهم ،حَرِيْصاً جدًا أنْ يَكُونُوا كُلُهُم خَلْفَهُ ، وتَراهُ إن جَلَسَ مَعَهُم ورَضِيَ أنْ يَكُوْنُوا جُلَسَآءَهُ ، مُحْتَفِظاً بصَدْرِ المَجْلِسِ مُسْتَقِلاً بِهِ وَيَسُرُّهُ أنْ يُصْغُوْا إلى كَلامِهِ ، ويُؤْلِمُهُ كَلاَمُ غَيْـرِهِ وتَجِدُهُ يَنْتَظِرُ مِن النَاسِ أنْ يَتَلقَوْا كَلاَمِهِ بالقَبُوْلِ والتَّصْدِيْقِ .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ تَصْعِيْرُ الخَدِّ ، والنَّظَرُ شَزْراً ، واطْرَاقُ رَأْسِهِ ، وجُلُوسُهُ مُتَرَبِّعاً أَوْ مُتَكِئاً .

وتَظْهَرُ الكِبْرِ أَيْضاً في أَقْوَالِ المُتَكَبِرِ حَتَّى في صَوْتِهِ ونَغْمَتِهِ وَصِيْغَةِ كَلاَمِهِ في الإِيْرَادِ وقِيْلَ لإِحْمَقَ تَكَبَّرَ وقَامَ سَاخِطاً على اسْتَاذِهِ لِماذا قُمْتَ فقال دَخَلْتُ ولم يَحْتَرِمْنِيْ وَجَلَسْتُ فلم يُكْرِمْنِي ولم يَدْرِ مَنْ أَنَا واسْتَشْهَدَ بقولِ الشاعرِ

(وَلَــوْ كَــانَ ادْرَاكُ الــهُــدَى بِتَــذَلُــلٍ
رَأَيْتُ الهُــدَى أَنْ لاَ أَمِيْــلَ إِلى الهُــدَى)

وَيَظْهَرُ أَيْضَاً أَثَرُ الكِبْرِ في مَشْيِهِ وَتَبَخْتُرِهِ وَقِيَامِهِ وَجُلُوسِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَفِيْ تَعَاطِيْهِ لأَفْعَالِهِ ، وَفِيْ سَائِرِ تَقَلُّبَاتِهِ فِيْ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ .

وفي كِتَابِ الخُمُولِ والتَّوَاضُعِ لابنِ أبي الدُنْيا عن أَبِي بَكْرٍ الهُذَلِي قال : بَيْنَمَا نَحنُ مَعَ الحَسَنِ ، اذْ مَرَّ عَلَيهِ ابنُ الأَهْتَمِ يُرِيْدُ المَنْصُورَ وعليهِ جُبَابُ خَزٍ ، قد نَضَدَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ على سَاقِهِ ، وانْفَرَجَ عَنْهَا قَبَاؤُهُ وهو يَمْشِيْ وَيَتَبَخْتَرُ، إذْ نَظَرَ إِلَيْهِ الحَسَنُ نَظْرَةً فقال: أُفٍّ أُفٍّ، شَامِخٌ بِأَنْفِهِ ثَانِي عِطْفِهِ ، مُصَعِّرٌ خَدَّهُ ، يَنْظُرُ في عِطْفَيْهِ أَيُّ حَمِيْقٍ يَنْظُرُ في عِطْفَيْهِ في نِعَمٍ غَيْرَ مَشْكُوْرَةٍ ولا مَذْكُوْرَةٍ ، غَيْرَ المأخُوْذِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيْهَا ، ولا المُؤَدِيْ حَقَّ اللَّهِ مِنهَا واللَّهِ أَنْ يَمْشِيْ أَحَدُهُمْ طَبِيْعَتَهُ يَتَلَجْلَجَ تَلَجْلُجَ المجنون في كل عضو منه نِعْمَةٌ وللشيطان بها لعنة ، فسمعه ابنُ الأَهْتَمِ ، فَرَجَعَ يَعْتَذِرُ إليهِ ، فقال لا تَعْتَذِرْ إِليَّ وَتُبْ إلى رَبِّكَ ، أماسَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ ولا تَمْشِي في الأرضِ مَرَحاً إنك لَنْ تَخرِقَ الأرضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُوْلاً ﴾ .

ورأى ابن عمر رجلا يخطر في مشيته فقال : إن للشياطين اخوانا .

ورُوِيَ عن عَلِي بن أَبِي طالبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قالَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِن أَهْلِ النارِ فلْيَنْظُرْ إلى رَجُلٍ قَاعِدٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ قَوْمٌ قِيَامٌ ، وقال أَنَسٌ لم يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إليهم مِن رسول اللَّهِ ﷺ وكانُوا إذا رَأَوْهُ لم يَقُومُوْا لَهُ لِمَا يَعْلَمُونَ مِن كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ أن المتَكَبِّرَ يَحْرَصُ جِدًا عَلى أَنْ يَمْشِيْ مَعَهُ غَيْرُهُ ويَكُونُ الماشِي مَعَهُ خَلْفَهُ ، وكانَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ لا يُعْرَفُ مِن بَيْنِ عَبِيْدِهِ إِذْ كانَ لا يَظْهَرُ في صُوْرَةٍ ظَاهرةٍ ، وَمَشَى قَومٌ خَلْفَ الحَسَنِ البَصْرِيْ فَمَنَعَهُم ، وكان ﷺ في بَعْضِ الأوقاتِ يَمْشِي مَعَ بَعْضِ أَصْحَــابِهِ فَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّقَدُمِ ويَمْشِي في غِمَارِهِم ، إمَّا لِتَعْلِيْمِ غَيْرِهِ أَوْ لِيَنْفِي عن نَفْسِهِ وسَاوِسَ الشيطانِ بالكِبْرِ والاعجابِ .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ أَنْ يَسْتَنْكِفَ مِن جُلُوسِ غَيْرِهِ مَعَهُ بالقُرْبِ مِنْهُ إلَّا أنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، والتَّوَاضُعُ خِلاَفُهُ ، ومِنَها أَنْ لا يَتَعَاطَى شُغْلاً في بَيْتِهِ ، وقد كانَ النبيُّ ﷺ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ـ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ يَعْنِي خِدْمَتِهِم ، ومِن آثَارِ الكبر أَنْ لاَ يَحْمِلَ مَتَاعَهُ إلى بَيْتِهِ ولو كَانَ لاَ يُثْقِلُهُ ، وَهُو خِلاَفُ التَّواضِعُ ، فقدْ كانَ ﷺ يَفْعَلُ ذلِكَ ، وقال عليٌ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : لا يَنْقُصُ الرجلُ الكاملُ مِن كَمَالِهِ مَا حَمَلَ مِن شيءٍ إلى عِيَالِهِ ، وكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحْمِلُ سَطْلاً لَهُ مِن خَشَبٍ إلى الحَمَامِ وهو أمِيْر .

وقال ثَابتُ بنُ مالكٍ : رَأَيْتُ أبَا هُرَيْرَةَ أَقْبَلَ مِن السُّوْقِ يَحْمِلُ حُزْمَةَ حَطَبٍ وهو يَوْمَئِذٍ خَلِيْفَةً لِمَرْوَانَ ، فقال أوْسِعْ الطرِيْقَ لِلأَمِيْرِ يا ابنَ مَالكٍ ،

وعن الأَصْبَغِ بنِ نَبَاتَةَ قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى عُمَرَ رضيَ اللَّهُ عنه مُعَلِّقاً لَحْماً في يدِهِ اليُسْرَى وفي يَدِهِ اليُمْنَى الدُّرَةُ يَدُوْرُ في الأَسْواقِ حتى دَخَلَ رَحْلَهُ ، وقال بَعْضُهُم رأيتُ علياً رضيَ اللَّهُ عنه قد اشْتَرى لَحْماً بِدِرْهَمٍ فَحَمَلهُ في مِلْحفَتِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَحْمِلُ عَنْكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقال لا ، أَبُوْ العِيَالِ أَحَقُّ أَنْ يَحْمِلَ .

ورُوِي أَنَّ عُمَرَ بنَ عُبْدِ العَزِيز أتاهُ لَيْلَةً ضَيْفٌ وكان يَكْتُبُ فكادَ السِرَاجُ يَطْفَأُ ، فقالَ الضَّيْفُ : أَقُومُ إلى المِصْبَاحِ فأُصْلِحُـهُ فقالَ : لَيَسْ مِن كَرَمِ الرَجُلِ أنْ يَسْتَخْدِمَ ضَيْفَهُ ، قال . أَفَأنَبِّهُ الغُلامَ ؟ فقالَ : هِيَ أَوَّلُ نَوْمَةٍ نَامَهَا . فقامَ فأَخَذَ البَطَّةَ فَمَلأَ المِصْبَاحَ زَيْتاً ، فقال الضَّيْفُ : قُمْتَ أنتَ بنَفْسِكَ يا أَمِيرَ المؤمنينَ ! فقال : ذَهْبْتُ وأنا عُمَرُ ورَجَعْتُ وأنا عُمُرُ ما نقصَ مِني شيءٌ وخَيْرُ الناسِ مَن كانَ عِندَ اللَّهِ مُتَواضِعاً وَمِن آثارِ الكِبْرِ تطوْيْلُ الشَارِبِ الذِي يُسَمَّى شَنَبَاتٍ كأنّها رِيْشُ الجَعْلِ اذا ابتَـدأ بالطَّيرانِ أَوْ نَزَلَ قَبْلَ أن يُدْخِلَه ، قال الله تعالى ﴿أفَمَنْ زُيّنَ لَهُ سوءُ عَمَلِهِ فرآهُ حَسَنا﴾ .

وكذَلك إمَالَةُ العِقَالِ إلى الجَبْهَةِ أَوْ إلى جَانِبِ الرأسِ .

ومِن آثارِهِ إسْبَالُ الثِيَابِ والتَّفَاخُرُ بها .

وحُكِيَ أنَّ مُطَرِّفَ ابنَ عبدِ اللَّهِ بنِ الشِّخِيْر نَظَر إلى المُهَلَّبِ بنِ أَبِي صُفْرَةَ وعَلَيهِ حُلَّةٌ يَسْحَبُهَا ويَمْشِيْ الخُيَلاءَ ، فقالَ مُطَرِّفُ لِلْمُهلبِ يا عَبْدِ اللَّهِ مَا هَذِهِ المِشْيَةُ التِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فقال المُهَلَّبُ : أَمَا تَعْرِفُنِي وَتَنْهَانِي مِمَّا رَأَيْتَ فَقَالَ بَلْ اَعْرِفُكَ أَوَّلُـكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ وآخِرُكَ جِيْفَةٌ قذِرَةٌ وحَشْوُكَ فِيْمَا بَيْنَ ذلكَ بَولٌ وَعَذِرَةٌ ، قال بعضهم .

يـا مُظْهِـرَ الكِبْـرِ إعْجَـاباً بصُـوْرَتِـهِ
أنْـظُرْ خَـلاكَ فـإنَّ النَّتْنَ تَثْـرِيْبُ
لـو فَكَّـرَ النـاسُ فِيْمَـا في بُطُونِهِم
مـا اسْتَشْعَرَ الكِبْـرَ شُبَّـانٌ ولا شِيْبُ
هَلْ في ابْنِ آدمَ مِثْلَ الرَّأْسِ مَكْرُمَةً
بـأرْبَـعٍ هُـو في الأقْـدْارِ مَضْـرُوْبُ
أَنْفٌ يَسِيْـلُ وأُذْنٌ رِيْحُـهَـا سَهِـكٌ
والعَيْنُ مُـرْفَضَّـةٌ والثَّغْـرُ مَلْعُـوْبُ
يا ابن التُرابِ ومأكُـولَ التُرَابِ غَـداً
اقْصُـرْ فـإنَّـكَ مَـأْكُـوْلٌ ومَشْـرُوْبُ

ومِن آثارِهِ جَعْلُ خَاتَم ذَهَبٍ أَوْ سَاعَةٍ فيها ذَهَبٌ . ومِن آثارِ الكِبْرِ جَعْلُ الكَبَكَاتِ في أكمَامَ الثِّيَابِ ، وقالَ زَيْدُ بنُ وَهْبٍ : رَأَيْتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضيَ اللَّهُ عنه خَرَجَ إلى السُّوْقِ ، وَبِيَدِهِ الدُرَّةُ ، وعَلَيهِ ازارُهُ فيهِ أرْبَعَ عَشْرَةَ رِقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ جِلْدٍ وَعُوْتِبَ عَلِيٌ كرمَ اللَّهُ وَجْهَهُ في إِزَارٍ مَرْقُوْعٍ ، فَقَالَ يَقْتَدي بِهِ المؤمِنُ وَيَخْشَعُ لَهُ القَلْبُ . أَيْنَ هَؤُلآءِ مِن أَهْلِ زَمَانِنَا المُظْلِم .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ الأكْلُ أو الشُرْبُ باليَسَارِ وهو خِلافَ السُنَّةِ والعَقِلِ والأدبَ .

فإنَّ اليَسَارَ لِمَا يُسْتَكْرَهُ كَالاسْتِجْمَارِ والاسْتِنْجَاءِ والتَّمَخُّطِ وإخْرَاجِ ما في الأنْفِ . أَوْ في الجُرُوْحِ مِن صَدِيْدٍ وَغسلِ الأوْسَاخِ والنجَاسَاتِ ، أَوْ لِمَا يَحْرُمُ ويَسْتَقذَرُ كالدُّخَانِ والخَمْرِ ، واليُمْنى على العَكْسِ لِلأكِلِ والشَرَابِ والتَّسَوُّكِ والتَّطَيُّبِ ، وتَقْدِيمِهَا لِلسَّلامِ ولِلْمُنَاوَلَةِ ونَحْوِ ذلكَ مِمَّا هُوَ لائِقٌ بها .

وقد يَصِلُ الكِبْرُ ومِثْلُهُ العُجْبُ ـ بِصَاحِبهِ إلى أَنْ يُوْرِدَهُ مَوَارِدَ الكُفْرِ برب العالَمِين ، كَمَا حَصَلَ لِلْمُتَكَبِرِ ينَ عَلى اللَّهِ ورُسُلِهِ ، فَمِنَ ذَلكَ ما رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا كان جَالِساً في طَرْيقٍ فَمَرَّتْ بِهِ امْرأَةٌ فَقَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ كَيْفَ الطَّرْيْقُ ؟ فَقَالَ يَا هَنَّاةُ أَمْثِلِيْ يَكُونُ مِنْ عَبْيدِ اللَّهِ ؟ وَخَطَبَ رَجُلٌ آخرُ في الناسِ ، فلمَّا انْتَهى مِن خُطْبَتِهِ قَالَ لَهُ بَعْضُ الناسِ . أكْثَرَ اللَّهُ مِن أَمْثالِكَ فقال لَهُمْ : لَقَدْ كَلَفْتُمُ اللَّه شَطَطَا . أيْ أَمْراً بَعِيْداً ومُشِقاً نَعُوذُ باللَّهِ تعالى مِن حَالِهِ . وَحَالَةِ أَمْثَالِهِ قَلَّلهُمُ اللَّهُ في المسلمين .

وآخرُ أُضَلَّ رَاحِلَتَهُ فالتَمَسَهَا فلَمْ يَجِدْهَا فَقَالَ إنْ لَمْ يَرُدَّ اللَّهُ إليَّ رَاحَلِتِي لا صَلَيْتُ لَهُ صَلاةً أبَداً ، فالتَمَسَهَا الناسُ فَوَجَدُوْهَا ، فقالُوا لَهُ : قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ رَاحِلَتَكَ فَصَلِّ ، فَقَالَ إِن يَمْيِنِي يَمِيْنُ مُصِرٍّ ، كَأَنَّهُ يُهَدِّدُ اللَّهَ ، نَعُوذُ باللَّهِ مِن ذَلِكَ وآخرُ دخلَ مَسْجِدَ البَصْرَةِ فَبَسَطَ ناسٌ لَهُ أرْدِيَتَهُمْ تَعْظِيْمَاً لَهُ ، فَمَشَى عَلَيَها وقَال لِرَجُلٍ يُمَاشِيْهِ : (لِمثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُون) اقْتَبَاساً مِن آيةِ الصَّافاتِ ، إلى هذا الحَدِّ يَصِلُ الكِبْرُ بأهلِهِ قال ابن القيم رحمه الله :

وسَلِ العياذَ مِن التَّكبرُ والهَوَى
فَهُمَا لِكُلِ الشَّرِ جَامِعَتَانِ
وهُمَا يَصُدَانِ الفَتَى عن كُلِ طُرْ
قِ الخَيْرِ اذْ في قَلْبِهِ يَلِجَانِ
فَتَراهُ يَمْنَعُهُ هَوَاهُ تَارَةً
والكِبْرُ أُخْرَى ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ
واللَّهِ ما فِي النَارِ إلاَّ تَابعُ
هَذَيْن فاسْأَلْ سَاكِنِي النِيْرَانِ

ونَصِيْبُ المُتَكَبِّرْ مِن الناس أن يَزْدَرُوْهُ ويَحْتَقِرُوْهُ ويَمْتَهِنُوْهُ وَيَمْقُتُوْهُ ، ويَعْمُلَوا خِلافَ مَا يَفْهَمُونَ أنَّه يُحِبُّهُ مِنهُم حَتَّى يَدَعُوْهُ يَغْلِي مِن مُعَامَلَتِهِم غَيْظاً وحِقْداً ، ولوَ أَمْكَنَ الناسُ أَنْ يَجْعَلُوا المتكبرَ دَائِماً في غُمُوم وهُمُوم لَمَا تَأَخَّرُوْا عِن ذلكَ ، فالناسُ لَهُمْ كَرَامَةٌ يَفْعَلُونَ بِمَنْ يَكْرَهُوْنَهُ مِن أَجْلِ أنَّه يَحْتَقِرُهُمُ ويَمْتَهِنُ كَرَامَتَهُم ويَرى نَفْسَهُ فَوْقَهُم فَهُم يُدْرِكُونَ أنَّه لَئِيْمٌ لا يَتوضَع إلا إِذا أَهَنْتَهُ ولا يَعْرِفُ نَفْسَهُ إلا احْتَقَرْتَهُ وَعامَلْتَهُ مِثْلَ مُعَامَلَتِهِ وأنَّه يُنبَطبَقُ عليه قولُ الشاعر :

فـي النـاسِ مَـنْ لا يُرْتَجَـى نَفْعُـهُ إلا إِذا مُـسَّ بِـأَضْـرَارِ
كالعُـودِ لا تَطْمَـعُ فِـي رِيْحِـهِ إلَّا إِذا أُحْـرِقَ بالنـارِ

آخـر :
يـا مـن تَـبَرَّمَـتِ الـدنيـا بطـلعته كمـا تَـبَرَّمَـتِ الأَجفـانُ بالسُّهُـدِ
يَمْشِي على الأَرضِ مُخْتَالاً فأَحْسِبُهُ لِثِقْلِ طَلْعَتِهِ يمشِـي على كَبِـدِي

آخـر :
أَهِـنْ عَـامِـراً تَكْـرُمْ عَليهِ وإِنَّمَـا أَخُـوُ عَـامِـرٍ مَن مَسَّـهُ بهَـوَانِ

وأَمَّـا نَصِيْبُ المُتَكَـبِرِ من اللَّهِ فَكَمَا سَمِعْتَ مِن الآياتِ الكريمةِ ، والأَحاديثِ الشريفةِ التي إِذا سَمِعَهَا المتواضِعُ المُوَفَّقُ فَتَّشَ على نَفْسِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ قد دَخَلَ عَليهِ الكِبْرُ وهو غَافِلٌ عنه .

عَجِبْتُ لِما تَتـوقُ النفْسُ جَهْـلاً إليـه وقَـدْ تَصَـرَّمَ لانْبَتَـاتِ

وعِصْيَانِي العَذُوْل وَقَد دَعَانِي
إلى رُشْدِي وما فِيهِ نَجَاتِيْ
أُؤَمِّلُ أَنْ أَعِيْش وكلُ يَوْمٍ
بسَمْعِيْ رَنَّةٌ مِن مُعْولاتِي
وأيْدِي الحَافِرِيْنَ تَكِلُّ مِمَّا
تُسَوِّيْ مِن مَسَاكِنَ مُوْحِشَاتِ
نُرَاعُ إذَا الجَنَائِزُ قَابَلَتْنَا
ونَسْكُنُ حِيْنَ تَخْفَي ذَاهِبَاتِ
كَرَوْعَةِ ثُلَّةٍ لِظُهُورِ ذِئْبٍ
فَلمَّا غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتِ
فإنْ أَمَّلْتَ أنْ تَبْقَى فَسَائِلْ
بِمَا أَفْنَي القُرُوْنَ الخَالِيَاتِ
فَكَم مِن ذِي مَصَانِع قَدْ بَنَاهَا
وشَيَّدَهَا قَلِيْلُ الخَوْفِ عَاتِي
قَلِيلُ الهَمِّ ذِيْ بَالٍ رَخِيٍ
أَصَمَ عن النَّصَائحِ والعِظَاتِ
فَبَاتَ وما يُرَوَّعُ مِن زَوَالٍ
صَحِيْحاً ثُمَّ أَصْبَحَ ذَا شِكَاتِ
فَبَاكَرهُ الطَّبِيْبُ فَرِيْعَ لَمَّا
رَآهُ لا يُجِيْبُ إلى الدُّعَاةِ
فَلَوْ أنَّ المُفَرِّطَ وهُوَ حَيٌ
تَوخَّى البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ

لَــفَــازَ بَــغِــبْــطَةٍ وَأَصَــابَ حَــظًّا
وَلــم يَــغْشَ الأُمُــوْرَ الــمُــوْبِقَــاتِ

فَــيَــالَــكِ عِنْــدَهَــا عِــظَةٌ لِــحَيٍّ
وَيَــا لَــكِ مِــن قُلُوبٍ قَــاسِيَــاتِ

وكُــلُ أَخِــيْ ثَــرَاءٍ سَــوْفَ يُمْسِي
عَــدِيــمــاً والجَــمِيْــعُ إلــى شَتَــاتِ

كــأَنْ لَــمْ يُلْفَ شَــيْءٌ مــا تَقَــضَّى
ولَــيْسَ بفَــائِــتٍ مَــا سَــوْفَ يَــأْتِيْ

اللهم إنا نَعُوذُ بكَ مِن سوءِ القضاءِ وشماتَةِ الأعداءِ ، وعُضَالِ الدَّاءِ ، وخَيْبَةِ الرجاءِ وزوالِ النعمةِ وفَجْأةِ النِقمةِ ، ونسألك أن تغفرَ لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فُصل

ولِلْكِبْرِ علاجٌ قد ذَكرهُ العُلَمَاءُ أولاً أن يَعْرِفَ الانسانُ رَبَّــهُ ويَعْرِفَ نفسَهُ ، فإِنَّهُ إذا عَرَفَ رَبَّهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ عَلِمَ أنه لا تَلِيْقُ العظَمةُ والكِبْرِيَاءُ إلاّ باللَّهِ ، وإذا عَرَفَ نَفْسَهُ عَلِمَ أنه ضَعِيْفٌ ذَلِيْلٌ لا يَلِيْقُ به إلاَ الخُضَوعُ لِلَّهِ والتواضعُ والذِلةُ ، قال اللَّهُ تعالى ﴿قتل الانسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره﴾ .

وقال تعالى ﴿هل أتى على الانسانُ حينَ من الدهر لم يكن شيئاً

مذكُوراً﴾ ففي الآياتِ الاشارةُ إلى خَلْقِ الانسانِ وإلى آخِرِ أمْرِهِ وإلىٰ وَسَطِهِ ، أما أَوَّلُهُ فهو أنه لم يَكنْ شَيئاً مَـذكُـوراً وقدَ كانَ في حَيِّزِ العَدَم دُهُوْراً ، ثم خَلَقَهُ العَزِيزُ الحَكِيم مِن تُرابٍ ثم مِن نطفةٍ ثُم مِن علقةٍ ثم مِن مُضْغَةٍ ثم جَعَلَهُ عِظَاماً ثم كَسَا العظامَ لحَماً ، فقد كان هذا بدايةُ وُجُودِهِ أولاً جَماداً لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُحِسُّ ولا يَتَحَرَّكُ ولا يَنْطقُ ولا يَبْطِشُ ولا يُدْرِكُ ولا يَعْلَمُ ، كذا خَلَقَهُ اللَّهُ .

ثم امْتَنَّ عليهِ فقال﴿ثم السبيل يسره﴾أيْ بَيَّنَهُ وَأَوْضَحَهُ وَسَهَّلَهُ ، كما في قوله تعالى ﴿انا هديناه السبيل﴾ فالله جل وعلا هو الذي أحيا الانسانَ بعدَ أن كانَ جَماداً مَيتاً ، تُراباً أولاً ونطفة ثانياً ، وأَسْمَعَهُ بَعدَ أن كان أصَمَّ وبَصَّرَهُ بعدَ ما كان فاقدَ البَصَرِ ، وقَوَّاهُ بعدَ الضَعْفِ ، وعَلَّمَهُ بعدَ الجَهْلِ ، كَمَا قال تعالى ﴿واللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُون أُمَهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وجَعَلَ لَكُمْ السَّمَعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئدَةَ لَعَلَكُمْ تُشْكَرُون﴾ .

فَمَنْ كان هَذَا أولُهُ ، وهَذِهِ أَحْوَالُهُ، فَمِنْ أَيْنَ لَهُ البَطَرُ والأَشَرُ والكِبْرِيَاءُ والخُيَلاءُ ؟ وهو الضَّعِيْفُ الحَقِيْرُ بالنسبةِ إلى قدرةِ البارِىء جلَّ وعَلاَ كما قال تعالى ﴿ألم نخلقكم مِن ماء مهين﴾ وقال ﴿كلا انا خلقناهم مما يعلمون﴾ وقال ﴿فلينظر الانسانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن ماءٍ دافِقٍ﴾ فَلْيَتَأمَل العَاقِلُ هَلْ يَلِيْقُ الكِبْرُ بِمَنْ هذا أَوَّلُهُ ، وآخِرُهُ أَنَّه يُسْلَبُ رُوحُه وسَمْعُه وبَصَرُهُ وعِلْمُهُ وقُدْرَتَهُ وحِسَّهُ وادْرَاكَهُ وحَرَكَتَهُ وجَمَالُهُ وجَمِيْعُ أحْوالِهِ ، فَيَعُودَ كما كانَ أولاً جَماداً ، لا يَبْقَى إلاَّ شَكْلُ أعضائِهِ وصُوْرَتُهِ فيه ولا حَرَكَةَ ، ثم يُوضَعُ في هذا التُرَابِ فَيَصَيْرُ جِيْفَةً مُنْتِناً ، كما كانَ في الأَوَّلِ نُطْفَةً مَذِرَةً ، تَبْلَى أَعْضاؤُهُ وَتَتَفَتَتُ أَجْزَاؤُهُ ، وتَنْخُرُ عِظَامُهُ وَيَصِيْرُ رَمِيْماً رُفَاتاً ويَأكُلُ الدُوْدُ أَجْزَاءه ،

ويكونُ جِيْفَةً يَهْرَبُ مِنه كُلُّ حَيَوَانٍ ويَسْتَقْذِرُهُ الانسانُ ، وأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَعُودَ تُراباً كَمَا كانَ ، ثُمَّ يُحْيِيْهِ الذي خَلَقَهُ أولَ مَرَّةٍ فَيُقَاسِي البَلاَءَ والشَّدَائِدَ وأهوالَ المُزْعِجَاتِ ، فَيَخْرُجُ مِن قَبْرِهِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالى بقوله ﴿يَومَ يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون﴾ فَيَنْظُر إلى قِيَامَةٍ قَائِمَةٍ ، وسَمَاءٍ مُنْفَرِجَةٍ مُشَقَّقَةٍ ، وأرضٍ مُبَدَّلَةٍ ، وجِبَالٍ مُسَيَّرَةٍ ، ونُجُوم مُنْكَدِرَةٍ ، وشَمْسٍ مُنْكَسِفَةٍ ، وأَحْوَالٍ مُظْلِمَةٍ ومَلائِكَةٍ غِلاظٍ شِدَادٍ ، وَجَهَنَّمَ تَزْفُرُ قال تعالى ﴿وجِيءَ يومئذٍ بجنهم ، يومئذ يتذكر الانسانُ وأنَّى له الذِكْرىَ﴾ يَنْظُر إليهَا المجرمُ فَيَتَحَسَّرُ ، وَيَرى صَحَائِفَ مَنْشُوْرَةً ، فَيُقَالُ ﴿اقرأ كتابَك﴾ فِيْهِ جَمِيْعُ عَمَلِهِ مِن أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ . ﴿يُنَبَأ الانسانُ يومَئِذٍ بما قَدَّمَ وإخَّر﴾ قال تعالى ﴿فَمَنْ يعمل مثقال ذَرَةٍ خيراً يرهُ ، ومَنْ يعمل مِثقالَ ذَرَةٍ شراً يره﴾ وقال ﴿وان عـليـكـم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون﴾

فَمَا لِمِنْ هَذا حَالُهُ ومَالَهُ والتَّكَبُّرُ والتَّعَاظُمُ والتَّجَبُّرُ ، بلْ مَالَهُ ولِلْفَرَحِ في لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَضْلاً عن الأشَرِ والبَطَرِ ، قالى ﷺ : « لو تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم ، لضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيْتُمْ كَثِيْراً ولمَا تَلَذَذْتُم بالنِسَاءِ على الفُرُشِ » فَهَذَا مِن أَحْسَنِ الطُرُقِ لَتَذْلِيْلِ النَّفْسِ وَحَمْلِهَا عَلَىَ الخُضُوعِ والتَّواضُعِ لِلَّهِ الذي له الكِبْرِيآءُ في السمواتِ والأرضِ وهو العزيز الحكيم .

وأما العِلاجُ الثاني فَهُوَ التَّواضُعُ لِلَّهِ بالفِعْلِ ولِسَائِرِ الخَلْقِ بالمُواظَبَةِ على أَخْلاقِ المُتَواضِعِيْنَ المُتَّبِعِيْنَ لِطَرِيْقَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ومِن جُمْلَتِهَا مَا فِيْهَا مِن التَّوَاضُعِ بالمُثُوْلِ قائِماً وبالرُكُوعِ والسُجُودِ « إنما أَنا عَبْدٌ آكلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ » وَقَدْ ذَكرنَا نَمُوذَجاً مِن تَوَاضُعِهِ صلى الله عليه وسلم في فَصْلِ التَّواضُعِ مَنْ أَحَبَّ الزِيَادَةَ فَيَرْجِعُ إليه قالَ بَعْضُ مَن رَضِيَ بالكفافِ وَقَنَّعَهُ

اللَّهُ بِمَا آتَاهُ وَمَنَّ عَلَيْهِ بالتواضُعِ .

أَيَا لائِمِي مَالِي سِوَى البَيْتِ مَوْضِعٌ
أرَى فِيهِ عِزاً إِنَّهُ لِيَ أَنْفَعُ
فِرَاشِي ونَطْعِي فَرْوَتِي فَرَجِيتي
لِحَافِي وَأَكْلِيْ مَا يَسُدُ ويُشْبِعُ
وَمَرْكُوْبِيَ الآنَ الأَتَانُ ونَجْلُهَا
لأَخْلاَقِ أَهْلِ الدِيْنِ والعِلْمِ أَتْبَعُ
وقَدْ يَسَر اللَّهُ الكَرِيمُ بَفَضْلِهِ
غِنَى النَّفْسِ مَعْ شَيءٍ بِهِ أَتَقَنَّعُ
أُوفِرُهُ لِلأَهْلِ خَوفاً يَرَاهُم
عَدُوَ بِعَيْشٍ ضَيِّقٍ فَيُشَنِّعُ
وأَصْبِرُ في نَفْسِي عَلَى ما يَنُوبُنِي
وأَطْلُبُ عَفْوَ اللَّهِ فالعَفْوُ أَوْسَعُ
ومَا دُمْتُ أَرْضَى باليَسِيْرِ فَإِنَّنِي
غَنِيٌّ لِغَيرِ اللَّهِ مَا كُنْتُ أَخْضَعُ
ورَبِيَ قَد آتَانِي الصَّبْرَ والغِنَى
عن الناسِ في هذا لِيَ العِزُ أَجْمَعُ
وقد مَرَّ مِن عُمْرِي ثَلاَثٌ أَعُدُّهَا
وسِتُونَ في رَوْضٍ مِن اللُّطْفِ أَرْتَعُ
وَوَجْهِيَ مِن ذُلِّ التَّبَذُلِ مُقْفِرٌ
مُقِلٌ ومِن عِزِّ القَنَاعَةِ مُوْسَعُ

ومِنْ حُسْنِ ظَنِّي أَنَّ ذَا يَسْتَمِرُ لي   إلى المَوتِ إنَّ اللَّهَ يُعْطِي ويَمْنَعُ
وإنِّـيَ لاَ أَلْجَـا إلَـى غَـيرِ بَـابـه   فأَبْقَى كَمَا قَد قِيْلَ والقَولُ يُسْمَعُ
نُـرقِّـعُ دُنْيَـانَـا بتَمْـزيْـقِ دِيْنِنَـا   فَـلا دِيْنُنَـا يَبْقَـى ولا مَـا نُـرَقِّـعُ
فَطُـوبَـى لِعَبـدٍ آثَـرَ اللَّـهَ رَبَّـهُ   وجَـادَ بِـدُنْيَـاهُ لِمَـا يُتَـوقَّـعُ

اللهُمَّ انْفَعْنَـا بِمَا عَلَّمْتَنَـا ، وعَلِّمْتَنَـا مَا يَنْفَعُنَا ، ووَفِّقْنَا للعمل بِمَا فَهَّمْتَنَا ، اللهُمَّ إنْ كُنَّا مُقصرِّيْنَ في حِفْظِ حَقِّكَ ، والوفاء بعَهْدِكَ ، فأَنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَنَا في رَجَاءِ رِفْدِكَ ، وخالِص وُدِّكَ ، اللهُمَّ أنْتَ أعْلَمُ بِنَا مِنَّا ، فَبكَمالِ جُوْدِكَ تَجاوَزْ عَنَّاَ ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، الأَحْيَاءِ مِنْهُم والَمِيِّتِيْنَ ، برَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصلى الله على مُحَمَّدٍ وعلى آله وصَحْبِهِ أجمعي ٌّ .

فصـل : ولا يَتِمُ التَّواضُعُ بَعْد بالمَعْرفَةِ إلَّا بالعَمَلِ ، ولِذَلِكَ أُمِرَ العَـرَبُ الـذينَ تَكَبَّرُوْا على اللَّهِ ورسولِهِ بالايمان وبالصلاةِ جميعا ، وقِيْلَ الصَّلاةُ عِمَادُ الدين ، وفي الصلاةِ أسرارٌ لأَجْلِهَا كانَتْ عِمَادَ الدِيْنِ ، ومِن جُمْلَتِهَا ما فِيْهَا مِن التَّواضُعِ بالمُثولِ قائماً وبالرُكُوعِ والسُجُودِ ، قالَ حكيمُ بنُ حِزامِ : بايَعْتُ النبيَّ ﷺ على أن لاَ أخِرَّ قائماً ، فبايَعَهُ ﷺ ثم فَقُهَ وكَمُلَ إيمانُهُ بعد ذلكَ ، فلَمَّا كانَ السُجُودُ عِندَهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الذِلَّةِ والضَّعَةِ أُمِـرُوْا بِهِ لِتَنْكَسِرَ بذَلِكَ خُيلاَؤُهُم ، ويَزُوْلَ كِبْرُهُم ، ويَسْتَقِرَّ التَوَاضُعُ في قلُوبهم ، وبه أمِرَ سَائِرُ الخَلْقِ ، فإنَّ الرُكُوعَ والسُجودَ والمُثولَ قائما هُوَ الذي يَقْتَضِيْهِ التَّواضُعُ فكذلكَ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ ، فَيَنْظُرُ كُلَّ ما يَتَقَاضَاهُ الكِبْرُ مِن الأفعـالِ فَلْيُوَاظِبْ على نَقِيْضِـهِ ، حَتَّى يَصِـيْرَ التـواضعُ لَهُ خُلُقا ، فإنَّ القُلُوبَ لَا تَتخَلَّقُ بالأخلاقِ المَحْمُوْدَةِ إلا بالعِلْمِ والعَمَلِ .

ومَنْ كانَ يَعْتَرِيْه الكِبْرُ مِن جِهَةِ النَّسب ، فَلْيُدَاو قَلْبَهُ بأمْرَيْن أولاً :
أنْ هَذَا جَهْلٌ مِن حَيْثُ أنَّهُ تَقَوَّى وَتَعَزَّزٍ بِكَمَالِ غَيْرِهِ وَانَّما يَحْصُلُ لَهُ بكَمَالِهِ

قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما الإِنْسَانُ الا ابنُ يَومِهِ   عَلَى مـا تَجَـلَّى يومُـهَ لا ابنُ أَمْسِهِ
ومـا الفَخْـرُ بالعَظْمِ الرَّمِيْمِ وَإِنَّمَا   فِخَـارُ الذي يَبْغِي الفِخَـارَ بِنَفْسِهِ

وقال آخر فِيْمَنْ افْتَخَرَ بآبائه ذَوِي الشرَفِ مَعَ رداءَتِهِ في نَفْسِهِ :

لَئِنْ فَخَـرْتَ بآبـاءٍ ذَوِي شَـرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ ولَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

آخــر :

وإذا افتَخَرْتَ بأعْظَـمٍ مَقْبُـورةٍ   فالنـاسُ بينَ مُكـذِّبٍ ومُصَـدقِ
فاقِمْ لِنَفْسِـكَ بانتسـابكَ شـاهداً   بحَـديـثِ مَجْـدٍ لِلْقَـدِيـم مُحَـقِّقِ

آخــر :

إذا المـرء لَمْ تَسْتَأنِفْ المَجْدَ نَفْسُه   فـلا خَـيرَ فـي مَا أَوْرَثَتْـهُ جُـدُوْدُهُ

آخــر :

وَمَـا يُجْـدِي افْتِخَـارُكَ بالأَوَالِـي   إِذَا لَـم تَفْتَخِـرْ فَخْـراً جَـدِيْـداً

الثاني أَنْ يَعْرفَ نَسَبَهُ الحَقِيْقِيْ ، فَيَعْرفَ أباهُ وجَدَّهُ فإن أَبَاهُ القَرِيْبَ نُطْفَةٌ قَذِرَةٌ ، وَجَدَّهُ البَعِيْدَ تُرَابٌ ذَلِيْلٌ ، وقَدْ عَرَّفَهُ اللَّهُ تعالى نَسَبَهُ فقال جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ الذي أحْسَنَ كلَّ شيءٍ وبدأ خَلَقَ الإنسانِ من طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسَلَهُ مِن سُلاَلَةٍ من ماءٍ مُهِيْنْ ﴾ فَمنْ أَصْلُهُ التُرابُ الْمَهِيْنُ الذي يُدَاسُ بالأَقدام ثُمَّ خُمِّرَ طِيْنَهُ حَتَّى صَارَ حَمَأً مَسْنُوناً كَيْفَ يَتَكَبَّرُ؟

اللهم احمنا واعصمنا مِن الكبر والرِياء والرِبا والحسد وسائرِ الأخلاقِ الدنِيْئَةِ ، ووفقنا للعمل بِطَاعَتَكَ واغفر لَنَا ولوالدينا ولجميع المُسلمين ، بِرحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فُصل)

وإنْ كَانَ التَّكبُر بالجَمَالِ فَدَوَاؤُهُ أَنْ يَنْظُر إلى بَاطِنَهُ نَظَرَ العُقَلاءِ ، ولا يَنْظُر إلى الظَّاهِرِ نَظَرَ البَهَائِمِ ، ومَهْمَا نَظَرَ إلى باطِنِهِ رَأَى مِن القَبَائِح ما يُكَدِّرُ عَلَيهِ تَعَزُزَهُ بالجَمَالِ ، فإنَّ الأقْذَارَ في جَمِيْعِ أجْزَائِهِ ، فالرجِيْعُ في أَمْعَائِهِ ، والبَوْلُ في مَثَانَتِهِ والمُخَاطُ في أنفِهِ ، والبُزَاق في فَمِهِ ، والوَسَخُ في أُذُنَيْهِ ، والدَّمُ في عُرُوْقِهِ ، والصَّدِيْدُ تَحْتَ بشَرَتِهِ والصُّنَانُ تَحْتَ إبْطِهِ ، يَغْسِلُ الغَـائِط بِيَدِهِ كُلَّ يوم مَرَّتَيْن أو ثلاثا لِيُخْرِجَ مِن باطِنِهِ ما لَوْ عَايَنَهُ لاَسْتَقْذَرَهُ ، فضْلاً عَنْ أنْ يَمَسَّهُ أو يَشُمَّهُ ، فَهَلْ يَلِيْقُ بِمَنْ هَذِهِ حَالُهُ الكِبْرُ والتَّعَاظُمُ . كَلاَّ مَا يَلِيْقُ بِهِ إلا التَّواضُعُ لِلَّذِي أوْجَدَهُ .

وفي أَوَّلِ أمْرِهِ خُلِقَ مِن النُّطْفَةِ وفي بَطْنِ أُمِّهِ يَتَغَذَّى بِدَمِ الحَيض ، وأُخْرِجَ مِن مَجْرَى البَوْلِ مَرَّتَيْنِ ، قال طَاوُوْسُ لِعُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ ـ قَبْلَ تَوَلِّيْهِ الخِلاَفَةَ وَزُهْدِهِ في الدُنْيَا ـ ما هَذِهِ مِشْيَةُ مَنْ فَي بَطْنِهِ خِرَاءٌ ، إذْ رَآهُ يَتَبَخْتَرُ ، فإذا نَظَرَ إلى أَنَّهُ خُلِقَ مِن مَاءٍ مَهِيْنٍ ، وأسْكِنَ في أَقْذَارٍ ، وسَيَمُوْتُ فَيَصِيْرَ جِيْفَةً لم يَفْتَخِرْ بَجَمَالِهِ الذِي هُوَ كَخَضْرَاءِ الدِّمَنِ ، كَيْفَ وَلَوْ كَانَ جَمَالُهُ بَاقياً ، وجسْمُه عن هذه الأشيآءِ خَالِياً ، لكَانَ يَجِبُ عليهِ أنْ لا يَتَكَبَّرَ ، وَيَعْلَمَ أنَّ هذا عُرْضَةٌ لِلزَّوالِ بِمَرضٍ أَوْ حَرَقٍ أَوْ قَرْحَةٍ أَوْ بَرَصٍ أَوْ تَشْوِيْهٍ ، فَمَعْرِفَةُ هَذا تماماً تَنْزِعُ بإذنِ اللّهِ مِن القَلْبِ دَاءَ الكِبْرِ والعُجْبِ لِمَنِ أَكْثَرَ تَأَمُّلَهَا .

وإنْ كَانْ التكبر بالقوةِ فالعلاج أنْ يعلم أنَّ القُوةَ لِلَّهِ جَمِيْعَا وَيَعْلَمَ ما سُلِّطَ عَلَيْهِ مَن العِلَلِ والأَمْراضِ ، وأنَّهُ لَوْ أَصابَهُ عُوْدٌ يَسِيْرٌ وَدَخَلَ في لَحْمِهِ لأَقْلَقَ رَاحَتَهُ ، وَأَقَضَّ مَضْجَعَهُ ولو وَجِعَ أُصْبُعٌ أو عِرْقٌ من عُرُوْقِ بَدَنِهِ لَتَأَلَّمَ وَصارَ أَعْجزَ مِنْ كُلِّ عَاجِزٍ ، وَأَذَلَّ مِنْ كُلِّ ذَلِيْلٍ ، وَأَنَّ البَعُوضَةَ والجُرْثُوْمَةَ الدَّقِيْقَةَ إِذا سُلِّطَتْ عَليهِ أَهْلَكَتْهُ وَإنّ حُمَّى سَاعَةٍ تُحَلِّلُ مِن بَدَنِهِ ما لا يَنْجَبِرُ بالمُدَةِ الكَثِيْرَةِ ، قال الشاعر :

ولا تَمْشِيْ فَوْقَ الأَرْضِ إلَّا تَوَاضُعاً
فكَمْ تَحْتَهَا قَومٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ
وإنْ كُنْتَ في عِزٍّ رَفِيْعٍ وَمِنْعَةٍ
فكم مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُوا مِنْكَ أَمْنَعُ

فَمَنْ كَانَ هَذِهِ حَالُهُ فَلاَ يَلِيْقُ بِهِ الكِبْرُ ، ثُمَّ مِن البَهَائِمِ مَا هُوَ أَقْوى بِكَثِيْرٍ مِنْهُ ، وَأَيُّ افْتِخَارٍ وَتَعَاظُمٍ في صِفَةٍ يَسْبِقُهُ فِيهَا الحِمَارُ . والبَغْلُ والثَّوْرُ والفِيْلُ .

وانْ كَانَ التَّكَبُرُ بالمَالِ فبأنْ يَعْرِفَ وَيَعْلَمَ أَنَّهُ عَرَضٌ زَائِلٌ ، وفي مَعْنَاهُ التَّكَبُّرُ بِكَثْرَةِ الأَتْبَاعِ والأَنْصَارِ ، ويُقَالُ لَهَا كَثْرَةُ الشَّعْبِيَةِ ، وكَذلكَ التَّكَبُّرُ بولاَيَةِ السَّلاطِيْنِ والأُمَرَاءِ ، وَكُلُ ذَلِكَ تَكَبُّرٌ بأمْرٍ خارِجِي أَيْ خَارِجٌ عن ذَاتِ الانسانِ ، وهَذَا أَقْبَحُ أنواعِ الكِبْرِ ، فإنَّ المُتَكَبِّرَ بمالِهِ أَوْ عَقَارِهِ لَوْ ذَهَبَ مَالُهُ أو انْهَدَمَ عَقَارُهُ أَوْ تَلِفَ لَعَادَ في لَحْظَةٍ ذَلِيْلاً مِن أَذَلِّ الخَلْقِ وَكُلُ مُتَكبر بأمْرٍ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ مِن أَجْهَلِ الخَلْقِ ، كَيْفَ والمُتَكَبِرُ بالمالِ لَوْ تَأمل لَرَأى في اليَهُودِ والنَّصارَى وَغيرِهِم مِن الكَفَرَةِ مَنْ يَزْيدُ عَليهِ في المالِ والتَّجَمُلِ والثَّرْوَةِ ، فأُفٍّ لِشَرَفٍ يَسْبِقُكَ بهِ يَهُوْدِيٌ وَنَحْوُهُ ، ويأخُذُهُ سَارِقٌ أَوْ نَحوُه في لَحْظَةٍ ،

فَيَعُوْدُ صَاحِبُه ذَلِيْلاً حَقِيْرا مُفْلِسَا .

وإن كان الكِبْرُ بالعِلْمِ ـ وهو أَعْظَمُ الآفاتِ ، وأَغْلَبُ الأدْوَاءِ وأَبْعَدُهَا عن قَبْولِ العِلاجِ إلا بشِدَّةٍ شَدِيْدَةٍ ، وذَلِكَ لأنَّ العِلْمَ عَظِيْمٌ عندَ الناسِ ، وهو أعَظَمُ مِن قَدْرِ المالِ والجَاهِ ، ولِذَلِكَ قالَ عُمَرُ رضيَ اللَّهُ عنه : العَالِمُ إذا زَلَّ زَلَّ بزَلَّتِهِ عَالَمٌ فَيَعْجَزُ العَالِمُ أنْ لا يَسْتَعْظِمَ نَفْسَه بالإِضَافَةِ إلى الجَاهِلِ ـ، لِكَثْرَةِ ما نَطَقَ بِهِ الشَّرْعُ مِن فَضَائِلِ العِلْمِ وأَهْلِهِ ـ فلا بُدَّ لِلْعَالِمِ من مَعْرِفَةِ أَمْرَيْن أَحَدُهُمَا أنْ يَعْلَمَ أنَّ حُجَّة اللَّهِ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ آكَدُ ، وأَنَّهُ يُحْتَمَلُ مِنْ الجَاهِلِ ما لا يُحْتَمَلُ مِن العَالِمِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يعلمون والذين لا يعلمون﴾ فإِنَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ عَلَىَ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ أَعْظَمُ جِنَايَةً مِمَّنْ عَصَى اللَّهَ عَلى جَهْلٍ ، لإِنَّ العَالِمَ لم يَقْضِ حَقَّ نِعْمَةِ اللَّهِ عليهِ ولِذلكَ قال النبيُ ﷺ ؛ « يُجَاءُ بالرَّجلِ يومَ القِيَامَةِ فيُلْقَي في النارِ فَتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ فَيَدُوْرُ بِهَا كَمَا يَدُوْرُ الحِمَارُ في الرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النارِ ، فَيَقُولُونَ يا فُلاَنُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بالمَعْرُوْفِ وَتَنْهَى عن المُنْكَرِ فيقولُ بَلَى كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوْفِ وَلاَ آتِيْهِ ، وَأَنْهَى عن المُنْكَرِ وآتِيْهِ » رواه البخاري ومسلم . فإذا تَفَكَّرَ فِيْمَا أَمَامَهُ مِن الخَطَرِ العَظِيْمِ وَعَلِمَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصالحُ الصحابةُ فَمَنْ بَعْدَهم مِن التَّواضعِ والخَوْفِ مِمَّا أَمَامَهُم مِن الأَهْوَالِ والكُرَبَاتِ والشَّدَائِدِ ، امْتَنَعَ بِإِذْنِ اللهِ مِن الكِبْرِ ، فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصحابَةِ يَقُولُ : لَيْتَنِيْ لَمْ تَلِدْنِي أُمِّيْ ، وَيَقُولُ الآخَرُ لَيْتَنِيْ شَجَرةٌ تُعْضَدُ وَيَأْخُذُ الآخَرَ تِبْنَةً وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِيْ كُنْتُ هَذِهِ التِّبْنَةَ ، وَيَقُولُ الآخَرَ : لَيْتَنِيْ كُنْتُ طَيْراً أُوْكَلُ ، وَيَقُولُ الآخَرُ : لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً .

الثاني أنَّ العَالِمَ يَعْرِفُ أَنَّ الكِبْرَ لا يَلِيْقُ إلاَّ باللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيْءٌ وهو السميعُ البَصِيْرُ﴾ وأنَّهُ إذا تَكَبَّرَ صارَ مَمْقُوتاً عِنْدَ اللَّهِ بَغِيْضًا ، وقد أحبَّ اللَّهُ منه أَنْ يَتواضَعَ ، وأنْ يُفكِّرَ في خَطَرِ الخاتِمَةِ ، فَكَمْ مِن إِنْسَانٍ مُزْدَرى مُحْتَقَرٌ لِكُفْرِهِ أَوْ فِسْقِهِ فتَحَ اللَّهُ عليه بابَ التوبةِ والانابةِ ، فأقبلَ على اللَّهِ فَسَعِدَ بذلكَ وشُهِدَ له بالجنةِ كَعُمَرَ رضي اللَّهُ عنه ، وبالعكس فكَمْ مِن انسانٍ عَمِلَ بَعَمَلِ أهلِ الجنةِ زَمَناً طويلاً وفي آخِرِ الأَمْرِ عَمِلَ بعَمَلِ أهل النارِ فَيَدْخُلُهَا كَثَعْلَبَةَ وبِلْعَامَ ونَحوهِمَا مِمَّنْ ارتَدَّ عن الاسلامِ وفي حَدِيثِ ابنِ مَسعودٍ قولُه ﷺ : « ان أَحَدَكم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهلِ الجنةِ حَتَّى ما يكونُ بينَهُ وبينَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عليه الكَتابُ فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهل النارِ فَيَدْخُلهَا ، وإن أَحَدَكُمْ ليَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ النارِ حتى ما يَكونُ بينَهُ وبينَهَا إلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عليه الكتَابُ فَيَعْملُ بعَمَل أهلِ الجنةِ فَيَدْخُلُهَا » متفق عليه .

فَمَهْمَا بَلَغَ المَرءُ مِن العِلْمِ والتُقَى والوَرَعِ والزُهْدِ فَهُوَ في خَطَرٍ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ التِي عليها المَدَارُ ، فبِمُلاَحَظَتِهَا يَتلاشَى الكِبْرُ بِإِذْنِ اللهِ .

ومِن أَضَرِّ مَا عَلَى كَثِيرٍ من عُلَمَاءِ هَذَا الزمانِ الشَّهَادَاتُ الحَالِيَّةُ التِي يُسَمُّونَهَا دُكْتُورَاه وماجِسْتِيْر وعَالِمِيَّةِ وبَكَالِرْيُوس ونحو ذلك لأنَّ مَنْ حَصَلَ عَلَيها رَأى مَنْ لم يَحْصُلْ عليهَا بعَينِ الاحتقارِ والامْتِهانِ والازْدِراءِ وَمَعَ ذلكَ فهِيَ عندَ بَعضِهِمْ مُضْعَفَةٌ لِلتَّوكُلِ على اللَّهِ مِن قِبَلِ الرِزْقِ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ ما يَجْرِيْ على أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ مِنهُم بقَوْلِهِم لِمَنْ لم يَحْصُلْ علَيها أَمِّنْ حَياتَكَ أُحْصُلْ على شَهادَةٍ . وَنَسُوْا قَوْلَ اللَّهِ تَعالَىٰ ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ يَتوكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾ وقوله ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتوكَّلُوا إنْ كُنْتُم مؤْمِنِين﴾. وكَثِيرٌ مِن أُولَئكَ أَهْمَلُوا التَّوكُلَ عَلَى اللهِ وتَوَكَّلُوا على الشَّهَادَةِ الْمَذْكُورةِ.

شعرا :

أَتَطلبُ رزقَ اللَّهِ مِن عِندِ غَيْرِهِ
وَتُصْبِحُ مِن خَوْفِ العَوَاقِبِ آمِنَا
وتَرْضَى بِصَرَّافٍ وإنْ كَانَ مُشْرِكاً
ضَمِيْناً ولا تَرْضَى بِرَبِكَ ضَامِنَا
كَأَنَّك لَمْ تَقْرَأْ بِمَا في كِتَابِهِ
فَأَصْبَحْتَ مَنْحُولَ اليَقِيْنِ مُبَايِنَا

يُشِيْرُ إلى قَولِ اللَّهِ تعالى ﴿ومَا مِن دَابَةٍ في الأرضِ إلا على اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وقوله ﴿إنَّ اللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ﴾ .

وَمَنْ أَمْعَنَ نَظَرَهُ في الناسِ وسَبَرَهُم وَجَدَ ذلكَ بِكَثْرَةٍ ، وَوَجَدَ عِندَهُم مِن الطغيانِ والأُبَّهَةِ والكِبْرِ الشيءِ الكثيرِ ، يَظْهَرُ ذَلِكَ على ألسِنَتِهِم وهَيْئَآتِهِم نسأل اللَّه العصمة لنا ولاخواننا المسلمين .

باتُوا على قُلَلِ الأجْبَالِ تَحرِسُهُمْ
غُلْبُ الرِجَالِ فَلَمْ تَنْفَعْهُم القُلَلُ
واسْتُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍ عن مَعَاقِلِهِم
إلى مَقَابِرِهِمّ يا بِئْسَ مَا نَزَلُوْا
نَادَاهُم صَارِخٌ مِن بَعدِمَا دُفُنوا
أَيْنَ الأَسِرَّةُ والتِيْجَانُ والحُلَلُ
أَيْنَ الوُجُوهُ التِيْ كَانَتْ مُحَجَّبَةً
مِنْ دُوْنِها تُضْرَبُ الأَسْتَارُ والكِلَلُ

فـأَفْصَـحَ القَبْـرُ عَنْهُم حِيْنَ سَـاءلَهُم
تِلْكَ الـوُجُـوهُ عَلَيهـا الـدُّوْدُ يَقْتَتِـلُ
قَـدْ طَالـمَـا أكَلُوا فِيهَـا ومـا شَـرِبُـوا
فأصْبَحُوا بَعدَ طُولِ الأُكلِ قَدْ أُكِلُوا
وطَـالَمـا كَنَـزُوا الأَمْـوَالَ وادَّخَـروا
فَخَلَّفُـوهَـا عَلَى الأَعْـدْاءِ وارْتَحَلُوْا
وطَـالَمـا شَيَّـدُوا دُوْراً لِتُحْـصِنَـهُمْ
فَفَـارُقُـوْا الـدُّوْرَ والأَهْلِيْنَ وانْتَقَلُوا
أَضْحَتْ مَسَـاكِنُهُم وَحْشـاً مُعَـطَّلَةً
وسَاكِنُوهَـا إلى الأَجْدَاثِ قَـدْ رَحَلُوا
سَـلِ الخَلِيْـفَـةَ إِذْ وَافَتْ مَنِيَّتُـهُ
أَيْنَ الجُنُـودُ وأَيْنَ الخَيْـلُ والخَـوَلُ
أَيْنَ الكُنُـوزُ الَّتِي كـانَتْ مَفَـاتِحُهـا
تَنُـوءُ بـالعُصْبَـةِ المُقْـوِيْنَ لَـوْ حَمَلُوْا
أَيْنَ العَبِيـدُ الَّتِي أَرْصَـدْتَهُمْ عُـدَداً
أَيْنَ الحَـديـدُ وأَينَ البِيْضُ والأَسَـلُ
أَيْنَ الفَـوارسُ والغِلْمَـانُ مـا صَنَعُـوا
أَيْنَ الصَـوارِمُ والخِـطِّيَـةُ الـذُبُـلُ
أَيْنَ الكمُـاةُ أَلَمْ يَكْفُـوا خَلِيْفَتَهُـم
لمَّـا رَأوهُ صَـرِيْعـاً وَهْـوَ يَبْتَهِـلُ
أَيْنَ الكُمَاةُ الَّتِي ماجُوا لِمَا غَضِبُوا
أَيْنَ الحُمَاةُ الَّتِي تُحْمَى بِهَا الـدُوَلُ

أينَ الـرُماةُ أَلَمْ تَمْنَـعْ بـأَسْهُمِهِمْ
لَمَّـا أَتَتْـكَ سِهَـامُ الْمَـوْتِ تَنْتَصِـلُ
هَيْهَـاتَ ما كَشَفُـوا ضَيْماً ولا دَفَعُـوا
عَنْـكَ المَنِيَّـةَ إِذْ وَافَى بِـكَ الأَجَـلُ
ولا الـرُّشَى دَفَعَتْهَا عَنْـكَ لَو بَـذَلُـوا
ولا الـرُّقَى نَفَعَتْ فِيهَـا ولاَ الحِيَـلُ
مـا سَـاعَـدُوكَ ولا وَاسَـاكَ أَقْـرَبُهُم
بَـلْ سَلَّمُوكَ لَهَـا يَا قُبْـحَ مـا فَعَلُوْا
مَـا بَـالُ قَبـرِكَ لا يَـأتِي بـه أَحدٌ
وَلاَ يَـدُوْرُ بِـهِ مِـن بَيْنِهِـم رجُـلُ
مـا بَـال ذِكْـرِكَ مَنسِياً ومُـطَّرَحـاً
وَكُلُهُمُ بـاقْتِسَـامِ الَمْـالِ قَـدْ شُغِلُوْا
ما بَالُ قَصْرِكَ وَحْشاً لا أَنِيْسَ بـه
يَغْشَـاكَ مِن كَنَفَيـهِ الـرَوْعُ والـوَهَـلُ
لا تُنْكِـرَنَّ فَمَـا دامَتْ عـلى مَلِكٍ
إلاَّ أَنَـاخَ عليـه المـوتُ والـوَجَـلُ
وكَيْفَ يَـرَجُـو دَوَامَ العَيْشِ مُتَّصِـلاً
وَرُوْحُـه بِجِبَـالِ المـوتِ مُتَّصِـلُ
وجِسْمُـهُ لِبُنَيَّـاتِ الـرَّدَى غَـرَضٌ
ومَـالُـه زَائِـلٌ عَـنْـهُ ومُـنْـتَقِـلُ

اللهم امْنُنْ علينا باصلاحِ عُيوبِنا واجعل التَّقْوَى زادَنا وفي دِيْنِكَ

اجْتهادَنا وعليكَ توكلنا واعتمادُنا اللهم ثَبِتْنَا على نَهْجِ الاستقامة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

فصل في الغضب والتحذير منه »

إعْلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِينَ وَجَنَّبَنَا وإِيَّاكَ وإِيَّاهُم كُلَّ خُلُقٍ رَذِيْلٍ أنَّ مِمَّا يَتَأكّدُ اجْتِنَابُهُ فِي رَمَضَانَ وفي غَيْرِهِ الغَضَبُ إلاّ أنْ تَنْتَهِكَ مَحَارِمَ اللّهِ فَيَغْضَبُ لِمَا يُغْضِبُ اللّهَ وَيَمْلِكُ نَفْسَهُ فِيْمَا عَدَا ذَلِكَ إلا أنْ يُبْغى عَلَيْهِ وتَعْرِيْفُ الغَضَبِ أنَّهُ قُوّةٌ أَوْدَعَهَا اللّهُ فِي الإِنْسَانِ تَثُوْرُ مِن بَاطِنِهِ فَتَحْمِلُهُ على الدِّفَاعِ عَمَّا يُحِبُّهُ مِن الأغْرَاضِ وتَدْفَعُهُ إلى البَطْشِ بِكُلِّ مَا يُؤْذِيْهِ فإذا اعْتَدَى عَلَيْهِ مُعْتدٍ أوْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أغْرَاضِهِ تَثُوْرُ تِلْكَ القُوَّةُ فَيَغْلي دَمُهُ وَيَنْتَشِرُ في العُرُوْقِ ويَرْتَفِعُ إلى أعَالِي البَدَنِ فَيَظْهَرُ أثرُهُ عَلَى ظَاهِرِ الوَجْهِ والعَيْنَيْنِ .

والغَضَبُ مِن مَدَاخِلِ الشّيْطانِ إلى قَلْبِ الإنسانِ فإنَّ الغَضَبَ غُولُ العَقْلِ وإذا ضَعُفَ جُنْدُ العَقْلِ هَجَمَ جُنْدُ الشَّيْطانِ وَمَهْمَا غَضِبَ الإِنْسانُ لَعِبَ الشّيْطانُ بِهِ كَمَا يَلْعَبُ الصِّبْيانُ بالكُرَة .

وَلِلْغَضَبِ ثَلاَثُ دَرَجاتٍ أَوّلاً دَرَجَةُ الاعْتِدَالِ وذَلِكَ بأنْ يَغْضَبَ لِيَدْفَعَ عَنْ دِيْنِهِ أوْ نَفْسِهِ أوْ مَالِهِ أَوْ يَغْضَبَ لِيُدَافِعَ عَنْ الحُقُوقِ العَامَّةِ ونُصْرَةِ المَظْلُومِيْنَ وَتِلْكَ الحَالَةُ هِيَ الّتِي مِن أَجْلِهَا خَلَقَ اللّهُ الغَضَبَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لِحِكْمَةٍ وَلوْلاَ أنَّ اللّهَ جَعَلَ ذَلِكَ فِي الإِنْسَانِ لَفَسَدَتْ الأرْض بانْتِشَارِ الفَوْضَى وتَقْوِيْضَ دَعَائِمِ النُّظُمِ الإجْتِمَاعِيَّةِ وَالدِّيْنِيَّةِ لِأنَّ مَن لا يَغْضَبُ لِعِرْضِهِ لا يَغَارُ لِنِسَائِهِ فَتَخْتَلِطُ الأنسَابُ وتَعُمُّ الفَوْضَى في ذَلِكَ البَابِ ويُصْبِحُ الإِنْسَانُ

كَالحَيوانَاتِ الّتِي يَسْطُو بَعْضُها على بَعْض بِدُوْنِ غَيْرَةٍ ولاَ حَميَّةٍ وَلا مَعْرِفَةٍ لِمَا يَترتَّبَ عَلى ذَلِكَ مِن التّناسُلِ الّذِي بِه حَيَاةُ النَّوْعِ الانسانِي وَبقاءُ العُمْرَانِ إلى الأَجَلِ الّذِي قَدَّرَهُ اللّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ الوُجُوْدِ .

ومَنْ لا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ فإنَّهُ يَكونُ مُعَرَّضاً لِلزَّوالِ مِنْ هَذَا الوُجُودِ أَوْ مُعَرَّضاً لِأَنْ يُسَخِّرَهُ غَيْرُهُ كَمَا تُسَخَّرُ الدَّوَابُ الّتِي لا تَغْضَبُ لِنَفْسِهَا .

ومَنْ لا يَغْضَبُ لِمالِهِ فَإِنَّهُ لاَ يَلْبَثُ أَنْ يَسْلُبَهُ النّاسُ مِنْهُ ويُصْبِحُ فَقِيْراً مُعْدِماً وَإذا فَشَى سَلْبُ المَالِ فَإِنَّ نِظَامَ العَمَلِ يَتعَطَّلُ وتَبْطُلُ الأَعْمَالُ التِّجارِيَّةُ والصِّنَاعِيَّةُ والزِّرَاعِيَّةُ ويَعْتَمِدُ النّاسُ عَلى سَلْبِ بَعْضِهِمْ بَعْضَا .

ومَنْ لاَ يَغْضَبُ لِدِيْنِهِ فَإِنَّهُ في الغَالِبِ لاَ يَسْتَقِرُّ عَلَى دِيْنٍ لِأَنَّ اخْتِلافَ طَبَائِعِ النّاسِ واخْتِلافَ أَنْظَارِهِمْ مِنْ أَكْبَرِ البَوَاعِثِ على اخْتِلاَفِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ فَمَنْ لا يَغَارُ عَلى دِيْنِهِ يَكُونُ عُرْضَةً لِتَقْلِيْدِ القَوِيّ في كُلِّ مَا يَرَاهُ فَيَنْتَقِلُ مِنْ دِيْنٍ إلى دِيْنٍ .

وهَكذا فَخلق الله الغَضَبَ لِيحْمِي النّاسَ بعضهُمْ بعضاً فَيَسْتَقِرُّ النِّظَامُ ويَقِفُ كُلُّ واحِدٍ عِنْدَ الحَدِّ الّذِي قَدَّرَ اللّهُ لَهُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ قَال الله تعالى ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ ببعْض لَفسدتْ الأرض ولكن الله ذُو فَضْل على العَالَمِين﴾ . وقال تعالى ﴿وَلَوْلا دَفْعُ الله النّاسَ بعضَهم ببعض لهدمت صوامِعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكُر فيها اسم الله كثيراً﴾ .

ولِلْغَضَبِ أَسْبَابٌ كَثِيْرَةٌ تَخْتَلِفُ باخْتِلاَفِ أَحْوَالِ النَّاسِ وطَبَائِعِهِمْ واسْتِعْدَادِهِمْ لِلتَّأَثُّرِ بالأَشْيَاءِ فَنَذْكُرُ طَرَفاً مِنها لِيَجْتَنِبَها الإنسانُ ، فمِنْهَا الجِدَالُ والمَزْحُ والسُّخْرِيَّةُ بالنّاسِ نَعُوْذُ بِاللّهِ والاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ واطلاقُ اللّسانِ في

السَّبِ واللَّعْنِ والغَيْبَةِ وَمِن ذَلِكَ الكِبْرُ والعُجْبُ لِأَنَّ المُتَكَبِّرَ المُعْجَبَ بِنَفْسِهِ يَتَأَثَّرُ كُلَّمَا فَاتَهُ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُنَافِي عَظَمَتَهُ وخُيَلاءهُ فإذا طَالَبَهُ أَحَدُ بِحَقٍّ اهْتَاجَ غَضَبُهُ وهَكَذَا إِذَا نُهِيَ عَنْ رَذِيْلَةٍ لِأَنَّهُ مِنَ سَخَافَةِ عَقْلِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَامِلٌ مِن كُلِّ وَجْهٍ فَلا يَصِحُّ لأحَدٍ عِنْدَهُ أَنْ يَأْمُرَهُ أَوْ يَنْهَاهُ أَوْ يَقِفُ فِي سَبِيلِهِ أَوْ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الوَاقِعِ نَاقِصٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَيُحَاوِلُ أَنْ يَجْبُرَ نَقْصَهُ بِكِبْرِيائِهِ وعَظَمَتِهِ وهُوَ مَغْرُوْر .

وَمَــن جَــهِـلَتْ نَـفْـسُـه قَـدْرَهُ
رَأَى غَـيْـرُهُ مِـنْـهُ مَـا لا يَـرَى

وَمِنْ أَسبَابِ الغَضَبِ مُصَاحَبَةُ الأَشْرَارِ الّذِين لا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ المَمْدُوْحِ وَالمَذْمُوْمِ مِنَ الغَضَبِ فَيَحْسَبُونَ التَّهَوُّرَ والطَّيشَ شَجَاعَةً وَيَعُدُّوْنَ طُغْيَانَ الغَضَبِ المُوجِبِ لِلْظُّلْمِ رُجُوْلَةً وَيَتَبَجَّحُوْنَ بِذَلِكَ فَيَقُولُ الواحِدُ مِنْهُمْ : أَنَا الّذِي لا أَصْبِرُ عَلَى مَكْرُوْهٍ ، وَلَا عَلَى مَكْرٍ وَلا أَحْتَمِلُ مِن أَحَدٍ أَمْراً وَمَعْنَاهُ حَقِيْقَةً لَا عَقْلَ فِيَّ وَلا حِلْمَ يُذْكَرُ فِي مَعْرَضِ الفَخْرِ بِالجَهْلِ فَإذا سَمِعَهُ الجَاهِلُ رَسَخَ فِي ذُهْنِهِ حُسْنُ الغَضَبِ وَحَبَّ التَّشَبُّهَ بِالقَوْمِ فَيَقْوَى بِهِ الغَضَبُ ، وَمَهْمَا اشْتَدَّتْ نَارُ الغَضَبِ وَقَوِيَ اضْطِرَامُهَا أَعْمَتْ صَاحِبَهَا وأَصْمَتْهُ عن كُلِّ مَوْعِظَةٍ فإذا وُعِظَ لَمْ يَسْمَعْ بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ غَضَباً وإِذا اسْتَنَارَ بِنُوْرِ عَقْلِهِ وَرَاجَعَ نَفْسَهُ لَمْ يَقْدِرْ إِذْ يَنْطَفِيءُ نُوْرُ العَقْلِ وَيَنْمَحِيْ فِي الحَالِ بِدُخَانِ الغَضَبِ والعِيَاذُ بِاللّهِ .

فَإِنَّ مَعْدَنَ الفِكْرِ الدِّماغُ وَيَتَصَاعَدُ عِنْدَ شِدَّةِ الغَضَبِ مِن غَلَيَانِ دَمِ القَلْبِ دُخَانٌ مُظْلِمٌ إِلى الدِّمَاغِ يَسْتَوْلِيْ عَلَى مَعَادِنِ الفِكْرِ وَرُبَّمَا يَتَعَدَّى إِلى مَعَادِنِ الحِسِّ فَتُظْلِمُ عَيْنُهُ وَتَسْوَدُّ عَلَيْهِ الدُّنْيا وَيَكُونُ دِمَاغُهُ عَلَى مِثَالِ كَهْفٍ اضْطَرَمَتْ فِيهِ النّارُ فاسْوَدَّ جوُه وحَمِيَ مُسْتَقَرُّهُ وامْتَلأَتْ بالدُّخانِ جَوَانِبُهُ وَكَانَ

فِيهِ سِرَاجٌ فانْمَحَى أو انطفأ فلا تَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ وَلا يُسْمَعُ فِيْهِ كَلامٌ وَلا يُرى فِيهِ صُوْرَةٌ وَلا يُقْدَرُ على إطْفَائِهِ لا مِن دَاخِلٍ وَلا مِنْ خَارِجٍ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُصْبَرَ إلَى أَنْ يَحْتَرِقَ جَمِيْعُ مَا يَقبَلُ الاحْتِرَاقَ فكذَلِكَ يَفْعَل الغضَبُ في القَلْبِ والدِّمَاغِ ، وَرُبَّما تقْوى نَارُ الغضَبِ فتُفْنِي الرُّطُوبَةَ الّتِي فِيها حَيَاةُ القَلْبِ فَيمُوْتُ صَاحِبُهُ غَيْظاً كَمَا تَقْوَى النّارُ في الغَارِ فَيتفَكَّكُ وَتهَدَّمُ أَعَالِيْهِ عَلَى أسْفَلِهِ وذَلِكَ لِأَبْطَالِ النّارِ مَا فِي جوَانِبِهِ مِن القُوَّةِ المُمْسِكَةِ الجَامِعَةِ لأجْزَائِهِ فهكذا حَالُ القَلْبِ عِنْدَ الغَضَبِ نسأَلُ اللّهَ العَافِيَةَ والسَّلامَةَ .

وبِالحَقِيْقَةِ فَالسَّفِيْنَةُ في مُتَلاطِمِ الأَمْوَاجِ عِنْد اضْطِرَابِ الرِّيَاحِ في لُجَّةِ البَحْرِ أَحْسَنُ حَالاً وأَرْجَى سَلاَمَةً مِنَ النَّفْسِ المُضْطَرِبَةِ غَيْظاً إِذْ فِي السَّفِيْنَةِ مَنْ يَحْتَالُ وَيَتسبَّبُ لِتَسْكِيْنِهَا وَتَدْبِيْرِها وَيَنْظُرُ لَهَا وَيَسُوْسُهَا بإِذْنِ اللّهِ وأَمَّا القَلْبُ فَهُوَ صَاحِبُ السَّفِيْنَةِ وَقَدْ سَقَطَتْ حِيْلَتُهُ إذْ أَعْمَاهُ الغَضَبُ وأَصَمَّهُ إنْتَهى .

ومِنْ أَسْبَابِ الغَضَبِ فَوَاتُ اللَّذاتِ والشَّهَواتِ مِن مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ ومَسْكَنٍ ونحوِ ذَلِكَ لكِنْ إنْ كَانَتْ هَذِهِ الأشْياءُ مَمْلُوكَةٌ لَهُ وحِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَها ، فإِن كَانَ بِدُوْنِ مُبَرِّرٍ شَرْعِي فَلَهُ أَنْ يَغْضَبَ حَتَّى يَسْتَرِدَّهُ وَيَكُونُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ لَيْسَ مَذْمُوْماً ثُمَّ إنْ كَانَ الّذي فَاتَهُ ضَرُوْرياً لَهُ كَانَ الغَضَبُ وَاجِباً مِنْ أجْلِهِ وانْ كَانَ كَمَالِياً كانَ الغَضَبُ مِنْ أجْلِهِ جَائِزاً وإِن كَانَ حَرَاماً عَلَيْهِ أَوْ غَيْرَ مَمْلُوكٍ لَهُ كَانَ الغَضَبُ مَذْمُوْماً .

ومِنْ أَسْبَابِ الغَضَبِ الوِشَايَاتُ والنَّمَائِمُ فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَغْضَبُ لِمُجَرَّدِ وِشَايَةٍ نُقِلَتْ إِلَيهِ عنْ بَعْضِ النّاسِ أَوْ لِمُجَرَّدِ نَمِيْمَةٍ بَلَغَتْهُ مِن نَمَّام بِدُوْنِ أنْ يَتَثَبَّتَ في الأَمْرِ فَيَعْتَدِي عَلى الأَبْرِيَاءِ بِإِزَالَتِهِمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، أَوْ نَقْلِهِمْ عَنْهَا إلى مَحَلاَّتٍ لا يَرْغَبُوْنَها ، أَوْ يَتَسَبَّبُ لِقَطْعِ مَا هُوَ مَاشٍ لَهُمْ مِنْ

أرْزَاقٍ أَوْ يُؤْذِيْهِمْ فِي أَبْدَانِهِمْ أَوْ يَقْدَحُ فِي أَعْرَاضِهِمْ أَوْ يُنَشِّزْ الزَّوْجَةَ أَوْ بالعَكْسِ بأَنْ يُنَشِّزِ الزَّوْجَ إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِن الجَرَائِمِ الّتي تَتَرَتَّبُ عَلى الغَضَبِ وَرُبَّمَا كَانَتِ الكَلِمَةُ الّتِي نُقِلَتْ إِلَيْهِ عَلى فَرْضِ صُدُوْرِهَا لا تُسَاوِيْ شَيْئاً مِنْ غَضَبِهِ ، وَذَلِكَ شَرُّ مَا يَتَرَتّبُ عَلَى الغَضَبِ مِنَ الظُّلْمِ فَعَلَى مَنْ كَانَتْ نَفْسُهُ تَتَأَثَّرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ أنْ يُعَالِجَهَا بِالتَّثَبُّتِ حَتَّى إذا تأكَّدَ مِنْ صِدْقِ مَا نُقِلَ إلَيْهِ كَانَ لَهُ الحَقُّ في أنْ يَدْفَعَ عَن نَفْسِهِ بِقَدْرِ مَا أَصَابَهُ بِدُوْنِ بَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ والعَفْوُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالَةِ أَفْضَلُ خُصُوصاً إذا أَنْكَرَ المَنْقُولُ عَنْهُ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ فإِنَّ الإنكارَ اعْتِذَارٌ يَسْتَوجِبُ الرَّأفَةَ والرَّحْمَةَ وبِالتّالي فَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيا بِعَيْنِ البَصِيْرَةِ والاعْتِبَارِ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وسَامَحَ أخَاهُ المُسْلِمَ وقَبِلَ مَيْسُوْرَ عُذْرِهِ وَاحْتَسَبَ الأَجْرَ عِنْدَ اللّهِ والله لا يُضَيِّعْ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً .

شعرا :

سَكَنْتُكَ يَا دَارَ الفَنَاءِ مُصَدِّقا
بِأَنِّي إِلَى دَارِ البَقَاءِ أَصِيْرُ
وأَعْظَمُ مَا فِي الأَمْرِ أَنّي صَائِرٌ
إلى عَادِلٍ فِي الحُكْمِ لَيْسَ يَجُوْرُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا
وَزَادِي قَلِيْلٌ والذُّنُوبُ كَثِيْرُ
فَإِنْ أكُ مَجْزِياً بِذَنْبي فَإِنَّني
بِشَرِّ عِقَابِ المُذْنِبِيْنَ جَدِيْرُ
وَإِنْ يَكُ عَفْوٌ ثَمَّ عَنِّي وَرَحْمَةٌ
فَثَمَّ نَعِيْمٌ دَائِمٌ وَسُرُوْرُ

اللّهُمّ جُدْ عَلينا بكرَمِك ، وأفض علينا مِن نِعَمِك ، وتغمّدنا بِرحمَتِكَ وعامِلْنا بِرأفَتِكَ وَوفّقْنا لخدمَتِك واغْفِر لَنا ولِوالِديْنا ولِجيمع المُسلمِين ، بِرحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرّاحِمين ، وصلّى الله على محمّد وعلى آلــهِ وصحبِهِ أجمَعِين .

(فصــل)

ومِنْ أَسْبَابِ الغَضَبِ المُشَاحَّةُ فِي البَيْعِ والشِّرَاءِ فَيَغْضَبُ الوَاحِد إذا لَمْ تَكُنِ السَّوْمَةُ تُناسِبُ القِيْمَةَ أَوْ سَاوَمَهُ وَلم يَشْتَرِ أَوْ لَمْ يُقرِضْهُ أَوْ لَمْ يُعِنْهُ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ والغَضَبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأحْوَالِ حَمَاقَةٌ لَا مُبَرِّرَ لَهَا لأنّهُ مَا دَامَ لَمْ يَعْتَدِ عَلى حَقِّهِ فَلَيْسَ لَهُ أنْ يَغْضَبَ وَعَلَيْهِ أنْ يَعْتَدِلَ فِي بَيْعِهِ وَشِرائِهِ ، وأنْ يُمَرِّنَ نَفْسَهُ على احْتِمَالِ مَا يَقَعُ عَادَةً عِنْدَ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ مِن النِّزَاعِ وأنْ يُمَرِّنَ نَفْسَهُ دَائِماً على التَّواضُعِ ويُذَكِّرَها بِعَظَمَةِ اللّهِ ويُفَهِّمَهَا بِأنّهُ ضَعِيْفٌ مَخْلُوقٌ مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ ، وأنّهُ صَائِرٌ إلى الفَنَاءِ ، وأنّهُ سَيَكُونُ عِظاماً بَالِيَة يُوطأ بِالأقدامِ كَمَا قِيْلَ :

يُـدَفِـنُ بَعْـضُنَـا بَـعْضـاً وتَـمْشِـي
أوَاخِـرُنَـا عَـلى هَـامِ الأوَالـي

وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فَلا يَلِيْقُ بِهِ التَّكَبُّرُ فَيَحْقِرُ خَلْقَ اللّهِ وَيَطْغَى عَلَيْهِمْ الّذِينَ رُبَّمَا رَفَعَهُمْ اللّهُ عَلَيْهِ قَال بعضُهم .

لا تَـحْقِـرنَّ أبَـيْتَ الـلّعْنِ ذَا أدَبٍ
فَكَمْ وَضِيْـعٍ مِن الأقْوَامِ قَـدْ رَئِسَا

فَـرُبَّ قَـوْمٍ حَقَـرْنَـاهُمْ فَلَم نَــرَهُمْ
أَهْـلاً لِخِـدْمَتِنَـا كَـانُـوا لَنَـا رُؤَسَـا

فإِذَا نَزَعَتْ نَفْسُهُ إلى التَّواضُعِ فَإِنَّهُ لاَ يَتَأَلَّمُ لِتِلْكَ الاعْتِبَارَاتِ الّتي يَتَأَلّمُ مِنْهَا المُتَكَبِّرُوْنَ وبِهذا بإِذنِ اللّهِ يَدْفَعُ عن نَفْسِهِ سُرْعَةَ الغَضَبِ إِلى أنْ تَقِلَّ حِدَّتُهَا وَتَذْهَبَ ثَوْرَتُهَا وَهذا أَهَمُّ مَا تُعَالَجَ بِهِ أَنْفُسُ المُسْتَعِدِّيْنَ بِفِطْرَتِهِمْ لِلْغَضَبِ وأَمَّا مَنْ كَانَتْ سُرْعَةُ غَضَبِهِ لَيْسَتْ طَبِيْعَةً لَهُ وَلَكِنَّهَا اكْتُسِبَتْ بالعَادَةِ والمُخَالَطَةِ فإِنَّهُ يُعَالَجُ بأُمُوْرٍ أوّلاً اجْتِنَابُ مُصَاحَبَةُ الأَشْرَارِ والبُعْدِ عنْهُمْ ، ثَانِياً اجْتِنَابُ الأَسْبَابِ المُثِيْرَةِ لِلْغَضَبِ آنِفاً ثَالِثاً تَعْلِيْمُهُ أَنَّهُ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَغْضَبَ إِلاَّ مِنْ أَجْلِ دِيْنِهِ أَوْ نَفْسِهِ أو عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ وَمَا زَادَ عَلَى هَذَا فَهُوَ رَذِيْلَةٌ مَذْمُومَةٌ يَجِبُ عَلى العَاقِلِ أنْ يَتَنَبَّهَ لَهَا وَلا يَذَرَهَا تَتَسَلَّطُ عَليْهِ فَتَضِيْعَ سُلْطَةُ العَقْلِ ويُصْبِحُ الإِنْسَانُ عُرْضَةً لِلْهَلاَكِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ وحَسْبُكَ في ذَمِّ الغَضَبِ أن النَّبِيّ ﷺ خَطَبَ فِي النّاسِ عصْرَ يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ فكَانَ مِمَّا قَالَهُ لَهُمْ « إن بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلى طَبَقاتٍ شَتّى ألا وَإِن مِنْهُمْ البَطِيءَ الغَضَبِ سَرِيْعَ الفَيْءِ والسَّرِيْعَ الغَضَبِ سَرِيْعَ الفَيْءِ والبَطِيءَ الغَضَبِ بَطِيءَ الفَيْءِ فَتِلْكَ بِتِلْكَ ألا وإِن مِنْهُمْ بَطِيءَ الفَيْءِ سَرِيْعَ الغَضَبِ أَلا وخَيْرُهُمْ بَطِيءَ الغَضَبِ سَرِيْعَ الفَيْءِ وشَرُّهُمْ سَرِيْعَ الغَضَبِ بَطِيءَ الفَيْءِ ألا وإِنَّ مِنْهُم حَسَنُ القَضَاءِ حَسَنُ الطَّلَبِ ومِنْهُمْ سَيِّءُ القَضَاءِ حَسَنُ الطَّلَبِ ومِنْهُمْ سَيِّءُ الطَّلَبِ حَسَنُ القَضاءِ فَتِلْكَ بِتِلْكَ ألا وإِن مِنْهُمْ سَيِّءَ القَضَاءِ سَيِّءَ الطَّلَبِ أَلاَ وخَيْرُهُمْ الحَسَنُ القَضاءِ الحَسَنُ الطَّلَبِ وَشَرُّهُمْ سَيِّءُ الطَّلَبِ ألاَ وإِن الغَضَبَ جَمْرَةٌ في قَلْبِ ابنِ آدَمَ أما رَأَيْتُمْ إِلى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ وَسَيِّئَاتُ الغَضَبِ كَثِيْرَةٌ وَنَتَائِجُهُ الوَخِيْمَة أَكْثَرُ . فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ » رواه التّرمذِيّ .

ومِنْ سَيِّئَاتِهِ أَنَّ الطَّلاقَ غَالِباً يَحْدُثُ عَن غَضَبٍ ، ومِن سَيِّئَاتِهِ أَنَّ الفِرَاقَ بَيْنَ الأقارِبِ والأولادِ يَقَعُ غَالِباً عن غَضَبٍ .

ومِنْ سَيِّئَاتِهِ اتلافُ بَعْضِ المالِ أَوْ كُلِّهِ .

ومن سيئاته أنه رُبَّمَا قَضَى على نَفْسِهِ أَوْ عَلَى أولاَدِهِ بسَبَبِ غَضَبِهِ ومِن سيئات الغَضَبِ أَنَّ الانسانَ إِذا غَضِبَ أَطْلَقَ لِسَانَهُ بالقَذْفِ والغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ والبَهْتِ والاسْتِهْزاءِ والسُخْرِيَّةِ والشَّتْمِ والسَّبِ وسائِرِ أنواعِ المَعاصِي التي تَقْضِيَ على حَسَنَاتِهِ إن كانَ له حَسَناتٌ وإلا فَتُوْقِرُهُ مِن سَيئاتِ عَدُوِّهِ ولو مَلَكَ نَفْسَهُ لَسَلِمَ مِن ذَلِكَ كُلِّهِ .

ومِن سَيئآتِهِ أنهُ يُفْضِيْ إلى المُهَاتَرَاتِ الشَّفَهِيَّةِ وتَبَادُلِ السِّبَاب بَيْنَ المُتَخَاصِمَيْنِ وهذا لا يَجُوزُ وكَمْ مِن مَعَارِكَ تُبْتَذَلُ فِيها الأعْرَاضُ وتَعْدُو الشَتَائِمُ المُحَرَّمَةُ على الحُرُماتِ البَعِيْدَةِ ولَيْسَ لِهذِه الآثامِ الغَلِيْظَةِ مِن عِلَّةٍ إلا تَسَلُّطُ الغَضَبِ ، وضَيَاعُ الأدَبِ ، ولِذَلِكَ كان ضَبْطُ النَّفْسِ عِنْدَ سَوْرَاتِهِ دَلِيْلُ قُدْرَةٍمَحْمُوْدَةٍوَرَزَانَةِ عَقْلٍ وحَسْبُكَ دَلِيْلاً على ذلِكَ مَا وَرَدَ عن ابنِ مَسْعُوْدٍ قال قال رسول الله ﷺ « مَا تَعُدُّوْنَ الصُرَعَةَ فِيكم » ؟ قالوا : الذي لا تَصْرَعُهُ الرِجَالُ . قال « لا . ولكنِ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِندَ الغَضَبِ » رواه مسلم .

وقال رجلٌ للنبي ﷺ : أَوْصِنيْ ولاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِي لا أَنْسَى . قال « لا تَغْضَبْ » وَرَوَى أبو هريرة أن رَجُلاً قال : يا رسول الله مُرْنِي بعَمَلٍ وَأَقْلِلْ . قال « « لا تَغْضَبْ »ثَم أَعَادَ عليه فقال « لا تَغْضَبْ » ثم أعاد عليه فقال « لا تَغْضَبْ » رواه البخاري ، وقال ابنُ عمر : قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْ لِي قولاً وأَقْلِلْهُ ، لَعَلِي أَعْقِلَهُ . فقال « لا تَغْضَبْ » فأَعَدْتُ عليه مَرَّتَيْنِ ، كُلُّ ذلكَ

يَرْجِعُ إليَّ « لا تَغْضَبْ » اخرجه أبو يعلى بسند حَسَنٍ وقال أبُو هريرة قال النبي ﷺ « لَيْسَ الشَّدِيْدُ بالصُرَعَةِ ، وإِنَّمَا الشَّدِيْدُ الذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغضبِ » متفق عليه ، وقال ابنُ عُمَرَ : قال النبي ﷺ « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ » أخرجه ابن أبي الدنيا .

وإليكَ بَعْضُ الآثارِ قال عبدُ الله بنُ مَسْعُودٍ انْظُرُوا إلى الرَّجُل عندَ غَضَبِهِ وأمَانَتِهِ عندَ طَمَعِهِ وما عِلْمُكَ بِحِلْمِهِ إذا لَمْ يَغْضَبْ وما عِلْمُكَ بأمَانَتِهِ إذا لَمْ يَطْمَعْ وكَتَبَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيز إلى عَامِلِهِ أنْ لاَ تُعَاقِبَ عند غَضَبِكَ واذا غَضِبْتَ على رَجُلٍ فاحِبْسْهُ فإذا سَكَنَ غَضَبُكَ فأَخْرِجْهُ فَعَاقِبْهُ على قَدْرِ ذَنْبِهِ وقال عَلِيُّ بنُ زَيْدٍ : أَغْلَظَ رَجُلٌ مِن قُرَيْشٍ لِعُمَرَ بن عَبدِ العزَيزِ القولَ فأطرقَ عُمَرُ زَمَاناً طَوِيْلاً ثُمَّ قالَ اردْتَ أنْ يَسْتَفِزَّنِي الشيطانُ بِعِز السُلْطانِ فأنالَ مِنْكَ اليومَ مَا تَنالُهُ مِنِّي غَداً .

وقال بعضُهم لابْنِهِ يا بُنَيَّ لا يَثْبُتُ العَقْلُ عندَ الغَضَبِ كَمَا لا تَثْبُتُ الرُوْحُ في الحَي في التَنَانِيْرِ المَسْجُوْرَةِ ومِمَّا يُرْوَى عن ذِي القَرْنَيْنِ أنه لَقِيَ مَلَكاً مِن المَلاَئِكَةِ فقال عَلِّمْنِي عَلْماً أَزْدَادُ بِهِ إِيْمَاناً وَيَقِيْناً قال لا تَغْضَبْ فإنَّ الشَّيْطَانَ أَقْدَرَ مَا يَكُونُ عَلَى ابْن آدَمَ حِيْنَ يَغْضَبُ فَرُدَّ الغَضَبَ بالكَظْمِ وسَكّنْهُ بالتُّؤدَةِ وإيَّاكَ والعَجَلَةَ وعن ابنِ عياس قال: لَمَا قَدِمَ عُيَيْنَة بْنِ حِصْنٍ نَزَلَ على ابنِ أخِيْهِ الحُرِّ بنِ قَيْسٍ : وكانَ مِن النَّفَر الذِينَ يُدْنِيْهِمْ عُمَرُ ، إِذْ كانَ القُرَّاءُ أصحَابَ مَجْلِسِ أمِيْر المؤمنينَ عُمَرَ ومشاوَرتِهِ كُهُوْلاً كانُوْا أَوْ شُبَّاناً فقال عُيَيْنَةُ يا ابْنَ أخِي اسْتَأذِنْ لِي عَلَى أَمْير المؤمِنِيْنَ فاسْتَأذَنَ لَهُ فلمَّا دَخلَ قَال : هِيْهْ يا ابْنَ الخَطَّابِ فَوَاللَّهِ ما تُعْطِيْنَا الجَزْلَ ولا تَحْكُمُ بَيْنَنا بالعَدْلِ فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوْقِعَ بِهِ فقال الحُرُّ يا أَمِيْرَ المؤمنين إنَّ اللَّهَ

يَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عن الجَاهِلِين﴾ وإنَّ هَذَا مِن الجَاهِلِين ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِيْنَ تَلاَهَا عَلَيهِ وكان وَقَّافاً عندَ كِتَابِ اللَّهِ وإنَّما غَضِبَ عُمَرُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ وهَمَّ بَرْدعِ الأعْرَابِي لِتَطَاوُلِ الأَعْرَابِي عليهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ نَاصِحاً أَوْ مُشِيْراً بخَيْرٍ وإنَّمَا دَخَلَ عليه في سُلْطانِهِ لِيَشْتِمَه دُوْنَ مُبَرِّرٍ وَلِيَسْأَلَهُ عَطَاءً جَزِيْلاً عَلَى غيرِ عَمَلٍ فَلَمَّا ذُكِّرَ عُمُرُ بأنَّ هَذَا مِن الجَاهِلِين أَعْرَضَ عنه وتَرَكَهُ يَنْصَرِفُ سَالِماً وفي الحديث « مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وهُوَ يَقْدِرُ أن يُنَفِذَّهُ ، دَعَاهُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوْسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ في أيِّ الحُوْرِ العِيْنِ .

شعرا :

تَنَبـهْ قُبَيْـلَ المـوتِ إنْ كُنْتَ تَعْقِـلُ
فَـعَمَّــا قَـلِيْــلٍ لِلْمَـقَــابِــرِ تُنْـقَــلُ
وَتُـمْـسِـي رَهِـيْـنـا لِـلْقُـبُــورِ وَتَـنْـثَـنِـيْ
لَــدَى جَــدَثٍ تَحْتَ الـثَّـرى تَـتَـجَـنْـدَلُ
فَـرِيـداً وحِيْـداً في التُـرابِ وإنَّـمَــا
قَرِينُ الفَتَى في القَبرِ مَا كَانَ يَعملُ
فَـوَا أَسَفاً مـا يَفْعَـلُ الـدُودُ والثَـرَى
بِـوَجْـهٍ جَمِيـلٍ كـانَ لِلَّهِ يَخْجَـلُ
ومـا يَفْعَلُ الجِسْمُ الـوَسِيْمُ إذَا ثَوى
وَصَـارَ ضَجِيْـعَ القَبْــرِ يَعْلُوُهُ جَنْـدَلُ
وبَـطْنِي بَدَا فيـه الرَّدَى ثُم لَـو تَرى
دَقِيْقَ الثَّـرَى في مُقْلَتِي يَتَهَــرْوَلُ

أَعَيْنَايَ جُوْدَا بِالدُّمُوعِ عَلَيْكُمَا
فَحُزْنِيْ عَلَى نَفْسِي أَحَقُّ وأَجْمَلُ
ويا مُدَّعِي حُبِيْ هَلُمَّ بِنَا إذا
بَكَى النَاسُ نَبْكِي لِلْفِرَاقِ ونُهْمِلُ
دَعِي اللَّهْوَ نَفْسِي واذْكُرِيْ حُفرةَ البِلَى
وكَيْفَ بِنَادُوْدُ المَقَابِرِ يَفْعَلُ
إلى اللَّهِ أَشْكُو لاَ إلى الناسِ حَالَتِي
إذا صِرْتُ في قَبْرِيْ وَحِيْداً أُمَلْمَلُ

اللهم يا حَيُّ يا قيومُ يا عليُّ يا عَظِيْم أبرم لهذه الأمةِ أمرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فيه أهلُ طَاعَتِكَ وَيُذل فيه أهلُ معصيتِك ويُؤْمَرُ فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر اللهم بارك في أعمارنا وأصلح أَعْمَالَنَا ونِيَاتِنَا وذُرِّيَاتِنَا واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« موعظة »

عِبَادَ اللَّهِ مِن عِبَادِ اللَّهِ مَنْ تَرَوْنَهُ سَيِىءَ الخُلُقِ ، عَنِيْفاً شَرِساً في كُلِّ حَالٍ إنْ قَالَ فَعُنُفٌ قولُهُ يَنْطِقُ بالكَلِمَةِ فَلِعُنْفِهَا تُحْدِثُ مِن الشَّرِ مَالاً يَحْكِيْهِ المَقَالُ إنَّ مِثْلَ هَذَا لا تَطُوْلُ مَعَهُ عَشْرَةُ نِسَاءٍ ولا صَدَاقَةُ رِجَالٍ ولا يَجِدُ قَلْباً يَعْطِفُ عَلَيْهِ ولَو كَانَ في أَشَدِّ الأَحْوَالِ ولَوْ قِيلَ لَكَ إنَّ البَهَائِمَ تَنْفُرُ مَنْهُ لِعُنْفِهِ وشَرَاسِتِهِ فَصَدِّقْ هَذا المَقَالَ ولِلْناسِ عُذْرٌ وَاضِحٌ في نُفُوْرِهِمْ مِنْ هَذَا العَنِيْفِ السَّيِءِ الأَخْلاَقِ ولاَ لَوْمَ عَلَيْهِمْ إذَا فَارَقُوهُ الفِرَاقَ الذِيْ لَيْسَ بَعْدَهُ مِن تَلاقٍ فَإنَّ

الطِّبَاعَ البَشَرِيَّةَ مُتَّفِقَةٌ على بُغْضِ العُنْفِ وَكيفَ يُحِبُ الناسُ مَن يُؤْذِيْهِمْ بأَقْوالِهِ وأَفْعَالِهِ بِسَبَبٍ وبِغَيْرِ سَبَبٍ فَالعَنِيْفُ شُؤْمٌ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُوْنَ شُؤْماً عَلَى سِوَاهُ وَرُبَّمَا عَمَّ شُؤْمُهُ دُنْيَاهُ وأُخْرَاهُ قال ﷺ « مَنْ يُحْرِمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ » رواه مسلم وأحمد وأبو داود وابن ماجه ، وفي الحديثِ الآخر « إِنَّ اللَّهَ تعالى رَفِيْقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ مَالاَ يُعْطِيْ عَلَى العُنْفِ رواه مسلم أَمَّا الرَّفِيْقُ فَهُوَ العَبْدُ الحَسَنُ الخُلُقِ الوَقُورُ الحَلِيمُ الذي أَيْنما كانَ وَمَتَى كانَ تَصْبُو إليهِ القُلُوبُ لإِنَّهُ إِنْ قالَ فَقَوْلُهُ حُلْوٌ لإِنَّهُ أَدِيْبٌ حَكِيْمٌ وإِنْ فَعَلَ فأفعالُهُ تُرْشِدُ إلى تَعَلُّمِ الأدَبِ وَلَيْسَ بَنُوْ آدَمَ الذِيْنَ يُحِبُونَ الرِّفْقَ ، بَلْ يُشَارِكُهُمْ في ذَلِكَ سائِرُ الحَيَوانَاتِ ، وإن شِئتَ فَانْظُرْ مَبْلَغَ حَنِيْنِ تِلْكَ الحَيَوَانَاتِ إِلَيْهِمْ فَكُنْ رَفِيْقاً أَيُّهَا المؤمِنُ تَجْمَعُ بَيْنَ حُبِّ اللَّهِ وحُبِّ عِبَادِهِ وَلَيْسَ بَعْدَ ذَلك لِذَوِيْ النُّهَى أرَبٌ ، اللَّهُمَّ اخْتُمْ لَنَا بخاتِمَةِ السعادة واجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .

فَصْلٌ في بَيَانِ تَحْرِيْمِ الحَسَدْ

إعلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِينَ وَجَنَّبَنَا وإِيَّاكَ وإِيَّاهُم كُلَّ خُلُقٍ ذَمِيْم أَنَّ مِمَّا يَتأَكَّدُ اجْتِنَابُهُ في كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ الحَسَدُ إذْ هُوَ مِنَ الذُّنُوبِ المُهْلِكاتِ ، ومَعْنَى الحَسَدُ أنْ يَجِدَ الإِنسانُ في صَدْرِهِ وقَلْبِهِ ضِيْقاً وحَرَجاً وكَرَاهِيَةً لِنِعْمَةٍ أنْعَمَ اللّهُ بِهَا عَلَى عَبْدٍ مِن عِبَادِهِ فِي دِيْنِهِ أَوْ دُنْيَاهُ حَتَّى أَنَّهُ لَيُحِبُّ زَوَالَها عَنْهُ ورُبَّما تَمَنَّى ذَلِكَ أَوْ سَعَى في إِزَالَتِهَا وحَسْبُكَ بِذَمِّهِ وقُبْحِهِ أَنَّ اللّهَ تَعَالى أمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِن شَرِّ الحَاسِدِ كَمَا أَمَرَ بالاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ

الشَّيْطَانِ قالَ الله تعالى ﴿ومِن شَرِّ حاسدٍ إذا حَسد﴾ .

والحِرْصُ والحَسَدُ مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيطَانِ إلى القَلْبِ فَمَهْمَا كَانَ العَبْدُ حَرِيْصاً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أعْمَاهُ حِرْصُهُ وأصَمَّه قَال ﷺ « حُبُّكَ للشيْءِ يُعْمِي ويُصِمُّ » ونُوْرُ البَصِيْرةِ هُوَ الّذي يَعْرِفُ مَدَاخِلَ الشّيْطانِ فإذا غَطَّاهُ الحَسَدُ والحِرْصُ لمْ يُبْصِرْ فَحِينَئِذٍ يَجِدُ الشَّيْطانُ فُرْصَةً فَيُحَسِّنُ عِنْدَ الحَرِيْصِ كُلَّ مَا يوصِلُهُ إلى شَهَوَاتِهِ وإنْ كانَ مُنْكَراً وَفَاحِشاً ، فبالحَسَدِ لُعِنَ إبْلِيْس وجُعِلَ شَيْطاناً رَجِيْمَا وأمّا الحِرْصُ فإنّهُ أُبِيْحَ لآدَمَ الجَنَّةَ كُلَّهَا إلاّ الشَّجَرَةَ ، فأصَابَ حَاجَتَهُ إبليسُ مِن آدَمَ بالحِرْصِ فأكَلَ مِن الشَجَرَةِ الّتِي نَهَاهُ اللّهُ عَنْهَا .

ومِنْ أجْلِ أنَّ الحَسَدَ بِهَذِهِ الدَّرَجَةِ وَرَدَ فِيهِ تَشْدِيْدٌ عَظِيْمٌ حَتَّى قال فِيهِ الرّسُولُ ﷺ « الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تأكُلُ النّارُ الحَطَبَ » رَوَاه أبو داود وابن ماجه ، وقال ﷺ : « لا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ غُبَارٌ في سَبِيلِ الله ، وفَيْحُ جَهَنَّمَ ولا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدِ الإِيْمَانُ والحَسَدُ » رواه ابن حبان في صحيحه ورواه البيهقي .

والّذي يَجِبُ أنْ يُفْهَمُ مِنْ هَذَا الحَدِيْثِ أنْ الإيمانَ الصَّادِقَ الكَامِلَ الّذي يَسْتَحْضِرُ صَاحِبُهُ أنَّ كُلَّ أفْعَالِ اللّهِ لِحِكْمَةٍ لا يَجْتَمِعُ مَعَ الحَسَدِ الّذي يُغْضِبُ مِن فِعْلِ اللّهِ وقِسْمَتِهِ ويقُولُ ﷺ في الحَسَد « لا يَزَالُ النّاسُ بِخَيْرٍ ما لَمْ يَتَحَاسَدُوا » رواهُ الطّبراني ، والمَعْنَى واللّهُ أعلَمُ أنَّهُمْ إذا تَحَاسَدُوا ارْتَفَعَ الخَيْرُ مِنْهُم وَكَيْفَ لا يَرْتَفِعَ مِنْهُمْ الخَيْرُ وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَمَنَّى أن يَزُوْلَ الخَيْرُ الّذي عِنْدَ أخِيْهِ ، وَنَهَى ﷺ عن الحَسَدِ فَقال « ولا تَحَاسَدُوا » والحَسَدُ نَتِيْجَةٌ مِنْ نَتَائِجِ الحِقْدِ وثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِهِ المُتَرَتِّبَةِ عليْهِ فإنَّ من يَحْقِدُ عَلَى إنْسانٍ يَتَمَنَّى زَوَالَ نِعْمَتِهِ ويَغْتَابُهُ وَيَنِمُ عَلَيْهِ وَيَعْتَدِي عَلى عِرْضِهِ ، وَيَشْمُتُ فِيْهِ لِما يُصِيْبُهُ

مِنَ البَلاءِ ، وَغيْرُ ذَلِكَ مِن الصِّفَاتِ المَذْمُوْمَةِ الّتِي لا تَلِيْقُ بالإِنْسانِ وكَثِيْراً مَا تَرَى الحَاسِدَ يُنَقِّبُ عن مَسَاوِي المَحْسُوْدِ فَيُبْرِزُهَا على صِفَةِ الذَّمِّ والتَّثْرِيْبِ فَيَنْتَبِهُ المَحْسُوْدُ لَهَا وَيَتَجَنَّبُهَا فيَكُونُ السَّبَبُ في إِزَالَتِهَا عَدُوُّه الحَاسِدِ كَمَا قِيلَ :

عُـدَاتِـي لَهُـمْ فَضْـلٌ عَـلَيَّ ومِـنَّـةً
فـلا أذهَـبَ الـرّحمَـنُ عَـنِّي الأَعَـادِيَا
هُمُـوْا بَحَـثُـوْا عـن زَلَّـتِي فـاجْـتَنَبْتُهَـا
وَهُـمْ نَافَسُـونِـي فاكْتَسَـبْتُ المَعَـالِيَـا

ويقُول الآخـر :

وَإِذَا أَرَادَ الـلَّـهُ نَشْـرَ فَضِـيْـلَةٍ
طُـوِيَـتْ أَتَـاحَ لَهَـا لِسَـانَ حُسُـودِ
لـولا اشْتِعَالُ النّارِ في جَـزْلِ الغَضَـا
مـا كَـانَ يُعـرَفُ طِيبُ رِيحِ العُـودِ

آخـر :

مُحَسَّـدُوْنَ وشَـرُّ النـاسِ مـنـزلـة
مَن عَاشَ فِي النـاسِ يَوماً غَير مَحْسُودِ

آخـر :

إنّي حُسِـدْتُ فَـزَادَ الـلَّهُ في حَسَـدِي
لا عَـاشَ مَن عَاشَ يَوْماً غَيْرَ مَحْسُـودِ
مـا يُحْسَـدُ المَرءُ إِلَّا مِـنْ فَضَـائِـلِـهِ
بالعِلْمِ والـظَّرْفِ أَوْ بالْبَأْسِ والجُـودِ

وَكَفَى بالحِقْدِ ذَمّاً أَنْ يَكُونَ الحَسَدُ ثَمَرَةً مِن ثَمَرَاتِهِ وَأَثَراً مِنْ آثارِهِ .

وفِي الغَالِبِ أَنَّ الحَسَدَ يَكُونُ بَيْنَ النُّظَراءِ والزُّمَلاءِ وأَرْبَابِ الصِّنَاعَاتِ والمَرَاتِبِ والمَنَاصِبِ الحُكُومِيَّةِ فالتَّاجِرُ يَحْسُدُ التّاجِرَ والصَّانِعُ يَحْسُدُ الصّانِعَ والنَّجَارُ يَحْسُدُ النَّجّارَ والفَّلاحُ يَحْسُدُ الفَّلاحَ وأربابُ الجَاهِ يَحْسِدُوْنَ أَرْبَابَ الجَاهِ وذَوُوْ المَنَاصِبِ الحُكُومِيَّةِ يَحْسُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضَا ومِن الأمْثَالِ المُتَداوَلَةِ قَوْلُهُمْ عَدُوُّ المَرْءِ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَهُ ولِلْحَسَدِ أعاذَنَا اللّهُ وجَمِيعَ المُسلمينَ مِنْهُ مَرَاتِبُ .

أَحَدُهَا أنْ يَتمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ الغَيْرِ ، ويَعْمَلَ وَيَسْعَى فِي الوَسَائِلِ المُحَرَّمَةِ الظَّالِمَةِ وَيَسْعَى في إسَاءَتِهِ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيْعُ وَهَذا الغَايَةُ فِي الخُبْثِ والخَسَاسَةِ والنَّذَالَةِ وَهَذِهِ الحَالَةُ هِيَ الغَالِبَةُ في الحُسَّادِ خُصُوصاً المُتَزاحِمِيْنَ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ فإِن مَن يَرْبحُ مِنْهُمْ رِبْحاً كَبِيْراً أَوْ يَظْفرُ بِلَذَّةٍ يَرْقبُها غَيْرُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ الغَيْرَ يَحْسُدُهُ على مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَسْعَى فِي حِرْمَانِهِ فِي ذَلِكَ الرِّبْحِ لِيَظْفُرَ هُوَ بِهِ وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فِي طُلَابِ المَنَاصِبِ والجَاهِ .

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ : أنْ يَتَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ ، ويُحِبُّ ذَلِكَ ، وإِنْ كَانَتْ لا تَنْتَقِلُ إِلَيْهِ ، وهَذَا أَيْضاً فِي غَايَةِ الخُبْثِ ، وَلَكِنَّهَا دُوْنَ الأُوْلَى .

الثَالِثَةُ أَنْ يَجِدَ مِنْ نَفْسِهِ الرَّغْبَةَ في زَوَالِ النِّعْمَةِ عَن المَحْسُوْدِ سَوَاءً انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ أَوْ إِلى غَيْرِهِ وَلَكِنَّهُ فِي جِهَادٍ مَعَ نَفْسِهِ وَكَفِّهَا عن مَا يُؤْذِيْ خَوْفاً مِنَ اللّهِ تَعَالى وكَرَاهِيَةً فِي ظُلْمِ عِبَادِ اللّهِ وَمَنْ يَفْعَلُ هَذَا يَكُونُ قَدْ كَفِي شَرَّ غَائِلَةِ الحَسَدِ ، وَدَفَعَ عَنْ نَفْسِهِ العُقُوْبَةَ الأُخْرَوِيَّةَ وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَالِجَ نَفْسَهُ مِنْ هَذَا الوَبَاءِ حَتَّى يَبْرَأ مِنْهُ .

الحَالَةُ الرَّابِعَةُ : أَنْ يَتمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ عَن الغَيْرِ ، بُغْضاً لِذَلِكَ

الشَّخْصِ ، لِسَبَبٍ شَرْعِيٍّ ، كَأَنْ يَكُونَ ظَالِماً يَسْتَعِيْنُ عَلى مَظَالِمِهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيَتَمَنَّى زَوَالَهَا لِيُرِيْحَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ وَمِثْلُ أَنْ يَكُونَ فَاسِقاً يَسْتَعِيْنُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ عَلى فِسْقِهِ وَفُجُوْرِهِ ، فَيَتَمَنَّى زَوَالَ المَغَلِّ هَذَا عَنْهُ لِيُرِيْحَ العِبَادَ والبِلَادَ مِنْ شَرِّهِ القَاصِرِ والمُتعَدّيْ ، فَهَذَا لَا يُسَمَّى حَسَداً مَذْمُوْماً وإِن كَانَ تَعْرِيْفُ الحَسَدِ يَشْمَلُهُ ، وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ يَكُونُ مَمْدُوحَاً لَا سِيَّمَا إِذا كَانَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عَمَلٌ يَدْفَعُ هَذَا الظُّلْمَ والعُدْوَانَ وَيَرْدَعُ هَذَا الظَّالِمَ .

الحَالَةُ الخَامِسَةُ : أَنْ يُحِبَّ وَيَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ مِثْلَهَا فإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِثْلُهَا فَلا يُحِبُّ زَوَالَها عَن صَاحِبِهَا فَهذا لَا بَأْسَ بِهِ إِنْ كَانَ مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالمَالِ المُبَاحِ والجَاهِ المُبَاحِ وإِن كَانَ مِن النِّعَمِ الدِّيْنِيَّةِ كالعِلْمِ الشَّرْعِيّ والعِبَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ كَانَ مَحْمُوْداً كأَنْ يَغْبِطَ مِن عِنْدَهُ مَالٌ حَلالٌ ثُمّ سُلِّطَ عَلى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ مِن واجب وَمُسْتَحَبٍّ فَإِن هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ عَلَى الإِيْمَانِ ومِن أعظَمِ أنواعِ الإِحْسانِ وَكَذا مَنْ آتَاهُ اللّهُ الحِكمَةَ والعِلْمَ فَوُفِّقَ لِنَشْرِهِ ، كَمَا فِي الحَدِيْثِ « لا حَسَدَ إِلاّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللّهُ مَالاً ، فَسَلَّطَهُ عَلى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللّهُ الحِكْمَةَ ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعلِّمُهَا » . فَهَذانِ النَّوْعَانِ مِن الإحسانِ لا يُعَادِلُهُما شَيْءٌ إِلاّ أنْ تَرتَبَ عَلَيْه وَسَاوِسُ شَيْطَانِيّةُ ، وَخَواطِرُ نَفْسَانِيّةُ تَجُرُّ الإِنْسَان إلى مَوَاضِعِ الخَطَرِ الّتي تُفْسِدُ عَمَلَهُ كأَنْ يَقُولَ في نَفْسِهِ أَنَا أَحَقُّ مِنه بِهذا فَهَذَا اعْتِرَاضٌ على حِكْمَةِ اللّهِ وقِسْمَتِهِ ولا يَجُوزُ ذَلِكَ :

شعرا :

عَلَيْكَ أُخَيَّ بِالتُّقَى ولُزومِه
ولا تَكْثِرَنْ ما فِيهِ زَيدٌ ولا عَمْرُوْ

فَزَهْـرَةُ ذِي الدُّنْيـا سَـرِيْعٌ ذُبُـولُهَا　　وفـي نَهْـي طَـهَ لِلنَّبيّ لَنَـا ذِكْـرُ
وكُنْ مُنْشِداً مَا قَالَ بَعْضُ أُولي النّهى　　فَكَـمْ حِكْمَةٍ غَـرَّاءَ قَيَّدَهَا الشِّعْرُ
« إِذا المَرْءُ جَازَ الأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ　　لـهُ دُوْنَ ما يَأتِـي حَيَـاءٌ ولا سِتْرٌ »
« فَدَعْهُ وَلا تَنْفُسْ عليْهِ الّذِي أتَى　　وإن مَدَّ أَسْبَابَ الحَيَاةِ لَهُ العُمْرُ »

آخـر :

أَأَقْصُدُ بالمَلَامَةِ قَصْدَ غَيْري　　وَأَمْرِيْ كُلُّهُ بَادِي الخِلَافِ
إذا عَاشَ امْرُؤٌ خمسِينَ عَاماً　　وَلَم يُرَ فِيهِ آثارُ العَفَافِ
فَلَا يُرْجَى لَهُ أبَدَاً رَشَادٌ　　فَقَدْ أَرْدَى بنِّيتِهِ التَّجَافِـي
ولِمْ لا أَبْذُلُ الإنْصافَ مِنِي　　وأَبْلُغُ طَاقَتِي في الإنتِصَافِ
لِيَ الوَيْلاتُ إنْ نَفَعتْ عِظَاتِي　　سِوايَ ولَيْسَ لِيْ إلَّا القَوَافِي

(فَصْـلٌ)

ثُمّ اعْلَمْ أَنَّ لِلْحَسَدِ أَسْبَاباً .

الأَوّلُ : العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ وَهَذَا أَشَدُّ أسْبَابِ الحَسَدِ .

الثّاني : التَّعزُّزُ والتَّرَفُّعُ وَهُوَ أنْ يَثْقُلَ عَلَيْهِ أنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فَإِذا أَصَابَ أحَدُ زُمَلائِهِ وَلاَيَةً أَوْ مَالاً خَافَ أنْ يَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ وَهُوَ لاَ يُطِيْقُ تَكَبُّرَهُ وَافْتِخَارَهُ عَلَيْهِ .

السّبَبُ الثّالثُ الكِبْرَ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ فِي طَبْعِهِ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَليْهِ وَيَسْتَحْقِرَه وَيَسْتَصْغِرُهُ وَيَسْتَخْدِمَهُ فإذَا نَالَ ولاَيَةً خَافَ أنْ لا يَحْتَمِل تَكَبُّرَهُ ومِن التَّكَبّر والتَّعَزُّزِ كَانَ حَسَدُ أكْثَرِ الكُفَّارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إذْ قَالُوا : كَيْفَ يَتَقَدَّمُ عَلَيْنَا

غُلامٌ يَتِيْمٌ فَنُطَاطِىءُ رُؤُوْسَنا لَهُ . فقالُوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِن القَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ﴾ .

السَّبَبُ الرّابِعُ التَّعَجُّبُ كَمَا أَخْبَرَ اللّهُ عن الأُمَمِ المَاضِيَة إذْ ﴿قالُوا ما أنتُم إلا بَشَرٌ مِثْلنا﴾ فَتَعَجَّبُوا مِن أنْ يَفُوزَ بِرُتْبَةِ الرُّسُلِ والوَحْيِ والقُرْبِ مِنَ اللّهِ بَشَرٌ مِثْلُهُم فَحَسَدُوْهُم وأحَبُّوْا زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْهُم .

الخَامِسُ الخَوْفُ مِن فَوتِ مَقْصَدٍ مِنَ المَقَاصِدِ وَذَلِكَ يَخْتَصُّ بِمُتَزَاحِمِيْنَ عَلَى مَقْصُوْدٍ واحِدٍ وذَلِكَ مِثْلُ الضَّرّاتِ عِنْدَ زَوْجِهِنَّ وَالتَّلامِيْذِ عِنْدَ الأُسْتاذِ والإِخْوَةِ في التَّزَاحم عَلى نيْلِ المَنْزِلَةِ في قَلْبِ الأَبَوَيْنِ لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مَقَاصِدِ الكَرَامَةِ والمَالِ وخُدّامِ المَلِكِ في نَيْلِ المَنْزِلَةِ مِنْ قَلْبِهِ .

السّادِسُ حُبُّ الرِّيَاسَةِ وَطَلَبُ الجَاهِ لِنَفْسِهِ مِن غَيْرِ تَوَصُّلٍ بِهِ إِلى مَقْصُوْدٍ وَذَلِكَ كَالرَّجُلِ الّذِي يُرِيْدُ أنْ يَكُونَ عَدِيْمَ النَّظِيْرِ فِي فَنٍّ مِنَ الفُنُونِ إذا غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ الثَّنَاءِ والمَدْحِ واسْتَفَزَّهُ الفَرَحُ بِما يُمْدَحُ بِهِ ، فإنّهُ لَوْ سَمِعَ بِنَظِيْرٍ لَهُ فِي أقْصَى أقْطَارِ الأرْضِ لَسَاءَه ذَلِكَ ، وَأحَبَّ مَوْتَهُ أوْ زَوَالَ تِلْكَ النِّعْمَةِ الَّتِيْ عِنْدَ الّذي يُشَارِكُهُ بِهَا فِي المَنْزِلَةِ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ عِلْمٍ أوْ صِنَاعَةٍ أوْ جَمَالٍ أوْ ثَرْوَةٍ أوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

السّابِعُ : خُبْثُ النَّفْسِ وحُبُّهَا لِلشَّرِّ وشُحُّهَا بِالخَيْرِ لِعِبَادِ اللّهِ ، فَتَجِدُ المُتَّصِفَ بِذَلِكَ إذا ذُكِرَ لَهُ اضْطِرَابٌ وَنَكَبَاتٌ تُصِيْبُ النّاسَ وإِدْبَارُهُمْ وَفَوْتُ مَقَاصِدِهِمْ وَتَنْغِيْصَ عَيْشِهِمْ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ وَفَرِحَ بِهِ وَصَارَ يَبُثُّهُ وَرُبَّمَا أَتَى بإشَاعَتِهِ فِي صُوْرَةِ التَّرحُّمِ والتَّوَجُّعِ فَهُوَ أبداً يُحِبُّ الإِدْبَارَ لِغَيْرِهِ وَيَبْخَلُ بِنِعْمَةِ اللّهِ عَلى عِبَادِهِ كأنّهُ يُؤْخَذُ مَا أعطاهُمْ اللّهُ مِن مَالِهِ وَخِزَانَتِهِ ، عَلَى أنّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ

وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ وَهَذا لَيسَ لَهُ سَبَبٌ إلاّ التَّعَمُّقُ فِي الخُبْثِ والرَّذَالَةِ والنَّذَالَةِ والخَسَاسَةِ فِي الطَّبْعِ اللّئِيمِ ولِذَلِكَ يَعْسُرُ مُعَالَجَةُ هَذَا السَّبَبِ لأَنَّهُ جَهولٌ ظَلُوْمٌ وَلَيس يَشْفِي عِلَّةَ صَدْرِهِ وَيُزِيْلُ حَزَازَةَ الحَسَدِ الكَامِنِ فِي قَلْبِهِ إلاّ زَوَالُ النِّعْمَةِ فَحِيْنَئِذٍ يَتعَذَّرُ الدَّوَاءُ أوْ يَعِزُّ وَمِنْ هَذَا قول بعضهم .

وَكُـلٌّ أداوِيْـهِ عـلى قَـدْرِ دَائِـهِ
سِوَى حَاسِدِي فَهْيِ الّتِي لاَ أَنَالُهَـا
وَكَيْفَ يُـدَاوِيْ المَرؤُ حَـاسِدَ نِعْمَـةٍ
إذا كَانَ لا يُـرْضِـيْـهِ إلاَّ زَوَالُـهَـا

قَالَ بَعْضُهُمْ رَأَيْتُ أَكْثَرَ النّاسِ إلا مَنْ عَصَمَ اللّهُ وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ يَتَعَجَّلُونَ الشَّقَاءَ والهَمَّ والتَّعَبَ لأَنْفُسِهِمْ في الدُّنْيَا ويَحْتَقِبُونَ عَظِيْمَ الإثْمِ المُوْجِبِ لِلنَّارِ فِي الآخِرَةِ بِمَا لاَ يُحظَوْنَ مَعَهُ بِنَفْعٍ أصْلاً مِن نِيَّاتٍ خَبِيْثَةٍ يَحْرِصُوْنَ عَلَيْهَا مِن تَمَنِّي الغَلاءَ المُهْلِكَ لِلنَّاسِ ولِلصِّغَارِ وَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ وَتَمَنَّى أَشَدَّ البَلاءِ لِمَنْ يَكْرَهُوْنَهُ وَقدْ عَلِمُوا يَقِيْناً أَنَّ تِلْكَ النِّيَاتِ الفَاسِدَةِ لا تُعَجِّلُ شَيْئاً مِمَّا يَتَمَنُّونَهُ أَوْ تُوْجِبُ كَوْنَهُ وَأَنَّهُمْ لَوْ صَفَّوْا نِيَاتِهِمْ وَحَسَّنُوْهَا لَتَعَجَّلُوْا الرَّاحَةَ لأَنْفُسِهِمْ وَتَفَرَّغُوْا بِذَلِكَ لِمَصَالِحِ أُمُوْرِهِمْ ، ولاَ اقْتَنَوْا عَظِيْمَ الأجْرِ في المَعَادِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤخِّرَ ذلِكَ شَيْئاً مِمَّا يُرِيْدُوْنَهُ أوْ يَمْنَعَ كَوْنَهُ ، فأَيُّ غَبْنٍ أعْظَمُ مِن هَذِهِ الحالِ الّتِي نَبَّهْنا عَلَيْهَا ا هـ .

وأَمَّا الأسبَابُ الأُخْرَى فَيُتَصَوَّرُ إزالَتُها فِي المُعَالَجَةِ .

وَقَدْ تَجْتَمِعُ أَسْبَابُ الحَسَدِ المذْكُورةُ كُلُّهَا في شَخْصٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرُهَا .

وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ لِلْحَسَدِ دَوَاءً فَأَوَّلاً أَنْ تَعْرِفَ أَنَّهُ ضَرَرٌ عَلَيْكَ فِي الدّين والدُّنيا ولاَ ضَرَرَ بِهِ عَلَى المَحْسُوْدِ لا فِي الدُّنْيَا ولا فِي الدِّين بَلْ يَنْتَفِعُ بِهِ فِيْهِمَا جَمِيْعاً أمَّا ضَرَرُهُ فِي الدِّيْنِ فلأَنَّهُ سُخْطٌ لِقَضَاءِ اللّهِ وَقَدَرِهِ ، وكَرَاهَةٌ لِنِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ المُؤْمِنِ وانْضَمَّ إِلَيْهِ غِشُّ المُسْلِمِ وتَرْكُ نُصْحِهِ وَتَرْكُ العَمَلِ بِقَوْلِهِ ﷺ « لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيْهِ ما يُحِبُّ لِنَفسِهِ » وانْضَمَّ أيْضاً إِلى ذَلِكَ أَنَّهُ شَارَكَ إِبْلِيْسَ وهَذِهِ خَبَائِثُ تأكُلُ الحَسَنَات وأمَّا ضَرَرُهُ في الدُّنيا فإنَّهُ الأَلَمُ النَّقْدُ الحَاضِرُ والعَذابُ الدَّائِمُ .

وأمَّا كَوْنُهُ لا ضَرَرَ عَلَى المَحْسُودِ فَوَاضِحٌ لأَنَّ النِّعْمَةَ لا تَزُوْلُ بِالحَسَدِ وأمَّا مَنْفَعَتُهُ في الدُّنْيا لِلْمَحْسُودِ فَهُوَ أنَّ أهَمَّ مَقَاصِدِ أكْثَرِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا إِيْصَالُ الضَّرَرِ والهَمِّ إلى أعْدَائِهِمْ وهُوَ مُتَوَفِّرٌ في الحَسَدِ وَقَدْ فَعَلَ الحَاسِدُ بِنَفْسِهِ مُرَادَهُمْ فأنْتَ بالحَقِيْقَةِ عَدُوٌّ لِنَفْسِكَ وصَدِيْقٌ لِعَدُوِّكَ وَمَعَ هَذا كُلِّهِ فَقَدْ أدْخَلْتَ السُّرُوْرَ عَلَى إِبْلِيْسُ وهُوَ أَعْدَى عَدُوٍّ لَكَ وَلِغَيْرِكَ وَلَو عَقَلْتَ تَمَاماً لَعَكَسْتَ وَكَلّفْتَ نَفْسَكَ نَقِيْضَ الحَسَدِ إذْ أنّ كُلَّ مَرَضٍ يُعَالَجُ بِضِدِّهِ فَمَثَلاً يُكَلِّفُ لِسَانَهُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ كَذِبٍ ويُلْزِمُ نَفْسَهُ بِرَّهُ إِنْ قَدِرَ فَهَذِهِ الأفْعَالُ تَعْمَلُ مُقَارَبَةً تُطَيِّبُ قَلْبَ المَحْسُوْدِ ويُحِبُّ الحَاسِدَ ويَصِيْرُ مَا يَتَكَلَّفُهُ أَوّلاً طَبْعاً آخِراً وَلاَ يَعْمَلُ بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ إِنَّ هَذَا عَجْزٌ وَنِفَاقٌ وَخَوْفٌ لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خِدَعِهِ وَمَكَائِدِهِ فَهَذَا الدَّوَاءُ إِلاَّ أَنَّهُ مُرٌّ قَلَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالى ﴿ادفَع بالّتي هي أحْسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم﴾ الآية وبالتالي فإنَّ خَيْرَ مَا لِلْمَرْءِ أنْ يَكُونَ مُسْتَرِيْحاً فِي دُنْيَاهُ لَعَلَّ اللّهَ أنْ يَجْعَلَهُ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ فِي أُخْرَاهُ .

وفِي الدُّنْيَا في أمْنٍ وفِي رَغَدٍ هَذَا شَيْءٌ مُتَحَقِّقٌ وقَدِيْمَا قِيْلَ :

يا طالِبَ العَيْشِ في أمنٍ وفي دَعَةٍ
رَغْـداً بـلا قَتَـرٍ صَفْـواً بِـلاَ كَـدَرَ
خَلِّصْ فُؤادَكَ مِنْ غِـلٍّ ومِن حَسَـدٍ
فالغِلُّ في القَلْبِ مِثْلُ الغِلِّ في العُنُقِ

آخر :

(لَمَّـا عَفَوْتُ وَلَمْ أحْقِـدْ عَلَى أحَدٍ
أرَحْتُ نَفْسِيَ مِـنْ هَمِّ الـعَـدَوَاتِ)
(إنّي أُحَيِّيْ عَـدُوِّيْ عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ
لأدْفَـعَ الشَّـرَّ عَنِّيْ بـالتَّحِيَّـاتِ)

وقال آخر :

إلْقَ العَـدوَّ بـوَجْـهِ لا قُـطُوبَ بِـهِ
يكَـادُ يقْـطُرُ مِن مَـاءِ البَشَـاشَـاتِ
فـأَحْـزمُ النَّـاسِ مَن يَلْقى أعَـادِيَـهُ
في جِسْمِ حِقْـدٍ وثَوْبٍ مِن مَـوَدَاتِ

آخر :

أجـامِـلُ أقْـوَامـاً حَيَـاءً وَقَـدْ أرى
صُـدُوْرَهُـمُ بـادٍ علـي مِـرَاضُـهَـا

والطّرِيْقُ الوحِيدُ أنْ تَعْلَمَ تَماماً أنَّ الخَيْر كُلَّهُ في أنْ لاَ يَكُونَ في نَفْسِكَ لأحَدٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ غِشٌ وَلا تَحْسِدْ أحَداً عَلَى خَيْرٍ أعطاهُ اللّهُ إيّاهُ ثُمّ أيُّ ضَرَرٍ

يَحْصُلُ لَكَ لَوْ كَانَ غَيْرُكَ فَوْقَكَ في المال أو فِي المنصِبِ، إِنَّهُ مِسْكِيْنٌ ، مَا نَقَصَ مِنْ دُنْيَاكَ ولا مِن آخِرَتِكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

وإِذَا رأَيْتَ قَلْبَكَ صَافِياً مُحِبّاً لإِخْوَانِكَ مِن المُسْلِمِيْنَ الخَيْرَ كَارِهاً لَهُم ما تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ ، فَهَذِهِ بَشَارَةٌ لِلْمُسْتَقِيْم ، ولْيَسْمَعْ إِلى ما وَرَدَ عَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ قَالَ كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رسُولِ اللّهِ ﷺ فقالَ « يَطْلَعُ الآنَ عَلَيْكُم رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَطَلَعَ رَجلٌ مِن الأنصارِ تَنْطُفُ لِحْيَتُهُ مِن وُضُوئِهِ ، قَدْ عَلَّقَ نعْلَيْهِ بِيدِهِ الشِّمَال .

فلَمَّا كَانَ الغَدُ قَالَ النّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أيْضاً فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ على مِثْلِ حَالِهِ الأَوَّلِ فَلَمَّا قَامَ النّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللّهِ بنُ عَمْرٍو أيْ تَبِعَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فَقَالَ إِنِّيْ لاَحَيْتُ أَبِيْ ، فَأَقْسَمْتُ أَنِّي لاَ أَدْخُلُ عَلَيْهِ ثَلاثاً ، فَإِنْ رَأَيْتَ أن تُؤْوِيْنِي إِليكَ حَتَّى تمْضِيْ فَعَلْتَ قَالَ نَعَمْ قَال أَنَسٌ فَكَانَ عَبْدُ اللّهِ يُحَدِّثُ أَنّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ الثّلاثِ اللّيالِي فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِن اللّيْلِ شَيْئاً غَيْرَ أَنّهُ إذا تَعَارَّ مِنَ اللّيْلِ ذَكَرَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ ، حتّى قَامَ لِصَلاَةِ الفَجْرِ .

قَالَ عبْدُ الله غَيْرَ أَنِّيْ لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إلاّ خَيْراً فَلَمَّا مَضَتْ الثّلاثُ اللّيالِي وكِدْتُ أَنْ أحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ يا عَبْدَ اللّهِ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلاَ هُجْرٌ ولكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلاثَ مَرّاتٍ يَطْلُعُ عَلَيْكُم الآنَ رَجُلٌ مِن أَهْلِ الجَنّةِ فَطَلَعْتَ أَنْتَ الآنَ فأَرَدْتُ أَنْ آوِيْ إِلَيْكَ فأَنْظُرَ عَمَلكَ فأَقْتَدِيْ بِكَ فَلَمْ أرَكَ عَمِلْتَ كَبِيْرَ عَمَلٍ فَمَا الّذي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قال مَا هُوَ إلاّ ما رَأيْتَ فَلَمَّا وَلّيْتُ دَعَانِيْ فَقَال مَا هُوَ إلاّ مَا رَأيْتَ غَيْرَ أَنِّي لا أجِدُ في نَفْسِي لِأَحَدٍ مِن المُسْلِمِيْن غِشّاً ولا حَسَداً عَلى خَيْرٍ أعْطاهُ اللّهُ إيَّاهُ فقَالَ عبدُ الله هَذِهِ الّتِي بَلَغَتْ بِكَ رواهُ أحمد بإسناد صحِيح .

والله أَعْلَمُ وصلى اللهُ على محمد وآله وسَلم .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ إن دَاءَ الحَسَدِ مِن أعظَمِ الأَدْوَاءِ ، والإبْتِلاءُ بِهِ مِن أَشَدِّ البَلْوَى ، يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى مَرْكَبٍ صَعْبٍ ، ويُبْعِدُهُ عنْ التَّقْوَى ، ويُرْكِبُهُ الأَهْوَاءَ فيَظَلُّ وَيَغْوَى ، يَضِيْقُ صَدْرُ الحَسُوْدِ ويَنْفَطِرُ قَلْبُهُ إذا رَأَى نِعْمَةَ اللّهِ عَلَى أخِيْهِ المُسْلِمِ فيُعَانِي مِن البُؤْسِ واللأوى ، مَا لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يَبُثَّ مَعَهُ مَا يَجِدُهُ مِن الحُزْنِ والقَلقِ ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى الشَّكْوَى ، إلاّ إلَى الشَّيْطَانِ ونَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوْءِ أوْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ في الحَسَدِ ، فَقَاتَلَ اللّهُ الحَسُوْدَ لا يَفْعَلُ الخَيْرَ ولاَ يُحِبُّهُ لإخْوانِهِ المُسْلِمِين ، غَايَةُ أُمْنِيَّتِهِ زَوَالُ نِعْمَةِ اللّهِ عن عِبَادِهِ إنَّهُ بعَمَلِهِ سَالِكُ طَرِيْقَ إبْلِيْسَ لَعَنَهُ اللّهُ ، فَمَا أوْقَعَ الشّيْطانُ في مَعْصِيَةِ اللّهِ إلاّ حَسَدُهُ لِأَبِيْنَا آدَمَ وامْتِنَاعُهُ مِنَ السُّجُودِ بَعْدَ مَا أمَرَهُ اللّهُ ، وَمَا حَمَلَ قَابِيْلَ عَلَى قَتْلِ هَابِيْلَ إلاّ حَسَدُهُ لأخِيْهِ حَيْثُ تَقَبَّلَ اللّهُ مِنْهُ قُرْبَانَهُ الّذي أرَادَ بِهِ وَجْهَ اللّهِ والدّارَ الآخِرَةَ وَمَا مَنَعَ المُشْرِكِيْنَ والمُتْرَفِيْنَ مِن اتِّبَاعِ الرُّسُلِ إلاّ الحَسَدُ والكِبْرُ ، وَمَا حَمَلَ أهْلَ الكِتابِ عَلَى كَرَاهَةِ الدِّيْنِ الإسلامِيّ وَصَرْفِ المُسْلِمِيْنَ عنْ كِتَابِ اللّهِ والإيْمَانِ بِسَيّدِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِهِمْ إلاَّ مَا ذَكَرَهُ اللّهُ عَنْهُمْ ﴿وَدَّ كَثِيْرٌ مِن أهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيْمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الحَقُّ﴾الآية، وقال ﷺ « الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النّارُ الحَطَبَ » الحَاسِدُ لا يُضْمِرُ إلاّ غَدْراً ولا يَعْمَلُ إلاّ شَرّاً ولا يُدَبِّرُ إلاّ مَكْراً وجُمْلَةُ القَوْلِ أنَّ الحَاسِدَ مُيَسَّرٌ لِلْعُسْرَى لا تُجْدِيْ مَعَهُ المَوَاعِظُ والنَّصَائِحُ وَقَدْ قِيْلَ إنَّ بضَاعَةَ إبْلِيْسَ خَمْسَةُ أَصْنَافٍ يَبِيْعُهَا مِنْ قَوْمٍ مَعْرُوْفِيْن ، وَهِيَ الحَسَدُ وأهْلُهُ العُلَمَاءُ ، وأَهْلُ الحِرْفَةِ الوَاحِدَةِ ، أيْ كُلُّ مَنْ يَتَّفِقُ عَمَلَهُمْ مُسْلِمِيْن أَوْ غَيْرَ مُسْلِمِيْن ، والكِبْرُ وأهْلُهُ الأنْذَالُ والسَّفَلَةُ والسُّفَهَاءُ والحَمْقَاءُ ومَنْ لا خَيْرَ

فِيهِ مِن المُحْتَرِفِيْنَ .

والجَوْرُ والطُّغْيَانُ ، وأهْلُهُ المُلُوكُ والأُمَراءُ والوزَرَاءُ والعُظَمَاءُ ، وأعْوَانُهُمْ مِنَ الفَسَقَةِ والمُجْرِمِيْنَ ، والكَيْدُ ، وأهلُهُ النِّسَاءُ ، والنَّمامِيْنَ والدَّلاَلِيْنَ ، والمُتَسَبِبِيْنَ وبِئْسَتِ البِضَاعَةُ بِضَاعَةُ الشّيْطانِ ، ويا حَسْرَةَ المُشْتَرِيْنَ ، وَيَا نَدَامَتَهُم ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلىً عنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُوْنَ﴾ ﴿ولا يَحِيْقُ المَكْرُ السّيءُ إلاَّ بأهْلِهِ﴾ قِيْلَ إنّهُ كَانَ رَجُلٌ يَغْشَى أحَدَ المُلُوْكِ فَيَقُوْمُ بِحِذاءِ المَلِكِ فَيَقُولُ أَحْسِنْ إلى المُحْسِنِ بإِحْسَانِهِ ، فَإن المُسِيءَ سَيَكفِيْكَهُ إِسَاءَتُهُ ، فَحَسَدَهُ رَجُلٌ عَلَى ذَلِكَ المَقَامِ ، والكَلامِ فَسَعَى بِهِ إلى المَلِكِ ، فَقَالَ إنَّ هَذا الّذي يَقُومُ بِحِذَائِكَ وَيَقُوْلُ وَيَقُوْلُ ما يَقُوْلُ يَزعُمُ أنَّكَ أبْخَرُ ، فقَالَ لَهُ المَلِكُ وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ عِنْدِي ، قَالَ تَدْعُوْهُ إلَيْكَ فإنَّهُ إذا دَنا مِنْكَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أنْفِهِ لِئلا يَشُمُّ رَائِحَةَ البَخرِ ، فَقَالَ لَهُ انْصَرِفْ حَتَّى انْظُرَ وأَتَحقَّقَ ذَلِكَ ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ المَلِكِ ، فَدَعَا الحَاسِدُ ذَلِكَ الرَّجُلَ إلَى مَنْزِلِهِ فَأَطْعَمَهُ طَعَاماً فِيهِ ثُوْمٌ فَخَرَجَ الرَّجُلُ مِن عِنْدِهِ وَذَهَبَ إلَى المَلِكِ عَلَى عَادَتِهِ وَقَامَ بِحِذاءِ المَلِكِ فَقَال أحْسِنْ إلى المُحْسِنِ بإحْسَانِهِ فإنَّ المُسِيْءَ سَيَكْفِيْكَهُ إسَاءَتُهُ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ إدْنُ مِنّيْ ، فَدَنَا مِنْهُ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيْهِ ، مَخَافَةَ أنْ يَشُمَّ المَلِكُ مِنْهُ رَائِحَةَ الثُّوْمَ فَقالَ المَلِكُ فِي نَفْسِهِ مَا أرَى فُلاَناً إلّا صَدَقَ ، قَالَ وَكَانَ المَلِكُ لا يَكْتُبُ بخَطِّهِ إلاَّ بجَائِزَةٍ أوْ صِلةٍ ، فَكَتَبَ لَهُ كِتَاباً بِخَطِّهِ إلى عامِلِهِ : قَالَ فِيْهِ إذَا أَتَاكَ حَامِلُ كِتَابِيْ هَذا فاذْبَحْهُ ، واسْلَخْهُ ، وأحْشُ جِلْدَهُ تِبْناً وابْعَثْ بِهِ إليَّ ، وأخَذَ الكِتَابَ وخَرَجَ فَلَقِيَهُ الرَّجُلُ الّذِي سَعَى بِهِ إلَى المَلِكِ وَكَذَبَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ مَا هَذَا الكِتَابُ قالَ خَطُّ المَلِكِ لِيْ بِهِ صِلَةٌ فَقَالَ هَبْهُ لِيْ فَقَالَ هُوَ لَكَ فَأَخَذَهُ ، السَّاعِيْ ومَضَى بِهِ إلى عَامِلِ المَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ العَامِلُ : فِي كِتَابَكَ

أَنِّيْ أَذْبَحُكَ ، وأَسْلَخُكَ فَقَالَ إِنَّ الكِتَابَ لَيْسَ لِيْ ، فَاللّهَ اللّهَ ، فِي أَمْرِي حَتَّى تُرَاجِعَ المَلِكَ فقَالَ لَيْسَ لِكِتَابِ المَلِكِ مُرَاجَعَةٌ فَذَبَحَهُ وَسَلَخَهُ وَحشى جِلْدَهُ تِبْناً ، وأَرْسَلَهُ لِلْمَلِكِ ، ثُمّ عَادَ الرَّجُلُ إِلَى المَلِكِ كَعَادَتِهِ وَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ ، فَتَعَجَّبَ المَلِكُ ، وَقَالَ لَهُ مَا فَعَلَ الكِتَابُ ، فَقَالَ لَقِيَنِيْ رَجُلٌ هُوَ فُلانٌ فاسْتَوْهَبَهُ مِنِّيْ فَوَهَبْتُهُ لَهُ ، قَالَ لَهُ المَلِكُ إِنَّهُ ذَكَرَ لِيْ أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنِّي أَبْخَرُ قَالَ مَا قُلْتُ ذَلِكَ ، قَالَ فَلِمَ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى فِيْكَ قَال لأَنَّهُ أَطْعَمَنِيْ طَعاماً فِيْهِ ثُوْمٌ فَكَرِهْتُ أَنْ تَشُمَّهُ ، قَال صَدَقْتَ ، ارْجِعْ إِلَى مَكَانِكَ ، فَقَدْ كَفَى المُسِيءَ إِسَاءَتُهُ فانْظُرْ يَا أَخِيْ كَيْفَ دَارَتْ عَلى البَاغِي الدَّوَائِرُ واسْأَلْ رَبَّكَ أن يُعَافِيْكَ مِن هَذِهِ الأمراضِ الفَتَّاكَةِ الّتي رُبَّمَا قَضَتْ عَلى حَيَاتِهِ وَأَوْصَلَتْهُ فِي الآخِرَةِ نَارَ جَهَنَّمَ .

وخِتَاماً فَعَلى اللَّبِيْبِ أَنْ يَتَجَنَّبَ الحَسَدَ فإِنّهُ مِن خُلُقِ الأَدْنِيَاء وصِفَةِ الجُهَلاءِ فإِنْ أَبْصَرْتَ بقائِمٍ بالحَقِّ فاعْضُدْهُ وَيَسِّرْ لَهُ السَّبِيلَ حَسَبَ اسْتِطَاعَتِكَ وإِنْ رَأَيْتَ نِعْمَةً أَسْبَغَهَا اللّهُ عَلَى عَبدٍ مِن عِبادِهِ فاسْعَ إِلَى مِثْلِهَا بِقَلْبٍ طَاهِرٍ وَوِجْدَانٍ نَقِيٍ لعلّكَ أَنْ تَبْلُغَهَا بإِذْنِ اللّهِ .

فَعَزِيْزُ النَّفْسِ إِنْ أَبْصَرَ غَيْرَهُ فِي أَمْرٍ يُثْنَى عَلَيْهِ بِهِ ، أَوْرَآهُ فِي مَنْزِلَةٍ يُغْبَطُ عَلَيْهَا فَلا يَجُوْلُ فِي وَهْمِهِ أَنْ يَحْسِدَهُ عَلَى نِعْمَتِهِ أَوْ يَحُطَّ مِن مَنْزِلَتِهِ بَلْ يَسْعَى كُلَّ السَّعْيَ لِيَنَالَ مِثْلَ مَنَالِهِ وَيَرْقَى مِثْلَ رُقِيِّهِ فإِنْ زَادَتْ فِيهِ عِزَّةُ النَّفْسِ والإِباءِ فَلاَ يَرْضَى لِنَفْسِهِ إِلاّ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ المَقَامِ :

شعرا :

أَسَأْتُ فَمَا عُذْرِيْ إِذَا انْكَشَفَ الغِطَا
وأَظْهَرَ رَبُّ العَرْشِ مَا أَنَا أَسْتُرُ

نَــدِمْتَ عَلَى أنْ لَا تَكُــوْنَ كَمِثْلِهِ
وَأنَّــكَ لَمْ تُرْصِدْ كَمَا كَــانَ أُرْصَدَا

فَغُشِيَ عَلَى عُمَرَ رَحِمَهُ اللّهُ فَلَمَّا أفَاقَ قَالَ زِدْنَا فَقَالَ القَصِيْدَة الّتِيْ تَلِي

بِسْمِ الّذِي أنْزِلَتْ مِنْ عِنْـدِهِ السُّوَرُ
الْحَمْــدُ لِلّهِ أَمَّــا بَعْــدُ يَــا عُمَــرُ
إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَــا تُبْقِي وَمَــا تَــذَرُ
فَكُنْ عَلَى حَــذَرٍ قَــدْ يَنْفَــعُ الحَــذَرُ
واصْبِرْ عَلَى القَدَرِ المَقْدُوْرِ وارْضَ بِه
وإنْ أتــاكَ بِمَــا لَا تَشْتَهِي القَــدَرُ
فَمَــا صَفَى لامْـرِئٍ عَيْشٌ يُسَــرُّ بِــهِ
إلَّا وأعْـقِبَ يَــوْمــاً صَفْــوُهُ كَــدَرُ
قد يَرعَوِي المَرْءُ يَـوْماً بَعْــدَ هَفْوَتِــهِ
وتُحْكِمُ الجَــاهِــلَ الأَيَّــامُ والعِبَــرُ
إنَّ الــتُّقَــى خَيْــرُ زَادٍ أنْــتَ حَــامِلُهُ
والبِّــرُّ أَفْضَــلُ مَــا تَــأْتِي وَمَــا تَـذَرُ
مَن يَطْلُبِ الجَوْرَ لَا يَـظْفُرْ بحَــاجَتِهِ
وطَالِبُ العَدْلِ قَدْ يُهْدَى لَـهُ الظَّفَـرُ
وفي الهُدَى عِبَرٌ تُشْفَى القُلُوبُ بِهــا
كــالغَيْثِ يَحْيَى بِهِ مِنْ مَـوْتِهِ الشَّجَـرُ
وَلَيْسَ ذُوْ العِلْمِ بــالتَّقْوَى كَجَــاهِلِهَا
ولا البَصِيــرُ كــأَعْمَى مَــالَـهُ بَصَــرُ

والـذِّكْـرُ فِيْــهِ حَيَـاةٌ لِلْقُلُوبِ كَمَــا
تَحْيَـا البِلادُ إِذَا مَـا جَـاءَهَـا المَـطَرُ
والعِلْمُ يَجْلُو العَمَى عن قَلْبِ صَاحِبه
كمَـا يُجَلِّي سَـوادَ الـظُّلمَـةِ القَمَــرُ
لا يَنْفَـعُ الـذِّكْـرُ قَلْبـاً قَـاسِيـاً أَبـدَا
وهَـلْ يَلِيْنُ لِقَـوْلِ الــواعِظِ الحَجَـرُ
ما يَلْبَثُ المَرْءُ أَنْ يَبْلَى إِذَا اخْتَلَفت
يَـوْماً على نَفْسِـهِ الرَّوْحَـاتُ والبِكَـرُ
والمَـرْءُ يَصْعَـدُ رَيْعَـانُ الشَّبَـابِ بِـه
وكُــلُّ مُصْعِــدَةٍ يَــوْمــاً سَتَنْـحَــدِرُ
وكُــلُّ بَيْتٍ سَيَبْـلَى بَعْــدَ جِــدَّتِــهِ
ومِن وَرَاءِ الشَّبَـابِ المَـوْتُ والكِبَـرُ
والمَوْتُ جَسْرٌ لِمَنْ يَمْشِيْ على قَدَم
إِلَى الأُمُــورِ الّتِي تُخْشَى وتُـنْتَــظَرُ
فَهُمْ يَمُــرُّونَ أَفْــوَاجــاً وتَجْـمَعُـهُمْ
دَارٌ يَصِيْــرُ إِلَيْهَــا البَــدْو والحَــظَرُ
كَمْ جَمْعُ قَوْمٍ أَشَتَّ الدّهرُ شَمْلَهُمْ
وَكُـلُّ شَمْـلٍ جَمِيْـعٍ سَوْفَ يَنْتَثِـرُ
وَرُبَّ أَصْيَـدَ سَـامَ الـطَّرْفِ مُقْتَضِباً
بــالتّـاج نِيْــرانُـه لِلْحَــرْبِ تُسْتَعــرُ
يَــظَلُّ مُفْتَـرِشَ الــدِّيْبَـاجِ مُحْتَجِبـاً
عَلَيْــهِ تُبْنِى قِبَـابُ المُلْكِ والحُجَــرُ

إِلَى الفَنَــاءِ وإِنْ طَــالَتْ سَــلاَمَتُهُمْ
مَصِيْــرُ كُــلِّ بَنِي أنثَى وإِنْ كَبُــرُوا
إِذا قَـضَتْ زُمَــرٌ آجــالَـهــا نَــزَلَتْ
علَى مَنَــازِلِهِمْ مِـنْ بَعــدِهَــا زُمَــرُ
أَصْبَحْتُمْ جُــزُراً لِلْمَــوْتِ يَــأْخُــذُكُمْ
كَمَـا البَهَائِمُ فِي الــدُّنْيا لَكُمْ جُــزُرُ
أَبَعْــدَ آدَمَ تَــرْجُــونَ الخُلُودَ وهَــلْ
تَبْقَى الفُـروعُ إِذا مَا الأَصْــلُ يَنْعَقِـرُ
وَلَيْسَ يَـزْجُـرُكُمْ مَــا تُــوعَــظُونَ بِـه
والبَهْمُ يَـزْجُـرُهَـا الـرَّاعِي فَتَنْــزَجِـرُ
لا تَبـطُرُوْا واهْجُروا الـدُّنْيا فـإِنَّ لَها
غِبــاً وخِيْمـاً وكُفْــرُ النِّعْمَـةِ البَــطَرُ
ثُمّ اقْتَدُوا بالأُوْلَى كَـانُوا لَكُمْ غُــرَراً
ولَـيْسَ مِـن أُمَّــةٍ إِلاَّ لَــهَــا غُــرَرُ
مَتَى تَكُــونُـوا على مِنْهَــاجِ أَوَّلِكُمْ
وتَصْبِرُوا عَن هَوَى الدُّنْيَا كَمَا صَبَرُوا
مَــالِيْ أَرَى النَّــاسَ والــدُّنْيَـا مُــوَلِّيَـةٌ
وَكُــلُّ حَبْــلٍ عَلَيْهَــا سَــوْفَ يَنْبَتِــرُ
لا يَشْعُــرُونَ إِذَا مَـا دِيْنَهُم نُقِصُــوا
يَــوْمـاً وإِنْ نُقِصَتْ دُنْيَــاهُم شَعِـرُوا
حَتّى مَتَى أَكُ في الدُّنْيا أَخَـا كَلَفٍ
في الخَــدِّ مِنّي إلى لَـذّاتِهــا صَعـرُ

ولا أرى أثَـراً لِلذِّكْـرِ في جَسَــدِي
والحَبْلُ في الحَجَرِ القَـاسِي لَهُ أَثَـرُ
لَـوْ كَـانَ يُسْهِـر لَيْلِي ذِكْـرُ آخِــرتِي
كَمَـا يُؤرِّقني لِلْعـاجِـلْ السَّـفَـرُ
إذاً لَـدَاوَيْتُ قَلْبـاً قَـدْ أضَـرَّ بِـهِ
طُـولُ السِّقامِ وكَسْـرُ العَظْمِ يَنْجَبِـرُ
ثُمَّ الصَّـلاةُ على المَعْصُومِ سَيِّـدِنَـا
ما هَبَّت الرِّيْحُ واهْتَزَّتْ بِهَـا الشَّجَرُ

اللهم ثبت إيماننا ثبوت الجبال الراسيات واشرح صدورنا للإسلام وثبتنا عليه واجعلنا من حزبك المفلحين وعبادك الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصــل »

قال ابن القيم رحمه الله :

أركانُ الكُفْرِ أربعةٌ : الكِبْرُ والحَسَدُ والغضَبُ والشّهوةُ فالكِبْرُ يَمْنَعُهُ الانْقِيَادَ . والحَسَدُ يَمْنَعُهُ قَبُوْلَ النَّصِيْحَةِ وَبَذْلَهَا والغَضَبُ يَمْنَعُهُ العَدْلَ . والشَّهْوَةُ تَمْنَعُهُ التَّفَرُّغَ لِلْعِبَادَةِ فإنِ انْهَدَمَ رُكْنُ الكِبْرِ سَهُلَ عَلَيْهِ الانْقِيَادُ وإذَا انْهَدَمَ رُكْنُ الحَسَدِ سَهُلَ عَلَيْهِ قَبُوْلُ النُّصحِ وَبَذْلُهُ وإذا انْهَدَمَ رُكْنُ الغَضَبِ سَهُلَ عَلَيْهِ العَدْلُ والتَّوَاضُعُ وإذا انْهَدَمَ رُكْنُ الشَّهْوَةِ سَهُلَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ والعَفَافُ والعِبَادَةُ .

وَزَوَالُ الجِبَالِ عنْ أمَاكِنِهَا أيْسَرُ مِن زَوَالِ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ عَمَّنْ بُلِيَ بِهَا ولا

سِيَّمَا إذا صَارَتْ هَيْئاتٌ رَاسِخَةٌ ومَلَكَاتٌ وَصِفَاتٌ ثَابِتَةٌ فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَقِيْمُ لَهُ مَعَهَا عَمَلٌ البتّة . ولا تزْكُوْ نَفْسُهُ مَعَ قِيَامِهَا بِهَا ، وكُلَّمَا اجْتَهَدَ في العَمَلِ أَفْسَدَتْهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الأَرْبَعَةُ وكُلُّ الآفاتِ مُتَوَلِّدَةٌ مِنْها وإذا اسْتَحْكَمَتْ في القَلْبِ أَرَتْهُ البَاطِلَ فِي صُوْرَةِ الحَقِّ والحَقُّ في صُوْرَةِ البَاطِلِ والمَعْرُوْفَ فِي صُوْرَةِ المُنْكَرِ والمُنْكَرَ في صُوْرَةِ المَعْرُوْفِ وَقَرَّبَتْ مِنْهُ الدُّنْيَا وبَعَّدَتْ مِنْهُ الآخِرَةُ .

وإذا تَأَمَّلْتَ كُفْرَ الأُمَمِ رَأَيْتَهُ نَاشِئاً مِنْهَا وَعَلَيْهَا يَقَعُ العَذَابُ وتَكُونُ خِفَّتُهُ وَشِدَّتُهُ بِحَسَبِ خِفَّتِهَا وَشِدَّتِهَا فَمَنْ فَتَحَها عَلى نَفْسِهِ فَتَحَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الشُّرُوْرِ كُلِّهَا عَاجِلاً وآجِلاً ، ومَنْ أَغْلَقَهَا عَنْ نَفْسِهِ أَغْلَقَ عَنْهُ أبْوابَ الشُّرُوْرِ ، فَإِنَّهَا تَمْنَعُ الانْقِيَادَ والإِخْلاَصَ والتّوبَةَ والإنابَةَ وقَبُولَ الحَقِّ ونَصِيحةَ المُسلمين والتّواضُعِ لِلّهِ ولِخَلْقِهِ .

(ومَنْشَأُ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ) : مِنْ جَهْلِهِ بِرَبِّهِ وَجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ فإِنَّهُ لَوْ عَرَفَ رَبَّهُ بِصِفاتِ الكَمَالِ ونُعُوتِ الجَلالِ . وَعَرَفَ نَفْسَهُ بالنَّقَائِصِ والآفاتِ ، لَمْ يَتَكَبَّرْ ولم يَغْضَبْ لَهَا ، ولَمْ يَحْسُدْ أَحَداً عَلَى مَا آتَاهُ اللّهُ ، فَإِنَّ الحَسَدَ فِي الحَقِيْقَةِ نَوْعٌ مِن مُعَادَاةِ اللّهِ ، فإِنَّهُ يَكْرَهُ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَى عَبْدِهِ ، وَقَدْ أَحَبَّهَا اللّهُ ويُحِبُّ زَوَالَهَا عَنْهُ ، واللّهُ يَكْرَهُ ذَلِكَ ، فَهُوَ مُضَادٌ لِلّهِ فِي قَضَائِهِ وقَدَرِهِ ومَحَبَّتِهِ وَكَرَاهَتِهِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ إِبْلِيسُ عَدُوَهُ حَقِيْقَةً ، لأنَّ ذَنْبَهُ كَانَ عَن كِبْرٍ وَحَسَدٍ . فَقَلْعُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بمَعْرِفَةِ اللّهِ وَتوْحِيْدِهِ ، والرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ ، والإِنَابَةِ إِلَيْهِ - وَقَلْعُ الغَضَبِ بمَعْرِفَةِ النَّفْسِ ، وأنّها لا تَسْتَحِقُّ أنْ يُغْضَبَ لَهَا ، وَيَنْتَقِمَ لَهَا فإِنَّ ذَلِكَ إِيْثَارٌ لَهَا بالرِّضَا والغَضَبِ عَلَى خَالِقِهَا وَفَاطِرِهَا وأَعْظَمُ مَا تُدْفَعُ بِهِ هَذِهِ الآفَةُ أنْ يُعَوِّدَهَا أنْ تَغْضَبَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَرْضَى لَهُ فَكُلَّما دَخَلَها شَيْءٌ مِنَ الغَضَبِ والرِّضَا لَهُ خَرَجَ مِنْهَا مُقَابِلُهُ مِنَ الغَضَبِ والرِّضَا لَهَا وكَذَا بالعَكْسِ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللّهُ : أَسَاسُ كُلِّ خَيْرٍ أنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا شَاءَ اللّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَيَقَّنْ حِيْنَئِذٍ أَنَّ الحَسَناتِ مِن نِعَمِهِ فَتَشْكُرُهُ عَلَيْها ، وَتَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ أنْ لا يَقْطَعَهَا عَنْكَ ، وأَنَّ السَّيِّئاتِ مِن خُذْلانِهِ وعُقوبتِهِ ، فَتَبْتَهِلُ إِلَيْهِ أنْ يَحُولَ بَيْنكَ وَبَيْنَهَا ، وَلا يَكِلَكَ فِي فِعْلِ الحَسَنَاتِ وتَرْكِ السَّيِّئاتِ إلى نَفْسِكَ وَقَدْ أَجْمَعَ العَارِفُونَ على أنَّ كُلَّ خَيْرٍ أَصْلُهُ بِتَوْفِيْقِ اللّهِ لِلْعَبْدِ وَكُلُّ شَرٍّ أَصْلُهُ خُذْلاَنُهُ لِعَبْدِهِ وأجْمَعُوا عَلَى أَنَّ التَّوْفِيْقَ أنْ لاَ يَكِلَكَ اللّهُ إلى نَفْسِكَ وأنْ الخُذْلانَ هُوَ أنْ يُخَلِّيْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ فَإذا كَانَ كُلُّ خَيْرٍ فأَصْلُهُ التَّوْفِيْقُ وهُوَ بِيَدِ اللّهِ لاَ بِيَدِ العَبْدِ فَمِفْتَاحُهُ الدُّعَاءُ والرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ إليْهِ فَمَتى أعْطِيَ العَبْدُ هَذا المِفْتَاحَ فَقَدْ أرَادَ أنْ يَفْتَحَ لَهُ وَمَتى أَضَلَّهُ عَنْ المِفْتَاحِ بَقِيَ بَابُ الخَيْرِ مُرْتجاً دُوْنَهُ ، وَقَالَ أَمِيْرُ المُؤْمِنينَ عُمَرَ بنُ الخَطّابِ إنّي لاَ أَحْمِلُ هَمَّ الإجَابَةِ ولَكِنْ هَمَّ الدُّعَاء فإذا أُلْهِمْتَ الدُّعَاءَ فإنْ الإجَابَة مَعَهُ وَعَلى قَدْرِ نِيَّةِ العَبْدِ وهِمَّتِهِ ومُرَادِهِ ورَغْبَتِهِ فِي ذَلِكَ يَكُوْن تَوْفِيْقهُ سُبْحَانَهُ وإعَانَتُهُ فالمَعُوْنَةُ مِن اللّهِ تَنْزِلُ عَلَى العِبَادِ عَلَى قَدْرِ هِمَمِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ وَرَهْبَتِهِمْ والخُذْلاَنِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فَاللّهُ سُبْحَانَهُ أَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ ، وَأَعْلَمُ العَالِمِيْنَ يَضَعُ التَّوْفِيْقَ فِيْ مَوَاضِعِهِ اللاَّئِقَةِ بِهِ والخُذْلاَن في مَوَاضِعِهِ اللاَّئِقَة بِهِ ، وَهُوَ العَلِيْمُ الحَكِيْمُ وَمَا أُتِيَ مَنْ أتِيَ إلاَّ مِنْ قِبَلِ إضَاعَةِ الشُّكْرِ وإهْمَالِ الافْتِقَارِ والدُّعَاءِ ولا ظَفِرَ بِمَشِيْةِ اللّهِ وَعَوْنِه إلاَّ بِقِيَامِهِ بالشُّكْرِ وَصِدْقِ الافتقارِ والدُّعَاءِ وملاكُ ذَلِكَ الصَّبْرُ فَإنَّهُ مِن الإيمانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ فَإذا قُطِعَ الرَّأْسُ فَلاَ بَقَاءَ لِلْجَسَدِ .

عَلَيْـكِ بِتَقْوى اللّهِ يَـا نَفْسُ سَرْمَـدَا
ولا تُلْحِقِي بِـالخَلْقِ ضُـرّاً تَعَمُّـدَا

وَلا تَحْسِدِي حَيّاً وَلَوْ جَارَ واعْتَدَى
عَلَيكِ فَمَا يَحْيَى البُغَاةُ مُخَلَّدَا
تَدُوْرُ علَى البَاغِي الدَّوَائِرُ عَنْوةً
ويحيى سَعِيْدَ ذُو الفَضِيْلةِ أَمْجَدَا
وكُلُّ حَسُودٍ يَنْخَرُ الحِقْدُ قَلْبَهُ
يَذُوْبُ كَشَمْعٍ فِي سَعِيْرٍ تَوَقَّدَا
يَعِيْشُ ونَارُ الغَيْضِ تُحْرِقُ كَبْدَهُ
وإن مَاتَ أضْحَى الجَمْرُ فيهِ مُجَدَّدَا
فجَازِ أخَا فَضْلٍ وَرَاعِ ذِمَامَهُ
وسَامِح عَدُوّاً إن قَلاَكَ وَنَدَّدَا
فَإنّي رَأَيْتُ الفَضْلَ خَيْرَ ذَخِيْرَةٍ
لِمَنْ رَامَ قَبْلَ المَوْتِ أَنْ يَتَزَوَّدَا

مَوْعِظَةٌ

أَخْوَانِيْ إِنَّ الغَفْلَةَ عَنْ اللَّهِ مُصِيْبَةٌ عَظِيْمَةٌ قَالَ تَعَالى : ﴿ وَلاَ تَكُوْنُوا كَالذِيْنَ نَسَوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ فَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ الله وَأَلْهَتْهُ الدُّنْيَا عَنْ العَمَلِ لِلدَّارِ الآخِرَةِ أَنْسَاهُ العَمَلَ لِمَصَالحِ نَفْسِهِ فَلاَ يَسْعَى لَهَا بِمَا فِيْهِ نَفْعُهَا وَلاَ يَأْخُذُ فِي أَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَإصْلاَحِهَا وَمَا يُكَمِّلُهَا وَيَنْسَى كَذَلِكَ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَآلاَمَهُ فَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِ مُعَالَجَتُهَا وَلاَ السَّعْيُ في إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا التِي تَؤُلُ إلى الهَلاَكِ وَالدَّمَارِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ العُقُوْبَاتِ فَايُّ عُقُوْبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوْبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلاَحِهَا وَحَيَاتِهَا الأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيْمِ المُقِيْمِ وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا المَوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ كَثِيراً مِنْ الخَلْقِ قَدْ نَسُوْا أَنْفُسَهُم وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا

حَظَّهَا وَبَاعُوْهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ بَيْعَ المَغْبُوْنَ وَيَظْهَرُ ذَلِكَ عِنْدَ المَوْتِ وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ كُلُّهُ يَوْمَ التَّغَابُنِ « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُوْنَ » الآيةُ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ إِيْمَانَنَا بِكَ ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ونَوِّرْ قُلُوْبَنَا بِنُوْرِ الإِيْمَانِ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وأَصْلِحْ أَوْلاَدَنَا واغْفِرْ لآبَائِنا وأُمَّهَاتِنَا واجْمَعْنَا وإِيَّاهُمْ مَعَ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ في جَنَّاتِ النَّعِيْم وَصلّى اللَّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(قال في منهاج القَاصِدِيْن)

[فصل] إعْلَم أَنَّ القَلْبَ بأَصْلِ فِطْرَتِهِ قَابِلٌ لِلْهُدَى ، وبِمَا وُضِعَ فِيْهِ مِنَ الشَّهْوَةِ والهَوَى ، مَائِلٌ عنْ ذَلِكَ ،والتَّطارُدُ فِيْهِ بَيْنَ جُنْدِ المَلائِكَةِ والشَّياطِيْنِ دائِمٌ ، إلى أَنْ يَنْفَتِحَ القَلْبُ لأَحدِهِمَا فَيَتَمَكَّنُ ، ويَسْتَوْطِنُ ، ويَكُونُ اخْتِيَارُ الثَّانِي اختِلاَساً ، كَمَا قَال تَعالى ﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ وهُوَ الَّذِي إذا ذُكِرَ اللّهُ خنسَ وإذا وقَعَتِ الغَفْلَة انْبَسَطَ ، ولا يَطْرُدُ جُنْدَ الشَّيَاطِيْنِ مِنَ القَلْبِ إلا ذِكْرُ اللّهِ تَعالى ، فإِنَّهُ لاَ قَرَارَ لَهُ مَعَ الذِّكْرِ . واعْلَمْ أَنَّ مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ حِصْنٍ ، والشّيطانُ عَدُوٌّ يُرِيْدُ أن يَدْخُلَ الحِصْنَ ويَمْلِكَهُ ويَسْتَوْلِي عَلَيْهِ ، ولا يُمْكِنُ حِفْظُ الحِصْنِ إلاَّ بِحِرَاسَةِ أبْوابِهِ ، ولا يَقْدِرُ عَلَى حِرَاسَةِ أبْوابِهِ مَن لاَ يَعْرِفُهَا وَلاَ يُتَوَصَّلُ إلى دَفْعِ ، الشَّيْطانِ إلاَّ بِمَعْرِفَةِ مَدَاخِلِهِ ، وَمَدَاخِلُ الشّيطان وأبوابُهُ . . صِفاتُ العَبْدِ ، وهِيَ كَثِيْرَةٌ إلاَّ أَنَّا نُشِيْرُ إلى الأَبْوَابِ العَظِيْمَةِ الجَارِيَةِ مَجْرَى الدُّرُوْبِ الَّتِي لا تَضِيْقُ عن كَثْرَةِ جُنُوْدِ الشَّيْطانِ .

فَمِنْ أبْوابِهِ العَظِيْمَةِ : الحَسَدُ ، والحِرْصُ . فَمَتَى كَان العَبْدُ حَرِيصاً عَلَى شَيْءٍ ، أَعْمَاهُ حِرْصُهُ ، وأَصَمَّهُ ، وغَطَّى نُورَ بَصِيْرَتِهِ الّتي يَعْرِفُ بِهَا مَدَاخِلَ الشَّيْطانِ . وكَذَلِكَ إذا كَانَ حَسُوْداً فَيَجِدُ الشّيطانُ حِيْنَئِذٍ الفُرْصَةَ ،

فَيُحسِّنُ عِنْدَ الحَرِيْصِ كُلَّ ما يُوْصِلُهُ إلى شَهْوَتِهِ ، وإنْ كَانَ مُنْكراً أوْ فاحِشاً ، ومِنْ أبْوابِهِ العَظِيْمَةِ .

الغَضَبُ ، والشَّهْوَةُ ، والحِدَّةُ فإنَّ الغَضَبَ غُوْلُ العَقْلِ ، وإذا ضَعُفَ جُنْدُ العَقْلِ هَجَمَ حِيْنَئِذٍ الشَّيطانُ فَلَعِبَ بالإنْسانِ . وقَد رُوِيَ أنَّ إبْلِيْسَ يقُولُ : إذا كانَ العَبْدُ حَدِيْداً ، قَلَبْنَاهُ كَمَا يَقْلِبُ الصِّبيان الكرة .

ومِنْ أبْوابِهِ : حُبُّ التَّزَيُّنِ في المَنْزِلِ ، والأَثَاثِ فَلا يَزَالُ يَدْعُو إلى عِمَارَةِ الدّارِ ، وتَزْيينِ سُقُوفِها وحِيْطَانِها ، والتَّزَيُّن بالثِّيَابِ ، والأثاثِ ، فيَخْسَرُ الإنْسانُ طُولَ عُمُرِهِ في ذلِكَ . ومِنْ أبْوابِهِ : الشِّبَع فإنَّهُ يُقَوِّي الشَّهْوَةَ ، وَيُشْغِلُ عن الطَّاعةِ . ومِنْها الطَّمَعُ في النَّاسِ ، فإنَّ مَنْ طَمِعَ في شَخْصٍ ، بالَغَ بالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بما لَيْسَ فِيهِ ، ودَاهَنَهُ وَلَمْ يأمُرْهُ بالمَعْرُوْفِ ، ولَمْ يَنْهَهُ عنْ المُنْكَرِ . ومِنْ أبْوابِهِ : العَجَلَةُ ، وتَرْكُ التَّثَبُّتِ وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ ، والتَّأنِّي مِن اللّهِ تعالى » . ومِنْ أبْوابِهِ : حُبُّ المَالِ ، ومَتَى تَمكَّنَ مِن القَلْبِ أفْسَدَهُ وحَمَلَهُ على طَلَبِ المَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ ، وأخْرَجَهُ إلى البُخْلِ وَخَوَّفَهُ الفقْرَ فَمَنَعَ الحُقُوقَ اللاّزِمَةَ . ومِنْ أبْوابِهِ : حَمْلُ العَوَامِّ عَلَى التَّعَصُّبِ في المَذَاهِبِ ، دُوْنَ العَمَلِ بمُقْتَضَاهَا ومِنْ أبْوَابِهِ أيْضاً حَمْلُ العَوَّامِ عَلَى التَّفَكُّرِ في ذاتِ اللّه تعالَى ، وصِفَاتِهِ ، وفي أُمورٍ لا تَبْلُغُهَا عُقُولُهُمْ حتَّى يُشَكِّكُهمْ في أصْلِ الدِّيْنِ . ومِن أبْوابِهِ : سُوْءُ الظَّنِّ بالمُسْلِمِيْنَ فإن مَنْ حَكَمَ على مُسْلِمٍ بِسُوْءِ ظَنِّهِ ، احْتَقَرَهُ وأطْلَقَ فِيهِ لِسَانَهُ ، ورَأى نَفْسَهُ خَيراً مِنْهُ . وإنَّما يَتَرَشَّحُ سُوءُ الظَّنِّ بِخُبْثِ الظَّانِ ، لأنَّ المُؤْمِنَ يَطْلُبُ المَعَاذِيْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ والمُنَافِقَ يَبْحَثُ عن عُيُوبِهِمْ .

ويَنْبَغِي للإنْسَانِ أنْ يَحْتَرِزَ عَن مَوَاقِفِ التُّهَمِ ، لَئِلَّا يُسَاءَ بِهِ الظَّنُّ ،

فهَذَا طَرَفٌ مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطانِ وعِلاَجُ هَذِهِ الآفاتِ سَدُّ المَدَاخِلِ بِتَطْهِيْرِ القَلْبِ مِنَ الصِّفَاتِ المَذْمُوْمَةِ ، وَسَيَأْتِيْ الكَلامُ عَلَى هَذِهِ الصِّفاتِ إن شَاءَ اللّهُ تَعَالى مُفَصَّلاً .

وإذا قُلِعَتْ عَن القَلْبِ أصوْلَ هَذِهِ الصِّفات ، بَقِيَ لِلشَّيْطَانِ بالقَلْبِ خَطَرَاتٌ واجْتِيَازَاتٌ مِن غَيْرِ اسْتِقْرَارٍ فَيمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ اللّهِ تَعَالَى ، وَعِمَارَةُ القَلْبِ بِالتَّقْوَى . وَمَثَلُ الشيطانِ كَمَثَلِ كَلْبٍ جَائِعٍ يَقْرُبُ مِنْكَ ، فإن لَم يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْكَ لَحْمٌ وَخُبْزٌ ، فإِنَّهُ يَنْزَجِرُ بِأَنْ تَقُولَ لَهُ : إِخْسأْ ، وإِنْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ جَائعٌ ، لَمْ يَنْدَفِعْ عَنْكَ بِمُجَرَّدِ الكَلَامِ ، فَكَذَلِكَ القَلْبُ الخَالِيْ عن قُوْتِ الشَّيْطَانِ يَنْزَجِرُ عَنْهُ بِمُجَرَّدِ الذِّكْرِ . فَأَمَّا القَلْبُ الّذي غَلَبَ عَلَيْهِ الهَوَى فإِنَّهُ يُرْفَع الذِّكْرَ إلى حَوَاشِيْهِ فَلاَ يَتَمكَّنُ الذِّكْرُ مِنْ سُوَيْدَائِهِ ، فَيَسْتَقِرُّ الشَّيْطَانُ في السُّوَيْداءِ . وإذا أَرَدْتَ مِصْدَاقَ ذَلِكَ ، فَتَأَمَّلْ فِي صَلاَتِكَ ، وانْظُرْ الى الشَّيْطانِ كَيْفَ يُحَدِّثُ قَلْبَكَ في مِثْلِ ذَلِكَ المَوْطِنِ ، بِذِكْرِ السُّوْقِ ، وحِسَابِ العَالَمِيْنَ ، وتَدْبِيْرِ أمْرِ الدُّنْيَا واعْلَمْ أنَّهُ قَد عُفِيْ عن حَدِيْثِ النَّفْسِ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا هَممْتَ بِهِ ، ومَن تَرَكَ ذلِكَ خَوْفاً مِنَ اللّهِ تَعَالَى كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، وإِنْ تَرَكَهُ لِعَائِقٍ رَجَوْنا لَهُ المُسَامَحَةَ ، إلا أنْ يَكُونَ عَزْماً ، فإِنَّ العَزْمَ عَلَى الخَطِيْئَةِ خَطِيْئَةٌ بِدَلِيْلِ قَوْلِهِ ﷺ : « إذا التَقى المُسْلِمَانِ بسَيْفيْهِمَا فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ فِي النَّارِ ، قِيْلَ : ما بَالُ المَقْتُولُ ؟ قَالَ : إنه كَانَ حَرِيْصاً على قَتْلِ صَاحِبِهِ » .

وكَيْفَ لاَ تَقَعُ المُؤاخَذَةُ بالعَزْمِ ، والأَعْمَالُ بِالنِيَّةِ ، وهَلِ الْكِبْرُ والرِّيَاءُ إِلاَّ أُمُوْرٌ باطِنَةٌ ؟ وَلَوْ أنَّ إِنْسَاناً رَأى عَلَى فِرَاشِهِ أَجْنَبِيَّةً ظَنَّهَا زَوْجَتَهُ لَمْ يَأثَمْ بِوَطْئِهَا ، ولَو رَأى زَوْجَتَهُ وَظَنَّهَا أَجْنَبِيَّةً أثِمَ بِوَطْئِهَا ، وكُلُّ هَذَا مُعَلَّقٌ بِعَقْدِ القَلْبِ .

وقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَ ﷺ كَانَ يَقُولُ « يا مُثَبِّتَ القُلُوْبِ ثَبِّتْ قلُوبَنا عَلَى دِيْنِكَ ، يَا مُصَرِّفِ القُلُوْبِ اِصْرِفْ قُلُوْبَنَا إلى طَاعَتِكَ » . وفي حديث آخَرَ : « مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ رِيْشَةٍ بأَرْضٍ فَلاَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحِ » واعْلَمْ أنَّ القُلُوبَ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الخَيْرِ والشَّرِّ والتَّرَدُدِ بَيْنَهُمَا ثلاثَةٌ : الأولُ قَلْبٌ عَمَرَ بالتَّقْوَى ، وزَكي بالرِّيَاضَةِ ، وَطَهُرَ عَنْ خَبَائِثِ الأَخْلاَقِ ، فَتَنْفَرِجُ فِيْهِ خَوَاطِرُ الخَيْرِ مِنْ خَزَائِنِ الغَيْبِ ، فَيَمُدُّهُ المَلَكُ بالهُدَى .

القَلْبُ الثَّانِي : قَلْبٌ مَخْذُوْلٌ ، مَشْحُوْنٌ بالهَوَى ، ودَنِيْسٌ بالخَبَائِثِ مُلَوَّثٌ بالأَخْلاقِ الذَّمِيْمَةِ فَيَقْوَى فيهِ سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ لإتِّسَاعِ مَكَانِهِ ، فَيَضْعُفُ سُلْطَانُ الايمانِ ، ويَمْتَلِيءُ القَلْبُ بِدُخَانِ الهَوَى ، فَيُعْدَمُ النُّورُ ، ويَصِيْرُ كَالعَيْنِ المُمْتَلِئَةِ بِالدُّخَانِ لاَ يُمْكِنُهَا النَّظر ؛ ولاَ يُؤثرُ عِنْدَهُ زَجرٌ ولا وَعْظ .

والقلبُ الثالثُ : قَلْبٌ يَبْتَدِيءُ فيه خَاطِرُ الهَوَى ، فَيَدْعُوهُ إلى الشَّرِ ، فَيَلْحَقُهُ خاطِرُ الايمانِ ، فَيَدْعُوْهُ إلى الخَيْرِ . مِثَالُهُ ، أَنْ يَحْمِلَ الشيطانُ حَمْلَةً على العقل ، ويُقوِىَ دَاعِيَ الهَوَى ، ويَقولُ : أَمَا تَرَى فُلاَناً وفُلاَناً كَيْفَ يُطْلِقُونَ أَنْفُسَهُم في هَوَاهَا حَتَّى يَعُدَّ جَمَاعَةً مِن العُلَمَاءِ ، فَتَمِيْلُ النَّفْسُ إلى الشَّيْطَانِ ، فَيَحْمِلُ المَلَكُ حَمْلَةً على الشيطانِ ، وَيَقُولُ : هَلْ هَلَكَ إلاَّ مَنْ نَسِيَ العاقِبَةَ ، فَلاَ تَغْتَرَّ بِغَفْلَةِ الناسِ عن أَنْفُسِهِم ، أَرَأَيْتَ لَوْ وَقَفُوا في الصَّيْفِ في الشمسِ وَلَكَ بَيْتُ بَارِدٌ ، أَكُنْتَ تُوَافِقَهُم أَمْ تَطْلُبُ المَصْلَحَةَ ؟ أَفَتُخَالِفَهُم في حَرِّ الشَّمْسِ ، ولاَ تُخَالِفْهُم فِيْمَا يَؤُوْلُ إلى النارِ فَتَمِيْلُ النَّفْسُ إلى قَوْلِ المَلَكِ ، وَيَقَعُ التَّرَدُدُ بينَ الجُنْدَيْنِ ، إلَى أَنْ يَغْلِبَ عَلَى القَلْبِ ما هُوَ أَوْلَى بِهِ ، فَمَنْ خُلِقَ لِلْخَيْرِ يُسِّر لَهُ ومَنْ خُلِقَ لِلشَّرِ يُسِّرَ لَهُ قال تَعَالَى ﴿فَمَن يُرِدِ الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلاسلام ، ومَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّه يَجعلْ صَدْرَهُ ضَيقاً حَرَجاً كأنما يَصَّعَّدُ في السماء﴾ اللهم وفقنا لما تحبه وترضاهُ .

إلَى كَمْ إذَا ما غِبْتُ تُرْجَى سَلامَتي　　وقَدْ قَعَدتْ بي الحَادِثاتُ وقامَتِ
وَعُمِّمْتُ مِن نَسْجِ القَتِيْرِ عِمَامَةً　　رُقُـومُ البِلَى مَرْقُـومـةٌ بعِمَـامتي
وَكُنْتَ أَرَى لِي فِي الشَّبَابِ عَلاَمَةً　　فَصِـرْتُ وَإنّـي مُنْكِـرٌ لِعَـلاَمَتِي
ومـا هِـيَ إلاَّ أَوْبَـةٌ بَعـدَ غَيْبَـةٍ　　إلَى الغَيْبَـةِ القُصْـوَى فَثَـمَّ قِيَـامَتِي
كَـأَنّـيْ بِنَفْسِـي حَسْـرَةً وَنَـدَامَـةً　　تُقَـطَّعُ إذْ لَـمْ تُغْـنِ عَـنِيْ نَدَامَـتِي
مُنَى النَّفْسِ مِمَّا يُوْطِىءُ المَرْءَ عَشْـوَةً
إِذَا النَّفْـسُ جَـالَتْ حَـوْلَهُنَّ وَحَـامَتِ
وَمَـنْ أَوْطَـأَتْـهُ نَفْـسُـهُ حَـاجَـةً فَقَـدْ
أَسَــاءَتْ إِلـيْـهِ نَفْـسُـهُ وَأَلاَمَـتِ
أَمَـا وَالـذِي نَفْسِـيْ لَهُ لَوْ صَـدَقْتُهَـا
لَـرَدَّدْتُ تَـوْبِـيْخِـي لَهَـا وَمَـلاَمَـتِي
فَلِلَّـهِــه نَفْـسٌ أَوْطَـأَتْـنِي مِن العَشَـا
حُـزُوْنـاً وَلَـوْ قَـوَّمْـتُهَـا لاَسْـتَقَـامَـتِ
وَلِــلَّـهِ يَـوْم أَيَّ يَـوم فَظَــاعَـــةً
وَأَفْـظَـعُ مِنْـهُ بَعْــدُ يَـومُ قِيَــامَـتِي
وَلِـلَّـهِ أَهْـلِي إذ حَبَــوْنِـيْ بِحُـفْـرَةٍ
وَهُـمْ بِهَـوانِـي يَطْلُبُـونَ كَـرَامَـتِي
وَلِــلَّـهِ دُنْيَــا لا تَــزَالُ تَـرُدُّنِــي
إِبَاطِيْلُهَا فـي الجَهْـلِ بَعْـدَ اسْتِقَامَتِي

اللّهُمَّ ثَبِّتْ إِيْمَانَنَـا بِكَ وَمَحَبَّتَـكَ فِي قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الجِبَالِ الرّاسِياتِ
واعْصِمْنَا يَا مَوْلاَنا مِنْ جَمِيْعِ المُوبِقَاتِ وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بِالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ

وَارْفَعْ مَنَازِلَنَا فِي فَسِيْحِ الجَنَّاتِ وأرْزُقْنَا النَّظَرَ إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ يا حَكِيْمُ يَا عَلِيْمُ يا حَيُّ يَا قَيُّومُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا ولِجَميعِ المُسْلِمِيْنَ بِرحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ . .

(فصـــل)

تكلم أَحَدُ العلماء في بيان مداخل الشيطان إلى القلوب

فقال رحمه الله إعلم أَنَّ القلبَ مِثَالُهُ مِثالُ حِصنٍ رَفِيع والشّيطانُ عدوّ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ الحَصنَ ويَملكَه ويَستولي عليه .

ولا يُقْـدرُ على حِفْظِ الحِصنِ إلَّا بحِـراسَـةِ أبـوابِ الحِصن ومَداخله ومَواقعِ ثُلَمِهِ ، ولا يَقْدِر على حِرَاسةِ أَبْوابِهِ مَنْ لا يَعْرِفُ أَبْوابَهُ .

وحِمَـايَةُ القلب عن فسـادِ الشّيطانِ فَرْضُ عَيْنٍ واجبٌ على كُلِّ عَبْدٍ مُكَلَّف ، وما لا يُتَوصَّلُ إلى الواجبِ إلا بِهِ فهو واجبٌ .

ولا يُتَـوصَّلُ إلى دَفْعِ الشيطانِ إلا بمَعْرِفَةِ مَدَاخِلِهِ ، فَصَارَتْ مَعْرِفَةُ مَدَاخِلِ الشّيطانِ وَاجِبَةً .

ومَدَاخِلُ الشّيطانِ وأَبْوَابُهِ صِفاتُ العبدِ نَحْوُ الشّهوةِ والغضبِ والحِدَّةِ والطّمَعِ وغَيرِها وهي كَثِيرة ، ولَكِنّا نُشِيْرُ إلى مُعْظَمِ وَسَائِلهِ في إِغْواءِ الخلقِ وَتَسْلِطِهِ عليهم بها إن شاء الله .

وجملتها وَسَائِلُ عَشَرَةٍ نَذْكُرُها ونَذْكُرُ كَيْفِيَّة عِلَاجِهَا والتَّخَلُّصِ مِنها ، فَهَذانِ تَقْرِيْرَان .

التَّقْرِيْرُ الأَولُ : في ذِكْرِنا الوسيلةُ الأُولى الحَسَد والحِرْصُ ، فَمَنْ حَصَلَ فيه هَاتانِ الخِصْلَتَانِ عِميَ وصُمَّ ، وهُمَا مِن أَعْظِم مَدَاخِل الشيطان وأَكْبَرُ وَسائِلِهِ .

وقد روى أنّ نوحاً عليه السّلامُ لمّا رَكِبَ الْبَحرَ وحَمَلَ في السّفينةِ مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ كَما أُمِرَ فَرَأَى في السّفينةِ شَيْخاً لم يَعْرِفْهُ .

فقال له نوحٌ : مَن أدْخَلَكَ ؟ قال : دَخَلْتُ لِأُصِيبَ قُلُوبَ أصْحَابِكَ فتكُون قُلُوبُهم مَعِيَ وأبْدَانُهم مَعَك .

فقال نوحٌ : أُخْرُجْ يا عدوّ الله فإنكَ رَجِيم ، فقال إبليسُ : خَمْس أهْلك بهنّ الناسَ وسأحَدّثُك مِنْهن بثلاث ، ولا أُحَدّثك باثنتين .

فأوحَى إلى نُوح إنه لا حَاجَةَ لَكَ إلى الثلاثِ ، مُرْه يُحدّثك بالاثنَيْنِ .

فقال : ما الاثنتان ؟ فقال : هُما اللتان لا تَكْذِباني ، هُمَا اللّتانِ لا تُخْلِفَاني بهما أُهلكُ الناسَ الحِرْصُ والحَسَد .

فبالحَسَدِ لُعِنْتُ وجُعِلتُ شيطاناً رَجيما ، والحِرْص أصَبْتُ حَاجَتي مِن آدَمَ ، أُبِيْحَ لآدمَ الجنّةَ كُلّها إلاّ الشّجَرَةَ التي عُرِّفَ بِهَا فَوَسْوَسْتُ لَهُ حتى أكَلَهَا .

الوسيلةُ الثانيةُ : الشهوةُ والغضبُ فإنّهما مِن أعظم المَكَايِدِ للشيطانِ ، فَمَهْمَا غَضِبَ الإنسانُ لَعِبَ به الشيطانُ ، وعن بَعْضِ الأنبياءِ أنه قال لإبليس : بأيّ شيءٍ تَغْلِبُ ابنَ آدَمَ ؟ قال : آخُذُهُ عندَ الغَضَبِ وعِندَ الهَوى .

وظَهَرَ إبليسُ لِراهِبٍ ، فقال : أيُّ أخْلاق بَني آدمَ أعْونُ لَكَ عَلَيْهم ؟ فقال : الحِدَّةُ ، إن العبدَ إذا كان حَدِيْداً قَلَبْنَاهُ كَمَا تَقْلِبُ الصِّبيانُ الكُرةَ .

وقيلَ لإبليس : كَيْفَ تَقْلِبُ ابنَ آدمَ ؟ فقال : إذا رَضِيَ جِئْتُ حتى أكُونَ في قَلبِهِ ، وإذا غَضِبَ جِئْتُ حتى أكُونَ عَلَى رَأسِهِ .

الوسيلةُ الثالثةُ : حُبُّ الشهواتِ والزينةِ في الدنيا في الثِيابِ والأثاثِ والدُور والمَراكب ، فإنّ الشّيطانَ إذا رَأى ذلك غالباً على قلب إنسانٍ باضَ فيه وفَرَّخ .

فلا يَزالُ يَدْعُـوه إلى عِمارةِ الـدّنيا وتَزْيينِ سقوفِها وحِيْطانها وتَوْسِيْعِ الأبنية ، ويَدْعُوَهُ إلى التزيُن بالأثواب النفيسةِ ويَسْتَسخره طُولَ عُمْره .

فإذا أَوْقعَه فيها فقد اسْتَغنى عن معاودته فإنّ بعضَ ذلك يَجُر إلى بعض ، فلا يَزال يُؤدّيه مِن شيء إلى شيء إلى أَنْ يُشْتَاق إليه أَجله فَيَمُوتُ وهو في بَحْرِ الأَماني يَعُوم ، وفي سبيل الضَّلالِ يخوض ، ومِن ذلكَ يُخْشَى سوءَ الخاتِمَة نعوذُ بالله منها .

الوسيلُة الرابعةُ : الطَّمعُ ، فإذا كان الطمعُ غالباً على القَلْبِ لم يزل الشيطانُ يُحَسِّن له التّصنّعَ لِمن طَمِع فيه حَتى يَصِيْر المطموعُ فيه كأَنّه مَعْبُوده .

وقد قال الرّسول ﷺ « إيّاكم واستشعار الطّمع فإنه يُشْرِبُ القلبَ شِدّة الحِرص وَيَختم على القلوبِ بطابع حبّ الدّنيا ، وهو مِفتاحُ كُلّ سيئة ، وسَبَب إحْبَاطِ كُلّ حَسَنَةٍ » .

هذا هو الغاية في الخسران والهلاك .

الوسيلةُ الخامسةُ : العَجَلَةُ في الأُمور وكَثْرَةُ الطَّيشِ والفَشَلِ ، وَرُوِيَ عن رسول الله ﷺ أَنه قال « الأَناةُ مِن اللَّهِ والعَجلةُ مِن الشّيطان » .

ورُوِيَ أَنّه لَمَّا وُلِدَ عِيسى عليه السلامُ أَتَتِ الشياطينُ إبليسَ فقالوا : أَصْبَحَتِ الأَصنامُ قد نُكِّسَتْ رُؤُوسُهَا فقال : هذا حَادِثٌ قد حَدَثَ مَكَانَكُم فَطَارَ حتى جَاءَ خَافِقَي الأَرضِ .

فلم يَجِدْ شَيْئاً فَوَجَدَ عِيْسَى عليه السلامُ قَدْ وُلِدَ . وإذا الملائكةُ قَد حَفَّتْ حَوْلَهُ .

فقالَ لَهُم : إن نَبياً قَدْ وُلِدَ البَارِحةَ ، ما حَمَلَتْ أُنثى قَطُّ ولا وَضَعَتْ إلَّا وأَنا بِحَضْرَتِها إلا هذا فاسْتَيْأَسُوا مِن عبادة الأَصنامِ بَعْدَ هذِهِ الليلةَ ولكن ائتُوا بَني آدمَ مِن قِبَلِ الخِفَّةِ والعَجَلةِ .

عَصَمَنَا اللَّهُ وإيَّاكُمْ مِنْ الزَّلَلِ وَوَفَّقَنَا لِصَالِحِ العَمَلِ وَهَدَانَا بفَضْلِهِ

سَبيْلَ الرَّشَادِ وَطَرِيْقَ السَّدَادِ إِنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيْرِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصـــل)

الوسيلةُ السادسةُ : الفِتْنَةُ بالدراهِمِ والدنانير وسائر أَصْنَافِ الأَموالِ والعَـرُوض والـدَّواب والعَقَارَات وكلِّ ما يكونُ فَضْلَةً على قَدْرِ الحاجَةِ والقوتِ فَهوَ مُسْتَقرُّ الشيطان .

وروى أَن الرسول ﷺ لمّا بُعِثَ ، قال أَبليسُ لِشَياطِينه : لقد حَدَثَ أَمْرٌ فانْظُرُوا ما هُو ، فانْطَلقُوا ثم جَاءوا وقالُوا : ما نَدْري قال إِبليسُ : أَنا آتيكم بالخَبَرِ .

فَذَهَبَ وَجَـاءَ ، قال : قد بُعِثَ مُحَمّـدَ ﷺ ، قال : فَجَعَـلَ يُرْسِل شياطِيْنـه إِلى أَصحـاب الـرسول ﷺ فَيَنْصَرِفُونَ خائبين ، فيقُولُون : ما صَحِبْنا قوماً قَطُّ مِثْلَ هؤلآءِ ، نُصِيْبُ مِنهم ثم يقومون للصلاة فيمحَون ذلك .

فقال إِبليسُ : رُوَيداً بِهِم عَسَى الله نْ يَفْتَحَ لهم الدّنيا فهناك تُصِيْبُون حَاجَتكُم منهم .

الـوسيلةُ السّابعةُ : البُخْلُ وخَوفُ الفَقْرِ فإِن البُخْلَ هُو أَصلُ لِكلِّ خَطِيْئَة ، ورُوِيَ عن إِبليسُ لَعَنُه الله أَنّه قال : ما غِلَبني ابنُ آدم فلن يَغْلِبني في ثلاث ، آمُرُهُ أَنْ يأْخذ المال من غير حقه ويُنْفِقهُ في غير حَقِّهِ ويَمْنَعُه مِن مُسْتَحِقِهِ .

وقال سفيانُ الثوري : ليسَ لِلشيطانِ سلاحٌ على الإِنسانِ مِثلُ خَوْفِ الفَقْرِ ، فإِذا قَبل ذَلِكَ منه أَخذ في الباطِل ومَنَعَ مِن الحق وتكَلَّم بالهوَى وظَنَّ بِرَبِّهِ السُوءِ ، وهُوَ من أَعظمِ الآفاتِ على الدِيْنِ .

الوسيلةُ الثّامنةُ : سُوءُ الظنِ بالمسلمين وقد قال تعالى ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إِنّ بعض الظنّ إِثم ﴾ .

ومَن حَكم بشَيء على غيره بالظنّ فإن الشيطانَ يَبعُثه على أن يُطَوّل فيه اللّسانَ بالغِيْبَةِ فَيَهْلِكَ ، أو يَقصرَ في القيامِ بحُقوقِهِ أو يَتوانَى في إكْرَامِهِ أو يَنْظُرَهُ بعينِ الاحْتِقارِ أو يَرَى نَفْسَهُ خَيْراً منه .

وكُـلُ ذلكَ مِن المُهْلِكاتِ ، فَمَهْما رأيتَ إنساناً يسيءُ الظَّنَّ بالنّاسِ طَالِباً لعُيُوبِهم فاعْلَم أنه خَبيْثٌ في الباطِنِ ، فإن المؤمنَ يَطْلُب المعاذِيرَ ، والمنافِقَ يطلبُ العُيوبَ لِلْخلْقِ .

الوسيلةُ التّاسعةُ : الشّبع مِن الطعامِ والتّأنقُ في المآكلِ الفَاخِرةِ ، فإن الشّبعَ يُقوّي الشهواتِ وهي أسْلِحَةُ الشّيطانِ التي بها يَصُولُ .

وروى أن إبليسَ ظَهَرَ يوماً لِيحيى بنِ زكرّيا عليه السّلام فَرأَى عليه معاليقُ مِن كلِ شيء ، فقال له يحيى عليه السلام : ما هذه المعاليق .

فقال : هذه هي الشهوات التي أُصيبُ بها بنىَ آدم ، فقال : هلْ لي منها شيء ؟ فقال : ربما شبعَت فَتَثَاقَلْتَ عن الصّلاة وعن الذّكر .

فقال : هل غير ذلك ؟ قال : لا ، فقال يحيى : لِلّهِ عليّ أنْ لا أملأَ بَطْني ، فقال إبليسُ : عَلَّى لِلّهِ لا أَنْصَحَ مُسْلِماً .

الوسيلةُ العاشرةُ : تَعَاطِى العَوَامّ الذين لم يُمَارِسوُا العلومَ ولم يَتَبَحَّروْا فيها بالتفكُرِ في ذات الله عزّ وجل وصفاته وفي الأُمور التي لا تبلغها عقولُهم حتى يُؤدّى ذلكَ إلى الاعتقاداتِ الكُفْرّية وهم لا يَشْعُرون .

وهم في غاية ما يكونُونَ مِن الفرحِ والسّرورِ والاطمئنانِ إلى ما وَقَعَ في صُدُوُرهم .

وهم في غاية الخطأ ويَظُنّونَ أنَّ ما اعتَقَدوُه هُوَ العِلْمُ والبَصيرَةُ ، فما هذا حالهُ يَكُونُ مِن أَعظم الأَبْوابِ لِلشّيطانِ في اللَّعِبِ بِعُقُولهم وإيقاعِهم في الأُمور المكْرُوَهِهِ .

فَهَذِهِ وَسَائِلُ الشيطانِ ومَدَاخِلُه إلى القلبِ وهيي كَثِيرةٌ ، وفيما ذكرناه تَنْبِيْهٌ على ما وَرَائِها .

وبـالجُمْلَةِ فليسَ في الآدَمِي صِفَـةٌ مَذْمُومَةٌ إلاّ وهي سِلاَحٌ لِلشيطانِ وَمَدْخَلٌ مِن مَدَاخِلِهِ .

التقـريرُ الثاني : في بَيَانِ العِلاجِ في دَفْعِهَا وإزالَتِها ، اعلم أَنَّ عِلاَجَ هَذِه الأُمـور وإزالتَهـا إنما يكونُ بالدُعاءِ إلى اللَّهِ والالتجاءِ إليه في دَفْعِها وإزالتِها ، وبالاجتهاد في قَلْعِ هَذِه الصفات المذمومةِ عَن القلب ، والعِناية في ذِكر اللَّهِ عزّ وجلّ ، فهذِه دَوافِعُ ثَلاثةٌ نذكرها .

الـدافـعُ الإولُ : يكـونُ باللَّجَاءِ إلى اللَّهِ بالدُّعاءِ رَاجياً مِنْهُ تَحْصِيْل الأَلطاف الخفيّة في إبعادِ الشّياطين وإزالِتهم ، وعن عبد الرّحمن بن أَبى ليلى ، قال : كَانَ شيطَانٌ يأْتى الـرّسولَ ﷺ وبيده شُعْلَهُ نارٍ فَيقُومُ بينَ يَدَيْهِ وهو يُصلى فَيَقْرأُ وَيَتَعوَّذ فلا يَذْهَب .

فأَتى جِبْرِيْلُ عليه السّلامُ إلى النبي ﷺ فقال لهﷺ : قُلْ أَعوذُ بكلمات الله التّامات التي لا يجاوزهنّ بَرّ ولا فاجرَ مِن شَرّ ما يَلِجُ في الأَرضِ وما يَخْرَجُ منها وما ينْزلُ مِن السماءِ وما يعرج فيها .

ومن شر فِتَنِ الليّلِ والنّهارِ وطوارقِ الليلِ والنهارِ إلاّ طارقاً يطْرُقُ بِخيرٍ يا رَحْمن ، فطفِيَتْ شُعْلَتُهُ وخَرَّ وَجْهه .

وعن الحسن البَصرى أنه قال : نُبِّئْتُ أَنّ جبريلَ أَتى إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن عِفْرِيتاً مِن الجنّ يَكِيْدُكَ فإذا أَوَيْتَ إلى فِراشِكَ فاقرأ آيةَ الكُرسي .

وعن الرسول ﷺ أنّه قال : أَتانِى شيطانٌ فنازَعَنِى ثمّ نَازَعَنِى فأَخذتُ بحَلْقِهِ والذي بَعَثَنى بالحق ما أَرسَلْتُهُ حتى وَجَدْتَ بَرْدَ لِسَانِهِ على يَدِي ، ولولا دَعْوَةُ أَخِى سُلَيْمان لأَصْبَحَ طَرِيحاً حتى تَنْظُروا إليه .

الـدافـع الثاني : العِنايةُ في إزالة هذه الصفاتِ المذمومة من القلوب وقَلْعِهَا منها فإِنَّ الشّيطانَ مِثْلُ الكَلْبِ في التَّسلُطِ على الإنسانِ .

فإذا كان الإِنسانُ مُتَّصِفاً بهذه الصّفاتِ الذَّميْمَةِ مِن الغَضَبِ والحَسِدِ والحِرصِ والطَّمعِ وغيرها كان بمنزلةِ مِن يَكُونُ بينَ يَدَيه خُبْزٌ ولَحْمٌ فإِن الكلبَ لا مَحَالة يَتَهوّرُ عليه وَيَتوثّبُ ولا يَنْدَفِعُ غالبا إلا بمشقةٍ شَدِيْدَة ، وإن لم يكن متصفاً بها لم يَطْمَعْ فِيه لأَنّه لا دَاعِى لَهُ هُنالِك ويكون دَفْعه بأَسْهل ما يكُون وأَيْسَرِهِ فإِنّه يندفع بالنهر والخسا والزَّجرِ ، فَتُزَال بنَقَائِضِها .

فَيُزالَ الغِضبْ بالـرّضاءِ والسّكينة ، ويُزَالُ الكْبرْ بالتواضع ، ويُزال الحَسَدُ بمعرفةِ حق المحسود وأَنّ الذي اخْتص به فَضْلٌ من الله فلا يمكن دفعهْ .

ويُزَال الطمعُ بالورعِ والاكتفاءِ بما أَعطاه الله عزّ وجل ، ويزالُ الحرصُ بتحقيق حالِ الدّنيا وانْقطَاعِها بالموتِ .

وهكذا تَفْعَلُ في كُلِّ خَصْلَةٍ مَذْمُوْمةٍ بالاجْتِهادِ في إزالتها .

الـدافـعُ الثالث : ذِكْرَ الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله تَعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشَّيطان تَذَكّروا فإذا هم مُبْصرون ﴾ .

والمعنى أنّهم إذَا أَلَمَّ بقُلُوبهم شيءٌ مِن هذهِ الصفاتِ الذَميْمَة فزعُوا إلى ذِكر الله تعالى وتَذَكّرُوْه ، فعندَ ذلك يَحْصُلُ التبصّر لهم في عواقب أُمُورهم .

نَعَم الـذّكْـرُ لا يكونُ طَارِداً للشّيطان إلّا إذا كانت القُلُوبُ مَعْمُورَةً بالخَوفِ والتقوى .

فأَمّا إذا كانَتْ خَاليةً عن ذلك فَربّما يكُونُ الذّكر غيرُ مُجْدٍ ، ومثالُ هذا مِن يَطْمَعُ في شُرب الدَّواءِ قَبْلَ الأَحْتِمَى والمِعدةُ مَشْحُونَةٌ بغَلِيظِ الطَّعامِ ويَطْمَعُ في أَنّه يَنْفَعُهُ كما يَنْفَعُ الذي يَشْرَبُهُ بَعْدَ الأَحْتِمَى وتَخْلِيةِ المِعدةِ عن الأَطعمة .

فالذّكرُ هو الدُّواءُ والتّقوى هُوَ الأَحْتِمَى ، فإذا حَصَلَ الذّكُر في قَلْبٍ فَارِغٍ عن غَيرِ الذكرِ انْدفَعَ الشّيطانُ كما تَنْدفعُ العِلّةُ بِنُزُولِ الدّواءِ في مَعِدَةٍ خاليةٍ عن الأَطعمةِ كما أشار إليه تعالى بقوله ﴿ إن في ذلك لذِكرى لِمَنْ كان له قَلْبٌ ﴾ .

اللهم إنـا نَسْـألُـكَ حَيَاةً طَيِّبةً ، ونَفْساً تَقِيَّة ، وعِيْشَةٍ نَقِيَّة ، ومِيْتَةً سَوِيَّة ، ومَرَداً غَيْرَ مُخْزِي ولا فاضح .

اللَّهُم اجعلنا من أَهل الصلاح والنجاح والفلاح ، ومن المؤيدين بنصرك وتأييدك ورضاك يا رب العالمين .

« اللهم مالكَ الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تَشَـاءُ وتُعِز مَن تشاء وتُذِلُ مَن تشاء بِيَدِكَ الخيرُ إنكَ على كل شيءٍ قدير » .

يا وَدُوْدُ يَا ذَا العَرشِ المجيد يا مُبْدِىءُ يا مُعِيْدِ يا فَعَالٌ لما تُرِيدِ نسألك بنور وجهك الذي مَلأَ أركانَ عَرشك وبقُدرتِك التي قدرت بها على جميع خلقـكَ وبـرحمتـك التي وسِعَت كل شيء لا إله إلا أنت أن تغفر ذُنُوبَنا وسَيئاتِنا وأنْ تبدلها لنا بحسنات إنك جوادٌ كريم رؤوفٌ رحيم .

اللهم افتـح لدعـائنا باب القبول والإجابة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصـــــل)

قال رَجُلٌ للحَسَنَ يا أبا سَعِيد أينامُ الشيطانُ فَتَبَسَّمَ وقال لَوْ نَامَ لاسْتَرَحْنَا .

فإذًا لاخَـلاص لِلْمُؤْمن منه نَعَم له سَبِيْلٌ إلى دَفْعِهِ وتَضْعِيْفِ قُوَّتِهِ قال

النبي ﷺ إنَّ المُؤمنَ يُنْضِي شَيْطَانَهُ كما يُنْضِي أَحَدُكم بعِيْرَهُ في سَفَرِه .
وقال ابن مسعود شَيْطَانُ المؤمن مَهْزُوْل .
وقال قيسُ بنُ الحجاج قال لي شيطاني دَخَلْتُ فيكَ وأنا مِثلُ الجَزُوْر وأ الآنَ مِثْلُ العُصْفُور قُلْتُ ولِمَ ذَاكَ قال تُذِيْبني بذكر الله تعالى .

وعن أبي بَكر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ عليكم بلا إله إلا الله والاستغفـار فأكثـروا منهما فإن إبليْسَ قال أهْلكْتُ بَني آدَمَ بالذُنُوب وأهْلكوني بلا إلهَ إلا الله والاسْتِغْفَار .
فلما رأيتُ ذلـك أَهْلَكْتُهُم بالأَهْـوَاءِ وهم يَحْسَبُون أنهم مُهْتَدُون رواه الحافظ أبو يعلي الموصلي وقال مُجَاهِد مَا مِن شيءٍ أَكْسَرُ لِظَهْرِ إبْلِيس مِن «لا إلَهَ إلاَّ الله» .
وقـال عباسُ الدَّوْري سَمِعْتُ يَحْيى بن مَعينْ يَقُوْلُ كُنْتُ إذا دَخَلْتُ مَنْزِلي قَرأتُ آيةُ الكُرْسِيْ مَرَّةً .
فَبَيْنَا أنا ذَاتَ لَيْلَةٍ أَقْرَؤُهَا فإذَا هَاتِفٌ يَقُولُ كَمْ تَقْرأُ هَذِهِ لَيْسَ أحَد يُحْسِنُ يَقْرَؤُها غيْرُكَ .
فَقُلْتُ مُجِيْباً لَهُ وأَرَى هَذَا يَسُؤكَ واللّهِ لأزِيْدَنَّكَ فَصِرْتُ أَقْرؤُها في الليلة خَمْسِين مَرَةً أَوْ سِتِّيْنْ مَرَةً قال عَبَّاسُ فَحَدَّثْتُ مُحَمَّد بنَ سَهْلٍ فقال كان جَرِياً على الإنس والجن أو كما قال .
وقال بشر بن منصور عن وُهَيْب بن الورد خَرَجَ رَجُلٌ إلى الجُبَانَة بعد ساعة مِن اللَّيل فَسَمِعَ حِسًا وأصْوَاتًا شديدة وجِيءَ بِسَرِيرٍ وجَاءَ شيءٌ جَلسَ عليه واجْتَمَعَ إليْهِ جُنُود .
ثم صَرَخَ مَنْ لِيْ بعُروَةِ بن الزُبَيْر فلم يُجِبْه أَحَدُ حَتى تابَعَ مَا شاءَ الله مِن الأَصْوات فقال واحدٌ منهم أنا أَكْفِيْكَهُ .

قال فَتَوجَّهَ نحوَ المدِيْنَةِ وأنا أنْظُر ثم أوشَكَ الرَّجْعَةَ فقال لا سبيْل إلى عُرْوَة قال ويْلَكَ لِـمَ قال يَقُول كَلِماتٍ إذَا أصْبَحَ وإذا أمْسَى فلا يُخْلَصُ إليه .

قال ا لرجل فلما أصْبَحْتُ قُلْتُ لأهْلِي جَهِّزُوْنِي فأتَيْتُ المدِيْنَةَ فَسَأَلْتُ عنه حتى دُلِلْتُ عليه فإذَا شَيْخٌ فَقُلْتُ شَيْئًا تَقُولُه إذَا أصْبَحْتَ وإذا أمْسَيْتَ .

فأَبَى أنْ يُخْبِرَني فأخْبَرْتُه بِمَا رأَيْتُ وبِمَا سَمِعْتُ فقال ما هُوَ غَيْرَ أنّي أقُولُ إذَا أَصْبَحْتُ .

آمَنْتُ باللَّهِ العَظِيمِ وكَفَرْتُ بالجبْتِ والطَّاغُوتِ واسْتَمْسَكْتُ بالعُروةِ الوُثْقَى لا انْفِصَام لها والله سمِيْعٌ عليم .

إذا أصْبَحْتَ قُلْتُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ وإذا أمْسَيْتُ قُلْتُ ثلاثَ مَرَّات .

وعن ابن عباس أنه قال إنَّ الشياطِينَ قالوا لإبليس يا سَيِدَنا إنا لَنَفْرح بموت العَالِم ما لا نَفْرَحُ بِمَوْتِ العَابدِ والعَالِمُ لا نُصِيْبُ منه .

قال انْطَلِقُوا فانْطَلِقُوا إلى عَابدٍ وأَتوهُ في عِبادَتِهِ فقالوا نُرِيْدُ أنْ نَسْأَلك فقال سَلْ .

فقال إبْلِيْسُ هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أنْ يَجْعَل الدنيا في جَوْف بَيْضَةٍ قال لا أَدْرِي قال أَتَرَوْنَهُ كَفَر في سَماعِه .

ثم جَاءَ إلى رَجُلٍ عَالِمٍ في حَلْقَةٍ يُضَاحِكُ أَصْحَابَهُ فقالوا إنَّا نُرِيْدُ أنْ نَسْأَلُكَ فقال سَلْ .

فقال هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أَنْ يَجْعَل الدنيا في جَوف بَيْضَةٍ قال نَعَمْ قال كَيْفَ .

قال يَقُولُ كُنْ فَيَكُون ، قال أَتُرَوْنَ ذَلِكَ لا يَعْدُوْ نَفْسَهُ هذا يُفْسِدُ عَلَيَّ عَالماً كثِيْرا .

حَيَاتُكَ فِى الدُّنْيَا قَلِيلٌ بَقَاؤُهَا ... ودُنْيَاكَ يَا هٰذَا شَدِيدٌ عَنَاؤُهَا

ولا خَيْرَ فِيهَا غَيْرَ زَادٍ مِنَ التُّقَى ... يُنَالُ بِهِ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَمَاؤُهَا

بَلَى إِنَّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ مَطِيَّةٌ ... عَلَيْهَا بُلُوغُ الْخَيْرِ وَالشَّرُّ دَاؤُهَا

وَمَنْ يَزْرَعِ التَّقْوَى بِهَا سَوْفَ يَجْتَنِي ... ثِمَاراً مِنَ الفِرْدَوْسِ طَابَ جَنَاؤُهَا

نُؤَمِّلُ أَنْ نَبْقَى بِهَا غَيْرَ أَنَّنَا ... عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الْمَمَاتَ انْتِهَاؤُهَا

فَكُنْ أَيُّهَا الإِنْسَانُ فِى الخَيْرِ رَاغِبًا ... يَلُوحُ مِنَ الطَّاعَاتِ فِيكَ بَهَاؤُهَا

وَجَانِبْ سَبِيلَ الغَيِّ وَاتْرُكْ مَعَاصِيًا ... يُذِيبُكَ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ لَظَاؤُهَا

فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تَمُوتَ بِمَشْهَدٍ ... يُسَاعِدُ مَنْ نَاحَتْ عَلَيْكَ بُكَاؤُهَا

وَتَنْزِلَ قَبْراً ـ لَا أَبَالَكَ ـ مُوحِشًا ... تَكُونُ تُرَى أُمٌّ عَلَيْكَ ثَرَاؤُهَا

وَتَبْقَى بِهِ ثَاوٍ إِلَى الحَشْرِ وَالجَزَا ... وَنَفْسُكَ يَبْدُو فِى الْحِسَابِ جَزَاؤُهَا

فَإِمَّا تَكُونُ النَّفْسُ ثَمَّ سَعِيدَةً ... فَطُوبَى وَإِلَّا فَالضَّرِيعُ غِذَاؤُهَا

يُسَاقُ جَمِيعُ النَّاسِ فِى مَوْقِفِ القَضَا ... وَتُنْشَرُ أَعْمَالٌ يَبِينُ وَبَاؤُهَا

هُنَالِكَ تَبْدُو لِلْعِبَادِ صَحَائِفٌ ... فَتُوضَعُ فِى المِيزَانِ وَالذَّنْبُ دَاؤُهَا

وَكَمْ مِنْ ذَلِيلٍ آخِذٍ بِشِمَالِهِ ... صَحِيفَتَهُ السَّوْدَا الشَّدِيدُ بَلَاؤُهَا

وَآخَرُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ آخِذٌ ... صَحِيفَتَهُ البَيْضَاءَ طَابَ لِقَاؤُهَا

فَيَأْتِي نَبِيُّ اللهِ لِلرَّبِّ سَاجِداً ... فَيُثْنِي بِنَعْمَاءَ يَجِلُّ ثَنَاؤُهَا

فَيَدْعُوهُ رَبُّ العَرْشِ: سَلْنِي فَإِنَّنِي ... لِنَفْسِكَ بِالْمَحْبُوبِ عِنْدِي رِضَاؤُهَا

فَقَالَ: إِلٰهِي أُمَّتِي مِنْكَ تَرْتَجِي ... لِأَشْفَعَ بَعْدَ الإِذْنِ فَهْوَ مُنَاؤُهَا

فَيُعْطِيهِ مَوْلَاهُ الكَرِيمُ شَفَاعَةً ... لِأُمَّتِهِ الغَرَّاءِ طَابَ هَنَاؤُهَا

فيَرْجِعُ طٰهَ مُسْتَقِيمٌ سُرُورُهُ تَخَالُ بِهِ البُشْرَى جَلِيًّا ضِيَاؤُهَا
فيَحْمدُ مَوْلَاهُ الْجَلِيلَ ثَنَاؤُهُ عَلَى نِعَمٍ لَا يُسْتَطَاعُ احْصَاؤُهَا
هُنَا لِكَ أُمُّ المصطفى جَنَّةَ الْعُلَا وَأُمَّتُه تَقْفُوا كذَا شُهَدَاؤُهَا
وَيَسْقِي رَسُولُ اللهِ مَنْ شَاءَ كَوْثَراً بآنِيَةٍ عَدُّ النُّجُوم اقْتِفَاؤُهَا
فَيَارَبِّ أَوْرِدْنَا جَمِيعاً لِحَوْضِهِ لِتُرْوَى نُفوسٌ مِنْهُ طَالَ ظَمَاؤُهَا
وَأَتْمِمْ لَنَا حُسْنَ الْخِتَامِ إِذَا دَنَتْ وَفاةٌ وَحَانَتْ لِلْحَيَاةِ انْمِحَاؤُهَا
وَهَوِّنْ عَلَى الرُّوحِ المَمَاتَ فإِنَّهَا تُحِبُّ الْبَقَا لكِنْ لِقَاكَ هَوَاؤُهَا
وَفِي الْقَبْرِ ثَبِّتْهَا عَلَى قَوْلِكَ الهُدَى إِذَا سُئِلَتْ كَيْ يَسْتَقِيمَ بَقَاؤُهَا
وإِنْ نُفِخَتْ في الصُّور نَفْخَةُ بعْثِنَا فقُلْ أَنْتُمُ أَهْلُ الْيَمِينِ أُولَاؤُهَا
فَنَحْنُ اعْتَمَدْنَا الفَضْلَ مِنْكَ مَعَ الرِّجَا فَحَقِّقْ رَجَا نَفْسٍ لَدَيْكَ رَجَاؤُهَا
وَصَلِّ على المُخْتَارِ طٰهَ مُحَمَّدٍ شَفِيعِ الْبَرَايَا يَوْمَ يَأْتِي نِدَاؤُهَا
وآلٍ وأصحابٍ مَدَى الدَّهرِ ما بَدَا نَهَارٌ وما جَنَّ اللَّيَالِي دُجَاؤُهَا

إنْتَهَى

اللهم إِنَّكَ تَعْلَمُ سِرَّنَا وعَلَانِيَتَنَا وتَسْمَعُ كَلَامَنَا وتَرَى مَكَانَنَا لَا يَخْفَى عَليكَ شيْءٌ من أَمْرِنَا نَحْنُ البُؤَسَاءُ الفُقَراءُ إِليكَ المستغيثونَ المستجيرون بكَ نَسْأَلكَ أَنْ تُقَيِّضَ لِدِيْنِكَ مَنْ يَنْصرُهُ ويُزِيلُ مَا حَدَثَ مِن البِدَعِ والمُنْكَرَاتِ ويُقِيْمُ عَلَمَ الجِهَادِ ويَقْمَعُ أَهْلَ الزَّيْغِ والكُفْرِ والعِنَادِ ونَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا وجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

مَوْعِظَة

إِخْوَاني أَيْنَ أَحْبَابُكُم الذِينَ سَلَفُوا أَيْنَ أَتْرابُكم الذين رحَلُوا وانْصَرفوا ، أَيْنَ أَصْحَابُ الأَموالِ وَمَا خَلَّفُوا .

ندموا والله على التفريط يا لَيْتَهم عَرَفُوا هَوْلَ مَقَام يَشِيْبُ منه الوليد ، إذا ﴿ وجاءَتْ سَكرةُ الموتِ بالحَقّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ منه تَحِيْد ﴾ .

فَوَاعَجَباً لَكَ كُلَّمَا دُعِيْتَ إلى اللَّهِ توانَيْتْ ، وكُلَّمَا حَرَّكَتْكَ المواعظُ إلى الخيراتِ أَبَيْتْ ، وعلى غَيِّكَ وجَهْلِكَ تَمادَيْتْ ، وكم حُذِّرت مِن المَنُون فما التفَتَ إلى قول الناصِح وتَركْتَهُ وما بالَيْتْ .

يا مَن جَسَدُهُ حَيٌّ ولكِن قلبه مَيْت ، سَتُعَاين عند قُدُوْم هَادِم اللَّذاتِ ما لا تَشْتَهِي وتُرِيْد ﴿ وجاءتْ سَكْرَةُ الموت بالحق ذلك ما كُنْتَ منه تحيد ﴾ .

كم أَزْعَجَ الموتُ نُفُوْسًا من دِيَارِهَا ، وكم أَتلَفَ البِلَى مِن أجسادٍ مُنَعَّمَةٍ لم يُدَارِهَا ، وكم أذَلَّ في التُراب وجوها ناعِمَةً بَعْدَ رفْعَتِهَا واسْتِقْرارِها .

إنتبه يا أخي فالدنيا أضغاث أحلام ، ودارُ فَنَاءٍ لَيْسَتْ بدَارِ مَقام ، سَتَعْرِفُ وتفهم نُصْحِي لك بعد أيام .

وما غابَ عَنْكَ سَتَراه على التمام إذ اكُشفَ الغطاء عَنْكَ وصَارَ بَصَرُكَ حَديد ، وهناك تَنْدَمُ ولاتَ ساعَة ندم .

شعــرا :

قُـلْ لِلَّـذِي أَلِفَ الذُّنُوبَ وأجْـرَمَـا ... وغَـدَ عَـلَىَ زَلاَّتـه مُتَنـدِّمَـا
لا تَيْأَسَنْ واطلـب كـريمًا دائمًـا ... يُـوْلِـي الجَمِيْل تَفَضُّـلاً وتَكَـرُّمَا
يا مَعْشَـرَ العَـاصِينَ جُـوْدٌ وَاسِـعٌ ... عنـد الإلـه لِمَـنْ يَتُـوبُ ويَنْـدَمَـا
يا أَيُّهَـا العَبْـدُ المُسِـيْء إلـى مَتَى ... تُفْـني زَمَـانَـكَ في عَسَـى ولَرُبَّـمَا
بـادِرْ إلـى مَـوْلاَكَ يا مَن عُمْـرُهُ ... قَـدْ ضَـاعَ في عِصْيَـانِه وتَصَـرَّمَـا
واسْـأَلَهُ تـوفِيْقًـا وعَفْـوًا ثـم قُـلْ ... يَا رَبِّ بَصِّـرْني وزِلْ عَـنِّيْ العَمَـا
ثـم الصـلاة على النبي أَجَلُّ مَـنْ ... قَدْ خُصَّ بالتَّقْرِيْبِ مِن رَّب السَّما

وعلى صَحَابتِهِ الأفـاضِـلِ كُلِّهـم   ما سَبَّحَ الدّاعِـي الإلـهَ وعَظَّمـا

اللَّهمَّ آنـظِمْنـا في سِلكِ حِزبِـكَ المُفلِحِـين ، واجْعلنـا مِنْ عبـادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكبرِ يومَ الدين ، واحشُرْنا معَ الذين أنعمتَ عليهم مِنَ النَّبيين والصِّـدّيقـينَ والشُّهداء والصالحين واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتِكَ يا أَرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى اللَّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فصــــل)

قال أَحَدُ العلماء :

إعلم أنَّ القلبَ كالحِصن وعلى ذلِك الحِصْن سُوْرٌ ولِلسُّور أَبْوابٌ وفيه ثُلَمٌ وسَـاكِنُهُ العَقْلُ والملائكة تَتَردَّدُ إلى ذلكَ الحِصْنِ وإلى جَانِبَ الحِصنَ رَبَضٌ (وهُوَ المَكانُ يُؤوَى إِليه) .

وفيه الهَوَى والشَّيَاطِيْنُ تَخْتلفُ إلى ذلِكَ الرَّبَضِ مِن غَيرِ مَانِعٍ والحَرْبُ قائمٌ بَيْنَ أَهل الحِصْنِ وأَهْلِ الرَّبَضِ والشَّيَاطِيْنُ لا تَزَال تَدُوْرُ حَوْلَ الحِصْنِ تَطْلُبُ غَفْلَةَ الحَارِسِ وَالعُبُورِ مِن بَعْضِ الثُلمِ وأن لا يَفْتُرَ عن الحِرَاسةَ لحْظَة فإنَّ العَدُو لا يَفْتُر .

ويَنْحَصِرُ شَرُ الشيطان في سِتَّةِ أجْنَاسٍ لا يَزَالُ بابْنِ آدَمَ حتى يَنَالَ مِنه وَاحِدًا منها وأكْثَرَ .

أَحَدُهَا شرُ الكُفْر والشرك .

ثانيا البِدْعَة .

ثالثاً كبائرُ الذنوب .

رابعاً الصغائر .

ثم الاشتغال بالمباحات عن الاستكثار مِن الطَّاعَاتِ .

ثم الاشتغال بالمفضول عن الفاضل .
والأَسْباب التي يَعْتَصِمُ بِهَا العَبْدُ من الشيطانِ عَشَرة .
أولاً الاسْتِعَاذةُ بالله .
ثانياً قِراءة المعُوذَتين .
ثالثاً قِراءَة آيةِ الكُرسي .
رابعاً قِراءَة البقرة .
خامساً قراءَة أوَّلِ سُورةِ حَم المؤمِن إلى « إليه المصير » .
سابعًا لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك والحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة .
ثامناً كِثرةُ ذِكر الله .
تاسعًا الوضوءَ مَعَ الصلاة .
عاشِرًا إمساكُ فُضُولِ النظر والكلامِ والطعام ومخالطة الناس . انتهى
وخِتَامًا فأهْلُ التّقْوى لا يَتَعذرُ عليهم سَدُ أَبْواب الشيطان وحِفْظُها بالحِرَاسَة أي الأَبْوَابِ الظاهرة والطُرقِ الجَلِيَّةِ التي تُفْضِي إلى المعَاصِي الظَاهرة .
وإنَّمَا يَتَعثرونَ في طُرقِهِ الغامِضَةِ فإنهم لا يَهْتَدُوْنَ إليها فَيَحْرسُوْنَهَا لأَنَّ الأَبوابَ المفْتُوحَةَ إلى القلب لِلشيطان كثيرة .
وبابُ الملائكة بابٌ واحِدٌ وقَد التَبسَ ذلكَ البابُ الواحدُ بهذِهِ الأَبْوَاب الكثْيرَة ، فالعَبْدُ فيها كالمسافرِ الذي يَبْقَى في بَادِيةٍ كَثِيْرةِ الطُرُقِ غَامِضَة .
المَسَالِك في لَيْلَةٍ مُظْلِمةٍ فلا يَكَادُ يَعْلَمِ الطَّرِيْقَ إلَّا بعَينِ بَصِيْرةٍ وطُلوعِ شَمْسٍ مُشْرِقَةٍ .
والعَينُ البَصِيْرة هَاهُنَا هِي القَلْبُ المُصفّى بالتَّقْوَى والشَّمْسُ المُشْرِقَةُ هُوَ

العِلَم العَـزِيْزُ المُسْتَفَـادُ مِن كتاب الله وسُنةِ رسوله ﷺ فيما يُهْتَدَى به إلى غَوامِضِ طُرُقه وإلا فَطُرُقُهُ كَثِيْرَةٌ وغامِضَةٌ .

قال عبدُ الله بن مَسْعُود رضي الله عنه خَطَّ لنا رسول الله ﷺ يَومًا خطًا وقال « هذا سَبِيلُ الله » ثم خَطَّ خُطُوطًا عن يَمِيْنِ الخطِ وعن شِمالِهِ ثم قال « هَذِه سُبُل على كل سَبِيْلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إليه » .

ثم تَلَا ﴿ وأَنَّ هَذَا صِرَاطي مُسْتَقِيْمًا فاتَّبِعُوْهُ ولا تَتَّبِعُوْا السُّبُل فَتَفَرَّق بكم عن سَبْيله ﴾ .

وقال أَحَدُ العُلَمَاءِ يَجِبُ على المؤمن أن يُحِبَّ العُلَمَاءَ العامِلِيْنَ بعلمهم حَقِيقةً البَعِيْدينَ عن الانهماك في الدنيا البعيدين عن الرياء وحُبِّ الشُهرةِ والظُهور والوقوع في أعْرَاضِ الناس الغَافلين .

السالمين من الحَسَدِ والكبرِ والعُجْبِ ويُلازِمَ مَجَالِسَهُم ويَسْأَلهم عَمَّا أشكل عليه ويَتَّعِظْ بنُصْحِهم .

ويَجْتَنِبْ الأعـمالَ القَبِيحـةَ ويَتَّخِذِ الشيطانَ عَدُوًا كما قال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عَدُوٌ فاتَّخِذُوْهُ عَدُوَا ﴾ .

أي فعَادُوْهُ بِطَاعَةِ الله تعالى ولا تطيعُوه في مَعَاصِي الله تعالى وكُونُوا على حَذَرٍ منه في جميع أحْوَالِكُم وأفْعَالِكم وعَقَائِدكم .

وإذا فَعَلْتُم فعلاً فَتَفَطَّنُوا له فإنَّهُ رُبَّمَا يُدْخِل عليكم الرّياء ، ويُزَيّن لكم القبائحَ والفَواحِشِ واسْتَعِينُوا عليه برَبكم ، وتعَوذُوْا بالله منه .

المُهِم أَنَّكَ إِذَا عَلِمْتَ أن الشيطانَ لَعَنَه اللَّهُ لا يَغْفُلُ عنكَ أَبَدَاً فلا تَغْفُل عَمَّنْ ناصِيَتُكَ بِيَدِهِ وهُو اللَّهُ جَلَّ جَلالَهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُه وصِفَاتُه إلْزَمْ ذِكْرَهُ وحَمْدَهُ وشُكْرَهْ .

فالشيطانُ عَدُوٌ مُسَلَّطٌ على الإنسان ومُقْتَضَى ذلك أَنَّ لَا يُوْجَدُ مِنهُ غَفْلَةٌ ولا فَتْرَةٌ عن التَّزْيينْ والإغْوَاءِ والإضْلال .

قال تعالى إِخْبَارًا عَمَّا قَالَهُ إبليس ﴿ فبما أغْويتَني لأقْعُدنَّ لَهُم صِراطكَ المستقيم ثـم لآتَيَنَّهم مِن بين أيديهم ومن خلفهم وعَن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثـرهم شاكرين ﴾ وقال ﴿ فبما أغْويتني لأزَينَنَّ لهم في الأَرضِ ولأغْوينَّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

اَللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِن المتقينَ الأبْرار وأَسْكِنَّا مَعَهمُ في دار القرارَ ، اللَّهُمَّ وفقنـا بحُسْن الاقبالِ عَليك والإِصْغَاءِ إليك ووَفِّقنْا للتّعاوُنِ في طَاعَتِكَ والمُبَادَرَةِ إلى خِدْمَتِكَ وحُسْن الآداب في مُعَامَلَتِكَ والتّسليم لِأمْرك والرِّضا بِقَضَائِكَ والصَّبَرْ عَلى بَلائك والشّكْرِ لِنَعْمَائِكَ ، واغفرَ لَنا ولوالدينا ولجميع المسلمـين الأحياء منهم والميتين برحمَتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى اللّهُ على محمد وآله أجمعين .

(فصـــــل)

قال تعالى ﴿ إن الشيطانَ لكم عدو فاتخذُوهُ عَدُوَا ﴾ الآية .

إذا فَهِمْتَ ذلِـكَ فَعَلِيكَ بتحقِيق العُبُـوديَّة لله ، والتـوكُـل عليه ، والافتقـار في كل أَحْوالِكَ إِليه ، واسْتِعَاذتِكَ به مِن شَرِّ عَدُوِّكَ وَعَدُوِّه ، فَبِذلِكَ تَنْجُوْ مِن سَلْطَنَتِهِ ، وتَنْجُوْ مِن غَائلته .

قال الله جل وعلا ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لكَ عَلِيهم سُلْطَانٌ وكَفى بِرَبّكَ وَكِيْلا ﴾ وقال جل وعلا ﴿ إنَّهُ لَيْسَ له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

فَمَنْ تَحَقَقَ بهذه الصِّفَاتِ العَلِيّةِ ، مِن الايمان بالله تعالى ، والعُبودِيةِ لَهُ والتوكل عليه ، واللَّجَاءِ والافتقارِ إليه ، والاسْتعاذة ، والاسْتجارة به ، كَيْفَ يَكُونُ لِعَدُوّ اللَّهِ عليه سُلطان ، والله حَبِيْبُه وَوَلِيُ حِفْظِهِ ونَصْرِه .

وفي وَصِيَّةِ رسول الله ﷺ لابن عباس « احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظك احْفَظِ الله

تَجِدْهُ أمامَكَ تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِدَّةِ » .

فالشأن في العبد يكون بينه وبين ربه معرفةٌ خاصة بقَلْبِهِ بَحَيْثُ تَجِدهُ قريبًا منه يَسْتَأنِسُ به في خلوتِهِ ويجدُ حَلاَوَةَ ذِكْرِه ودُعَائِهِ وَمُناجَاتِهِ وخِدْمَتِهِ .

ولا يَجِدُ ذلِكَ إلاَّ مَن أطَاعَهُ في سِرِّهِ وعَلانِيَتِهِ ومَتَى وَجَدَ العَبدُ هذا فقد عَرُفَ رَبَّهُ وصَار بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَعْرِفَة خاصة .

فإذا سأله أعطاه وإذا دَعَاهُ أجَابه والعبدُ لا يَزَالُ في كَرْبٍ وشَدائِد ، في الدنيا ، وفي البَرْزَخِ ، وفي الموقف ، فإذا كان بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ معرفة خاصة كفاه الله ذلك كله .

وهذا هو المشار إليه في وصية رسول الله ﷺ لابن عَباس تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِدة .

فالعِلْمُ النَـافِعُ ما عَرَّفَ العَبْد بربِّهِ ، ودَلَّهُ عليه حَتَّى عَرَفَهُ ، وَوَحَّدَه وأَكْثَرَ مِن ذِكْرِهِ ، وحَمْدِهِ وشُكْرِهِ وأنِسَ بِهِ ، واسْتَحْيَا مِن قُرْبِهِ ، وعَبَدَهُ كأَنَّه يَرَاه .

فالشَأن كله في أنَّ العبد يَسْتَدِلُ بالعِلْمِ على رَبهِ ، فيَعْرفه فإذا عَرَفَ ربِهِ فقد وجَدَهُ مِنْهُ قَرِيْبًا ، ومَتَى وجَدَهَ منه قرِيْبًا قَرَّبَهُ إليه وأجَابَ دُعَاءَهُ .

كما في الأثر الإسرائيلي ابْنَ آدم اطْلُبْنِي تجِدْني ، فإنْ وَجَدَتَنِيْ وجَدْتَ كُلّ شيء .

فأصل العِلْمُ العِلْمُ بالله الـذي يُوْجِبُ خَشْيَتَـهُ ومَحَبَّتَـهُ والقُرْبَ منه والأُنْسَ به ، ثُمَ يتلوه العِلْمُ بأحكام اللَّهِ ، وما يُحِبُهِ ويَرْضَاه مِن العبدِ مِن قولٍ أو عملٍ أَوْ حالٍ أو إعتقاد .

فمن تحقق بِهَذَيْن العِلْمَين كان علمُه عِلْماً نافعا ، وحَصَل لَهُ العِلْمُ النافعُ والقَلْبُ الخَاشِعُ والنفسُ القانِعَةُ والدُعاءُ المَسْمُوْعُ .

ومَن فاتَهُ هَذا العِلْمُ النافعُ وَقَعٍ في الأرْبَعِ التي اسْتَعَاذ منها النبي ﷺ ، وصَارَ عِلْمُهُ وبالاً وحُجَّةً عليه فلم ينتفع به .

لأنه لم يخشع قَلْبُهُ لِرَبِهِ ولم تَشْبَعْ نَفْسُهُ مِن الدنيا ، بل ازْدَادَ حِرصًا عليها وطلبًا لها ، ولَم يُسْمَعْ دُعَاؤُهُ ، لِعَدَمِ إمْتِثَالِهِ لأوَامِرِ رَبّه ، وعَدَمِ اجْتِنَابِهِ لِمَا يُسْخِطُهُ ويكرَهُهُ .

هذا إن كان عَلْمُهُ عِلْمًا يمكن الانتفاعُ به وهو المُتَلَقَى عن الكتاب والسُنَّة .

فإن كان مُتَلقّى من غير ذلك فهو غير نافع في نفسه ولا يُمْكِنُ الانْتِفَاعُ به بل ضَرَره أكْثَرُ مِن نَفْعِهِ .

وعَـلاَمَـةُ هذا العلم الذي لا يَنْفَعُ أَنْ يُكسِبَ صاحِبَهُ الزَّهْوَ والفخرَ والخُيلاء وطَلَبَ العُلُو والرِّفْعَةِ في الدنيا والمُنَافَسَةِ فيها وطَلَبَ مُبَاهَاةِ العُلَماءِ ومُمَاراة السُّفهاء وصرف وجوه الناس إليه .

وقد ورد عن النبي ﷺ أنَّ مَن طَلَبَ العلم ليُجَارِى به العلماءَ أو ليمارِى به السُّفَهاءَ ويَصْرِفَ به وُجُوْهَ النَّاسِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النار .

ولِبَعْضِ العُلماء :

يَقُولُون لِيْ هَلَّا نَهَضتَ إلى العُلاَ ... فما لَذَّ عَيْشُ الصَّابِرِ المُتَقَنّعِ
وَهَلَّا شَدَّدْتَ العِيْسَ حَتَى تَحُلَّها ... بِمِصْرٍ إلَى ظِلِ الجَنَابِ المُرَفَّعِ
فَفِيْهَا قُضَاةٌ لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِمُوا ... تَعَيَّنُ كَوْنِ العِلْمِ غَيْرَ مُضَيَّعِ
وفِيها شُيُوخُ الدِينِ والفَضْلِ والأُولَى ... يُشِيْرُ إلِيْهِمْ بالعُلاَ كُلُّ أُصْبُعِ
وفِيْهَـا وفِيْهَـا والمَهَـانَـةُ ذِلَّـةٌ ... فَقُمُ واسْعَ واقْصِدْ بَابَ رِزْقِكَ واقْرَعِ
فَقُلْتُ نعمْ أَسْعَى إذَا شِئتُ أَنْ أُرَى ... ذَلِيْلاً مُهَانًا مُسْتَخَفًا بِمَوْضِعِي
وأَسْعَى إذَا مَا لَذَّ لِيْ طُولُ مَوْقِفِي ... عَلَى بَابِ مَحْجُوْبِ اللِّقَاءِ مُمَنَّعِ

وأَسْعَى إذَا كانَ النِّفَاقُ طَرِيْقَتِي أَرُوحُ وأَغْدُوْ في ثِيَابِ التَّصَنُّعِ
وأَسْعَى إذَا لَمْ يَبْقَ فيَّ بَقِيَّةٌ أُرَاعِيْ بها حَقَّ التُّقَى والتَّوَرُّعِ
فكَمْ بَيْنَ أَرْبَابِ الصُدُوْرِ مجَالِسًا تُشَبُّ بهَا نَارُ الغَضَى بَيْنَ أَضْلُعِيْ
وكَمْ بَيْنَ أَرْبَابِ العُلُومِ وأَهْلِهَا إذَا بَحَثُوْا في المُشْكِلاتِ بمَجْمَعِ
مُنَاظَرَةً تحْمِي النُّفُوسَ فَتَنْتَهِي وقَدْ شَرَعُوا فِيْهَا إِلَى شَرِّ مَشْرَعِ
إلَى السَّفَهِ المُزْرِيْ بمَنْصِبِ أهْلِهِ أو الصَّمتِ عن حَقٍ هُنَاكَ مُضَيَّعِ
فَإِمَّا تَوَقَّى مَسْلَكَ الدِيْنِ والتقى وإِمَّا تَلَقَّى غُصَّـةَ المُتَجَرِّعِ

آخـر :

أنِسْتُ بلأْواءِ الزمانِ وذِلِهِ فيا عِزَّةَ الدنيا عليكِ سَلامُ
إلىَ كَمْ أُعَانِي تِيْهَهَا ودَلَالَهَا أَلَمْ يَأْنِ عَنْهَا سَلْوَةٌ وسَـآمُ
وقد أَخْلَقَ الأَيَّامُ جِلْبابَ حُسْنِهَا وأَضْحَتْ ودِيبَاجُ البَهَاءِ مَسَـامُ
عَلَى حِيْنَ شَيْبٌ قَدْ أَلَمَّ بمَفرِقِي وعَادَ رُهَامُ الشَّعْرِ وهُوَ ثَغَامُ
طَلَائِعُ ضَعْفٍ قدْ أَغَارَتْ علَى القُوى وثَارَ بِمَيْدَانِ المِزاجِ قَتَـامُ
فَلَا هِيَ في بُرْجِ الجَمَالِ مُقِيمَةٌ ولا أَنَا في عَهْدِ المُجُونِ مُدَامُ
تَقَطَّعَتِ الأَسْبَابُ بَيْنِي وَبَيْنَها ولَمْ يَبْقَ فِينَا نِسبَةٌ ولِئَـآمُ
وعادَتْ قَلُوصُ العَزْمِ عَنِّي كَلِيْلَةً وقَدْ جُبَّ مِنْهَا غَارِبٌ وَسَنَامُ
كأنِي بِهَا والقَلْبُ زُمَّتْ رِكَابهُ وقُوِّضَ أَبْيَـاتٌ لَـهُ وخِيَـامُ
وسِيْقَتْ إلى دَارِ الخُمُولِ حُمُولهُ يَحُنُّ إليها والدُمُـوْعُ رُهَـامُ
حَنِينَ عَجُولٍ غَرَّهَا البَوُّ فانْثَنَتْ إلَيْهِ وفِيْهَـا أَنَّـةٌ وضُغَـامُ
تَوَلَّتْ لَيالٍ لِلْمَسَرَّاتِ وانْقَضَتْ لِكُلِ زَمَانٍ غَـايَـةٌ وتَمَـامُ
فَسَرْعَانَ مَا مَرَّتْ وَوَلَّتْ وَلَيْتَهَا تَدُوْمُ وَلكِنْ مَا لَهُـنَّ دَوَامُ
دُهُورٌ تَقَضَّتْ بالمسَرَّاتِ سَـاعَةً ويَومٌ تَـوَلَّى بالمَسَـاءَةِ عَـامُ
فلِلّهِ دَرُّ الغَمِ حَيثُ أَمَـدَّنِي بِطُولِ حَيَـاةٍ والهُمُومُ سِهَـامُ

أَسِيْرُ بِتَيْمَاءِ التَّحَيُّرِ مُفْـرَداً وَلي مَعَ صَحْبِي عِشْـرَةٌ ونَدَامُ
وكَمْ عِشْرَةٍ ما أَوْرَثَتْ غَيْرَ عُسْرَةٍ وَرُبَّ كَلَامٍ فِي القُـلُوبِ كُلَامُ
فما عِشْتُ لاَ أَنْسَى حُقُوقَ صَنِيْعِهِ وهَيْهَاتَ أَنْ يُنْسَى لَدَيَّ ذِمَامُ
كَمَا اعْتَادَ أَبْنَاءُ الزَّمَانِ وَأَجْمَعَتْ عَلَيْهِ فِئَـامٌ إِثْرَ ذَاكَ قِيَـامُ
خَبَتْ نَارُ أَعْلَامِ المَعَارِفِ والهُدَى وشُبَّ لِنيـرانِ الضَّــلالِ ضُرَامُ
وكَانَ سَرِيرُ العِلْمِ صَرْحاً مُمَـرَّداً يُنَاغِي القِبابَ السَّبْعَ وهْيَ عِظَامُ
مَتِيْناً رَفِيْعـاً لا يُطَـارُ غُرابُـهُ عَزِيْزاً مَنِيْعـاً لآ يَكَـادُ يُـرامُ
يَلُوحُ سَنَابَرْقِ الهُدَى مِن بُرُوْجِهِ كَبَـرْقٍ بَدَا بَيْـنَ السَّـحَابِ يُشَامُ
فَجَرَّتْ عَلَيْـهِ الرَّاسِيَـاتُ ذُيُولَهَـا فَخَـرَّتْ عُرُوشٌ مِنْـهُ ثُمَّ دَعَـامُ
وسِيْـقَ إلىَ دَارِ المَهَـانَـةِ أَهْـلُـهُ مَسَاقَ أَسِيْرٍ لا يَـزَالُ يُضَـامُ
كَذَا تَجْرِيَ الأَيَامُ بَيْنَ الوَرَى عَلَى طَرَائِـقَ مِنْهَـا جائِـرٌ وقـوامُ
فما كُلُ ماقَدْ قِيلَ عِلْـمٌ وحِكْمَـةٌ وما كُلُ أفْـرادِ الحَـدِيْـدِ حُسَـامُ
ولِلْدَّهْـرِ ثاراتٌ تَمُـرُّ على الفَتَـى نَعِيْـمٌ وبُـؤْسٌ ، صِحَّـةٌ وسَقَـامُ
ومـنَ يَكُ في الدُنيـا فَلَا يَعْتِبَنَّهَـا فَلَيْسَ عَلَيْهَـا مَعْـتَبٌ ومَـلَامُ
أَجِـدَّكَ ما الدنيـا ومـاذَا مَتَـاعُهَـا وماذَا الذي تَبْغِيْـهِ فَهْوَ حُطَـامُ
تَشَكَّلَ فِيْهَا كُلُّ شَيءٍ بِشَكْـلِ مَا يُعَانِـدُهُ والنَّـاسُ عَنْـهُ نِيَـامُ
تَرَى النَّقْصَ في زِيِ الكَمَالِ كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِ رَبَّاتِ الحِجَـالِ عِمَامُ
فَدَعْهَـا ونَعْمَاهَـا هَنِيْئـاً لِأَهِلْهَـا ولاتَـكُ فِيْهَـا رَاعِيـاً وسَـوَامُ
تَعَافُ العَرانِيْنُ السِمَّاطَ عَلى الخِوى إِذَا ما تَصَدَّى لِلطَّعَـامِ طَغَـامُ
عَلَـى أَنَّهَـا لَا يُسْتَطَـاعُ مَنَـالُهَـا لِمَـا لَيْسَ فِيْـهِ عُرْوَةٌ وعِصَـامُ
ولَوْ أَنْتَ تَسْعَى إِثْرَهَا أَلْفَ حَجَّةٍ وقَدْ جَاوَزَ الطِبْيَيْـنِ مِنْـكَ حِزَامُ
رَجَعْتَ وقَدْ ضَلَّتْ مَساعِيْكَ كَلُّها بِخُفَـيْ حُنَينٍ لِاتَـزَالُ تُـلَامُ
هَبِ إِنَّ مَقَالِيْـدَ الأُمُـورِ مَلَكْتَهَـا ودَانَتْ لَكَ الدُنيـا وأَنْتَ هُمَـامُ

وَمُتِّعْتَ باللَّذاتِ دَهْراً بِغِبْطَةٍ ... أَلَيْسَ بحَتْمٍ بَعْدَ ذَاكَ حِمَامُ
فَبَيْنَ البَرايَا والخُلُودِ تَبَايُنٌ ... وبَيْنَ المنايَا والنُّفوسُ لِزَامُ
قَضِيَّةٌ انْقادَ الأَنَامُ لِحكْمِهَا ... وما حَادَ عَنْهَا سَيِّدٌ وغُلَامُ
ضرورِيةٌ تَقِضْي العقولُ بصِدْقِهَا ... سَلِ إن كانَ فيها مِرْيَةٌ وخِصَامُ
سَلِ الأرْضَ عن حالِ الملوكِ الَّتي خَلَتْ ... لهم فَوقَ ، فَوقَ الفرقدين مَقَامُ
بأبوابهم للوافدين تراكُمٌ ... بأعتابِهم لِلعَاكِفينَ زِحَامُ
تُجْبكَ عن أَسْرارِ السُّيُوفِ التي جَرَتْ ... عَلَيْهم جَواباً لَيْسَ فيه كَلَامُ
بِأَنَّ المنايَا أَقْصَدَتْهمُ نِبَالُها ... وما طَاشَ عن مَرْمَى لَهُنَّ سِهَامُ
وَسِيقُوا مَسَاقَ الغابِرينَ إلى الرَّدَى ... وأَقْفَرَ منهم مَنْزِلٌ ومَقَامُ
وحَلُّوا مَحَلاً غَيْرَ ما يَعْهَدُوْنَهُ ... فَلَيْسَ لَهم حَتَّى القِيَامِ قِيَامُ
أَلَمَّ بِهِمْ رَيبُ المَنُوْنِ فَغَالَهُم ... فَهُمْ بَيْنَ أَطْبَاقِ الرُّغَامِ رُغَامُ

اللّٰهُمَّ خَفِّفْ عَنَّا الأَوْزَارَ وَأَرْزُقْنَا عِيْشَةَ الأَبْرَارِ وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الأَشْرَارِ واعْتِقْ رِقَابَنَا وَرِقَابَ آبائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا مِنْ النَّارِ يَا عَزِيْزُ يَاغَفَّارُ يَا كَرِيْمُ يَا سَتَّارُ وَيَا حَلِيْمُ يَاجَبَّارُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصلٌ)

في فَضَائِلِ الاسْتِغْفَار

يُسْتَحَبُّ الإِكْثَارُ مِن الاسْتِغْفار في كُلِّ وَقْتٍ ، ويَتَأَكَّدُ في الزمَّانِ الفَاضِلِ ، والمكانِ الفاضِلْ ، قالَ تَعالى : ﴿ والمُسْتَغْفِرين بالأَسْحَار ﴾ وقال : ﴿ أفلاَ يَتُوبُون إلى اللهِ ويَستغفرونَهُ واللهُ غفورٌ رَحيم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومَا كان اللهُ مُعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغفِرون ﴾ ؛ وقالَ تعالى ، مُخْبِراً

عن نوح : ﴿ .. فقُلت استغفروا رَبّكُم إنه كانَ غفّاراً يُرْسِلِ السّماءَ عليكم مِدراراً وَيُمْدْدكُمْ بأمْوالٍ وَبَنِيْنَ وَيْجعل لَكُمْ جَنّاتْ ﴾ الآيَـةْ ، وقَالَ تَعالَى ﴿ والَّذِيْنَ إذا فَعَلوا فاحِشةً أوْ ظَلَمُوا انْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فاسْتَغْفرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الاّ اللّهْ ﴾. وقَالَ تعالى : ﴿ وَمنْ يَعْمَل سُوءاً ويَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ ، يَجِدِ ، اللّه غَفُوراً رَحِيْما ﴾ .

وَعَنْ شَدّادٍ بْنُ أوْسٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْهُ ـ عَنِ النَّبِيّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّمْ ، قالْ : « سَيِّدُ الاسْتِغفَارُ أنْ يَقُولَ العَبْدُ : اللّهُمّ أنْتَ رَبِّي ، لَا إلهَ إلاّ أنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وأنَا عَلى عَهْدِكَ ووَعَدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْت ، أبوُءُ لَكَ بِنْعَمتِكَ عَلَيْ ، وأبُوء بِذَنبي ، فاغْفِرْ لِي ، إنّهُ لَا يَغْفر الذُنُوبَ إلا أنْتَ » .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرْ ـ رَضْي اللّهُ عَنْهُما ـ قَالْ : إنّا كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللّهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ في المجْلِس يَقُولْ : « رَبِّ إغفِرْ لِي ، وتَبْ عَلَيْ ، إنّكَ أنْتَ التّوابُ الغَفُور » مِائةَ مَرّةْ .

وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنُ بُسْرٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قالَ : قَالَ رسُولُ اللّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ في صَحِيْفَتِهِ : اسْتِغفَـارٌ كَثِيرْ »(٢) .

وعَنْ أبِي هَرَيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « انّ اللّهَ عَزّ وَجلْ لَيَرْفَعُ الدّرَجَة لِلْعَبْدِ الصّالِحِ في الجَنّة فَيقُولُ : يَا رَبِّ ، أنَّي لِى هَذِه ؟ فَيَقُولُ : باسْتِغْفارِ وَلَدِكَ لَكْ » .

وعَنْ ابْنُ عَبّاسٍ ـ رَضْي اللَّهُ عَنهُما ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلم : « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمّ فَرَجا وَمِنِ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجَا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب »

وَعَن الأغَـرِ المُزَنِي ـ رَضي اللّهُ عَنْهِ ـ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيهِ وسَلّمْ : « إنَّهُ لَيُغَانُ على قَلْبِي ، وَإنّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ في اليوم مِائَة مَرَّةْ » .

وَقَالَ حُذَيْفَةْ : كُنْتُ ذَرِبَ اللّسَانِ عَلَى اهْلِي ، فَقُلْتُ : يا رسولَ اللّهْ ، لَقَدْ خَشِيْتُ أنْ يُدْخِلنِي لِسَاني النَّارْ ، فَقَالَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلِّمْ : « فأيْنَ أنْتَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ ، فَإنِيِّ لِأسْتَغْفِرُ اللّهَ في اليوم مِائَة مَرّة » أخرْجَهُ النَّسَائِي .

وَعَنْ زَيْدٍ مَـوْلَـى رسولَ اللّه صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلَمْ ، أنَهُ سَمِعَ النّبِيَّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّم يَقُولْ : « مَنْ قَالْ : أسْتَغْفِرُ اللّهَ الذي لا إلهَ إلاّ هُو ، الحَيّ الْقَيّومُ ، وأتوبُ إليهِ غَفرَ لَهُ ، وإنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزّحْفِ » رواهُ أبو دَاوُدْ .

وَعَنْ أبي سَعِيدِ الخُدْرِي ـ رَضْي اللّهُ عَنه ـ عَنِ النّبي صَلّى اللّه عليهِ وسَلّم قال : « مَن قالَ حِينَ يأوِي الى فِرَاشِهَ : أسْتَغْفِرُ اللّهَ الذي لا إله الاّ هُو ، الحْيُّ القيومُ ، وأتوبُ اليْه ـ ثلاثَ مَرّاتْ ـ غُفِرَتْ لَهُ ذُنوبُه ، وانْ كانَت عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ ، وأنْ كانَتْ عَدَدَ أيامِ الدّنْيا » رواهُ الترمذي .

وَعَنْ أنَس ـ رَضي اللّهُ عَنْه ـ سَمعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عليهِ وَسَلّمْ يقول : « قالَ اللّهُ تَعالى : يَا ابْنَ آدْم إنّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَني غَفَرْتُ لَكَ عَلى مَا كانَ مِنْكَ ولا أُبالي ، يا ابْنَ آدَم ، لو بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثُمّ اسْتَغْفَرتنِي غَفَرْتُ لَكَ ولاَ أبُالي ، يا ابْنَ آدَمَ إنّكَ لَوْ أتَيْتَني بِقُرابِ الأرْض خَطَايَا ثُمّ لَقِيْتَني لا تُشرِكُ بي شَيْئـا لأَتَيْتُـكَ بِقُرابها مَغفَرةً » رواهُ التّرمذي . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

فصـل : وَعَنْ أبي سَعِيْدٍ الخُدْري – رَضِيْ اللَّهُ عَنْه – عَن النَّبي ﷺ قَالْ : « قَالَ ابلِيْسُ : وَعِزّتكَ لا أبْرَحُ أغْوِيْ عِبَادَكَ ما دَامَتْ أرَواحُهُمْ في أجْسَادِهُم ، فَقالْ : وَعِزّتِي وَجَلَالِي لا أزَالُ أغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُونِي » .

وَعَنِ الزُبَيْرِ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ أنَّ رَسُولَ اللّه صَلّى اللّهُ عليه وسلم قال : « مَنْ أحَبَّ أنْ تَسُرَّهُ صَحِيْفَتُهُ فَلْيُكْثر فِيها مِنَ الاسْتِغْفَارْ » .

وعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ عَنِ الرّسُولِ صَلّى اللّهُ عليه وسَلَّمْ قالْ : « إنّ العَبْدَ إذَا أخْطَأَ خَطِيئةً نَكَتَتْ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ ، فانْ هُوَ نَزَعَ واسْتَغْفَرَ صُقِلَتْ ، فَانْ عَادْ زِيْدَ فِيْها حَتى تَعْلُو قَلْبَهُ ، فذلِكَ الرّانُ الذِي ذَكَرُ اللّه تَعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلى قُلوُبِهمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونْ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ أنَسْ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ أنّ رَسولُ اللّهِ صَلّى اللهِ عليهِ وسَلمْ قَـالْ : « إنّ لِلْقُلوُبِ صَداً كَصَـدأِ النُّحَاسِ ، وجَـلَاؤُهَـا الاسْتِغْفَارُ » .

وَرَوِيَ عَنْ أنَس بْنُ مَالِكَ ـ رَضْيَ اللّهُ عَنْه ـ قَالْ : كَانَ رسُولُ الله صلى الله عليهِ وسَلمَ في مَسِيْرَةٍ ، فَقَالْ : « اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، فاسْتَغْفَرْنَا ، فَقَالَ : « أتِمُّوهَا سَبْعَينَ مَرّةْ » فَأَتْمَمْنَاهَا ، فَقَالَ رَسولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ : « مَا مِنْ عَبْدٍ وَلَا أمَةٍ يَسْتَغْفِرُ اللّهَ في يَوْمِ سَبْعِيْنَ مَرَّةً إلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ سَبْعُمِائَةَ ذَنْب ، وَقَدْ خَابَ عَبْدُ أو أمَة عَمِلَ في يومٍ ولَيْلَةٍ أكْثَرُ مِنْ سَبْعِمائةِ ذَنْبٍ » .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قَال : قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم : « والّذِي نَفْسِي بَيدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّه تعالى بِكُمْ

وَلَجَاء بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيسْتَغْفِرُونَ اللّهَ تَعالى فَيَغْفِرُ لَهُمْ » رواهُ مُسْلِمٍ .

وَفِي حَدْيث سَلْمَانْ : « فاسْتَكْثِروا فِيه مَنْ خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكَمْ وَخْصلِتينِ لا غِنَى لَكُمْ عَنْهُما ، فأمّا الخَصْلَتانِ اللّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبّكمُ فَشهادَةُ أنّ لاّ إله إلاّ اللّهَ ، والاِسْتِغفَارُ وَأَمَّا التِي لاِ غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا فَتَسْأَلونَهُ الجَنّة وتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النّارْ » .

فَهذِهِ الخِصَالُ الأَرْبَعُ المذكُورَةِ في الْحَدْيثِ كُلّ مِنْهَا سَبَبٌ لِلْمَغْفِرةِ والعْتقِ مِنَ النارِ، فأمّا كَلِمَةُ الإخْلاصِ فإنّها تَهْدِمُ الذُّنُوبَ وتَمْحُوها مَحْواً ، وَلاَ تُبْقى ذَنْباً ، وَلاَ يَسْبِقُها عَمَلٌ ، وَهْيِ تَعْدِلُ عِتْقُ الرِّقَاب الّذِي يُوجِبُ الْعِتْقَ من النَّارِ ، وَمَنْ أتىَ بِهَا حِيْنَ يُصْبِحُ وَحِيْنَ يُمْسِي أعْتَقَهُ اللّهُ مِنَ النّارْ ، وَمَنْ قَالها خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ حَرّمَهُ اللّهُ عَلَى النّارِ .

وَأَمَّا كَلِمَةُ الاسْتِغْفَارُ فَمِنْ أعْظَمِ أسْبَابِ الْمَغْفِرَةْ . فَإِنَّ الاسْتِغْفَارَ دُعَاءٌ بالمغْفِرَةْ ، وَدُعَاءُ الصّائِمِ إذَا اجْتَمَعَتْ لَهُ الشّرُوطُ وانْتَفَتْ المَوانِعْ مُسْتَجَابُ حَالَ صِيَامِهِ وعِنْدَ فِطْرِهْ .

وَفي حَدْيثِ أبِي هُرَيْرَةَ : « وَيَغْفِرُ اللّهُ إلاّ لِمَنْ أبَى ، قالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَمَنْ يَأبىَ؟ قَالْ : يَأْبَى أنْ يَسْتَغْفِرَ اللّهْ » .

وَقَالَ لُقْمَانُ لابْنِهْ : يَا بُنَيَّ عَوِّدْ لِسَانَكَ الاسْتِغْفَارْ ، فَإِنَّ لِلّهِ سَاعَاتٍ لاّ يَرَدُّ فِيْهِ سَائِلاً، وَقَدْ جَمعَ اللّهُ بَيْنَ التّوْحِيْدِ والاسْتِغْفارِ ، فيِ قَوْلِهِ : ﴿ فاعْلَمْ أنّهُ لا إلهَ إلاّ اللّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكْ ﴾ .

وَفي بَعْضِ الآثَارْ : أنّ ابْلِيْس قَالَ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بالـذنُوبِ وأهْلكُونِي بالاْستِغفارِ وَلاَ إِلهَ إلاّ اللّهُ .

والاسْتِغْفَارُ خِتامُ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ كُلِّهَا فَيُخْتَمُ بِهِ الصَّلاَةُ والحَجُّ والْقِيامُ فِي اللّيْلِ وَيُخَتَمُ بِهِ المجَالِسُ ، فإنْ كانَتْ ذِكْراً كانَ كالطَّابَعِ عَلَيْهَا وإنِ كانَتْ لَغْواً كَانَ كَفَّارَةً لَها ، فَكَذلِكَ يَنْبغي أنْ يُخْتَتَم صِيَامُ رَمَضانَ بالاسْتِغْفَارِ يُرَقِّعُ مَا تَخرّقَ مِن الصِّيَامُ باللّغْوِ والرّفَثِ « وَيَجتَهِدُ في الاكْثَارِ مِنَ الاعْمَالِ وَالتَّقَلُّلِ مِنْ شَواغِلِ الدُّنْيا والإقْبالِ على الآخِرَةِ ما دَامَ في قَيْدِ الحياةْ » .

تَضَرع إلَى رَبِّ العِزةِ والجلال :

اسْتَغفْرُ اللهَ عَمَا كَانَ مِن زَلَلٍ ... ومِنْ خَطَإٍ تَخَطَّـا بالمُصِيْبَـاتِ
ولَيْسَ إلا إلى الرَّحمٰـنِ مُنْتجَعِـي ... فَهْوَ العَلِيمُ بأحْوالِي ونِيَّـاتِ
وهْوَ الرَّحِيمُ ومَلْجَـا مَنْ يَلُوذُ بِهِ ... الكَاشِفُ الغَمِ القَاضِي لِحَاجَـاتِ
وقَدْ مَدَدْتُ حِبَـالِي رَاجِياً فَرَجاً ... ومُنْشداً قِيْلَ دَاعٍ ذِي ابْتِهَـالاتِ
فقُلْتُ مُشتَكِياً مَـا قَالَ مُبْتهِـلاً ... باللهِ مُرْتَجِياً تَفْـرِيجَ أزْمَـاتِ
فَصِلِ حِبَـالِي وأوصَالِي بحَبلكَ يا ... ذَا الكِبْرِيَـاءِ وَحَقِّقْ فيكَ رَغْبَاتِي
أنَا الذَّلِيلُ أنَا المِسْكِينُ ذُو شَجَنٍ ... أنَا الفَقِيرُ إلى ربِّ السـمواتِ
أنَا الكَسِيرُ أنَا المُحْتَاجُ يَا أمَلي ... جُدْ لِي بِفَضْلِكَ واعْفُ عن خطيئآتِ
أنَا الغَرِيبُ فلا أهلٌ ولا وَطَنٌ ... أنا الوَحِيْدُ فكُنْ لِي في مُلِمَّـاتِ
أنا العُبَيْدُ الذِي مَا زِلتُ مُفْتَقِراً ... إليكَ يَا سَيدي فِي كلِّ حالاتِ
لا أسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... ولا عَن النَّفْسِ لِي دَفْعَ المَضَـرّاتِ
مَالِي سِوَاكَ ولا لِي عَنْكَ مُنْصَرَفٌ ... ذِكْرَاكَ في القَلْبِ قُرآنِي وآياتِ
أنْتَ القَدِيْرُ عَلى جَبْري بوَصْلِك لِي ... أنْتَ العليمُ بأسْـرارِ الخَفِيّـاتِ
أدعوكَ يَا سيِّدي يَا مشتكى حَزَنِي ... يَا جَابري يَا مُغيثي في مُهِمّاتِ
فانظر إلى غُربتي وارحَمْ ضَنَنَا جَسدي ... يَا رَاحمَ الخَلقِ يَا بَارِى البريّاتِ
وقَدْ دُهِيتُ فلم يُسْمَعْ وقُلْتُ فَمَا ... أجْدَى لَدَى ناصِري فاسمعْ شِكاياتِ

أنتْ المغيثُ وأنتْ المستعانُ ولا تَخْفَى عليكَ إرادتِي وغَـاياتِ
وناصِري غَاضَنِي بَلْ هَاضنِي وشَفَا أوغَارُ قَومٍ بَغُوا واعُظْمَ لَوعاتِ
يَا قَادِراً قاهراً مَن كَانَ ذَا عَنَتٍ أَنْتَ القديرُ لِقَهْرِ الظَالِمِ العَاتِ
يَا ربِّ فاغفرْ لمن لَمْ يدرْ ماقصدُوا وما أُراد الأعادِي مِنْ مَعسـرّاتِ
وأنْتَ يَا سَيدي يَا مُنْتَهَى أَمَلِي تَدْرِي وتَعْلَمُ مَقْصودِ ونِيَّـاتِ
والرَّاحِـمُ الكافلُ الكافي لآمِـلِهِ الماجِدُ الغَـافرُ المَاحِي لِزَلَّاتِ
ومَا اقْتَرَحْتُ ومَا قَدْ كُنتُ مُجْتَرِحاً مِن الذُنوبِ فإني ذُو الخَطِيـآتِ
وإبْسُطْ بِفَضلِكَ لِي مَا كُنتُ آمِلُه يَا مَنْ له الفَضلُ مَحْضاً في البرِّياتِ
ومَن لَه الجُودُ والموجُودُ أجْمَعُهُ والخَلْقُ والأمرُ ثم الكَائِنُ الآتِي
وعبـدُكَ المشتكِي والمُرتَجِي فَرَجاً لَاطِفْـه وارْحَمْه واحْفُفْ بالعِنَايَاتِ
وَصل يَا رَبِّ مَا هَبَّ النسيمُ ومَا غَنّى الحمَامُ على أفنـانِ أَيْكَاتِ
عَلى النَّبي الأمِـينِ المُصْطَفى شَرف والآلِ والصحبِ أصحَابِ الكراماتِ

اللهُم يا عالمَ الخَفياتِ وَيَا سَامِعَ الأَصْواتِ ويَا بَاعِثَ الأَمْواتِ وَيَا مُجيْبَ الدَعَواتِ وَيَا قَاضِيَ الحَاجَاتِ يَا خَالَق الأَرْض والسَّمواتِ أَنْتَ اللَّهُ الاحدُ الصمدُ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد الوَهَّابُ الذي لا يَبْخَلُ والحَـليمُ الذي لا يَعْجَـلُ لا رادَّ لامْـرِكَ ولا مُعَقِّـبَ لِحُكَمِكَ نَسْـأَلكَ أنْ تغفرَ ذونوبَنَا وتُنورَ قلوبنَا وَتُثَبِّتَ مَحَبَّتَكَ في قُلوبنَا وَتُسْكِنَنَا دَارَ كَرَامَتِكَ إنك عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِير وَصَلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

خَاتِمةٌ ، وَصِيَّةٌ ، نَصِيْحَةٌ

إِعْلَمِ وَفَقَّنَا الله وإِيَّاكَ وجَمْيعَ المسلمين لما يحُبُّهُ الله ويَرضَاهُ أَنَّ مِمَّا يَجِبُ الاعْتِنَاءُ بِهِ حفْظًا وعَمَلًا كلام الله جَلَّ وعَلَا وكَلام رسوله ﷺ .

وأنه يَنْبغِي لَمنْ وَفَّقَهُ الله تعالى أَنْ يَحُثَّ أَوْلَادَه على حفْظ القُرآن وما تَيَسَّرَ مِن أَحَاديث النبي ﷺ المتفق على صحَّتِهَا عنه كالبُخَاري و مُسْلم .

ومِن الفقه مختِصَر المقْنِع لِيَتَيَسَّرَ لَهُ اسْتِخْراجُ المسائل ويَجْعَلُ لأَوَلادِهِ مَا يَحُثُهُم على ذَلِكَ .

فَمَثَلًا يَجْعَلُ لِمنْ يَحْفَظُ القُرآنَ على صَدْرِه حِفْظًا صَحِيْحًا عَشَرَةَ آلافِ أَوْ أَزْيَد أَوْ أَقل حَسَبَ حَالِهِ في الغنَى .

ومِن الأَحَادِيث عُقودَ اللُؤلؤ والمَرجَان فِيْماَ اتّفَقَ عَلَيْهِ الإمَامَانِ البُخَارِي ومُسلم ، يَجْعَلُ لَمِنْ يَحْفَظُ ذَلِكَ سِتَّةَ آلاف (٦٠٠٠) .

فإِنْ عَجزوا عن حِفْظِهَا فالعُمدة في الحديث يَجْعَلُ لِمَنْ حَفظها ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) أَوْ الأربعِيْن النّواوِيَّة ويَجْعَل لمن يَحْفَظُهَا أَلفاً (١٠٠٠) .

ويَجْعَلُ لِمَنْ يَحْفَظُ مُخْتَصَرَ المقنع في الفِقه أَلْفَين (٢٠٠٠) مِن الريالات فالغَيبُ سَبَبٌ لحفظ المسائل وسَبَبٌ لسُرعَةِ اسْتِخْرَاج ما أُريْدَ مِن ذَلِكَ وما أَشَكَلَ مَعْنَاه أَوْ يُدَخّلِهُم فى مَدَارِسِ تَحَفِيْظِ القُرآن في بُيُوتِ الله أو البُيُوتِ المُعَدَّةِ لِذَلِكَ فَمَدَارِسُ تَعْلِيم القُرآنِ وَالسُّنَّةِ هِيَ مَدَارِسُ التّعْلِيْمِ العَالِيْ المْتَازِ البَاقِي النّافِعِ في الدُنْيا والآخرةِ .

فَمَنْ وَفَّقَهُ الله لِذَلِكَ وعَمِلَ أولادُهُ بذَلِكَ كان سَبَباً لحُصُولِ الأجر مِن الله وسَبَباً لِبرّهِم بهِ ودُعَائِهم لَهُ إذَا ذَكَروْاَ ذَلِكَ منه ولَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ سَبَباً مُبَارَكاً يَعْمَلُ بِهِ أَوَلَادُهُ مَعَ أَولادِهم فَيَزِيْدُ الأَجْرُ لَهُ ولَهُم نَسْأَلُ الله أَنْ يُوفّقَ الجَميعَ لِحُسْنِ النّيَةِ إنَّهُ القادِرُ عَلَى ذَلِكَ .

ومن أراد طباعته ابتغاء وجه الله لا يريد به عرضاً من الدنيا فقد أذن له وجزى الله خيراً من طبعه وقفاً أو أعان على طبعه أو تسبب لطبعه وتوزيعه على إخوانه من المسلمين فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » رواه مسلم ، وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومنبله » الحديث رواه أبو داود ، وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » . الحديث رواه مسلم .

تمَّ هذَا الجُزْءُ بِعَوْنِ اللّهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَنسْأَلُ اللّهُ الحَيَّ القَيُّومُ العَلِيُّ العَظِيْمَ ذا الجَلاَلِ والإِكْرَامِ الوَاحِدَ الأَحَدَ الفَرْدَ الصَّمَدَ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كفواً أَحَد أنْ يُعِزَّ الإِسْلاَمَ والمُسْلِمِيْنَ وأنْ يَخْذُلَ الكَفَرَةَ والمُشْرِكِيْنَ وَأَعْوَانَهُمْ وأنْ يُصْلِحَ من في صلاحه صَلاَحٌ للإِسْلاَمِ والمُسْلِمِيْنَ وَيُهْلِكَ منْ في هلاَكِهِ عز وصلاح للإِسْلاَمِ والمُسْلِمِيْنَ وَأَنْ يَلُمَّ شَعَثَ المُسْلِمِيْنَ وَيَجْمَعَ شَمْلَهُمْ وَيُوَحِّدَ كَلِمَتَهُمْ وَأَنْ يَحْفَظَ بِلاَدَهُمْ ويُصْلِحَ أولادَهُمْ وَيَشْفِ مَرْضَاهُمْ وَيُعَافِي مُبْتَلاَهُمْ وَيَرْحَمَ مَوْتَاهُمْ وَيَأْخُذَ بِأَيْدِيْنَا إلى كُلِّ خَيْرٍ وَيَعْصِمَنَا وإِيَّاهم مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَيَحْفَظنا وإِيَّاهم مِن كُلِّ ضُرٍ وأنْ يَغْفِرَ لنا ولوالدينا وجميع المسلمين بِرَحْمَتِهِ إِنَّه أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى الله على محمد وعلى آله وَصَحْبِهِ أجمعين .

والله المسئول أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به نفعاً عاماً إنه سميع قريب مجيب على كل شيء قدير .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين . ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً .**عبد العزيز المحمد السلمان**

فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

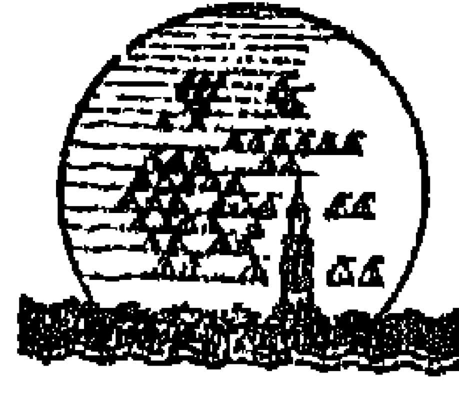
فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

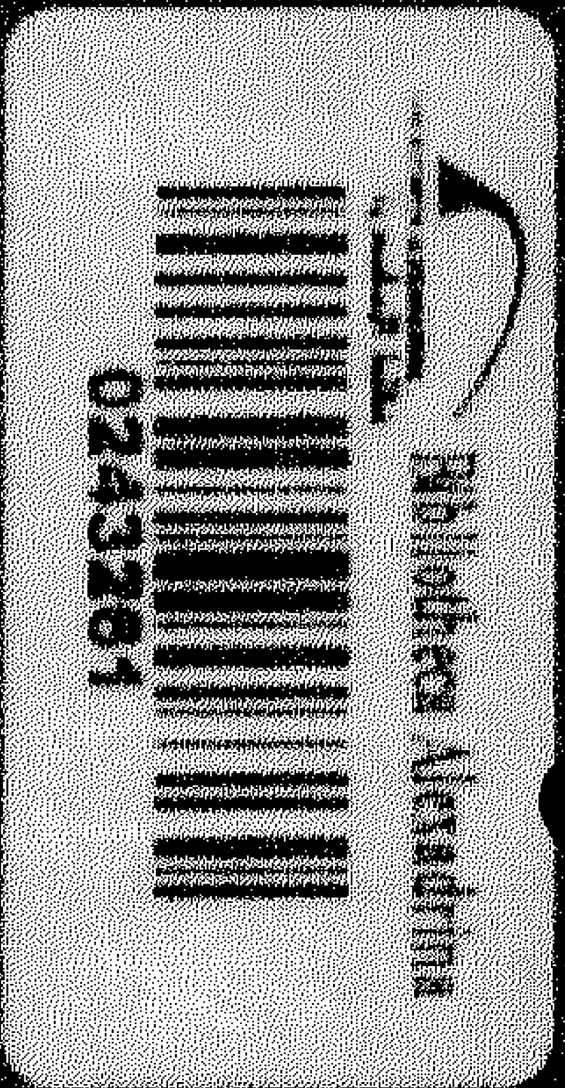
فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن




Bibliotheca Alexandrina
0243261